

# فاحِصَةُ النَّفْسِ

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية  
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية  
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له: معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن الشري  
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان  
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الثالث عشر

من أول سورة الذاريات إلى آخر سورة الصف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ (٥١)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الذاريات) هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والستون في ترتيب النزول، كما ورد عن جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

وسميت بسورة الذاريات؛ لأن هذه الكلمة لم تقع في غيرها من السور، وبعضهم<sup>(١)</sup> يثبت فيها الواو، على حكاية لفظ القرآن، وجمهور المفسرين على حذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وعدد آياتها: ستون آية باتفاق.

وعدد كلماتها: ثلاث مئة وستون كلمة، وعدد حروفها: ألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

والسورة تتحدث عن اليوم الآخر، وعن دلائل القدرة والوحدانية، وعن الوحي والرسالة، وهذه القضايا الثلاث هي عناصر القرآن المكي.

وتبدأ السورة بالقسم بأربعة من القوى الإلهية، من جنود الله تعالى في أرضه، وهي: الرياح، والسُّحُب، والسُّنُن، والملائكة المعبَّر عنها بـ: الذَّارِيَّاتِ، وَالْحَامِلَاتِ، وَالْجَارِيَّاتِ، وَالْمُقَسَّمَاتِ، وهذا القسم على أن البعث والنشور كائن لا محالة.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعَدُوا ﴿٦﴾ ﴾ .

ثم يُقسم الله تبارك وتعالى ثانية بالسماء المحبوبة، ذات الخلق الحسن المتقن على أن المكذبين باليوم الآخر وبالرسول الخاتم، يتخبطون في أقوالهم المنكرة للبعث والرسالة، ثم تذكر السورة مصير كل من المكذبين والمصدقين يوم لقاء الله، وتذكر المؤهلات التي أهلت المتقين للنعيم المقيم.

وتسوق جانباً من الآيات الكونية التي يُستدل بها على وحدانية الله تعالى في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان وإبداع صورته.

وتبيّن السورة أنه ينبغي على العبد أن يتخلص من تعلُّق القلب بالبحث عن الرزق؛ كي

(١) كالبخاري وابن عطية والقرطبي.

يخلص إيمانه بالله تعالى .

وفي مقام الاستدلال على صدق النبوة، تذكّر السورة عددًا من رسل الله تعالى، وتوجز ما حلّ بأمم هؤلاء الرسل، من العذاب والهلاك، فتذكّر طرفًا يسيرًا من قصة كلّ من: إبراهيم، ولوط، وموسى، وما حلّ بقوم نوح، وعاد، وشمود، لَمَّا كذبوا رسل الله .

وتُختَم السورة ببيان الغرض الذي خلق الله الإنس والجن من أجله، وهو أن يتعرفوا على رب الأرض والسماء، فيخصّوه بالعبادة، ويفردوه بالطاعة، ويُخلصوا له التوحيد، ولا يَكُنْ همهم طلب الرزق؛ فإن في هذا رِقًا وأسرًا للقلوب، وعليهم أن يتخلصوا من هذا الرقِّ والأسر، فقد ضَمِنَ الله رزقهم، وتكفَّلَ به وهم في بطون أمهاتهم، وبعد طرق الأسباب لا يأتيهم منه إلا ما قُدِّرَ لهم، وشدة الحرص عليه تضر ولا تنفع .

ويلحظ القارئ أن في هذه السورة ثلاثة مقاطع:

**فالمقطع الأول:** من أولها إلى الآية الثالثة والعشرين منها، وهذا المقطع يتضمن القسم خمس مرات على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال حق وصدق، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وأن أقوال الناس في ذلك مضطربة، ولا يُصرف عن هذا الوحي المنزل إلا من حُرْم السعادة، وصرّف عن الهداية، من كل مُكذّب بالقرآن والدار الآخرة، وهم لن يفيقوا من غفلتهم إلا حين يُعرضون على النار، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فَنَتَكَّرَ﴾ . . . .

أما المتّقون الذين يقومون الليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون ببعض أموالهم، فهم في دار الكرامة والنعيم، يُنعمون بما آتاهم ربهم ونجّاهم من عذاب السموم .

ويلفت السياق أنظار الخلق إلى دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، فهو مقطع يشتمل على عناصر القرآن المكي الثلاثة، ففي الآيات من ١-١٤ حديث عن يوم القيامة ونعيم المتقين، وفي الآيات من ١٥-٢٣ بعض دلائل التوحيد، والذي أخبرنا بهذا هو الوحي المنزل على محمد ﷺ .

**أما المقطع الثاني:** فهو من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السادسة والأربعين، وقد اشتمل هذا المقطع على إشارات وجيزة إلى ستة من رسل الله تعالى، اقتصر فيها

السورة على بيان العبرة المستفادة من هلاك كل أمة من هذه الأمم بما يناسب المقام من قِصر السورة وما يراد منها، وكونها من المفصل.

أما المقطع الثالث والأخير: فهو من الآية السابعة والأربعين إلى نهاية السورة، وهو يعود على ما بدأت به السورة لدعم دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، ووجوب الفرار إلى الله تعالى بتوحيده ونبذ الشرك وأهله، وأنه تعالى قد خلق الخلق لعبادته، وفيه تنفيذ مزاعم مَنْ وَصَفَ الرسول ﷺ بالسحر أو الجنون...، وبيان ما ينتظر المكذبين بالله ورسوله من نصيبهم في العذاب الأخروي، كما استحقَّه مَنْ سبق ذُكرهم في السورة من الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى.

فهذا المقطع والمقطع الأول يدوران في فلك واحد هو مقصود السورة، من التركيز على جانب التوحيد واليوم الآخر والإيمان بخاتم المرسلين، والمقطع الذي بينهما فيه الأمثلة الحية ووسائل الإيضاح المفسرة لمصير من مات على كفره وشركه بالله تعالى ولم يتبع ما جاء به محمد ﷺ.



## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

**خَمْسَةٌ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ الْقِيَامَةَ حَقٌّ وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ**

٤-١ - ﴿وَالذَّارِبِ ذَرًا﴾ ① ﴿فَالْحَمَلِ وَقرًا﴾ ② ﴿فَالْجَرِيدِ يُسرًا﴾ ③ ﴿فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا﴾ ④

الريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله، وجند من جنوده، يجعلها سبحانه أداة لتنفيذ قدرته ومشيئته، والله تعالى يوجه أنظار عباده إليها للتأمل في دلائل التوحيد، فيقسم بها تعظيمًا لشأنها، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله تعالى، والمقسم عليه هو أن ما وعدنا الله به من البعث والحساب والجزاء، آتٍ لا محالة، ولا شك في صدقه ووقوعه.

ويرى بعضهم أن هذه الصفات الأربع تتعلق بالرياح فقط، فهي تنشئ السحاب، وهي تحمل بخار المياه التي تجري فيها السفن، والملائكة تقسم الأمطار على الأقطار بحمل الريح لها<sup>(٢)</sup>.

وقد أقسم سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات العظيمة على أن وعده حق، وأن يوم الحساب والجزاء واقع لا محالة، وإذا كان الله تعالى قد أقسم على أنه حق وصدق فإن التكذيب به في غاية القبح والشناعة!!

**أثر ابن الكوّاء:**

ومع وجاهة هذا المعنى، إلا أن المعنى الأول ورد عن عليّ ؑ، فقد قيل إنه ؑ صعد منبر الكوفة، فقال: سلوني قبل ألا تسألوني، ولا تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوّاء الأعور، وقال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿وَالذَّارِبِ ذَرًا﴾ ①؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿فَالْحَمَلِ وَقرًا﴾ ②؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿فَالْجَرِيدِ يُسرًا﴾ ③؟ قال: السفن، قال: فما ﴿فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا﴾ ④؟ قال: الملائكة، ولا تعدّ لمثل هذا، ولا تسألني عن مثل

(١) قرأ أبو جعفر بضم السين من (يسرا)، والباقون بإسكانها.

(٢) يُنظَرُ هذا المعنى في «تفسير الفخر الرازي» (٦٢٨/٧) وبه قال الزمخشري في «الكشاف» وآخرون.



هذا، قال: فما ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾؟ قال: دارُ الخلقِ الحسنِ.

قال: فما السواد الذي في حرف القمر؟ قال: أعمى يسأل عن عمياء، ما العلمُ أردت بهذا؟ ويحك، سلْ تفقَّهها، ولا تسأل تعثتًا، سلْ عمًّا يَعْنِيكَ، ودع ما لا يَعْنِيكَ، قال: فوالله إن هذا ليعنيني، قال: إن الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ فَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] السواد الذي في حرف القمر.

قال: فما المجرَّة؟ قال: شرح السماء، ومنها فُتحت السماء بماء منهمر، زمن الغرق على قوم نوح.

قال: فما قوس قُرح؟ قال: لا تقل قوس قُرح، فإن قُرح: الشيطان، ولكنه القوس، وهي أمانة من الغرق.

قال: فكم بين السماء إلى الأرض؟ قال: قدر دعوة عبدٍ دعا الله، لا أقول غير ذلك.

قال: فكم ما بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس، مَنْ حَدَّثَكَ غير ذلك فقد كَذَبَ.

قال: فمن الذين قال الله تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]؟ قال: دعهم، فقد كُفيتهم.

قال: فما ذو القرنين؟ قال: رجل بعثه الله إلى قوم كفره، أهل كتاب، كان أوائلهم على حق، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، فأحدثوا على أنفسهم، فهم اليوم يجتهدون في الباطل، يحسبون أنهم على حق، ويجتهدون في الضلال، ويحسبون أنهم على هدى، فضلٌ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

قال: فرفع صوته وقال: وما أهل النهروان غداً منهم ببعيد، قال: فقال ابن الكواء: والله لا أسأل سواك، ولا أتبع غيرك، قال: فقال: إن كان الأمر إليك فافعل<sup>(١)</sup>.

هذا: وقد كان العرب يعتقدون أن الأيمان الكاذبة، تجعل الديار بلاقع، أي: خرائب، وأنها تضرُّ صاحبها - على حدِّ زعمهم - وكان النبي ﷺ يُكثر من الحلف ولم يُصَب

(١) يُنظَر: «المستدرک» (٤٦٦/٢) مختصرًا، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ويُنظَر مطوَّلًا في «المختارة» للضياء المقدسي برقم (٤٩٤) ورقم (٥٥٦) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره برقم (٢٩٧٠) ط قلعجي، قال ابن كثير: وثبت ذلك من غير وجه (٤١٣/٧) وهو عند الطبري (١١٥/٢٦) والله أعلم بصحته.

بسوء، فكان هذا دليلاً على صدقه ورفع شأنه، ولعل هذا الاعتقاد عند العرب هو بعض السر في قسم الله تعالى ببعض مخلوقاته، حيث كانوا يعتقدون أن النبي ﷺ رجل قوي الحجة، غالب في المجادلة وإقامة الدليل، فأقسم لهم القرآن على لسان النبي ﷺ بكل شريف ليعلموا صدقه ﷺ فيما يأتيهم به من عند الله تعالى.

والسور التي بُدئت بالقسم بغير الحروف المقطعة، يكون المقسم عليه فيها واحداً من ثلاثة: التوحيد، أو الرسالة، أو البعث، وهذه الثلاثة هي أصول الدين العامة، وهي موضوع السور المكية.

### اختصاصات القسم في أوائل السور:

١- وقد اختصت سورة الصافات بأن القسم في أولها كان على التوحيد: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات].

٢- وفي سورتي النجم والضحى أقسم سبحانه في مطلعهما على صدق الرسول ﷺ: قال تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم]، وقال سبحانه: ﴿مَا دَعَاكَ رَبُّكَ وَمَا لَكَ﴾ [الضحى].

٣- والقسم في بقية السور على البعث والحساب والجزاء.

وهذه السورة من بين السور المقسم فيها على البعث والنشور ﴿وَالذَّارِبَاتِ ذَرَوًا﴾ [١]. والمعنى: أقسم سبحانه وتعالى - أولاً - بالرياح المثيرات للتراب فتفرقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان، وتحمل حبوب اللقاح والغبار والسحب وغيرها، فتسوقها بلين ولطف وقوة وإزعاج، وتوزعها هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

والرياح نعمة كبرى، ولو أننا حرمانا الهواء لمتنا واختنقنا.

إن تيارات الهواء تصعد وتهبط فوق ظهر الأرض، ثم تهب الرياح، فتذهب بها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وقد يذهب ما يخرج من الرتين من الهواء إلى شخص آخر في شرق الأرض أو غربها، ولا يعلم ذلك إلا الله وحده.

ثم أقسم - ثانيًا - بالسحب، وهي تحمل قدرًا عظيمًا من الماء فتسير به إلى حيث أراد الله تعالى، ﴿فَالْحَدِيثِ﴾ وهي السحب ﴿وَقَرَأَ﴾ أي: وهي محملة بالماء الذي فيه حياة الإنسان والحيوان والطير والنبات.

إن الهواء الخفيف الرقيق يحمل أثقالاً من المياه التي تجري في الأنهار والبحار، فهو يحمل السحب التي ينزل منها المطر، ويتكوّن منه أنهار الأرض لنفع العباد والبلاد، ولا عجب في هذا فإن إطارات السيارات تُعبأً بالهواء لتحمل أثقالاً من البشر أو البضائع والأمتعة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِكَلِّهِمْ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وأقسم سبحانه -ثالثًا- بالسفن التي تجري في البحار بسهولة ويسر ﴿فَالْبَحْرِينِ﴾ وهي السفن تجري في المياه جريًا سهلاً، فتنقل الناس وتنقل أمتعتهم، وتحمل الأساطيل الحربية، وحاملات الطائرات والصواريخ وغيرها، من بلد إلى بلد.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن].

وفسر بعضهم<sup>(١)</sup> الجاريات بالنجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماء، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويُعتبر بها. والأولى تفسيرها بالسفن كما جاء في أثر ابن الكواء.

ثم أقسم جلّ شأنه - رابعًا - بالملائكة، وهي تقسم أمر الله تعالى في خلقه وتدبره بأمره عزّ وجلّ، ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ﴾ أي: الملائكة وهي تقسم الأرزاق والأمطار والأعمار وغير ذلك بين العباد بأمر الله تعالى، وكل ملك مخصص بأمر من الأمور:

فجبريل صاحب الوحي إلى رسل الله، وميكائيل صاحب الأرزاق والأمطار والرحمة، وإسرافيل صاحب النفخ في الصور، وملك الموت صاحب قبض الأرواح، وهناك حملة

(١) كالشيخ ابن سعدي في تفسيره للآيات.

العرش والكرسي، والحفظة والمعقبات، ومن يطوفون حول البيت المعمور... إلخ، وهكذا جعل الله كُلاً من الملائكة على تدبير أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له ولا يُنقص عنه.

## جَوَابُ الْقَسَمِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْبَعِ

٥، ٦- ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوا ﴿٦﴾﴾

أي: إن الذي وعدكم الله به -أيها الناس- من البعث والحساب، لكائن حقاً وصدقاً ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ﴾ أي: الجزاء على الأقوال والأفعال بالثواب والعقاب ﴿لَوْعُوا﴾ أي: كائن لا محالة.

وتسمية يوم القيامة بيوم الدين، جاء كثيراً في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة] أي: اليوم الذي يُدان فيه العباد، ويُجزون على أعمالهم، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي: جزاءهم الحق، وقوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿أَرْءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴿٦﴾﴾ [الماعون] أي: بالحساب والجزاء.

ومنه ما جاء في الأثر: (كما تدين تدان)<sup>(١)</sup>، أي: كما تعمل تُجزى.

## الْقَسَمُ عَلَى تَنَاقُضِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ وَالْبُعْثِ:

٧-٩- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُوكِ ﴿٩﴾﴾

ثم أقسم ﷻ قسماً - خامساً - بالسماء ذات الخلق الحسن المتقن المستوي، فهي المزيّنة بالمصابيح، والمحبوكة بالنجوم، ذات الطرق المتعددة لصعود الملائكة وهبوطها ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾﴾ فهي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران حين يحركها النسيم، وقد فسّرت ﴿الْحُبُوبِ﴾ بمعانٍ يمكن الجمع بينها على نحو ما ذكرت فيما سبق، وهذه المعاني هي:

أولاً: ذات الخلق الحسن المحكم المتقن المستوي.

ثانياً: ذات الزينة والنجوم.

ثالثاً: ذات الطرائق الحسنة المتعددة.

(١) يُروى عن أبي قلابة، قال الألباني: ضعيف، السلسلة الضعيفة برقم (٢٣٦٩).

والسماء توصف بهذا كله، فهي أوصاف يكمل بعضها بعضاً.

وجواب القسم: ﴿إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ إنكم - أيها المكذبون بمحمد ﷺ - وباليوم الآخر - لفي قول مضطرب متناقض، يخالف بعضه بعضاً، في أمر البعث، وفي صدق القرآن، وفي شأن خاتم الرسل، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف.

فقد قالوا عن القرآن أقوالاً متناقضة، قالوا: إنه سحر، وشعر، وكهانة.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥].

وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِذٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٧].

وقالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتَمَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْٓ أَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وقالوا عن الرسول ﷺ: إنه شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون.

وقالوا: يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

وقالوا عن البعث والنشور: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون].

وقالوا عنه أيضاً: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوْنًا لِّمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقالوا: ﴿هَلْ نَدْرِكُ عَلَىٰ رَجُلٍ نَّبْتَكُمُ إِذَا مُرِقَّتْ كُلُّ مُرْقَةٍ لِّكُم لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ أفترئ

على الله كذباً أم به جنة؟ [سبأ: ٧، ٨] وهكذا. فهم في حيرة واضطراب وتردد.

ثم بين ﷺ أنه قد صُرف عن الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، وصُرف عن هذا القرآن وما فيه من هدى ونور، وصُرف عن الإيمان بصاحب الرسالة العالمية، من صُرف عن اتباع الحق، فحُرم الهداية وأسباب السعادة؛ لأنه أثر الغي على الرشد، والضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان، فانصرف عن أدلة التوحيد وبراهينه اليقينية، فلم يوفَّق للخير ﴿يُؤْفَكُ﴾ أي: يصرف عن الإيمان ويصرف عن كتاب الله تعالى ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من غلبت عليه شقاوته فصُرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه القطعية لانحراف الفطرة عنده، وقد علم الله منه ذلك قبل أن يكون بشراً سوياً مكلفاً.

وهذا الاختلاف دليل على فساد أقوالهم وبطلانها، وكون الحق واحداً لا اختلاف فيه

ولا تناقض، دليل على صدقه وصحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]

### عُقُوبَةُ الْمُكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ وَبِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٠-١٤ - ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ ﴿١٢﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم لعن الله تعالى كل من كذب بالبعث أو بالقرآن أو بخاتم الرسل، أو كذب بالجميع فقال تعالى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لعن الكذّابون، وهذا دعاء على أصحاب القول المختلف بالهلاك والطرده من رحمة الله تعالى.

وإذا جاء لفظ: ﴿قِيلَ﴾ في القرآن فهو بمعنى: اللعنة؛ لأن من لعنه الله تعالى فهو بمنزلة المقتول الهالك<sup>(١)</sup>.

والخرص في القول: هو الظن والتخمين الذي لا حجة فيه ولا دليل عليه، وهو غير الخارص الذي يخرص النخلة ليقدر ما عليها من ثمر، فإن ذلك الخرص للنخيل جائز في المعاملات وبيع السلم.

والمعنى: قاتل الله الذين كذبوا على الله وجحدوا آياته، فأنكروا البعث والنشور، وكذبوا خاتم النبيين، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ثم وصف الله الظانين غير الحق - وهم الخرّاصون - بأنهم في جهالة تغمر قلوبهم فتسترها وتغطيها عن التأمل والفكر الصائب، وأنهم في غفلة تامة عما ينفعهم، وكأنهم لا يحسون بشيء مما حولهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو﴾ أي: في لُجّة من الجهل والكفر والضلالة ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الدار الآخرة.

فالسهو: الغفلة عن الشيء مع ذهاب القلب عنه، والمراد به في الآية: الغفلة عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

ومن صفات المكذبين بالله واليوم الآخر، الظانين بالله غير الحق، أنهم يسألون سؤال

(١) قاله ابن الأنباري كما في «زاد المسير» لابن الجوزي (٨/٣٠).

تهكم وتكذيب، واستخفاف واستبعاد: متى يوم الحساب والجزاء الذي تقولون عنه؟ ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: متى يقع يوم الحساب والجزاء؟ ومتى يحلُّ؟ وهم يعنون أنه لا وقوع له، وأنه أمر مستبعد كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ]

فلا تسأل عن حال هؤلاء المكذبين، فإن مآلهم إلى النار يعذبون فيها، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أي: إن يوم الدين هو اليوم الذي تدخلون فيه النار -أيها الخراصون- وتصلون حرَّها ولهبها، فهذا هو يوم البعث والحساب والجزاء، فالمراد بقوله تعالى: ﴿يُقْتَنُونَ﴾ يُعَذَّبُونَ وَيُحْرَقُونَ.

ويقال لهم ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذوقوا العذاب والنار، وهو أثر فتنتكم، بسبب الكفر والضلال الذي سلكتم طريقه في دنياه.

وأصل الفتن: مأخوذ من قولهم: فتنَّ الذهب بالنار، بمعنى: أذنبته لتظهر جودته من عدمها.

أي: ويوم يُعرض المكذبون على النار، تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا العذاب المعدَّ لكم، فهذا جزاء كفركم وتكذيبكم، ويقال لهم: هذا عذابكم الذي كنتم تستعجلونه وأنتم في الدنيا قائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

فالآن تمتعوا به في السلاسل والأغلال والسخط والوبال..

## نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمُ الْخَمْسُ

١٥- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١)

وبعد أن ذكرت الآيات مصير أهل الشقاء، الجاحدين لوحداية الله تعالى، والمكذبين بخاتم الرسل، وكتابه الخالد إلى يوم الدين، شرَّعت الآيات في بيان مصير أهل السعادة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين خافوا ربهم، مع أنهم لم يروه، فوقفوا عند حدوده، وأقاموا الفرائض، وأكثروا من النوافل، وابتعدوا عن المحرمات، وتركوا الشبهات والمكروهات ورعاً ورغبةً فيما عند الله، هؤلاء المتقون في حداق وبساتين،

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عيون)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وعيون تجري فيها المياه الصافية، فهم يرون هذه الأنهار، ويتمتعون بها، ويأكلون من ثمار الجنة ويشربون من عيونها.

وقد وصف الله المتقين في هذه السورة بخمسة أوصاف:

### الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ:

أي إنهم ينعمون في حدائق وبساتين وأشجار وثمار وفواكه، لها نظير في الدنيا أو ليس لها نظير: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] أي في الدنيا قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِ مُتَشَبِهَاتٍ﴾ يشبه بعضه في الشكل ولكنه يختلف في طعمه ومذاقه، وفي هذه البساتين عيون سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب منها عباد الله، يفجرونها تفجيرا، يجدون فيها عين النسيم، وعين السلسيل، وعين الكافور.

### الْوَصْفُ الثَّانِي: الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

١٦- ﴿أَخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

هذا إشارة إلى ثوابهم على إحسانهم في الدنيا، فقد أعطى الله أهل الجنة جميع ما يتمنونه من أصناف النعيم في الآخرة، فأخذوه وهم راضون به، فرحون بما أعطاهم الله من فضله، قد قرّت به أعينهم في دار الكرامة، وفرحت به نفوسهم، فلم يطلبوا له بدلا، ولا يريدون عنه حولا.

فالمعنى: أنّ أهل الجنة يُحَصِّلُونَ نعم الله تعالى التي أعطاهم إياها، من جنته ورضوانه، فهم ﴿أَخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا النعيم في دار الكرامة جزاء لهم على إحسانهم في الدنيا بفعل الطاعات وترك المنهيات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾. فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس.

قد تلقوا أوامر الله تعالى ونواهيه بالانقياد وانسراح الصدر في الدنيا، فكافأهم الله بالإحسان إحسانا، وكما قيل للمشركين: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ فإن المتقين:

١- في جنات. ٢- وفي عيون.

٣- آخذين ما آتاهم ربهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر،



قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف].

وقال جلَّ شأنه في وصف الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»<sup>(١)</sup>.

### الْوَصْفُ الثَّلَاثُ: أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ عَلَى الطَّاعَاتِ لَا عَلَى الْمُعَاصِي:

١٧- ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [٧]

كان هؤلاء المحسنون - وهم في الدنيا - قليلاً ما ينامون في الليل، فهم يصلون لربهم قانتين له، كما قال تعالى: ﴿فَرُّ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٢] يَصْفَهُ: أَوْ انْقَضَتْ مِنْهُ قَلِيلًا [٣] أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا [٤] [المزمل].

قال سبحانه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩].

لقد أحسنوا في عبادتهم لربهم وأخلصوا له، وتواطأ القلب واللسان على طاعة الله تعالى في جوف الليل وهم ساجداً وقائماً، ينامون قليلاً ويصلون كثيراً، فهم قانتون لربهم، ما بين: صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع وخشوع وإنابة، فكانوا أهلاً لهذا النعيم المقيم. وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه بذلك، ولا ينسون حق أنفسهم ولا حق أهلهم، كما في

(١) «صحيح البخاري» (٧٥١٨، ٦٥٤٩) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار»؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: «فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك، ونفثت نفسك، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فضم وأفطر، وقم ونم»<sup>(١)</sup>.  
وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].  
والهجوم: هو النوم القليل ليلاً، فهم ينامون قليلاً من الليل، ويصلون أكثره.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أطمعوا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفسوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوئنا بعيداً، وإذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون.  
وعرضت عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم، يُكذبون بكتاب الله، ويرسل الله، يُكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ<sup>(٤)</sup>.  
فاشترط بعضهم أن يكون التهجد بعد نوم، ولو نومًا خفيفًا.

(١) «صحيح مسلم» (١١٥٩) و«صحيح البخاري» (١١٥٣) وهذا لفظه.

(٢) «المسند» (٤٥١/٥) برقم (٢٣٧٨٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، نحوه، (محققوه) وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه برقم (١٣٣٤) والحاكم (١٣/٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/٥٣١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٧، ٢٦٣٠) بإسناد صحيح.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٧).

وصحَّ عن أنس رضي الله عنه في معنى الآية: أنهم يصلون بين المغرب والعشاء<sup>(١)</sup>.

## الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ:

١٨ - ﴿وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

أي: إنهم كانوا يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وهم في صلاتهم وقت السحر، قبيل الفجر، في السادس الأخير من الليل، فهم مع إحسانهم يعُدُّون أنفسهم مذنبين مقصِّرين، فيكثرون من الاستغفار بالأسحار، وهم يتعجدون ويجهدون في الإكثار من الصلاة ومن العمل الصالح، وحين يهجعون في ليلهم يشتغلون بعبادة أخرى هي الاستغفار، وخصَّ وقت السحر؛ لأن النوم يغلب فيه، فالصلاة والاستغفار فيه أعجب من بقية الليل.

فهم يُصلُّون لله متعجدين، ثم يستغفرون الله تعالى: استغفار المذنب المقصِّر.

وقد وصف الله عباده الصالحين بقوله: ﴿وَالسُّغْفِرِ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

بما يشير إلى أن الاستغفار في وقت السحر له فضيلة وخاصة ليست لغيره.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُوتُ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان].

ووقت السحر مظنة قبول الإجابة:

١ - صحَّ عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث إثبات صفة النزول لله تعالى على وجه يليق بجلاله تعالى من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

٢ - وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتعجد قال: «اللهم لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد،

(١) كما في «صحيح سنن أبي داود» (١١٧٤) وعبد الرزاق في التفسير (٢٩٧٩) وصححه الحاكم والذهبي (٤٦٧/٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٥٨) و«صحيح البخاري» (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) وغيرهما.

أنت مَلِكُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت.

فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت».

زاد في رواية: «أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك»<sup>(١)</sup>.

وزاد النسائي: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

٣- وفي البخاري: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استُجيب له، فإن تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»<sup>(٢)</sup> يقال: تعارَّ الرجل من نومه: إذا انتبه وله صوت.

## الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ

### ١٩- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾

أي: حق واجب، هو الزكاة المفروضة بشكل عام، غير محددة المقدار ولا النصاب؛ لأن أصل الزكاة قد فرض بمكة، وحُدِّثت مقاديرها وأنصبت في السنة الثانية من الهجرة، وفي أموال الأغنياء أيضاً حق مستحب على وجه التطوع ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ المحتاج الذي يسأل الناس الصدقة.

وفي حديث الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «للسائل حق وإن جاء على فرس»<sup>(٣)</sup>

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٠)، وانظر: (٦٣١٧، ٧٣٨٥) و«صحيح مسلم» (٧٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٥٤).

(٣) «المسند» (٢٠١/١) برقم (١٧٣٠) بإسناد ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحيى (محققوه) و(سنن أبي داود) برقم (١٦٦٥) وابن أبي حاتم (١٥٥٦) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦٤، ٣٦٥) وأخرجه ابن عدي في «الكامل» عن أبي هريرة (١٨٧٨/٥). وضعفه لأن فيه يعلى بن أبي يحيى، لكن له شواهد.

وفي المال حق سوى الزكاة<sup>(١)</sup>، يصل به رحمًا، أو يقري به ضيفًا، أو يعين به محرومًا . . .

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ هو المحتاج الذي لا مال له، ولكنه لا يسأل الناس حياءً وتعففًا، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيئَتِهِمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقروا إن شئتم: ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي لفظ: «ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»<sup>(٣)</sup>.

وذكر لفظ: ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ لترقيق النفوس، وحث الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج].  
والحق المعلوم هو الزكاة، وغير المعلوم هو الصدقة.

وقد تضمنت هذه الآية والتي قبلها: إصلاح النفس بقيام الليل والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، وفي ذلك تزكية للنفس بالأقوال والأفعال، وتطهير لها في الظاهر والباطن.

كما تضمنت الآيتان: إصلاح الناس بسد حاجات المحتاجين منهم، ونفع المحروم المتعفف عن إظهار حاجته، الصابر على شدة احتياجه.

والسائل: هو الذي يُظهر فقره بسؤال الناس.

والمحروم: هو المتعفف عن السؤال فيحرم نتيجة تعففه، إلا لمن هو مطلع على حاله.

(١) جاء هذا في الترمذي عن فاطمة بنت قيس، ضعّفه الألباني برقم (٦٥٩) وهو في سنن الدار قطني رقم ٣ ج ٢ ص ١٠٧.

(٢) من طريق شريك بن عبد الله، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة عند البخاري برقم (٤٥٣٩) ومسلم برقم (١٠٣٩).

(٣) «تفسير الطبري»: (١٢٥/٢٦). وهو عن أبي هريرة في صحيح البخاري (١٤٠٩) وفي الموطأ وأحمد وأبي داود والنسائي كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٨٤).

## ثَلَاثَةٌ مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: الْأَرْضُ وَالنَّفْسُ وَالسَّمَاءُ

٢٠، ٢١- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم ساق سبحانه ثلاثة من أدلة التوحيد في الكون: في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء، داعيًا عباده إلى التفكير فيها والاعتبار، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ عبر ودلائل واضحة على قدرة خالقها، في صنوف النبات، والحيوان، والجبال، والقفار، والبحار، والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والأفهام، والسعادة والشقاء، وما في تركيبهم من الخلق البديع<sup>(١)</sup>.

والتأمل في الأرض، يشمل الأرض نفسها وما فيها من جبال وبحار وأشجار ونبات وغير ذلك، فكلها تدل على عظمة الخالق سبحانه، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

وفي دلائل كيفية خلق الأرض ودخوها، وتسخيرها للإنسان والحيوان، وكيف قُسمت الأرض إلى سهول وجبال وبحار، وكيف أنبت الزرع والشجر، وما يخرج منها من منافع للناس، آياتٌ وعبرٌ ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ الذين ينتفعون بدلالاتها، فتكسبهم اليقين بوقوع البعث والنشور، وغير الموقنين لا ينتفعون بهذه الآيات.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات عجيبة في بواطن أحوال الإنسان وأطوارها، وأعجبها خلق العقل، وخلق النطق، وخلق الحواس، والدورة الدموية، واتساق الأعضاء، وتسوية المفاصل والعضلات والشرابين، وخلق الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة، ثم خلقها عظمًا، وكشوة العظم باللحم، ومن ثم إلى نفخ الروح فيه، واختلاف الألسنة، والصور والألوان والطبائع، وما يخرج من السيلين، والسمع والبصر، وما إلى ذلك.

إن جسم الإنسان خلق بالغ التعقيد، سبحان من خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره.

ومع ذلك فإن الإنسان المغرور المفتون يجلس على أريكته، ويقول: لا إله، والحياة مادة! فإذا كانت الحياة مادة فَمَنْ بناها وضبطها ووضع لها نظامها؟ أفلا تتفكرون - أيها

(١) «تفسير ابن كثير» (٤١٩/٧).

الناس - في خلق أنفسكم؟ كيف أنشأكم الله من ماء؟ وكيف خلقكم أطوارًا، وفي كل طور أوجد خلقًا لم يكن موجودًا من قبل؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فتتعظون وتعتبرون، وتؤمنون بالبعث بعد الموت؟ وتستدلون بذلك على أن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، وأنه لم يخلق الخلق سُدى، بل خلقهم لحكمة عظيمة وغاية بالغة الأهمية.

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنَتْ مفاصله للعبادة.

## لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوِيَّ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا

٢٢، ٢٣ - ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ (١) مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾

آية التوحيد الثالثة هي خلق السماء وجعلها مصدر للرزق الديني والديني. ومع أن الله تعالى خلق أسباب الرزق في الأرض، وربط الأسباب بالمسببات، وأوجب على العبد أن يكفَّ ويكده، إلا أن الله تعالى ربط العبد بالسماء في طلبه للرزق، ليتجاوز المرء أسباب الرزق الظاهرة في الأرض، ويتطلع إلى السماء مع بذل السبب حيث الرزق المقسوم، والخط المرسوم.

وليس المقصود عدم طرُق أبواب الرزق، وعدم الأخذ بالأسباب، إنما المقصود أن يعمل الإنسان في الأرض، ويجتهد في تحصيل رزقه، وهو يتطلع إلى السماء موقنًا برزقه المقدر، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وأن الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من الخير والشر، والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب ومقدر.

أي: جعل الله في السماء مادة رزقكم من الأمطار وحنوف الخيرات والأقدار، وهذا الرزق منه ما هو رزق دنيوي يتعلق بالمعاش والأقوات وسائر الأرزاق، ومنه ما هو رزق ديني كالهدي والتشريع الذي يأتي عن طريق الوحي، فهو رزق دنيوي وأخروي، أشار إليه قوله تعالى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي من الأمور المقدره والثواب والعقاب عليها، وقد أقسم ربنا على أن الرزق مضمون.

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف برفع لام (مثل) صفة (لحَقٌّ)، وقرأ الباقون بنصبها حالًا من الضمير المستتر في (لحَقٌّ).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣].

قال الأصمعي: أقبلت من جانب البصرة، فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: ائتل عليّ، فتلوت ﴿وَالَّذَرِيَّتِ﴾ فلما بلغت ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يُوعَدُونَ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته، فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولّى! فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية، صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ﴾ [١٣] فصاح وقال: يا سبحان الله، من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوا بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين! قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسهُ (١).

ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة على صحة هذا الخبر، وأن ما وعدهم الله به من ضمان الرزق، ومن البعث والنشور، ومن الحساب والجزاء حق لا ريب فيه، فلا تشكوا فيه، كما لا تشكون فيما تنطقون به من كلام يخرج من أفواهكم، فهو أمر يقيني وفي غاية الوضوح، وكما أن النطق لا يفارق الإنسان في حال من الأحوال فكذلك رزقه، وكما أنكم لا تشكون في نطقكم، فلا ينبغي أن تشكوا في البعث بعد الموت. وفي الأثر: لو أن أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت (٢).

## قِصَّةُ صَيْفِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ وَالِاعْتِبَارُ بِمَا حَدَّثَ لِقَوْمِ لُوطٍ

٢٤ - ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٣) الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤]

في هذا انتقال من المواعظ ودلائل التوحيد إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، حيث تأتي إشارات يسيرة إلى ست قصص من قصص الرسل والأمم، وهم: إبراهيم، ولوط،

(١) ذكرها «تفسير الكشاف» و«تفسير النسفي» وغيرهما عند تفسير هذه الآية، وفيها موعظة بليغة.

(٢) «تفسير القرطبي» (٤٣/١٧).

(٣) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم)، والباقون (إبراهيم).



وموسى، وعاد قوم هود، وشمود قوم صالح، وقوم نوح.

وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام توطئة لبيان ما حلّ بقوم لوط عليه السلام حين كذبوا رسولهم.

وضيوف إبراهيم كانوا: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وأتباع لهم من الملائكة، وكانت لإبراهيم أموال كثيرة من البقر، وكان مضيافاً، فكان يطوي بطنه حتى يأتيه ضيف، وقد أوقف إبراهيم للضيوف أوقافاً، صارت سنةً في الناس من بعده على اختلاف أجناسهم وشرائعهم.

وترتيب القصص هنا على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في البدء بقصة نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط ليعتبر المشركون الذين هم في غمرة ساهون بما حلّ بالأمم الماضية.

وقد بدأت قصة ضيف إبراهيم عليه السلام بأسلوب التشويق والتفخيم، بمعنى: هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم المعظمين من الملائكة الكرام الذين وفدوا عليه في صورة رجال من بني آدم؟

وقدوم الملائكة لإهلاك قوم لوط بدأ بالحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين، وهو حديث يكشف عن سوء فهم أهل الكتاب للألوهية، وتأثر عقولهم بالفكر الوثني!

لقد كان ضيوف إبراهيم عدداً من الملائكة، جاؤوا له بأبناء سارة، منها أن الله تعالى سيرزقه بغلام عليم، ومنها أنهم أخبروه أن الله تعالى سيدمّر القرى النجسة التي عجز لوط عليه السلام عن إصلاحها.

لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر، فذكر أن الله تعالى هو الذي تناول الغداء مع إبراهيم، وأن إبراهيم قدّم لرب العالمين مائدة فاخرة، عليها عجل مشوي وخبز، وأن الله تعالى أكل حتى امتلأ!! هذا ما ذكره الكتاب المقدس مما حرّفته أيديهم.

أما القرآن المتّهم عند أهل الكتاب، فقد تنزّه عن هذا الكلام جملة وتفصيلاً<sup>(١)</sup>.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٤١١، وانظر: سفر التكوين.

﴿هَلْ أُنثِيَ حَيْثُ صَيَّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هل وصل إلى سمعك -يا محمد- خبر ضيوف إبراهيم الذين أكرمهم الله -وكانوا من الملائكة الكرام- وقد جاؤوا إليه في صورة رجال حسان؟ نحن نقص عليك قصتهم بالحق الذي لا تشوبه شائبة من باطل، ولم تصل إليه أيدي التحريف والتغيير والتبديل.

والضيوف هم الملائكة الذين أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام، فأخبروه بأنهم مرسلون من الله تعالى لتنفيذ العذاب في قوم لوط، وسماهم الله ضيفاً؛ لأنهم جاؤوا في هيئة الضيف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: إنهم كانوا اثني عشر ملكاً<sup>(١)</sup> وقد أكرمهم الله تعالى برفع الدرجة عنده؛ لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وهكذا: فإن الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط، أمرهم بالمرور على إبراهيم ليسروه بغلام عليهم مع كبيره وعقم امرأته، فجاؤوا إليه في صورة ضيوف قال تعالى:

٢٥- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ﴾<sup>(٢)</sup> قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٥﴾

هل بلغك -أيها الرسول- حديث الملائكة حين دخلوا على إبراهيم في بيته، فحيّوه قائلين له: سلاماً، أي: نسلم عليك سلاماً، فردّ عليهم التحية ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ عليكم ﴿قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: أنتم قوم غرباء لا نعرفكم، فمن أنتم؟ أحب أن تُعرفوني بأنفسكم؟ وقد أنكروهم إبراهيم؛ لأنهم قدموا عليه في صورة شباب حسان، عليهم مهابة عظيمة.

ولعل إبراهيم قال ذلك في نفسه، أو قاله لمن كان معه من غلمان وأتباعه، ولم يخاطبهم بذلك.

ورد في التوراة أن إبراهيم كان جالساً أمام بيت خيمته تحت شجرة، وأنه أنزل ضيوفه تحت تلك الشجرة.

فلما عرف أنهم ضيوف جاؤوا لزيارته، ذهب إلى أهله سريعاً ليحضر لهم الطعام:

(١) «تفسير الألوسي» (١١/٢٧).

(٢) قرأ حمزة والكسائي (سَلِّم)، والباقون (سلام) وهما لغتان، مثل: جِزْمٌ وحَرَامٌ.

٢٦، ٢٧- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وكان إبراهيم ﷺ كريماً بطبعه، فكان لا يأكل إلا مع ضيوف، وإذا لم يجد ضيفاً ربما طوى بطنه أكثر من يوم حتى يأتيه ضيف، فلما قدم عليه هؤلاء الضيوف سرعان ما مال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وهذا معنى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: عدل إبراهيم عن المكان الذي نزل فيه الضيوف وتوجه إلى أهل بيته ﴿فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجَلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩] فهو عجل سمين مشوي، والشويُّ أسرع أنواع الطبخ لأهل البادية، وكانت أموال إبراهيم من البقر.

ومن آداب الضيافة أن صاحب البيت يُسرع بتقديم الطعام إلى ضيوفه من غير أن يشعروا به، حتى لا يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه بالتأخير، وأعدَّ إبراهيم العجل الحنيد.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ووضعه بين أيديهم، ولم يَسْتَشْرَهُمْ في إحضار الطعام؛ لأن هذا يُخرج الضيف فلا يجيب بحقيقة الحال، فقد يكون الضيف جائعاً ويستحي من طلب الطعام، ولذا فإن إبراهيم ﷺ قَدَّمَ إليهم الطعام مباشرة، وقال لهم في تَلَطُّفٍ وبشاشة: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، وليس على سبيل الأمر.

ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»<sup>(٢)</sup>.

ورد أن إبراهيم ﷺ لَمَّا قَدَّمَ الطعام إلى الملائكة قالوا: إنا لا نأكل إلا ما أَدِينَا ثمنه، فقال إبراهيم: وإنا لا نبيحه لكم إلا بثمن، قالوا: وما هو؟ قال: أن تُسْمُوا الله تعالى عند الابتداء، وتمجِّدوه عند الفراغ من الأكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله خليلاً<sup>(٣)</sup>. قال تعالى:

٢٨- ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

أي: فلَمَّا رأى إبراهيم الملائكة لا يأكلون أحسنَّ في نفسه خوفاً منهم، فإنَّ من لم يأكل

(١) ضم الهاء حمزة ويعقوب، والباقون بكسرها.

(٢) في البخاري (٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧) ومن حديث أبي شريح الخزاعي عند البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٨).

(٣) «تفسير ابن عطية» (١٧٨/٥).

طعامك لا يحفظ ذمامك ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم، وأخبروه أنهم ملائكة جاؤوا في صورة رجال لمهمتين:

المهمة الأولى: بشرى إبراهيم ﷺ بغلام عليم، هو إسحاق ﷺ، وكانت زوجته سارة عقيماً لا تلد.

المهمة الأخرى: عقاب قوم لوط على جريمتهم النكراء، وكفرهم بنبي الله لوط ﷺ.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله وأخبروه بما جاؤوا من أجله ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ أي: بشروه بأن زوجته سارة، ستلد مولوداً يكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو إسحاق ﷺ. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

والغلام العليم الذي بشرت به الملائكة في قصة لوط هو إسحاق ابن سارة.

أما الغلام الحليم المبشر به في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ [الصافات] فهو إسماعيل ابن هاجر.

وإسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عاماً، وقد بُشِّرَتْ سارة بإسحاق بعد أن بلغت سن اليأس، أما هاجر فقد كانت شابة في مقتبل عمرها. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩)

أي: ولما سمعت سارة مقالة الملائكة، أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه، في صيحة وجلبة، وهي فرحة مسرورة، فلطمت وجهها تعجباً من هذا الأمر، وعلى عادة ما يحدث من النساء عند السرور من الأقوال والأفعال، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟ وقد ذكرت سارة ثلاثة أسباب مانعة لها من الحمل، وهي:

١- أنها عجوز، قد بلغت السن الذي لا تلد فيه النساء.

٢- وأنها عقيم، فرحمها غير صالح للحمل والولادة.

٣- والمانع الثالث جاء في سورة هود في قولها ﴿وَهَذَا بَعْلِي سَيِّئًا﴾ [هود ٧١]

وقد جاء هذا في قوله ﷺ: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ﴾ أي: حاضت ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾

وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٦﴾ قَالَتْ يَتُوبَلِّغُنِيَّ الْإِلَهَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾ [هود]، وكان النساء يحضرن مجالس الرجال في بيوتهن مع أزواجهن ويؤاكلنهم.

وفي الموطأ قال مالك: لا بأس أن تحضر المرأة مع زوجها وضيغه وتأكل معهم<sup>(١)</sup>.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي: في صيحة وضجة وجلبة.

وقيل: في جماعة من النسوة يتبادرن النظر إلى الملائكة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لظمت وجهها.

وقال مجاهد: ضربت بكفها جبهتها على عادة النساء عندما يتعجبن من أمر غريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لم يسبق لها حمل قط، وقد استبعدت ذلك لكبر سنها، وكان عمرها تسعاً وتسعين سنة، وكان عمر إبراهيم مئة وعشرين عاماً<sup>(٢)</sup>.

فالعقيم من النساء التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلتح شجراً. قال تعالى:

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

أي: قالت الملائكة: هكذا قال ربك، كما أخبرناك، فنحن بلغنا ما أمرنا بتبليغه، فلا تتعجبي أن يكون لك غلام في هذه السن ﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما قلنا لك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: هكذا حكم ربك وقضى في الأزل، فلا تتعجبي، فهو القادر على ذلك، ولا عجب من قدرته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ يضع الأشياء في مواضعها ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، لا يخفى عليه شيء، وقد وسع علمه كل شيء.

والحوار الذي دار هنا كان بين الملائكة وسارة، وكذلك الحوار الذي دار في سورة هود.

أما الحوار الذي في سورة الحجر، فهو بين إبراهيم والملائكة، والمعنى واحد، ثم إن إبراهيم ﷺ أراد أن يتعرف على حقيقة الضيوف، إذ كيف يبشرونه بغلام عليم؟

٣١- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾

عرف إبراهيم حقيقة ضيوفه، وأنهم ليسوا بشراً، وإنما هم ملائكة جاؤوا لتبليغ أمر ما،

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٣٦٠).

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/١٢٦).

وقد علم إبراهيم أن الملائكة لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم، فسألهم: ما شأنكم الخطير الذي جئتم لأجله أيها الملائكة الأبرار؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ الخطب: هو الأمر المهم، أي: ما قصتكم، وما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بعد هذه البشرى السارة؟ ولم يسألهم إبراهيم عن شأنهم إلا بعد أن أضافهم، واستعدوا للرحيل، وقد علم خليل الرحمن أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا يكون لمجرد بشارته بالغلام العليم، فإن هذه البشرى تحصل بالوحي، فهم ولا بد جاؤوا لمهمة أخرى، أجابت الملائكة إبراهيم:

٣٢-٣٤ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قالت الملائكة مجيبة لإبراهيم ﷺ: إن الله قد أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين، فقد كفروا بالله، وكذبوا رسوله، وارتكبوا أفحش الجرائم التي لم يسبقهم إليها أحد من خلق الله وهم أهل سدوم وعمورية بالأردن.

ومهمتنا التي جئنا إليها أن نهلك قري قوم لوط، فنجعل عاليها سافلها، ثم تتبع ذلك فمطرهم بحجارة من طين متحجر، وفي الآية الأخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ ﴿٨٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

والسجّيل: هو الطين المطبوخ بالنار، كالآجر، وهذه الحجارة، قذفها الأرض إلى أعلى بضغط إلهي، ثم نزلت عليهم كأنها مطر.

وكل حجر منها يحمل اسم صاحبه الذي يُرمى به، وعليه علامة أنه ليس من حجارة الدنيا ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أي: مُعَلِّمَةً، قيل: إنها مختومة.

وقال ابن عباس ؓ: في الحجر الأسود منها نقط بيضاء، وفي الحجر الأبيض نقط سوداء.

وقد أعدت هذه الحجارة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله تعالى في الفجور.

قيل: كانوا ست مئة ألف، فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلبها، وأرسلت الحجارة على من كانوا خارج قري المؤتفكة<sup>(١)</sup>.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (١٢٦/٤).

أخذ إبراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط، لعل الله أن يدفع عنهم العذاب، فقال الله تعالى ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود] قال تعالى:

٣٥، ٣٦- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَا وَحَدَّنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ترك الملائكة إبراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم، وكانوا متجاورين، كما بين البحر الميت ومدينة الخليل، وحلوا بديارهم، وجرى بينهم وبين لوط ﷺ ما جرى من الحوار، ثم شرعوا في تنفيذ ما كلفهم به ربهم، فأمر الله الملائكة بإخراج من في قري قوم لوط من المؤمنين؛ حتى لا يشملهم العذاب، ولم يكن منها مؤمن سوى لوط وابنته، فخرجوا منها ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي: بأمرنا ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ في قرية لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل الإيمان؛ لئلا يهلكوا، وقد يسر الله إخراج المؤمنين ونجاتهم، وهم لوط وأهله إلا امرأته.

لم تجد الملائكة في القرية غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط وابنته.

وقيل: أهل بيته كانوا ثلاثة عشر، أما امرأته فكانت من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن بنبوة لوط ﷺ، وكانت تُرشِد الشباب على ضيوف إبراهيم، وتُظهر إيمانها بلوط ﷺ

والإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن يكون مسلماً وليس العكس، كما فرّق الله بينهما في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وقد عرّف النبي ﷺ كلاً منهما في حديث جبريل ﷺ حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

عرّف الإسلام بأنه: عمل الجوارح، بالإتيان بأركانه الخمسة.

وعرّف الإيمان: بأنه عمل القلب، بالتصديق بأركانه الستة.

وعرّف الإحسان: بأنه مراقبة الله ﷻ.

والغرض من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك، ولوط وابنته كانوا مصدقين بقلوبهم، منقادين لأمر الله تعالى بجوارحهم، ولذا فإن الله تعالى جمع لهم بين الإيمان والإسلام. قال تعالى في بيان العبرة المستفادة من القصة:

٣٧- ﴿وَتَرْكَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

ولما أهلك الله قوم لوط، بقيت آثارهم ظاهرة، علامة بيّنة، يمرُّ عليها الناس في صباحهم ومساءهم، وهي بحيرة لوط، أو البحر الميت في الأردن، الذي لا يُنتفع بمياهه ﴿وَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في قري قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ من آثار عذابهم واستئصالهم ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فهم الذين ينتفعون بالذكرى، ويعتبرون بما حدث لغيرهم، وهي علامة دالة على قدرة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٢﴾ فَفَشَّنَهَا مَا عَشَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم].  
وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَنُؤْمِرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات].  
وقد بقي مكانهم خرابًا لم يُعمَّر حتى الآن ﴿وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].  
والذين يخافون العذاب الأليم هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام، فهم الذين يتقون أسبابها.

### الإِغْتِبَارُ بِمَا حَدَّثَ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكْبٰتِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ أَجْمُونٌ ﴿٢٧٩﴾﴾

وبعد قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، تأتي إشارة سريعة إلى ما لحق بفرعون وجنده من الهلاك لما كذبوا نبي الله موسى ﷺ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي: وفي قصة موسى مع فرعون آية وعبرة، وهذه الآية كائنة حين أرسلنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة، وجعلناها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وتدل هذه الآية، على أن الله تعالى مهلك المكذبين الذين خالفوا أمره ونهيه، فيخافون أن يقع بهم مثل عذابهم إن هم صنعوا مثل صنيعهم.

وقد أرسل الله موسى ﴿بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة، وبرهان بيّن، حيث أيدته الله تعالى بالتوراة والآيات التسع، ومنها العصا واليد.  
وقد جاءت قصة موسى بعد قصة ضيف إبراهيم، لشهرتها أكثر من غيرها، ولأن عذاب قومها أرضي، فقد عُدّب قوم لوط بالحجارة، وعُدّب فرعون وقومه بالغرق.  
أما عاد وثمود فقد كان عذابهما سماويًا، إذ عُدّب عاد بالريح، وعُدّبث ثمود بالصاعقة أو الطاغية.

وكما أن أسباب وجود الناس أربعة أشياء، هي: الماء، والتراب، والهواء، والنار، فقد أهلك الله قوم لوط بالحجارة وهي من طين، وأهلك قوم فرعون بالماء، وأهلك قوم



عاد بالريح وهو هواء، وأهلك قوم ثمود بالنار.

دعا موسى فرعون وقومه إلى توحيد الله تعالى، فأعرض فرعون بجانبه عن الإيمان به، وتعزز بأصحابه وجنوده، وتقوى بهم، وهذا معنى ﴿فَتَوَكَّنْ بِرَبِّهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عن الإيمان بموسى مغترًا بقوته وجنوده وجاهه، فكان جنوده له كالركن الذي يعتمد البنيان عليه ﴿وَقَالَ﴾ فرعون عن موسى: ﴿سَجْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فهو إما ساحر وما أتى به شعوذة ليس من الحق في شيء، وإما مجنون لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله، ولذلك ادعى النبوة.

وقد قال فرعون ذلك تمويهًا على قومه، وليس شكًا منه في صدق موسى ﷺ، فهو يعلم أنه صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ﴾

[الإسراء: ١٠٢]

فماذا كانت عاقبة فرعون حين أعرض عن الحق وسخر بموسى ﷺ؟ قال تعالى:

٤٠- ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَدَنَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾

أي: أخذنا فرعون ﴿وَجُودُهُ﴾ الذين تقوى بهم ﴿فَبَدَنَتْهُمْ﴾ أي: ألقيناهم جميعًا ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر، لَمَّا أغضبونا وكذبونا ﴿وَهُوَ﴾ أي فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾ قد أتى بما يُلام عليه من الكفر والطغيان والجحود.

لقد رُمي الطاغية الذي ادعى الربوبية والألوهية في البحر كما تلقى النواة، ولم يكلف أحدًا شيئًا، ولا احتاج جُهدًا، وما بكت عليه السموات والأرض.

وفي هذا آية للذين يخافون العذاب الأليم، فيجتنبون سبب ما حلّ بفرعون وقومه من العذاب بسبب المكابرة وعدم تصديق الرسل، وعدم الإيمان بالبعث والجزاء.

### الْإِعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ عَادٍ

٤١، ٤٢- ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نَدَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾

ومن أشهر قبائل العرب البائدة: قوم عاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، فقد

أرسل الله تعالى إليهم نبيه هودًا ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالجنون والسَّفَه، قائلين له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فعاقبهم الله بالريح العاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧) [الحاقة].

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وفي شأن قوم عاد وإهلاكهم آياتٌ وعِبْرٌ للذين يخافون العذاب الأليم، وكان ذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا تأتي بخير، ولا بركة فيها، فلا تُلْقَحُ شجرًا، ولا تحمل مطرًا، وهي ريح الدَّبُور لقوله ﷺ من حديث ابن عباس: «نصرتُ بالصَّبَا، وأهلكت عاد بالدَّبُور»<sup>(١)</sup> وذلك بسبب إشراكهم بالله تعالى وتكذيبهم هودًا ﷺ، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ومن خصائص هذه الريح أنها لا تُبقي ولا تذر.

وهكذا وصف الله هذه الريح العقيم بأنها ما ترك شيئًا مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه من الأنفس والأموال والأنعام والمتاع ﴿إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ وهو الشيء الهالك البالي الهشيم المفتت، فقد أرسل الله تعالى عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت ثمانية أيام متتابعة، قال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (١٩) تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) [القمر].

كما قال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذٰلِكَ يَجْرِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْغُرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

فكانت هذه الريح تهدم البنيان، وتنتزع الرجال، وترفعهم إلى أعلى، حتى يرى الواحد منهم كالطير، ثم ترمي به في الأرض جثة هامدة.

وسُميت الريح بالعقيم تشبيهاً لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، وهي ريح لا خير فيها.

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٩٠٠) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٣٥، ٣٣٤٣، ٤١٠٥).

وهذه الريح كانت تتزع الإنسان العادي من بين الناس وتذهب به .

أخرج الترمذي وغيره، عن أبي وائل، عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة فدخلتُ على رسول الله ﷺ فذكرتُ عنده وافد عادٍ، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عادٍ، قال رسول الله ﷺ: «وما وافد عادٍ؟» قال: فقلت: على الخبير سقطت، إنَّ عادًا لَمَّا أقحطت بعثتُ قبيلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغتته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مَهْرَةَ، فقال: اللهم إني لم آتِك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاستق عبدك ماكنت مُسقيه، واستق معه بكر بن معاوية، يشكُرُ له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رَمَادًا رَمْدًا - أي: متناهية في الإحراق- لا تذر من عاد أحدًا، وذكر أنه لم يُرسل عليهم من الريح إلا قَدْرُ هذه الحلقة، يعني: حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ لَا مَأْذَرَ مِنَ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ (٤٣) (١).

والذين لا يخافون العذاب الأليم ممن أصر على الكفر والتكذيب مصيرهم مثل مصير قوم عاد.

### الإِغْتِبَارُ بِمَا حَدَّثَ لِقَوْمِ ثَمُودَ

٤٣- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٤)

ومن القبائل المشتهرة بين العرب قبيلة ثمود في مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية، فقد أرسل الله إليهم نبيه صالحًا ﷺ، فدعاهم إلى التوحيد وعدم الإِشْرَاقِ بالله تعالى، فناصبوه العدا، وطلبوا منه معجزة معينة تدل على صدقه، بأن يُخْرِجَ لهم ناقة عُشْرَاءَ من صخرة صماء، فأيده الله بها ورأوها بأعينهم، ولكنهم لم يؤمنوا، بل قتلوا الناقة وتآمروا على قتل صالح، ﷺ فتوَعَّدَهم الله تعالى ثلاثة أيام، تأخذهم الصاعقة بعدها، فتهلكهم وهم ينظرون.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في شأن قصة قوم ثمود آية للمؤمنين ليكون في هلاكهم آيات وعبر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حين قال لهم نبيهم صالح ﷺ: انتفعوا بحياتكم

(١) «سنن الترمذي» (٣٩١/٥) (٣٢٧٣، ٣٢٧٤) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦١١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٠٧) وابن ماجه (٢٨١٦) و«المسند» (١٥٩٥٣، ١٥٩٥٤). بأطول من هذا السياق، وإسناده حسن، كما قال محققوه.

وتمتعوا بها مدة أيام ثلاثة، حيث تنتهي آجالكم بعد ذلك بنزول الصاعقة عليكم فتهلككم، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

ورد أن صالحًا وعهدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ٨٣].

فلما رأوا الآيات التي بينها لهم نبيهم صالح ﷺ بتغير اللون عمدوا إلى قتله، فنجاه الله منهم، وفي اليوم الرابع نزلت عليهم نار من السماء، وقيل: صيحة فهلكوا<sup>(١)</sup> وفي تأمرهم على قتله يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل]. قال تعالى:

٤٤، ٤٥ - ﴿فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ<sup>(٢)</sup> وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فَا اسْتَظَمُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولما توعد صالح قوم ثمود بالتمتع في منازلهم ثلاثة أيام، ما كان منهم إلا أنهم عصوا أمر ربهم، وأعرضوا عما أمرهم الله به على لسان رسوله صالح ﷺ، فأخذتهم صاعقة العذاب وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم ﴿فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ﴾ أعرضوا عن دعوة صالح وكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ والنظر إلى النعمة يزيد صاحبها ألماً وحسرة، كما أن النظر إلى النعمة يزيد صاحبها مسرة.

قال مجاهد: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، وذلك أن ثمود وعدت العذاب قبل نزوله بهم بثلاثة أيام، وجعل لنزوله عليهم علامات في تلك الأيام الثلاثة، فظهرت العلامات التي جعلت لهم، الدالة على نزولها في تلك الأيام، فأصبحوا في اليوم الرابع موقنين بأن العذاب نازل بهم، ينتظرون حلوله بهم<sup>(٣)</sup>.

(١) يُنظَرُ: «تفسير روح المعاني» للألوسي (١٦/٢٧).

(٢) قرأ الكسائي (الصعقة) على إرادة الصوت الذي يصحب الصاعقة، والباقون (الصاعقة) على إرادة النار النازلة من السماء للعقوبة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٨﴾﴾ [فصلت].

وقال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْلِ ﴿٣٦﴾﴾ [القمر].

ولما حلَّ بهم عذاب الله تعالى أعجزهم عن الحركة، وشل حواسهم، فأقعدهم مكانهم، وجعلهم جُثًّا هامدة، فلم يمكنهم أن ينهضوا قِيَامًا، ولم يستطيعوا الهرب ولا الفرار، ولم يمكنهم الحركة ولا القيام من أماكنهم ولم ينصرهم من بأس الله ناصر، ولم يمكنهم نصر أنفسهم ولا دفع العذاب عنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

### الإِعتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِقَوْمِ نُوحٍ

٤٦ - ﴿وَقَوْمٌ ﴿١﴾ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤١﴾﴾

ثم ختم الله هذه الآيات بلمحة عن نبي الله نوح ﷺ، فقال: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الذين ذُكروا في الآيات السابقة، وهم: قوم إبراهيم، وقوم لوط، وفرعون وقومه، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقبل هؤلاء جميعًا أهلكتنا قوم نوح بالطوفان، فأرسل الله عليهم الماء المنهمر فأغرقهم عن آخرهم ولم يبق من الكافرين ديارًا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ مخالفين لأمر الله تعالى، خارجين عن طاعته، منغمسين في الشرك وعبادة الأصنام، قد ارتكبوا الكفر والمعاصي، وهذه عادة الله تعالى وسنته فيمن عصاه.

وفي قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تنبيه على مخالفة عادة القرآن في ترتيب أحوال هذه الأمم في السورة.

وجاء مثل ذلك في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾ وَثَمُودًا فَآءِ ﴿٥٦﴾﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم].

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بخفض ميم (وقوم) عطفًا على ثمود، والباقون بالنصب مفعول لفعل محذوف تقديره: وأهلكنا، دل عليه ما قبله.

## ثَلَاثَةٌ بَرَاهِينٌ أُخْرَى عَلَى الْبَعْثِ وَالتَّوْحِيدِ

الْبُرْهَانُ الْأَوَّلُ: خَلَقَ السَّمَاءَ وَاتَّسَاعُهَا

٤٧- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

تحدثت السورة عن منكري البعث، وأعقب ذلك بذكر ما حلَّ ببعض الأمم المكذبة لرسول الله، والمكذبة للبعث والنشور، ولمَّا كانت شبهة منكري البعث أنهم يتوهمون استحالة إعادة الأجسام بعد فناؤها، فإن الله تعالى ذكر ثلاثة أمثلة على ذلك للاستدلال بها على أن الله تعالى يحيي الناس بعد موتهم، وهذه الأمثلة الثلاثة هي: السماء، والأرض، وخلق الذكر والأنثى من جميع أجناس المخلوقات.

وابتدأ سبحانه بخلق السماء؛ لأنها أعظم المخلوقات، وقد خلقها الله تعالى ولم تكن شيئاً، فإعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى خلقها شيء يسير في عرف الناس.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: خلقنا السماء وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض، وشيدناها وأحكمنا بناءها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الفضاء - بالنسبة إلى سعة السماء - كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض.

وعبر سبحانه عن خلق السماء بالبناء؛ لأن السماء تبدو كالقبة وهي بناء، وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة، وهذه السعة تشمل مدارات النجوم والكواكب، والمجرات التي تحوي مئات الملايين من النجوم، وتشمل طبقات الفضاء التي تتناثر فيها النجوم والكواكب، فهذه التي تُعدُّ بالملايين لا تُعدُّو أن تكون ذرّات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب<sup>(١)</sup>.

وهذه الآية ليست من آيات الصفات؛ لأن لفظ ﴿بِأَيْدٍ﴾ ليس جمع يد، وإنما معناها: أنا بنينا السماء بقوة وقدرة عظيمة فائقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] أي: قويناها<sup>(٢)</sup>.

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٨٥) بتصرف.

(٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ٦٦٩).

والآية تحتمل أن يكون هذا الاتساع في المستقبل شيئاً فشيئاً، بدءاً من أول الخلق، وهو يدخل في الإعجاز العلمي للقرآن.

وتحتمل أيضاً ﴿وَإِنَّا لَمُؤْسِعُونَ﴾ على عبادنا بالرزق، فما من دابة في أقطار العالم العلوي والسفلي، إلا أوصلَ الله إليها من الرزق ما يُغنيها ويكفيها، والمعنى الأول أنسب لسياق الآية.

## البُرْهَانُ الثَّانِي: صِلَاحِيَةُ الْأَرْضِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ

٤٨- ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ (٤٨)

ومن دلائل قدرة الله تعالى وحكمته أن جعل الأرض مبسطة ممهدة، يمشي عليها أنواع الحيوان وتتوسدّها وتضطجع عليها جميع المخلوقات، ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان والحيوان أن يستخدمها.

وقد رُوِيَ في ذكر الأرض ما يبدو للناس من سطحها، ورُوِيَ في ذكر السماء ما يبدو للناس من قبة أجوائها.

والأرض بما فيها كحلقة في فلاة بالنسبة إلى السماء، وقد بسط الله الأرض وجعلها صالحة لمنفعة الناس وراحتهم، ولتكون موطناً لهم وداراً لمعاشهم ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً مبسوطاً للخلق للاستقرار والمشي عليها، ولزراعتها واستثمارها واستخراج كنوزها، وجعلنا فيها مسالك وطرقاً تُوصِّلهم إلى حيث يريدون ﴿فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ نحن، حيث جعلناها مهدياً لأهلها على أحسن الوجوه وأكملها، وفي هذا تلقين للناس، وتعليم لهم أن يحمده ويشكروه سبحانه على ما امتنَّ به عليهم من خلق السماء والأرض، ليقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) ويعبدوه حق العباد.

## البُرْهَانُ الثَّلَاثُ: خَلْقُ نَوْعَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ

٤٩- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)

أي: ومن كل شيء من أجناس الموجودات خلقنا نوعين متقابلين متضادين: كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والسماء والأرض، والغنى والفقر، والضلال والهدى، والصحة

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

والمرض، والبياض والسواد، والحُلُو والحامض، والجنة والنار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والسهل والجبل، والجن والإنس، والموت والحياة، والظلمة والنور، والسعادة والشقاء، والحق والباطل، والإيمان والكفر، والشتاء والصيف، والثواب والعقاب، والطاعة والمعصية، والحر والبرد، والخير والشر.

وخلقنا من الحيوانات ذكورا وإناثا، ومن الجن ذكورا وإناثا، ومن الطيور ذكورا وإناثا، ومن النبات ذكورا وإناثا، وهكذا . . . .

والقادر على خلق هذه الأزواج، وعلى جعل الأرض مهادا، والسماء بناء، قادرٌ على إعادة الحياة للموتى من باب أولى، والمنفرد بخلق هذه الكائنات هو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة.

وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إله واحد، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وفي ذلك إبطال لكل شريك مع الله تعالى، وقد خلق الله هذا الكون بما فيه؛ لكي تتذكروا قدرة الله تعالى وتعتبروا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ نعم الله عليكم وحكمته فيكم، فتعرفوا أن الله تعالى خالق كل شيء، وتستدلوا بذلك على توحيده سبحانه، وعلى أنه يحيي الناس بعد موتهم.

ولما دعا الله عباده إلى النظر في آياته، أمرهم بالمقصود من ذلك، وهو الفرار إلى الله بالرجوع إليه فيفر العبد إلى ربه من كل ما يكرهه الله تعالى إلى كل ما يحبه، ومن الغفلة إلى ذكر الله، يفر من قضاء الله وقدره إلى قضائه وقدره.

## وَجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الْمُعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ

٥٠- ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرَّمَتْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

أي: وما دام الأمر كذلك فأقلعوا أيها المشركون، وأيها الجاحدون لوحداية الله تعالى، المنكرون للبعث والنشور، أقلعوا عما أنتم فيه من الكفر والضلال، وتوجَّهوا إلى الله الواحد القهار بالطاعة والعبادة، وفرُّوا من عذاب الله إلى رحمته تعالى بالإيمان به وبرسوله، واتباع أمره، واجتناب نهيه، والعمل بطاعته ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فرُّوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان.



والفِرَارُ: سرعة المفارقة تجنبًا للأذى، والأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وعبر بالفرار لينبه على العقاب والعذاب الذي ينتظرهم.  
قال ابن الجوزي: اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب والطاعة<sup>(١)</sup>.

كما جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك»<sup>(٢)</sup> فأسرعوا إلى طاعة الله عباد الله، فقد أنذرتكم عقاب الله قبل أن يحل بكم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفر إلى الصلاة كلما حزبه أمر، وهذا فرار إلى الله تعالى.

### وَجُوبُ الْفِرَارِ مِنَ الشَّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ

٥١ - ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ إِنَّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

ثم أكد صلى الله عليه وسلم هذا الإنذار، ونهى عن التقاعس فيه، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا تشركوا بالله أحدًا في طاعته وعبادته، فإن خطر الشرك شديد، وعاقبته وخيمة ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي: من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ أبلغكم رسالة ربي، وأبشّر من أطاعه بدخول الجنة، وأحذّر من عصاه من دخول النار، فأنا لكم نذير ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار لكم.

والشرك بالله تعالى أعظم الذنوب، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، ولذلك فإن أصل الفرار إلى الله تعالى، أن يفر العبد من الشرك إلى التوحيد، ويخلص لربه الطاعة والعبادة، والخوف والرجاء والدعاء والإنابة، والرغبة والرغبة.

وجملة ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ذُكرت عند الأمر بالطاعة في الآية السابقة، وذُكرت عند النهي عن المعصية في هذه الآية للإشارة إلى أنه لا يفوز عند الله تعالى إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن أحدهما بدون الآخر لا ينفع<sup>(٣)</sup>.

(١) «زاد المسير» (٤١/٨).

(٢) من حديث البراء بن عازب في البخاري (٥٣١٢، ٦٣١٥) ومسلم (٢٧١٠).

(٣) «تفسير الخازن» (١٨٥/٤) بتصرف.

## مَوْقِفُ الْأَقْوَامِ مِنَ الرَّسْلِ

٥٢، ٥٣ - ﴿كَذَٰلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِ بِكُلِّ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوتٌ﴾

ولمّا تصدّرت السورة بالقسم على أن المنكرين لوحداية الله تعالى، والمنكرين للبعث والنشور في قول مختلف متناقض، خُتمت السورة بهذا المعنى كذلك، فقال تعالى مشيراً إلى ما سبق: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل قول المكذبين السابقين بالتوحيد والبعث والرسالة. ﴿مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: ما أتى جميع الأقوام الذين قبل قومك -أيها الرسول- ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ عن كل منهم ﴿سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾. فكل رسول قال فيه فريق من قومه: مجنون، وقال فريق آخر: شاعر، وقال فريق ثالث: ساحر، وقال فريق رابع: كاهن... وهكذا.

فلا تحزن -أيها الرسول- لما تسمعه من بعضهم، فإن هذا دأب الكفار في كل زمان ومكان، حيث تصدر عنهم الأقوال الشنيعة التي يتنزه عنها رسل الله جميعاً، ولم يزل هذا دأبهم وعاداتهم في الأولين والآخرين، يلقن بعضهم بعضاً، ويؤثر بعضهم في بعض.

فهل أوصى بعض الأمم بعضاً بهذا، حتى وصلت المقولة من أول أمة، إلى آخر أمة، وهل أوصى بعض الأقوام بعضاً بهذه الأقوال حتى وصلت إلينا ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ﴾ أتواصي الأولون والآخرون بالتكذيب بالرسول ﷺ -أي رسول - حين قالوا بذلك جميعاً؟ ثم بين سبحانه أن السبب في ذلك هو الجحود والطغيان، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُوتٌ﴾ جمعهم الطغيان والكفر، فتشابهت قلوبهم وأعمالهم، فقال متأخرهم بذلك كما قال متقدمهم. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ شَٰهَبَةٌ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم في الإذعان إلى الحق، بادروا إلى الإيمان برسول الله وتعظيمهم وتوقيرهم وطاعتهم واتباعهم.

وتواصي المكذبين بعضهم بعضاً على تكذيب الرسل، يُشعر بأن القوم لن ينتفعوا بالآيات والنذر، ولمّا لم ينتفعوا بها استحقّوا عقاب الله في الدنيا والآخرة.

## الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَعُوقُهَا عَائِقٌ

٥٤، ٥٥- ﴿فَنُورٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الدُّكْرَى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه، يغتم قلبه لعنادهم وكفرهم، فخفف الله عنه، وبيّن له أنه لما كانت مهمتك -أيها الرسول- هي مجرد البلاغ والإنذار، وقد بلغت الرسالة، وبذلت الجهد، ولم تقصّر، فلا عليك منهم بعد ذلك ﴿فَنُورٌ عَنْهُمْ﴾ أعرض عن المكذبين بك -يا محمد- حتى يأتيك أمر الله فيهم، وكفّ عن جدالهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ لن يلومك أحد بعد أن بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.

وقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الأمة، يتألم من عنادهم وكفرهم، فكان الله سبحانه يعاود تسلّيته مرة تلو المرة، لِيُسْرِيَّ عن نفسه ويواسيه، فيقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَخِغٌ فَسَّكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [الشعراء].

ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

ويقول أيضاً: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وهكذا.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَنُورٌ عَنْهُمْ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر، حيث أمر النبي ﷺ أن يُعرض عنهم، فأنزل الله تعالى<sup>(١)</sup> يطبّ نفوس أصحابه، وبيّن لهم أن الوحي لم ينقطع، وأن النبي ﷺ مستمر في تذكيرهم ووعظهم، فقال: ﴿وَذَكَرْ﴾ أي: ﴿فَنُورٌ عَنْهُمْ﴾ واحترس؛ كي لا يتوهم متوهم أن الإعراض عن المكذبين إبطال للتذكير، فالتذكير باقٍ، وقد ذكّر النبي ﷺ بعد ذلك، فأمن بعض من لم يكن قد آمن من قبل.

والاستمرار في التذكير، إقامة للحجة على المعرضين؛ لئلا يزدادوا طغياناً وكفراً، فمع إعراضك عنهم -أيها الرسول- وعدم التفاتك إلى تخذيلهم، داوِم على الدعوة إلى الله، وعلى وَعْظٍ مَنْ أُرْسِلْتُ إِلَيْهِمْ، فإن الموعدة والتذكير يتنفع بهما أهل القلوب المؤمنة، وفيهما إقامة الحجة على المعرضين<sup>(٢)</sup>.

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٥) و«المطالب العلية» (٤١١٦) والطبري (٢١/ ٥٥٢) والبيهقي (١٧٥٠).

(٢) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٣.

والذكرى ينتفع بها مَنْ عَلِمَ الله أنه سيؤمن منهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ سِيِّدَكُرٌّ مِّن يَّخْشَىٰ﴾ [الأعلى].

وانتفاع المؤمنين بالذكرة والموعظة أمر محقق، والنتفع الحاصل لهم هو رسوخ العلم وتشيط العمل بإعادة التذكير، واستفادة علم جديد، وإظهار حجة المؤمنين على الكافرين.

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله:

والتذكير نوعان: تذكير بما لم يُعرف تفصيله، مما عُرِفَ مُجْمَلًا بِالْفِطْرِ والعقول؛ فإن الله تعالى فَطَرَ العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر والزهد فيه، وشرعهُ تعالى موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع فهو من التذكير، وتمام التذكير أن يُذَكَّرَ ما في الأمور به من الخير والحُسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني: تذكير بما هو معلوم، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيُذَكَّرُونَ بذلك، ويُكْرَرُ عليهم التذكير ليرسخ في أذهانهم، ويتبها ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليُحْدِثَ لهم نشاطاً وهمةً توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله تعالى أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، والعمل بما يرضى الله تعالى، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعاً، أما من ليس معه إيمان، ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، وهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهذا الصنف من الناس لو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم<sup>(١)</sup>.

## الْعِبَادَةُ هِيَ الْغَرَضُ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

٥٦ - ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢) ﴿٥٦﴾

ثم إن الله تعالى خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، ولو لم يخلقهم ما عرفوه وما عبدوه، وما كان هناك جنة ولا نار، ولم يرض الله من خلقه إلا أن يعترفوا له بأنه المتفرد بالإلهية، وأنه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بتصريف، مؤسسة الرسالة، ط رابعة ص ٨١٢.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (ليعبدون) وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (يطعمون) (فلا تستعجلون) في الآيات التالية.

المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي يجب إظهار الخضوع له، واعتقاد أنه وحده النافع الضار، وأنه المعبود بحق من الإنس والجن، وأن الله تعالى لم يخلق الخلق إلا ليقفوا عند حدود التكليف الشرعية من الأوامر والنواهي فيمثلوها ويعملوا بها، وتمام العبادة متوقف على تمام المعرفة، وكلما ازداد العبد معرفة لربه، كلما كانت عبادته أكمل.

وهذه التكاليف الشرعية في الشرائع الإلهية، تكون فيها بعض الفروق من أمة إلى أمة، من نقص إلى زيادة، ومن كيفية إلى كيفية، ومن تشديد إلى تخفيف، وهكذا.

وبناء على ذلك فإن معنى الآية:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني، ويقرّوا بوجوب العبادة لله وحده، فيطيعوه باختيارهم، بمقتضى ما أودعه فيهم من الفطرة، وما أخذه عليهم من ميثاق التوحيد، وبمقتضى ما خلق الله فيهم من عقول، وأرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، فمن أطاعه واتبع الحق والرشد فقد فاز ونجا، ومن عصاه وأعرض عن ذكره فقد ضلّ وغوى.

وكفر الكافر لا ينافي أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فقد يبّري الإنسان القلم ليكتب به، ولكنه لا يستعمله.

على أن الكافر منقاد لله تعالى طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد].

وإقرار العبد بربه خالقاً ورازقاً ومدبراً اعتراف به سبحانه، كما قال تعالى عن الكفار: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولكن هذا الإقرار أو هذه المعرفة لا تنفعهم مع الشرك به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١] أي: إلا لأمرهم بعبادتي، وأكلفهم بالعمل والترك، ثم أجازيهم على أعمالهم وأقوالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالحكمة الأولى من خلق الإنس والجن هي ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف].

ففي هاتين الآيتين وأمثالهما بيان الحكمة الأولى من خلق الجن والإنس وهي عبادة الله وحده، وفي تقديم الجن على الإنس رد على المشركين الذين يعبدون الجن ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى مثلهم.

والحكمة الأخرى هي: بعث الناس بعد موتهم ليجازيهم ربهم على أعمالهم وأقوالهم التي كانت في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون].

فهذه الآيات وأمثالها تبين الحكمة الثانية من خلق الخلق، وهي الجزاء على ما قدمته أيديهم في الدنيا.

وعلى هذا، فالحكمة من خلق المخلوقات هي: العِلم بالخالق، وبعد العلم به سبحانه يكون التكليف: افعل، ولا تفعل.

ومقر القيام بهذا التكليف هو الدنيا، وبعد التكليف يكون الجزاء الذي يترتب على نتيجة الاختبار.

ومقر هذا الجزاء هو الآخرة، ومن أجل هذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وخلق لنا عقولاً، وأمرنا بالخير ونهانا عن الشر، والعبادة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها، هي العبادة الاختيارية وليست عبادة التسخير؛ لأن العبادة الاختيارية هي التي يكون عليها الثواب والعقاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وأمثالهما، فإن معنى ذلك: أن الله تعالى خلق الخلق بما أودع فيهم من عقول وحواس، وما أرسل إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، وجعلهم بفطرتهم مستعدين لقبول الإيمان والكفر.

فمن آمن بالله واليوم الآخر فقد عمل بمقتضى الفطرة السليمة، ووفى بالميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى وهم في عالم الدر، ومن لم يؤمن بالله ورسله فقد انحرفت عنده الفطرة، وعطل أجهزة الاستقبال فيه عن الانتفاع بالهدى والأخذ بأسبابه.

ومن آمن بالله تعالى فقد حقق غاية وجوده في هذه الحياة، وقام بوظيفته فيها، ومن لم يؤمن بالله تعالى فقد أبطل غاية وجوده في الدنيا، وأصبح بلا وظيفة.

وتتحقق العبودية بالتوجه إلى الله تعالى بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام].

وفي الآية بيان لسوء صنيع الكفار؛ لأن الله تعالى قد خلقهم لعبادته، ولكنهم لم يعبدوه.

### ثَمَرَةُ الْعِبَادَةِ تَعُودُ عَلَى الْخَلْقِ لَا عَلَى الْخَالِقِ

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم أبطل سبحانه أن تكون هناك علة أو غاية تعود على الله ﷻ من خلق الخلق وعبادتهم، فبين أنه تعالى لا يحتاج إليهم في شيء، وأن أهم ما يحتاجه المحتاج هو الطعام والشراب واللباس والمسكن، وكل هذا يرجع إلى الرزق، وهو المال، وقد نفى الله تعالى أنه محتاج إلى ذلك في قوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فأنا الرازق المعطي، وأنا الغني المغني، فلا أحتاج لأحد في شيء، وأنتم الفقراء إليّ في جميع أحوالكم؛ لأن الخالق الرازق غني عن خلقه، يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَيَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي مملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأث صدرك شغلا، ولم أسد فقرك»<sup>(١)</sup>.

(١) «المسند» (٣٥٨/٢) (١٦٩٦) بإسناد حسن، لأجل زائد بن نسيط، صدوق، حسن الحديث، كما قال أبو حاتم، (محققوه) والترمذي برقم (٢٤٦٦) وابن ماجه برقم (٤١٠٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٥)، والحاكم ٣٢٦/٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وله شاهد حسن من حديث معقل بن يسار.

وجاء في بعض الكتب: يابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفّلت برزقك فلا تتعب، فاطلبي تجديني، فإن وجدتنني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء<sup>(١)</sup>.

وقد أسند الله تعالى الإطعام إلى نفسه؛ لأن الخلق كلهم عيال الله، ومن أطعم عيال الله فكأنه أطعم الله تعالى، وذلك لما صحَّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَمْحِدُ وَلَيْلًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي ذكر الإطعام إشارة إلى ما كان يهديه المشركون من الطعام إلى سدنة الأصنام، وما يتقربون به من النذور والذبائح إلى أصحاب القبور.

## ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٥٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

وصف الله تعالى نفسه في هذه الآية بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق لخلقه، فما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿وَكَايُنَ مِن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٢٦/٧).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٥٦٩).



وَأَيَّاكُمْ ﴿العنكبوت: ٦٠﴾ وهذا الرزق يعم المال والطعام، فهو المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، وقد أكد الله ذلك بل (إن) والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، ليَقْوَى اعتمادهم على الله تعالى، فلا رازق غيره جلَّ شأنه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ ﴿٦٠﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴿الذاريات﴾ ولن تموت نفسي حتى تستوفى رزقها وأجلها.

الوصف الثاني: أنه سبحانه ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي: أنه تعالى صاحب القدرة الباهرة، الخالية من النقائص، وهي قوة لا تشبهها قوة، فهو جلَّ شأنه لا يُقهر ولا يُغلب، ولا يُعجزه شيء، أوجد المخلوقات ونفذت فيهم مشيئته، لا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد.

الوصف الثالث: أنه جلَّ شأنه ﴿الْمَتِينِ﴾ أي: الشديد، فالله تعالى كامل في قوته، بحيث لا يُعَارَض ولا يُدَانَى، فله القوة والقدرة كلها، لا يطرأ عليه عجز ولا نقص.

ومن ذلك أنه رزق الخلائق وأنه يبعثهم بعد موتهم.

والمعنى: أن الله تعالى غِنِيٌّ غِنَى مطلقًا، لا يحتاج إلى شيء أبدًا، ولم يخلق الله الخلق لتحصيل نفع له، ولكن ليَعْمُر هذا الكون، ونظام العمران لا يقوم إلا على اتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(١)</sup> ويتحقق ذلك بامثال الأوامر واجتناب النواهي.

## الْعِبْرَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ هَلَاكِ الظَّالِمِينَ

٥٩، ٦٠ - ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ ﴿٦٠﴾ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

ولما ذكر الله سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته بيّن هنا أن عبادة المشرك بالله تعالى باطلة، فإذا لم يتوجه العبد إلى الله وحده بالعبادة، فإن له نصيبًا من العذاب كنصيب من سبق ذكُرهم في السورة، من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، فكما ماثلوهم في الشرك والظلم، يماثلونهم في العقاب والمصير ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ غيرهم، أو ظلموا أنفسهم

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٩/١٣).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (يومهم الذي) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم.

بالشرك، أو بتكذيب الرسول الخاتم ﷺ، أو بإنكار البعث والنشور، لهم ﴿ذُنُوبًا﴾ أي: نصيبًا من العذاب لعبادتهم غير الله تعالى.

والذُّنُوبُ في الأصل هو: الدَّلُو الكبير المملوء ماء، فإن كان فارغًا فلا يقال له ذنوب، وهو مستعمل في الآية بمعنى: النصيب.

قال مجاهد في معنى ﴿ذُنُوبًا﴾: سَجَلًا من العذاب مثل عذاب أصحابهم<sup>(١)</sup>.

فإن للكافرين ﴿ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: لهم نصيب من العذاب ينزل بهم، مثل نصيب أسلافهم الذين مَضَوْا وهَلَكُوا ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أي لا يستعجلوا نزوله بهم، وكانوا يفعلون ذلك، ويقولون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الملك: ٢٥] يقولون ذلك استهزاءً واستبعادًا، فيبين سبحانه أن العذاب نازل بهم لا محالة، ولكن الله تعالى أخره إلى يوم القيامة ولم يعاجلهم به في الدنيا، لعلهم يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم.

ثم توعدهم الله تعالى بالهلاك والويل والثبور مرة أخرى، ليبين لهم موعد نزول العذاب بهم، وهو يوم القيامة، وعبر عنهم في الآية السابقة بالذين ظلموا، وعبر عنهم هنا بالذين كفروا قال تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله وبالبعث والنشور ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ بنزول العذاب فيه، وهو يوم القيامة، فإن هلاكهم سيكون فيه، وهو آتٍ لا محالة، وليس فيه مغيث ولا مجير ولا منقذ لهم من عذاب الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ في نهاية السورة، هو نفسه اليوم الذي سبق ذكره في أول السورة في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ﴿٥﴾ وفي هذا ردٌ للعجز على الصدر.

قال تعالى عن هذا اليوم: ﴿وَنُنَلِّقُهُمُ اللَّامَاتِ كَهَذَا يَوْمِكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. نعوذ بالله من العذاب ونعوذ به من الكفر والضلال.

تم تفسير (سورة الخاريات) والله الحمد والمنة.

(١) ابن أبي حاتم والطبري (٥٥٧/٢١).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ (٥٢)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الطور) هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (نوح) وقبل سورة (المؤمنون).

وسميت سورة الطور لورود لفظ الطور فيها معرّفًا دون غيرها.

وعدد آياتها عند أهل الشام والكوفة تسع وأربعون آية<sup>(١)</sup>.

وعدد كلماتها ثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة، وعدد حروفها ألف وخمسة مئة حرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيرًا في صلواته:

١- فعن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءة- منه<sup>(٢)</sup>.

٢- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكى، فقال:

«طُوفِي مِن وِرَاءِ النَّاسِ، وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ» فظفْتُ ورسول الله ﷺ يُصَلِّي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور<sup>(٣)</sup>.

٣- وقد أسلم جُبَيْر بن مُطْعَم لَمَّا سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقرأ بسورة الطور، فقد قدم جُبَيْر من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر، ليفاوض النبي ﷺ في شأن أسرى المشركين الذين عنده، وكان جبير مشرّكًا، فوقف خارج المسجد، والمسلمون اصطَفُوا وراء نبيهم لصلاة المغرب، واستمع إلى سورة الطور، فتغيرت نفسه، واهتزَّ الشرك في ضميره، وأحسنَّ كأن

(١) وعند أهل المدينة ومكة سبع وأربعون آية، وعند أهل البصرة ثمانٍ وأربعون آية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٤٦٣) ومالك (٨٧/١) وأحمد (١٦٧٣٥، ١٦٧٨٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦٢) وابن حَبَّان (٨١٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٦٤، ١٦١٩، ٤٨٥٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧٦) وأبو داود (١٨٨٢) وابن ماجه (٢٩٦١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٦٤، ٣٨٨٩) و«المسند» (٢٦٤٨٥) وابن حَبَّان (٣٨٣٠).

الوحي المثلثو يسحق بقايا الكفر في نفسه، ويكتسحها اكتساحًا.

قال جبير: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ كاد قلبي أن يطير<sup>(١)</sup>.

٤- وفي رواية قال: قدمت المدينة على رسول الله ﷺ لأكلمه في أسارى بدر، فدفعته إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعته يقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ فكانما صدع قلبي... فأسلمت خوفاً من نزول العذاب! وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب<sup>(٢)</sup>.

لقد ترك الرجل عبادة الأوثان، وأسلم من فوره، وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور!

والمحاور التي تقوم عليها السورة: هي غرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، والإيمان باليوم الآخر، والمحور الثالث: هو الإيمان بالنبي الخاتم، وهذه المحاور الثلاثة، هي موضوعات السور المكية، التي تلزم لمن لم يدخل في الإسلام، ومن هم حديثو عهد به في كل زمان ومكان، حيث يبدأ الداعية معهم بهذه الأصول الثلاثة، ثم تأتي مرحلة التكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي:

١- وتبدأ السورة بما يتعلق بالبعث والجزاء، فتقسم بخمسة من عظيم خلق الله تعالى، هي: جبل الطور، والتوراة التي نزلت فيه، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور على أن عذاب الله تعالى كائن لا محالة، وليس هناك ما يدفعه، وهو افتتاح مرهوب، يبعث على الخوف الشديد من عذاب أهل الجحيم، وأهوال الآخرة وشدائدها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾.

٢- ثم تقسم السورة الناس إلى قسمين:

الكفار المكذبون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشرة، وهم أهل النار.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٤)، والحديث في صحيح البخاري (٤٥٧٣).

(٢) يُنظر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٤) و«المسند» (١٦٧٦٢، ١٦٧٨٥).

والمتمقون الأبرار، المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين وهم أهل الجنة.

فتحدثت آيات السورة **أَوَّلًا**: عن عذاب أهل النار في مشهد ينزل ويرعب، فيه ويل وهول وفزع، ترجف له القلوب، وترتعب منه النفوس ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۖ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وتحدثت آيات السورة **ثانيًا**: عن نعيم المتقين، وأنواع السعادة التي أعدها الله لهم في الآخرة، وإلى من يرقى معهم في درجاتهم من زوجاتهم وذرياتهم من أهل الإيمان، من كل ما فيه أمن وأمان، وسعادة ورضوان.

٣- ويأتي الأصل الثاني بالحديث عن خاتم الرسل ﷺ وفيه الأمر من الله تعالى بالتذكير وإنذار الكفار، وألا يعبأ بما يقوله المكذبون الضالون، وفيه إبطال مزاعمهم المفتراة على النبي ﷺ، وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

٤- ثم تحدثت آيات السورة عن جانب التوحيد من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين في مناظرة عقلية مع الكافرين، لا يملك معها كل ذي لب سليم إلا أن يقول: آمنت بالله رب العالمين.

إنها سورة تُبطل الشُّبُهَة والأضاليل، وتدحض الحجج والمعاذير، وتعرض الحقيقة بارزة واضحة بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل.

٥- وقد جاء في آيات السورة خمسة عشر استفهامًا متعاقبًا، كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال، وتُرغمه على التفكير في الحال والمآل، ولا يسع الكافر العاقل إلا أن يؤمن بالله تعالى ربًّا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالإسلام دينًا، وهذه المناظرة من الآية الثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين، منها جانب يتعلق بالرسالة، وجانب يتعلق بالتوحيد، وفيها دحض لأكاذيب الجاحدين، فتقذف بالحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ على باطل المكذبين المعاندين فإذا هو زاهق، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلَّاب.

٦- وآيات هذه السورة، ذات تأثير قوي على النفس البشرية، فهي تدحض كل شبهة، وكل عذر، وتُذلل كل عقبة في طريق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فأياتها وفواصلها

كأنها قذائف، أو صواعق، أو سياط لاذعة، من البدء إلى الختام، تَرُجُّ القلب رجًا، وتُزَعِبُ الحسَّ رُعبًا، وتهز المشاعر هزًا، فتتسف الباطل نسفًا، وتُخرس لسان كل مكابر مجادل!

يجد القارئ ذلك في سياط العذاب المسلطة على أهل النار في مطلع السورة، وحلاوة النعيم المعد لأهل الجنة<sup>(١)</sup>.

ويجدها وهي تُطارِدُ الهواجس والشبهات والأباطيل وتدحضها في استفهامات السورة الخمسة عشر، فتبطل مزاعمهم الفاسدة في شأن نبوة محمد ﷺ، وتردُّ عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وتقيم الدلائل على صدق محمد ﷺ، وهذه الاستفهامات الخمسة عشر جاءت في قوله تعالى:

- ١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ .
- ٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ بِالْعَدَاةِ﴾ [٣٢]
- ٣- ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ [٣٢]
- ٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَلْنَاهُ﴾ [٣٣]
- ٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [٣٥]
- ٦- ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [٣٥]
- ٧- ﴿أَمْ خَلِقُوا الْأَسْمَانَ وَالْأَرْضَ﴾ [٣٦]
- ٨- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [٣٧]
- ٩- ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ [٣٧]
- ١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ سَائِرٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [٣٨]
- ١١- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .
- ١٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ [٤٠]
- ١٣- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ [٤١]
- ١٤- ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [٤٢]
- ١٥- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [٤٣]

٧- وفي نهاية السورة ترسم مشهدًا محسوسًا يحمل التوبيخ والتفريع لكل معاند مكابر ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ .

وتختتم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى التسليح بالصبر والتسبيح والصلاة، ففي ذلك العلاج الناجع لتخطي العقبات والتغلب على النكبات.

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/٣٣٩١).

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ

٦-١- ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) ﴿وَكَتَبَ مَسْطُورٍ﴾ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾

لله تبارك وتعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يُقسم إلا بالله تعالى، وقد أقسم الله تعالى في أول سورة الطور بخمسة من مخلوقاته العظيمة على أن البعث والجزاء حق، لكل من المتقين والمكذبين، وبيانها فيما يأتي:

الْقَسَمُ الْأَوَّلُ: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١):

وهو جبل طور سيناء، الذي ناجى فيه موسى بن عمران ربه، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول التوراة، وقد أقسم الله تعالى به تكريمًا وتشريفًا له، وتنويهاً بشأن الألواح، وتذكيرًا بما فيها من الآيات. وجبل الطور هو المقسمُ به في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ سِينِينَ﴾ [التين].

والجبل الذي خوطب فيه موسى ﷺ، من جانب الله تعالى، هو جبل الزبير، ويسمى جبل حُوريب، وهو جبل الطور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]. وكلها في صحراء سيناء.

الْقَسَمُ الثَّانِي: ﴿وَكَتَبَ مَسْطُورٍ﴾ (٢):

أي: كتاب منسق الكتابة، منتظم الحروف، مرتب المعاني، قد سُطِّرت حروفه وكلماته تسطيرًا حسنًا جميلًا، وقد فُسِّر هذا الكتاب بخمسة أقوال:

الأول: اللوح المحفوظ. الثاني: كتاب أعمال بني آدم. الثالث: التوراة.

الرابع: جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، فهو اسم جنس. الخامس: القرآن.

ولعل الأقرب للصواب أن يكون المراد بالكتاب المسطور: التوراة، فهو المناسب لمجاورة الطور، وكأن القسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة.

(١) عدَّ (الطور) آية، البصري والكوفي والشامي، وليست آية عند الحجازيين: المدني الأول والأخير والمكي.

والتوراة كتبها موسى ﷺ بيده بعد نزول الألواح عليه، وضمَّنها كل ما أوحى الله به إليه، مما أمر بتبليغه في مدة حياته، إلى ساعات قليلة قبل وفاته.

والتوراة هي الأسفار الأربعة المعروفة عند اليهود: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر التثنية<sup>(١)</sup>.

وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال عن الألواح: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي تَشْحِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

والقسم بالتوراة يستلزم أن يكون قبل تحريفها وتبديلها، وقد يكون بدء التحريف عندما ظهرت دعوة محمد ﷺ، فعمدوا إلى تغيير أوصافه فيها.

والقول بأن المراد بالكتاب المسطور: القرآن، قول بعيد؛ لأن القرآن وقت نزول هذه السورة في مكة لم يكن مسطوراً، ولم يكن كتاباً مكتملاً.

ولا توجد مناسبة ترشَّح أن يكون المراد بالكتاب: كتاب أعمال بني آدم.

والمسطور: هو المكتوب، كما قال تعالى: ﴿بِئْسَ وَالْقَلْبِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] والأقوال الثلاثة الباقية محتملة.

أما قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [٢] فإن الرق: هو الصحيفة المأخوذة من جلد أبيض رقيق، ليكتب عليه؛ إذ لم يكن الورق موجوداً آنذاك، والناس تكتب على مثل هذا الجلد، والمنشور: هو المبسوط غير المطوي.

وقد كان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملتصق بعضها ببعض، أو مخططة حتى تصير قطعة واحدة، ثم تطوى طياً أسطوانياً لتُحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروها، وفي حديث الرجم: «فنشروا التوراة»<sup>(٢)</sup>.

(٢،١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٣٧/١٣).



والمعنى: أن الله تعالى أقسم بالكتاب وهو منشور للقراءة، حيث يحصل الاهتداء به للقارئ والسامع، وهذه الحالة هي أشرف أحواله.

### القَسَمُ الثَّالِثُ: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

وهذا لفظ صريح في أن المراد بالبيت المعمور: البيت الذي تطوف حوله الملائكة في السماء السابعة، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض، ويقع في محاذاة الكعبة، تعمُرُه الملائكة في السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يتعبَّدُ فيه أهلها، والذي في السماء الدنيا هو بيت العزة.

### أحاديث في البيت المعمور:

١- وفي حديث الإسراء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتيت بالبراق وهو دابة- أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره- قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء...» وساق الحديث بطوله، وفيه «فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه...»<sup>(١)</sup>.

٢- ولفظ البخاري: من حديث مالك بن صعصعة عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «... فرُفِعَ إليَّ البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه...»<sup>(٢)</sup>.

٣- وقد سُئِلَ عليٌّ رضي الله عنه: ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، يقال له: الضُّراح، وهو بِحِيَالِ الكعبة من فوقها، حُرْمَتُهُ في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا

(١) «صحيح مسلم» (١/١٤٥-١٤٧) برقم (١٦٢) كتاب الإيمان، باب الإسراء والمعراج.

(٢) «صحيح البخاري» (٦/٢١٩) برقم (٣٢٠٧) وكذا «صحيح مسلم» (١٦٤) من طريق قتادة، وهو في «المسند»

(١٢٥٥٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم

(محققوه) والحديث. في «المستدرک» (٢/٤٦٨) وفي «المنتخب» لعبد بن حميد (١٢١٠).

يعودون إليه أبداً<sup>(١)</sup>.

٤- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «... إن هذه الكعبة بحيال البيت المعمور الذي في السماء يدخل ذلك البيت المعمور سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة»<sup>(٢)</sup>.

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور هنا: البيت الحرام، وسمي كذلك لأنه معمور بالحجاج والعمَّار، والآثار الواردة فيه تؤيد المعنى الأول.

#### القَسْمُ الرَّابِعُ: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ (٥)

أي: والسماء العالية المرتفعة، وقد جاء مصرحاً به في آية أخرى، أن السماء سقف للأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء].

فقد جعلها سقفاً للمخلوقات، وبناءً للأرض، تستمد منها أنوارها، ويُقتدى بعلاماتها ومناراتها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

فالمراد بالسقف: السماء، وهي عالية مرفوعة بلا عمد.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

أما العرش فهو سقف للجنة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

#### القَسْمُ الْخَامِسُ: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (٦)

أي: المملوء بالماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، وقد اقتضت حكمة الله تعالى عدم جريانه وفيضانه، ليعيش الناس والنبات والدواب على وجه الأرض.

وقد يراد بالمسجور: المملوء بالنار، والنار تحت الماء في البحار، والبحار تُملاً يوم القيامة بالنار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

(١) «تفسير الطبري» (٥٦٣/٢١) وبه قال مجاهد والضحاك وابن زيد، يُنظَر: «المطالب العالية» عن إسحاق بن راهويه (٤١٢٢) والبيهقي (٣٩٩١).

(٢) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣٠٨/٦): إسناده صالح عن ابن مَرْدُؤَيْهِ.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير] أي: أضرمت فيها النار وألتهبت، فتصير ناراً تلظى ممثلة على سعتها وعظمتها.

عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأل يهودياً: أين جهنم؟ قال: هي البحر، فقال علي: ما أراه إلا صدقاً ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير]. ولعل المراد به: جنس البحار، أو البحر الأحمر، لمناسبته للطور والكتاب المسطور وغرق فرعون.

ويبدو أن الرق المنشور: صحائف موسى، وأن البحر المسجور: هو البحر الأحمر، حيث أغرق الله فرعون، وقضت أمواج البحر على الألوهية المزورة.

فمن جانب الطور نُودي موسى عليه السلام ليقيم حرباً على وثنية فرعون، وليأخذ التوراة فيقيم بها ديناً ودولة، كما نُودي محمد عليه السلام من جانب البيت العتيق ليرسي دعائم التوحيد، فيأخذ القرآن ويقيم به ديناً ودولة.

أما عيسى عليه السلام فقد جاء بالإنجيل معتمداً على ما في التوراة من تشريع، ولِيُحِلَّ لبني إسرائيل بعض ما حُرِّمَ عليهم في التوراة بسبب ظلمهم وبغيهم، وليصدق ما قبله من كتب، ويبشر بخاتم المرسلين وقرآنه الباقي إلى آخر الدهر.

وهكذا أقسم الله تعالى بخمسة أشياء، هي:

جبل الطور في سيناء، والتوراة، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور.

وقد أقسم الله تعالى بهذه الخمس للدلالة على أنها آية من آيات الله دالة على وحدانيته تعالى وبراهين قدرته وبعثه للأمم.

والمقسّم عليه في الآيات السابقة هو قيام الساعة، ونزول العذاب بالكفار، وأنه ليس له من دافع يدفعه عن المستحقين له: قال تعالى:

٧، ٨- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ فِعٌّ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

أي: إن عذاب الله نازل بالمكذبين والمشركين نزولاً لا شك فيه يوم القيامة، فهو واقع

بهم لا محالة، ولا يخلف الله وعده، وليس لذلك اليوم ما يُعده ولا ما يمنعه ويدفعه، ولا يوجد من يقيهم منه بشفاعه أو معارضة.

وَرَدَّ أَنْ عَمَرَ ﷺ لما سمع هذه الآيات أخذ يبكي ويبكي حتى صار له خطان أسودان في وجهه، وانتفخت جفون عينيه.

وفي رواية: أنه نزل عن حمارة واستند إلى حائط وقال: قسم - ورب الكعبة - حق. وظل وقتًا طويلاً، ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعودة الناس لا يذرون ما مرضه، ﷺ<sup>(١)</sup>.

ولما سمعها جبير بن مطعم ﷺ أسلم، وقال: ما كنت أظن أنني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب<sup>(٢)</sup>.

### الْفَنَاءُ الْمُؤَذِّنُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ

٩-١٢ - ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَسَيِّرُ الْجِبَالِ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم بين سبحانه اليوم الذي يقع فيه هذا العذاب، فبين أنه اليوم الذي تتحرك فيه السماء، وتضطرب أجزاؤها اضطراباً كبيراً، ويختل نظامها من شدة الأهوال فتمور، أي: تدور كما تدور الرّحى، وتتكفأ بأهلها، وتدوم حركتها ولا تسكن، وذلك يوم القيامة عند نهاية الحياة ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ﴿٨﴾﴾ [المعارج].

﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان].

ويوم القيامة تسير الجبال، فتزول عن أماكنها، وتسير كما يسير السحاب، فتُتسَفَّ نسفاً من فوق وجه الأرض وتفتت كالرمال، ثم تصير كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾﴾ [طه].

وتكون هباءً منثوراً ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة].

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿١﴾﴾ [المعارج].

(١) مسند عمر (٦٠١/٢) وأبو عبيد في «فضائله» عن الحسن ص ٦٤ وأحمد في «الزهد» عن مالك بن مغول.

(٢) «تفسير الخازن» (١٨٧/٤).

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وذلك كله لعظم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والزلازل، التي تُزعج الأجرام العظيمة، فكيف بالإنسان الضعيف!

والحكمة في ذلك أن الجبال والبحار والشمس والقمر وغير ذلك، خلقها الله تعالى لعمارة الدنيا، وانتفاع بني آدم بها، ولَمَّا لم تَبْقَ عودة إلى الدنيا، أزالها الله تعالى لخراب الدنيا وعمارة الآخرة، ويومئذ تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات.

فالهلاك في هذا اليوم واقع بالذين كذَّبوا بما جاءهم به الرسول ﷺ من توحيد الله تعالى، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وكل ما جاء به القرآن، وهو منتهى سوء الحال لهم.

فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل والكذب، كقولهم:

﴿لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فَيُكذِّبُونَ بالقرآن ويسخرون من الإسلام، وقد عاشوا حياتهم الدنيا في غفلة وسهو عن لقاء الله تعالى، فكانوا يلهون ويلعبون، ولا يذكرون حساباً ولا ثواباً ولا عقاباً، وكانوا منشغلين بأسلحة الدمار الشامل والعلوم الضارة التي تهلك الحرث والنسل، بخلاف ما عليه أهل الصدق والإيمان، وأصحاب العلم الشرعي والعلوم النافعة للبشرية.

### مَشْهَدُ عَذَابِ الْمُكذِّبِينَ وَهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

١٣-١٥- ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً<sup>(١)</sup>﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٤﴾

أَفِيسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾

ثم وصف الله سبحانه دخولهم النار، فبين أنهم يُدْفَعُونَ إليها دفعاً بقسوة وغلظة وعنف، حيث تجتمع الخزنة أيديهم إلى أرجلهم، وتأخذ بنواصيهم، وتدفعهم على وجوههم إلى النار دفعاً ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ﴾ أي: يُسَاقُونَ بعنف ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ وهذا

(١) عد الشامي والكوفي لفظ (دعا) آية، ولم يعده غيرهما.

حال الخائف المتقهقر، حيث يُساق إلى النار سَوْقًا فيه إهانة وزجر.

وتقول لهم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى النار، توييحًا وتعنيفًا لهم، حين يَصِلُونَ بهم إلى حافة النار: ﴿هَذِهِ﴾ هي ﴿النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ لقد كنتم في الدنيا تُكذبون بالبعث والحشر والعذاب، فهذا هو العذاب ماثل أمام أعينكم، لا سبيل إلى إنكاره ولا تكذيبه.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي تشاهدونه بأعينكم، وقد كنتم تزعمون في الدنيا أن محمدًا ساحر، وأن ما يقوله ساحر، فهل ما ترونه سحر؟ ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾ المرئيات، كما كنتم تقولون في الدنيا ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وتقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥] فهل سُكِّرَتْ أبصاركم وَعَمِيَتْ عن رؤية العذاب، أم أن الحجاب قد منعكم الرؤية؟

والجواب على ذلك: أن القرآن ليس بسحر، بل هو أحق الحق، وأصدق الصدق، وهم قد رأوا بأعينهم صدق ما أخبرهم به رسول الله ﷺ، فلا مجال للإنكار والتكذيب، وهذا تأنيب لهم على ما سبق منهم من تكذيب في الدنيا، وعند رؤية المكذبين للنار يقال لهم:

١٦- ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: وعندما يَدْفَعُ خزنة النار بأهلها إلى جهنم، يقولون لهم تَيْئِسًا: ذوقوا حرَّها ولهيبها، وادخلوها صاغرين، سواء أصبرتم على سعيها أم لم تصبروا، فإنها مأواكم ومصيركم، لا مفر منها ﴿أَصْلَوْهَا﴾: ادخلوها، فهي محيطة بكم، مستوعبة لجميع أبدانكم مطلعة على أفئدتكم ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على ألمها وشدتها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء أصبرتم أم لم تصبروا، فلن يُخَفَّفَ عنكم من عذابها، ولن تخرجوا منها، وجزاؤكم فيها أمرٌ حتمٌ، ولا رجاء في خروجكم منها، وقد فعل الله بكم ذلك بسبب ذنوبكم ومعاصيكم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب، وأنتم مخلدون فيها أبدًا، تتلون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالصبر والجزع لا ينفعان شيئًا، وهذا كقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فالجزاء من جنس العمل، وإذا كان الجزاء واقعا حتماً كان الصبر وعدمه سواء.

## عَشْرَةُ أَلْوَانٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا ذكر ﷺ حال أهل الكفر، بيّن حال الذين صدّقوا بالله ورسوله واليوم الآخر، وامثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، قد أعد الله لهم ألواناً من النعيم المقيم عند رب العالمين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: إن الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله عنه يكونون يوم القيامة في حدائق وبساتين، وأشجار ملتفة، وأنهار متدفقة، وقصور محدقة، ومنازل مزخرفة، تجري بين قصورها أنهار الجنة، وهم في نعيم دائم لا يتقطع، ويشمل نعيم القلب والروح والبدن، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَاذًا ﴿٣١﴾ حُدُودًا وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبا].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾

[القمر: ٥٤، ٥٥] وفي هذا تباين بين حال المتقين وحال المكذبين السابق ذكرهم.

ثم أخذ سبحانه يُعَدِّد ألواناً من نعيم أهل الجنة، فذكر عشرة من نعيمهم، فهم:

## أَوَّلًا: فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ بِمَا أُعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالسَّعَادَةِ

١٨- ﴿فَكَهَيَّبِينَ ﴿١﴾ بِمَا آتَيْنَاهُمْ رَيْثُكُمْ﴾

إنهم يتنعمون ويتلذذون بما أعطاهم ربهم من أصناف النعيم المذكور في الآية السابقة، من المأكل، والمشرب، والمسكن، والملبس، والمركب، حيث يكونون ﴿فَكَهَيَّبِينَ﴾ أي: مسرورين فرحين، أو أنهم ذؤو فاكهة من فواكه الجنة ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ رَيْثُكُمْ﴾ فقد أرضاهم بما يحبون من أصناف النعيم والسعادة الكاملة، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو فضل من الله تعالى وإكرام لهم، ومنة عليهم، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

(١) قرأ أبو جعفر بحذف ألف (فاكهين)، والباقون بإثباتها.

ثَانِيًا: فَوَزُّهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ﴿وَوَقَّهَتْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .  
أي: نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ .

كما قال تعالى ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وأي فوز أعظم من أن يصرف الله عنهم أهوال جهنم؟

ومن أوصاف عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [١٥] ﴿[الفرقان]

لقد نجاهم الله من عذاب الجحيم، لأنهم فعلوا ما يرضى الله وتركوا ما يسخطه .

### ثَالِثًا: تَهْنِئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ

١٩- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٩]

وكما قيل لأهل النار: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ يقال لأهل الجنة على وجه التهئية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من كل ما تشتهون ﴿هَنِيئًا﴾ مريئًا لكم، فلا تُخْمة ولا سقم، ولا تنغيص ولا كدر، جزاء لكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما قدمتموه من صالح الأعمال في الدنيا، فطعامكم هنيء، لا يلحقه تعب ولا مرض، ولا عُسر هضم، ولا حموضة ولا سمنة، وشرابكم سائغ فيه تفكُّه وتلذذ، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [١٤] ﴿[الحاقة]. وكل ذلك على وجه الفرح والسرور والحبور .

### رَابِعًا: هَيْئَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَالِ اتِّكَائِهِمْ عَلَى السَّرْرِ

٢٠- ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ (١) عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

الاتكاء على الفرش والسُّرُر حال الأكل والشرب، شأن أهل الترف والرفاهية في الدنيا، كما قال تعالى عن نساء القصور من عليّة القوم: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَكُمْ مَكَّاءًا﴾ [يوسف: ٣١] .

والاتكاء هو الجلوس على وجه الراحة، والأرائك جمع أريكة، وهي ما يُتَكَوُّ عليها من الفرش والمزخرفة المزيّنة الفاخرة، ووصفها الله تعالى بأنها مصفوفة، لكثرتها وحُسن

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكئين) وصلًا ووقفًا، هكذا (متكين) ولحمزة وقفًا: الحذف والتسهيل بين بين، وقرأ الأزرق بتثنية البدل، قصر وتوسط ومد .



تنظيمها وجمال رونقها، واجتماع أهلها عليها بسرور وحسن معاشرة.

وكان الأكاسرة وأباطرة الرومان يتكثرون وهم يشربون الخمر، وليس هذا من شأن المتقين في الدنيا، كما قال ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكئا»<sup>(١)</sup>.

أما في الآخرة فإنهم يأكلون ويشربون حال كونهم ﴿مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ متقابلين في مواجهة بعضهم البعض، وهذا لتمام الأُنس وحُسن المجالسة، كما قال تعالى:

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال ﷻ: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان].

### خَامِسًا: الْحُورُ الْعَيْنُ

وفضلاً عن ذلك فإن الله تعالى جعل لكل فرد في الجنة زوجاً من الحور العين، قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن نساء حسان بيض، واسعات العيون، أي: قرنائهم بنساء من الحور العين.

والحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، سواء أكنَّ مخلوقات في الجنة لأهل الجنة، أم كنَّ نساء للمؤمنين في الدنيا، فأنشأهن الله إنشأً، وجعلهنَّ عُرْبًا أتراباً، أي: متحبيبات لأزواجهن، أبكاراً لا نثيات، وهنَّ أتراباً، أي: في سن الثالثة والثلاثين، وهو أفضل سن للمرأة، ويقال للجميع: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف].

والحور: من الحُور، وهو شدة البياض مع شدة السواد في العين.

والعين: جمع عيناء، وهي المرأة واسعة العين.

(١) من حديث أبي جُحَيْفَةَ في صحيح سنن الترمذي (١٨٣٠) وصحيح ابن حبان (٥٢٤٠) والنسائي (٦٧٤٢) والبيهقي (١٣٠٣).

## سَادِسًا: إِنْحَاقُ الْأَدْنَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ بِالْأَعْلَى مِنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ

٢١- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (١) وَمَا أَنتَهُم (٢) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

ومن فضل الله تعالى على أهل الجنة أن يُلحق الأدنى منهم درجة في الجنات، بمن هو أعلى في درجات الجنان، من الذرية والآباء والأمهات والزوجات، بشرط أن يكونوا من المؤمنين، ولكنهم في درجة أقل مرتبة، فيُلحق الأدنى بالأعلى إكراماً لهم، ومن تمام نعيمهم؛ كي تفر أعينهم وتطيب نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ أي: بشرط أن يكون الأبناء مؤمنين مثل آبائهم، فهم شركاء في الإيمان، ولذا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلناهم معهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغوا درجة آبائهم في الإيمان، لتقر أعين الآباء بالأبناء في مكان واحد، على أحسن الوجوه، ولتجتمع لهم أنواع السعادة والسرور في أنفسهم، بمزاوجة الحور العين، ومؤانسة الإخوان المؤمنين، واجتماع نسلهم بهم، ومساواتهم لهم في العطاء والنعيم والمنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم، فضلاً من الله وكرماً.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالذرية: الصغار الذين هم دون سن البلوغ، ولم يصلوا إلى درجة التكليف وتحمل الإيمان .  
ولعل هذا الإلحاق من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته.

جاء في الأثر عن ابن عباس أيضاً: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر به عينه، ثم قرأ الآية (٤).

(١) قرأ أبو عمرو (وَأَتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) مفعولاً ثانياً، وقرأ ابن عامر ويعقوب (وَأَتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) فاعل .  
وقرأ الباقر (وَأَتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) فاعل .

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) مفعول به، والباقر (ذُرِّيَّتَهُمْ).

(٣) قرأ ابن كثير بكسر لام (وما أَلْتَنَاهُمْ)، والباقر بفتحها، ورؤي عن قبل وجه آخر بحذف الهمزة، وكلها لغات.

(٤) جاء هذا الأثر من طريقتين بألفاظ متقاربة، يُنظر: «تفسير الطبري» (١٥/٢٧) وصححه الحاكم (٤٦٨/٢) وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجموع» (١١٧/٧): رواه البزار، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف، وأخرجه البيهقي في «السنن» (٢٦٨/١٠) والبزار في «الكشف» (٢٢٦٠).

وهذا الإلحاق كرامة للآباء، وإلا لكانت معاملة الأبناء على حسب أعمالهم، ومع هذا فإن الله تعالى لم يُنقص الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ﴾ أي: وما نقصنا الآباء شيئاً من ثواب أعمالهم، فالمقصر يلحق بالمحسن، والمحسن لا ينقص من أجره شيء.

قال الجمل: والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به مَنْ هو دونه في العمل، أيًا كان، أبًا أو ابنًا، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره<sup>(١)</sup>. وقد ورد في ذلك أحاديث، منها ما جاء:

١- عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يارب، إني عملتُ لي ولهم، فيؤمر بالحاقهم به» وقرأ الآية<sup>(٢)</sup>.

٢- وعن علي رضي الله عنه قال: سألتُ خديجة النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال صلى الله عليه وسلم: «هما في النار» فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»، قالت: يا رسول الله، فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ الآية<sup>(٣)</sup>.

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب، أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»<sup>(٤)</sup>.

٤- وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: من

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٢١٦/٤).

(٢) الطبراني في «الصغير» (٦٤٠) وفي «الكبير» برقم (١٢٢٤٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١١٧): فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

(٣) من زوائد عبد الله بن أحمد على «المسند» (١٣٤/١) (١١٣١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٧١): فيه محمد بن عثمان لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعفه محققو «المسند».

(٤) «المسند» (٥٠٩/٢). ورقمه (١٠٦١٠) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٦/١٠) وابن ماجه (٣٦٦) والبخاري في كشف الأستار (٣١٤١) وغيرهم وهو في صحيح الجامع (١٦١٧).

صدقة جارية، أو علم يتفجع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(١)</sup>.

وربما توهم بعض الناس أن أهل النار، يُلحق الله بهم ذريتهم كأهل الجنة، فرجع الله هذا الوهم، وبين سبحانه أن من عدل الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بذنب، فأخبر سبحانه أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، وأن كل إنسان مرهون بعمله، لا ينفعه غيره، سواء أكان أباً أو أمًّا، أو ابناً أو زوجة... ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهو مرتهن بعمله، لا يحمل وزر غيره ولا ذنب غيره، وهذا الارتهان خاص بالكافر، فإن كان العبد مؤمناً صالحاً سعد وفاز؛ لأن عمله الصالح أطلقه وفكَّ أسرهِ، وأدخله الجنة مباشرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَعْتَبَ الْيَتِيمَ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّتِ يَسَاءَ لَوْنَ ﴿٤١﴾ عَنِ الْمَجْرِيْنَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر].

فالمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله، أما الكافر فإنه مرهون بعمله، لا ينفك عنه إلا بعد أدائه وحسابه.

## سَابِعًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَزَوَّدُونَ مِنَ اللَّحُومِ وَالْفَاكِهَةِ مَا يَشْتَهُونَ

٢٢- ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: وزدنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، فوق ما ذُكر من النعيم ألوانًا من الفاكهة المنوعة وأصناف اللحوم المختلفة، من كل ما يُستطاب ويُشتهى، ولعل هذه الآية فسرت بقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الواقعة].

والمعنى: زدناهم على ما ذُكر من النعيم من الأكل والشرب الهنيء، فاكهةً ولحمًا مما يشتهون، من كل مالدّ وطاب من أنواع الفواكه واللحوم وسائر ألوان المتع والنعيم.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) و«المسند» (٨٨٤٤) بإسناد صحيح و«شرح مشكل الآثار» (٢٤٦)، وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤) وابن حبان (٣٠١٦).

## ثَامِنًا: خَمْرُ الْآخِرَةِ لَا تُؤَثِّرُ عَلَى الْعَقْلِ وَلَا عَلَى اللِّسَانِ

٢٣- ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا<sup>(١)</sup> لَا لَعْوٌ<sup>(٢)</sup> فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ<sup>(٣)</sup>﴾ ﴿٢٣﴾

ومن نعيم أهل الجنة: أنهم يتعاطون فيها كأسًا من الخمر، يُناول كلُّ واحد منهم صاحبه لِيَتَمَّ بذلك سرورهم، وهذا الشراب مخالف لخمير الدنيا، فلا يزول به عقل شاربه، ولا يحصل بسببه لَعْوٌ، ولا كلام فيه إثم أو معصية، ولا باطل، ولا رَفَثٌ، ولا تخاصم، كما يحدث ممن يشربون الخمر في الدنيا ﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يَصُبُّ بعضهم لبعض، ويناول بعضهم بعضًا في جو من السَّمَرِ والمداعبة، والإيثار والكرامة، هذا هو معنى ﴿لَا لَعْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ ﴿٢٥﴾ [النبا].

وإذا انتهى ما في الجنة من الكلام الذي لا فائدة فيه، والكلام الذي فيه إثم ومعصية، ثبت أن كلامهم كله طيب طاهر، فيه مسرة للنفوس وفرح للقلوب وحُسن معاشرة.

والكأس: هي الإناء الذي يُشرب فيه الخمر، لا عُزْوَةٌ له ولا خُرطوم، ولا يقال له كأس إلا إذا كان فيه خمر، وإلا فهو كوب.

واللغو: هو الكلام الساقط الذي يُنبئ عن خلل في العقل.

والتأثير: ما يؤثِّم قائله أو فاعله شرعًا أو عرفًا.

قال قتادة: نَزَّهَ اللهُ خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صُداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهديان والفحش، ووصفها بحُسن منظرها، وطيب مطعمها، فقال:

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات].

(١) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (كأسًا) ألفًا وصلًا ووقفًا، والباقون بإثباتها ساكنة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الواو من (لغو) وفتح الميم من (تأثير) مع عدم التنوين فيهما على أن (لا) نافية، والباقون بالرفع فيهما مع التنوين على أن (لا) نافية للوحدة.

(٣) أبدل همزة (تأثير) ألفًا ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وهمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

## تَاسِعًا: خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ غِلْمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَصُونِ فِي أَصْدَافِهِ

٢٤- ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴾ (٢٤)

ومع أن الجنة لا نصب فيها ولا تعب، ولا شغل ولا عمل، إلا أنه من تمام النعيم أن يكون في الجنة غلمان دون سن البلوغ، مُعَدُّون للخدمة، يطوفون حول المؤمنين في الجنة، يناولونهم الكؤوس وغيرها، في لذة وسرور، من غير سامة ولا ملل، وهؤلاء الغلمان قد خلقهم الله في الجنة لهذا الغرض.

قيل: إن أولاد المشركين الذين هم دون سن التكليف هم خدم أهل الجنة<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ قد أعدهم الله لخدمتهم، وهم صغار في السن لتكون حركتهم خفيفة ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الصفاء والبياض والحسن ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴾ أي: لؤلؤ مصون في أصدافه، لم تمسه الأيدي.

قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الواقعة].

وقال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشْتُورًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنسان: ١٩].

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف المخدم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»<sup>(٣)</sup>.

## عَاشِرًا: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَجَاذِبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا

٢٥، ٢٦- ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(١) أبدل الهمزة الأولى من (لؤلؤ) واوًا أبو عمرو بخلف عنه، وشعبة وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف، أما الهمزة الثانية فيبدلها وقفا هشام بخلف عنه، وحمزة، ولهما أيضا تسهيلها مع الرّوم، ولهما كذلك إبدالها واوًا خالصة مع السكون والرّوم والإشمام.

(٢) «تفسير القرطبي» (٦٩/١٧).

(٣) حديث مرسل أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/٢٧) وأورده السيوطي في «الدر المشور» (١٣/٧٠٦) ولعبد الرزاق (٢٤٨/٢) وابن المنذر، وقال ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١٦٠): رواه عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة به.

والتحدث بنعمة الله تعالى، وتجادب أطراف الحديث بين الجلساء في الجنة، والمؤانسة بينهم، من نعيم الله تعالى على أهل الجنة، فإن أهل النار يكونون في غمٍ وكربٍ ونكدٍ، وكلٌّ منهم لا يفكر إلا في نفسه.

والمعنى: وأقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن عظيم ما هم فيه من نعيم لا ينفد، وعما كانوا فيه في الدنيا من أحوال، وهذا من باب التحدث بالنعمة، والتلذذ بالحديث، وهم يتذكرون ما هم فيه من حُسن العاقبة، إلى جوار سوء عاقبة أهل النار.

ومن ذلك ما ذكره القرآن عن الصّديقين اللذين دخل أحدهما الجنة، والآخر النار.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَبِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى أن قال لجلسائه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُمْ مَّظْلُومُونَ ﴿٥١﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات]

وهكذا يسأل بعضهم بعضاً من باب المؤانسة والمحبة والمودة.

أخرج البزار عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ ذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كئنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا»<sup>(١)</sup>.

ويقول كل مسؤول لسائله: إنا كنا بين أهلينا في الدنيا نعيش خائفين من أهوال يوم القيامة، وكنا نعمل الصالحات، ونرجو من الله أن يقبلها منا، ويرضى عنا بها ﴿قَالُوا﴾ أي: قال المسؤولون للسائلين: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عذاب الله وعقابه، نخاف من رد الحسنات، والأخذ بالسيئات.

ولكن الله تعالى منّ علينا بالإيمان والعمل الصالح، فوفّقنا للطاعة والعبادة، وكان ذلك سبباً للفوز بالجنة والنجاة من النار:

(١) أخرجه البزار (٣٥٥٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢١/١٠): رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح، وهما ضعيفان وقد وثقا.

٢٧، ٢٨ - ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ ﴿٢٨﴾ هُوَ أَلْبَرُّ الرَّحِيمِ ﴿٢٨﴾﴾

أي: لقد تفضل الله علينا بالهداية والتوفيق، وأكرمنا بالجنة، ومنَّ علينا بالعتق والمغفرة والرضوان، وأذهب عنا الحزن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

وأجارنا مما نخاف، وحمانا من نار جهنم، وأنقذنا من حرها وسعيرها ﴿وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ فتزداد لذة المؤمن حيث انتقل من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، كما يزداد الكافر حسرة وألمًا، حيث انتقل من نعيم الدنيا إلى نار جهنم.

والسَّمُوم: الريح الحارة التي تدخل المسام.

ويقول أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبد الله وحده، ونبتهل إليه، ونتضرع إليه، ولا نشرك معه أحدًا، ونسأله سبحانه أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، أي: لم نزل نتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات ﴿إِنَّهُ هُوَ أَلْبَرُّ الرَّحِيمِ﴾ فاستجاب لنا ربنا وأعطانا سُؤْلَنَا، ومن برّه بنا ورحمته لنا أن أنالنا رضاه والجنة، وحفظنا من سخطه والنار.

لَمَّا قرأت عائشة ؓ هذه الآية، قالت: اللهم مُنِّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم، قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم<sup>(٢)</sup>.

## وَجُوبُ الْمُتَابِرَةِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ أُوذِيَ الدَّاعِي

٢٩ - ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

(١) فتح همزة (إنه) نافع والكسائي وأبو جعفر على تقدير لام التعليل، أي: لأنه، والباقون بكسرها على الاستئناف، وقرأ ابن كثير بصله هاء الضمير في (ندعوه).

(٢) عبد الرزاق (٤٠٤٨) وابن أبي شيبة (٢/٢١١) والبيهقي في «الشعب» (٢٠٩٢).

(٣) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (بنعمت) على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقون بالتاء تبعًا للرسم، وأمالها الكسائي وقفًا.



هذا أمر من الله تعالى بالقيام بواجب الدعوة إلى الله سبحانه، ومتابعة نشر الإسلام في العالم، فيذكر الناس جميعًا كافرهم ومسلمهم، بأمر الله ونهيه في كتاب الله وسنة رسوله، لتقوم الحجة على الضالين، ويهتدى بتذكيره الموقفون.

وذلك أنه بعد أن ساقَت السورة ألوانًا من الوعد والوعيد، والعذاب والنعيم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمثابرة على الدعوة، وملازمة التذكير، إنذارًا للكافرين، وتبشيرًا للمؤمنين، وأن يمضي ﷺ في طريقه دون أن يهتمَّ بأكاذيب المبطلين.

فداوِم -أيها الرسول- على التذكير حتى يرعوي بعض المكذبين عن كذبهم، ويزداد المصدقون توغلًا في إيمانهم.

ولما كان أثر الدعوة أهم بالنسبة للمكذبين لعلمهم يهتدون، ناسب ذلك أن يتبع القرآن شبهاتهم واتهاماتهم لتبترئة الرسول ﷺ منها، حتى يزول ما علق في نفوسهم.

وتبدأ الآيات بتبرئة الرسول ﷺ من صفتين قبيحتين رماه بهما الكفار، وهما: الكهانة، والجنون، وكانت العرب تألف وجود الكهانة والجنون في بعض الناس.

﴿فَذَكِّرْ﴾ -يا رسولنا - مَنْ أُرْسِلتَ إِلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَاثْبِتْ عَلَيَّ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالتَّذْكِيرِ ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بما أنعم الله عليك بالنبوة والرسالة ورجاحة العقل، وعصمته لك ﴿يَكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يزعم الكافرون.

وهكذا: نفى الله سبحانه عن رسوله ﷺ كل نقص، وأثبت له كل كمال، وبيّن أنه أكمل الناس عقلًا، وأبعدهم عن الهوى والشياطين، وأعظمهم صدقًا، وأرجحهم رأيًا.

والكاهن: هو الذي يُخبر بالغيب دون علم، والمجنون: هو الذي لا يعقل ما يقول، فلست كما يدعون أيها الرسول -وحاشاك- وإنما أنت تنطق بالوحي عن ربك، قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير].

فمن أين تأتي الكهانة لدين التوحيد والفترة؟ ومن أين يأتي الجنون لدين العقل والحكمة؟

## قَذَائِفُ الْحَقِّ تَدْمَغُ الْبَاطِلَ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ اسْتِفْهَامًا

٣٠، ٣١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرٰىصٌ بِهٖ رَبِّبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرٰىصُوا فِإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنٰرِىصِينَ﴾

أخذت السورة بعد ذلك في تقرّيع الجاهلين بأسلوب استنكاري، فيه التعجب من جهالاتهم، والرد على أكاذيبهم، فسأقت شبهاتهم وردّت عليها بأسلوب يبدأ بلفظ ﴿أَمْ﴾ خمس عشرة مرة، كلها إلزامات ليس لديهم جواب عليها، فالإسلام ليس فيه عوج ولا خطأ ولا شرود، وهي استفهامات متعاقبة كأنها صدمات كهربائية توقظ الإنسان، وتنقله من حال إلى حال، وترغمه على التفكير والتأمل، وهذه الاستفهامات، منها ما يتعلق بالوحي والرسالة، ومنها ما يتعلق بالتوحيد والعقيدة:

### الِاسْتِفْهَامُ الْأَوَّلُ: عَنِ تَرَقُّبِ نُزُولِ الْمَوْتِ بِالرَّسُولِ

بل أيقول المشركون عنك -يا محمد-: هو شاعر ننتظر نزول الموت به، فينقضني أمره ويذهب ما جاء به من هذا الدين؟

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشًا اجتمعت في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال قائل منهم: احتبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ويموت، كما هلك من هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابعة، والأعشى، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>.

فكانوا يقولون: ننتظر به حوادث الدهر حتى يموت ويهلك، كما هلك من قبله من الشعراء، أو يفرق عنه أصحابه، وإن أباه مات وهو شاب، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه<sup>(٢)</sup>.

وفسّره ابن عباس بالموت، والمنون: هو الدهر، أي: نتربص به حوادث الزمن، والمنون أيضًا: اسم من أسماء الموت، وهو واحد لا جمع له.

والريب: هو الحدث، كما قال قتادة: تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه، كما كفاكم

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٢٧) و«تفسير الألويسي» (٣٦/٢٧) وهو في «سيرة ابن هشام» (١/٤٨٠).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/١٨٨).

شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان.

وقد نفى القرآن صفة الشعر عن النبي ﷺ، كما نفى عنه صفة الكهانة التي جاءت في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس].  
إن محمداً ﷺ ليس بشاعر، وكتابه مشحون بالحقائق لا بالخيالات كما قال تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بجواب منصف؛ لأن حوادث الدهر مشتركة بين الجانبين، ولا يدري أحد بأي من الطرفين تحل.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿تَرَبَّصُوا﴾: انتظروا موتي أو هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِبِينَ﴾: المنتظرين نزول العذاب بكم، وأن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، وسترون لمن تكون العاقبة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة].

أي: منتظرون عاقبة الأمور، فأنا واثق من نصر الله تعالى، وقد أذاقهم الله ألواناً من العذاب في غزوات الرسول ﷺ، وبأيدي المسلمين في كل زمان ومكان.

### الِاسْتِفْهَامُ الثَّانِي: عَنِ تَسْفِيهِ الدَّاعِيَةِ وَإِلْصَاقِ التُّهْمِ بِهِ

٣٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ (١) أَحَلَّهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إن عظماء قريش كانوا يوصفون بأولي الأحلام والعقول، وكذا أمثالهم من العلمانيين والجاهدين، فكيف يقولون: إن محمداً شاعر، أو كاهن، أو مجنون؟ وكيف التبس عليهم الحقائق واختلطت عليهم الأمور، فلم يميزوا ويفرقوا بين الكاهن وغيره،

(١) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاس ضممتها في (تأمرهم) ودوري أبي عمرو، له الإسكان والاختلاس وإشمام الحركة، والباقون بإتمام الحركة.

والمجنون وغيره؟! وهم لا يجهلون حال محمد ﷺ، ويعرفون أن هذه الأوصاف لا تنطبق عليه ﷺ وقد اعترف بذلك بعض زعمائهم كالوليد بن المغيرة.

قيل لعمر بن العاص ؓ: ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي: لم يصحبها التوفيق والرشاد.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ﴾ بل أعقول المكذبين تأمرهم ﴿بِهَذَا﴾ الكلام المتناقض، وهو دعوى أن القرآن سحر أو شعر أو كهانة، فأين عقولكم؟ وكيف لا تميز بين الحق والباطل؟ وكيف تصف محمداً ﷺ بالأوصاف المذكورة مجتمعة أو متفرقة؟ فالعقول السليمة لا تأمر بهذا؛ لأن أصحابها يترفعون عن اختلاق هذه التهم وإصاقها بأفضل الخلق ﷺ، فبئس العقول والأحلام التي صدر عنها ما صدر، فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً، جعلته مجنوناً، وجعلت أحق الحق وأصدق الصدق كذباً وباطلاً، لهي عقول المجانين.

والحلم: يطلق في الأصل على ضبط النفس عند هيجان الغضب، ويطلق على سعة الصدر وحسن الخلق.

### الِاسْتِفْهَامُ الثَّلَاثُ: لِبَيَانِ أَنَّ الطُّغْيَانَ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى تَكْذِيبِ الدُّعَاةِ

وبعد هذا التهكم اللاذع يأتي هذا الوصف المزري لبيِّن للكفار أن الطغيان قد تأصل فيهم وخالط نفوسهم، فدفعهم ذلك إلى مثل هذه الأقوال، فإذا انتفى أن عقولهم لم تأمرهم بذلك، لم يبق إلا أنهم قوم طغاة ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فالطغيان هو الباعث الأول الذي حملهم على التكذيب، وهم قوم قد تجاوزوا الحد في أقوالهم وأفعالهم.

### الِاسْتِفْهَامُ الرَّابِعُ: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامَ بَشَرٍ فَمَا الَّذِي يَمْنَعُ الْبَشَرَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؟

٣٣، ٣٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾

ثم تناولت ألسنة المكذبين على رسول الله ﷺ فاتهموه بافتراء ما يقول، ولذا فإن السؤال هنا يأتي باستنكار قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ بل يقول الجاحدون المكذبون: إن محمداً ﷺ افتري هذا القرآن من تلقاء نفسه؟

والتقول: نسبة الكلام إلى أحد لم يقله، أو هو تكلف القول، وتقول عليه، أي: كذب

عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِيٰ عَلَيْنَا عَنَّا وَإِذَا لَأَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

ثم ابتداء سبحانه الرد عليهم في زعمهم أن القرآن مفترى بقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هم لم يصدقوا بالقرآن أصلاً، استكباراً وعناداً، ولو أنهم آمنوا به لم يقولوا ما قالوه فيه.

إن دلائل تنزيه النبي ﷺ عن دعوى التقول بالقرآن -أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولكنهم لا يريدون الإيمان، فهم يبادرون إلى الطعن، ويختلقون المعاذير سترًا لمكابرتهم، والذي حملهم على ذلك هو انغماسهم في الباطل وإصرارهم على الجحود.

فإن كان هذا القرآن كلام بشر، فما الذي يمنع البشر من الإتيان بمثله، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ أي: بكلام ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن في نظمه، وحسن بيانه، وبديع أسلوبه ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم أن محمدًا اختلقه، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فإما أن تصدق معارضتهم له، وإما أن يُقرُّوا بصدقه.

ولما كانت مقالتهم بأن القرآن مفترى، طعنًا منهم في المعجزة الدالة على صدق خاتم الرسل ﷺ، ربما تُرُوج على بعض الدهماء، فإن القرآن قد تصدَّى لإبطال دعواهم:

فَتَحَدَّاهُمْ أَوَّلًا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ، وكان عجزهم عن ذلك دليل كذبهم؛ لأن محمدًا ﷺ عربي مثلهم، ينطق بلسانهم، فلو كان قد قال هذا القرآن فما الذي يمنع خاصة العرب البلغاء من تأليف مثله، وفيهم الشعراء والفصحاء؟ فَعَجَزُ الْبَشَرِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

ثم تحداهم ثانيًا إذا كانوا قد عجزوا عن الإتيان بمثله كله، فليأتوا بمثل عشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مَفْرُوتٍ﴾ واستعينوا على ذلك بمن شئتم من البشر ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

والأمر ليس كذلك، فالمانع لهم من التصديق هو الجحود والمكابرة، قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا بُدَّؤُنْكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فلما عجزوا عن ذلك، تحداهم القرآن ثالثاً أن يأتوا بسورة واحدة من مثله:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ معناه: أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، أي: بكلام يشبهه.

وقد نفى الله تعالى هذا في قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وقوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِنُورٍ أَوْهَاءٌ هُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرُ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١].

وفي هذه الآيات إلهاب لعزيمتهم؛ ليأتوا بكلام يماثل القرآن، وعدم استجابتهم دليل على كذبهم، والتحدي بالقرآن قائم إلى قيام الساعة، على كل مكابر معاند مكذب.

وهم على هذا، إما مؤمنون مهتدون، وإما معاندون مكذبون.

### الِاسْتِفْهَامُ الْخَامِسُ: هَلْ خَلِقَ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ؟

٣٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾

أي: أُوْجِدُوا من غير موجد؟ أم هم أُوْجِدُوا أنفسهم؟

أو أن المعنى: أخلقوا لغير سبب فلا ثواب ولا عقاب، ولذلك فهم لا يسمعون ولا ينتفعون!؟

ومن أهم أغراض السورة: إثبات البعث والجزاء، وأن إعادة خلق الإنسان أيسر من بدء الخلق، وقد كان الناس عدماً، فأوجدهم الله تعالى، ثم أماتهم، وكما خُلِقُوا من العدم فإنهم يُبعثون بعد موتهم للحساب والجزاء، وخلقُ الناس من غير خالق أمرٌ واضحٌ

البطلان، لا يحتاج إلى الاستدلال، فالصفر لا يُوجد شيئاً.

فيسأل الله تعالى منكري البعث، الجاحدين لوحدانيته تعالى، عن حقيقة وجودهم، وهي حقيقة قائمة، لا سبيل لإنكارها، فيقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أخلق هؤلاء الملحدون من غير خالق؟ هذا شيء تنكره الفطرة، ولا يحتاج إلى جدل.

وهذا استدلال عليهم، لا يمكنهم معه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، فهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وهذا يستلزم إنكار أن الله خلقهم.

### الِاسْتِفْهَامُ السَّادِسُ: هَلْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ؟

ثم يأتي الافتراض الآخر في قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم حتى تجرؤوا على الله تعالى فأنكروا وجوده، ولم يدع أحد من الخلق أنه خلق نفسه، أو خلق غيره، فإذا كانوا لم يُوجدوا بدون واجدٍ، ولم يُوجدوا أنفسهم - فلم يبق إلا أن الله تعالى هو الخالق لهم، وبعبارة أخرى: فإنهم إن أقروا بأنهم لم يُخلَقوا بغير خالق، وأقروا بأنهم لم يَخْلُقوا أنفسهم - لزمهم أن يقولوا أن لهم إلهًا خلقهم، وهو الله سبحانه، فهذه ثلاث حالات ليس لها رابع.

وما دام الله تعالى لم يشاركه أحد في الخلق وجب ألا يشاركه أحد في العبادة، وتكون الحجة قد قامت على العباد بأن لهم خالقًا يجب عليهم الإيمان به.

والقول بأنهم لم يُخلَقوا لشيء زعمٌ باطلٌ، بل خُلِقوا للأوامر والنواهي، ومن ثمَّ للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون].

فالإنسان مخلوق مربوب لله تعالى وهو لا يخلق شيئاً ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ خُلِقَ مِنْ مَّا وُودِقَ

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ [الطارق].

والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ

اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

### الِاسْتِفْهَامُ السَّابِعُ: هَلْ خَلَقَ أَحَدٌ الْعَالَمَ الْعُلُويَّ أَوْ السُّفْلِيَّ؟

٣٦- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦)

ثم يواجههم القرآن بمخلوقات أعظم من خلق الإنسان، وهي السموات والأرض، إنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال، كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم، فهل السموات والأرض خلقت نفسها؟ أم خلقت من غير خالق؟ وهم لم يدعوا أنهم خلقوها ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على هذا الصنع البديع.

ثم بين سبحانه السبب في إنكارهم لوحداية الله تعالى، واليوم الآخربأنهم كفار لا يؤمنون بالله ولا يصدقون ماجاء به رسوله ﴿بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ بعذاب الله تعالى؛ لأنهم مشركون، فإنكارهم البعث ناشئ من عدم يقينهم بالغيب، فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة، وليس عندهم علم تام، ولا يقين يجعلهم ينتفعون بالأدلة الشرعية والعقلية.

وخصَّ السموات والأرض بالذكر لِعِظَمِهِمَا وشرفهما، وهم يعترفون بأن الذي خلقهما هو الله سبحانه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

لقد أوجدنا الله تعالى في عالم ممهد، مسخر لنا، ونحن لم نصنع من ذرأته ولا مجراته شيئاً.

## الِاسْتِفْهَامُ الثَّامِنُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ خَزَائِنَ اللَّهِ؟

٣٧- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾

أي: أم يمكنهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور، كالمال والصحة والقوة وغير ذلك؟ فكلها من خزائن الله تعالى.

ولمَّا تبيَّن على وجه الاستحالة أن البشر لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، فهل هم يملكون خزائن الله فيقبضوا الرزق ويوسعوه على من شاؤوا؟ ويضروا من شاؤوا وينفعوا من شاؤوا؟

وهل يملكون أن يخصوا من شاؤوا بالنبوة والرسالة، ويمنعوا عن من شاؤوا؟ ويتصرفوا كيفما أرادوا؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾؟ وكثيراً ما كانوا يتساءلون: لماذا اختير الأنبياء من بيننا، ولماذا لم يقع الاختيار علينا؟ كما قالوا: ﴿أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]

والله تعالى يبيِّن أنه لو كانت الخزائن بأيديهم لأمسكوا وبخلوا ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء].



والخزائن: جمع خزينة، وهي في الأصل: الصندوق الذي يوضع فيه المال أو القوت، وهو هنا بمعنى: عِلْمُ الله تعالى وإرادته في إعطاء مخلوقاته أو حرمانهم، ومنه: الاصطفاء للرسالة ﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

### الِاسْتِفْهَامُ التَّاسِعُ: هَلْ يَمْلِكُ أَحَدٌ قَهْرَ الْخَلْقِ جَمِيعًا؟

﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُّونَ﴾<sup>(١)</sup> (٣٧)

إذا لم يكن للناس تصرف في رزق الله تعالى، فهل هم الجبارون المتسلطون على خلق الله بالقهر والغلبة؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُّونَ﴾ المتصرفون في الخلق كما يشاؤون؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الضعفاء، وإذا كانت لهم سطوة فليجربوا حظهم.

### الِاسْتِفْهَامُ الْعَاشِرُ: هَلْ اطَّلَعَ أَحَدٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ

٣٨- ﴿أَمْ لَهُمْ سُمْرٌ يَسْتَعْمُونَ فِيهِ فُلْيَاتٌ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانِ مُيِّينَ﴾ (٣٨)

نفي ﴿أَمْ لَهُمْ سُمْرٌ يَسْتَعْمُونَ فِيهِ فُلْيَاتٌ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانِ مُيِّينَ﴾ أن يكون لأحد اطلاع على ما قسمه الله لعباده، فقال على سبيل التهكم ﴿أَمْ لَهُمْ سُمْرٌ يَسْتَعْمُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم مضعد يرتقون به إلى السماء ويستمعون فيه إلى كلام الملائكة، فيصلوا عن طريقه إلى علم الغيب، ويعرفوا أن ما هم عليه هو الحق؟ فإن تيسر لهم ذلك فليتمسكوا به، ويعلموا أنهم على حق، وليأت من استمع منهم إلى كلام الملائكة بحجة تدل على صدق دعواهم بنفي رسالة محمد ﷺ، وهذا معنى ﴿فُلْيَاتٍ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانِ مُيِّينَ﴾ وهيئات، فلا قبل لهم بذلك، وهذا على سبيل التعجيز؛ إذ لا سبيل لهم إلى الاستماع لمصدر التنزيل، ولا يعلم الغيب إلا رب العالمين، ولا يُطلع أحدًا على شيء منه إلا من ارتضى من رسول، فإن الله تعالى يخبره بما يريد، بعد أن يحيطه بالحفظ من الملائكة من بين يديه ومن خلفه.

(١) قرأ هشام بالسین في (المصيطرون) على الأصل، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسین والصاد، وقرأ خلاد بالإشمام والصاد، والباقون بالصاد.

## الِاسْتِفْهَامُ الْحَادِي عَشَرَ: هَلِ اخْتَصَّ اللَّهُ بِالْبَنَاتِ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِمْ؟

٣٩- ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

ثم وبخهم الله تعالى على ما هو أشنع وأقبح من المزاعم السابقة، وهو نسبتهم البنات إلى الله تعالى، ومن الأمور المستحيلة أن يكون لله ولد، فهو سبحانه لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ومع ذلك فإنهم ينسبون البنات إلى الله تعالى، وهم يأنفون منهن، ويعتبرون البنات في درجة أقل من البنين، حيث تَسُوذُ وجوههم كمدًا وغيظًا إذا بُشَّرُوا بهن، وهم لا يستحيون من نسبتهن إلى الله تعالى، وهذا من أقبح المنكرات، وقد سفّه الله عقولهم؛ إذ كيف يجعلون لله ما يكرهون؟ فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ كما تزعمون ذلك افتراءً وكذبًا على الله تعالى، ومن كان عقله كذلك فلا يُسْتَبَعَدُ منه إنكار البعث وإنكار الوحي والرسالة، فليس بعد الشرك بالله ذنب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَهُمْ أَلْسُنٌ نَّكَاتَةٌ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْمِعُوا لِمَا أُنذِرُ أَنْ تُبَدِّلَ أَعْيُنُكُمْ حَبَابًا قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّا صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَعَلَىٰ قُلُوبِهِمْ كُمُودًا لِّئَلَّا يُفَاهِقُوا عَشِيرَتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانُفًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النجم: ٢٢]. لقد جمعوا في شركهم بين نسبة الولد إلى الله تعالى، وبين اختيار أنقص الصنفين له، فهل بعد هذا كُفْرٌ وشرك؟

## الِاسْتِفْهَامُ الثَّانِي عَشَرَ: هَلْ يَطْلُبُ الدَّاعِيَةُ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ؟

٤٠- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

ثم عادت الآيات إلى إبطال الدواعي التي تحمل المكذبين على الإعراض عن دعوة النبي ﷺ، فقال تعالى على سبيل التهكم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ بل أسأل -يا محمد- الناس أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الإسلام؟! إن الأنبياء لم يسألوا الناس شيئًا، ولم يطلبوا منهم دنيا، فقد قال كل نبي لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وأمر الله محمدًا أن يقول للناس: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [ص].

وهو ﷺ حريص على هدايتهم وتعليمهم تبرعًا منه، بل إنه يبذل لهم الأموال ويؤلف قلوبهم ويستجلب محبتهم ومودتهم، ليتمكن الإيمان والعلم من قلوبهم، ويُقبلوا على دعوة ربهم.

فليس على الأمة مشقة ولا جهد من جرّاء تبليغ الدعوة، وليس عليهم التزام بغرامة مالية تُطلب منهم على إرشادهم.

فالمعنى: إنك -يا محمد- ما كلفتهم شيئاً مادياً يعطونك إياه، فيكون ذلك سبباً لإعراضهم عنك، تخلّصاً من أداء ما يُطلب منهم، فانتفى بذلك عذر إعراضهم عن دعوتك.

### الِاسْتِيفَاهُمْ الثَّلَاثَ عَشَرَ: هَلْ عِنْدَ الْكُفَّارِ مَا يُخَالِفُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ؟

٤١- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٤١)

وبعد أن أثبت القرآن أن النبي ﷺ لم يطلب من الناس أجراً على تبليغ الرسالة، أنكر أن يكون للمشركين اطلاع على ما عند الله تعالى يخالف ما بلغهم إياه النبي ﷺ، فهم يسجلون ما أطلعوا عليه ليكون معلوماً لهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ علم ﴿الْغَيْبِ﴾ وهو ما في اللوح المحفوظ، فيكونوا قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسل الله ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يكتبون هذا الغيب للناس، ويخبرونهم به، ويعارضون دعوته بما عندهم من علم الغيب؟ ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم الغيب في السموات والأرض إلا الله، فلا قيل لهم بإنكار ما جحدوه، ولا بإثبات ما أثبتوه قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ أَرْضَىٰ مِنَ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾ [الجن].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن ذلك علمه تعالى بقيام الساعة، وليس للكفار علم من غيب أو شهادة، وفي هذا إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم.

قال قتادة: إن هذه الآية رد على قولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ بمعنى: أعلموا أن محمداً يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك؟<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عباس ؓ: أم عندهم اللوح المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه، ويخبرون الناس بما فيه؟<sup>(٢)</sup>.

(١) «زاد المسير» (٥٧/٨) و«تفسير الخازن» (٤/١٨٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧/٧٦).

## الِاسْتِفْهَامُ الرَّابِعُ عَشَرَ: هَلْ يُرِيدُونَ الْمَكْرَ بِالْإِسْلَامِ؟ فَالْعَاقِبَةُ لِلْأَصْلَحِ

٤٢- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

وتنتقل الآيات من إبطال أقوال الكفار ومزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم، للنيل من الإسلام ورسول الإسلام ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ يبتلون به دعوتك - أيها الرسول - ويفسدون به دينك، فإن كيدهم في نحورهم، وضرره يعود عليهم.

والمعنى: بل أيريد المكذبون المكر برسول الله ﷺ والكيد للإسلام وأهله؟! فالصراع بين الحق والباطل طويل، والعاقبة للمتقين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ فعليهم يرجع كيدهم ومكرهم.

ومن ذلك تأمر قريش على قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة، وتأمر اليهود على قتله ﷺ ودس السم له أكثر من مرة، ومن ذلك تأمر الصليبيين والصهانية والعلمانيين على الإسلام وأهله.

وكيد الله تعالى لهم معناه: مجازاتهم على ما دبّروه وفعلوه، كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنِّهُ

الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم].

وقدر رد الله كيدهم في نحورهم، فنصر نبيه ودينه، وخذلهم وانتصر عليهم والله الحمد والمنة.

## الِاسْتِفْهَامُ الْخَامِسُ عَشَرَ: أَلَهُمْ مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُ اللَّهِ؟

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

وبعد أن انكشفت كل شبهة، ودحضت كل حجة، وتعزّى القوم من كل عذر، تختتم هذه الأسئلة، بالرد على رأس الخطايا، أم لهم معبود يستحق العبادة غير الله، يخلقهم ويرزقهم، ويلجؤون إليه في وقت الشدة والضرر؟ تنزه الله وتقدس عن شركهم، فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، فبطل بذلك عبادة ما سوى الله سبحانه، ووجب إخلاص العبادة لله وحده.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَمْ﴾ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ .

**الْكَافِرُ لَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ كَانَ الْهَلَاكُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَالسَّيْفُ عَلَى عُنُقِهِ**

٤٤ - ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾

وبعد هذه الاستفهامات العقلية، أتى ﷺ بدليل محسوس، يبين أن السبب في كفر الكافرين: هو العناد والمكابرة والتقليد الأعمى لمن سبقهم، وأنهم لو رأوا بأعينهم قطعاً من النار تنزل عليهم من السماء لعذابهم -لعاندوا وكابروا، وقالوا: هذا سحب متراكم، ولم يتهوا عن كفرهم.

﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ أي: المشركون المكذبون ﴿كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: قطعاً من العذاب نازلاً بهم، لم يتركوا ما هم عليه من التكذيب و﴿يَقُولُوا﴾ وهم يرونه ساقطاً عليهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ متراكم بعضه فوق بعض، فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، وهذا كما قال قوم عاد حين رأوا سحابة الموت والدمار فوق رؤوسهم، قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّثْمِرٌ﴾ فرد الله عليهم في قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فهم مكابرون في الحق، ولن يعترفوا به ولو كان الهلاك فوق رؤوسهم والسيف على أعناقهم.

والآية تلوِّح إلى ما طلبه المشركون من النبي ﷺ في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٤٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٤٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء].

والله تعالى يقرر عدم إيمانهم مهما جاءهم من آيات وحجج وبراهين، ومهما لَبَّى الرسول ﷺ مطالبهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الحجر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٤٧﴾ [يونس].

وقال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٠﴾

وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١].

## عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ

٤٥، ٤٦ - ﴿فَدَرَّهْمٌ حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾<sup>(١)</sup> يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ<sup>(٢)</sup> ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

ويتوجه القرآن بعد ذلك إلى النبي ﷺ بالأيتار دعوة الكافرين، ولا عرض القرآن عليهم، نظرًا لجحودهم وإعراضهم، فبلغ دعوة ربك -أيها الرسول- واركهم إلى أن يعاينوا اليوم الذي يموتون فيه ويهلكون، وذلك عند النفخة الأولى، حيث يصعق الناس جميعًا، وهذا معنى ﴿فَدَرَّهْمٌ﴾: دَعُ المشركين وما هم فيه من غيٍّ وضلال، مع الاستمرار في تبليغ الدعوة، فإنك لن تعدم من ينتفع ويهديه الله على يدك، وارك المعاندين ولا تهتم بهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ فيموتوا ثم يبعثوا، ويكون الحساب والعقاب.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [المعارج].

ويوم الصعق هو اليوم الذي قال الله فيه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة، بأنه يوم لا يملك أحد فيه أن يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله، ولا يقيهم منه، أو يشفع لهم في رفعه عنهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لا في قليل ولا في كثير، أي: امض في دعوتك -أيها الرسول- وإن لم يعاقبوا على كيدهم في الدنيا، فعَمَّا قريب سيأتيهم اليوم الذي يعاقبون فيه على مكرهم السيئ وكيدهم القبيح.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا ينصرهم ناصر، ولا يقيهم واقٍ من عذاب الله تعالى، ولا يمنعهم منه مانع، بل هو واقع بهم لا محالة.

(١) قرأ أبو جعفر (يُلَاقُوا) مضارع لقي، والباقون (يلاقوا) من الملاقاة، فعل مضارع.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم بالبناء للمفعول في (يُصْعَقُونَ)، والباقون بالبناء للفاعل.

## عَذَابُ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ

٤٧- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

ثم بين سبحانه أن للظالمين عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: أن هذا العذاب يحل بهم قبل يوم القيامة في البرزخ وعذاب القبر، وبأيدي المسلمين في الدنيا من القتل والأسر، وبالقلق والضيق، والكدر والأوجاع، والأسقام والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم يجهلون ما سينزل بهم من عقاب، ولا يفهمون ما يُراد بهم، ولا يدركون أنهم إذا رُفِع عنهم العذاب عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه، ولذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب من الكفر والعصيان.

ويشبهه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [السجدة].

## التَّسْلُحُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ عَلَىٰ مَشَاقِّ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٤٨، ٤٩- ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ

وجّه الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعين بالله تعالى على المكذبين لدعوته، وأن يقوّي عزمته ويوثق صلته بالله تعالى بثلاثة أسلحة، هي: الصبر، والإكثار من الصلاة، والتسبيح: عند القيام من النوم، ومن المجلس، وفي أثناء الليل، وفي وقت الفجر.

فقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أي: لا تعباً أيها الرسول، ويا من تقوم بواجب الدعوة إلى الله ﷻ، بما يفعله المكذبون المعارضون لك، واصبر ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على ما حكّم به وقدره من إعراض بعضهم عن دعوتك.

واصبر على ما أمرك الله به من تبليغ الرسالة، مع صدّهم وإنكارهم، واصبر على ما يلحقك من أذى، اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، اصبر لحكم ربك الذي قدره، واصبر لحكم ربك الذي شرعه للناس وأمرهم بالاستقامة عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: أنت بمرأى منا، وفي حفظنا ورعايتنا وتحت حمايتنا، فنحن نرى ونعلم ما يلحق بك من أذى.

وفي هذا إثبات صفة العينين لله تعالى على وجه يليق بجلاله، دون تشبيهه بخلقه، أو

تكيف لذاته سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة وأجمع عليه سلف الأمة، وقد ورد اللفظ بصيغة الجمع للتعظيم. (١)

ثم أمره ربه أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك، وحين تقوم إلى صلاتك، وحين تقوم من مجلسك، فإن كان قد حدث في المجلس لغط أو لغو، فإن هذا التسييح يكون كفارة لك، وإن لم يكن فيه لغط ولا لغو ازدادت حسناتك، وفي الآية أمر بقيام الليل، والقيام إلى الصلوات الخمس بدليل الآية بعدها ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾.

١- ففي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا كان كفارة لما بينهما» (٢).

زاد في رواية أنه: «يُختم له بهن كما يُختم بالخاتم على الصحيفة» (٣).

وسَبِّحْ بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة، فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك» (٤).

وسَبِّحْ بحمد ربك حين تقوم من فراشك، وإلى أن تدخل في الصلاة.

٢- عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة ؓ: بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبرَ عشرًا، وحمد الله عشرًا، وسبَّح عشرًا، وهلَّ عشرًا، واستغفر عشرًا، وقال: «اللهم اغفر لي

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥٢٥ .

(٢) يُنظَر: الترمذي برقم (٣٤٣٣) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٥٩، ١٠٢٦٠) و«المستدرک» (١/٥٣٦، ٥٣٧) وأبو داود برقم (٤٨٥٨، ٤٨٥٩) وابن أبي شيبة (٢٥٦/١٠) و«صحيح سنن أبي داود» (١٠٦٨)، والحديث في مسند أحمد (١٠٤١٥) وهو حديث صحيح، وإسناده منقطع، لأن موسى بن عقبة لم يسمع من سهيل بن أبي صالح، أفاده محققوه.

(٣) «سنن أبي داود» برقم (٤٨٥٧).

(٤) رواه أبو داود والترمذي، وقد نُكِّلَم في أحد رواياته، ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب ؓ دون لفظ «وجل ثناؤك» برقم (٣٩٩) وابن أبي شيبة (٢٣٢/١) والطبري (٦٠٦/٢١).



وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني»، وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

وفي أثناء الليل سبَّح بحمد ربك وعظَّمه، وصلَّ له صلاتي المغرب والعشاء، وافعل ذلك أيضًا عند صلاة الصبح وقت إدبار النجوم، أي: حين تغيب النجوم بضوء الصبح، وتصلي ركعتين قبل الفجر.

أما ﴿وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ﴾ التي في (سورة ق) فهي الركعتان بعد المغرب، أو غير ذلك.

٣- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي أو قال -ثم دعا- استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى، تُقبِلت صلاته»<sup>(٢)</sup>.

٤- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر<sup>(٣)</sup>.

٥- وفي لفظ مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»<sup>(٤)</sup>.

وفي صلاة الليل، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

تم تفسير (سورة الطور) والله الحمد والمنة.

(١) «سنن النسائي الصغرى» برقم (١٦١٨) وأبو داود بتصحیح الألباني رقم (٧٦٦ ج ١ ص ٢٠٣) وانظر: مشكاة المصابيح برقم (٩٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنه عند الترمذي.

(٢) «المسند» (٣١٣/٥) برقم (٢٢٦٧٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات على شرط الشيخين (محققوه) والبخاري برقم (١١٥٤) وأبو داود (٥٠٦٠) والترمذي برقم (٣٤١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٦٩٧) وفي «عمل اليوم والليلة» (٨٦١) وابن ماجه برقم (٣٨٧٨) وابن حبان (٢٥٩٦) والدارمي (٢٦٨٧).

(٣) البخاري برقم (١١٦٩) ومسلم برقم (٧٢٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٢٥).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ (٥٣)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (النجم) هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الإخلاص) وقبل سورة (عبس).

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل الكوفة، وإحدى وستون آية عند بقية علماء العدد. وهي ثلاث مئة وستون كلمة، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

وسميت سورة (النجم)؛ لأنها بُدئت بهذا اللفظ، وبعضهم أثبت الواو في أولها، على حكاية لفظ القرآن، كالبخاري والترمذي، وهي سورة مكية باتفاق.

وذكر بعضهم عن ابن عباس وقتادة أن آية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [٣٢] مدنية، وهو سند ضعيف.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقول القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك:

### أحاديث في سجدة سورة النجم:

١- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن سورة النجم: هي أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم، والمشركون يسمعون<sup>(١)</sup>.

٢- وقال أيضاً: أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته يأخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف<sup>(٢)</sup>.

٣- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المثور» (٥/١٤) و«تفسير ابن عطية» (٥/١٥٧) وغيرهما.

(٢) يُنظر: البخاري بأرقام (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم برقم (٥٧٦) وأبو داود برقم (١٤٠٦) والنسائي (١٦٠/٢) (٩٥٨) مختصراً وابن أبي شيبة (٧/٢).

والمشركون والجن والإنس<sup>(١)</sup>.

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد بنا فأطال السجود<sup>(٢)</sup>.

٥- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأتُ النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها<sup>(٣)</sup>.

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما هاجر إلى المدينة تركها<sup>(٤)</sup>.

٧- وعنه أيضاً: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة<sup>(٥)</sup>.

٨- وعن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد وسجد من عنده<sup>(٦)</sup>.

### أما موضوعات السورة:

١- فقد ابتدأت سورة (النجم) بالحديث عن الوحي والرسالة، من الآية الأولى إلى الآية الثامنة عشرة، فذكرت حقيقة الوحي وطبيعته، وذكرته مشهدين من مشاهدته، وتحدثت عن معجزة المعراج، وبيّنت أن الرسول ﷺ رأى ليلتها من آيات ربه الكبرى، وأثبتت أن الرسول ﷺ صادق فيما يُبلّغه عن ربه، وأنه منزّه عما ادّعاه المشركون، وأن القرآن وحي من الله تعالى بواسطة جبريل الأمين.

٢- ثم تحدثت السورة عن الشرك والمشركين، فأبطلت زعمهم أن الأصنام آلهة، وبيّنت أنها أوهام لا حقيقة لها، وحذّرت المعرضين عن توحيد الله تعالى ليقلعوا عن شركهم،

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢) والترمذي (٥٧٥) وابن أبي شيبة (٧/٢) من طريق آخر.

(٢) البيهقي (٣١٤/٢) برقم (٥٤١٨) في السنن.

(٣) ابن أبي شيبة (٦/٢) وأحمد في المسند (١٨٣/٥) (٢١٥٩١) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققه)، والبخاري برقم (١٠٧٢) وأبو داود برقم (١٤٠٤) والترمذي برقم (٥٧٦) والنسائي (١٦٠/٢) (٩٥٩) والطبراني برقم (٤٨٢٩).

(٤) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/١٤).

(٥) أبو داود برقم (١٤٠٣)، وقد ضعفه الألباني (٥٨/٢).

(٦) «المسند» (١٥٤٦٤، ٢٧٢٤٦) وغيرهما، والنسائي (٩٥٧) والحاكم (٦٣٣/٣) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

وذلك في الآيات من التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين .

٣- ويُنْتِ الأسلوب الحكيم الذي ينبغي على الداعية أن يسلكه في دعوته حيال ما يلقاه من أذى وإعراض .

وأشارت السورة إلى الدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء لمن أحسن أو أساء .

ويُنْتِ شيئًا من رحمة الله تعالى بعباده بغفران اللّمْ، وضرث مثلاً للجزاء العادل يوم القيامة، بأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن العقوبة لا تتعدى المجرم، وهذا في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الآية الثانية والثلاثين .

٤- وذكرت السورة جملة من آثار قدرة الله تعالى للدلالة على وحدانيته سبحانه، كإحياء وإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والافتقار، وخلق الإنسان من نطفة... إلخ، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية التاسعة والأربعين .

٥- وختمت السورة ببيان ما حلّ بالأمم الطاغية من العذاب والدمار تذكيرًا لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، وزجرًا لأهل الطغيان والضلال بالعذاب الذي ينتظرهم يوم لقاء الله، وذلك في الآيات من الخمسين إلى الثانية والستين .



## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قَسَمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى صِدْقِ مَا يَصْدُرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ

١-٤- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَبْطُؤُا عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

افتُتحت السورة بالقسم على صدق رسول الله ﷺ فيما يوحى إليه من ربه، ردًّا على المكذبين الطاعنين في رسالة محمد ﷺ، القائلين بأنه قد اختلق القرآن.

وقد أقسم الله تعالى بالنجم حين يبدو للناظرين لامعًا في جوِّ السماء ليلاً، وأقسم به وقت سقوطه وهو ينفضُ على مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥].

وسقوط النجم يدل على بطلان عبادتها، قال مجاهد: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط مع الفجر.

وأقسم سبحانه بالنجوم وهي تميل للغروب، كل ذلك داخل في القسم.

فالمراد بالنجم أربعة أقوال بإجمال:

أحدها: أنه اسم جنس يشمل كل نجم بازغ في السماء.

ثانيها: أن المراد به: نجم خاص، هو أشهر النجوم: الثريَّا، وكان العرب يوقِّتون بطلوعه عند فصول العام، ونُضج الثمار، فإذا أُطلق اسم النجم فيكون هو المراد؛ لأنه المشهور لدى العرب.

وقيل: إنه نجم الشَّعْرَى المذكور في السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى

﴾ [النجم]. وهذا أيضًا نجم خاص، كنجم الثريَّا السابق ذكره.

وكانت قبيلة خزاعة تعبده، فهو معظَّم عندهم.

وقال الشَّدْيِي: هو الزهرة، وهو نجم خاص أيضًا، فهذه ثلاثة أقوال في النجم الخاص.

ثالثها: أن المراد بالنجم: الشهاب الذي يَهْوِي لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع،

ولفظ: ﴿هَوَىٰ﴾ يحتمل أن النجم غاب أو سقط<sup>(١)</sup>.

(١) يُنظَر: «زاد المسير في علم التفسير» (٦٢/٨) و«تفسير الخازن» (١٩٠/٤).

رابعها: أن المراد به: ما يُنزل من القرآن منجّماً، أي: مفرقاً حسب الحوادث والأحوال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة].

ولعل الأرجح أن الله تعالى أقسم بنجم الثريا إذا غاب، فقد أخرج الطبري وعبد الرزاق عن مجاهد بسند صحيح: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ قال: إذا سقطت الثريا مع الفجر<sup>(١)</sup>.

وفي هذا تعظيم لقدرة الله تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦].

ولله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، والعبد لا يقسم إلا بالله تعالى.

عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ قال عتبة بن أبي لهب: إني كفرتُ برب النجم، قال معمر: فأخبرني ابنُ طاوس عن أبيه أن النبي ﷺ قال له: «أما تخاف أن يسلم الله عليك كلبه؟» فخرج ابن أبي لهب مع أناس في سفر، حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا صوت الأسد، فقال: ما هو إلا يريدني، فاجتمع أصحابه حوله، وجعلوه في وسطهم، حتى إذا ناموا جاء الأسد فأخذ هامته<sup>(٢)</sup>.

وأخرج أبو نعيم عن أبي الضحى قال: قال ابنُ أبي لهب: هو يكفر بالذي قال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ فقال النبي ﷺ: «عسى الله أن يرسل عليه كلباً من كلابه»، فبلغ ذلك أباه، فأوصى أصحابه: إذا نزلتم منزلاً فاجعلوه وسطكم، ففعلوا حتى إذا كانت ليلة بعث الله سبعاً فقتله<sup>(٣)</sup>.

والمقسم عليه هو الشهادة للنبي ﷺ وتنزيهه عن الضلال في علمه، وعن الغي في قصده، وأنه ليس ساحراً ولا شاعراً ولا كاهناً، وبأنه لم يخلق هذا القرآن من عند نفسه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهداية، وما خرج عن

(١) وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، يُنظر: عبد الرزاق (٢/٢٥٠) والطبري (٥/٢٢) و«الدر المنثور» (٧/١٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٠) والطبري (٦/٢٢) وأبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني» (١٦/١٧٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (٣٨٩).

السداد والرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال، بخلاف ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وفساد القصد.

والمعنى: وحقّ النجم الذي تَرَوْنَهُ بِأَعْيُنِكُمْ حِينَ يَغْرُبُ، وحين يسقط لرجم الشياطين، إن محمداً ﷺ الذي أرسلناه ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ما ضلَّ عن طريق الحق في أقواله وأفعاله، وما جانب الصواب في أمر من الأمور.

وهكذا: يقسم الله تعالى بالنجم عند سقوطه في الأفق عند إدبار الليل وإقبال النهار، على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الوحي الإلهي.

والفرق بين الضلال والغي: أن الضلال هو عدم الاهتداء إلى الصواب، والغواية هي اتباع الهوى وسبيل الفساد والعوج، فالضلال يكون بسبب الجهل والغواية تكون بسبب معرفة الحق والعدول عنه.

أي: ما جهل - رسولنا - الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له، فهو يقول الحق، ولا يتكلم بالباطل، ولا يأتي بشيء من تلقاء نفسه.

وأتى بلفظ: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أن محمداً ﷺ ملازم لهم، يعرفون أحواله تماماً، لا يخفى عليهم شيء منها، وهم مطلعون على أخلاقه وسلوكياته منذ نعومة أظفاره، ولم يعرفوا عنه إلا الصدق والأمانة، ورجاحة العقل، والقول السديد، ولم يقولوا فيه هذا الكلام إلا بعد بعثته، فدل ذلك على كذبهم، وأنهم ما قالوه إلا حسداً.

وللعلم الإنساني مصادر معروفة: أولها العقل، ثم الحواس الخمس، وهناك مصدر اختص الله به بعض الناس، وهو الوحي الصادق، أشار إليه يعقوب ﷺ عندما قال لأبنائه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

وَمَنْ تَلَقَّى شَيْئًا مِنَ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فقد اكتسب علماً لا ريب فيه! والله تعالى لا يهب مِنْ عِلْمِهِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، فالناس معادن، ولا يَحْمِلُ الْوَحْيَ إِلَّا عِبَادٌ مُضْطَفَّوْنَ، عبادٌ لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراء، تأفل النجوم وهم لا يأفلون، وتغرّب وهم لا يغرّبون! ومحمد ﷺ من هؤلاء، أو قل: هو إمام هؤلاء<sup>(١)</sup>.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ/ محمد الغزالي ص ٣١٦ .

والله تعالى يقسم على أن محمداً ﷺ لا يصدر نطقه بالقرآن والسنة عن هوى نفسه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

والهوى: هو ميل النفس إلى ما تحبه، أو ما تحب أن تفعله، وهو خلاف مقتضى العقل، ولذا فإن الناس تختلف في الهوى ولا تختلف في الحق.

وفي الآية ردُّ على قول المكذبين بالقرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْتَرْتَهُ﴾ [الفرقان: ٤].

وقولهم: ﴿أَسْطِيزُ الْأُولَىٰ أَكْتَبَهَا فِي نَمْلِ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

فما هذا القرآن وما هذه السنة، إلا وحي صادر من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ لا يزيد فيه ولا ينقص عنه، والوحي يشمل صحيح الأحاديث القدسية، ويشمل صحيح الأحاديث النبوية، كما في حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»<sup>(١)</sup>.

والشبعان: هو المتكبر المنكر للسنة.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، والذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٤) والترمذي و«المسند» (١٧١٧٤). صححه الألباني في صحيح الجامع

(٢٦٤٣) قال محققو المسند: إسناده صحيح وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٦٨/٢٠) وابن عبد البر في

التمهيد (١٤٩/١) وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن حبان عن ابن مسعود كما في «الدر المثور» (٤٦٠/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦) ج ٦ ص ٨٦٥.

(٣) «المسند» رقم (٦٨٠٢، ٦٥١٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه وأبو داود برقم (٣٦٤٦) والحاكم (١٠٥/١) والدارمي (١٢٥/١) وابن أبي شيبة (٤٩/٩).



وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا أقول إلا حقاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً»<sup>(١)</sup>.

وقد لازم الصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى في مزاحه ومداعبته.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يتبع إلا ما أوحاه الله إليه من الهدى والتقوى، وقد دل هذا على أن السنة الصحيحة وحي من الله تعالى لرسوله، كما قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

وهو صلى الله عليه وسلم معصوم فيما يخبر به عن ربه، لأنه لا يصدر إلا عن وحي.

### مِنْ صِفَاتِ جِبْرِيلَ السَّلِيمِ وَهُوَ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ

٥-٨- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨)﴾

وقد علّم محمداً صلى الله عليه وسلم ملكٌ شديدُ القوة - وهو جبريل عليه السلام - ليستطيع تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية، فهو الذي أعلم الرسل بالتبليغ، وهو الذي اقتلع قرى قوم لوط فرفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها فجعل أسفلها أعلاها، وهو الذي صاح بقوم ثمود صيحة فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لمح البصر، فهو شديد القوى الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله به، قوي على توصيل الوحي إلى الرسل ومنع اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

وهذه الآية تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي بأمر الله تعالى.

والآخر: أن جبريل عليه السلام شديد القوة.

وكون جبريل عليه السلام نزل بالوحي، وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن، جاء ذلك في مثل قوله

(١) «المسند» (٢/٣٤٠، ٨٤٨١، ٨٧٢٣) والترمذي برقم (١٩٩٠) من طريق المقرئ به، وقال: حديث حسن صحيح، قال محققو المسند: إسناده قوي، وصححه الألباني عن الترمذي (٤/٣٥٧).

تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٤﴾  
يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَجَلَ بِهِ ﴿١٦١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٦٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ  
قُرْآنَهُ ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٦٩﴾﴾ [القيامة].

وكون جبريل شديد القوى جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٥﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ  
ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٤٦﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [التكوير].

ومن حفظ الله لوحيه أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

ثم وصف الله تعالى جبريل عليه السلام وصفاً ثانياً بعد أن وصفه بالقوة، فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ ﴿٤٨﴾  
أَيُّ ذُو قُوَّةٍ وَخُلِقَ حَسَنًا وَجَمَالَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا﴾.

قال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقيل: ذو حصافة ورجاحة في العقل، فهو الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل  
والأنبياء، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا اختار اللبن ليلة الإسراء، قال له جبريل: لقد أصبت  
الفطرة، ولو أخذت الخمر لَعَوْتُ أُمَّتَكَ.

وجبريل عليه السلام هو الذي ظهر على صورته الحقيقية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأفق الأعلى، وهو أفق  
الشمس جهة المشرق ﴿فَأَسْتَوَى﴾ أي: استقام جبريل وجاء في صورة ذاته الحقيقية،  
وظهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على طبيعته.

### رؤية النبي لجبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرتين:

وكان جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة الأدميين، كما كان يأتي الأنبياء قبله،  
فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين:  
مرة في الأرض، ومرة في السماء.

١- فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى، أو الأفق المبين أي: جهة الشرق، تحت السماء الدنيا، حيث كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء، فطلع عليه جبريل من الجهة الشرقية وفتح جناحيه، فسد ما بين المشرق والمغرب، فخرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه جبريل في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، ونزل عليه ب(إقرأ) وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل ﷺ من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه وذلك بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿فَنَدَّكَ﴾ (٨) إلى محمد وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

٢- وعن زر بن حبيش عن ابن مسعود ؓ أن النبي ﷺ رأى جبريل عند سدره المنتهى له ست مئة جناح يتناثر منها تهاويل الدر<sup>(١)</sup>.

قال ابن مسعود ؓ: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كل جناح منهما قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدرّ والياقوت ما الله به عليم<sup>(٢)</sup> والتهاويل: هي الأشياء المختلفة الألوان.

وصح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل وله ست مئة جناح<sup>(٣)</sup>.

وعن عبدالله في قوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في حلة من رفر، قد ملأ ما بين السماء والأرض<sup>(٤)</sup>.

وهذه الرؤية غير الرؤية الأولى التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل ﷺ في غار حراء على كرسي بين السماء والأرض حيث نزلت عليه آيات من سورة المدثر بعد نهاية فترة التعبد في الغار.

أى وأما المرة التي في السماء فكانت عند سدره المنتهى ليلة الإسراء والمعراج فوق

(١) أخرجه النسائي (٥٦٢) وأحمد، عن حسن بن موسى (٤٦٠/١) وابن خزيمة (٢٩١) وهو في مسلم بنحوه عن أبي هريرة (١٧٤) والبخاري (٤٨٥٦).

(٢) «المسند» (٣٩٥/١) (٣٧٤٨) وهذا لفظه وإسناده ضعيف لضعف شريك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن أبي النجود، فهو حسن الحديث، كما قال محققوه، وانظر (٣٩١٥) بإسناد حسن و«تفسير الطبري»: (٢٧/٢٧) والطبراني (٩٠٥٤، ٩٠٥٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤) والترمذي (٣٢٧٧) وأحمد في المسند (٣٧٨٠).

(٤) والحديث في «المسند» (٣٢٢/١). ينظر الحديث (٣٨٦٤) وفيه رؤيا النبي لجبريل في صورته مرتين وانظر البخاري بنحوه (٣٢٣٣) و (٣٢٣٥)، والمسند (٣٧٤٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٣) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى (١١٥٣١) وغيرهم.

السماء السابعة كما سيأتي في الآية الرابعة عشر.

ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الحقيقية التي خلق عليها غير محمد ﷺ.

والمرة الأولى جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير].

والمرة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم].

وقد وصف الله تعالى الرؤية التي كانت في السماء بقوله:

٩-١٢- ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿٢﴾ مَا كَذَّبَ ﴿٣﴾ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿٤﴾ أَفَتَمَارُونَهُ ﴿٥﴾ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿٦﴾﴾

ثم إن جبريل اقترب من النبي ﷺ فنزل من أعلى إلى أدنى، وكأنه معلق في الهواء، وهذا معنى ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَدَكَ﴾ [٨] أي: انخفض جبريل من الأفق الأعلى مقتربا من محمد ﷺ، وأخذ في الذنوب بحيث لو رآه الرائي يظنه متدليا.

ثم ازداد في القرب منه حتى كان على مسافة قوسين منه ﷺ أو أقرب من ذلك، والقوس آلة مقوَّسة من عود يُشدُّ بها وتر من جلد، وهي مقدار ذراع.

وفي الحديث: عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «ولقَابُ قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيد - أي: سَوْطه - خير من الدنيا وما فيها إلا الشهيد...» الحديث (٣).

والقَاب: هو ما بين مقبض القوس - أي: وسط العود المقوَّس - ولكل قوس قَابَان، وقَاب قوسين، بمعنى: قَدْر قوسين ﴿فَكَانَ﴾ جبريل ﴿قَابَ﴾ أي: قدر مسافة ﴿قَوْسَيْنِ﴾ من محمد ﷺ أو ﴿أَدْنَىٰ﴾ من قوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل ﷺ، وهذا المعنى هو الذي نختاره للآية.

(١) قرأ هشام وأبو جعفر بتشديد الذال (ما كَذَّب) على أن (ما) موصولة أو مصدرية، مفعول به، والفعل مضاعف متعَدٌّ، والباقون بالتخفيف، فعل لازم متعَدٌّ إلى مفعوله بفي، أي: ما كذب فيما رأى.

(٢) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف (أَفْتَمَارُونَهُ) مضارع مَرَيْتُهُ، إذا علمته وجحدته، والباقون (أَفْتَمَارُونَهُ) مضارع ماراه يماريه، إذا جادله.

(٣) يُنظَر: البخاري (٢٧٩٣، ٢٧٩٦) وعن أبي هريرة.

وقال بعض المفسرين: ثم دنا الرب من محمد فاقترب منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى، جاء ذلك في رواية شريك بن عبد الله، ورُدَّ عليه بأن هذه زيادة منه في الحديث<sup>(١)</sup> وقال بها ابن عساكر والضحاك.

وكانت تعترى النبي ﷺ رُعْشَةً أو رُجْفَةً عند نزول الوحي عليه في أول الأمر، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَرُ﴾ و ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْوَلُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَّمْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا نَقِيلًا﴾ [المزمل].

ولما كان الاتصال المباشرين الملك والإنسان لا يقوى عليه البشر، كانت تعترى النبي ﷺ شدة، لذا كان جبريل ينزل على النبي في صورة رجل حسن الخلق والخلق ثم اعتاد النبي ﷺ على اتصال جبريل به مباشرة، وفارقت هذه الشدة والرعشة، كما في حديث عمر ؓ أن جبريل جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وكان عمر قد وصف جبريل بقوله: إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد منا، وفي نهاية الحديث قال ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ في صورة إنسان، كما جاء في حديث عمر ؓ، وكثيراً ما كان جبريل يتمثل في صورة دحية الكلبي: قال مسروق بن الأجدع: قلت لعائشة: فأين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسَدَّ الأفق<sup>(٢)</sup>.

فيكون المعنى: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى إلى محمد ﷺ، وكان منه قاب قوسين بل أدنى. وكان الحليفان من العرب إذا أرادا عقد الصفاء والعهد بينهما، خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما دليلاً على أن كلاً منهما حليف ومعاون للآخر<sup>(٣)</sup>.

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/١٩١).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري (٣٢٣٥) ومسلم (١٧٧).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/١٩٢).

وبعد أن اقترب جبريل جداً من النبي ﷺ أوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل ﷺ من قرآن كريم، ومن هُذي نبويّ، فالموحي هو الله سبحانه، والموحى إليه هو النبي ﷺ بواسطة جبريل ﷺ، والموحى به هو القرآن. وعدم التصريح بالموحى به فيه تفخيم شأنه وإعلاء قدره، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة، ولا يحده وصف.

عن أنس ؓ في حديث الإسراء، عندما ذُكر سدرة المنتهى، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»<sup>(١)</sup>.

فهذا حديث صحيح صريح في نسبة الوحي في الآية إلى الله تعالى، وأن جبريل ﷺ مبلّغ عن الله تعالى، وهذا أولى من أن يكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى، ولا تعارض بينهما، فالمؤدى واحد.

قال سعيد بن جبیر: أوحى إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ إلى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

ولما بلغ المشركون أن النبي ﷺ رأى جبريل كذّبوه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ ما كذب قلبُ النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، فقد رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق.

والمعنى: اتفق فؤاد النبي ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، فتلقى النبي ﷺ الوحي تلقياً لاشك فيه ولا شبهة ولا ريب، ومن ذلك ما رآه بعينه ليلة العروج، من آيات الله العظيمة وأن قلبه وعينه قد تيقنا بما رآه، وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل حسنية، وليست مجرد اتصال روحي.

أتكذّبون محمداً ﷺ فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من آيات ربه؟ أفتجادلون محمداً فيما رآه بعينه، وتحقق منه بعقله وبصره من رؤية جبريل ﷺ؟ إن تكذيبكم لذلك تعنت واضح، وجهل فاضح، فكيف هذا وأنتم تُقرّون بأنه صادق أمين؟!

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢).

ولما أخبر النبي ﷺ قومه عن رحلة الإسراء والمعراج كذَّبه كفار مكة، واستخفوا به، وطلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، فصوَّره الله أمامه، فأخذ ينظر إليه ويصفه لهم.

## الرُّؤْيَةُ الثَّانِيَةُ

١٣-١٦ - ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَنْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَشْفَىٰ ﴿١٦﴾﴾

ولقد رأى محمد ﷺ جبريل ﷺ على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى - شجرة نبتق - وهي التي فوق السماء السابعة، ينتهي إليها ما يُعْرَجُ به من الأرض، وينتهي إليها ما يُهْبَطُ به من فوقها، وهي عن يمين العرش، وسُمِّيتْ سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها عِلْمُ الملائكة وعِلْمُ الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها.

ففي الحديث، عن أنس ؓ: «ثم صُعد بي إلى السماء السابعة...، ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبُتُها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها كأذان الفيلة»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انْتَهَى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من تحتها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها، حتى يقبض منها<sup>(٢)</sup>.

فراى محمد جبريل عليهما السلام في هذا المكان الذي هو محل الأرواح العلوية التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

وقد كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل ﷺ على صورته الحقيقية في المرة الثانية ليلة الإسراء والمعراج، حيث فرضت عليه الصلاة، أما المرة الأولى فقد كانت على الأرض في جبل حراء حيث كان يتعبَّد ﷺ، فنزل عليه ب (اقرأ) في أثناء الفترة التي قضاها في غار حراء، ونزل ب (المدثر) بعد انتهاء فترة التعبد في الغار، وكانت المرة الأولى للنبوَّة والثانية للرسالة.

(١) جزء من حديث في الصحيحين: في البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٣٨٥/١) و«المسند» (١٧٨٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٦٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي في «الكبرى» برقم (٣١١)

(١٧٣) (٢٧٩) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) وفي «سنن النسائي الصغرى» (٣٢٧٦).

وهي التي رآه النبي ﷺ فيها على كرسي بين السماء والأرض، وكانت في حراء بعد فتور الوحي في المرة الأولى حيث نزل بالمدثر<sup>(١)</sup>.

والله تبارك وتعالى يُقسم على الرؤية التي كانت في السماء لنفي الشك والريبة فيها، فكأنه تعالى يقول للمنكرين: إن كنتم أنكرتم هذه الرؤية التي في الأرض، فإنه لم يره في الأرض فقط، بل رآه رؤية أعظم منها، حين كان مصاحباً لجبريل في ليلة المعراج، وهذا من باب الترقي في بيان مراتب الوحي.

وفيه دلالة على عظيم منزلة النبي ﷺ، حيث وصل إلى مكان لم يصل إليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وفيه شرف لسدره المنتهى لتبوئها هذا المكان فوق سبع سموات قرب العرش. ويختص النبق بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة زكية، ولو أن ورقة منها وُضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض.

قيل: وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله تعالى في الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿١٩﴾﴾.

وقد وصف الله سبحانه الجنة بأن عرضها السموات والأرض، فكم يكون طولها؟ وجنة المأوى إحدى الجنات الثمان؛ سُميت كذلك لأن الملائكة وأرواح الشهداء والصالحين تأوي إليها، فهي مأواهم ومسكنهم، وهي الجنة الجامعة لكل نعيم تشتهي الأمانى وتأوى إليه الرغبات، ومعنى ذلك أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وعلى عظم مساحة الجنة طولاً وعرضاً، فإن الله تعالى يقول عن سدره المنتهى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: إن جنة المأوى التي وعد الله المتقين -على عظيمها وسعتها- توجد عند سدره المنتهى، فكم تبلغ سدره المنتهى إذن؟ وكم يكون حجمها؟ وهذا كما يقول شخص لآخر: اذهب إلى المسجد الحرام فستجد فلاناً عنده، فكم تأخذ قدماً فلان هذا من مساحة المسجد الحرام؟ وهكذا، فإن جنة المأوى بأكملها عند سدره المنتهى!! يا سبحان الله!

ولما انتهى النبي ﷺ إلى سدره المنتهى، حيث ينتهي علم الخلائق، غشيها من نور الله ما غشيها، فلا يستطيع أحد أن ينظر إليها، حيث حَفَّ بالمكان من الجلال والكمال

(١) ينظر: حديث جابر في البخاري (٤٩٢٤) و(٣٢٣٨ و٦٢١٤) ومسلم (١٦١) وانظر أسباب النزول في مقدمة سورة المزمل.



ما لا يحيط به الوصف، وما حصل فيه للنبي ﷺ من التشريف بتلقي الوحي مباشرة من الله تعالى دون واسطة، كما في حديث الإسراء والمعراج: «حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام في الألواح، ففرض الله على أمي خمسين صلاة»<sup>(١)</sup>.

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ﴾ أي: يغشاها من الفيوضات الربانية، والأنوار القدسية، والخيرات التي لا يحيط بها الوصف ﴿مَا يَغْشَى﴾ فقد غشيتها سحابات أنوار الله ﷻ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، ويجتمعون حولها مسبحين وزائرين.

في الحديث: عن عبد الله بن مسعود ؓ، أن النبي ﷺ رأى سدرة المنتهى وقد غشيتها فراش من ذهب، فأُعطي ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وعُفِّر لمن لم يُشرك بالله شيئاً من أمته<sup>(٢)</sup>.

## ثَبَاتُ بَصَرِ النَّبِيِّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْآيَاتِ الْكُبْرَى

١٧، ١٨ - ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾

ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج يثبته بعض الصحابة، حيث يرى بعضهم أن محمداً ﷺ رأى ربه ببصره، دون كيف ولا انحصار، وقد غشيته الأنوار وأحاطت به، فانعكس بصره في بصيرته، وهو رأي أهل السنة والجماعة.

في حديث أبي ذر ؓ، قال: سألت النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أنى أراه»<sup>(٣)</sup> وفي رواية: «رأيت نوراً»<sup>(٤)</sup>.

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٣٤٢) عن أبي ذر، وفي صحيح مسلم (١٦٣) في قصة المعراج وفي صحيح الجامع (٤١٩٩).

(٢) «المسند» (٤٢٢/١) (٣٦٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٣) والترمذي (٣٢٧٦) والطبري (٣٤/٢٢) والبيهقي (٣٧٢/٢).

(٣) «المسند» (٢١٣٩٢، ٢١٥٢٧). وفي صحيح مسلم (١٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٧٥، ١٧٨) و«المسند»: (١٤٧/٥) برقم (٢١٣٩٢) والترمذي (٣٢٨٢)، والطيالسي (٤٧٤) وأبو عوانة (٣٨٣).

بمعنى أن حجابته تعالى النور، فالرائي يرى نوراً، لأنه غير مؤهل في الدنيا للرؤيا الحقيقية قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣) [الأنعام].

فهي رؤية بغير إحاطة، ولا يلزم أن يكون مع الرؤية كلام، وبعضهم ينفي هذه الرؤية<sup>(١)</sup> والأول أرجح.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده<sup>(٢)</sup>.

وجمهور السلف وأهل العلم -ومنهم ابن مسعود وقتادة- على أن المرثي في المرثين هو جبريل: مرة في الأرض، ومرة عند سدره المنتهى ليلة المعراج.

وفي ليلة المعراج كان النبي صلى الله عليه وسلم على درجة عالية من الثبات والطاعة، فما مال بصره يمينا ولا شمالا، ولا جاوز ما أمر برؤيته، بل ثبت في مقامه العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزل في الأقدام، وتميل فيه الأبصار ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٧) أي: لم يُصب بصعقة، ولم يُغش عليه، ولم يفعل إلا ما أمر به، ولم يسأل فوق ما أُعطي، ولم يتجاوز ما لم يؤذن له في رؤيته.

والمراد بزوغان البصر في الآية: ميله عن الرؤية، وليس المراد: خداع البصر، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل بعيني رأسه، فكيف تجادلونه فيها؟

وفي ليلة المعراج رأى النبي صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى، الدالة على قدرة الله وعظمته، رأى سدره المنتهى وما غشيها من البهجة والجلال، ورآى البيت المعمور، والملائكة تطوف حوله، ورآى الجنة والنار، ورآى أحوال الطائعين والعاصين، ورآى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماء له ست مئة جناح<sup>(٣)</sup>.

(١) منهم عائشة رضي الله عنها، كما جاء في البخاري برقم (٤٨٥٥) ومسلم (١٥٩/١) برقم (١٧٧) وفي البخاري (٣٢٣٤) عن عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم القرية، فمردود عليه بصغر سن عائشة وقت المعراج، وقال أبو ذر: رآه بقلبه ولم يره ببصره، ينظر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥٦٤) و«الأوسط» (٥٧٦١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٩/١): رجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفي، ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) كما في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود برقم (١٧٤) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٦، ٤٨٥٧).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي موسى رجلاً آدم طويلاً جفداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال»، في آيات أراهنَّ الله إياه، فلا تكن في مرية من لقاءه<sup>(١)</sup>.

قال أنس وأبو بكرة، عن النبي ﷺ: «تحرس الملائكة المدينة من الدجال»<sup>(٢)</sup>.  
وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رفرقاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق<sup>(٣)</sup>.  
وكلها من آيات الله الكبرى، وفي سورة الإسراء: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّهُ﴾.

## أَشْهُرُ أَصْنَامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثَمَانِيَةٌ

٢٠، ١٩ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ<sup>(٤)</sup> أَلَلَّتْ<sup>(٥)</sup> وَالْعَزَى<sup>(٦)</sup> وَمَنْوَةَ<sup>(٦)</sup> الثَّلَاثَةَ الْآخِرَى<sup>(٦)</sup>﴾

بعد أن زكَّى الله نبيه وأمره بتوحيده، عمد القرآن إلى إبطال عبادة الأصنام، وبيَّن أنها لا تنفع ولا تضر، وهي أسماء فارغة المعنى، سمَّاها المشركون وآباؤهم، فابتدعوا لها أسماء باطلة خدعوا أنفسهم بها، وزعموا أنها مشتقة من صفات الإله الحق، فذكر سبحانه أشهر أصنام أهل الجاهلية، وهذا مما يتعلق بالوحي والرسالة، حيث تم القضاء عليها بالإسلام في جزيرة العرب، وبقي نظائرها في العالم، والمذكور في الآية أسماء أصنام اتخذها العرب آلهة يعبدونها، واشتقوا لكل منها اسماً من أسماء الله تعالى فاشتقوا من

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٣) البخاري (٣٢٣٣، ٤٨٥٨) والطبري (٤٥/٢٢) والطبراني (٩٠٥١، ٩٠٥٣) والبيهقي (٣٧٢/٢).

(٤) سهَّل الهمزة الثانية من (أفرايتم) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفاً مع المد المشبع حالة الوصل ورش، وحذفها الكسائي، وحققتها الباقون.

(٥) قرأ رويس بتشديد التاء من (اللأت) مع المد المشبع، اسم فاعل، والباقون بالتخفيف، ووقف الكسائي بالهاء، والباقون بالتاء وفقاً للرسم.

(٦) قرأ ابن كثير (ومناة)، والباقون (ومناة) وهما لغتان بمعنى واحد، وهي على قراءة ابن كثير مشتقة من النؤ وهو المطر، وكانوا يطلبون المطر عندها، وهي صخرة على ساحل البحر، وعلى قراءة الجمهور مشتقة من منى يمنى، أى يصب؛ لأن دماء الذبائح كانت تُصبُّ عندها.

الله: اللّات، ومن العزيز: العزّى، ومن المنان: مناة، وهذا إلهاد منهم في أسماء الله، وتوجّه بها نحو الشرك بالله سبحانه.

### وأول هذه الأصنام الثمانية: ﴿اللّات﴾

وهو صنم كان لثقيف (بالطائف)، وكانت له شهرة عند قريش، وكان جمهور العرب يعبدونه، وكان العرب يبنون للأصنام بيوتاً تُضاهي الكعبة، فبنوا لّلات بيئاً، وجعلوا له أستاراً وسدنة، وجعلوا حوله فناء عظيماً يفتخرون به.

وكان اللّات عبارة عن صخرة بيضاء منقوشة داخل هذا البيت.

وهو في الأصل كان رجلاً صالحاً يلبث السويق للحجاج بمكة<sup>(١)</sup>.

فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، وسبب هذا هو الغلو في محبة الصالحين.

وقد بعث النبي ﷺ إليه (المغيرة بن شعبة وأبا سفيان) فهدهما.

وسمّوه اللّات على الاشتقاق من اسم الجلالة (الله) ثم قصدوا تأنيثه، أو ما يفيد أنه كان يلبث، أي: يعجن السويق، وهو نوع من الحبوب كالقمح أو البرّ.

جاء عن مجاهد: أن اللّات كان رجلاً في الجاهلية على صخرة بالطائف، وكانت له غنم، فكان يأخذ من سمنها ولبنها، ويأخذ من زيب الطائف، ومن اللبن المجفف والتمر، فيخلط ذلك، ويجعل منه خيساً، ويطعم من يمرّ عليه، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللّات - بالتاء المشددة<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن جريج: كان اللّات رجلاً من ثقيف، يلبث السويق بالزيب، فلما توفّي جعلوا قبره وثناً، وزعم الناس أنه (عامر بن الظرب)، أخذ عدوان<sup>(٣)</sup>.

ولما مات اللّات قال (عمرو بن لحيّ): إنه لم يمّت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها وبنوا عليها بيئاً<sup>(٤)</sup>.

(١) جاء هذا في «صحيح البخاري» عن ابن عباس حديث رقم (٤٨٥٩) وفي «تفسير الطبري» (٤٨/٢٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والفاكهي في «أخبار مكة» (١٦٤/٥) (٧٥).

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المثور» (٣٢/١٤).

(٤) الفاكهي في «أخبار مكة» (١٦٤/٥) (٧٦).

وكان اللات يهوديًا، وسدنته كانوا من ثقيف، بنو عتاب بن مالك، وهم الذين بنوا عليه بناء، وكانوا يسمون: زيد اللات، وتيم اللات، وهكذا.

### وثانيها: ﴿الْعُزَّى﴾

وهي شجرة عليها بناء وأستار، وكانت (بنخلة) بين مكة والطائف.

وقيل: إنها اسم لصنم، وهو شجر أبيض على هيئة صخرة فيها صورة شجر، وكانت فوق ذات عرق.

وكانت قريش تعظمها وتعبدها مع غيرهم من العرب، وكانوا يحلفون بها، كما قال أبو سفيان يخاطب المسلمين يوم أُحُد: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: «الله مولانا، ولا مولى لكم»<sup>(١)</sup>.

وكانوا إذا شرعوا في عمل يقولون: باسم الله اللات والعزى.

وقد بعث النبي ﷺ إليها (خالد بن الوليد) فقطعها، وهدم البيت الذي عليها، وكان يقول وهو يضربها بالفأس:

يا عُزُّ كُفْرانِكَ لا سبْحانِكَ إني رأيتُ الله قد أهانِكَ

هدم (خالد) البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع، فإنك لم تصنع شيئًا، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عُزَّى، يا عُزَّى، فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة، ناشرة شعرها، تحفُّنُ التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العُزَّى»<sup>(٢)</sup>.

فقد أخرج النسائي عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد، وكانت على ثلاث سمرات - نوع من

(١) من حديث البراء في صحيح البخاري (٤٠٤٣) ومن حديث طويل لابن مسعود في المسند (٤٤١٤).

(٢) جاء هذا عن أبي الطفيل في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٥٤٧) وفي «السنن» برقم (٥٦٧) وإسناده حسن، وأخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٩٠٢) عن أبي كريب عن محمد بن فضيل به، وقال محققه: إسناده صحيح، وكلام محقق النسائي أصح لما في أحد رواه (الوليد) من كلام يُنزل الحديث من مرتبة الصحيح إلى الحسن، وهو في الأحاديث المختارة بإسناد صحيح (٢١٩٥/١) برقم (٢٥٨).

شجر الطلح- فقطع السَّمُرَات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً...» الحديث<sup>(١)</sup>.

والعُزَّى أحدث من اللات ومناة، وكان الذي اتخذها (ظالم بن أسعد)، وكانت بوايد من نخلة الشامية يقال له: حُرَّاص يِزَاء العُمَيْر، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانت العرب وقريش تُسمي عبد العُزَّى، وكانت أعظم الأصنام عندهم، وكانت قريش قد حَمِيتُ لها شِعْبًا من وادي حُرَّاص يقال له: شِقَام، يضاھون به حرم الكعبة<sup>(٢)</sup>.

### وثالثها: ﴿مَنَوَةٌ﴾

وهي صخرة عظيمة، وكانت بمكان اسمه (المشلل) حذو قُدَيْد بين مكة والمدينة.

وسميت مناة؛ لأن دماء النسك كانت تُمنى -أي: تراق- عندها، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلُّون منها للحج بالكعبة، ويستمتطون عندها تبرُّكًا بها، وكانوا يطوفون حول مناة عوضًا عن السعي، فلما شرع الإسلام السعي بين الصفا والمروة تحرَّج الأنصار من السعي بينهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾<sup>(٣)</sup> [البقرة: ١٥٨].

قال ابن عطية: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قَدْرًا، وأكثرها عبادة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنَوَةٌ لِّلْأُخْرَى﴾ فأكدتها الله تعالى بهاتين الصفتين: الثالثة، والأخرى. وقد بعث النبي ﷺ إليها أبا سفيان، وقيل: علي بن أبي طالب ؑ، فهدمها.

أخرج البخاري بسنده عن الزهري قال: سمعت عروة يقول: قلت لعائشة ؓ، فقالت: إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون. قال سفيان: مناة بالمشلل من قُدَيْد.

(١) «الأصنام» ص ١٧ .

(٢) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٦١) و«صحيح مسلم» مع «شرح النووي» (٢٢/٩) وهما عن عائشة ؓ.

(٣) البخاري (٤٨٦١) ومسلم (١٢٧٧).

وقال عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن عروة قال: قالت عائشة: نزلت في الأنصار، كانوا هم وغسان - قبل أن يُسلموا - يهلّون لمناة.

وقال معمر، عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يهلّ لمناة - ومناة: صنم بين مكة والطائف - قالوا: يا نبي الله، كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة. نحوه.

قال ابن الكلبي: كان مناة منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكانت جميع العرب تعظمه ويحجون إليه<sup>(١)</sup>.

ورابعها: ذو الخَلْصَة.

وكانت تعبدها: دَوْس، وَخَثْعَمَ وَبَجِيلَةَ، وكانوا يسمونها الكعبة اليمانية، ويسمونها الكعبة: الكعبة الشمالية، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليها (جرير بن عبد الله البجلي) فهدمها.

وخامسها: فُلَس، لطيء، ومن يليها من جبلي طيء، وقد أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه فهدمه، واصطفى منه سيفين أعطاهما النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه.

وسادسها: رِيَام، بيت الصنعاء، كان لحمير وأهل اليمن.

وسابعها: رُضَاء، بيت لبني ربيعة بن كعب.

وثامنها: ذو الكَعْبَات، لبكر وتغلب ابني وائل<sup>(٢)</sup>.

ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، فإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة، ولا تضر ولا تنفع، فأخبرونا - أيها المشركون - عن هذه الآلهة التي تعبدونها، هل لها من القدرة ما لرب العالمين، حتى تزعموا أنها آلهة؟ قال تعالى:

(١) كتاب «الأصنام» ص ١٣ .

(٢) يُنظَر في هذه الأصنام: «سيرة ابن هشام» (١/٨٣-٨٨).

٢١، ٢٢- ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْعُونَ اللَّهَ مَعَهُ إِذْ دُعُوا بِهِمْ فَصَيَّرَهُمْ حِقَابًا وَأَلْهَىٰ ذَلِيلَهُمْ صُورَهُمْ وَأَسْوَأَ أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا لَّيْسُوا بِالْعُقَابِ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ (٢١)

وكان المشركون يقولون عن الملائكة، وعن هذه الأصنام الثلاثة: اللات، والعزى، ومناة- إنها بنات الله، مع أنهم كانوا يندون البنات ويكرهونهن، فقال الله تعالى لهم: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْعُونَ اللَّهَ مَعَهُ إِذْ دُعُوا بِهِمْ فَصَيَّرَهُمْ حِقَابًا وَأَلْهَىٰ ذَلِيلَهُمْ صُورَهُمْ وَأَسْوَأَ أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا كَثِيرًا لَّيْسُوا بِالْعُقَابِ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ (٢١) أتجعلون لكم الذكر الذي ترضونه، وتجعلون لله بزعمكم الأئى التي لا ترضونها لأنفسكم؟ وهذا من باب التهكم والتسفيه؛ لأنهم يعترفون أن الله تعالى خالقهم ورازقهم.

ومع أن أساس هذه القضية باطل لا أصل له؛ لأن الله تعالى لا والد له ولا ولد، إلا أن هذه القسمة على فرض صحتها - كما تزعمون أيها المشركون- قسمة جائزة ظالمة؛ إذ كيف تخصون أنفسكم بالذكر الذي تفضلونه، وتنسبون لله ما تكرهون؟ فهلاً كنتم محايدين وعادلين في قسمتكم ﴿تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَبْرًا﴾ (٢٢) لقد جرتم في القسمة ولم تعدلوا، وأي ظلم أعظم من تفضيل المخلوق على الخالق؟ وهذا من باب الإنكار والتوبيخ.

هذا: وقد مرَّ الحديث عن قصة الغرائق في سورة الحج عند الآية الثانية والخمسين، وهي قصة باطلة، ومن زعم أن النبي ﷺ مدح الأصنام، فالإسلام منه بريء، وهي من الإفك المفترى على رسول الله ﷺ.

### عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فِي الْعَالَمِ أَوْهَامٌ

٢٣- ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (٢٣)

ثم بيّن سبحانه حقيقة هذه الأصنام، وأنها أسماء لآلهة مزعومة، لا حجة عليها ولا برهان، فهي لا تعقل ولا تتصرف، وليست لها حقائق ثابتة، وإنما هي حجارة، أو بيوت، تجعلون لها سدنة وتعبدونها ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ باطلة فاسدة لا معنى لها، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، وليس لها شيء من صفات الألوهية، وهي مجرد أسماء، سميت بها هذه الحجارة، أو هذا الجماد ﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ أي: ليست

(١) قرأ ابن كثير (ضزرى)، والباقون (ضيزى).



لها حقائق، فأنتم سميتوها آلهة، وليست بآلهة، بل جعلتموها أنتم آلهة ظلما وزورا بدافع الهوى وتزيين الشيطان ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: إن الله تعالى لم يُخبر أحداً من رسله، بأن لهذه الأصنام أزواجاً، كما أخبر عن الملائكة والإنس والجن والشياطين، فالسلطان هو الحججة، والإخبار عن هذه الأصنام من الله تعالى ليكون ذلك حجة لهم على عبدة الأوثان في كل زمان ومكان، ولم تنزل عبادة الأصنام قائمة، إلى وقتنا، كما في بعض البلاد من العالم:

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

فهي أسماء ليس لها حقيقة، وليس لها من أوصاف الكمال والقدرة والعظمة شيء.

وإذا انتفت الحججة، كانت الأوهام والأمانى هي التي تخدعهم وتغرهم وتزيين لهم عبادة الأوثان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ليس المراد بالظن هنا: الاعتقاد غير الجازم، وإنما المراد: أنهم على وهم باطل، بقرينة ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ من الشرك والبدع الموافقة لأهوائهم الآمرة بالسوء، المنحرفة عن الهدى.

أي: ما يتبع هؤلاء الجاهلون في عبادتهم الباطلة إلا الأوهام الكاذبة، وهوى النفس المنحرفة الذي ينشأ عن الفطرة غير السليمة، وتقليد من سبقهم دون إعمال فكر ولا تدبر، وما تمليه عليهم النفس الأمارة، والشيطان اللعين، فهم قد وضعوا عبادتهم بأنفسهم، والعبادة تكون بمقتضى الشرع لا بمتابعة هوى النفس.

والظن الذي يبعثهم على متابعته، ظن كاذب مدموم؛ دون علم ولا هوى، فهم يتبعونه لأنه موافق لهوهم وما يألفون، وكان الواجب عليهم أن يتبعوا ما جاءهم به رسول الهدى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: جاءهم الهدى على لسان محمد ﷺ يرشدهم إلى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء، وما فيه صلاح المرء في دينه ودنياه، فلم يهتدوا، ولم ينتفعوا بما في القرآن الكريم والسنة النبوية من البيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن هذه الأصنام ليست آلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله تعالى، فكيف لا

يتركون عبادتها بعد وضوح هذا البيان؟ من أن هذه الأصنام ما هي إلا ظن كاذب وزعم فاسد، وكيف يُمنون أنفسهم بأنها تشفع لهم، والله تعالى هو مالك الدنيا والآخرة ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يشفع إلا لمن ارتضى.

## خَمْسُ شُبُهَاتٍ لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٢٤، ٢٥ - ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾

ثم أبطل سبحانه عقائد المشركين في خمس نقاط، هي:

- ١- يقينهم بأن الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى.
  - ٢- وتمنيهم أن يكون الرسول ملكًا.
  - ٣- وتمنيهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم.
  - ٤- وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يُبدله.
  - ٥- وطلبهم أن يأتيهم الرسول بخوارق للعادات، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام.
- فهذه الشبهات وغيرها كان المشركون يتطلعون إليها على أنها محط أمنيتهم وأهوائهم، وكانوا يُعرضون عن كل ما يخالف هواهم، فبين سبحانه أن تحقيق الأماني بيد الله، وأنه هو المعطي المانع، على أن ما يتمناه الإنسان قد يتمناه غيره، فيحدث التعارض والحرمان، ويفضي إلى تعطيل الأُمْنِيَّتَيْنِ.

والحظوظ مقسمة، ولكل واحد نصيب، والعاقل هو الذي يوطن نفسه على الرضى، ذلكم قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يحصل للإنسان كل ما يتمناه، وهؤلاء قد اتبعوا الظنون والأوهام وما تشتهيهم أنفسهم، من حب الزعامة وتقليد الآباء، وتطلّعهم إلى شفاعة الأصنام لهم عند الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعًا: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يُكتب له من أمْنِيَّتِهِ»<sup>(١)</sup>.

(١) تفرّد به أحمد في «المسند» (٣٥٧/١) برقم (٨٦٩١) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف عمر بن أبي سلمة عند التفرّد، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٥١/١٠): وأخرجه الطيالسي (٢٣٤١) والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٤) والبيهقي في الشعب (٧٢٧٤) ..

وليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وليس كل ما يريده العبد يتحقق، فكل شيء مرهون بإرادة الله تعالى ومشيئته وفق حكمته تعالى في خلقه ﴿اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (١٦).

أي: إنه جلّ شأنه مالك الدنيا والآخرة، يعطي من اتبع هداه وترك هواه.

### لِلشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَرْطَانِ

٢٦- ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

ثم ضرب الله سبحانه مثلاً بأعظم ما يتمناه المشرك، وهو شفاعاة الآلهة لهم عند الله، فبيّن سبحانه أن الملائكة مع علوّ شأنهم، وشرف منزلتهم، وكرامتهم على الله تعالى، فإن شفاعتهم لا تنفع إلا إذا تحقق فيها شرطان، وهما: أن يأذن الله للشافع في أن يشفع، وأن يرضى عن المشفوع له بالشفاعة فيه.

وهذا معنى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ أي: وكثير من ملائكة الله المقربين عند الله في السموات العلا ﴿لَا تُغْنِي﴾ عنهم ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولا تنفع ﴿شَيْئًا﴾ عند الله تعالى.

أي: لا تفيد هذه الشفاعة من دعاها أو رجاها وتعلق بها، مع سُمُو منزلتهم، فكيف تطمعون في شفاعاة من هم دون ذلك من شجر أو حجر أو إنسان صالح أو غير صالح، ميت أو حي، ونحو ذلك ممن يَطْلُبُ منهم المشركون الشفاعة، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق؟ فيقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ثم وضع سبحانه شرطين لقبول الشفاعة عنده لا بد منهما لكل شافع أو مشفوع له:

أولهما: جاء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لهم في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] بأن كان من أهل التوحيد.

وثانيهما: جاء في تنمة الآية في قوله سبحانه: ﴿وَيَرْضَى﴾ أي: عن المشفوع له، كما

قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقد جمع الشرطين معاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٣٩﴾ [طه]. وجمعهما أيضاً في الآية التي معنا من سورة النجم.

فإذا كان هذا في حق الملائكة، فكيف بغيرهم؟

## فِرْيَةُ الْقَوْلِ بِأَنْوَةِ الْمَلَائِكَةِ

٢٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَةً الْأُنثَى﴾ ﴿١٧﴾

والحديث موصول عن الكفار المنكرين للبعث، فهم الذين يقولون عن الملائكة: إنهم إناث، وهم الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب وجنة ونار، ولا يعملون لها، وهم الذين يفترون على الله الكذب، فيزعمون أن الملائكة بنات الله، ويجعلونهم إناثاً كما قال تعالى عنهم:

﴿لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَةً الْأُنثَى﴾ أي: هم الذين يصفون الملائكة بأوصاف الإناث، ويقولون: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكُنِبُ شَهَدَتُهُمْ وَسُئِلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [الزخرف] أي: إن هؤلاء الكفار هم الذين يصفون الملائكة بالأنوثة، ويزعمون أنهم بنات الله، والسبب في ذلك أنهم لا يؤمنون بالآخرة، لهذا تجرؤوا على الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم، فلم ينزهوا الله سبحانه عن الولد، وجعلوا الملائكة إناثاً، وكل هذا افتراء على الله تعالى وتقول عليه بغير علم، ولذا: قال تعالى:

٢٨- ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ﴿٢٨﴾

أي: إن المشركين لا علم لهم بتكوين الملائكة، فهم لم يشهدوا خلقهم، وليس عندهم حجة ولا برهان على أنهم إناث، فقولهم هذا مجرد وهم وتخيل لا دليل عليه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فهو اعتقاد خاطئ لا يفيد شيئاً.

وحقائق الأمور لا تُدرَك إلا بالعلم الصحيح، ولو وافق الظن الحقيقة فهذا مجرد صدفة واتفاق، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: لا يُجدي ولا يقوم مقام

(١) انفراد الكوفي بعد لفظ (شيئاً) آية، وأسقطه جمهور أهل العدد، فلم يعدوه آية.

الحق أبداً، وإنما تُدرك حقيقة الشيء بالعلم اليقيني، لا بالظن والتوهم الذي لا يفيد شيئاً في إدراك الحقائق، والعلم اليقيني يدل على نقيض قولهم، وأن الله تعالى منزه عن الصاحبة والولد، وأن الملائكة عباد مقربون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وأن المشركين لا يتبعون إلا الظن وهوى النفس.

## هَذَا وَعِيدٌ لِلْكَفَّارِ وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

٢٩- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى<sup>(١)</sup> عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا<sup>(٢)</sup>﴾ ﴿٢٩﴾

ولما كان المنكرون للبعث والنشور، ضالِّين في حقيقة الأمر، وتنج عن هذا الضلال إعراضهم عما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم، لذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعرض عنهم، فلا يهتم بهم؛ لأنهم لم يقبلوا الإرشاد، وأمره ألا يحزن على كفرهم، ويداوم على دعوتهم للإيمان.

﴿فَأَعْرِضْ﴾ أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى ﴿عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فإنَّ طلب الدنيا ومتاعها، منتهى علمهم وغايتهم، وهم قد آثروا الفانية على الباقية، وظلُّوا يعملون للدنيا وغفلوا عن الآخرة، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها. قال تعالى:

٣٠- ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ ﴿٣٠﴾

ثم حَقَّرَ الله تعالى أفكارهم وهَوَّنَ من شأنهم، فقال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: هذا هو نهاية علمهم وغاية مداركهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أعلم بمن أصرَّ على الضلال، فحاد عن الحق وعن طريق الهداية، هذا هو طريق أهل الضلال، أما المؤمنون بالآخرة، فهمتهم منصرفة إلى الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلِّها، وهو كتاب الله وسنة رسوله، لذا قال تعالى عنهم: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ أي: ممن سلك طريق الإسلام، واستجاب لدعوته، وقد أسند الله الهدى والضلال إليهم؛ لأنهم اكتسبوهما بفعلهم، وإن كان كل شيء من خَلْقِ الله تعالى.

(١) انفرد الشامي بعد (عمن تولى) وتركه غيره.

(٢) أسقط الشامي (إلا الحياة الدنيا) من العدد، وعدّها غيره.

إنه سبحانه أعلم منك -أيها الرسول- بحالهم ودخائل نفوسهم، فلا تحزن على من لم يتبع طريق الهدى منهم، ولا تتحسر عليهم، وفي هذا إنذار شديد للعصاة المعرضين عن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ المؤثرين لهوى النفس وحظوظ الدنيا، فالدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، فاللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. وكثيراً ما كان النبي ﷺ يدعو ربه ألا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»<sup>(١)</sup>.

## عَدَالَةُ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ

٣١- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾

وبما أن لله سبحانه الآخرة والأولى، وأنه تعالى أعلم بمن ضلّ عن سبيله وأعلم بمن اهتدى، فإنه لا يقدر على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، إلا مالك الملك، كامل القدرة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه كامل ما في الكون، فهو خالقه ومالكة، والمتصرف فيه، يأمرهم وينهاهم، ويُجري عليهم شرعه، ويُجزئهم على ما أمرهم ونهاهم، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي.

والله تعالى، يعلم أن لهم حياتين، ويعلم أن من في العالم الأرضي ستصدر منهم أقوال وأفعال حسنة وسيئة في حياتهم الدنيا، وأنه مجازيهم على ذلك جزاء عادلاً في الآخرة، فلا جرم أن يكون الجزاء غايةً لخلقهم، وعلّة باعثة على وجودهم، إلى جوار سبب أساسي

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٣) بإسناد حسن، ومشكاة المصابيح (٢٤٩٢) التحقيق الثاني، وابن السني (٤٤٦) والحاكم (٢٥٨/١).

أوجد الله الخلق من أجله، هو معرفة الله سبحانه، وهو المقصود الأعظم، والسبب الأول، ثم إعمار هذه الأرض، وابتلاء المخلوقات، وغير ذلك من الحكَم الإلهية.

ولهذا فقد خلق الله الخلق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَاعِلًا﴾ أي: يعاقبهم عقابًا عادلًا مماثلاً لما عملوه في الدنيا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ فيثيبهم بأفضل مما عملوا، وهو الجنة، ثم رضى الله سبحانه ورؤيته في دار النعيم.

### الْكَبَائِرُ وَالْفَوَاحِشُ وَالصَّغَائِرُ وَاللَّمَمُ

٣٢- ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ (١) الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ (٢) فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء المحسنين بأنهم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فهم يفعلون ما أمرهم الله به ويتركون ما نهاهم عنه.

١- والإثم: اسم جنس، يشمل الذنوب الصغائر والكبائر.

٢- وكبائر الإثم: هي كل ما توعد الله فاعله أو قائله بالعذاب أو الغضب، أو اللعنة أو النار، كالسرقة، والربا، والرشوة، وقذف المحصنات، والتولي يوم الزحف، ويدخل في ذلك كل ما وضع له الشرع عقوبة القصاص، أو الحدود، أو التعزيرات، وكل جريمة تُؤذَن بعدم تكرار فاعلها بالدين، أو رقة في دينه.

والسبع الموبقات من كبائر الذنوب، وهي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع.

٣- والفواحش: أخص من الكبائر، وأقوى إثمًا، ويُعدُّ فاعلها متجاوزًا حد الكبائر، كالزنى بزوجة الجار، ونكاح زوجة الأب، والقتل غيلةً، والزنى بالمحارم.

وهكذا فإن الزنى في حد ذاته حرام، وهو من كبائر الذنوب، ولكن الزنى بالمحارم، أو بحليلة الجار، وكذا الشيخ الزاني -أشد إثمًا، فهو من الفواحش.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) على التوحيد، وقرأ الباقون (كبائر) على الجمع، ورفق الأزرق الراء، ووقف حمزة بالسكت والنقل في (الإثم).

(٢) قرأ حمزة بكسرة الهمزة والميم وصلًا من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم وصلًا، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلًا، والجمع يبدأ بهمزة مضمومة وميم مفتوحة.

والزواج من المحارم حرام، وهو بزوجة الأب أشدُّ حرمة، قال الله تعالى عنه:

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

والقتل كبيرة من الكبائر، ولكن القتل غيلة أشدُّ إثماً.

وخيانة الأمانة حرام، ولكن خيانة الإنسان لمن ائتمنه أشدُّ حرمة.

والكذب حرام، ولكن الكذب على الله ورسوله أشدُّ حرمة، وهكذا كل ما تنهى قبحه وفحشه من الأقوال والأفعال فهو من الفواحش.

٤- والصغائر: هي ما دون الكبائر، كالثُّبلة والنظرة والغمزة دون إصرار.

فهناك قاعدة عامة تقول: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

فالإصرار على الصغيرة بالمداومة عليها وتحقيرها، يجعلها كبيرة بالنسبة لمن يفعل ذلك.

والذي يتوب من الكبيرة وهو صادق من قلبه في توبته وقت أن تاب، ثم ضَعُفَتْ نفسه وزَلَّتْ، فوقع في الذنب مرة أخرى ثم تاب، فإن الله تعالى يتوب عليه، ولكن عليه ألا يكون مستخفًّا، متهاونًا في ذنبه، غير مُقْلِع من قلبه.

وفي الحديث: عن ابن مسعود مرفوعًا: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على العبد حتى يهلكنه»<sup>(١)</sup>.

٥- واللَّمَم: هو الذي يُلَمُّ بالذنب -أي: يقع فيه- من غير إصرار عليه، ثم يتوب منه ولا يعود إليه، فهو يُلَمُّ به على وجه الندرة والقلّة<sup>(٢)</sup>، ومما ورد في ذلك:

(أ) ما رواه ابن جرير عن مجاهد قال: اللَّمَم: هو الذي يُلَمُّ بالذنب ثم يدعه، وفي رواية له: هو الرجل يلَمُّ بالذنب ثم ينزع عنه<sup>(٣)</sup>.

(١) الحديث في «المسند» (٣٨١٨) وبرقم (٢٥١٧٧) عن عائشة ؓ بنحوه، قال محققوه: إسناده حسن، وهو مكرر برقم (٢٤٤١٥) وفي «سنن النسائي الكبرى» (١١٨١١) وصححه ابن حبان (٥٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٤٣) وفي حديث طويل عن سهل بن سعد في «المسند» (٢٢٨٠٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢) و«الأوسط» (٧٣١٩) و«الصغير» (٩٠٤).

(٢) وبهذا قال ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، ومجاهد، وابن جرير، والشُّدِّي.

(٣) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧).



(ب) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا»<sup>(١)</sup>

(ت) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: اللَّمَّةُ من الزنى، ثم يتوب، ولا يعود، واللَّمةُ من السرقة، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمةُ من شرب الخمر، ثم يتوب، ولا يعود، قال: ذلك الإلمام<sup>(٢)</sup>.

(ث) وقال السُّدِّيُّ: قال أبو صالح: سئِلْتُ عن اللَّمَمِ، فقالت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرْتُ بذلك ابن عباس، فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم<sup>(٣)</sup>.

(ج) وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمَمِ مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيَّ ابْنُ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنَى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَى الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَزَنَى اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجَ يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ»<sup>(٤)</sup>.

(ح) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: زنى العينين النظر، وزنى الشفتين التقييل، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي، ويُصدَّقُ ذلك الفرج أو يُكذَّبُه، فَإِنْ تَقَدَّمَ بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم<sup>(٥)</sup>.

(خ) قال أبو هريرة وابن عباس والشعبي وغيرهم: اللَّمَمُ: صغار الذنوب التي بين الحدَّين: الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصاً بها، ويقال لها: صغائر بالإضافة إلى غيرها<sup>(٦)</sup>.

(د) وقيل: إن هذه الآية نزلت في رجل يُسمَّى نبهان التَّمَّار، كان له دكان يبيع فيه تمرًا،

(١) «تفسير البغوي» (١٢٨/٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٨٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦١٨) والبزار (٢٦٦٢) «كشف الأستار» والحاكم (٤٦٩/٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) والبيت لابن أبي الصلت.

(٢) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٥٨، ٧٠٥٩).

(٣) حكاها في التفسير: البغوي والخازن والسيوطي في «الدر».

(٤) «المسند» (٢٧٦/٢) (٧٧١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«صحيح البخاري» برقم (٦٦١٢، ٦٣٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٥) وعبد الرزاق (٢٥٣/٢) والطبري (٦٢/٢٢) والبيهقي في «السنن» (٨٩/٧).

(٥) «تفسير الطبري» (٣٩/٢٧) وعبد الرزاق (٢٥٥/٢) والحاكم (٤٧٠/٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٠).

(٦) «تفسير ابن عطية» (٢٠٤/٥) والطبري (٦٧/٢٢).

فجاءته امرأة تشتري تمرًا، فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلتْ راودها عن نفسها فأبت فندم، فأتى النبي ﷺ، وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته -أي: بالمرأة غصبًا عنها- إلا الجماع، فنزلت الآية<sup>(١)</sup>.

وقد حدثت هذه القصة في المدينة، وعليه فإن هذه الآية تكون مدنية ألحقت بسورة النجم المكية.

(ذ) قال زيد بن أسلم: اللَّمَمُ: الشرك والزنى، تركوا ذلك حين دخلوا الإسلام وغفر الله لهم، ما كانوا ألثموا به، وأصابوا من ذلك قبل الإسلام<sup>(٢)</sup>.

والجمع بين هذه الأقوال: أن كل ذنب أَلَمَّ به العبد -صغيرًا كان أو كبيرًا- قبل الدخول في الإسلام، أو قبل التوبة، فإن الله تعالى يغفر له ذلك؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، والتوبة تَجِبُ ما قبلها.

ووجه تسمية هذه الذنوب التي ذُكرت في الحديث، وفي قول ابن مسعود، وفي سبب النزول، باللَّمَم: أن العبد لا يُصِرُّ عليها، وكلما أَلَمَّ بها على وجه الندرة والقلة، أُلْقِع عنها مباشرة، فالإقدام عليها مرة لا يُخرج العبد عن أن يكون من المحسنين، فتارك المحرمات، وفاعل الواجبات يدخل تحت مغفرة الله تعالى التي وسعت كل شيء<sup>(٣)</sup>.

وقيل في اللمم أقوال أخرى، ونختار ما سبق ذكره؛ لأنه جاء بالترفة بين اللمم والصغائر.

وتعريف اللمم في اللغة يختلف عن تعريف الصغائر، فالصغائر أطلق القرآن عليها سيئات في قوله تعالى: ﴿إِن جَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُتَهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء] ولم يطلق ذلك على اللمم.

وما أَلَمَّ به العبد من الشرك والمعاصي قبل إسلامه وقبل التوبة فهو من اللمم.

فقد جاء عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وابنه، في سبب نزول الآية:

(١) «التحرير والتنوير» (١٢٢/٢٧).

(٢) الطبري (٦١/٢٢).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن سعدي» ص ٧٦٨ تحقيق محمد زهدي النجار.

أن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا، فنزلت الآية.

وهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

ومعنى الآية: إن المحسنين هم الذين يتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش، ولا يُلامون على ما صدر منهم من ذنوب، ولم يُصْرُوا عليها، ووقعت منهم على وجه الندرة، ثم تابوا وأقلعوا عنها، فإن الذين فعلوا هذا مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات يغفرها الله لهم ويسترها عليهم.

﴿إِنَّ رَيْكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فهو غَفَّارُ الذنوب، وستَّارُ العيوب، يغفر لمن أقبل على ربه وأتاب، فرحمته وسعت كل شيء، وقد عَقَّبَ الله تعالى بذلك؛ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من عفو الله تعالى، ولو لا مغفرة الله تعالى لهلك العباد والبلاد، ولولا عفو وحلمه لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك الله على ظهرها من دابة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ فَرِحُوا﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنْ جَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْا عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس، والجمعة، إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»<sup>(١)</sup>.

والآية تشد الكمال في المسلم، وتفيد أن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، وأن طبيعة الإنسان الأرضية قد تغلب جانب الروح فيه، وينبغي على الإنسان أن يشتد تعلُّقه بمغفرة الله تعالى، وأن يُعَوِّلَ على فضل الله سبحانه بعد الاجتهاد في ترك المحرمات وفعل الواجبات.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

ورحمة الله الواسعة صادرة عن علم شامل يحيط بظاهر العبد وباطنه، فهو سبحانه أعلم بأحوال الإنسان الأول وقت إنشائه من تراب الأرض، وأعلم بذريته وهم أجنة مستترون في بطون وأرحام أمهاتهم، ويعلم أطوارهم فيها ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: أعلم بحالكم من أنفسكم، فهو يدبر لكم ما لا يخطر ببالكم، كما قال تعالى في الحديث القدسي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإن شئتم فاقراءوا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾<sup>(١)</sup> [السجدة: ١٧].

ومن هذا القبيل قوله تعالى لنيبي ﷺ في حديث الإسراء حين فرض عليه خمسين صلاة: «إن أمتك لا تطيق ذلك»<sup>(٢)</sup>.

فهو سبحانه أعلم بأحوالكم وما جُبلتم عليه من ضعف وقوة، وخور وعزيمة وما إلى ذلك، وعلمه تعالى لم يزل قائماً بكم، ولعلمه بأحوالكم تغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، فلا تخبرون الناس بطهارة قلوبكم وتمدحون أنفسكم، فإن الله تعالى، أعلم بمن اتقى لأن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليها.

### النهي عن تزكية النفس:

قيل: إن ناساً كانوا يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون مفتخرين: صلاتنا وصيامنا وحبنا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> أي: لا تمدحوها، ولا تثنوا عليها، ولا تصفوها بالصلاح والتقوى، ولا تظنوا أنكم أصحاب فضل وطاعة، فإن هذا يؤدي إلى الإعجاب بالنفس، وانتقاص الآخرين، ويوصل المرء إلى الرياء المحبط للعمل.

(١) البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤) وابن ماجه (٤٣٢٨) والترمذي (٣٠١٣) والنسائي في (الكبرى) (١١٠١٩) و«المسند» (٨١٤٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) دون ذكر الآية، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٧٤) وعند أبي يعلى (٦٢٧٦) وغيرهم، وابن حبان (٣٩٦).  
(٢) من حديث طويل عن مالك بن صعصعة في البخاري (٣٢٠٧) معلقاً، ومسلم (١٦٤) والترمذي (٣٣٤٦) و«المسند» (١٧٨٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٤٨) والنسائي في الكبرى (٣١٣).

(٣) من «تفسير النسفي» وابن عاشور للآية.

وعليكم أن تهضموا أنفسكم، وتتهموها، وتنسبوها إلى التقصير، وانظروا إلى من هم دونكم في الرزق، وأعلى منكم في الطاعة؛ حتى لا تزُدُّوا نعمة الله عليكم ﴿هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي﴾ فاكثفوا بعلمه وجزائه عن ثناء الناس، فهو أعلم بمن برَّ وأطاع، وأخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

وعن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد»، فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

ومن اعتقد أن طاعته وعمله الصالح هو بفضل الله وتوفيقه وتسديده وإعانتة، فحمد الله وشكره على ذلك، فإن هذا ليس تزكية للنفس، وإنما هو سرور بالطاعة، وذكرها شكرًا لله تعالى<sup>(٢)</sup>. وقد جاء النهي عن تزكية النفس، وتزكية الآخرين في الكتاب والسنة، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء].

ومن ذلك حديث أم علاء الأنصارية: حين مات عثمان بن مظعون في بيتها، فلما غُسل وكُفِّن في أثوابه دخل عليه رسول الله ﷺ، فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب -كنيته- فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمك؟» فقالت: إذا لم يكرمه الله، فمن يكرمه الله؟ فقال ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير، وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت أم علاء: فلا أزكي أحدًا بعدما سمعت هذا من رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>.

والرسول لا يعلم ما يحدث له في الدنيا ولكنه يعلم مصيره في الآخرة وهو الجنة. وقد شاع بين الصحابة ؓ في عصر النبوة أنهم كانوا يتحرزون من التزكية، فإذا أثنوا على أحد قالوا: لا أعلم عليه إلا خيرًا، ولا أزكي على الله أحدًا. عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة:

(١) الطبراني في «الكبير» (١٣٦٨) وأبو نعيم (٤٠٤/١) (١٣٦٣) والواحدي ص ٢٩٧ .

(٢) «تفسير الكشاف» (٢٣/٤).

(٣) البخاري (١٢٤٣)، وانظر: (٢٦٨٧، ٧٠١٨) و«المسند» (٢٧٤٥٧) بإسناد صحيح رجال ثقات رجال

الشيخين (محققه) والطبراني في «الكبير» (٣٣٩) والحاكم (٣٧٨/١) والبيهقي في «السنن» (٧٦/٤).

إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُميت برة، فقال ﷺ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الله أعلم بأهل البر منكم»، قالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»<sup>(١)</sup>.

### النهي عن مدح الآخرين تملُّقًا:

ومما ورد في النهي عن مدح الآخرين، ما جاء عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ، فقال له: «ويلك، قطعت عنق صاحبك -مرارًا- إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه -إن كان يعلم ذلك- كذا وكذا»<sup>(٢)</sup>.

وجاء رجل إلى عثمان، فأثنى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود، يحثو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المدّاحين أن نحثو في وجوههم التراب<sup>(٣)</sup>.

أما تزكية القدوة والصالح من عباد الله ليقندي به الناس فهو جائز، وقد زكى النبي ﷺ أبا بكر ؓ، قالوا: والآية نزلت في قوم كانوا يعملون أعمالًا حسنة، ثم يتفاخرون بها.

### لَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ غَيْرِهِ

٣٣-٣٥ ﴿أَفَرَأَيْتَ<sup>(٤)</sup> الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾﴾

أَعْلِمْتَ - أيها الرسول - قُبْحُ حَالَةِ مَنْ أَمَرَ بتوحيد الله وعبادته، فتولى عن الإيمان، وأعرض عن طاعة الرحمن، فما أجهله وما أشد غفلته؟ وانظر إليه حين يُدعى إلى إنفاق المال، فإنه يبخل بالقليل منه، ثم يمنع عطاءه بالكلية، ويُمسك بمعروفه وإحسانه، فما أشد بخله؟ وهل عنده علم من الغيب أن ماله سينفذ حتى يبخل به؟

هذا: وقد وردت في هذه الآيات أسباب كثيرة للنزول، منها:

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤٢).

(٢) «المستد» (٤١/٥، ٤٥) برقم (٢٠٤٦٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والبخاري برقم (٦١٦٢) ومسلم برقم (٣٠٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥)، والبخاري في مسنده (٣٦٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠٢) وأبو داود برقم (٤٨٠٤).

(٤) سهّل الهمة الثانية من (أفرايت) نافع وأبو جعفر، وأبدلها ألفًا ورش مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن النبي ﷺ خرج في غزوة، فأراد رجل أن يخرج معه، ولم يجد ما يخرج عليه، فلحق صديقاً له، فقال: أعطني شيئاً، قال: أعطيك بكري هذا - أي: الصغير من الإبل - على أن تتحمل عني ذنوبي، فقال: نعم، فأنزل الله الآية. (١)

وبهذا المعنى وردت روايات أخرى:

فقد جلس الوليد بن المغيرة عند النبي ﷺ يستمع إلى وعظه، فتأثر قلبه، وكاد أن يُسلم، فعيّره رجل من المشركين وقال: تركت دين آبائك وصللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطاه بعض الذي طلبه، ثم بخل ومنعه الباقي، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾﴾ (٢).

فقوله: ﴿وَأَكْدَى﴾ أي: بخل بعطائه ومنعه عنه، يقال: أكدته للذي اعترضته كُذبة، أي: صخرة، أو حجر لا يستطيع إزالته، وهو يحفر في الأرض.

والمعنى: أفرأيت - يا رسولنا - حالاً أعجب من حال هذا الإنسان الفاجر الأثيم الذي أعرض عن طاعة الله ورسوله، ونبذ الهداية وراء ظهره، بعد أن قارب على الدخول فيها، وأعطى لصاحبه قليلاً من المال المشروط بينهما؛ كي يتحمل عنه العذاب، ثم توقف وقطع عطاءه عن صاحبه الذي عيّره إن هو دخل في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

﴿عِنْدَهُ﴾ أي: أعند هذا الذي قطع عطاءه وأعرض عن الهداية والرشد علم بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ وهل عنده ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ أن صاحبه

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٣/١٤).

(٢) رواه الطبري والقرطبي وابن عطية والألوسي وغيرهم عن مجاهد وابن زيد، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٢٦ وفي سننه ابن لهيعة، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٢٨/٦) وزاد في نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي نعيم في «المعرفة» وابن مردويه عن ثابت بن الحارث الأنصاري.

سينفذ ما في يده ويحتاج إليه حتى أمسك عنه معروفه، فهو يرى ذلك عياناً ويطلع عليه؟ وهل هو يعلم أن في إمكان غيره أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن العطاء شحاً وبُخلاً.

وليست هذه الآيات صفات شخص بعينه، ولكنها تصوير لحالة من حالات الكفر الشائعة قديماً وحديثاً، فملاحة العصر في غرور بالباطل، وإعراض عن الحق، واستعلاء على غيرهم، وجمود على ما هم عليه، وسبب نزول الآيات يوضح الحالة الخاصة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآيات بعد ذلك، في السياق نفسه.

### الْكَفْرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كُفْرٌ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

٣٦، ٣٧- ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ<sup>(١)</sup> بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ<sup>(٢)</sup> الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾

إن الكفر بمحمد ﷺ كفرٌ بجميع الأنبياء، وإنكارٌ للوحي الذي نزل على رسل الله كلهم، فهلاً اطلع الكافر على ما أخبر به رسل الله من قبل؟ فكثيراً ما ذكر الله تعالى أسماءهم وشرائعهم في كتابه العزيز، وفي الكتب السابقة.

والمعنى: ألم يُخبر هذا الذي أعرض عن الإسلام بما جاء في أسفار التوراة، وصحف إبراهيم الذي وفَّى بما أمر به، وبلغه وقام بأدائه خير قيام، من أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى، ولكل إنسان ما اكتسب من الخير أو الشر، وأنه محاسب ومجزى على ما قدمت يداه.

وفي هذا ذمٌ لمن أعرض عن الحق وبخل بماله، وذمٌ له على جهله وحمقه، فطالما سأل هذا الكافر وغيره أهل الكتاب عن أخبار موسى ﷺ، فكان عليه أن يسأل عن طلب النجاة من عذاب الله تعالى في شريعة محمد، فإن شريعة موسى معلومة عند اليهود.

ومآثر شريعة إبراهيم يعرفها العرب، ولهذا خُصَّت هاتان الشريعتان بالذكر دون غيرهما، وقُدِّم موسى ﷺ لاشتهاره بكثرة الأحكام عما وصلهم من شريعة إبراهيم، ﷺ. وقُدِّمَتْ صحف إبراهيم في سورة الأعلى على صحف موسى مراعاة للترتيب الزمني،

(١) أبدل أبو جعفر همزة (ينأ) ألفاً وصلًا ووقفًا، وفي الوقف حمزة وهشام.

(٢) قرأ هشام (إبراهام)، والباقون (إبراهيم).



وصحف موسى هي التوراة، وصحف إبراهيم هي التي سجل فيها ما أوحى الله به إليه .  
سأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء، فذكر له منها عشر صحائف أنزلت على إبراهيم <sup>(١)</sup>.

أي: أنزل الله عليه ما كُتب فيها، وهي تساوي نحو عشر ورقات بالخط القديم.  
فهلأ سأل هذا المُعْرِضُ عن دين الله العلماء عن صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، لِيَعْلَمَ ما يجهله عن وحي الله تعالى ورسله الأكرمين .  
أَمَّا مَا وَفَى بِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فهو كل ما يجب عليه الوفاء به من جميع ما ابتلاه الله به، من سنن الفطرة وغيرها، وما أمره الله به من أصول الدين وفروعه .  
ومن ذلك الكلمات التي ابتلاه الله بها فوقهاها: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها ما وَفَى بِهِ من ذبح ولده إسماعيل لَمَّا أمره ربه بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ إِذْ أُوْحِيََ إِلَيْهِ أَن ذَبِحْهُ لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ بَشَرٌ خَلَقْتُ بَشَرَيْنِ مِثْلَ هَذَا أَهْمًا وَمِثْلَ هَذَا هَمِيمًا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].  
ومنها قيامه بجميع الأوامر والنواهي التي أمر بها، فكان بحق إمامًا يُقْتَدَى بِهِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].  
وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

ومما ورد في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَفَى إِبْرَاهِيمَ بِسَهَامِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وهي ثلاثون سهمًا، منها عشرة في براءة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِهَا النَّفْسَ الْكَافِرَةَ﴾ [التوبة: ١١١] وما بعدها، وعشرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وستة في المؤمنون من أولها، وأربعة في المعارج ﴿وَالَّذِينَ يَصِدُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] فذلك ثلاثون سهمًا فمن وافى الله بسهم منها فقد وافاه بسهم من سهام الإسلام، ولم يوافه بسهام الإسلام كلها إلا إبراهيم عليه السلام <sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٣٦١ ج ٢ ص ٨١) وقد أورده ضمن الأحاديث الصحاح، وأخرجه الحاكم في المستدرک.

(٢) «الدر المنثور» (٤٧/١٤).

وقد أخرج الحاكم هذا الأثر بسند صحيح عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً، لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٧) <sup>(١)</sup>.

## عَشْرَةُ أَحْكَامٍ مِمَّا فِي صُحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

٣٨- ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَ وَزَرَ أُخْرَى﴾ (٣٨)

ثم شرع سبحانه في بيان ما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم وموسى، فذكر منها عشرة أحكام، ثم أتبعها بذكر بعض مصارع المكذبين لرسول الله، للاعتبار بما حدث لهم؛ حتى لا يصيبنا ما أصابهم إن كذبنا خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم.

أولاً: ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرَ وَزَرَ أُخْرَى﴾ (٣٨)

أي أنه لا عقوبة إلا بنص، فلا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى، وكل إنسان يحمل وزر نفسه. وفي هذه الآية ردٌّ على من زعم أن أحداً يتحمل العذاب عن غيره، حيث لم يكتب في صحف إبراهيم وموسى أن أحداً يتحمل العذاب عن غيره، فلا تؤخذ نفس بإثم غيرها، ووزرها لا يحمله عنها أحد، فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شرك أو دون ذلك من الذنوب، فإن وزرها عليها، لا يتحمله عنها غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

والمتسبب في وزر غيره يحمل وزراً زائداً على وزره، ولا يُعتبر هذا من تحمل أوزار غيره، ولكنه زيادة في العذاب؛ لأنه أضل غيره، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣) [العنكبوت].

ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) صححه الحاكم وأقره الذهبي (٢/٤٧٠١) ومن رواه (المعلّى بن راشد) متكلم فيه، ولشطره الأول شاهد في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني برقم (١٣٨٧).

قال: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن سنَّ سنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»<sup>(١)</sup>. فهذا وزر بسبب إضلاله لغيره، وليس وزر غيره.

وفي الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في التوراة: عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في شأن قوم لوط عليه السلام: أفتهلك البار مع الأثيم؟<sup>(٣)</sup>. ونظيره في صحف موسى في التوراة: لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل<sup>(٤)</sup>.

وقد حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم قوله: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

كما حكى عن موسى قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥]. قال تعالى:

٣٩-٤١ - ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾  
ثانياً: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾﴾

أي: أن كل إنسان له عمله الحسن أو السيء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء.

ومما كُتِبَ في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يحصل للإنسان من الأجر إلا ما اكتسبه هو لنفسه بسعيه، فكما أنه لا يُحْمَلُ عليه وزر غيره، لا يحصل له إلا ثمرة عمله الصالح دون زيادة ولا نقص، وهذا من باب العدل، أما باب الفضل فإن الله تعالى يزيد ما يشاء من فضله وكرمه.

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

(٢) النسائي في «الكبرى» (٣٤٣٣، ١١٠٧٧) وهو في البخاري (٣٣٣٥، ٦٨٦٧) ومسلم (١٦٧٧) وابن ماجه (٢٦١٦) والترمذي (٢٦٧٣) و«المسند» (٣٦٣٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وابن حبان (٥٩٨٣) وعبدالرزاق (١٩٧١٨) وابن أبي شيبة (٣٦٤/٩).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٣١/٢٧).

(٤) «تفسير تفسير التحرير والتنوير» (١٣١/٢٧).

قال عكرمة: إن هذا في شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا.

وفسر الربيع بن أنس، الإنسان في الآية بالكافر، أما المؤمن فله ما سعى، وما سعى غيره<sup>(١)</sup>.

ومن سعى الإنسان ما تركه من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، ومن ذلك المرابط والشهيد، والقذوة الصالحة، واقتفاء الأثر في العمل الصالح الذي له أصل في الإسلام، وعليه ذنبٌ من قلدوه في العمل السيء، كما أنه ينتفع بالصدقة عنه وبالْحج والعمرة والدعاء ونحو ذلك.

ثالثاً: ﴿وَأَنَّ سَعْيَكُمْ سَوَّفَ بُرْئِي﴾.

يراه الإنسان في الآخرة، فيميز حسناته من سيئاته، تشريةً للمحسن، وتوبيخاً للمسيء، ويُعرض كلٌّ منهما على صاحبه يوم القيامة، ويراه في ميزانه.

وفي هذا بشرى للمؤمن، وأنه سيرى أعماله الصالحة ليفرح بها، كما أن الكافر يحزن بأعماله السيئة، فيزداد غمًا حين يرى ذلك في صحيفة أعماله، ويراه في ميزانه. ويجوز أن تُجسّم الأعمال فتصير مشاهدة، فأمر الآخرة مخالفة لأمر الدنيا.

ويجوز أن تكون هناك علامات على الأعمال تعرف بها كما في قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿يَسَعَى ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

ويجوز أن تكون رؤية الأعمال بإشهارها وإعلانها، كما قال تعالى عن أهل الأعراف: ﴿أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وفي الحديث: عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث أيضاً: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع الله به، ومن يراني يراني الله به»<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير ابن عطية» (٢٠٦/٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٨٨، ٧١١١) و«صحيح مسلم» (١٧٣٥) مختصراً.

(٣) من «صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٩، ٧١٥٢) و«صحيح مسلم» (٢٩٨٧).

رابعاً: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰ الْجَزَاءَ الْآوَفَ﴾ ﴿٤١﴾

أي: ويوم القيامة يُجزى الإنسان على سعيه الجزاء المستكمل لجميع أقواله وأفعاله، وهذا وعد للمؤمن ووعيد للكافر، حيث يكون الجزاء على الفعل من جنس العمل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وإِنَّا لَمُوفُونَ بِمَا نَعِدُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ [النور: ٣٩].

وقال أيضاً: ﴿فَاتَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً تَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

ما ينتفع به الإنسان بعد موته من عمل غيره وما لا ينتفع:

هذا: وقد توسّع العلماء في الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٣٦﴾ وبين النصوص التي تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره، وإذا كانت هذه الآية من شرع إبراهيم وموسى، فإن ما ورد في القرآن الكريم من شرع غيرنا هو شرع لنا؛ لأن القرآن يشبهه ويقرره، وليس من باب الحكاية، كما أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، وهذه الآية لم تُنسخ، ويقرر معناها في القرآن الكريم آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

والآية تقرر أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعي نفسه، ولم تتعرض لانتفاعه بسعي غيره بنفي أو إثبات؛ لأن اللام في ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ تدل على أن الإنسان لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض الآية لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً ولا مستحقاً له<sup>(١)</sup>.

والظاهر أن الآية عامة خُصصت بكثير من الأمور في الكتاب والسنة: فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأدخل الله الأبناء

(١) «أضواء البيان» للشيخ الشنيطي (٧/٧٠٨).

درجة أعلى في الجنة بصلاح الآباء .

وقوله سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْجَنَّةَ أَنَّهُمْ كَانُوا صَالِحِينَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١١٢].

وقد أجمع العلماء على أن الميت ينتفع بخمسة أشياء، هي:

١- الصلاة عليه . ٢- والدعاء له . ٣- والحج عنه .

٤- والصدقة له . ٥- وقضاء الدين عنه .

عشرون دليلاً لابن تيمية على انتفاع الميت بعمل غيره:

قال ابن تيمية: ومن اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع، وذلك باطل من عشرين وجهاً:

أولاً: الإنسان ينتفع بدعاء غيره .

ثانياً: النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم يشفع لأهل الجنة في دخولها .

ثالثاً: النبي ﷺ يشفع لأهل الكبائر في الخروج من النار .

رابعاً: الملائكة يستغفرون ويدعون لمن في الأرض .

خامساً: الله تعالى يُخرج من النار من لم يعمل خيراً قط من المؤمنين، بمحض رحمته تعالى وفضله .

سادساً: أولاد المؤمنين يدخلون درجة أعلى في الجنة بعمل آبائهم .

سابعاً: انتفاع الغلامين اليتيمين بصلاح أبيهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ثامناً: ينتفع الميت بالصدقة عنه وبالعتق من الرق .

تاسعاً: يسقط الحج المفروض عن الميت بحج وليه عنه .

عاشراً: يسقط الحج المنذور والصوم المنذور عن الميت، بعمل غيره له وأدائه عنه .

حادي عشر: امتنع النبي ﷺ من الصلاة على مدينتين، حتى قضى أبو قتادة دين الميت الأول، وقضى عليُّ بن أبي طالب دين الميت الثاني، وانتفعا بصلاة النبي ﷺ عليهما.  
قلت: وهذا كان قبل أن يفتح الله على رسوله من الغزوات وغيرها، حيث تحمل هذه الديون عن أمته فيما بعد.

ثاني عشر: قال النبي ﷺ لمن صَلَّى وحده: «ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه»<sup>(١)</sup> فيحصل له فضل صلاة الجماعة بصلاة غيره معه.

ثالث عشر: تبرا ذمة الإنسان من الديون، إذا قضاها عنه غيره.

رابع عشر: من كانت عليه تبعات ومظالم تحلل منها أصحابها -سقطت عنه، وهذا انتفاع له بعمل غيره.

خامس عشر: الجار الصالح ينفع جاره في الحياة وبعد الممات.

سادس عشر: جليس أهل الذكر، وإن لم يجلس بقصد الذكر يُرحم معهم، فينتفع بعملهم.  
سابع عشر: ينتفع الميت بصلاة الحي عليه، والدعاء له.

ثامن عشر: الجمعة والجماعة يحصل أجرهما باجتماع الناس وكثرتهم، فينتفع بعضهم من بعض.

تاسع عشر: يُرفع العذاب عن بعض الناس بسبب بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥]  
وهذا انتفاع لهم بعمل غيرهم.

عشرون: صدقة الفطر تُشرع عن الصغير وعن غيره ممن يموئهم الرجل، ولا سعي لهم في ذلك.  
ومن تأمل العمل وجد كثيرا من الانتفاع بعمل غيره بما لا يكاد يُحصى<sup>(٢)</sup>.

(١) من حديث أبي سعيد الخدري في سنن أبي داود ١٥٧/١ برقم ٥٧٤ بتصحيح الألباني وهو في المسند من حديث أبي أمامة (٢٢٣١٥، ٢٢١٨٩) وهو حديث صحيح، كما قال محققوه، وهذا مرسل، إسناده صحيح ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٥٧) وفي الأوسط (٦٦٢٠).

(٢) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٢٣٦/٤).

ومن الأحاديث والآثار الواردة في ذلك :

١- قوله ﷺ من حديث أبي هريرة ؓ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُتفَع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(١)</sup>.

وهو حديث عام يشمل كل إنسان في الانتفاع بهذه الثلاث: العلم، والصدقة الجارية، ودعوة الابن، كما في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ولد الرجل من أطيب كسبه، فكلوا من أموالهم هنيئًا»<sup>(٢)</sup>.

٢- وعن ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت رسول الله ﷺ، فقالت: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحجَّ عنه؟ قال: «نعم، حُجِّي عنه»<sup>(٣)</sup>.

وورد مثل ذلك عن امرأة من جهينة: أن أمها نذرت الحج ولم تحج، فقال ﷺ: «حُجِّي عنها»<sup>(٤)</sup>.

٣- وفي حديث بريدة ؓ: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفيجزئ - أو يقضي - أن أصوم عنها؟ قال: «نعم» قالت: وإنها لم تحج، أفيجزئ أو يقضي عنها أن أحج عنها؟ قال: «نعم»<sup>(٥)</sup>.

٤- وفي حديث ابن عباس ؓ: أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن أمي تُوفيت، أفينفعها إن تصدَّقتُ عنها؟ قال: «نعم»<sup>(٦)</sup>.

٥- وسأل عمرو بن العاص ؓ رسول الله ﷺ أن يعتق عبيدًا له من الرق مثل أخيه، فقال

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

(٢) «المسند» (٣١/٦) برقم (٢٤٩٥١، ٢٥٤٠٠، ٢٤٠٣٢) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره لجهالة عمّة عمارة بن عمير التيمي، وأبو داود برقم (٣٥٢٨) والترمذي برقم (٣٥٨) وقال: حسن صحيح، وهو عن عائشة، وأخرجه الطيالسي (١٥٨٠) وابن أبي شيبة (١٥٨/٧).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (١٥١٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٣٤) مطوّلًا.

(٤) «صحيح البخاري» (١٣١٥)، (١٨٥٢) و«صحيح مسلم» (١٣٣٤) مطوّلًا، وفي البخاري (١٨٥٢).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١١٤٩)، وانظر حديث عائشة عند البخاري (١٩٥٢) وابن عباس (١٩٥٣).

(٦) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٥٦، ٢٧٧٠).



- له: «لو كان أبوك مسلماً فأعتقتم عنه، أو تصدقتم عنه، أو حججتم عنه، بلغه ذلك»<sup>(١)</sup>.
- ٦- وبعد موت عبد الرحمن بن أبي بكر، أعتقت عنه عائشة رضي الله عنها رقاباً من الرق واعتكفت عنه.
- ٧- وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: أنهما أفتيا امرأة جعلت أمها على نفسها، أي: نذرت صلاة بمسجد قباء، ولم تف بندرها، أن تصلي عنها بمسجد قباء، أي: هل يجوز ذلك؟
- ٨- وأمر النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن عباد رضي الله عنه أن يقضي نذراً نذرته أمه، قيل: كان عتقاً، وقيل: صدقة، وقيل: نذراً مطلقاً، قال سعد: إن أمي توفيت قبل أن تقضيه، فقال صلى الله عليه وسلم: «اقضه عنها»<sup>(٢)</sup>.
- ٩- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»<sup>(٣)</sup>.
- ١٠- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة رفعت صبيّاً لها فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر»<sup>(٤)</sup>.
- ١١- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أمي افتتلت نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدّقت، فهل لها أجر إن تصدّقت عنها؟ قال: «نعم»<sup>(٥)</sup>.
- ١٢- وورد أن عبد الله بن أبيّ بن سلول، كان قد أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه، فلما مات أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه، فلم يبق له في الآخرة حسنة يثاب عليها.

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٠٧).

(٢) من حديث ابن عباس عند البخاري (٢٧٦١، ٦٦٩٨) ومسلم (١٦٣٨) وأبي داود (٣٣٠٧) وابن ماجه (٢١٣٢) والترمذي (١٥٤٦) و«المسند» (١٨٩٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٤٣٩٣) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٤٠، ٤٧٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٤).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٣٦) وأبو داود (١٧٣٦) و«المسند» (١٨٩٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات (محققوه) وابن حبان (١٤٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٦١١-٣٦١٥) وألفاظه متقاربة.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (١٣٨٨، ٢٧٦٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٠٤) وفي الوصية (١٢).

وقد أجمع أهل العلم على أنه لا يؤمنُ أحد عن أحد، وما عدا الإيمان من شرائع الإسلام، فإنَّ ما كان منه مِنْ عمل الأبدان فليس فيه للإنسان إلا ما سعى، ولا يجزئ عنه سعي غيره؛ لأن المطلوب في عمل البدن هو الإنسان نفسه.

ومثل ذلك ما يقصد به تركية الإنسان نفسه، والترويض على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وتعويدها الخير من النوافل والقربات، فالنيابة في مثل هذا لا تجوز.

أما ما كان المقصد منه تكثير الخير وزيادة الحسنات بالقرب، والنوافل من الأقوال والأعمال، فالنيابة تجوز فيه.

والصحيح أن المسلم يدعو لأخيه المسلم بعد قراءة القرآن، فإن الأجر يصل للميت وللحيِّ بمشيئة الله تعالى، وقد ورد في حديث عائشة ؓ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذ نفسه بالمعوذات، فلما ثقل به المرض كنت أَعُوِّذُ بهما، وأضع يدي على جسده رجاء بركتها<sup>(١)</sup>.

فقد صحَّت النيابة في قراءة القرآن والتبرك به ﷺ في هذا الحديث، فيصح الدعاء من باب أولى، ويجوز الاستئجار على النيابة في القرب. قال تعالى:

٤٢-٤٤ - ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّ هُوَ آمَاتٌ وَاعْتَابٌ ﴿٤٤﴾

نقل القرطبي عن السدي، عن أبي صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ كل هذا في صحف إبراهيم وموسى، وعليه فتكون الآيات التالية من تنمة ما في صحف إبراهيم وموسى.

خامساً: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٥١﴾﴾

أي: إليه تنتهي جميع الأمور، وإليه يصير كل شيء وإليه البعث والنشور، وإليه ينتهي العلم والحكمة والرحمة وسائر الكمالات، وهكذا:

وأن إلى ربك -أيها الرسول- انتهاء جميع خلقه يوم القيامة، فإن مرجعهم ومصيرهم

(١) ينظر نحوه في صحيح البخاري (٤١٧٥) ولفظه (كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده) الخ.

إليه، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فيراد بالمتتهى: الحشر والمصير بعد الموت، فهو متتهى بالنسبة إلى الدنيا، وبعد ذلك الجنة والنار، والله تعالى هو الذي ينتهي إليه استدلال العقل، وإليه تنتهي الخلائق. وفسر أبي بن كعب الآية بأنه لا فكرة في الرب<sup>(١)</sup>.

أي: إن العبد يجب عليه أن ينتهي عن التفكير في ذات الله تعالى فإنه لن يصل إلى شيء، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نفكر في آلاء الله تعالى وآياته الكونية، ونستدل بذلك على وجوده سبحانه، ولا نفكر في ذات الله تعالى؛ فإن ذلك يؤدي إلى الهلاك، فعن أبي ذر رضي الله عن رسول الله ﷺ قال: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتَهْلِكُوا»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله تعالى، فقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرونه»<sup>(٣)</sup>.

#### سادساً: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ﴾

ومن أحوال الآخرة إلى أحوال الدنيا، أي أنه سبحانه ﴿أَضْحَكٌ﴾ من شاء في الدنيا، بأن أوجد في الكون ما يسره ويضحكه ﴿وَأَيْكُنْ﴾ من شاء في الدنيا، فأوجد ما يؤدي إلى حزنه وغمه، فقد خلق الله أسباب الخير والشر، والفرح والحزن، والسرور والهم والغم، وسبب المؤثرات، وأوجد المشاعر والأحاسيس والأسباب والدوافع، وقد رمز الله سبحانه إلى الحزن والفرح: بالضحك والبكاء في الدنيا والآخرة لإفادة الإحاطة بأحوال الإنسان، وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة، وله الحكمة البالغة في كل ذلك.

#### سابعاً: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ﴾

أي أنه سبحانه أمات من أراد موته من خلقه بقدرته وإرادته ﴿وَأَحْيَا﴾ من أراد حياته منهم بالبعث بعد الموت، فهو المتفرد بالحياة والموت، والإيجاد والإعدام، وهو المستحق للعبادة دون سواه، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(١) «تفسير البغوي» (٤١٧/٧) وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن سفيان الثوري برقم (٦) بإسناد حسن كما قال المحقق.

(٢) حسنه الألباني عن أبي الشيخ في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٨٨) وقد أخرجه أبو الشيخ برقم (٤).

(٣) أبو الشيخ (٥) وحسنه الألباني في المصدر السابق.

والذي أوجد الخلق أمرهم ونهاهم، وسوف يعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بما عملوه من خير أو شر، وأيضاً فإنه تعالى أحيا قلوب من شاء بالإيمان، وأمات قلوب من شاء بالكفر، وأحيا الأرض بالنبات، وأماتها بالجدب والقحط، وهكذا. قال تعالى:

٤٥، ٤٦- ﴿وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

ثامناً: وأنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، والنبات والطيور... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة]

ويبدو أن المراد بالزوجين خصوص الإنسان؛ لأن سياق الكلام عنه.

وقد خلق الله الذكر والأنثى من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتُصبُّ في رحم المرأة، حيث تلتقي نطفة الرجل ببويضة المرأة، ويختلطان في قرار الرحم، وماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة، تتسرب مع دم الحيض، وتستقر في كيس دقيق، فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى، واختلطت مع ماء الذكر، وعند التقاء النطفتين يبتدئ تخلُّق النسل ما لم يَعُقه عائق.

وهذا من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، وانفراده بالعزة والسلطان، حيث خلق الإنسان من ماء مهين، ثم نمَّأها حتى بلغت ما بلغت، وقد أحسن الله خلقه وصوَّره في أحسن صورة، وجعله في أعلى عليين، أو في أسفل سافلين، بمقتضى عمله واختياره طريق الهدى أو الضلال. قال تعالى:

٤٧، ٤٨- ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ<sup>(١)</sup> الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنْتَ هُوَ أَعْيَنُ وَأَفْقَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

تاسعاً: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

المراد بالنشأة الأخرى: الخلق الثاني بعد الموت للبعث والحساب والجزاء يوم القيامة، وهي النشأة التي ليس بعدها نشأة، وهي في مقابلة النشأة الأولى، التي هي الإيجاد والخلق والتكوين.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (النشأة)، والباقون (النشأة) وهما لغتان.

أي: وإن على ربك -أيها الرسول- إعادة الخلق بعد مماتهم، فكما قدّر سبحانه على البدء، فهو على الإعادة أقدر، فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

عاشراً: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾

أي: وأنه سبحانه أغنى من شاء من خلقه وفق حكمته، أغناه بالمال والمتاع والجاه، وملّكه لهم وأرضاهم به، ويسّر لهم أسباب المعاش وأنواع المكاسب.

ومعنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ ضد معنى ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي: وأنه سبحانه أغنى وأفقر، وبهذا قال ابن زيد.

كما قال تعالى: ﴿يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] وهذا يناسب الآيات قبلها: أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، والذكر والأنثى.

وقد قال المفسرون في ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أقوالاً كثيرة، أبرزها: أنها بمعنى: الرضى والقناعة، فتكون ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ بمعنى: أرضى، أي: أعطى فأرضى، والشراء عرض زائل، والقناعة خير قنية.

وقيل: إن ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ من القنية، وهي الشيء الذي يُدخّر ويُقتنى، وقد أعطى الله عباده من الأموال ما يملكونه ويقتنونه.

فيكون المعنى: وأنه أغنى وأعطى ما يُدخّر ويُقتنى، فموارد الرزق وأسبابها وموانعها بيد الله سبحانه، والمعنى الأول مأثور عن ابن عباس رضي الله عنه (١).

وكل هذا من نعم الله تعالى على عباده الموجبة للشكر وإخلاص العبادة للمنعم سبحانه.

## كَوْكَبُ الشُّعْرَى

٤٩- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ﴾

ولما كان بعض الناس في الجاهلية يعبدون كوكب الشُّعْرَى، المسمى بالمرزم، وقت التنزيل، فقد خصه الله تعالى بالذكر، وهو سبحانه رب كل شيء، فقد أخبر سبحانه أن هذا النجم وغيره مخلوق لله تعالى، وليس إلهاً كما يزعمون، فكيف يُتخذ إلهاً مع الله؟ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ﴾ أي: وأنه تعالى رب الكوكب المسمى بالشُّعْرَى، وكانت قبيلتنا خزاعة وحمير تعبدانه.

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٨٤/٢٢) و«الإتقان» (٤٥/٢).

وأول من سنَّ لهم ذلك أبو كبشة، قال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعري تقطعها طولاً، فهي مخالفة لبقية النجوم، ولذا فإن النبي ﷺ لما بُعث وخالف العرب في الدين سموه: ابن أبي كبشة، تشبيهاً له بأبي كبشة الذي خالفهم وعبَدَ الشعري<sup>(١)</sup>.

وكان أبو كبشة من أجداد النبي ﷺ من جهة أمه، فكان كفار مكة يريدون التغطية على دعوة التوحيد، فيقولون: إن محمداً يدعو إلى عبادة الشعري.

ولما أيد الله رسوله بمعجزة انشقاق القمر، قالوا: سحرَكم ابن أبي كبشة، وقال أبو سفيان لمن حوله وهو في حضرة هرقل: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر.

والشعري: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء، وهو من البروج التي تظهر في فصل الربيع.

وسميت الجوزاء: لشدة بياضها في سواد الليل، تشبيهاً لها بالشاة الجوزاء، وهي شاة سوداء في وسطها بياض.

والشعري أبرز نجوم الجوزاء، ويقال لها: الشعري اليمانية؛ لأنها إلى جهة اليمن.

وهناك كوكب آخر اسمه: الشعري الغميصاء، وهو ليس من كواكب الجوزاء.

وقد خُصت الشعري بالذكر؛ لأن أبا كبشة -وهو من كبار العرب- قد عبدها، ودعا الناس إلى عبادتها، فذُكرت في هذه السورة إتحافاً لها بالآلات والعزى ومناة.

وقبيلة خزاعة التي عبَدت الشعري كانوا مجاورين لأهل مكة، فلما عبدها ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز.

فإثبات أن الشعري مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال عبادتها؛ لأن المخلوق لا يكون إلهاً<sup>(٢)</sup>.

كما قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت].

(١) «تفسير الخازن» (٤/٢٠٠) والقرطبي (١٧/١١٩) وأبو السعود (٥/١٦٣).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف، مجلد (٢٧/١٥٠-١٥٢).

وكانت الأصنام التي عبدها المشركون أكثر من ثلاث مئة وستين صنماً معظمها حول الكعبة، وقد حطمها النبي ﷺ بقضيب في يده يوم فتح مكة، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾ [الإسراء].

## الِاعْتِبَارُ بِمَصَارِعِ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْغَابِرِينَ:

٥١، ٥٠ - ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا<sup>(١)</sup> الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾ وَثَمُودًا<sup>(٢)</sup> ﴿٥٦﴾ مَا أَتَىٰ ﴿٥١﴾

وبعد هذه الجولة في الأنفس والآفاق، ساقطت السورة جانباً من مصارع الغابرين، فذكرت منهم أربعة، هم قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، وقوم لوط.

### أَوَّلًا: قَوْمُ عَادٍ

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ وهم قوم هود، كذبوا نبيهم حين دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، فرموه بالسفاهة والضلال، وقد أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَنبَيْتًا أَيَّامٍ هَسْوَماً فَرَّتْهُمُ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ مَّخْلٍ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة].

### ثَانِيًا: قَوْمُ ثَمُودَ

أما عادا الآخرة فهم قبيلة ثمود، قوم صالح، وقوم عاد متقدمة في الزمان على عاد الآخرة. وقد أهلك الله عادًا الأخرى، وهم قوم ثمود، ونبيهم صالح ﷺ، دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وأيده بمعجزة الناقة، فكذبوه وتآمروا على قتله وعقروا الناقة، فأرسل الله عليهم صيحة واحدة، صاح بها جبريل ﷺ، فلم يُبق منهم أحدًا، فأصبحوا في دارهم جاثمين، كأنهم لم يكونوا فيها من قبل، وأهلكهم الله جميعًا، وتراهم بعد هلاكهم كهشيم المحتظر، فدمرهم الله تدميرًا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِرِ ﴿٦١﴾﴾ [القمر].

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بنقل همزة (عاد الأولى) إلى اللام قبلها وحذف الهمزة مع إدغام تنوين (عادًا) في لام (الأولى) غير أن قالون يقرأ بهمزة ساكنة بعد اللام المضمومة بدلًا من الواو، وقرأ الباقون بإظهار تنوين (عادًا) وكسره، وإسكان لام (الأولى) وتحقيق الهمزة بعدها مضمومة مع إسكان الواو، وهذا في حالة الوصل، فإن وقف على (عادًا) وابتدأ ب (الآن) ففيها وجوه كثيرة لا مجال لذكرها.

(٢) قرأ عاصم وحزمة ويعقوب بفتح الدال غير منونة على المنع من الصرف من (ثمود) اسم للقبيلة، والوقف بدال ساكنة، ونوّنها الباقون على إرادة الحي، ويقفون بالألف.

## ثَالِثًا: قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٢- ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَمَ﴾ ﴿٥٢﴾

وأهلك الله سبحانه قوم نوح بالطوفان، وكانوا في الترتيب الزمني قبل عاد وثمود، وهم أول أمة كذبت رسولها من أهل الأرض، ونوح أول رسول، وكان قومه أشد تمرّدًا، وأعظم كفرًا من الذين جاؤوا بعدهم، فكانوا لا يتأثرون بدعوته رغم طول المدة فيهم، ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما ذهب قرن جاء قرن آخر، وهم مستمرّون في الإعراض عنه، عاكفون على أذاه، فقد كانوا يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده ويمشي به إلى نوح ﷺ فيحذره منه، ويقول له: يَا بُنَيَّ، إن أبي مشى بي إلى هذا الرجل، وأنا في سنك، وحذرنى منه، فإياك أن تصدّقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير وهو ييغض نوحًا<sup>(١)</sup>. وقد أرسل الله عليهم الطوفان فأغرق الكافرين به جميعًا.

## رَابِعًا: قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٥٥-٥٣- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي آلَآءَ رَبِّكَ نَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

أرسل الله نبيه لوطًا إلى أهل المؤتفكة ودعاهم إلى توحيد الله تعالى وترك فاحشة اللواط، فكذبوه وهددوه بالطرد، واستمروا على طغيانهم وفسقهم، فعاقبهم الله تعالى بما يناسب جريمتهم، فقد أهلك الله مدائن قوم لوط بالأردن، وهي قري أربع: سدوم، وعمورة، وآدمه، وصبويم. وعبر القرآن عنها هنا بالمؤتفكة، وفي سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات، وكذا في سورة الحاقة [٩] ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْغَاطِقَةِ﴾ ﴿٩﴾.

والإتفك: هو الانقلاب، حيث خسف بها جبريل، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، وهذا معنى ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقطها وقلبها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُونَ بِأَنْ يَكُونُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٥﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

(١) يُنظَر: «البحر المحيط» (١٧٠/٨) والطبري (٨٩/٢٢) وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

(٢) قرأ يعقوب بإدغام التاء الأولى في الثانية من (ربك تمارى) والنطق ببناء واحدة مشددة وهذا في حالة الوصل، فإذا ابتداءً ب(تمارى) أظهر التاءين كقراءة الآخرين في الحاليين.



وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَعَسَّهَا مَا عَشَىٰ﴾ (٥٦) أي: أصابها من الهلاك والدمار ما أصابها، وألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، وغطاها من ألوان العذاب ما غطى، بأن فاضت عليها مياه غمرت بلادهم، فأصبحت بحرًا ميثًا لا يُنتفع بمياهه، وجعلها عبرة مشاهدة يراها السابق واللاحق، وهذا العذاب الذي أصابهم لم يعذب الله به أحدًا من العالمين، حيث قلب أسفل ديارهم أعلاها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وهذا التهويل والتفخيم الذي اشتملت عليه الآية جاء أيضًا بالنسبة لفرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿فَفَشِيهِمْ مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. أي شيء عظيم لا يمكن وصفه.

ثم تشير هذه الآية إلى ما سبق في السورة من النعم والنقم؛ لأن في النقم عظات للمتعتين، وعبرًا للمعتبرين، فهي نعم بهذا الاعتبار، وقد مرّت في السورة نعم خاصة بالنبي ﷺ فيما يتعلق بالوحي والمعراج، ونعم للناس جميعًا من ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَ﴾ إلى ﴿أَعْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ إلى جوار النقم التي فيها مصارع المكذبين.

فبأي نعمة من هذه النعم أيها الإنسان المكذب تشك وتتردد؟ إنك لا تستطيع التشك في واحدة منها، ولا في غيرها من نعم الله تعالى، فهي نعم ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ولا يدفع النقم إلا الله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيءُ آءَاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

## إِنذَارٌ وَتَحْذِيرٌ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٦-٥٨ - ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ (٥٦) ﴿أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ﴾ (٥٧) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

أي: أن هذا النبي القرشي الهاشمي، محمد بن عبد الله، ليس بدعًا من الرسل، فقبله رُسل كثيرون، دعوا إلى ما دعا إليه من التوحيد والعبادة، وقد قربت الساعة، فإذا أت وجاءهم العذاب الموعود به فلا مرد له من الله ولا دافع يدفعه.

وبعد ذكر ما لحق بالأمم المكذبة لرسول الله من عذاب، حذر سبحانه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بغيرهم، فقال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ أي: هذا محمد ﷺ جاء لكم بالقرآن أيها الناس، لينذركم ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا بالنبي الخاتم، وقد أنذركم بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، وهذا معنى ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ فدعوته لكم

من جنس الدعوات السابقة، والنذر الجامعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

فهو سبحانه يخبركم بما أخبر به الأنبياء قبل محمد ﷺ من الأمم السابقة.

فاحذروا مخالفة رسول الله؛ لأن مخالفته تؤدي بكم إلى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أنا النذير العريان»<sup>(١)</sup> أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر فبادر إلى إنذار قومه، فجاءهم عرياناً مسرعاً.

ثم إن المنذر به قد دنا واقترب وقته، فقيام الساعة قد اقترب، وانتهاء الدنيا قد اقترب ﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾ [٥٧] أي اقتربت الساعة، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا بُرُونَهُ بَعِيدًا﴾ [المعارج: ٧] وسميت أزفة لقرب وقتها.

وليس بإمكان أحد أن يدفع أو يمنع قيامها، ولا يستطيع أحد أن يكشف ما فيها من ضرر وعذاب غير الله سبحانه، ولا يطلع على وقت قيامها إلا الله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [٥٨] أي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه، فمجيئها محقق، والله وحده هو الذي يعلم وقت وقوعها ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهو سبحانه القادر على كشفها، ولكنه لا يكشفها لأحد، وهو القادر على رفع ما يلحق بالناس من عذاب يومها، ولا يقدر على كشف هذا العذاب إلا هو.

وفي الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ» وفرق بين الوسطى والإبهام<sup>(٢)</sup>.

ثم قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَمَثَلِ فَرَسِي رَهَانٍ»<sup>(٣)</sup>.

(١) من حديث أبي موسى في صحيح البخاري (٦١١٧).

(٢) (٣) «المسند»: (٣٣١/٥). وهو عن سهل بن سعد برقم (٢٢٨٠٩) قال محققوه: إسناده صحيح وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٢٠).

## ذَمُّ مَنْ لَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ بِالْقُرْآنِ فِي إِنْكَارَاتِ أَرْبَعَةٍ

٥٩-٦١ - ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي تَعْبُونَ ﴿٥٩﴾ وَضَحَكُونَ وَلَا يَتُوبُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾﴾

ثم أشار سبحانه إلى من كذب بهذا القرآن، فتعجب منه في أربعة أشياء إنكاراً عليه؛ ووعيداً له بسوء المصير، وهذه الإنكارات الأربع هي:

**الإنكار الأول:** ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي﴾ وهو القرآن، وما جاء فيه من وعد ووعد، وأوامر ونواهٍ وهو أشرف الكلام وأفضله ﴿تَعْبُونَ﴾ أيها المكذبون من أن يكون هذا القرآن صحيحاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة].

إن الذي ينبغي التعجب منه هو عقولكم وضلالكم، أما القرآن فهو أصدق الحديث، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

**الإنكار الثاني:** ﴿وَضَحَكُونَ﴾ عند سماعه تهكماً وسخرية واستهزاء منه ومما جاء فيه.

وهو الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون.

**الإنكار الثالث:** ﴿وَلَا يَتُوبُونَ﴾ خشية من الله تعالى، وخوفاً من عذابه، وكان عليكم أن تبكوا من زواجره ووعيده بدل الدمع دماً، حُزناً على ما فرطتم في جنب الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الإسراء].

وكان عليكم أن تردادوا إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢﴾﴾.

في حديث سعد بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن أنزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا»<sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَنَشِعُرُهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

**الإنكار الرابع:** ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: وأنتم غافلون لاهون معرضون عن القرآن، رافعون رؤوسكم تكبراً.

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤/١) برقم (١٠٥٦) وفي إسناده ضعف.

والسمود: بلغة حمير، هو الغناء، ومنه قول بعضهم لجاريته: اسْمُدِي لَنَا، أي: غَنِّي لَنَا.  
فيكون المعنى: وأنتم فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث، وعدم الاحترام  
لما تسمعون من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ آيَاتِ إِلَّا مُكَاءً  
وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وإذا كان هذا شأن المكذبين بالقرآن فإن شأن المؤمنين به هو الخضوع والعبادة:

## ٦٢- ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢)

هذا أمر من الله تعالى في خاتمة السورة بالخضوع له سبحانه، والكف عن تكذيب  
رسوله ﷺ، وعن إعراضهم عن القرآن؛ لأن ذلك استخفاف بحق الله تعالى، وكان عليهم  
أن يتدبروا القرآن، وينظروا في دلائل صدق النبوة.

فالمراد بالسجود في الآية: إما الخشية والسكينة، وإما سجود الصلاة، بأن يدخلوا في  
الإسلام، والصلاة أهم شعائره ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢) أي: أخلصوا له العبادة،  
واتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال، وابدعوا الله وحده، وتركوا عبادة اللات والعزرى  
ومناة والشعري، فإن السجود والعبادة والخضوع لا تجوز إلا للواحد الأحد، الفرد  
الصمد، وسلّموا أموركم لله وحده، وهذه الآية سجدة عند بعض أهل العلم.

ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن أبي الدرداء ؓ قال: سجدت مع النبي ﷺ  
إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء<sup>(١)</sup>.

وبهذا أخذ المالكية فلم يعدوا سجدة المفصل، وهو مبني على دليل غير صحيح.

وعن أبي بن كعب ؓ قال: كان آخر فعل النبي ﷺ ترك السجود في المفصل.

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة.

قالوا: وكان الأمر بالسجود في سورة النجم مذكراً للمشركين بالسجود لله تعالى، فسجدوا  
مع النبي ﷺ، ثم نسخ السجود فيها بعد ذلك فلم يُرو عن النبي ﷺ بعد الهجرة<sup>(٢)</sup>.

تم تفسير (سورة النجم) والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٠١) وقال: إسناده واه، وابن ماجه (١٠٥٦) بتضعيف الألباني (٣٣٥/١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٦٢/١٣). وانظر بعض هذه الأحاديث في مقدمة السورة.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَمَرِ (٥٤)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القمر) هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وتسمى سورة القمر، وسورة ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، لورودهما في الآية الأولى منها، وبالأول ترجم لها الترمذي، وبالثاني ترجم البخاري.

وهي خمس وخمسون آية باتفاق أهل العدد، وثلاث مئة واثنان وأربعون كلمة، وألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفاً.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، هي: ﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٤٤) **سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ** (٤٥) **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ** (٤٦).

قيل: إنها نزلت يوم بدر، ولعل الصحيح أن النبي ﷺ تلاها يوم بدر ليستشهد بها، وكانت قد نزلت قبل ذلك، ويؤيده قول عمر ؓ إنه لم يكن يدري ما معنى ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) حتى فهم تأويلها يوم بدر.

وكان نزول سورة القمر سنة خمس قبل الهجرة، ففي الصحيح: عن عائشة ؓ قالت: أنزل على محمد بمكة، وإني جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ (٤٦) (١).

وكانت عائشة ؓ قد عُقد عليها في شهر شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي: في أواخر سنة أربع قبل الهجرة، وكانت سنها يومئذ نحو ست سنوات، وكان انشقاق القمر سنة خمس قبل الهجرة غالباً.

قال ابن عباس ؓ: كان بين نزول آية ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) وبين بدر سبع سنين.

وفي حديث أبي واقد الليثي ؓ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقباف، واقتربت الساعة،

(١) البخاري برقم (٤٨٧٦، ٤٩٩٣).

في الفطر والأضحى<sup>(١)</sup>.

### أحاديث في إنشقاق القمر:

وانشقاق القمر أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء، وأنه وقع في زمن النبي ﷺ، وكان إحدى معجزاته، ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- ما رواه أنس بن مالك ؓ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ﴾ إلى ﴿سِحْرٌ مُّسْتَعَرَّبٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، سحركم، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به الشفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء الشفّار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ﴾<sup>(٣)</sup>، وابن أبي كبشة:

أ- رجل من خزاعة عبّد كوكب الشعري، وخالف قريشاً في عبادة الأوثان، فشبّهوا النبي ﷺ به في مخالفة عبادتهم.

ب- وقيل: إنه كان جد النبي ﷺ من جهة أمه.

ج - وقيل: إن أبا كبشة كنية زوج حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣- وعنه ؓ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال ﷺ: «اشهدوا»<sup>(٤)</sup>.

(١) «المسند» (٢١٨/٥) برقم ٢١٨٩٦، ٢١٩١١ حديث صحيح، (محققه) والموطأ (١/١٨٠) وعبدالرزاق (٥٧٠٣) ومسلم (١٤/٨٩١) و«المستدرک» (٤٦٥/٢) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن ماجه برقم (٨١٦). وأبوداود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤) وابن حبان (٢٨٢٠).

(٢) الترمذي (٣٢٨٦) وعبد الرزاق (٢/٢٥٧) و«المسند» (١٢٦٨٨، ١٣١٥٤) ومسلم (٤٧/٢٨٠٢) والبيهقي (٢٦٢/٢) وغيرهم.

(٣) الطبري (١٠٦/٢٢) وأبو نعيم (٢١١) والبيهقي في الدلائل (٢/٢٦٦) وهو في البخاري (٣٦٣٦) وغيره ومسلم (٢٨٠٣).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ومسند الطيالسي برقم (٢٩٥) بنحوه. وهو في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٥) وابن حبان (٦٤٩٥) وأحمد (١/٣٧٧).

٤- وعن أنس رضي الله عنه أيضًا قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»<sup>(١)</sup>، وعن ابن عمر بنحوه<sup>(٢)</sup>.

٥- وعن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّتَيْن حتى رأوا حراء بينهما<sup>(٣)</sup>.

٦- وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: فانشقَّ القمر بمكة مرتين<sup>(٤)</sup>.

٧- وقال ابن عباس رضي الله عنه: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ<sup>(٥)</sup>.

٨- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدُّخَان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزَّام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾<sup>(٦)</sup> [الفرقان: ٧].

٩- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رأيت القمر وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فُرَجَتِي القمر<sup>(٧)</sup>.

وهكذا سجلت السورة مكابرة المشركين وعدم تصديقهم بمعجزات النبي ﷺ، وأمرته بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم، وأنذرتهم باقتراب الساعة، وما يلقونه فيها من عقوبات بسبب تكذيبهم بصاحب الرسالة الأخيرة، وذكَّرتهم بما حدث لأمثالهم، وأنذرتهم بعذاب دنيوي قريب، وأعلمتهم بأن الله تعالى محيط بهم وبأفعالهم، ومجازيهم بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا.

وكررت آيات السورة التنويه بشأن القرآن الكريم في فواصل القصص:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) البخاري بأرقام (٣٦٣٦، ٣٨٣٩، ٤٨٦٤) ومسلم برقم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٧) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٢) مسلم برقم (٢٨٠١) والترمذي برقم (٣٢٨٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٧/٢) والحاكم (٤٧٢/٢) وأبو نعيم (٢٠٨).

(٣) البخاري برقم (٣٦٣٧، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٤) «المسند» (١٦٥/٣) ومسلم برقم (٢٨٠٢).

(٥) البخاري برقم (٤٨٦٦).

(٦) البخاري برقم (٤٧٦٧) واللفظ له، وانظر (١٠٠٧) و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).

(٧) «المسند» (٣٩/٧) (٣٩٢٤) والطبري (١٠٦/٢٢) والحاكم (٤٧١/٢) قال محققو «المسند»: حديث صحيح.

وفي نهاية كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذبين يأتي هذا التهديد ولفت النظر للاعتبار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ (١٦) وفي كل مشهد من مشاهد العذاب السبعة يتناثر الرعب والفرع والهول في سرعة تزلزل القلوب كأنها سياط تقصم الظهر وتأخذ بالأنفاس.

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة القمر مع سورة قاف في المحافل الكبار؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة، وتحتوي سورة القمر على موضوعات السور المكية:

١- فتبدأ بمعجزة انشقاق القمر لإثبات جانب الوحي والرسالة للنبي ﷺ، وموقف المكذبين منها.

٢- وتتكلم السورة عن جانب البعث ومشاهد القيامة في أولها وآخرها، من الآية السادسة إلى الآية الثامنة، ومن الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والخمسين وهي نهاية السورة.

٣- وما بين ذلك من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والأربعين تتحدث عن مصارع خمسة من المكذبين لرسول الله في الأمم الغابرة، في عرض سريع لمصارع قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه.

٤- ومن الآية الثالثة والأربعين وما بعدها تتحدث آيات السورة عن عقاب الطغاة ونعيم المتقين، والإنذار بقيام الساعة، والإخبار عن وقوع قتال في المستقبل يُهزم فيه الكفار في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة.

وفي السورة غرسٌ لعقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، ووعيد لمن كذب بخاتم الرسل ﷺ ﴿أَكْفَاكَ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمُ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣).

وهكذا كل أمة ضالة سوف تلقى مصيرًا مؤلماً ﴿وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْيِبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].



## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مُعْجَزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي مَنَى لَيْلَةَ أُزْبِعَ عَشْرَةَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ خَمْسٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ

١- ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

تبدأ السورة بالموعظة المشتملة على معجزة انشقاق القمر، وتجعل ذلك وسيلة للتذكير بقيام الساعة، حتى يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، ويفكر الناس فيما بعد الموت، فيُنصِتوا لداعي الهدى، وتتهياً قلوبهم لقبول الحق، وتستعد للعمل لما بعد الموت، وفي هذا اغتنام الفرصة للموعظة والتذكير، وكما يكون مثل هذا الانتهاز سبباً لإيمان القلوب القاسية، وإذا تأمل العبد آية انشقاق القمر ازداد تأييداً لصدق النبي ﷺ، وكان ذلك سبباً لإيقاظ القلوب، وإحياء للإيمان في النفوس.

وكان كفار مكة قد تحدوا النبي ﷺ، وقالوا له: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان به إن فعل، وكانت ليلة بدر من الشهر، فسأل النبي ﷺ ربه أن يؤيده بما طلبوا، فانشق القمر نصفين: نصفاً على جبل الصفا، ونصفاً على جبل قيععان المقابل له، حتى رأوا جبل حراء بينهما، فلما رأوا ذلك قالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان قد سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحر دائم مطرد، ونزلت الآيات.

وفي حديث محمد بن جبير قال: انشق القمر<sup>(١)</sup> على عهد رسول الله فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا

(١) يُنظَر: حديث جبير بن مطعم في «المسند» (٣١٤/٢٧) (١٦٧٥٠) بسند ضعيف كما قال محققوه، لأن الشلمى لم يسمع من محمد بن جبير، وأخرجه الترمذي (٣٢٨٩) والطبري (١٠٩/٢٢) والحاكم (٢/٤٧٢) والبيهقي (٢/٢٦٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٢) وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٠٩). قلت: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين دون قولهم: (سحرنا محمد) عن عبد الله بن مسعود برقم (٤٨٦٤) في البخاري و(٢٨٠٠) في مسلم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال ﷺ اشهدوا).

يستطيع أن يسحر الناس كلهم . وقد مرّت أحاديث انشقاق القمر في مقدمة السورة .

وقد اشتملت الآية الأولى من السورة على أمرين :

أحدهما : اقتراب قيام الساعة .  
وثانيهما : معجزة انشقاق القمر .

### الشق الأول من الآية :

واقتراب قيام الساعة، هو الحدث الأكبر، الذي تهتز له القلوب، وتُدْهَش له العقول، ويحترق فيه الوجدان، ومعنى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قُرْب وقت حلول القيامة، ودنا زمان قيامها .  
وسميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة، ولسرعة ما فيها من الحساب؛ أو لأنها على طول يومها، فهو قدر يسير عند الله تعالى، خفيف على المؤمن .

وقد وردت أحاديث تبين أن ما بقي من الدنيا قدر يسير بالنسبة لما مضى منها، وأن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة، إذ هو ﷺ آخر الرسل، ولا نبي بعده .  
والمرء في هذا المعنى ينظر إلى عُمر الدنيا ولا ينظر إلى عُمر نفسه .

خطب النبي ﷺ في أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»<sup>(١)</sup> .

٢- وعن سهل بن سعد ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثت أنا والساعة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»<sup>(٢)</sup> .

٣- وعن جابر بن عبد الله ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: «صبحكم ومساكم» ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه البزار عن أنس كما في «مجمع الزوائد» (٣١١/١٠) . وهو عن أبي سعيد عند أحمد والترمذي والحاكم بإسناد ضعيف كما في ضعيف الجامع (١٢٤٠) .

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٦٥٠٣) ومسلم برقم (٢٩٥٠) وانظر «المستد» (٣٨٨/٥) برقم (٢٢٨٣٤، ٢٢٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) بلفظ (كهذه من هذه) .

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٨٦٧) .

وبمثل افتتاح سورة القمر، افتتحت سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) وهكذا سورة النحل: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

ولفظ ﴿اقْتَرَبَ﴾ أبلغ من قُرُبْتِ، كما تقول: اقتدر أبلغ من قدر، ومعناه: أنها قربت دون تحديد.

واقتراب الساعة باعتبار نسبة ما بقي من عمر الدنيا بعد البعثة المحمدية إلى ما مضى.

والمقصود بافتتاح هذه السور الثلاث: تذكير الناس بقرب قيام الساعة؛ ليعملوا لما بعد الموت، وحثهم على الاستعداد ليوم الحساب بإخلاص الإيمان والعمل الصالح لله تعالى، عن طريق التذكير بأهوال يوم القيامة.

### الشق الثاني من الآية:

أما الشق الثاني في الآية، وهو انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾ فإن هذا لفظ قرآني صريح في وقوع انشقاق القمر بالفعل في الزمن الماضي، إلى جوار أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة في انشقاق القمر، وقد ذكرنا بعضها في مقدمة السورة عن جماعة من الصحابة ؓ منهم: علي بن أبي طالب، وأنس، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، ومنهم من لم يشهد انشقاق القمر، ولكنه لم يتكلم إلا عن يقين.

قال السبكي: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروى في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى، لا يُمتري في تواتره (١).

فهو خبر مستفيض، تدل جميع رواياته على أن انشقاق القمر معجزة حصلت لرسول الله ﷺ في الدنيا، وهذه المعجزة رآها النبي ﷺ والمسلمون والكفار، وليس عند المنكر إلا الاستبعاد، ولا يمكنه أن يأتي بدليل على استحالته.

فعن ابن مسعود ؓ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر (٢).

أي: إن هذه المعجزة حدثت في منى، وكما حدّد هذا الأثر مكان انشقاق القمر، فقد

(١) قول السبكي عن «التفسير الوسيط» للشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر (٩٧/١٤).

(٢) في رواية الترمذي بتصحيح الألباني رقم: (٢٦١٩).

جاء في السيرة الحلبية تحديد زمانه، وأنه كان ليلة أربع عشرة من ذي الحجة، آخر أيام النفر من منى.

وفي هذه الليلة اجتمع المشركون بمنى، وفيهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، فسأل هؤلاء الثمانية رسول الله ﷺ، قالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فانشق القمر<sup>(١)</sup>، فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنوا»؟ قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما سألوا. فأمسى القمر قد مُثِّلَ نصفًا على أبي قبيس، ونصفًا على قُعيقَعان - جبل بمكة - ورسول الله ﷺ ينادي: «يا أبا سلمة بن عبد الأسود، والأرقم بن أبي الأرقم»، فشهدوا<sup>(٢)</sup>.

وكان ذلك سنة خمس قبل الهجرة، حيث دعا النبي ﷺ ربه فأجابته، وأراهم تلك الآية. كما حددت بعض الروايات هيئة انشقاقه.

ففي رواية ابن مسعود رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> أن القمر انشق فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، وقال ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا».

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه<sup>(٤)</sup>: نصف على جبل أبي قبيس، ونصف على جبل قُعيقَعان، المقابل له. وفي رواية أنس: حتى رأوا حراء بينهما<sup>(٥)</sup>.

وقد نزلت الآية بعد انشقاق القمر بوقت يسير، وكان القمر قد انشق إلى نصفين، رأى الناس بينهما سوادًا، كأنه قمران.

ولمَّا رأى المكذبون انشقاق القمر قالوا: هذا سحرٌ محمد بن أبي كبشة، وفي رواية أنهم

(١) عن «تفسير التحرير والتنوير» (١٦٧/١٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء، والضحاك، عن ابن عباس (٢٠٩).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٩) بنحوه وانظر صحيح مسلم (٢٨٠٠) وراجع البخاري (٤٨٦٥، ٣٦٣٦)، و«تفسير الطبري» (٥٠/٢٧).

(٤) عند أبي نعيم (٢٠٩).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٦٨)، وانظر (٤٨٦٧، ٣٦٣٧) وصحيح مسلم (٢٨٠٢).

قالوا: سَحَرَ محمد القمر، وهو سِحْر معروف معهود فيه بمعنى: الكسوف، ثم قالوا: إن كان محمد سَحَرنا، فهو لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أَخْبَرُوا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سَحَرَ محمد أعيننا، فجاءوا فَأَخْبَرُوا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: سحر دائم، وأخذوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوا انشقاق القمر نصفين، فيكذبونهم.

### هل انشقاق القمر ظاهرة فلكية؟

وربما كان هذا الانشقاق بسبب مرور جسم سماوي، حَجَب ضوء الشمس عن وجه القمر، بمقدار ظل ذلك الجسم.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: انشق القمر حتى رأيت الجبل بين فُرْجتي القمر<sup>(١)</sup>.

وقد يكون القمر في بعض المنازل الخاصة به، فيظهر لبعض الناس دون بعض، كما يغيب ويُكْسَف، فيراه بعض الناس دون بعض.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كُسِف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سُحِر القمر فنزلت ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾<sup>(٢)</sup>.

فقد جاء التعبير في هذه الرواية عن الانشقاق بالكسوف، مما يفيد أن الذي حدث هو خسوف نصفي للقمر، حَجَب نصفه، وقد عُرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس، ويجوز أن يحدث مثله بالنسبة لضوء القمر على وجه الندرة.

ولا ينافي هذا أن الذي حدث معجزة؛ لأنه تم وقت سؤال المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم أن يريهم انشقاق القمر، وقد تحداهم بذلك قبل حصوله، ولا سبيل لمعرفة ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم إلا عن طريق الوحي لمعرفة أوقات ظواهر التغيُّرات للكواكب.

وقد اختص ظهور ذلك الخسوف النصفي بمكة دون غيرها من العالم؛ لأن أهل مكة تأهبوا لذلك بعد أن أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم، أما غيرهم فهم في نوم أو غفلة، بالإضافة إلى

(١) «تفسير الطبري» (٥١/٢٧). وأخرجه أحمد في المسند (٤٦٥/١) وانظر الحديث رقم ٩ في مقدمة السورة.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٥٠/١١) (١١٦٤٢). وإسناده حسن وله شواهد.

ظلام الليل واختلاف المطالع<sup>(١)</sup>.

وهكذا يخبر سبحانه أن الساعة قد اقترب وقت مجيئها، وأن المكذبين لم يزالوا غير مستعدين لها، ويريهم الله من الآيات ما يدل على صدق صاحب الرسالة فيما جاء به من عند الله عز وجل، ومن هذه الآيات انشقاق القمر فلقتين: فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقان، وقد رأى المكذبون ذلك بأعينهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكننا نسأل القادمين من السفر، فإن أخبرونا أنهم قد رأوه آمنًا، فلما أخبروهم بوقوع ذلك قالوا: إن محمدًا سحرنا وسحر غيرنا، وهذا معنى قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

### مَوْقِفُ الْمَعَارِضِينَ لِلدُّعْوَةِ مِنْ مُعْجَزَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

٢، ٣- ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٣﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾

وهكذا المكذبون للرسالة في كل زمان ومكان، كلما رأوا دليلًا أو برهانًا يصدق صاحب الرسالة ﷺ يُعْرَضُونَ عن تصديقه والإيمان به، فيكذبون ويُكِّفُونَ، ويقولون بعد ظهور الدليل: هذا باطل، وتخريصات لا تدوم ولا تصح.

وقيل: إن معنى مستمر: شديد المرارة، أي: هو أمر مستبشع عندنا، مُرٌّ على لهواتنا، لا نقدر على استساغته.

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال المعرضين المكذبين للنبي ﷺ في المستقبل، أخبر عن حالهم في الماضي، فقد أخبر جَلَّ شأنه في الآية الثانية أن المكذبين إن يروا في الحال أو الاستقبال آية دالة على صدق الرسول ﷺ يعرضوا عنها.

وأخبر في الآية الثالثة أنهم قد رأوا كثيرًا من الآيات فأعرضوا ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ فيما عاينوه من انشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ضلالتهم وما دعَتْ إليه أهواؤهم وزينته الشيطان لهم من التكذيب، فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا من فورهم، واتبعوا

(١) يُنظَر: «التحرير والتنوير» مجلد (١٣/١٧٠).

(٢) قرأ أبو جعفر بخفض الراء من (مستقر) صفة لأمر وخبر كل مقدر تقديره: بالغوه، والباقون بالرفع خبر كل.

محمداً ﷺ ولكنهم قصدوا اتباع الهوى، فضلوا وأضلوا، قال تعالى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

ثم أخبر سبحانه أن كل شيء له نهاية فقال: ﴿وَكَأُلِّ أَمْرٍ﴾ من الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ أي: كل أمر سيبتهى إلى غاية، من كل شيء كائن وواقع بأهله يوم القيامة عند ظهور الثواب والعقاب، وهذا هو منتهى الأمر، حيث تبين الحق، وظهر أمر النبي ﷺ، وتبين غاية البيان، فكل أمر سيصل إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة من الله ورضوان، والمكذب يتقلب في غضب الله وسخطه، خالداً مخلداً في نار جهنم.

قال مقاتل: لكل حديث منتهى وغاية.

وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمر مستقر بأهله<sup>(١)</sup>

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٧].

وهكذا فإن دعوة النبي ﷺ ستظهر أكثر مما هي عليه في الحاضر، ويعلو شأنها، ويزيد أتباعها، وإن المتبعين لأهوائهم، المختلفين للمعاذير سينخذل باطلهم، ويفتضح أمرهم، ويتنقص أتباعهم.

## قُلُوبُ الْجَاهِدِينَ لَا تَتَأَثَّرُ بِالزَّوْجِرِ وَالْمَوَاعِظِ

٤، ٥- ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ (٢) النَّذْرُ﴾

ثم بين سبحانه أن قلوب الجاهدين لا تتأثر بالزواجر والمواعظ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي: جاءهم من أخبار الأمم الماضية، التي كذبت رسل الله، مع ما أيدهم الله به من المعجزات والخوارق، وكل ما فيه عبرة وعظة، وقد علموا ما حلّ بالأمم المكذبة لرسول الله من العذاب والنكال، ولكنهم لم يرتدعوا ولم يزدجروا عن ارتكاب

(١) «زاد المسير» (٨/٨٩).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وفقاً من (فما تغني) والباقون بحذفها.

الشُرور، وجاءهم من المواعظ والزواجر التي من شأنها أن يتأثر بها كل عاقل، ولكنهم لم ينتفعوا ولم يهتدوا، وجاءهم من الحج والبراهين ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه كفاية وردع لهم ولأمثالهم عن كفرهم وضلالهم، بالإضافة إلى أنه قد أحل لهم الحلال، وحرّم عليهم الحرام، وأخبركم أيها الجاحدون بما تفعلون وما تذرّون، ولم يترك أمرًا فيه لبس إلا بيّنه، ونعمة أنعمها الله عليكم، ومع وجود هذه الموانع التي تحول بينهم وبين ارتكاب ما ارتكبوهُ لم يرتدعوا، واستمروا في طغيانهم وجحودهم.

وهذه الأنباء التي جاءتهم يتضمنها هذا القرآن بما فيه من حكم عظيمة بلغت منتهى الغاية في الهداية والبيان، فهي ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ لتقوم الحجّة عليهم، فلا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ولكن ماذا تغني النذر عن قوم كذبوا بآيات الله وأعرضوا عنها ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ أي: ماذا تنفع الإنذارات والوعود لقوم صمّوا آذانهم عن سماع الحق، واستمروا في غيهم فلم يتعظوا ولم يهتدوا حتى كتب الله عليهم الشقاء وختم على قلوبهم قال تعالى ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾ [يونس].

## سَبْعَةٌ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ<sup>(١)</sup> إِلَىٰ سَعْيٍ نُّكْرٍ<sup>(٢)</sup>﴾

وإذا كان هذا حال المكذبين الجاحدين من أنهم لا ينتفعون بالنذر ولا بالمواعظ والعبير، ولا تغني عنهم شيئاً، ولا حيلة لك في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض والتولي عنهم، فلا تبال بهم -أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله تعالى- وتركهم في طغيانهم

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (الداع إلى) وقرأ البرزي ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، وعلى إثبات الياء يكون المد منفصلاً.

(٢) قرأ ابن كثير بإسكان الكاف من (نكر)، والباقون بضمها.



وأعرض عن جدالهم، وأمهلمهم إلى اليوم الذي يدعوهم فيه الداعي إلى أمر عظيم، تنكره النفوس لعدم عهدهم بمثله، وهو يوم البعث والنشور، حيث يدعوهم فيه إسرافيل، النافخ في الصور، وهو قائم على صخرة بيت المقدس يدعوهم ﴿إِن شِئْتُمْ تُنَكِّرُوا﴾ أي: إلى أمر فظيع منكّر، لا تألفه النفوس، ولا تعرف له مثيلاً، هو يوم الحساب، وهو يوم شديد الأهوال، وقد عدّد الله تعالى في هذه الآيات سبعة من أهوال يوم القيامة:

منها ثلاثة في هذه الآية، واثنان في الآية التالية، واثنان في الآية بعدها:

**الأوّل:** نداء إسرافيل، فإنه يؤذّن بحضور الخلق إلى ساحة العرض والحساب.

**الثاني:** أنه يدعوهم إلى شيء مهول، وخطب جسيم.

**الثالث:** أن يوم القيامة يومٌ تنكره النفوس وتهابه، وتخاف منه.

### الرَّابِعُ: أَنْ أَبْصَارَهُمْ تَكُونُ ذَلِيلَةً خَائِفَةً

٧- ﴿خُشَعًا﴾<sup>(١)</sup> أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾

أي: إن أبصار الكفار تنظر من طرف خفي، وهي خاضعة خاشعة ذليلة، كحال الذي لا تثبت حدقة عينه في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، فإن عزة العزيز وذلة الدليل تظهران في العيون ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ خاضعة منكسرة، لا يستطيعون رفعها من شدة الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية].

وقال سبحانه: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات]. وقال تعالى يصف حالهم:

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذُلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

### الخامس: تشبيه الموتى حال خروجهم من قبورهم بالجراد المنتشر المكتظ

ويوم القيامة يخرج المكذبون من قبورهم يستتر بعضهم في بعض، من شدة الخوف على كثرتهم، وكثرة تحركهم، وهم في ساحة العرض والحساب، عيونهم ذليلة ﴿يَخْرُجُونَ مِنْ

(١) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ويعقوب وخلف (خاشعا) مفردًا، والباقون (خُشَعًا) جمعًا.

الْأَجْدَاثِ ﴿١﴾ أَي: القبور ﴿كَانَتْهُمْ﴾ حين يمجج بعضهم في بعض في سيرهم نحو الداعي ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: وهم لكثرتهم ينبعثون منتشرين في الآفاق، لا يدري الواحد منهم أين يذهب من الخوف والحيرة، فليس لأحد منهم جهة يقصدها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ٤].

ثم وصف الله حال المجرمين عند خروجهم من القبور بأنهم:

### السَّادِسُ: أَنَّهُمْ يَتَوَجَّهُونَ مُسْرِعِينَ نَحْوَ صَوْتِ الدَّاعِي

٨- ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾<sup>(١)</sup> يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ ﴿٨﴾

مادّين أعناقهم إلى الأمام، فالإهطاع: هو الإسراع في المشي مع مدّ العنق إلى أعلى، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَانَتْهُمْ إِلَى نَصْبٍ يُوَفُّونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

فهم لا يتلكئون ولا يتأخرون، وأبصارهم نحو صوت الداعي شاخصة، لا تفارق وجهته، ولا تلتفت إلى شيء آخر من شدة الذعر، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور في ساحة الحشر فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته.

### السَّابِعُ: أَنَّهُ يَوْمٌ شَدِيدُ الْأَهْوَالِ

ومن أثر ما في نفوس أهل النار من الخوف والذعر ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ أي: يوم صعب شديد الأهوال، كما قال تعالى:

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر].

وهذا خاص بالكافرين، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة.

ثم عرضت السورة لخمسة من أنباء السابقين الذين أشارت إليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ لتبين أن ما أصاب هؤلاء الأقوام من

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء من (إلى الداع) وصلًا، وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها.

عذاب الاستئصال، كان بسبب عدم انتفاعهم بما جاءتهم به الرسل.  
وابتدأت السورة بأول الرسل، نبي الله نوح ﷺ.

## الْإِعْتِبَارُ بِمَا نَزَلَ بِخَمْسَةِ أَقْوَامٍ مِنَ الْعَذَابِ

### الْقِصَّةُ الْأُولَى: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ نُوحٍ

١٠،٩ - ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾

لما ذكرت السورة حال المكذبين لرسول الله ﷺ، وبينت أن الآيات والنذر لم تُجد فيهم، بعد ذلك أنذر الله أمة محمد ﷺ وخوفها بعقوبات الأمم الماضية المكذبة لرسول الله، وبين - سبحانه - كيف أن الله تعالى أهلكتهم وأحل بهم عقابه، وبدأ بقوم نوح، أول رسول أرسله الله إلى قوم يعبدون الاصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكنهم أصروا على شركهم وتمادوا في طغيانهم، وهذه القصة مقصورة هنا على إهلاك قوم نوح وبيان سببه، وتفصيلها في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح، ويونس، والشعراء، والعنكبوت، والصفاء.

فقد كذبت قبل قومك - أيها الرسول - قوم نوح، وقد أسند التكذيب إلى جميع القوم؛ لأن الذين آمنوا به قلة، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولأنهم شافهوه بالتكذيب، واستمر تكذيبهم له إلى أن أنذرهم الله بالطوفان، فلم يتبعوا نوحًا ولم ينضموا إليه أيضًا، فكان تكذيب قوم نوح له شبيهًا بتكذيب المشركين لرسول الله محمد ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٣٧﴾ [آل عمران].

وكان التكذيب لجميع الرسل مشوبًا بالبهتان، حيث يتهمونهم بالجنون، والسفه، والضلال، والسحر، والكهانة، وما إلى ذلك، وتتجاوز الأقوال إلى الأفعال، فيعتدون عليهم بالضرب والأذى والزجر.

وكان تكذيب الأمم لرسول الله بسبب دعوتهم إلى التوحيد، فالتوحيد هو المهمة الأولى، وهو الأصل والأساس لدعوة كل رسول، وكل رسول جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ﴿٥٠﴾ [هود: ٥٠].

وقد وصف الله المكذبين من أمة محمد ﷺ أنهم لم يبلغوا معشار ما كان لدى الأمم السابقة من القوة، والعدة، والعتاد، والحضارة ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ: ٤٥].

وقوم نوح كذبوا نبيهم نوحًا، وكانوا كلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخرُوا منه ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحًا، وجحدوا رسالته ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ فنسبوه إلى الجنون، أي: إنه لا يعقل ما يقول، فزعموا أنهم على حق، وأن نوحًا على ضلال، فقلبوا الحقائق، ثم زجروه، وعنفوه كما قال تعالى: ﴿وَأَزْدِرْجِرْ﴾ أي: إنهم انتهروه وتوعَّدوه بأنواع الأذى إن لم ينته عن دعوته، فقالوا: ﴿لَئِن لَّرَّ تَنْتَهٍ يَنْتُوْحُ لَتَكُوْنَنَّ مِنَّ الْمَرْجُوْمِيْنَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

فلم يكتفوا بعدم الإيمان به ولا بتكذيبه، بل آذوه وهددوه بالرجم!!

واستمر نوح يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهاً، فلم يزداهم ذلك إلا فرارًا منه، وظل يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، حتى أخبره الله تعالى بأنه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقد بلغ أذاهم لنوح ﷺ مبلغًا كبيرًا، حيث كان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًا عليه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون<sup>(١)</sup>.

وهنا دعا نوح ربه وتوجه إليه أن ينصره عليهم، فقال: رب قد غلبني قومي فلم يستجيبوا لي، وإني ضعيف عن مقاومتهم ولا قدرة لي على الانتصار منهم ﴿فَأَنْصِرْ﴾ لي بعقاب من عندك على كفرهم بك، فأنت- القوي المتين، وأنت نصير المقهورين المظلومين، وقال في الآية الأخرى ﴿رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دَيَّارًا ﴿٢١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح]

يقول الشيخ محمد الغزالي: كنت أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندي الصوت، وقَفَّ على كلمة ﴿مَقْلُوْبٌ﴾ أطال مدَّ الواو -ست حركات- مليئة بالقهر والضراعة والاستنجد،

(١) «البحر المحيط» (١٧٦/٨).

حُيِّلَ إِلَيَّ أَنهَا امْتَلَأَتْ بِأَلَامٍ تَسْعَةُ قُرُونٍ وَنِصْفٍ، مِنْ جِهَادِ الدَّعْوَةِ، وَفَشَلَّ الِاسْتِجَابَةَ، وَنَظَرْتُ حَوْلِي، فَرَأَيْتُ الدَّمُوعَ تَطْفُرُ مِنَ الْأَعْيُنِ، رَقَّةً لِعِبُودِيَّةِ نُوحٍ وَاسْتِغَاثَتِهِ<sup>(١)</sup>.

قال تعالى مجيباً دعوة نوح ومنتصراً له من قومه:

١١، ١٢ - ﴿فَفَتَحْنَا<sup>(٢)</sup> أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا<sup>(٣)</sup> فَأَلْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدِ قُدِّرَ ﴿١٢﴾

أنهى نوح إلى ربه ما انتهى إليه مع قومه في مشواره الطويل، وجهاده الدؤوب، وعمله المتواصل، وما انتهت إليه طاقته ووشعه، فلم تعد لديه طاقة يبذلها، ولم تبق له حيلة ولا حيلولة، وما كاد نوح يُسَلِّمُ الأمر لرب الأرض والسماء بطلب الانتصار لدعوته منهم، وما كادت الكلمة تخرج من فمه حتى كانت الإجابة الفورية من رب العالمين: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أي: أرسلنا عليهم الطوفان بصورة سريعة، في مطر غزير قوي، يُنْصَبُ بتدفق وغازرة، لم تتقدمه سحب ولا رعد ولا برق، ولم تمطر السماء قبله ولا بعده مثله، مع استمراره أربعين يوماً<sup>(٤)</sup>.

وقد صحَّ في أحاديث الإسراء والمعراج: أن للسماء أبواباً تُفْتَحُ وتُغْلَقُ، وهذا المطر المتتابع أسنده الله تعالى إليه، فظاهر الآية يفيد أن يد الجبار - سبحانه - هي التي فتحت أبواب السحاب فانهمر منها الماء وتدفق، فهو سبحانه الذي يقول للشيء كن فيكون.

سأل ابن الكوّاء علياً عليه السلام عن المجرّة فقال: شَرَّحُ السماء، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر، ثم قرأ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾<sup>(٥)</sup>.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كثير: لم تُمَطَّر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب في ذلك اليوم، فالتقى الماءان<sup>(٦)</sup>.

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٢٠.

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر وروح ورويس بخلف عنه بتشديد التاء من (فتحتنا) للتكثير، والباقون بتخفيفها على الأصل، وهو الوجه الثاني لرويس، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحزمة والكسائي بكسر العين من (عيوناً)، والباقون بضمها.

(٤) «تفسير الخازن» (٤/٢٣٠).

(٥) «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٩) وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل.

(٦) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٤/٧٥).

وقال أبو السعود: وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها<sup>(١)</sup>.

هذا هو الماء النازل من السماء، أما الماء المتفجر من الأرض، فيقول تعالى عنه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض عيونًا متفجرة بالماء، وصارت الأرض كلها عيونًا تتفجر بالماء، بنفس القوة والشدة والكثرة التي تنهمر بها من السماء ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ﴾ المنهمر من السماء، والمتفجر من الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدِّدٍ﴾ أي: على أمر قد قدره الله وقضاه في الأزل، فقد تفجرت الأرض كلها بالماء حتى التور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فقد نبع فيه الماء مع أنه موضع النار، وهذا الأمر الذي قدره الله تعالى وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان، كان جزاء لهم على عدم إيمانهم.

واجتماع الماء النازل من أعلى بالماء النابع من أسفل لم يكن بطريق المجاورة، بل باتحاد المائين واختلاطهما حتى صارا طوفانًا يعمُّ ويطمُّ، يغمرُّ وجه الأرض كلها حيث أغرق الله المكذبين، ونجَّى الله نوحًا ومن آمن معه. قال تعالى:

١٣، ١٤ - ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: نجينا نوحًا، وحملناه ومن معه على سفينة مصنوعة من ألواح الخشب والمسامير التي سُدَّتْ بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُم فِي الْبَارِيَةِ ﴿١٦﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنُ وَعِيبَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة].

وقد أمر الله نوحًا أن يدعو ربه بدعاء جاء في هذه الآية: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمِن مَّعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِزْلًا مَّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

ثم وصف الله - سبحانه - السفينة التي صنعها نوح ﷺ، ونجاه هو ومن آمن به من الغرق، ممن حملهم معه فيها من أصناف المخلوقات، فقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري هذه السفينة بمرأى منَّا، وبحفظنا وتحت رعايتنا وعنايتنا، فقد نجينا المؤمنين وأغرقنا المكذبين.

(١) «تفسير أبي السعود» (٧/٧٨٦).

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]

ثم بيّن سبحانه الأسباب التي أدت إلى نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، وجعلتهم محل غضب الله تعالى، فقال: ﴿جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا بنجاته من الغرق جزاءً له على كفرهم به، وانتصاراً لنوح ﷺ، فقد كذبه قومه وكفروا به فصبر على أذاهم واستمر في دعوته لهم، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه، فجحدا هذه النعمة وكفروا بها، وهذا جزاء كفران النعمة.

والذي كُفِرَ هو نوح ﷺ، فقد كفر به قومه، وكان كفرهم به مدة تسعة قرون ونصف القرن، حيث بدأت دعوته لهم بالرسالة، وفي الآية إثبات العينين لله سبحانه على وجه يليق بجلاله.

١٥، ١٦- ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذِيرٍ ﴿١٦﴾﴾

ولقد أبقينا قصة نوح مع قومه وجعلناها عبرة ودليلاً على قدرتنا لمن جاء بعد نوح، ليعتبروا ويتعظوا بما حلّ بهذه الأمة التي كفرت بربها وكذبت رسولها ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ يتذكر بها المتذكرون على أن من كذب الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾: هل من معتبر ومتعظ، مشمّر عن ساعد الجهد للعمل بما فيه من أوامر ونواهٍ؟

عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ أو (مذكر)؟ قال: سمعت عبد الله يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ دالاً<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا التفسير فإن الضمير في ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ يعود على قصة نوح، من نجاة

(١) أثبت الباء وصلًا من لفظ (ونذر) في المواضع الستة بالسورة ورش، وأثبتها وصلًا ووقفًا يعقوب، وحذفها الباقون في الحالين، والراء مرفقة وصلًا، ونرجح تفخيمها وقفًا لسكونها بعد ضم والسكون العارض يعتد به وقفًا ولا ينظر إلى أصل الكلمة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٧١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٢٣) وأبو داود برقم (٣٩٩٤) والترمذي برقم (٢٩٣٧) و«سنن النسائي» (١٥٠/٢) وورد مثل ذلك عن ابن مسعود في البخاري برقم (٤٨٦٩)، (٤٨٧٤) و«المسند» (٣٧٥٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٥٥٥) والحاكم (٢/٢٤٩) وقراءة الذال، قراءة شاذة، يُنظَر: «مختصر الشواذ» لابن خالويه ص ١٤٨.

المؤمنين وغرق الكافرين .

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿تَرَكْنَهَا﴾ على السفينة نفسها، ليدل ذلك على رحمة الله بخلقه وعنايته بهم، بحيث يكون المعنى: أبقينا أثر سفينة نوح وجنسها محفوظة من الانقراض والبلى، لتكون عبرة وعظة دالة على كمال قدرة الله تعالى وبيدع صنعه، تشهدها الأمم الذين أرسلت إليهم الرسل تأييداً لهم، وتخويفاً بأول عذاب عُذِّبَتْ به أول أمة كذبت رسولها، فكان عذابها حجة دائمة لكل أمة، مثل هلاك ديار عاد وثمود .

وقد أخذت السفينة تتناقص حتى بقي منها أخشاب، شهدها صدر الأمة الإسلامية، وقد تواتر خبر مُشاهدتها من جميع الأمم بعد نوح ﷺ إلى هذا العصر .

ولقد ذكر القرآن أن سفينة نوح استقرت على جبل الجودي، حيث نزل نوح ومن معه منها، وبقيت السفينة هناك لا ينالها أحد، وجبل الجودي يقع قرب قرية تسمى بِأَقْرَدِي في جزيرة ابن عمر، قرب الموصل، شرقيّ دجلة، عند ملتقى الحدود السورية التركية حالياً، ويُرى جبل الجودي بوضوح من بلدة (عين ديوار) السورية .

وفي صحيح البخاري، قال قتادة: لقد شهدها صدر هذه الأمة<sup>(١)</sup> .

وعند الطبري عن قتادة قال: أبقاها الله بِأَقْرَدِي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً .

وقد نقلت وكالات الأنباء يوم الأربعاء ١٣/٩/٢٠٠٠م أنه تم العثور على مدن كاملة مغمورة في قاع البحر الأسود، وقال العلماء المكتشفون: إنها تثبت الطوفان كما ورد في الكتب المقدسة، وذكرت ذلك الخبير هيئات الإذاعة البريطانية بعد أن بثت الفضائيات صورته<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> [العنكبوت: ١٥] .

(١) كما أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٨) وعبد بن حميد وابن جرير (٢٢/١٢٨) .

(٢) ينظر: أطلس القرآن الكريم ص ٢٧ د/ شوقي أبو خليل .

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/١٨٦) .



وقال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرَّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم يأتي استفهام تعجبي، يوقظ القلوب الغافلة إلى هول العذاب وصدق النذير: ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾<sup>(١)</sup> ﴿١١﴾ أي: كيف كان عذابي وإنذاري لمن كفر بي وكذب برسلي، ولم يتعظ بما جاءت به؟! لقد كان عذابهم أليماً، ولم يبق لأحد منهم حجة.

وفي هذا تعريض بتهديد كل من كذب بالنبي الخاتم ﷺ أن يصيبهم عذاب أليم جزاء تكذيبهم لرسول الله، كما أصاب قوم نوح ﷺ. قال تعالى:

### ١٧ - ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧)

ثم نوه الله تعالى بشأن القرآن، وبيّن أنه من عند الله، وأن الله تعالى سهّله ويسّر حفظه وتلاوته وفهمه، ويسّر تذکر الخلق بما يحتاجونه من التذكير بكل ما فيه من هدى وإرشاد.

وفي هذا تبصير للمؤمنين ليزدادوا إقبالا عليه سبحانه، وفيه تعريض بالمكذبين، لعلمهم يُقلعون عن صدهم وإعراضهم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

والله تعالى يدعو عباده إلى الإقبال عليه ويقول: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ هل من متعظ به، عامل بما فيه؟ وهل من طالب علم فيعان عليه؟ وفي هذا حث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأن الله تعالى قد يسّره وسهّله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، وغيرهم.

قال سعيد بن جبیر: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالى يُقرأ كله ظاهراً - أي يُحفظ كله عن ظهر قلب - إلا القرآن<sup>(٢)</sup>.

(١) هذه الكلمة أصلها (ونذري) فحذفت منها الياء، ونظراً لهذا الحذف فقد رأى بعض علماء التجويد ترقيةها وقتاً ولم يعتدوا بالسكون العارض، واعتد آخرون بالسكون العارض فقالوا: إنها مفخمة لأنها ساكنة بعد ضم، والقاعدة تقتضي التفضيم، وهذا في المواضع الستة في هذه السورة.

قلت: ولعل التفضيم أرجح لأن السكون العارض للوقف يغير حكم الراء من التريق إلى التفضيم والعكس، كما في (والعصر) فهي مرقة وصلًا مفخمة وقتاً.

(٢) «تفسير الخازن» (٢٠٥/٤).

ومع أن الرسم العثماني يخالف الرسم الإملائي في كثير من القواعد، إلا أننا نجد بعض الصبيان يحفظون القرآن كله في التاسعة من أعمارهم ونحوها، وكثير منهم يُحسن تلاوته من المصحف، وكذا العُميان، وغير الناطقين بالعربية ممن لا يكتب اسمه، ولا يعرف النطق بالعربية، ولكنه يقرأ القرآن كله في المصحف قراءة صحيحة، كما نجد من عوام المسلمين العرب مَنْ هو أميٌّ، ولكنه يجيد قراءة القرآن من المصحف لكثرة إلف حروفه وورسمه وألفاظه، وهو لا يعرف أن يكتب اسمه؛ وذلك لأن الله تعالى سهّل فهم القرآن وبسّره، ويكفي أن تقرأ النص لتتعظ كل الاتعاظ بما لا يُغني عنه شرح مهما كان.

وقد جاءت هذه الآية في أعقاب قصة كل من: نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام للاعتبار والاتعاظ بكل قصة منها، بما يناسب موضوع القصة، والملاحظ أن القصص في هذه السورة تقتصر على جانب التذكير بعاقبة أهل الضلال والعناد في إيجاز شديد، وبيان مصارع المكذبين بما يناسب موضوع السورة، وهو قيام الساعة، وما فيها من نعيم وعذاب.

### القِصَّةُ الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ عَذَابِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ

١٨، ١٩ - ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ أرسل الله هودًا عليه السلام إلى القبيلة التي سميت باسم جدّها عاد، وكانوا يسكنون الأحقاف من الربع الخالي في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم نبيّه هودًا عليه السلام، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، فكذبوه واتهموه بالسفه والجنون.

والقصة هنا تقتصر على ما لحق بالمكذبين به من عذاب، وقد مرّت القصة أكثر تفصيلًا في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف.

وقبيلة عاد كانت قبيلة مغرورة متكبرة، آتاهها الله بسطة في الأموال والأجسام، فلم تستح أن تصف نبيّها بالسفاهة، وهو يدعوهم إلى توحيد الله! قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

﴿إِن نُّقُلْ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ولذا فإن الله تعالى يبدأ بذكر تكذيبهم له، وقبل أن تفرغ الآية يُلحِقها الاستفهام

التعجبي من عذابهم ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ نبيهم هودًا ﷺ، فعاقبنا المكذبين له باستتصال شأفتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿١٦﴾ أي: كيف كان عذابي لهم على كفرهم؟ وكيف كان إنذاري لهم على تكذيب رسولهم وعدم الإيمان به؟

ثم وصف الله سبحانه ما حلَّ بهم من دمار وهلاك، بأن أرسل عليهم ريحًا عاتية في يوم كله سُؤم وعذاب، واستمر هلاكهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة.

أي: أرسلنا عليهم ريحًا شديدة الهبوب، شديدة البرودة، ذات صوت عالٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [فصلت].

وقال سبحانه: ﴿رَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نُذِرْ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ ﴿٤٢﴾ [الذاريات].

وقد استمر عذاب قوم هود ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧] فوصفت هذه الأيام بأنها أيام حاسمة، وأنها أيام نحس وسُؤم عليهم، استمرَّ فيها عذابهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ فقد استمر عليهم نحسه ودماره، حتى اتصل عذاب الدنيا بالآخرة، ثم وصف الله هذه الريح بأنها:

٢٠، ٢١- ﴿تَبْرِجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿١٦﴾

أي: وكانت هذه الريح تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم إلى الأرض، فترمي بهم وهم منكسبون على رؤوسهم فتدق أعناقهم، وتفصل رؤوسهم عن أجسادهم، فتركهم كالنخل المنقطع من أصله، كما قال تعالى: ﴿تَبْرِجُ النَّاسَ﴾ تقتلع رؤوسهم ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ أي: كأنهم أصول نخل قد انقطعت من مغارسها على الأرض، وشبَّهوا بالنخل لطول أجسامهم وضخامتهم، وقد كانت الريح تأتي على أحدهم فترفعه حتى تغيَّبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط على الأرض، فتقلع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره؟

ولتهويل ما حلَّ بهم من عذاب، والتعجب من أمرهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذْرِي﴾ أي: وإنذاري إياهم، ألم يكن شيئًا فظيعةًا؟! والندارة لا تُبقي لأحد على الله حجة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر].

إن هذه الريح التي دمّرت كل شيء بأمر ربها، ولم تُبقِ إلا مساكنهم، هي جند من جند الله، وقوة من قوى هذا الكون يسلمها الله على من يشاء من عباده، لقد كانت الريح العقيم تجلّد الأرض بأجسام هؤلاء العماليق، أو تجلّد أجسادهم بالأرض، فإذا هم مُمدّدون على الثرى، كجذوع النخل التي طاحت رؤوسها، لقد هلك قوم نوح بالماء، وهلك قوم هود بالهواء، والماء، والهواء من نعم الله الكبرى على كل الكائنات الحية، فلا حياة لها بدونهما، ولكن الله تعالى إذا شاء أغرق بالماء، ودمّر بالهواء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيْتَنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨].

وتُختم القصة بما خُتمت به نظائرها في السورة:

٢٢- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ ﴿٧﴾﴾

وهذا التكرار يراد منه: التأكيد والتحريض وتنبية الأنفس، ومثله قوله ﷺ في حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟»<sup>(١)</sup> وقوله ﷺ: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» وما زال يكررها حتى قال الصحابة: ليته سكت<sup>(٢)</sup>، وهو من أساليب البلاغة والتركيز الإعلامي.

### القِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ قَوْمِ ثَمُودَ مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٢٣، ٢٤- ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا وَحِدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٣٤﴾﴾

وكانت قبيلة ثمود قد خلفت قبيلة عاد في القوة والتمكين في جزيرة العرب، وكانت عاد في جنوب الجزيرة، وثمود في الشمال، في أرض الحجر، بمدائن صالح، ولم تعتبر ثمود بمصارع المكذبين من قوم عاد، وكان الله سبحانه قد ذكّر بهذا في قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ نَتَبَدُّونَ مِن سُهُولِهَا فُصُورًا وَنَتَجَنُّونَ الْأَجْبَالَ

(١) من حديث سليمان بن عمرو عن أبيه في سنن النسائي الكبرى (٤٠٨٥، ٩١٢٤، ١١١٤٩) وعند أبي داود (٣٣٣٤) وابن ماجه (١٨٥١) والترمذي (١١٦٣) وفي المسند (٢٠٦٩٥) عن أبي حُرّة الرقاشي عن أبيه وهو حديث صحيح لغيره كما قال محققوه.

(٢) من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه في البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٨٧) والترمذي (١٩٠١).

يُؤْتَا فَأَذْكَرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا نَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

والقصة هنا مقصورة على بيان نوع تكذيب القوم له، فقد فصلته السورة ولم تُجمله كما سبق في قصة عاد، ثم بيّنت العذاب الدنيوي الذي كان نتيجة هذا التكذيب، وقد فصلت القصة في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل.

وبدأت القصة هنا ببيان تكذيب قبيلة ثمود لنيبهم صالح، بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وحذّره عقاب الله إن خالفوه، فكذبوه وقالوا له ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] وقد سقطت من أعيننا بعد أن دعوتنا إلى ترك عبادة آبائنا الأولين.

وتكذيب رسول واحد هو تكذيب لرسول الله جميعاً، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿١٣﴾﴾ أي: كذبوا بآيات الله ونذره ومواعظه التي أنذرهم بها صالح ﷺ.

والنُّذُرُ: جمع نذير، أي: كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسله، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

وكما قال سبحانه: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم فصل سبحانه وتعالى مظاهر هذا التكذيب، في تعجبهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، وهي شبهة قال بها السابقون واللاحقون، فهي شبهة مكررة في الناس جيلاً بعد جيل، وهكذا قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده فيُنزل عليه الوحي؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهؤلاء يستنكرون أن يكون الرسول واحداً منهم، وهم جماعة كثيرة ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن أتبعناك يا صالح ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ أي: شقاء وبُعد عن الصواب.

﴿وَسُعْرٍ﴾ قيل: إن السُّعْرُ هو العذاب، أو شدته، وقيل: هو الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، كأنها من شدة نشاطها مجنونة، وقد أنف هؤلاء أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا من عبادة الشجر والحجر والصور.

والمعنى: أتبع واحداً من البشر جاءنا بما يخالف ما كان عليه آبائنا وأجدادنا؟! لقد

خَبْنَا وخسرنا إذا نحن سلّمنا قيادتنا لواحد منا! وهذا حسد من قوم ثمود لصالح، واستبعاد منهم أن يفضّل بعض البشر على بعض، فقالوا: أنكون جمعا ونشعب واحدا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، ويفيض بنور الهدى على من يشاء. قالوا:

٢٥، ٢٦- ﴿أَلَمْ يَأْتِيَ الْذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ ﴿٢٦﴾ غَدَاً مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ﴾

أي: أُنزل على صالح الوحي، وخصّ بالنبوة من بيننا، وهو واحد منا؟ كيف ذلك، وفينا من هو أحق منه؟! فكيف يخصصه الله بالرسالة وينزل عليه الذكر؟ وهذا الاعتراض من المكذبين ببشرية الرسول، وقع من جميع الأمم حيث قالوا لهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] فردوا عليهم قائلين ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فالرسل قد اختصهم الله بوحيه وزوّدهم بمؤهلات الرسالة، ثم إن المكذبين ببشرية الرسول، أضربوا عن هذا الكلام، وانتقلوا إلى ما هو أقوى منه وأشد، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ وهكذا وصفوه بأنه قد تجاوز الحد في الكذب، وأنه متكبر متجبر، يريد العلو والتعاضم عليهم بادعاء النبوة، والأشر: هو البطر المتعالي على الناس. ثم إنهم سيرون عندما ينزل بهم العذاب في الدنيا أو الآخرة: مَنْ الكَذَابِ المتجبر، هل هو صالح أو قومه المكذبون له؟ ولأن العذاب سينزل بالقوم لا محالة، فإن هذا مما لا يخفى على أحد، ولذلك فإن القرآن أورده مورد الإبهام.

### معجزة صالح عليه السلام

٢٧- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾

ذكر ﷺ في هذه الآية، معجزة الناقة التي أيد الله بها نبيه صالحا ﷺ، والتي كانت سببا في العذاب الذي لحق بقوم ثمود، وكان المكذبون قد سألوا نبيهم صالحا ﷺ أن يُخرج لهم ناقة حلوبيا، عُشراء من صخرة صماء، فإن أجابهم لذلك صدقوه وآمنوا به،

(١) سهّل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين قالون وأبو جعفر، وسهّلها مع الإدخال وعدمه أبو عمرو، وسهّلها من غير إدخال ورش وابن كثير ورويس، ولهشام التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق بلا إدخال.

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بقاء الخطاب في (سيعلمون)، والباقون بياء الغيب.

ودعا صالح ربه، فأيده بالمعجزة المطلوبة ولكنهم لم يؤمنوا:

والمعنى: إنا مخرجو الناقة التي سألوها من الصخرة، أو الهضبة الحمراء، محنة واختباراً لهم، كما شأؤوا وطلبوا، فسنخرجها لهم أمام أعينهم لتكون حجة من الله عليهم للتصديق بنبيهم صالح ﴿فَأَرْقَبَهُمْ﴾ ترقب - أيها الرسول - وانتظر ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة وارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿وَأَصْطَرَّ﴾ أي: اصبر على تكذيبهم لك صبراً لا يعتريه ملل ولا ضجر، ولا تياس من النصر عليهم مهما أصابك من أذاهم، وداوم على تبليغ الدعوة لهم. قال تعالى:

٢٨- ﴿وَنَبَّيْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وأخبر قومك - يا صالح - أن الماء الذي يمرُّ بواديهم مقسوم بين القبيلة والناقة، فللناقة يوم تشرب فيه الماء كله لا يشاركها فيه أحد، وأنتم تشربون في هذا اليوم من حليب الناقة، فإنه سيكفي القبيلة كلها، ولكم يوم تشربون فيه الماء ولا تشارككم فيه الناقة ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾ أي: يحضر هذا اليوم إلى بئر الماء من كانت قسمته حاضرة فيه، ويحظر على من ليس له بقسمة أن يحضر، وقد فسرت هذه الآية بمثل قوله تعالى:

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

ومع أن القوم لم يكن ينقصهم شيء، ولم يصيبهم ضرر من جراء هذه القسمة، حيث إنهم يشربون حليب الناقة في يوم قسمة الماء لها فيكفيهم، وهو أفضل من الماء، وأكثر من كافٍ لإروائهم، ولكن القوم شحوا بهذه القسمة، فأضرموا قتل الناقة، فأبلغهم صالح ﷺ أن الله تعالى ينهاهم عن أن يمسوها بسوء. قال تعالى:

٢٩، ٣٠- ﴿فَادَاؤُا صَاحِبِهِمْ فَغَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾﴾

أي: إن قوم ثمود أجمعوا على قتل الناقة، فنادوا أشقى القوم، وهو صاحبهم (قُدار بن سالف) نادوه لقتل الناقة، وكان قُدار من سادة القوم وأهل العزة فيهم، جاء في الحديث: «فانتدب لها رجل ذو منعة في قومه، كأبي زَمْعَةَ» وهو الأسود بن المطلب بن أسد، فأجاب نداءهم، فرماها بنبل فقتلها، وهو غير مكترث بما فعل ﴿فَغَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي: تناول الناقة بيده فنحرها بعد أن رماها بالنبل، قال تعالى: ﴿إِذْ أَبْعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس]:

[١٢] أي: أشقى القوم، وهو قدار ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أي: احذروا أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقِيهَا﴾ أي: وقسمة الماء بينهم وبين الناقة بالسوية ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ﴾ أي: غضب ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ﴿لَا﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ [الشمس].

وجاء عقير الناقة منسوباً إلى الرهط الذين اتفقوا على قتلها في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾ ﴿١٥﴾ [هود].

وفي هذه السورة نُسب العقير إلى من قام بالتنفيذ  
وفي سورة النمل نُسب إلى من خططوا ودبروا المكيدة ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَّةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [آية].

فعاقبهم الله على عقرها، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم وتكذيبهم رسول الله، وقتلهم الناقة؟ وكيف كان إنذاري لمن عصى رسلي؟ وهذه الآية ليست تكراراً، ولكنها خاصة بهذه القصة، وهكذا في ختام كل قصة في السورة.

ثم فصل سبحانه العقاب الذي لحق بقوم ثمود فقال:

٣١، ٣٢- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلَّ مِنْ مُدْكِيرٍ ﴿٣٢﴾

أي: إنا أهلكناهم بصيحة صاح بها جبريل ﷺ، فلم تبق منهم عيناً تطرف ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ كالزرع والكلاء اليابس، الذي يجعل تحت أرجل الإبل والمواشي في الحظائر الخاصة بها، وهو الهشيم والشجر البالي الذي تدوسه الأنعام بأقدامها.

وهذه الصيحة هي الصاعقة التي قال الله عنها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿١٣﴾ [فصلت].

والتي قال تعالى عنها: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهِونٍ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وهي الطاغية التي قال الله عنها: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ ﴿٥﴾ [الحاقة].

وهي الرجفة التي قال الله عنها: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الأعراف].

إن العذاب الذي نزل بقوم ثمود حوّل أشخاصهم إلى غُثاء كالهشيم، وهو ما تهشم وتفتت وتكسّر تحت أرجل البهائم، مما يُفرش في الحظائر، وتطرؤه الدواب بأقدامها!!



فالمحتظر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك، يحفظها فيها من الذئب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته المواشي، فهو الهشيم، والمراد: أن هذه الصيحة صعقتهم وجعلتهم كالعيدان اليابسة.

وفي نهاية القصة يردهم الله تعالى إلى قرآنه ليتدبروه ويتأملوه، فإن في ذلك تجنب الضلال، وسلوك طريق الهدى، ولقد سهلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهلنا معانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر أو يعتبر، فهل من متعظ به وعامل بما فيه؟

### الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٣٣-٣٥ - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنَّا عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾

وقد وردت هذه القصة في سور: الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت.

ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان قد آمن به، وهاجر معه من العراق إلى الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل سدوم بوادي الأردن، ولم يكن لقوم لوط أمة يُعرفون بها، ولذا أضيفوا إليه، وكان هؤلاء القوم قد تفرّدوا من بين العالمين بإتيان الذكور، فدعاهم لوط عليه السلام إلى توحيد الله تعالى، ثم نهاهم عن الفاحشة التي يرتكبونها، ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه وهددوه بالطرد من ديارهم إن لم ينته عن دعوته.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: كذبوا بآيات الله التي أنذروا بها، وكذبوا بالإنذارات التي أنذروهم بها نبيهم لوط عليه السلام، فلم يستجيبوا لإرشاداته ولا لأوامره ونواهي، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا في شركهم وشركهم، وبالتالي فهم قد كذبوا بالوحي الذي أنزله الله على جميع رسله، وموضوع القصة هنا هو وصف العذاب الذي نزل بهم:

فقد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام فاقتلع مدائن قوم لوط، ورفعها حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها، وأتبع ذلك بقذفهم بحجارة من سجيل منضود متتابع.

فالحاصب: هي الريح التي ترمى بالحصباء، أي: الحجارة دون ملء الكف فترفعها من

الأرض لقوتها، ثم تنزل على من أريد له أن يُقذف بها، وكان رَمِيهم بها بعد أن جعل جبريل أسفل القرى أعلاها .

وقد نجى الله لوطاً وبناته، حيث أمره ربه أن يخرج من القرية في وقت السَّحَر، وهو الوقت الذي يختلط فيه ظلام آخر الليل بياض أول النهار قبيل الفجر، وكان إنجاؤهم قبيل نزول العذاب بالقوم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَالُ لُوطٍ بَخَّيْتَهُمْ بِسُحْرِ﴾ فقد أوحى الله تعالى إليه ألا يلتفت منهم أحد حين يخرجون من القرية، إلا امرأته، فإنه مصيبتها ما أصابهم؛ لأنها لم تؤمن بدعوته ﷺ.

وهذا هو معنى الخيانة التي ذكرها الله تعالى عن امرأة لوط وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحریم: ١٠].

ولم تكن امرأة نبيٍّ قَطُّ زانية، فخيانتها خيانة في الدين، وكفر بالرسالة .

وقد أرسل الله تعالى على قوم لوط ريحاً شديدة، تحمل الحصباء وترميهم بها فتهلكهم، ولم يؤمن بلوط سوى بناته، ولم يؤمن به رجل واحد، ولا امرأة واحدة، ولا حتى امرأته . وكانت نجاة لوط وبناته من هذا العذاب الذي استأصل قومه -نعمة أنعم الله بها عليهم . ويمثل هذه النعمة والنجاة من الهلاك نثيب من آمن بنا وشكرنا .

وفي هذا بشرى للمؤمنين الشاكرين؛ كي يزدادوا من الطاعة، وتعريض بسوء مصير الكافرين؛ كي يشكروا ربهم على نعمه . قال تعالى :

٣٦- ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾

وقبل أن يحل العذاب بقوم لوط خوَّفهم نبِيهم لوطاً ﷺ بأس الله وعذابه :

أي: إن لوطاً حذَّر قومه عذاب الله إن لم يؤمنوا؛ حتى لا يبقى لهم عذر، فما كان منهم إلا أن كذبوه وتشككوا في دعوته وإنذاره لهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: شكوا في دعوته وفي دعوة الرسل جميعاً، ولم يصدقوها ولم يلتفتوا إليه ولم يستجيبوا له . قال تعالى :

٣٧- ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾

أجمل سبحانه في هذه الآيات ما لم ينزل إلا في هذه السورة، مما يتعلق بقصة لوط عليه السلام، وهو أن ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة الكرام كانوا في صورة شباب حسان، قيل: وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، ولما أضافهم لوط عليه السلام خرجت امرأته وأعلمت أهل القرية بوجود ضيوف حسان في بيت لوط، فجاءه قومه يهرعون إليه من كل مكان، بقصد فعل فاحشة اللواط بهم، على أنهم شباب حسان من البشر، فأغلق لوط الباب، فحاولوا كسره، فقالت له الملائكة: يا لوط، خلّ بيننا وبينهم، فإننا رُسل ربك، فلن يصلوا إليك ولا إلينا بسوء، وأخذ يدفعهم ويمنعهم من الدخول، ولكنهم لم يمتنعوا، فعرض عليهم لوط أن يزوجهم بنات أهل القرية، قائلاً لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَيْفِي﴾ [هود: ٧٨].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُزِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فاشتد الحال واحتدم الجدل، وأصرروا على الدخول ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ﴾ فخرج إليهم جبريل فضربهم بطرف جناحه، فطمس الله أعينهم وأعماهما ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فلم يروا الضيوف، وصارت أعينهم مطموسة بمساواة الوجه، ليس لها شق، وقيل: إن عيونهم غارت من وجوههم بالكلية، وأنهم رجعوا على أديبارهم يتحسسون الحيطان، ويتوعدون لوطاً إلى الصباح.

قال قتادة: ذُكر لنا أن جبريل استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أنزأ لوطاً، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليهم، فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ ذوقوا أيها المجرمون عذابي وعقوبة إنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام، بسبب تكذيبكم له، فضلاً عن عذابنا الشديد الذي سيلحقكم يوم لقاء الله تعالى، ثم حدد سبحانه وقت نزول العذاب بهم، فقال:

٣٨-٤٠- ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكَرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٤٠﴾

أي: ولقد نزل بهم عذاب الله في الصباح الباكر، وهو معنى ﴿صَبَحَهمْ بُكَرَةً﴾ أي: في

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٥٩) والطبري (٢٢/١٤٩) وغيرهما.

وقت مبكر من الصباح، وهو عذاب متصل بعذاب الآخرة لا يفارقهم إلى يوم القيامة، فهو معهم في البرزخ بعد هلاك أجسادهم، وهذا معنى ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: ثابت دائم لا ينفك عنهم، ولا ينفكون عنه.

وتحديد موعد نزول العذاب بهم جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أما العذاب نفسه وهو الخسف ومطر الحجارة فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

وهذا العذاب استقر فيهم ولازمهم حتى يُفضي بهم إلى عذاب الآخرة، فهم في مدة موتهم يُعذَّبون بانتظار جهنم.

قال الحسن: عذاب في الدنيا استقر بهم في الآخرة.

ثم خاطب الله تعالى الذين أصابهم العذاب المستقر، فقال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: تذوقوا عذابي الذي أنزلته بكم لكفركم وتكذيبكم، واستخفافكم بما وُجِّه إليكم من نصائح وتخويف، وذوقوا إنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام، وهكذا ينتهي مصير المدينة الفاجرة التي طغت عليها شهواتها، واستمرأت الشذوذ الجنسي، وفتحت له نوادي تقارفه فيها، إن نبيها الصالح لوطاً عليه السلام قد أعلن مقتته لهذه الفاحشة، وحاول تهذيب طباعهم، لكنهم أبوا وحاولوا السطو على ضيوفه من الملائكة، فكانت عقوبتهم دمار مدينتهم.

واللواط معروفة في الحضارة الحديثة، وقد أعقبت بوباء الإيدز المُهلك، والغريب أن التوبة منها لم تخطر بالبال، بل إنهم يطالبون بالاعتراف الرسمي بفاحشتهم على أنها حق من حقوق الإنسان، والنصيحة المبدولة لهؤلاء: اقضوا شهواتكم واحتاطوا لصحتكم!! ذلك ما يقوله رجال الدين، وهم ينشرون الشفاء الواقعي، وماذا يُنتظر ممن نسي الله واتبع شهواته!؟

ويأتي التنويه الثالث بشأن القرآن، وأن الله تعالى قد سهَّل لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، وسهَّل معانيه للفكر والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

وفي ذكر هذه الآية عقب كل قصة: تجديد الحث على الاستماع لكل نبأ من أنباء

الأولين، فيتعظون ويعتبرون، وتستيقظ نفوسهم، ولا تستولي عليها الغفلة، حتى يتدبروا في أحوال مَنْ سبقهم ويستفيدوا مما حدث لغيرهم.

### الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ الْأَخِيرَةُ: قِصَّةُ عَذَابِ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ

٤١، ٤٢ - ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

وقد ذُكرت قصة فرعون وآله في سور: الأعراف، ويونس، وهود، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، وجاء الحديث عنهم هنا في آيتين اثنتين، ولما كانت دعوة موسى ﷺ موجهة إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل من ذُلِّه وقهره، وليست موجهة إلى أهل مصر، لذلك فإن هذه القصة، لم تبدأ كغيرها من القصص بلفظ ﴿كَذَّبَتْ﴾ وإنما جاءت هكذا ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾﴾ أي: جاء فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة لهم على كفرهم.

ويراد بالنذر: موسى وهارون عليهما السلام بما أيدهما الله به من الآيات البيّنات الدالة على صدق الرسالة.

وقد صُدّرت القصة بالقسم المؤكّد لعظم ما فيها من الآيات، ولهوّل ما لا قوّه من العذاب.

فقد شاهد فرعون وقومه جميع الآيات الدالة على وحدانيتنا، ونبوّة أنبيائنا، ومنها المعجزات التسع التي أيد الله بها موسى ﷺ، منها خمس في قوله تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والأربعة الأخر هي: انقلاب العصا حية، وظهور يده البيضاء بخلاف لون جسمه من غير برص، وسنوات القحط، وانفلاق البحر بمرأى من فرعون وجنوده.

فكذبوا بهذه الآيات كلها ﴿فَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عاقبهم الله بالعذاب عقوبة عزيز لا يُغالب، قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر، ولم يُبق منهم أحداً، بل أهلكهم جميعاً بالغرق، والمراد بذكر القصة هنا تحذير المكذّبين بخاتم النبيين ﷺ كي لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم:

## كُفَّارُ الْيَوْمِ مَنْ يَسْلَمُوا مِنْ مَصِيرِ كُفَّارِ الْأَمْسِ

٤٣، ٤٤ - ﴿كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾

وبعد أن فرغت الآيات من بيان مصارع الظالمين، توجهت بالخطاب إلى كل كافر مكذب لخاتم الرسل ﷺ في كل زمان ومكان؛ لِيُسْقِطَ كل شبهة، وتُزِيلَ كل شك في صدق ما جاء به محمد ﷺ، وتسدَّ كل ثغرة أو مغالطة تتعلق بيوم الحساب والجزاء على الأعمال والأقوال.

إن أعداء الإسلام لن يَفْلِتُوا من المصير الذي نال أسلافهم ﴿كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ﴾ لستم -أيها المكذَّبون- خيراً من قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، ولا من قوم لوط، ولا فرعون وملئه، فقد كانوا أقوى أبداناً وأكثر أموالاً وأوسع عقولاً، فلستم خيراً منهم، وليست لكم براءة من العذاب نصت عليها الكتب المنزلة من عند الله تعالى، وهذا معنى ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً فيه إخبار لكم بعدم نزول العذاب بكم، وهذه البراءة تقضي بنجاتكم مما حلَّ بأمثالكم، حتى تظنوا أنكم خير من الأمم السابقة، فأنتم مخطئون في عدم اكتراثكم واتعاظكم بما حل بمن سبقكم.

وقد بيَّنت الآية أن حالهم لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون الكفار الحاليون خيراً من الكفار السابقين، وأفضل منهم عند الله تعالى، وفي هذا ذم وتوبيخ لهم، إذ أنهم ليسوا خيراً منهم بل أسوأ.

الآخر: أن تكون لهم براءة من العذاب مسجلة في الكتب المنزلة من عند الله تعالى!

فإذ انتفى الأمران معاً فلا مأمّن لهم من حلول العذاب بهم في الدنيا والآخرة كما حل بأمثالهم.

ثم وبَّخهم القرآن على افتراض ثالث: وهو دعواهم أنهم كثرة من البشر، وأنهم على ثقة من نصر الله لهم، وأنهم يغلبون الإسلام وأهله، فهم يقولون: نحن أولو حزم ورأي، وأمرنا مجتمع، فنحن جماعة كثيرة منتصرة، لا يغلبنا من أرادنا بسوء. ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾، أي جمع ﴿مُنْتَصِرُونَ﴾.

ومن الأمثلة المعاصرة لنزول القرآن: أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن نتنصر اليوم من

محمد وأصحابه .

وما دامت هذه الآية قد نزلت قبل غزوة بدر، وأخبرت عما يقال مستقبلاً، فإنها من الإعجاز المتعلق بعلم الغيب، وقول أبي جهل هذا ينبئ عن غرور الكفار بأنفسهم، واستخفافهم بالنبي ﷺ وتطاولهم عليه بألستهم .

ثم بيّن سبحانه ضَعْفَ هذا الجمع المنتصر - على حد قولهم - وأخبر أنهم منهزمون .

### مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ

٤٥ ، ٤٦ - ﴿سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾﴾

هذه آية عامة في البشري بهزيمة الكافرين وإن كان لها سبب خاص . هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيهزم جمع قريش المتحزبين له، ووعد للمؤمنين كافة إلى قيام الساعة، بهزيمة أعدائهم إذا نصرُوا دينه، وأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وقد أجاب الله سبحانه في هذه الآية على قول الكفار المعاصرين للنبي ﷺ: ﴿مَنْ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ وهكذا يقول أمثالهم من أهل الكفر في كل مكان وزمان، بأن النصر متحقق لهم، وقد أخبر القرآن عما سيقع في المستقبل القريب من نصر المسلمين وهزيمة الكافرين في قوله: ﴿سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ .

والجمع: هو تجمع الكفار يوم بدر، وتجمعهم في كل زمان لاحق بهذا اليوم، وقد تحقق هذا الوعد، ونزلت هزيمة مُدَلَّةً بالمشركين يوم بدر، في معركة أطاحت برؤوس الكفر، وأرغمت أنوفهم، وما ينتظرهم في الآخرة أقسى وأشد .

وفي هذا بشارة للإسلام وأهله بأن الله تعالى منجز وعده، وأن الكافرين لا يزدادون إلا غرورًا، فهم يُعِدُّون العدة دائماً لمقاومة المسلمين، وقد هُزم الكفار يوم بدر وولَّوا الأدبار . وقد ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ لما خرج يوم بدر قرأ هذه الآية قبل قتال العدو، وفي هذا إشارة إلى تحقيق وعد الله تعالى له .

جاء عن عكرمة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ جعلتُ أقول: أي جمع يُهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يشب في الدرع وهو

يقول: ﴿سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ ۝٤٧﴾ فعرفت تأويلها يومئذ<sup>(١)</sup>.

أي: أنه ﷺ لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيُهزم إلا في هذا اليوم، حيث عرف أنه تجمع المشركين يوم بدر؛ إذ لم يكن يوم نزول الآية قتال، ولم يخطر لهم على بال. والآية من دلائل النبوة؛ لأنها نزلت في مكة، وغزوة بدر كانت بالمدينة، ولم يكن القتال قد شُرع بعد.

فعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللهم إني أشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً»، فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، فخرج وهو يشب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ ۝٤٧﴾ بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَأَسَاءَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٨﴾<sup>(٢)</sup>.

ومثل هذه الآية في الكشف عن أخبار المستقبل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ أَلْهَادُهُمْ﴾ [آل عمران].

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الكفار ليس مقصوراً على عذاب الدنيا، بل هناك العذاب الأكبر الذي ينتظرهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: إن موعد عذابهم الأخروي هو قيام الساعة، فهو اليوم الذي يجازون فيه بما يستحقون، وهو عذاب أشد مرارة من القتل والأسر ﴿وَأَسَاءَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ أي: إن عذاب الآخرة أفسى وأشد وأنكى مما لحقهم من عذاب الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة]. وقوله أيضاً: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه].

## عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤٧، ٤٨ - ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ۝٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

ثم بين سبحانه ألواناً من عذابه تعالى للمجرمين الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب، ورواه الطبري (٢٢/١٥٧) وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤١٢٧).

(٢) البخاري بأرقام (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٥٧) والطبراني في «الكبير» (١١٩٧٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٠٢).



الذنوب العظيمة، كالشرك والكفر والفسق والفجور والظلم ونحو ذلك من المعاصي، وهذا العذاب يحدث لهم يوم القيامة، فبيّن سبحانه أنهم بالإضافة إلى ما هم فيه في الدنيا من حيرة وتخبط، وضلال عن العلم، وضلال عن العمل، وبُعد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم، وإيثارهم الغي على الرشد، فهم في الآخرة في نار مسعرة، تغشاهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وهي تشتعل في أجسادهم حتى تصل إلى أفئدتهم، وهذا هو خسران الآخرة.

والنار المسعورة: هي شديدة السرعة كأن بها جنوناً في التهام أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذَا الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص].

وهذا العذاب يحدث لهم يوم يجرون في النار على وجوههم عقوبة لهم وإذلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحَّشُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبِكَمَا وَصَّأْنَا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويقال للمجرمين يوم القيامة حين يُجرون على وجوههم في النار توبيخاً وتقريعاً لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا شدة عذاب جهنم التي أنتم بها، وقاسوا حرها ولهيبتها، وسقر: اسم من أسماء النار، وعلم عليها.

## كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي الْكُونِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٩، ٥٠- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤٩] ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [٥٠]

وقد فعل الله بالكافرين ما فعل؛ وفق تقديره تعالى السابق في الأزل، حسبما اقتضته الحكمة الإلهية، وكل شيء يحدث في الكون سواء أكان خيراً أم شراً فهو مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وفق علم الله تعالى الكاشف عما كان وما سيكون ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من جميع العوالم العلوية والسفلية، خلقناه بمقدار قدرناه وقضيناه، وسبق علمنا به، لا خالق له سواه، ولا مشارك له في خلقه، وقد سبق به القدر، وجرى به القلم.

قال ابن عطية: وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق، إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفات.

وخلق الله تعالى للأشياء مُصاحب لقوانين جارية على مقتضى حكمته سبحانه:

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٦]

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه: إني أجد في كتاب الله قوماً ﴿يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري أشيء مضى قبلنا، أم شيء بقي؟<sup>(١)</sup>

قال أبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه، أم في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، نيسره لليسر، ونيسره للعسر»<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء هذا الحديث موصولاً من حديث علي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت به في الأرض وقال: «ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة»، فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «لا، اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الآيات<sup>(٣)</sup>].

ومن مقتضى الحكمة الإلهية مجازاة العباد على أعمالهم في الآخرة!

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [٢٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ [الدخان].

(١) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٥/٢٢١).

(٢) حديث مرسل أخرجه الطبري (١٦١/٢٢) وهو مخرَج في الصحيحين موصولاً من طرق أخرى، ينظر

نحوه في صحيح البخاري بأرقام (١٣٦٢، ٦٦٠٥، ٦٦٠٦) ومسلم برقم (٢٦٤٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٦٠٥) واللفظ له، وراجع (١٣٦٢) و«صحيح مسلم» (٢٦٤٧).

وهكذا نجد أن الآيات المتعلقة بالخلق يعقبها ذكر الساعة وذكر يوم الجزاء؛ لبيان الحكمة من خلق الخلق، وهو الثواب والعقاب في الآخرة على ما قدموه في الدنيا، وبيان أن الله تعالى قد خلق كل شيء بقدر، وليس لمجرد الإعلام بذلك، وإنما هو لبيان الحكمة والعلم المسبق بذلك، فالله تعالى خالق أصول الأشياء، وخالق أسبابها، وموجد القوة فيها، وهذا معنى الحديث: «وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وعندما يُعْتَفُ سبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ، يَتَمَسَّحُونَ فِي الْقَدَرِ، وَيَعْتَذِرُونَ بِهِ، يَقُولُونَ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠] ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥].

وقدرة الله تعالى تتعلق بكل شيء من الأعمال الصالحة والسيئة، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون نسبة الشر هو من الأدب الذي لَقَّنَهُ اللهُ سَبْحَانَهُ لِخَلْقِهِ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. والمجوس هم الذين يجعلون للخير إلهًا وللشر إلهًا.

معاني القدر: والمراد بالقدر: مراد الله تعالى ومشيئته، وما سبق به علمه.

وللقدر من جهة اللغة ثلاثة معانٍ:

أولها: أن القدر هو الأمر المقدر، الذي لا يزداد عليه ولا ينقص منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَدَجَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وثانيها: أن يراد بالقدر: قدرة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُورِيَ بِأَنَّهُ﴾ [القيامة].

وثالثها: أن يراد بالقدر: إيجاد الشيء في وقته، بأن يقدر الله له وقتًا يخلقه فيه<sup>(١)</sup>.

وقد وردت أحاديث في القدر منها ما جاء:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن مشركي قريش جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونهم في

(١) يُنظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٢١٨/١٢).

القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس» (٢).

٣- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٣).

٤- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء - لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك - لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف» (٤).

٥- وأخرج الإمام أحمد، وغيره بسنده عن الوليد بن عباد، حدثني أبي قال: دخلت على (عبادة) وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني، واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بُنَيَّ، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

(١) «المسند» (٤٤٤/٢) (٩٧٣٦) (١٠١٦٤) وإسناده حسن، كما قال محققوه: لأن زياد بن إسماعيل، متكلم فيه، وأخرجه مسلم برقم (٢٦٥٦) والترمذي برقم (٣٢٩٠) وابن ماجه برقم (٨٣) والبيهقي (١٨٣) والطبري (١٦١/٢٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٣٤).

(٢) «المسند» (١١٠/٢) برقم (٥٨٩٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ومسلم برقم (٢٦٥٥) وعند مالك في الموطأ (٨٩٩/٢) وابن حبان (٦١٤٩) والبخاري في خلق أفعال العباد ص(٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٤).

(٤) «المسند» (٢٩٣/١) بأرقام: (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) بإسناد قوي (محققوه) وأخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة معلقاً (٣١٦) والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٠) وغيرهم.

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلت النار<sup>(١)</sup>.

٦- وفي حديث علي بن أبي طالب ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(٢)</sup>.

٧- وفي حديث عبد الله بن عمرو ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، قال: «وكان عرشه على الماء»<sup>(٣)</sup>.  
والمقصود بهذا: تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، وليس أصل القدر، فإن القدر أزلّي، لا أول له.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر: إجبار الله تعالى للعبد، وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه: الإخبار عن تقدّم علم الله تعالى بما يكون، مما يكتسبه العباد، ويصدر عنهم، عن تقدير منه سبحانه، وخلق لها خيرها وشرها<sup>(٤)</sup>.

### نفاذ قدرة الله تعالى في خلقه:

إن كل حركة في الكون، وكل حركة في التاريخ، وكل انفعال في النفس وكل نفس يخرج من صدر الإنسان، وكل نملة سارية، وكل هبأة طائفة، وكل خلية سابعة في

(١) «المسند» (٣١٧/٥) برقم (٢٢٧٠٥) قال محققوه: وهو حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن ليث، ومعاوية، وأيوب، من رجال (التعجيل) والترمذي برقم (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٤/١٤) وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٧) وأبو داود (٤٧٠٠) والطيالسي (٥٧٧) وغيرهم.  
(٢) الترمذي برقم (٢١٤٥) وابن ماجه برقم (٨١) و«المسند» (١٣٣/١) برقم (٧٥٨) ورجال ثقاة رجال الشيخين أفاده محققوه، وأخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٣/١) عن أبي حذيفة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح عن علي بن برقم (١٠٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣) و«سنن الترمذي» برقم (٢١٥٦).

(٤) «تفسير الخازن» (٢٠٧/٤).

الماء، وكل فلك أو جِرم في السماء، وكل عود ينبت من الأرض، وكل نسمة في الهواء، وكل ذرة في الكون، كل ذلك وغيره، خلقه الله وقدره تقديراً، وقدرة الله تعالى فيه نافذة وشاملة.

ومن كمال قدرة الله تعالى أنه إذا أراد خلق شيء فإنه يخلقه دفعة واحدة، لا يسبق ذلك إعداد ولا نظر ولا اختبار، ويُخلق بأسرع ما يكون، بمجرد توجه إرادته سبحانه إلى هذا الشيء ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي: وما شأننا في الخلق والإيجاد لشيء إذا أردناه إلا ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ مرة واحدة، فإذا هو كائن موجود كلمح البصر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ولا يتأخر طرفة عين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وكلمة ﴿كُنْ﴾ تعني: أن الله تعالى إذا توجهت إرادته إلى فعل شيء خلقه مباشرة، ولا يتوقف هذا الخلق على سبب ولا على قول أو مقدمات، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وفي الآية تحذير من مجيء العذاب فجأة عند قيام الساعة بغتة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٥].

فعلى المرء أن يعد العدة، ويحاسب نفسه قبل يوم الحساب، والتعبير بلفظ ﴿وَاحِدَةً﴾ لإفادة أن ما يريد الله تعالى يوجد في أسرع وقت، بمقدار كلمة واحدة لا زيادة عليها.

أما خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، فإن خلقهما ينطوي على مخلوقات أخرى لا حصر لها، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَدَنِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] وكل خلق منها يحصل بكلمة كن فيكون كلمح البصر، فخلق السموات بكلمة كن، وخلق الأرض بكلمة كن، وخلق الأقوات بكلمة كن، وهكذا.

والله تعالى قادر على خلقها جميعاً مرة واحدة، ولكنه جلَّ شأنه له حكمة في هذا؛ ليعلمنا النظام والتأني في الأمور والتثبت فيها.

## هَلَاكُ الْأُمَمِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ﴾ (٥١)

ثم استدل سبحانه على نفاذ قدرته في خلقه وسرعتها، المتمثلة في هلاك الأمم السابقة،

فقد استمر قوم نوح في شركهم حتى أخذهم الطوفان بغتة، واستمر قوم عاد وقوم ثمود غير مصدقين بحلول العذاب بهم حتى أتاهم العذاب فجأة، واقتفى فرعون وجنده أثر موسى في البحر وهم واثقون بأنهم مُدْرِكُوهُ، متمكنون من إحكام قبضتهم عليه، فانطبق البحر عليهم، وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أتباعكم وأمثالكم في الكفر من الأمم الماضية، ونُهِّلِكُمْ كما أهلكناهم، فلستم بأوفر منهم عددًا ولا عتادًا ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ هل من متأمل متعظ يقي نفسه من مغبة ما وقع فيه غيرهم؟

قال تعالى: ﴿وَجَلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلٍ﴾ [سبأ: ٥٤] وكما أهلكنا أشياعكم نهلككم أيها المكذبون. قال تعالى:

٥٢، ٥٣- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾

لقد أهلكنا أمثالكم في الكفر وهم في الدنيا، وهيانا لهم عذاب الآخرة، فكتب في صحائف الأعمال كل ما فعلوه من الكفر وفروعه ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: إن كل ما فعله الأشياع الماضون من خير أو شر مكتوب ومسجل ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ لدى الحفظة، فهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكل قول أو فعل حاضر أمامهم في صحف أعمالهم، حين ينشر لهم الكتاب، ويقال لكل إنسان: اقرأ كتابك، ويومئذ تجد كل نفس ما عملته من خير أو شر حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

فالمراد بالزبر: صحف الأعمال، والمراد بلفظ: ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ اللوح المحفوظ.

أي: إن كل صغيرة وكبيرة من الأعمال والأقوال مسطر في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، وسيجزون به.

عن عائشة ؓ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبًا»<sup>(١)</sup>.

(١) ابن ماجه برقم (٤٢٤٣) و«المسند» (٧٠/٦، ١٥١) برقم (٢٤٤١٥، ٢٥١٧٧) وإسناده قوي كما قال محققوه، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/٤١٦) وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٢٨٣/١١) وأخرجه الدارمي (٢٧٢٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٠٦) وابن حبان (٥٥٦٨) والطبراني في (الأوسط) (٣٧٨٨، ٢٣٩٨).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].  
وقال سبحانه: ﴿.. وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا نَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالأمر التي يستهين بها العبد ويستصغرها، فيرتكبها ولا يهتم بها، هو مؤاخذ بها، وإن استمر عليها فهي كبيرة بالنسبة له، وهذا كله كائن في علم الله تعالى، وهو الذي يُجازي عليه يوم الحساب والجزاء.

وهكذا فإن الله تعالى عَلم جميع الأشياء، وسَطَرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا حقيقة القضاء والقدر.

### مَصِيرُ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ

٥٤، ٥٥ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾

ولما ذكر جلَّ شأنه أن المجرمين في ضلال وسعر، بيَّن هنا أن المتقين في نعيم الجنات والأنهار التي تجري تحت قصورها وأشجارها، فهم يوم القيامة في بساتين عظيمة، وأنهار واسعة، وشراب متنوع، فإن فيها أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، وفيها أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمنازل والحدور العين..

فالمراد بقوله تعالى ﴿وَنَهَرٍ﴾: الأنهار، وسعة الأرزاق، وحُسن المنازل والإقامة.

وهؤلاء المتقون الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله تعالى يكونون يوم القيامة في استقرار وأمن تام، وفي إقامة مطمئنة، ومجلس حق لا لغو فيه، ولا باطل ولا إثم، إنهم ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان مَرَضِيٍّ، ومقام كريم حسن، وهو المقعد الذي صدقهم الله وعده، وهذا المكان في منزلة شريفة عالية، فهو ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ﴾ أي: عند رب عظيم، جليل القدر، رفيع الشأن، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.



قال جعفر الصادق: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق<sup>(١)</sup>.  
وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا»<sup>(٢)</sup>.  
ومن دعاء خليل الرحمن لنفسه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء].

تم تفسير (سورة القمر) والله الحمد والمنة.



(١) «تفسير الخازن» (٤/٢٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٢٧) و«سنن النسائي» (٢٢١/٨) ورقمه في «صحيح سنن النسائي» (٤٩٧٣).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ (٥٥)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الرحمن) هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول على القول بأنها مكية، وهو الأرجح، فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (١٣) فقيل: إنها مدنية، والأصح أنها مكية كبقية السورة، بل إن السورة من أوائل ما نزل من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يَضدع بما يؤمر، والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَإِيَّاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

وقيل: إن سورة الرحمن مدنية، وعلى هذا فهي الثامنة والتسعون في ترتيب النزول، كما قال الجعبري، ويكون نزولها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، فهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية.

وعدد آياتها عند أهل الشام وأهل الكوفة ثمان وسبعون آية (٢).

وهي ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وست مئة وستة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الرحمن، وهي أول كلمة فيها، وقيل: إنها تسمى أيضاً: عروس القرآن، ومن قال بهذا اعتمد على حديث ضعيف أخرجه البيهقي عن علي رضي الله

(١) «المسند» (٣٤٩/٦) (٢٦٩٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعف إسناده محققو المسند (٥١٧/٤٤) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣١).

(٢) وعدّها أهل مكة والمدينة سبعاً وسبعين، وأهل البصرة ستاً وسبعين آية.

عنه، وفيه: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»<sup>(١)</sup>.

### أسباب النزول:

أ - وورد في سبب نزولها قول المشركين الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ب - وقيل: إنها نزلت في صلح القضية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في شروط صلح الحديبية.

ج - وقيل أيضًا: إن سبب نزولها قول المشركين ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ﴾ [النحل: ١٠٣] فردَّ الله تعالى عليهم بأن الرحمن هو الذي علم النبي ﷺ القرآن:

### في فضل سورة الرحمن:

١- وفي الحديث: أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، ومزَّ نفر من الجن، فأمنوا به.

٢- وعن قاسم بن عاصم المنقري، أنه قال للنبي ﷺ: أتُل عليَّ ما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثًا، فقال: إن له لحلاوة<sup>(٢)</sup>.

٣- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «ما لي أراكم سكوتًا؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كلما أتيت على قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا كَذَّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف، لضعف علي بن الحسين بن جعفر، وأحمد بن الحسن بن علي بن الحسين، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٢) من «تفسير القرطبي» للسورة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٩١) وصححه الحاكم (٢٧٣/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢٣٢/٢) وفي «الشعب» برقم (٢٢٦٤) ورجاله ثقات، والطبري (٧٢/٢٧) وغيرهم، وقال الترمذي عنه: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل، يُنظر: «التهذيب» (٣٤٩/٣) وأخرجه أبو الشيخ (١١١٨) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٤) وأخرج البزار في «كشف الأستار» (٢٢٦٩) نحوه عن عبد الله بن عمر، وكذا الدارقطني والخطيب في تاريخه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٠١/١٤).

٤- وروى عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يُسمعهم إياه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ ۝عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ثم تَمَادَى رافعاً بها صوته، وقريش في أُنْدَيْتِهَا، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟! قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه، وفي هذا دليل على أن السورة مكية<sup>(١)</sup>.

٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهدأ كَهْدِ الشَّعْر؟ لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت و (ن) في ركعة، و عَمَّ والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة<sup>(٢)</sup>.

٦- وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود أيضاً أن رجلاً قرأ عليه سورة الرحمن بوجه من وجوه القراءات، فأنكر عليه وقال له: من أقرأك هكذا؟ قال: رسول الله، فذهبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأقرَّ كلاً منهما على قراءته، وتغيَّر وجهه صلى الله عليه وسلم حين سمع الخلاف بينهما، فأمر علياً فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عَلَّمَ. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفاً - أي: قراءة - لا يقرأ بها صاحبه<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/١٥١).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٢٤٤) قال الألباني: صحيح دون سرد السور، وهو في الصحيحين، وقال أبوداود: هذا من تأليف ابن مسعود، وأخرجه البيهقي (٦٠/٢) وقد جاء مختصراً في «المسند» (٤١٢/١) عن زَرٍّ: أن رجلاً قال لابن مسعود... الحديث.

(٣) انظر هذا المعنى في: «صحيح ابن حبان» (٧٤٧) وحسنه محققه، وأصل الحديث في البخاري بدون ذكر اسم السورة، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كلاهما محسن، البخاري (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

## آية الآلاء:

وقد ذُكرت آية ﴿فَإِيَّاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، في كل مرة لها معنى يختلف عن غيره، حيث يراد بالآلاء فيها: النعمة التي ذُكرت قبلها، وهي تختلف في كل آية عن الأخرى.

ومعنى ذلك: أن في السورة إحدى وثلاثين نعمة أنعم الله بها على الإنس والجن. وأول آية من ﴿فَإِيَّاءِ﴾ ذُكر قبلها اثنتا عشرة آية، وهي تُذكر بين الصفة والموصوف. قال الزمخشري: أراد الله تعالى أن يقدم في عدد آلائه أسبق شيء، وأهم شيء في آلاء الله: أصناف نعمه، وقد قَدِّمت السورة نعمة الدين، وبدأت بأعلى مراتبه، وهي نعمة القرآن وتعليمه، وأخرت ذُكر خلق الإنسان عن ذُكر القرآن، ثم ذُكرت الإنسان، وبيّنت ما تميّز به عن سائر الكائنات من أنواع البيان<sup>(١)</sup>.

وتبع ذلك التنويه بالنبي ﷺ، وبيان أن الله تعالى هو الذي علمه القرآن، ردًا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وقولهم: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو أنه سحر، أو أنه كلام كاهن أو شاعر.

ولأن القرآن الكريم هو المنة الكبرى التي امتنَّ الله بها على الإنسان، فقد تقدم ذكره على خلق الإنسان.

ثم استعرضت السورة صفحات الوجود الناطقة بآلاء الله وآثار قدرته، ومنها: الشمس، والقمر، والنجم، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عظيم المخلوقات، وخلق الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحبٍ ورمان وريحان، وأنواع الزروع والثمار، والجن والإنس، والمشرقين والمغربيين، والميزان، والبحرين والبرزخ الحاجز بينهما، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما، ثم يأتي مشهد الفناء للخلائق، يقابله الوجود المطلق لوجه الله الكريم.

(١) «تفسير الكشاف» بتصرف (٤/٤٣).

وفي يوم القيامة الناس فريقان، حيث: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ ويقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾.

أما الفريق الذي خاف هذا الموقف، فمنهم السابقون المقربون، وهؤلاء أعد الله لهم جنتين من الدرجة الأولى.

ومنهم أهل اليمين من عامة المؤمنين، وقد أعد الله لهم جنتين من الدرجة الثانية.

وللجنات الأربع مواصفات ومقاييس تعرف بأدنى تأمل في الآيات.

فمثلاً: يقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٤٤﴾ للسابقين بـ ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ ﴿٤٥﴾ لأهل اليمين.

فالعين التي تجري ليست كالعين التي تضخ أو تنبع.

ويقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَكْثَرُ زَوْجَانِ﴾ ﴿٤٦﴾ للسابقين بـ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ ﴿٤٧﴾ لأهل

اليمين، فالأولى أعم وأشمل.

ويقابل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ لأهل اليمين بـ ﴿فِيهِنَّ فَصْرَاتٌ أَلْطَفُ﴾ ﴿٤٩﴾ للسابقين،

فالمقصورات غير القاصرات، كما ترى في الدنيا امرأة عفيفة أو محجبة باختيارها من

تلقاء نفسها، وأخرى مرغمة على ذلك، وهذا من باب التشبيه، وإلا فليست الحور العين

مظنة للشبهات، كنساء الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: عن الخلق والإبداع، وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة والعشرين منها،

وفيه خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير الكون له برًا وبحرًا وجوًا وكواكب وأفلاكًا.

والإنسان مكلف بإقامة العدل والميزان، ومستحق للثواب والعقاب.

الثاني: عن الفناء والبعث والجزاء المعد للمجرمين في الآخرة، وذلك من الآية

السادسة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين، وفيه فناء العالم، وإعادة الخلق بعد

فناؤه، ومظاهر فناء العالم، ثم أحوال الناس في المحشر، من يُسأل منهم عن ذنبه، ومن

لا يُسأل عنه، بل يؤخذ من ناصيته وقدميه ويُقذف به في جهنم، فيلقى فيها العذاب ألوانًا.

والثالث: عن جَنَّتِي السابقين المقربين عند ربهم، وذلك من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الحادية والستين، وفيه وصف لنعيم كَلِّ مَنْ خاف مقام ربه، وصف يشرح الصدور، وتقرُّ به العيون، لأصحاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.

والرابع: عن جَنَّتِي أهل اليمين من عامة المؤمنين، وذلك من الآية الثانية والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، وفيه وصف لنعيم جمهور أهل الإيمان، وما أعده الله لهم من الخُضرة، وعيون المياه، والفاكهة، والخيرات الحسان، والرفارف الخضر.

وخُتِمَت السورة بتمجيد الله تعالى، والثناء عليه بما أنعم على عباده من مختلف النعم، وفيه تناسق مع بدء السورة في أروع صور البيان.

\*\*\*

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

**الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ النِّعَمِ: عَشْرٌ مِنْ مِثْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ**

١ - ٥ - ﴿الرَّحْمَنُ﴾<sup>(١)</sup> عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ<sup>(٢)</sup> ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾  
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾<sup>(٣)</sup>.

في الخمس والعشرين آية الأولى من سورة الرحمن، ذكر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة نعمة أنعم بها على خلقه في مجموعتين من الآيات، ذكر في المجموعة الأولى منها، عشر نعم أو منن، في الثلاث عشرة آية الأولى، وذكر في المجموعة الثانية خمساً أخرى في الآيات العشر التي تليها.

ومجمل هذه النعم العشر في المجموعة الأولى، هي: تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفع السماء، ووضع الميزان، ووضع الأرض للخلق وما فيها من: فاكهة ونخل، ورمان وحب وريحان، وذلك أنه:

(أ) لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال المشركون: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ فأنكروه، وقالوا: لا نعرف الرحمن، فافتتح الله تعالى هذه السورة بما أنكره المكذبون، وهو اسم: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وفي هذا دليل على أن سورة الرحمن نزلت بعد سورة الفرقان.

(ب) ولما قال أهل مكة عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أنزل الله تعالى يبيِّن أن الذي علَّم محمداً القرآن، هو رب العالمين ﴿الرَّحْمَنُ﴾<sup>(١)</sup> عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾. والرحمن اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعدل اسم الجلالة ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

(١) عدَّ الشامي والكوفي ﴿الرَّحْمَنُ﴾ آية وتركها غيرهما.

(٢) لم يعد المدني الأول والمدني الأخير ﴿الْإِنْسَانَ﴾ آية، وعداها غيرهما.

(٣) قرأ ابن كثير بتقل حركة الهمزة إلى ما قبلها في لفظ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها.



فبدءُ السورة باسم الله العظيم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يقع موقع الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتعريض بدم الذين أخطؤوا، فأنكروا القرآن الكريم، أو أنكروا اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وافتتاح السورة باسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾، دون غيره من أسماء الله الحسنى، فيه جمع بين الرذيلين على ما سبق ذكره من إنكار المعارضين لاسم الرحمن، وقول بعضهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وبالإضافة إلى ذلك، ففيه تشويق إلى الخبر الذي يأتي بعده، فالمنكرون لاسم الرحمن، والمؤمنون به، يترقبون ما سيوصف به بعد.

وقد جاء الإخبار عن الرحمن سبحانه، بعشرة أخبار أومن، جاءت في الآيات تباعاً: الأربعة الأولى جاءت متوالية بدون عطف، والستة التالية جاءت معطوفة بالواو، وكلها دالة على تصرفات الله تعالى في خلقه وإبداعه لهذا الكون، ليُعلم المكذبون أن ما ينكرونه وهو اسم: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو نفسه اسم الجلالة ﴿الله﴾ وأن المسمى واحد.

واسم الرحمن: يدل على سعة الرحمة، وعموم الإحسان، وجزيل الثواب، وسعة الفضل، وبهذا تنتهي الآية ليرتقب القارئ والمستمع الخبر العظيم الذي تخفق له القلوب، وهو (تعليم القرآن) وبعده أخبار كثيرة، كلها نعم يمتنُّ الله تعالى بها على خلقه، ويحثهم على شكره، وينبههم على تقصيرهم في حقه تعالى.

#### المنة الأولى: نعمة تعليم القرآن:

أول نعمة للرحمن على الإنسان من النعم الدينية والدينية والأخروية، أنه سبحانه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علّم عباده ألفاظ القرآن ومعانيه، ويسرها عليهم، وهو أعظم منة على الإنسان، قد اشتمل على خيرى الدنيا والآخرة.

وهكذا: قدّم الله تعالى في الذكر: أعظم نعمة أنعم بها على خلقه، وأجلّها قدرًا، وأكثرها نفعًا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائداً، وهي نعمة تعليمهم القرآن؛ فإن فيه مدار السعادة في الدارين.

أي: أن الله تعالى لم يترك البشر دون هداية تقودهم إلى رضوانه تعالى، فكان هذا القرآن العظيم جامعًا لِمَا أُودِعَ في صحف الأنبياء الأولين، ومتضمنًا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة، فهو النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة، وعلى الثقلين: الإنس والجن، وجاء ذلك في مفتح سورة الآلاء والنعمة.

وهو نعمة عظيمة على كل من درّسه وفقّه الناس فيه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»<sup>(١)</sup>؛ لأنه يخلف الأنبياء في تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية، ولذلك فإن أبا عبد الرحمن السلمي قال: فذاك الذي أقعدني هذا المقعد، وقد ورد عنه أنه قال: (صُمْتُ ثمانين رمضان) ومات على الراجح سنة خمس وثمانين، عن تسعين سنة، وقد جلس ﷺ للإقراء أكثر من اثنتين وسبعين سنة.

فالرحمن هو الذي علّم محمدًا ﷺ القرآن، وفي هذا تبكيت لمن زعم أن محمدًا ﷺ علّمه بشر.

والرحمن هو الذي علّم الإنسان القرآن، ويسّر له حفظه وتلاوته، وفهم معانيه. والقرآن كلام الله تعالى المعجز، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبّد بتلاوته، المتحدّى بأقصر سورة منه.

وقد ذُكر لفظ القرآن في الكتاب العزيز في أربعة وخمسين موضعًا، لم يصرح في واحد منها أنه مخلوق.

ويتجلّى ذلك واضحًا في أن القرآن الكريم ذكر لفظ الإنسان في ثمانية وعشرين موضعًا كلها تنص على خلقه، ومن ذلك ما جاء في سورة الرحمن، فقد قرّنتِ السورة بين القرآن والإنسان، ونصّت على أن الرحمن سبحانه علّم القرآن وخلق الإنسان.

(١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ في البخاري (٥٠٢٨) وأبو داود (١٤٥٢) وابن ماجه (٢١١) و«المسند»

(٤١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٨٢).

## المنة الثانية: خلق الإنسان:

كما جاء في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي من العدم، وجعله كامل الأعضاء، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وميزه على سائر الحيوانات، فمن نعم الله العظيمة أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، خلقه سبحانه سمياً بصيراً ناطقاً، في أجمل صورة، وكرّمه على سائر المخلوقات، فتميّز على الأجناس الأخرى بالنطق والفهم والإفصاح عما يريد، وكان مستعداً لتلقي العلوم، وعبادة الله وتوحيده، والخلافة في أرضه، فعلمه بيان الدنيا والآخرة، وبيّن له الحلال والحرام، ليحتج بها عليه، فحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال.

وخلق الله تعالى للإنسان قضية لم يُنازع فيها أحد، ولكن لما كان بعض الناس يتوجه بعبادته لغير الله تعالى، فقد ذكرها الله تعالى تعديداً لنعمه تعالى عليهم، وللدلالة على أنه تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

وفي خلق الإنسان تشريف له بإخراجه من غياهب العدم إلى حيّز الوجود. وقدّم خلقه على خلق السموات والأرض؛ لأنه المعني بتعليم القرآن.

## المنة الثالثة: نعمة النطق والفصاحة

أي: إنه سبحانه جعل الإنسان مخلوقاً ناطقاً، فقد ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: إن الله تعالى فضّل الإنسان بنعمة العلم والإبانة والإفصاح عما في نفسه وضميره، تمييزاً له عن الحيوان والجماد، فألهمه النطق، وعلمه الخط، وميّزه عن سائر الحيوانات، وهو بهذا يفيد ويستفيد، وهذا من أجلّ النعم، وقد يُعرب الإنسان عما في نفسه عن طريق الإشارة أو الإيماء، أو لمح النظر، وهذا أيضاً من مميزات الإنسان، وإن كان دون النطق.

ومعنى تعليم الإنسان البيان: أن الله تعالى خلق فيه الاستعداد للعلم، وألهمه وسائل التعرف، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ومن ذلك معرفة التكاليف الشرعية، والعلوم الدينية والدينية، وخصائص اللغة

وآدابها، فمن خصائص الجنس البشري: نعمة البيان، ونقل تعاليم الإسلام ومحاسنه إلى الآخرين بمختلف لغات العالم.

وفي هذا تبكيت للإنسان على ما فيه من عدم شكر الله تعالى على نعمه، حيث صرف كثير من الناس عبادتهم لغير الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان ليحيط علمًا بوحيه وكتبه، ومن ثم لعبادته وتوحيده.

#### المنة الرابعة: أنه سبحانه خلق الشمس والقمر لنفع الإنسان:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: ومن الدلائل على تفرد الله تعالى بالخلق، وامتنانه على خلقه بالنعمة، أنه تعالى خلق الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحسبان دقيق، وتقدير مقدر، وأنهما يجريان متعاقبين في بروجهما ومنازلهما بحساب متقن معلوم، لا يختلف ولا يضطرب، رحمة بالعباد وعناية بهم ليقوم بذلك مصالحهم.

وبدورانهما يعرفُ الناس السنين والشهور والأيام ﴿لِنَعْلَمَوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

ويعرفون مواعيد الصلاة والصيام والزكاة والحج ﴿فَلِهي مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّتِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر، لم يذُر أحد كيف يحسب، ولولاها ما عرف الإنسان أوقات العبادة، ولا الآجال، ولا وقائع الدهر، فالكون محكوم بشنن ضابطة، والكواكب لا تتجول في الفضاء كما يحلو لها، بل لها مسار مرسوم، وسرعة محدودة، وعليها إشراف دقيق!

والشمس ليست أكبر أجرام السماء، ولكنها النجم الأهم بالنسبة لسكان الأرض، فهم يعيشون على ضوءها وحرارتها وجاذبيتها.

والقمر تابع للأرض، وله أثر قوي في حركة المدّ والجزر في البحار. يقول سيد قطب رحمه الله: إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين مليوناً ونصف المليون ميل، ولو كانت أقرب من ذلك بالنسبة لنا، لاحتقرت الأرض أو أنصهرت، وتحولت بخاراً يصعد في الفضاء!! ولو كانت أبعد من ذلك لتجمّد مَنْ في الأرض ومات، والذي يصل إلينا من حرارتها جزء من مليوني جزء من حرارتها، وهو القدر الذي يلائم حياتنا.

ولو كان القمر أكبر من حجمه لكان المدّ الذي يُحدثه في البحار كافياً لِعَمرِها بطوفان، يعم كل من عليها.

وجاذبية كلٍّ من الشمس والقمر للأرض لهما حساب دقيق في توازن وضعها، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه المجموعة الشمسية بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين، ولا يختل مدار نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة<sup>(١)</sup> فسبحان الخلاق العليم!

والله تعالى يَمُنُّ على عباده بما أودع في الشمس والقمر من منافع للناس، كتنظيم معاملاتهم، واستعدادهم للسعي عند تغيّر الأجواء، وتقلّب الأرزاق، وتفرد رب العالمين بتقدير الكون وتدبيره ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْيَلُّ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

واكتفى القرآن الكريم بذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب، كالجوزاء والشعري والثريا والأسد؛ لأن الشمس والقمر هما الباديان لأهل الأرض.

(١) «في ظلال القرآن» (٣٤٤٨/٦) بتصرف، وأقول: لا بأس ببيان ذلك إن لم يوجد في الكتاب وصحيح السنة، ما يعارضه، فإن الحكمة ضالة المؤمن ولو كان القائل غير مسلم، فإن وُجد ما يردّه رفضناه.

## الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ لِلرَّحْمَنِ عَلَى الْإِنْسَانِ: أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ النَّبَاتَ وَالشَّجَرَ

٦ - ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦)

وجاءت هذه المنة بعد النعم الأربع التي في أول السورة، معطوفة بالواو ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ والنعم الست التالية لا يراد بها التعريض بالمشركين ولا غيرهم، وإنما هي امتنان من الله تعالى على خلقه بذكر بعض النعم التي في الأرض، بعد ذكر بعض النعم التي في السماء.

والواسطة في ذلك هي لفظ: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ فهو لفظ مشترك يراد به نجم السماء، ويراد به نجم الأرض، وهو النبات والحشيش الذي لا ساق له، وشاهد الأول قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. قال مجاهد: هو النجم الذي في السماء<sup>(١)</sup>، وهو ظاهر اللفظ. و يفسر ابن عباس رضي الله عنهما النجم في هذه الآية بأنه: النبات الذي لا ساق له، وهو ما انبسط على وجه الأرض<sup>(٢)</sup> من النبات والحشيش؛ لأنه ينجم، أي: يظهر من الأرض بدون ساق.

والشجر: هو النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض، وينتفع بهما الإنسان والحيوان.

وتفسير النجم في الآية بهذا المعنى أنسب لازدواج الآيات، والنبات يناسب الشجر، ولا يناسب النجم السمائي.

وسجود النبات يكون بالتصاقه بالتراب، كالساجد على الأرض. وسجود الشجر يكون بطأطأته عند هبوب الرياح، ودُنُو أعضائه لمن يجني ثمره أو يقطف ورقه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَمْتَهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

(١) يُنظَر: الطبري (١٧٤/٢٢).

(٢) يُنظَر: الطبري (١٧٤/٢٢) وأبو الشيخ (١٢٢٢) والحاكم (٤٧٤/٢) وابن أبي حاتم وابن المنذر.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة، أو له ساق تمتد على الثرى، كلاهما خاضع لنظام محكم دقيق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. والنبات والشجر تعرف ربها وتسجد له وتطيعه وتخشاه، وتنقاد لما سخرها له من مصالح العباد ومنافعهم.

### الْمِنَّةُ السَّادِسَةُ: رَفْعُ السَّمَاءِ بِلاَ عَمَدٍ

٧ - ٨ - ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي والسماء خلقها ورفع سقفها بقدرته فوق المخلوقات الأرضية، وهو رفع بلا عمد، وأحكم بناءها، وأنتم ترونها بأعينكم، وأوجد فيها الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. وقال سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَدْتُمْ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَتْهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَازَيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ونعمة خلق السماء لنفع الإنسان لا تضاهيها نعمة!

المنة السابعة: إقامة العدل بين الناس:

ويقابل السماء: الأرض، التي وضع الله فيها العدل وأمر به، وشرعه لعباده في الأقوال والأفعال والحكم بين الناس.

وقد شاع بين الناس إطلاق لفظ الميزان على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمراد: أن الله تعالى أمر بالعدل، وجعله بين الناس لإقامة نظام الخلق وتحقيق العدل في الأرض.

وقوّن العدل برفع السماء، فيه تنويه به، ورفع لشأنه، بنسبته إلى العالم العلوي، ونزوله إلى الأرض لإقامة الحق والفضائل بين الناس.

وقد تكرر اقتران مقتضى العدل بخلق السماء، في كثير من الآيات تحت مسمى ﴿بِالْحَقِّ﴾ في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] فالحق: هو العدل والإنصاف، وهو ضد الباطل، ومن ذلك الأثر: «بالعدل قامت السموات والأرض»<sup>(١)</sup>.

وسمّي الميزان عدلاً لأنه آلة العدل.

وهو في الأصل: الآلة المعروفة التي يزن بها الناس الحبوب ونحوها، ونحن مكلفون بإقامة العدل بشكل عام، سواء في تبادل السلع أو في إعطاء كل ذي حق حقه من الناحية الإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومن ثمّ يرتبط الحق والعدل في الأرض، بالسماء التي ينزل منها وحي الله تعالى ومنهجه. وقد لا يقوم الناس بالعدل في الأرض، فيظهر الفساد فيها بسبب الظلم والفوضى في البر والبحر والجو ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١].

وقد يحدث ثقب في طبقة الأوزون - مثلاً - بسبب الطغيان والفساد، غير أن هذا الكون لن يضطرب في يد الخالق سبحانه، ولن يختل التوازن العام في قوانين المادة، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدئه وفنائه.

### الميزان حسي ومعنوي:

وكما سبق فإن الميزان في الآية يراد به: إقامة الحق والعدل بين الناس في الأحكام، ويدخل فيه الميزان المعروف، الذي توضع فيه الأشياء الموزونة ونحوها في البيع

(١) يُنظَر: فيض القدير (٢/ ٢٤٨).



والشراء، ويدخل فيه المكيال الذي تكال به السلع والمقادير، وكذا المساحات التي تضبط بها المجهولات.

كما يشمل الميزان: الخصومات والتزاعات التي تكون بين المخلوقات، ويقام به العدل بينهم، فهو ميزان حسي وميزان معنوي.

وقد أمرنا الله تعالى بالعدل فيهما؛ كي نجتنب الجور والطغيان بتجاوز الحد فيهما زيادة أو نقصاً، وهذا معنى ﴿أَلَا تَطَّغَوْنَ فِي الْمِيزَانِ﴾. أي أنزل الله تعالى الميزان لثلاث تجاوز الحد في الميزان، ومن الطغيان في الميزان: دَخُضُ الحق، وإضاعته واحتقار أصحابه، والاستخفاف بهم مهما كانت الأسباب، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد توعد الله سبحانه المطففين في الكيل والميزان، بالويل والعذاب الشديد، في مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

فلا تعتدوا، ولا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا. قال تعالى:

٩ - ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

ثم أكد سبحانه وتعالى ضرورة الالتزام بالعدل في جميع الأمور تأكيداً صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: حققوا العدل وأقيموا بينكم على أكمل وجه وأتمه، واجعلوه ملازماً لكم في جميع أموركم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والله تعالى يقيم العدل بين الناس يوم لقاؤه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأمر سبحانه بوفاء الموازين والمكاييل في المعاملات بين الناس، فقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا أَلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] أي: إذا وزنتم للناس أو كلتم لهم، ﴿وَلَا تَحْسُرُوا أَلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تُنقصوه ولا تجوزوا فيه، واحذروا مقت الله وغضبه. قال تعالى:

١٠، ١١ - ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ<sup>(١)</sup>﴾ فِيهَا فَكِّهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

المئة الثامنة: تسخير الأرض لجميع الخلق:

وهذا التسخير نعمة من ﴿الرَّحْمَنُ﴾ سبحانه، الوارد ذكره في أول السورة.

أي: إن الله تعالى مهّد الأرض وبسطها وجعلها موضوعة للناس على هذا النظام البديع ليستقر عليها الخلق، وينتفعوا بما على ظهرها، وقد أرساها بالجبال لئلا تميد بهم ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾.

ولأن الإنسان يألف هذه الأرض فيعيش فوقها مستقرًا، ويصبح ويُمسي، وهو يتقلّب في هذه النعمة، فإنه قد لا يشعر بها إلا عندما يحدث زلزال أو بُركان أو خسف في مكان من العالم، وأهل هذا المكان الذي يحدث فيه زلزال هم الذين يشعرون بنعمة الاستقرار فوق هذه الأرض.

فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وقد يسّر الله تعالى الحياة فوق هذه الأرض، وقدّر فيها أقواتها، مع أنها تدور بهم حول نفسها وحول الشمس، فهي تركز مع الشمس وتوابعها بسرعة مذهلة، والأنام لفظ يشمل الإنس والجن والحيوان.

المئة التاسعة: ثمرات الزروع والنخيل:

ومن نعم الله تعالى على خلقه، ما أوجده في الأرض من الأقوات والفواكه والروائح العطرية، ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿فَكِّهَةٌ﴾ وهي اسم لما يأكله الإنسان على وجه التلذذ والتفكّه، كالعنب والتفاح والتين والرمان ونحوها، وليس من باب القوت الضروري ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر فتخرج منه شيئاً فشيئاً ثم

(١) أسقط العدد المكي ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ فلم يعدّه آية، وعدّه الآخرون.

ينضح فيكون قوتاً يؤكل ويُدَّخر، ويتزوّد منه المقيم والمسافر.

والكِم - بكسر الكاف - هو وعاء كوز الطلع، وهو القنوة، الذي يكون فيه بذور الثمر قبل ظهوره وخروج البلح منه.

والكِم في النبات: كل ما له وعاء يلقفه ويستره، مثل كِم الزهرة، وكِم الثوم، وهكذا. وعطف النخل على الفاكهة لأهميته، فهو قوت وفاكهة، وهو يثمر أصنافاً من الفاكهة من: رُطَب وبُسْر وتمر، وله أطوار يكتمل فيها بدءاً من الطلع إلى التمر، حيث يُنتَفَع بكل شيء فيه، من ليف، وسَعَف، وجريد، وجدوع، وجُمَار، وثمر، وغير ذلك.

### الْمِنَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ الْحَبِّ وَالرِّيْحَانِ

١٢، ١٣ - ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَبَأْيِ ﴿١٢﴾ آءِ لَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

أي: وفي الأرض أنواع من الحبوب، كالحنطة والشعير والأرز والبقول والعدس، من كل ما هو غذاء للإنسان يُقْتَات ويُدَّخر.

وتشتمل الحبوب على غذاء الحيوان، من القشر الذي يكون الحبُّ بداخلها، وكذا الساق الذي يَبْيَسُ ويكون هشياً يَدَّاسُ ويُفْتَت، وهو التبن، والقش الذي تعصفه الرياح. فالعصف: هو التبن والقشر، قال تعالى: ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

قال ابن عباس: العصف: ورق الزرع إذا يبس، والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يُشَمُّ<sup>(٤)</sup>.

(١- ٣) قرأ ابن عامر بنصب الألفاظ الثلاثة (والحبُّ ذا العصف والريحان) على إضمار فعل قبل (والحب)، تقديره أخص، أو خلق، و(ذا) صفة (والريحان) معطوف عليه، وقرأ حمزة والكسائي برفع الأول والثاني عطفاً على (فاكهة) وجر (الريحان) عطفاً على العصف، وقرأ الباقون بالرفع في الثلاثة عطفاً على (فاكهة)، و(ذو) صفة (والحب).

(٤) قرأ الأصهباني عن ورش بإبدال همزة (فبأي) ياء، وصلاً ووقفاً في جميع السورة، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بتحقيقها مفتوحة.

(٥) «تفسير الطبري» (٢٢/١٨٣).

ويخرج من الأرض كذلك كل ما له رائحة زكية، من الأزهار والرياحين والورد والياسمين، وهكذا، يمن الله على عبادة بأنواع الروائح الطيبة، وهي من الكماليات ومتع الحياة الزائدة بعد أن منّ عليهم بكل ما هو ضروري من القوت وما يليه في الأهمية من الفواكه التي تؤكل تفكهاً وتلذذاً، فهذه ثلاثة أنواع من النعم: القوت، والفاكهة، والروائح الزكية قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وإلى هنا ينتهي هذا المقطع من تعداد عشرة أنعم من نعم الله تعالى وآلائه، جاء ذكرها في أول السورة، وهي:

تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان، ورفع السماء بلا عمد، ووضع الميزان، ووضع الأرض للأنام، وما فيها من فاكهة ونخل ورطب وحب ورزحان.

### آية الفصل بين كل نعمتين، ذُكرت إحدى وثلاثين مرة في السورة:

ثم يخاطب الله تعالى الجن والإنس؛ ليسجل عليهم النعم السابقة في هذا الكون، ويُشهدهم عليها، وخَصَّ الجن والإنس بالذكر؛ لأنهم المكلفون بعبادة الله تعالى في الأرض ﴿فَإِنِّي آءَاءٌ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ فبأي نعمة من نعم الله الدينية والدينية -يا معشر الجن والإنس- تكذبان؟ ومن نعمه تعالى تسخير الأرض، وخلق ما فيها من زرع وفاكهة ونخل وحب وريحان... الخ، فالآلاء هي النعم.

وما أحسن جواب الجن، حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فكلما مرَّ بهذه الآية قالوا: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله تعالى وآلائه أن يُقرَّ بها، ويشكر الله ويحمده عليها، ويقوم بحق الله عليه فيها من وجوب توحيد الله تعالى وعبادته.

ومسؤولية الجن كمسؤولية الإنس مقررة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَسُذِرُوا نَكَرَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾  
[الأنعام: ١٣٠].

وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في السورة تقريرًا للنعمة، وتأكيدًا للتذكير بها، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه وهو ينكر هذا الإحسان: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ وهكذا كما يركز رجال الإعلام على أمر هام، فيكروره ويعيدوه ليل نهار، حتى يصل خبره إلى الناس جميعاً، والله المثل الأعلى.

وجاء ذكر هذه الآية، ثماني مرات عقب آيات فيها تعداد عجائب الخلق، مبدئه ومنتهاه. ثم ذُكرت سبع مرات، عقب آيات ذُكرت فيها النار وشدائدها، وكان ذلك بعدد أبواب جهنم والعياذ بالله.

ثم ذُكرت ثماني مرات، في وصف الجنتين وأهلها من السابقين المقربين، وكان ذلك بعدد أبواب الجنة، اللهم اجعلنا من أهلها، ووقفنا للعمل الذي يؤهلنا لها. كما ذُكرت ثماني مرات في الجنتين بعدهما لأهل اليمين، وهما دون الجنتين قبلهما. فَمَنْ عمل بمقتضى الثماني الأولى، استحق الثماني الأخرى، ووقاه الله السبع الخاصة بجهنم، بفضل الله تعالى وكرمه<sup>(١)</sup>.

وقد جاءت هذه الآية للفصل بين كل نعمتين، لينبههم الله تعالى عليها، ويقررهم بها؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته تعالى من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، والسماء والأرض، وغير ذلك مما أنعم الله به على خلقه.

وقد خاطب الله تعالى الجن والإنس معاً في السورة، تقريرًا وتذكيرًا بنعم الله تعالى التي لا يستطيع أحد أن يجحدها.

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٢٥٤/٤).

## الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ: خَمْسٌ مِّنْ أُخْرَىٰ مِّنْ نَّعَمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ

١٤- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ<sup>(١)</sup> كَالْفَخَّارِ﴾.

ثم تأتي مجموعة ثانية من النعم، تشتمل على الأصل الذي أُخْلِقَ منه الإنسان والجن، وتبيّن أن خالقهما هو خالق المشرق والمغرب، وخالق البحار والأنهار، وما يخرج منهما وما يجري فيهما، فهذه خمسة مخلوقات: الإنسان، والجن، والمشرق، والمغرب، والبحار.

### الْمِنَّةُ الْأُولَى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ

وتبدأ الآيات بالإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي: خلق الله آدم - وهو الإنسان الأول - من طين مبلول ثم جف، فصار يابساً كالفخار الذي طبخ على النار، يُسْمَعُ له رنين إذا نُقِرَ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

أي: من طين أسود متغير.

قال مجاهد: الصلصال: التراب اليابس الذي يُسْمَعُ له صلصلة، فهو كالفخار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفافات: ١١] أي يلتصق باليد.

وفي قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]

ولا تنافي بينها إنما هو تدرج في الخلق.

وذلك لأن الله تعالى أخذ قبضة من تراب الأرض، فَعَجَنَ بالماء، فصار طيناً لازباً يلتصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً، أي: طيناً أسوداً ممتناً، ثم صوّره كما تُصَوَّرُ الأواني، ثم أَيْبَسَهُ حتى صار في غاية الصلابة كالفخار، إذا نُقِرَ كان له صوت.

فأطوار خلق آدم أربعة: التراب، الطين، صلصال من حمأ مسنون، صلصال كالفخار.

والمذكور هنا: هو آخر الأطوار، فقد خُلِقَتْ ذرية آدم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يكون عظماً، ثم يُكْسَى العظم باللحم، ثم ينفخ الله فيه من روحه، ثم يصير

(٢) غَلَطَ الأزرق عن ورش لام (صلصال) الأولى ورققها، والباقون بترقيقها قولاً واحداً.

بشراً سوياً، هذه هي النشأة الأولى.

وسيملاً الإنسان أرجاء الأرض، ثم يغلبهم الموت جميعاً، ثم يستيقظون للحساب والجزاء.

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على عناصر التراب الذي خلق منه، فهو يتكون من: الكربون، والكلور، والأكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والكالسيوم، والحديد، ... إلخ، وما أثبتته العلم يقبل الخطأ والصواب، والتعديل والتبديل، والقرآن معجز إعجازاً مطلقاً، سواء وافقه العلم أم خالفه<sup>(١)</sup>.

١٥، ١٦ - ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِيءُ آءَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

أي وخلق الله إبليس - وهو أبو الجن - من لهب النار الصافي المختلط بعناصر أخرى كالدخان، لكن النار تغلب عليه، والمراد: لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه. قال مجاهد في معنى من ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾: هو اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم»<sup>(٣)</sup>. وقد فضل الله الإنسان على الجن، حيث أمر الجن بالسجود للإنسان، والإنسان هو المؤهل لعمران العالم، لكونه مخلوقاً من الطين، وخلق الجن من مارج من نار مسألة خارجة عن حدود العلم البشري، والمصدر الوحيد في ذلك هو الخبر الصادق عن رب العالمين، فهو أعلم بمن خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) «في ظلال القرآن» (٤/٣٤٥١).

(٢) الطبري (٢٢/١٩٦).

(٣) «المسند» (٦/١٦٨) (٤/٢٥١٩٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو مكرر برقم (٢٥٣٥٤) سنداً ومتناً، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٩٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات، وفي الشعب (١٤٣) و(٨١٨)، وعبد بن حميد (١٤٧٩) «المنتخب»، وعبد الرزاق (٢٠٩٠٤) وابن حبان (٦١٥٥).

والنار التي خلق منها الجان هي محل الخفة والطيش والشر والفساد، بخلاف الطين والتراب الذي خلق منه الإنسان فهو محل الثقل والرزانة والمنافع والتواضع. ثم ويخ الله المكذبين من الجن والإنس على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى، وعدم القيام بشكرها، ومن هذه النعم خلق الإنسان من نطفة، وخلق الجان من نار. قال ابن قتيبة: إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماء، وذكر خلقه بآلاء، ثم أتبع كل خلّة وضعها ونعمة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ لينبههم على النعم ويقررهم بها.

### الْمِنَّةُ الثَّانِيَّةُ: خَلْقُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ

١٧، ١٨ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

أي: وهو سبحانه رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيّرة، وكل ما غربت عليه، والكل مخلوق لله تعالى مربوب إليه، والكون كله تحت تدبيره وتصرفه. وقد جاء في القرآن الكريم إفراد المشرق والمغرب، وجاء تشيتهما، وجمعهما: ١. ففي إفرادهما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿١﴾﴾ [المزمل] والمراد بهذا: جهة الشروق، وجهة الغروب.

٢. والآية التي معنا جاءت بالتثنية، قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ والمراد: رب مشرقى الشمس في الصيف والشتاء، ومغربى الشمس في الصيف والشتاء. ٣. وجاء الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف، غير مَطْلَعِهَا في الشتاء وغير مَغْرِبِهَا في الشتاء<sup>(١)</sup>. والمعنى: أن للشمس ثلاث مئة وستون مشرقًا، بعدد أيام العام، وأن لكل يوم مشرقًا

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في «الدر المشور» (١١١/١٤).



معيناً تشرق منه الشمس، أي: رب جميع المشارق التي تشرق منها الشمس في كل يوم، على مدار العام، إذ لها في كل يوم مشرق تشرق منه، ولها أيضاً في كل يوم، مغرب تغرب فيه، بعدد أيام العام، ومشرق الشمس في الصيف هو غاية ارتفاعها، ومشرقها في الشتاء هو غاية انخفاضها، فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان من الجن والإنس - تكذبان؟ وقد خلق لكم ومن أجلكم المشرقين والمغربين لنفعمكم وفائدتكم.

### الْمِئَةُ الثَّلَاثَةُ: خَلَطُ الْمَاءِ الْعَذْبِ بِالْمَاءِ الْمَلْحِ وَلَا يُغَيِّرُ أَحَدُهُمَا طَعْمَ الْآخَرِ

١٩ - ٢١ - ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا لَآءَ رِيكًا تُكْذِبَانِ ﴿٢١﴾﴾

ومن عظيم قدرة الله تعالى: أنه خلط ماء البحر العذب بماء البحر المالح، فأرسلهما وجعلهما متجاورين يلتقيان ويختلطان ولا يمتزجان، مع أن أحدهما يصب في الآخر، والمياه غمرة كثيرة متدفقة، ومع هذا لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فيشرب الناس والحيوان والزرع والأشجار من الماء العذب، ويطيب الهواء، ويتولد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان من الماء المالح، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسلهما، وجعل كلاً منهما يمشي وفق ما يشاء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه ولا يأخذ منه شيئاً، ولا يتأثر به في لونه أو طعمه أو رائحته أو مذاقه، بل حجز سبحانه كلاً منهما عن الآخر بقدرته ولطفه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ومن ذلك التقاء ماء الفرات بالخليج الفارسي في شاطئ البصرة، أو التقاء البحر الأحمر ببحر العرب، وغير ذلك.

ومع التقاء البحرين واختلاط مائهما ببعض، فإن بين الماء المالح والعذب، فاصلاً، بحيث لا يُغَيِّرُ أحد البحرين طعم الآخر، وذلك بما أودع الله في كل منهما من خصائص

تمنع اختلاط أحدهما بالآخر، بحيث لا يفسد الماء الملح طعم الماء العذب ولا يغيّر طعمه، وهذا ثقل نوعي أودعه الله تعالى في كل من الماءين.

والبرزخ هنا تشبيهه بليغ، أي: بينهما مثل البرزخ، فلا يغلب أحد الماءين الآخر، فيفسد طعمه، وهذا يشمل البحار والمحيطات، ويشمل جميع الأنهار، ويجوز أن يكون البرزخ حاجزاً مادياً، فاصلاً بين الماء العذب والملح، ويكون المراد بذلك: بحرین معيّنين، هما: البحر الأحمر وبحر العرب، ويكون الفاصل بينهما باب المنذب<sup>(١)</sup>.

والماء العذب يُنتفع به في الشراب للإنسان والدواب والنبات، أما الماء الملح فإنه يُنتفع به في أشياء أخرى، كاستخراج الملح منه.

والماء الملح: ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية، والماء العذب: يمثل الربع، وجميع الأنهار تصب في البحار، ومستوى سطح البحار أعلى من مستوى سطح الأنهار، ومن ثم لا يبغى البحر على النهر الذي يُصب فيه، والبرزخ بينهما من صنع الله سبحانه.

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ومن هذه النعم وجود الماء العذب والماء الملح وعدم اختلاطهما بقدرة الله تعالى.

### الْمِنَةُ الرَّابِعَةُ: خُرُوجُ اللَّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ مِنَ الْبِحَارِ

٢٢، ٢٣ - ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَإِنَّ آءَ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٢٣﴾﴾

ويخرج من البحار: اللؤلؤ والمرجان، وهما من نعم الله على الإنسان.

واللؤلؤ: حيوان يهبط إلى أعماق البحر، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى إلى الصدفة، أفرز الحيوان مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد، وتكون اللؤلؤة على حسب حجم الذرة.

أما المرجان: فهو حيوان يعيش في البحار على عمق يتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر، وفتحة فمه في أعلى جسمه، محاطة بعدد من الزوائد، يستعملها في غذائه من

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢٤٤).

الأحياء الدقيقة، كبراغيث الماء، ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه، يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين.

وشجرة المرجان تكون ذات ساق سميكة، يبلغ طولها ثلاثين سنتيمتراً، وألوانها مختلفة: صفراء، وحمراء، وبرتقالية، وباهتة... ومن اللؤلؤ والمرجان يتخذ الحلي الذي تتحلى به النساء، وهو يخرج من البحار دون الأنهار<sup>(١)</sup>.

وقيل: إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحار والأنهار معاً وفقاً لظاهر الآية، ولأنهما لهما التقيا كانا كالشيء الواحد.

وقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الأنهار العذبة التي في ضواحي ويلز، واسكتلندا في ضواحي بريطانيا<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ<sup>(٣)</sup>.  
وقيل: إن اللؤلؤ صغار الدر، والمرجان كباره.

فبأي نعمة من نعم ربكما - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعم الله تعالى ما يخرج من البحرين كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

### الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ: سَيْرُ السُّفُنِ فِي الْبِحَارِ

٢٤، ٢٥ - ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ<sup>(٤)</sup> فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ<sup>(٥)</sup>﴾ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

(١) يُنظَرُ: «كتاب الله والعلم الحديث» عبد الرزاق نوفل ص ١٥٠ بتصرف.

(٢) «دائرة معارف الشعب» المصرية، العدد ٧٣ ص ٥٣٧.

(٣) الطبري (٢٠٨/٢٢) وابن أبي الدنيا (٨) وغيرهما.

(٤) وقف يعقوب على (الجوار) بالياء، والباقون بدونها.

(٥) كسر الشين من (المنشآت) حمزة وشعبة بخلف عنه، اسم فاعل، والباقون بالفتح، اسم مفعول، وهو الوجه الثاني لشعبة.

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى من نعم البحار، فبيّن أن السفن الضخمة التي تجري في البحر وتمخر فيه وتشقه بإذن الله لمنافع الناس، رافعة قلاعها وأشرعتها كالجبال العظيمة، هي من ملك الله تعالى، ومن نعمه على خلقه، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وتجاراتهم وغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة والضرورة، وقد حفظها الله بحفظه.

واللام من ﴿وَلَهُ﴾ للملك، أي: إن تسخير السفن وهي تسير في البحر بأمر الله تعالى هي من ملك الله وحده، ومن نعمه على خلقه.

والجوار: هي السفن، ومعنى كالأعلام، أي: كالجبال، فالسفن في البحر كالجبال في البر، ومعنى المنشآت: أي: إن السفن مرفوعة الشراع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنَّ يَسَاءَ مَسْكِنِ الرِّيحِ فَيَظَلُّنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴿ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

قال شيخ زادة: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، فبيّن تعالى بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم.

ثم بيّن بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ (١٥) أن النار أصل لمخلوق عجيب الشأن.

وبيّن بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا النَّوُورُ وَالْمَرَجَاتُ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر له قدر وقيمة. ثم ذكر سبحانه أن الهواء له تأثير عظيم في جزئي السفن المشابهة للجبال، فقال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) وخص السفن بالذكر؛ لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك حيث يقولون: لك الفلك ولك الملك.

وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِينِ فَلَمَّا بَجَّسْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٧) [العنكبوت: ٦٥].

(١) «حاشية شيخ زادة على البيضاوي» (٤٣٠/٣).

فبأي نعمة من نعم ربكما - يا معشر الجن والإنس - تكذبان؟ ومن نعمه تعالى هذا السفن التي تجري في البحار مرفوعة الشراع لنقل الإنسان والمتاع والأحمال الثقيلة.

## اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَ فَنَاءِ الْعَالَمِ

٢٦ - ٢٨ - ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد هذه النعم التي استعرضت صفحة الكون، تطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق، وكان آخرها جزى السفن في البحر بأمر الله تعالى، والإنسان وهو في البحر مُعَرَّضٌ لِلنَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ.

والنجاة: نعمة من الله تعالى على عباده، فإذا قَدَّرَ اللهُ لَهُمُ الْفَنَاءَ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ نَهَايَةُ أَعْمَارِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴿١﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وفي كلتا الحالتين يجب على العباد أن يستعدوا للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى، ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته، ولذلك فإن الآيات تطوي صفحة الخلق الفاني، والأشباح المتوارية، لتفرغ من كل حي، وتبرز المتفرد بالبقاء في عليائه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: كل من على وجه الأرض من الخلائق هالك سيموت، فلو كانت الدنيا تدوم لواحد لكان رسول الله حيًا وبقيا، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر]. فجميع الخلق من إنسان أو حيوان، أو جن، أو دواب، أو حشرات، وغيرها صائر إلى الزوال والفناء، وهذا تذكير بالموت وما بعده من بعث وحساب وجزاء.

قال القرطبي: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴿٨٨﴾﴾ [الفصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك.

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/١٦٥).

وبعد أن قضى الله تعالى على جميع الخلائق بالفناء، أثبت البقاء له وحده، وأثبت تفرده سبحانه بالجلال والدوام، فهو ذو العظمة والجود، والسلطان والكبرياء والفضل، والاستغناء المطلق، وهو الحي الذي لا يموت، وهو سبحانه المنعم على عباده بشتى النعم. والآية تُثبت صفة الوجه لله تعالى على نحو يليق بجلاله، دون تشبيه ولا تأويل، ولا تعطيل ولا تحريف، وليس هذا من باب التجسيم، وإنما هو إثبات لما أثبتته الله لنفسه، بالإضافة إلى أنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والمراد: أن ذاته تعالى هي الباقية، والمخاطب: هو النبي ﷺ أو هو كل إنسان وكل مخاطب، وهو سبحانه ذو العظمة والكبرياء وهو واسع الفضل والجود، فهو الذي يعظم ويبجل، فهو (ذو الجلال) وهو الذي يكرم خواص خلقه وأوليائه بأنواع الإكرام وواسع العطاء، فيحبهم وينيون إليه.

وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»<sup>(١)</sup> ومعنى «الظُّوا»: الزُّمُوا وداومُوا على هذا الدعاء.

وورد في حديث معاذ: أن النبي ﷺ مرَّ على رجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك فسل»<sup>(٢)</sup>.

قيل: هو اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب. والفناء نعمة؛ لأنه يُفضي بالمؤمنين إلى النعيم الدائم.

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه أبو يعلى (٤٤٥/٦) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٧) وأخرجه أحمد عن ربيعة بن عامر (١٧٥٩٦) بإسناد صحيح كما قال محققوه، وكذا النسائي في «السنن الكبرى» (٧٧١٦، ١١٥٦٣).

(٢) «تفسير النسفي» (٢١١/٤) بحاشية الخازن والحديث في «المسند» (١٧٧/٤)، (٢٢٠١٧) و(٢٢٠٥٦) وإسناده حسن (محققوه)، والنسائي في «الكبرى» (٦٥٦٣) وهو في الترمذي (٣٥٢٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. والبيهقي في الشعب (٩٠٤٦) والطبراني في الأوسط (٤٣٧) (١٥٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٥) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٠٦).

قال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب، ولذا أعقب الله الفناء لخلقه بقوله: ﴿فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبقاء وجه الله الكريم هو أساس النعم؛ لأن الحي الباقي هو الذي يخلق ويُدع، وهو الذي يبعث ويُدخل الجنة، ويُحاسب ويُجازي، فهو سبحانه مصدر النعم.

وفي الموت تسوية بين الخلائق جميعًا، فلا يبقى على وجه الأرض ولا في جو السماء ملك، ولا سلطان، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا تجرع كأس الموت، ولولا الموت ما عبزنا إلى دار الثواب والجزاء، وفي هذا نعمة عظيمة، فكيف تكذبان بهاتين النعمتين أيها الإنس والجن؟

### افْتَقَارُ الْخَلْقِ جَمِيعًا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ

٢٩، ٣٠ - ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٠﴾

وبما أن الناس تنقرض منهم أجيال، وتبقى أجيال، وكل باقٍ يحتاج إلى أسباب بقائه ومقومات حياته، وصلاح أحواله، فهو في حاجة إلى الذي لا يفنى ولا يحتاج إليهم، لأنه سبحانه الغني عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، وجميع من في هذا الكون محتاج إليه سبحانه، فالكل يسأله حاجته بالليل والنهار، يسألونه بلسان الحال ولسان المقال، ولا يستغنون عنه طرفة عين حتى الملائكة، فإنهم يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض، ويسألون ربهم الرضا عن عباده المؤمنين.

والبشر يسألون ربهم نعم الدنيا، ويسألونه النجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها.

﴿يَسْأَلُهُ﴾ ﴿كل﴾ ﴿من في السموات والأرض﴾ حاجاتهم، فلا غنى لأحد منهم عنه سبحانه،

الكل يسأله:

أهل السموات يسألونه المغفرة، ولا يسألونه الرزق.

وأهل الأرض يسألونه المغفرة، ويسألونه الثراء والصحة والرزق والعون، بلسان

الحال والمقال.

والله تعالى يقضي حاجات عباده كلها كلما سألوه، ولا يستغني عن سؤاله أهل الأرض ولا أهل السماء ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: كل لحظة، وكل دقيقة، وكل ساعة، هو سبحانه في شأن من شؤون خلقه، والشأن هو الشيء العظيم والحدث المهم، وما هو أدنى من الشأن الكبير أولى بتصريف الله تعالى له.

وفي كل وقت تتعلق قدرة الله تعالى بأمور يبرزها، ويتعلق أمره بالإيجاد والإعدام. قيل: إن هذه الآية نزلت ردًّا على اليهود حيث قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت<sup>(١)</sup>. قال المفسرون: من شأنه تعالى أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، ويُعزِّز قومًا ويذلُّ قومًا آخرين، ويشفى مريضًا ويُمرض صحيحًا، ويفكِّ عانيًا، ويفرِّج عن مكروب، ويجيب داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويغفر ذنبًا، وينقِّس كربًا، ويُغني محتاجًا، ويضُر ويُنفع، ويعطي ويمنع، يغني فقيرًا ويجبر كسيرًا، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين إلى ما لا يحصى من أفعاله تعالى وأحواله مع خلقه في أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فهي الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تختلط عليه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين.

قال الحسين بن الفضل في معنى الشأن: هو سوق المقادير إلى المواقيت، بمعنى: أن الله عزَّ وجلَّ كتب ما يكون في كل يوم، وقَدَّر ما هو كائن، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل، فيوجده في ذلك الوقت.

ولما سأله عبد الله بن طاهر قائلًا: قد أشكل عليَّ قوله هذا، وقد صح أن القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: إنها شؤون يُبديها لا شؤون يبتديها، وهذه الشؤون لا تخالف ما سطره القلم<sup>(٢)</sup>.

وهذا العطاء الإلهي يتعلق بكل رطب ويابس: الأسماك في بحارها، والديدان في مساربها، والحشرات في مخابئها، والوحوش في أوكارها، والطيور في أعشاشها، وكل

(١) «تفسير الخازن» بتصرف (٢١١/٤) والألوسي (١١١/٢٧) و«المحرر الوجيز» (٢٣٠/٥).



بيضة وكل فرخ، وكل جناح وكل ريشة، وكل خلية في جسم الحي، وكل سؤال يكون التوجه فيه إلى رب الأرض والسماء، وليس إلى نبي مرسل، ولا وليّ تقي، فماذا يملك الفاني للفاني؟ وماذا يملك المحتاج للمحتاج؟<sup>(١)</sup>.

سأل بعض الملوك وزيره عن معنى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فاستمهله إلى الغد، وذهب كئيبًا يفكر فيها، فقال له غلام أسود: يا مولاي، أخبرني عما أهمك، لعل الله يسهل لك على يدي، فأخبره، فقال: أنا أفسرها لك، قال له: أيها الملك: شأن الله تعالى أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيمًا، ويسقم سليمًا، ويتلى معافي، ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزًا، ويفقر غنيًا، ويغني فقيرًا، فقال الأمير: أحسنت، وخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي، هذا من شأن الله<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في معنى الآية: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويخفض آخرين»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبيد بن عمير قال: من شأنه أن يجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويفك عانيًا، ويشفي سقيمًا<sup>(٤)</sup>.

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السماء والأرض، يحيى حيًا، ويميت ميتًا، ويربي صغيرًا، ويفك أسيرًا، ويغني فقيرًا، وهو مردّد حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم،

(١) «في ظلال القرآن» (٧/٣٤٥٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٤/٢١١) بحاشية الخازن.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٠٢)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، لتقاظر الوزير - أحد الرواة - عن درجة الحفظ والإتقان «مصباح الزجاجة» (١/٨٨) وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/٤٠) برقم (١٦٧) و«في ظلال الجنة» (٣٠١) وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) وابن حبان (٦٨٩) والطبراني في «الأوسط» (٣١٤٠).

(٤) ابن أبي شيبة (١٣/٤٤٠) وابن جرير (٢٢/٢١٣) والبيهقي (١١٠٣).

وصريخُ الأَخيار<sup>(١)</sup>.

وتلبيةُ حاجات العباد، وإجابة أسئلتهم، وتدبير شؤونهم، من نعم الله تعالى على خلقه. وتدبير شؤون الخلق من أعظم نعم الله على الثقلين فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه الأرض والسماء، وعم لطفه جميع خلقه الكائنات، لا يمنعه معصية العاصين، ولا جهل الجاهلين، ولا استغناء المحتاجين، وهذه الشؤون والتدابير مقدرة في الأزل، ينفذها سبحانه في أوقاتها بمقتضى أوامره ونواهيه، وهي الأحكام التي قدرها الله على عباده في الحياة الدنيا، فإذا انتهت هذه الحياة، ونقل المكلفون من دار الإبتلاء والامتحان إلى دار الثواب والعقاب، نفذ الله فيهم أحكام الجزاء والعدل والفضل والإحسان، فبأي هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟

### لَا مَفْرَءَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

٣١، ٣٢ - ﴿سَنَفَعُ<sup>(٢)</sup> لَكُمْ أَيَّهُ<sup>(٣)</sup> الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي آءِآءُ رِيكُمَا تُكذِبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد الفراغ من أحوال الدنيا، يُذَكِّرنا الله تعالى بأحوال الآخرة، فيبين سبحانه أن الجن والإنس سيعرضون على رب العالمين ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيَّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ أي: سننظر في شؤونكم يوم القيامة - يا معشر الجن والإنس - فنحاسبكم ونجازيكم على كل ما قدمت أيديكم في الدنيا، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة.

والآية بمثابة التهديد والوعيد، ولذلك فإن الله تعالى بدأها بقوله: ﴿سَنَفَعُ﴾ أي: نتجرد لحسابكم، وننظر في أمركم، وليس معناها أن الله تعالى مشغول، وأنه سيتفرغ لهم

(١) الطبري (٢٢/٢١٢).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء في (سنفرغ) والفاعل ضمير يعود على اسم الجلالة، والباقون بتون العظمة على الالتفات.

(٣) رُسم لفظ (أيها) في المصحف بدون ألف هكذا (أيه) وقد قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلًا وإسكانها وقفًا، وضم الهاء لمناسبة ضم الياء، وقرأ الباقر بفتح الهاء وحذف الألف وصلًا، ووقف عليها بالألف بعد الهاء أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقر بحذف الألف وسكون الهاء.

يوم القيامة؛ لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، والتفرغ بعد الشغل من شأن الخلق، وهذا كما يقول إنسان لآخر يتهدده: سأفرغ لك، وأستعدُّ للانتقام منك.

والثقلان: هما الإنس والجن.

قال جعفر الصادق: سُمِّيَا كذلك لأنهما مُثْقَلَانِ بالذنوب.

وفي الحديث عن أبي الطفيل أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي أهلي بيتي»<sup>(١)</sup> فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما.

فبأي نعم ريكما تكذبان أيها الثقلان؟

## لَا يُمَكِّنُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٣، ٣٤ - ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا

تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾

وبعد أن توعد الله تعالى الجن والإنس بالحساب والجزاء في يوم الحشر والنشر، بين سبحانه وتعالى أن الخلق يوم القيامة في قبضته جل شأنه، وتحت سلطانه، بحيث لا يمكنهم الفرار أو الهرب من هذا الموقف العصيب، فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، ولا قدرة لأحد على الانفلات أو التخلص من ساحة العرض والحساب، فالكون كله ملك الله، فأين يذهبون؟ وأين يفرون؟ فأينما ذهبتم فأنتم في أرض الله وسمائه، وأنتم في قبضته، وتحت قدرته وتصرفه.

وفي يوم الحشر تشقق السماء وتكون أبواباً وطرقاً لنزول الملائكة، فتكون صفوفاً سبعة تحديق بالخلائق من كل جانب، فلا يستطيع أحد الذهاب إلا بأمر الله تعالى وإرادته قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة].

(١) السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني برقم (١٧٥٠) وفي المعجم الكبير للطبراني برقم (٤٩٨٠) من حديث زيد بن أرقم، وهو في المسند برقم (١٥٧٨، ٢١٦٥٤) بنحوه، وهو حديث صحيح بشواهده وأخرجه عبد بن حميد (٢٤٠)، وابن أبي عاصم (٧٥٤).

﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ العشر: العدد الكبير الذي يُعد بالعشرات والمئات والآلاف والملايين.

وقدّم الله تعالى في هذه الآية الجن على الإنس؛ لأنهم أقدر من الإنس على الهرب والفرار، وأقوى على ذلك.

فيأبها الثقلان: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فتجدون منفذاً أو مخرجاً أو مسلكاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه ﴿فَانْفُذُوا﴾ هذا ترويع وتخويف وتعجيز للضالين والمضلين من الجن والإنس، لِمَا ينتظرهم من الجزاء السيئ على أعمالهم السيئة.

وهذا الترويع لا يشمل المؤمنين الصالحين، المختلطين بغيرهم من أهل الضلال في ساحة العرض والحساب.

والنفوذ: هو الخروج والهرب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَأَمْرٌ أَتِي﴾ [القيامة]، وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

وهل المقصود من التحدي في الآية: الدنيا أم الآخرة؟ قيل: إنها تحكي حال قوم يحاولون الفرار من ساحة الحشر يوم القيامة:

١. قال الضحاك: وذلك أنه - عند قيام الساعة - يفر الناس في أقطار الأرض، والجن كذلك - يقرون - لِمَا يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض، فيرجعون من حيث جاؤوا، فيقال لهم حينئذ: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الآية.

٢. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ الفرار من الموت.

٣. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، المعنى: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا، فتعلموا علم السموات والأرض فانفذوا. والأقطار: الجهات<sup>(١)</sup>.

(١) هذه الأقوال الثلاثة من «تفسير ابن عطية» (٢٣٠/٥) بتصرف.

والنواحي الواسعة المترامية الأطراف.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤].

قلت قد يراد بالآية: محاولة الإنس والجن الفرار والهرب من ساحة العرض والحشر، وذلك عند البعث والقيام من القبور، كما قال الضحاك.

وعلى كل حال فإن هذه الآية سيقت لبيان أهوال يوم القيامة وشدائده، وأنه لا يمكن للإنسان أن يفر من العرض والحساب والعذاب، إلا إذا أذن الله له في ذلك.

وأقطار السموات والأرض: جوانبها ونواحيها الواسعة، وصفوف الملائكة السبعة محدقة ومحيطة بالخلائق من كل جانب إظهاراً لعظمة الله تعالى، ألا ترى الحرّاس يحيطون بالقضاة والملوك في الدنيا، لضبط النظام واستتباب الأمن؟ والله المثل الأعلى.

وهناك جوانب متعددة، وأمكنة كثيرة، لمن حاول أن يخرج من أرض الله وسمائه!! وما هو بفاعل، وما هو بمستطيع! على أن السموات والأرض يوم القيامة قد بُدِّلتا وغيِّرتا ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم].

فإن قدرتم - يا معشر الجن والإنس - حين يجمعكم الله في موقف القيامة، على النفاذ من أمر الله وحكمه، هاربين من جوانب السموات والأرض وأطرافها، فافعلوا واذهبوا حيث شئتم لتعجزوا ربكم؛ حتى لا يقدر عليكم، اخرجوا؛ كي تهربوا من قضائه، وتخرجوا من ملكه وسلطانه، ومن سمائه وأرضه، وليس في مقدوركم ذلك، فأنتم ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بقوة القاهرة، وقدره فائقة، ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان، فلا يمكنكم النفوذ إلا بقوة وقدرة وغلبة، وأنتى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وحيثما توجهتم فأنتم في ملك الله وسلطانه، فكيف ستنفذون من ملكه؟

فقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ تعجيز لهم وإظهار لضعفهم؛ لأن السلطان هو القدرة والقوة، وهذا السلطان لا يقدر عليه إلا الله، فهو سبحانه صاحب القوة القاهرة،

والقدرة الفائقة، والجن والإنس لا يمكنهم الخروج من المأزق الذي هم فيه يوم القيامة، إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله تعالى الذي حشرهم في هذا الموقف، وأنى لهم هذه القدرة؟! فهم في حالة لا يتكلم فيها أحد إلا بإذنه تعالى، ولا تسمع إلا همساً من صوت الأقدام ونحوها، ويستوي في ذلك اليوم: الملكوك والممالك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء.

وهذه الآية كالقول المأثور: من لم يرضَ بقضائي، فليخرج من تحت سمائي، وليعبد رباً سواي.

وهكذا فإن هذه الآية تفسر على حسب ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهي في سياق الحديث عن القيامة وشدائدها وأحوالها، ولا صلة لها بغزو الفضاء؛ إذ إن رُؤاد الفضاء، وإن وصلوا إلى أبعد الكواكب من الأرض، فهم داخل ملك الله وسلطانه، ولم يخرجوا من جوانب السموات والأرض، وأنى لهم ذلك؟ وأين يذهبون؟ فمهما تجوّلوا، ومهما بحثوا ووصلوا، فهُم في ملك الله تعالى، داخل أرضه وسمائه، على أن القمر والمريخ والمشتري، وسائر الكواكب دون السماء الأولى، وكذلك الدوران حول الأرض، والارتفاع في الأجواء، كل ذلك يمكن للإنسان أن يصل إليه عن طريق العلم والبحث.

أما السموات فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً، وزينها بالمصابيح، وفيها الشهب والرجوم لشياطين الجن والإنس.

أما مقصود الآية لمن في الدنيا فهو تحذير الفاسقين والكافرين من التمادي في كفرهم وشركهم، حتى يُقلعوا عما هم فيه، ويستعدّوا للقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح؛ لأنهم لن يفروا من الحساب والجزاء ولن يُفلتوا من عقاب الله العادل ﴿مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِرٍ﴾ [يونس: ٢٧].

ثم يأتي السؤال المتكرر: هل يبقى لهم شيء يكذبون به؟ ﴿فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾؟ وفي إثابة المؤمن وعقاب الكافر، الجزاء العادل بين العباد، والعدل في الجزاء نعمة من نعم الله تعالى.

## استِحَالَةُ الْخُرُوجِ مِنْ أَيِّ مَنْفَعَةٍ فِي الْكُفْرِ

٣٥، ٣٦ - ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ<sup>(١)</sup> مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ<sup>(٢)</sup> فَلَا تَنْصِرَانِ<sup>(٣)</sup>﴾ ﴿فَيَأْتِيءَ آءِ آءِ رَيْكُمَا

تَكْذِبَانِ﴾<sup>(٤)</sup>

والكلام موصول لتوضيح معنى الآية السابقة، وبيان أن الجن والإنس لو حاولوا الخروج يوم القيامة من عرصاتهما، فإن الملائكة وزبانية جهنم، تردُّهم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليهم، ليرجعوا إلى ساحة العرض، ولا يجدون لهم ناصرًا ولا مغيثًا.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يا معشر الجن والإنس، إن حاولتم الهرب من قبضتنا يوم الحشر والنشر فإنه يرسل عليكم ﴿شُوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ﴾ الشواظ: لهب النار الخالص الذي لا يخالطه دخان؛ لأنه قد تم اشتعاله، فيكون أقوى وأشدَّ إحراقًا.

والنحاس - كما فسره ابن عباس وسعيد بن جبير - هو الدخان الذي لا لهب معه، فيحدث الاختناق بسبب شدته، فهم لا يفلتون من الأمرين: اللهب الذي لا يصحبه دخان، والدخان الذي لا يصحبه نار فيمتزجان.

وفسر مجاهد وقتادة الدخان بأنه: لهب الحديد أو النحاس المذاب، وهي نار خارقة للعادة، كقوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

(١) قرأ ابن كثير بكسر الشين من (شواظ)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) عد الحجازيين: المدني الأول والأخير والمكي قوله تعالى (من نار) آية، وأسقطها غيرهم من العدد.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بخفض السين من (ونحاس) عطفًا على (من نار)، والباقون برفعها عطفًا على (شواظ).

قال الضحاك في معنى الآية: هي نار تخرج من قبل المغرب تحشر الناس، حتى إنها لتحشر القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا<sup>(١)</sup>. والشواظ والدخان يُصبُّ على رؤوسهم، إذا أرادوا الفرار من الموقف العظيم. ولا يوجد من ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله يومئذ ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس، أي فلا ينصر بعضكم بعضاً، ولا ينقذه من عذاب الله، ولو ذهبتم هاربين لردتكم الملائكة وزبانية جهنم بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا. إنها صورة فوق مألوف البشر وفوق تصوُّرهم، فيها تهديد رهيب، ووعد مرعب، ومصير رديء، ومع ذلك فقد عُدَّت من آلاء الله تعالى على خلقه التي لا تُكذَّب ولا تُجحد، فإنَّ وقايتهم من هذه النار نعمة عظيمة، فلا تكذبان بها يا معشر الجن والإنس، ولما كان تخويف الله لعباده سوطاً يسوقهم إلى أعلى المطالب وأكرم المواهب، كان هذا نعمة أنعم الله بها عليهم، فعلى الإنس والجن أن يشكروها ولا يكفروها.

### انْشِقَاقُ السَّمَاءِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٣٧، ٣٨ - ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَأْتِي ءَأَلَاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

ثم تبدأ مشاهد القيامة بتفصيل ما أجمل في الآيات السابقة، ويبدأ ذلك بانشقاق السماء، فهو من أحوال الحشر ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لنزول الملائكة وقيام العدل بين الناس، وذلك عند قيام الساعة، ف وقعت الواقعة، وكان العرض والحساب، وشدة الأهوال وخسوف الشمس والقمر، وانتشار النجوم:

وهذا الانشقاق هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا

﴿٣٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق].

(١) ابن أبي شيبة (٧٨/١٥).



وقوله أيضًا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار].

وعندما تتشقق السماء تكون كالورد الأحمر، أو الجلد الأحمر، من حرارة النار.

وهذا معنى ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ].

أي: إن السماء انفرجت يوم القيامة، فكانت أبوابًا لنزول الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب، فتكون عند انشقاقها حمراء كلون الورد، أو كالزيت المغلي، أو الرصاص المذاب، وذلك من شدة أهوال يوم القيامة، ورهبة الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ ذِي وَهْيَةٍ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالرَّهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿١٠﴾﴾ [المعارج].

وانشقاق السماء لنزول الملائكة وفصل القضاء بين الناس، ورحمتهم من الموقف الريب، ومعرفة كل منهم مصيره، في ذلك نعمة وأي نعمة، فلا ينبغي لكم معشر الجن والإنس أن تكذبان بها، فبأي نعم ربكما تكذبان أيها الإنس والجن؟

يَوْمُ الْحَشْرِ فِيهِ مَوَاقِفُ مُتَعَدِّدَةٌ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسْأَلُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُسْأَلُ

٣٩، ٤٠ - ﴿فَيَوْمَذِي لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٠﴾

أي: وفي ساعة العرض والحساب لا يسأل الجن والإنس عن ذنوبهم التي وقعت منهم في الدنيا، أي لا يسألون سؤال استعلام عما وقع منهم، لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة والماضي والحاضر والمستقبل، وفي القرآن آيات تقضي بأن في القيامة سؤالاً، وآيات تقضي بنفي السؤال، فقال قتادة وعكرمة: هو في مواطن دون مواطن.

وقال ابن عباس: يكون السؤال حيث يراد التوبيخ والتقرير، ولا يكون إذا أريد مجرد الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، والملائكة لا تسأل؛ لأنها تعرف المؤمن من الكافر بعلامات مميزة.

وفي يوم القيامة الذي تتصدع فيه السموات، لا تسأل الملائكة المجرمين من الإنس والجن عن ذنوبهم؛ لأنهم يعرفونهم بعلاماتهم، كزُرقة العيون وسواد الوجوه، وما يغشاهم من الكآبة والحزن، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ﴾ [عبس]، وقال سبحانه: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۚ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۖ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۚ﴾ [الغاشية:]، وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال عز وجل: ﴿وَتَحْسُرُ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

ومن الناس من يدخل النار يوم القيامة بغير سؤال ولا حساب، ومنهم من يدخل الجنة بغير سؤال ولا حساب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. وقال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفُونَ ۚ وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فَيْعِنَدُونَ﴾ [المرسلات]. ويوم الحشر يوم طويل، فيه مواقف متعددة، وفيه أناس تختلف أحوالهم وفق أعمالهم في الدنيا، فتارة يحتاج الأمر إلى حساب، وتارة لا يتطلب سؤالاً، ومن الناس من يُسأل عند خروجه من القبر، ومنهم من لا يُسأل في هذه الحالة، وإنما يُسأل في ساحة العرض والحشر، ومنهم من يُسأل في الحالتين معاً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ۚ﴾ [الحجر: ١٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ١٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً: ﴿وَفَقَّهْرُهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات].

والسؤال يختلف، فقد يكون سؤال شكر عن النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر].

وقد يكون السؤال عن التبليغ والبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقد يكون السؤال للتقريع والتوبيخ، وقد يكون السؤال للتقرير والاعتراف، وتارة يكون السؤال سراً، وتارة يكون على رؤوس الأشهاد، وبعد السؤال يكون الحساب والجزاء، وقد جعل الله لأهل الخير علامات يعرفون بها ولأهل النار علامات يعرفون بها.

وعدم السؤال في ساحة العرض والحساب نعمة كبيرة تستحق الشكر والامتنان.  
وحكمة السؤال لتظهر حجة الله البالغة للخلق أجمعين، ثم يأتي التعقيب على هذا  
التقرير والتوبيخ، ويبان أنه من نعم الله تعالى التي لا تُكذَّب .

## مَشْهَدُ الْمُجْرِمِينَ حِينَ يُقَذَّفُ بِهِمْ فِي النَّارِ

٤١، ٤٢ - ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

ثم بيّن سبحانه السبب في عدم سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم في بعض أحوالهم  
يوم القيامة، فذكر هنا أنه يُستغنى عن سؤال المجرمين يوم القيامة بظهور علاماتهم  
للملائكة، فيعرفونهم بسيماهم، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ أي: بعلاماتهم.  
و هذه العلامات قال سبحانه عنها: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ  
مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

و قال جلَّ شأنه: ﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ  
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِ رَحْمَةٌ لِّلَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران]

فالملائكة تعرف المجرمين بعلاماتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون، فيضمون أقدامهم  
إلى نواصيهم، وهو الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس، ويُلْقَى بهم في النار، وهذا  
معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تضم نواصيهم إلى أقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون  
فيها، إنه مشهد عنيف، فيه هوان وذلة، حيث تُجمع الأقدام إلى الجباه في ذل وهوان،  
وقهر وانكسار، ويُقذف بهم في النار، فيستمررون فيها.

فهل من مكذَّب؟ وهل من منكر؟ إن عقاب المجرمين وإثابة الطائعين دليل على كمال  
عدل الله تعالى، وعلى عظيم فضله ونعمه، وفي إثابة الطائعين وعدم الأخذ بنواصيهم  
وأقدامهم نعمة لهم بدخول الجنة والنجاة من النار، ويقال للمجرمين يوم القيامة:

٤٣ - ٤٥ - ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾

فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وبعد أن يؤخذ بأرجل المجرمين، فتجمع إلى مقدّم رؤوسهم ليلقى بهم في النار، تقول لهم الملائكة: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، وقد تبين لكم سفه تكذبيكم بها، وها أنتم تشاهدونها عياناً، فذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء تكذبيكم.

وأهل النار يترددون ويمشون بين أطراف النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار وطلبوا أن يتبرّدوا يظهر لهم الماء ليتبرّدوا منه، فيذهبون إليه، فيصيبهم حره، فينصرفون إلى عذاب النار ﴿وَأِنْ يَسْتَعْجِلُوا يَغَاثُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

فتارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم المسمى ﴿ءَانِ﴾ أي: إنه متناهي الحرارة، يقطع الأمعاء والأحشاء، ويشوي الوجوه، فهو في منتهى الحرارة وشدة البرد والزمهير، كما قال تعالى: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية].

١. والله تعالى يصور عذابهم في مثل قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾<sup>(٧٦)</sup> فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾ [غافر].

٢. وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾<sup>(١٤)</sup> سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعْنَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ [إبراهيم].

٣. وقوله أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لُهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾<sup>(١٩)</sup> يُصْهَرُ بِهِ، مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ مَقْنَعُونَ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿١١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الحج: ١٩-٢٢].

فبأي من هذه النعم تكذبان أيها الثقلان؟ وفي عذاب المجرمين ونعيم المتقين، وإقامة الحق والعدل بين الناس نعمة يجب شكرها وعدم كفرها وتكذيبها، وأي نعمة؟!

(١) أسقط العدد البصري وحده ﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فلم يعدها آية، وعدها جمهور أهل العدد.

## وَصَفُ جَنَّتِي السَّابِقِينَ وَجَنَّتِي أَهْلَ الْيَمِينِ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ

وبعد أن ذكر سبحانه أهل النار وجزاءهم، ذكر أهل الجنة ونعيمهم، ويُن أنهم درجتان: السابقون المقربون، وأهل اليمين، ولكلٍ منهما جنتان، وجنتا أهل اليمين أدنى مرتبة من جنتي السابقين المقربين، ولهذه الأوصاف، أوصاف مشابهة في سورة الواقعة. أي: ولمن اتقى الله تعالى، وخاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، فترك الشهوات والمعاصي، وراقب ربه في السر والعلن، فإن تهيات له معصية بعيداً عن أعين الناس تركها خوفاً من الله تعالى، وفعل ما أمره الله به من مختلف وجوه الطاعات، فكان ممن خشي ربه، وقدم لنفسه العمل الصالح، هذا التقى له جنتان يوم القيامة، كلاهما من ذهب، آتيتهما وحليتهما، وبُنيانهما، وما فيهما، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المنهيات، والأخرى جزاءً على فعل الطاعات، وهما:

١. جنتان داخل الجنة الكبيرة، قد تكون له جنة عن يمين قصره، وجنة عن يساره.
٢. أو جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي.
٣. وقد تكون له جنة لسكنه، وجنة لزوجاته وخدمه وحشمه، كحال ملوك الدنيا.
٤. أو تكون له جنتان في الآخرة، ليضاعف له السرور بالتفعل بينهما من جنة إلى جنة.
٥. وبما أن الخطاب في السورة موجه للإنس والجن، فلعل الأرجح في ذلك ما قاله الزمخشري: من أن لكل ممن خاف الله تعالى من الإنس والجن جنة، فمن خاف ربه من الإنس له جنة، ومن خاف ربه من الجن له جنة<sup>(١)</sup>.

وسياق السورة كله يتناول الإنس والجن.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن ﴿الْجَنَّةَ﴾ بالإنفراد والتثنية والجمع:

أ - فجاءت التثنية في سورة الرحمن.

(١) «تفسير الكشاف» (٤٩/٤).

ب - وجاءت الجنات بالجمع في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣١﴾﴾ [القلم].

ج - وجاء ذكر الجنة الواحدة في سور كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فذكر الجنة الواحدة: قد يكون لاتصال أشجارها ومساحتها وعدم وجود الفاصل بينها، فكانها جنة واحدة، وذكر الجنتين: نظراً للإنس والجن، وذكر الجنان: نظراً لاختلاف المراتب الموزعة على الجنان الثمان، وفي الآيات دليل على دخول الجن الجنة.

وقال تعالى عن جنات الدنيا: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

والذي يخاف ربه: هو الرجل يهتّم بالمعصية ثم يتركها خوفاً من الله تعالى، قاله مجاهد.

ومقام الله تعالى هو اليوم الذي يقف فيه العبد للحساب بين يدي الله تعالى.

وقيل: هو إشراف الله تعالى على أحوال خلقه، وإطلاعه على أقوالهم وأفعالهم.

والمقام: هو وقوف العبد بين يدي ربه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

[المطففين].

والله تبارك وتعالى يقوم على العبد، أي: يراقبه ويعلم أقواله وأفعاله، كما قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ولذا أضيف المقام إلى الله تعالى.

والآية عامة في كل من خاف الوقوف بين يدي الله تعالى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

[النازعات: ٤٠] ولم يؤثر الدنيا على الآخرة، وعلم أن الآخرة خير له وأبقى، فأدى فرائض

الله، واجتنب ما حرم الله، فله يوم القيامة عند ربه جنتان داخل الجنة العامة.

خمسة أوصاف لجنتي السابقين:

ثم وصف الله تعالى كلاً من الجنتين بخمسة أوصاف، بينهما تفاضل وتمايز:

فوصف سبحانه جنتي المقربين بأنهما:

- ١- ذواتا أنواع من الشجر والثمار، ففيهما شجر وظلال ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿١٨﴾﴾.
  - ٢- وفيهما عينان تجريان بالماء الزلال، قيل: إن إحداهما عين التسنيم، والأخرى عين السلسيل ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾.
  - ٣- وفيهما من كل نوع من الفاكهة صنفان، نوع مألوف ونوع غير معروف، وكلاهما في منتهى اللذة والحلاوة ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ صِنْفَانِ ﴿٥٢﴾﴾.
  - ٤- وأهل الجنتين يتكئون على فرش مبطنة بالديباج الغليظ، وظواهرها أفضل من بواطنها ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴿٥٤﴾﴾. وإن ثمار الجنتين قريبة في تناول يد القائم والنائم والماشي، فليست عالية كالنخل، ولا يحوطها شوك كالورد ﴿وَحَيْثُ أَلْجَنَّتِ دَانَ ﴿٥٦﴾﴾.
  - ٥- وفي الجنتين نساء طاهرات عفيفات، قصرن عيونهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ ﴿٥٧﴾﴾. وإنهن أباكاراً لم يفضن بكارتهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٨﴾﴾.
- وإن هؤلاء النسوة كأنهن الياقوت في بياضهن وصفائهن، وكأنهن المرجان في حمرتهن ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

فبأي من هذه النعم كلها تكذبان يا معشر الجن والإنس، وقد خلق الله الجنة للمطيعين المتميزين منكم، وجعلها لهم دار خلود يتنعم فيها أهل الطاعة بالنعيم الذي لا يحول ولا يزول، وهو إحسان من الله تعالى مقابل إحسانكم في الدنيا بامثال الأوامر واجتناب النواهي.

خمسة أوصاف لجنتي أهل اليمن:

ثم وصف الله سبحانه جنتي أهل اليمن من عامة المؤمنين بأنهما:

- ١- جنتان قد اشتدت خضرتهما لكثرة مائهما، فهما ﴿مُدَاهَمَاتَانِ﴾ (٦٤) أي مُخْضِرَتَانِ.
- ٢- وفيهما عينان تَضْحُخَانِ الماء بقوة واندفاع، ويفور منهما الماء الكثير بغزارة لا تنقطع ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ (٦٦).
- ٣- وفي هاتين الجنتين فواكه يأكلها أهل اليمين لذة وتفكُّهًا، وعلى الأخص النخيل والرمان، وقد خصهما القرآن بالذكر لكونهما معروفين بكثرة، لمن نزل القرآن بلغتهم ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ (٦٨).
- ٤- وفي الجنتين نساء خيرات حسان في الخلق والخلق من الحور العين، ومن نساء الدنيا، فقد أنشأهن الله إنشاءً، وجعلهن أباكارًا متحجيات لأزواجهن، وهن في سن الشباب والحُسن والبهاء ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (٧٠).
- والحور العين لا يلجُن المجتمعات ولا النوادي ولا المجالس العامة، ولا الحفلات، ولا غير ذلك، ولا ينظرن لغير أزواجهن، ولا يختلطن بغيرهن، ولا يطلبن المساواة بالرجل فيما خصَّ الله به الرجال، فلا يتمنين ما فضل الله به بعضهم على بعض ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾ (٧٢).
- وهؤلاء النسوة لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾.
- ٥- وأصحاب الجنتين يتمتعون بالاتكاء على فرش خضر، وثياب عبقرية جميلة غريبة، بلغت منتهى الحسن والجمال ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٧٦).
- فهل في وسعكم - أيها الثقلان - تكذيب ما أعده الله لعامة المؤمنين من النعيم المقيم؟ فسبحان صاحب الفضل، واهب الخير، واسع العطاء، مصدر النعم، جلَّ جلاله وتبارك اسمه.
- خمسة فوارق بين الجنات الأربع:
- ونعود إلى تفسير الآيات لبيان ما بين الجنات الأربع من فوارق، جنتا السابقين، وجنتا أهل اليمين، على ضوء الموازنة بين الآيات، وقد جاءت هذه الموازنة في خمسة أوصاف، ذكرت في كل وصف منها لجنتي السابقين، ما يقابله من وصف جنتي أهل اليمين:



## الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: لُجْنَتِي السَّابِقِينَ الْمُقْرَبِينَ

٤٦ - ٤٩ - ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَأْتِي ءَأَلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي

ءَأَلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴿

أي ولمن خاف ربه، وخاف الوقوف بين يديه في يوم العرض والحساب، فترك ما نهى الله عنه، وفعل ما أمره به، جنتان من ذهب، جنة على الطاعات، وجنة على ترك المنهيات، ومباني الجنتين من ذهب وكل ما فيهما من السرر والفرش والوسائد والأواني من ذهب.

والجنتان: ذواتا أغصان نضرة من الفواكه والثمار، وأغصان كثيرة تمتاز بالجمال والخضرة والنضرة والشجر الظلال، وفيهما فناء واسع.

فالأفنان: هي الأغصان المستقيمة طولا، وفي كل غصن أنواع من الفاكهة.

فإِنِّي من هذه النعم تكذبان - يا معشر الجن والإنس -؟

ومن هذه الآلاء: هذه الجنان ذات الأفنية الواسعة، والأغصان المثمرة اليانعة، والظلال الوفيرة، والفواكة الكثيرة، وفيهما من نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيهما الأشجار الكثيرة، والغصون الناعمة، والثمار اليانعة، وفيهما من كل نوع أصناف كثيرة، فالأفنان جمع فن وهو الصنف.

## الْوَصْفُ الْأَوَّلُ لُجْنَتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٦٢ - ٦٥ - ﴿وَمِنْ ذُوهُمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَإِنِّي ءَأَلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَّهَامَاتٍ ﴿٦٤﴾ فَإِنِّي

ءَأَلَاءَ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴿

ومن دون الجنتين السابق ذكرهما، جنتان من فضة، بنيانهما، وآبئتهما وحليتهما وكذا كل ما فيهما من السرر والأبواب والنمارق وغيرها، وهذا النعيم أعده الله لأهل اليمين من عامة المؤمنين، وهما أدنى درجة من جنتي السابقين المقربين، وهم خواص المؤمنين.

أي: ومن دون جنتي السابقين المقربين: جنتان أقل منهما في الفضيلة والقدرة، ويحتمل أن يكون المعنى: وللسابقين المقربين - أيضًا - جنتان أخريان ، فهو من باب ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَّسَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وكما في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥] ويُقدّم المعنى الأول.

وهاتان الجنتان قد اشتدت خضر تهما حتى مالا إلى السواد، لأن الشجر إذا كان ريانًا بالماء، اشتدت خضرة أوراقه.

فبأي من هذه النعم تكذبان - يا معشر الإنس والجن - .

ومن هذه الآلاء ، أن ما في هاتين الجنتين من الأشجار والأغصان والثمار وغيرهما، من شدة الخضرة وجمال المنظر وبهائه وحسنه، ما يدل على جودة الثمر وجودة ما يُقطف منها، وهذا من أثر الري وكثافة الظلال، والجنتان المخضرتان لأهل اليمين أدنى درجة من الجنتين ذاتي الأفنية الواسعة والأغصان المثمرة للسابقين المقربين.

### الوصف الثاني لجنتي السابقين المقربين

٥٠، ٥١ - ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

في هاتين الجنتين عينان من الماء العذب الفرات تجريان من خلالهما بلا انقطاع، إحداهما عين التسنيم، والأخرى عين السلسيل، كما قال الحسن.

يفجرونها كما يريدون ويشتهون، وقد ذكر سبحانه ما يتم به التزهة من خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ما يكون بعد التزهة من أكل الثمار والاستراحة على فرش وثيرة، بطانتها من ديباج.

ونعمة الماء الذي يجري من أجل النعم، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان - يا معشر

الإنس والجن - ؟

### الوصف الثاني لجنتي أهل اليمين

٦٦، ٦٧ - ﴿فِيهَا عَيْنَانِ فَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

في هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء الذي لا ينقطع.  
قال ابن مسعود، وابن عباس: تَنْضُخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور الجنة.

والنضخ: هو فوران الماء من العيون، مع حسنه وجماله وتدفقه واستمراره وماء العيون أقل من الماء الجاري.

وعيون المياه المتدفقة نعمة تشكر ولا تكفر، ولا يكذبها إنس ولا جن، وجاء وصف جنتي أهل اليمين بأن فيهما عينان يفوران الماء منهما في مقابلة وصف جنتي السابقين بأن الماء يجري فيهما بصفة مستمرة لا ينقطع.

### الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتِي السَّابِقِينَ

٥٢، ٥٣ - ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآءَ رِيكًا تَكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

في هاتين الجنتين من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان، يُستلذ بكل نوع من أنواعه: بعضه يؤكل رطبًا، وبعضه يؤكل يابسًا، مثل: الرطب والعنب والتمر والزبيب والجوز واللوز، وهي فواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفيهما من ثمار الجنة. ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الثمار، وكل ما لذ وطاب. ومن هذه الآلاء، أن لكل صنف من الفاكهة لذة ولون ليست للنوع الآخر، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان - يا معشر الإنس والجن -؟

### الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِجَنَّتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٦٨، ٦٩ - ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآءَ رِيكًا تَكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

في هاتين الجنتين أنواع كثيرة من الفواكه، ونخل ورمان، وجاء عطف النخل والرمان على الفاكهة لمزيتهما وفضلهما، فالتمر غذاء وفاكهة، والرمان دواء وفاكهة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهَا مُسْتَشْبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

فبأي نعمة من نعم الله تكذبان أيها الثقلان؟  
ومن هذه الآلاء: أصناف الفواكه المختلفة، وخص منها النخل والرمان لما فيهما من  
كثرة المنافع، وتخصيص جنتي أهل اليمين بالفاكهة والنخل والرمان، أدنى درجة من  
جنتي السابقين، ففيهما من كل فاكهة صنفان.

### الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِجَنَّتِي السَّابِقِينَ

٥٤، ٥٥ - ﴿مُتَّكِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٥﴾ فَيَأْتِيءَ آءَآءَ رِيحِكُمَا

تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

وللذين خافوا مقام ربهم جنتان يتنعمون فيهما، وهم متكئون على فرش مبطنة من  
غليظ الديباج، والاتكاء جلسة المتمتع المتنعم.

وثمر الجنتين قريب إليهم، وأكل أهل الجنة ليس من جوع، والفرش ما يفرش للنوم  
أو الجلوس، والمراد به السرير المرتفع عن الأرض.

والبطائن: ما يقابل الظهائر، فالبطائن هي الداخلية، وهي من الديباج السميك الظاهر  
وهي ما يظهر للرائي وتكون أفضل عادة.

والاستبرق: الديباج المصنوع من الحرير السميك، فإذا كانت البطائن هكذا، فلا  
تسأل عن الظواهر.

وهم يقطفون ما شاؤوا من الثمار، وهم متكئون وفي أي حالة كانوا، حيث تدنو منهم  
الفاكهة حيثما كانوا.

والجنى: هو ما يُجنى من الثمار، والداني: هو القريب، يناله القائم والقاعد والمتكى.

جاء عن قتادة: أنه ما من إنسان يقطف ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله

مكانها خيراً منها<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإنسان]. فبأي نعمة

(١) قرأ ورش ورويس بنقل حركة الهمزة إلى النون، وحذف الهمزة في ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وحققها غيره.

(٢) الطبري (٢٤٤/٢٢).

من نعم الله تكذبان؟

ومن هذه الآلاء، صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها جلوس المتكئ كجلوس الملوك على الأسرة، وهي فرش لا يعلم حسنها ووصفها إلا الله، وثمرها قريب متناول.

### الْوَصْفُ الرَّابِعُ لِجَنَّتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٧٦، ٧٧ - ﴿مُتَكِّينَ<sup>(١)</sup> عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَهُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

وهؤلاء الزوجات من الحور العين، متكئات على وسائد خضر، وفرش حسان، والرفرف: هو ما يوضع على الفرش للنوم عليها.

والعبقري: اسم لكل ما هو فائق في صنعه، نادر الوجود، ويقال لها: زرابي وطنافس، وهي أغطية خُضْر، ممتازة في صنعها، وفي اليمن قرية يقال لها: عبقر، قيل: كان يسكنها الجن، وكان يُنسج فيها أفخر الثياب والبسط المنقوشة وهي فرش لها رفارف من وراء المجالس لزيادة البهاء .

ومن نعمه تعالى هذه الفرش المنسوجة نسجاً فاخراً لحسن المظهر وجمال الملمس. ولا يكذب بها إنس ولا جن، ولا يجحدها جاحد ولا معاند.

### الْوَصْفُ الْخَامِسُ لِجَنَّتِي السَّابِقِينَ

٥٦ - ٦١ - ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ<sup>(٢)</sup> إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَهُ رَبِّكَمَا

تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهِنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَهُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَهُ رَبِّكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾﴾

على هذه الفرش زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، متعلقات بهم، وقاصرة الطرف أعلى درجة من مقصورة الطرف، فالأولى تغض بصرها

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة ﴿مُتَكِّينَ﴾ ومثله حمزة عند الوقف، وله التسهيل أيضاً.

(٢) قرأ الكسائي بضم الميم وكسرهما من ﴿يَطْمِئِنَّ﴾ هنا وفي الآية الرابعة والسبعين، والباقون بكسرها.

من نفسها، وهذا خُلِقَ لها وطَبَع، والثانية مُلْزَمَةٌ أَنْ تَغْضُ بَصَرَهَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِهَا.  
 لم يطأهن إنس ولا جان قبل أزواجهن، وَغَضُّ الطَّرْفِ خِلْقَةٌ فِيهِنَّ.  
 والطمثُ هو فَضُّ البَكَارَةِ، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) [الواقعة] وهن من نساء  
 الجنة لا من زوجات الدنيا، وقيل: إن نساء الدنيا كذلك، ينشئن الله إنشاءً.  
 وأصل الطمث: خروج الدم من الحائض، فيقال للحيض طمث، ثم أُطْلِقَ الطَّمْثُ  
 عَلَى جَمَاعِ الْأَبْكَارِ؛ لِأَنَّ فِيهِ خُرُوجَ الدَّمِ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ جَمَاعٍ.  
 وفي الآية دليل على أن الجن يدخلون الجنة<sup>(١)</sup>، وفيها دليل على مشاركة الجن  
 للإنس في الجماع، إذا جامع الرجل أهله ولم يسم الله<sup>(٢)</sup>.  
 وزوجات الجنة من أجلّ النعم، التي لا يكذب بها إنس ولا جن.  
 وهؤلاء الزوجات من الحور العين، كأنهن في حسنهن وجمالهن وصفائهن الياقوت  
 والمرجان في الصفاء واللمعان، وبياض الوجوه مع حمرة الخدود، كلون الورد.  
 والياقوت: هو الحجر المعروف. والمرجان: حجر أحمر يؤخذ من البحر.  
 وقد سبق وصف هؤلاء الزوجات في الآية السادسة والخمسين بقوله تعالى: ﴿لَتَرِ  
 يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ فِتَاكُهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ بما يعادل الوصف المقابل لأهل اليمين، كما وصفهن الله  
 تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) [الصفات].  
 وجمال الحور العين وبهائهن ولذة وصالهن من أجلّ النعم، فهل يكذب بهذا إنس أو جن؟  
 ثم ختم الله تعالى نعيم أهل الجنة، من عباد الله المقربين، ببيان أنه ما جزاء مَنْ أَحْسَنَ  
 بعمله في الدنيا، إلا الإحسان إليه بالجنة في الآخرة.  
 فالإحسان الأول: هو القول الطيب، والعمل الصالح، ومخافة القيام بين يدي رب  
 العالمين، ونهي النفس عن الهوى.

(١) يُنظَرُ: «تفسير الطبري» عن ضمرة بن حبيب (٢٤٨/٢٢) وأبو الشيخ (١١٦٢).

(٢) كما ورد الخبر بذلك عند الحكيم الترمذي (٣٨٤/١) عن مجاهد.

والإحسان الثاني: هو الثواب والجنة والنعيم المقيم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به

محمد ﷺ إلا الجنة؟

وقد سبق وصف أهل هاتين الجنةين بأنهم ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ بما يعادل

الوصف المقابل لأهل اليمين.

ومن نعم الله تعالى على عباده أن من أحسن في عبادة ربه ونفع عباده أحسن الله إليه

بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم والفوز الكبير، ومقابلة الإحسان بالإحسان محض

فضل من الله تعالى لا يكذب بها إنس ولا جن.

## الْوَصْفُ الْخَامِسُ لِجَنَّتِي أَهْلِ الْيَمِينِ

٧٠ - ٧٥ - ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ

﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ مِنْهُنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآيات أن في هذه الجنة: زوجات طيبات الأخلاق، حسان

الوجوه، كما في حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن الحور العين يتغنين في الجنة

يقُلْنَ: نحن الخيرات الحسان، خُبِنْنَا لأزواج كرام»<sup>(١)</sup>. والضمير من ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ يقابله

ما جاء في وصف جنتي السابقين ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ أَطْرَفٌ﴾ فكلاهما جاء بضمير الجمع،

وكان فيهما إشارة إلى ما في الجنة الأربع من الحور العين وزوجات الدنيا، فبأي نعمة

من نعم الله تعالى تُجحد وتُكذب؟ ومن هذه النعم: ما في الجنة من الحور العين

والزوجات الحسان، قد جمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلق والخلق،

متحجبات لأزواجهن، قاصرات الطرف عليهم.

(١) ابن أبي شيبة (١٣/١٠٦) و«صحيح الجامع» (١٥٩٨).

وهؤلاء الخيَّرات الحسان: حور، أي شديدات البياض، في عيونهن حَوْر، وهن مستورات في الخيام، محبوسات لا يُتدَلَّن في شارع أو سوق، ولا يخرجن لبيع ولا شراء، ولا يلجئن المجتمعات ولا النوادي، فالنساء تُمدَّح إذا لزمن البيوت. ففي هذا صيانتهم وعفتهم وطهارتهم، وخيام الجنة من اللؤلؤ المجوف. وفي الحديث عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون»<sup>(١)</sup>.

فخيام الجنة من الدر المجوف، وهل يكذب بهذه النعم أحد من الجن والإنس؟ والهور العين المحبوسات في خيام اللؤلؤ المنتزهات في بساتين الجنة ورياضها. وهؤلاء الحور العين لم يقربهن أحد قبل أزواجهن في الجنة، لا إنس ولا جان. وفي هذا دليل على أن الجن يغشاهن مثلما يغشى الإنسان. وسئل ضمرة بن حبيب: هل للجن ثواب؟ فقال: نعم، وقرأ هذه الآية، ثم قال: الإنسيات للإنس، والجنيات للجن. وقال مجاهد: هذه الآية إذا جامع الرجل ولم يسم، انطوى الجنى على إحليله، فجامع معه<sup>(٢)</sup>. ونعمة الحور العين لا يكذب بها إنس ولا جن، فكلاهما يقول: ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب.

(١) من حديث عبد الله بن قيس عن أبيه، البخاري برقم (٣٦٤٣، ٤٨٧٩) وانظر: «صحيح مسلم» برقم

(٢٨٣٨، ١٨٠) من حديث أبي عمران.

(٢) «تفسير الخازن» (٢١٤/٤) والطبري (٢٤٨/٢٢) والحكيم الترمذي (٣٨٤/١).



## خَتَامُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِمَا خُتِمَ بِهِ نَعِيمُ الدُّنْيَا

٧٨ - ﴿بَنَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(١)</sup>

ثم ختمت السورة بالثناء على الله تعالى: فقد تكاثرت بركاته، وكثرت خيراته، فهو صاحب الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأولياته.

والجلال بمعنى: العظمة، وهو وصف جامع لصفات الكمال اللاتمة بالله تعالى، فهو سبحانه المستغني عن عباده على وجه الإطلاق والإكرام، بمعنى: أنه تعالى مُسَدِّي النعم والخير، وهو الجدير بالثناء والشكر، وجدير أن يُفرد بالعبادة دون سواه.

ولما ختم الله تعالى نعيم الدنيا بقوله: ﴿وَبَنَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(٢)</sup> ختم نعيم الآخرة بقوله: ﴿بَنَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(٣)</sup>.  
ومما ورد في فضل الجنات والحدود العيون ما جاء:

١- عن عبد الله بن قيس، عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»<sup>(٤)</sup>.

٢- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، إلا إن سلعة الله الجنة»<sup>(٥)</sup>.

٣- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾<sup>(٦)</sup> فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾<sup>(٦)</sup> فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بالرفع، صفة (اسم)، والباقون (ذو) بالخفض صفة (ربك) أما الموضع الأول من السورة فهو بالواو اتفاقاً.

(٢) البخاري (٤٨٧٨، ٧٤٤٤) ومسلم (٢٩٦/١٨٠) والترمذي (٢٥٢٨) وابن ماجه (١٨٢).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٥٠)، والحاكم وصححه (٧٨٥١)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح

الترغيب والترهيب (٣٣٧٧)، وقال المناوي: صحيح (٢٤٥٠)، و«تفسير البغوي» (٤٥١/٧).

رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١٦﴾ فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبي الدرداء»<sup>(١)</sup> قلت: ومن خاف مقام ربه لم يسرق ولم يزن.

٤- وفي الأثر، عن أبي موسى: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»<sup>(٢)</sup>.

٥- وفي الصحيحين، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر»<sup>(٣)</sup>.

زاد في رواية: «ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبصقون فيها، ولا يتمخّطون، ولا يتغوّطون، آنتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ومجارهم الألوّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»<sup>(٤)</sup>.

(١) «تفسير البغوي» (٤٥١/٧)، وشرح السنة (٤١٨٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥٦٠)، وفي ط الرسالة (١١٤٩٦)، و«تفسير الطبري» (٤٩٠/٥)، ورواه النسائي في «السنن» برقم (٥٨٠)، وابن خزيمة برقم (٥٣٣)، وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال رجال أحمد رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (١١٨/٧)، وفي «السنن» عند ابن أبي عاصم، مختصراً برقم (٩٧٥) وهو في «المطالب العالية» (٤١٣٠)، (٤١٣١) وقال محققو المسند (٨٦٨٣) رجاله ثقات رجال الصحيح غير ابن دواد فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة، وأعلّه الحافظ في الفتح (٢٦١/١١) بالإرسال، لا تقطاعه بين عطاء بن يسار وأبي الدرداء.

(٢) «تفسير الطبري» (٨٥/٢٧) بسنده عن أبي موسى، وانظر: ابن أبي شيبة (٣٨٣/١٣) والحاكم (٨٤/١) والبيهقي (٢٤٠)، وانظر: فتح الباري ٤٣١/١٣ عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه، وابن أبي حاتم ورجاله ثقات في شرح الحديث (٧٠٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٦) من حديث طويل هذا أوله، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٧٣)، وفي التفسير (٥٧/١)، وانظر: «المسند» (٧١٥٢، ١٠١٢٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وله طرق عديدة وراته كثر.

(٤) الحديث في البخاري (٣٢٤٥) وهذا لفظه و(٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (٤٣٣٣)، والبيهقي في «البعث» (٣٢٧، ٤٤٨)، و«المسند» بنحوه (٧١٦٥، ٧٤٨٦).

٦ - وفي حديث أنس، وسهل بن سعد، وأبي أمامة رضي الله عنهم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، ولقَاب قوس أحدكم، أو موضع قيد - يعني: سوطه - خير من الدنيا وما فيها، ولو طلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»<sup>(١)</sup>.

٧ - وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّي في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة عزب»<sup>(٢)</sup>.

٨ - وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من حور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يُرى مخ ساقها من وراء الثياب»<sup>(٣)</sup>.

٩ - وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أن شابًا على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يلزم المسجد والعبادة فعشقتة جارية فكلمته، فحدّث نفسه، فشهو شهوة فغشي عليه، فحملة عمه إلى بيته، فلما أفاق، قال: يا عم، اذهب إلى عمر فأقرئه مني السلام، وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ وشهو شهوة أخرى فمات، فوقف عليه عمر وقال: لك جتان، لك جتان»<sup>(٤)</sup>.

١٠ - وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا في الحلقة، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهّد ودعا، فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا

(١) البخاري برقم (٢٧٩٦) وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (٨٨٠) أوله، و«المسند» (١٤١/٣) برقم (١٢٣٥٠)، (١٣٧٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) واللفظ له، والبخاري برقم (٣٢٤٥).

(٣) تفرد به أحمد من هذا الوجه، «المسند» (٣٤٥/٢) برقم (٨٥٤٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وهو قطعة من حديث (٧١٥٢).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي (٧٣٦).

الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك، فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»<sup>(١)</sup>.

١١- وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا سلّم لا يقعد بعد الصلاة إلا قَدْر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»<sup>(٢)</sup>.

١٢- وفي حديث ثوبان ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، ثم قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»<sup>(٣)</sup>.

تم تفسير (سورة الرحمن) والله الحمد والمنة

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٦) والنسائي (١٢٩٩) وابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠) و«المستد» (١٢٦١١)،

(١٣٥٧٠) وهو حديث صحيح وإسناده قوي (محققوه)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٨)، ٣٤، (٢٧١)، والضياء في المختارة (١٨٨٥) وأبوداود وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٢) وأبو داود برقم (١٥١٢) والترمذي برقم (٢٩٨) و«سنن النسائي» (٦٩/٣) وابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٣) مسلم (٥٩١) وأبو داود (١٥١٣) والترمذي (٣٠٠) والنسائي (١٣٣٦) وابن ماجه (٩٢٨) والبيهقي (١٨٣/٢).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ (٥٦)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء، ولا يُعرف لها اسم غير سورة الواقعة.

وهي في العدد الكوفي الذي عليه رواية حفص، ست وتسعون آية<sup>(١)</sup>.

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

قال ابن عطية: وهي سورة مكية بإجماع من يُعتدُّ به من المفسرين، واستثنى ابن عباس وقتادة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾<sup>(٨٢)</sup> فقد نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما قوله

تعالى: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾<sup>(٨١)</sup> وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ<sup>(٨٢)</sup>.

واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٣٩)</sup> وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ<sup>(٤٠)</sup>.

قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت<sup>(٢)</sup>، والصحيح أنها كلها مكية.

جاء عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عن الجميع

قال: يا رسول الله، قد شُبِّتَ، قال: «شَيَّبْتَنِي هُودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون،

وإذا الشمس كورت»<sup>(٣)</sup>.

(١) وفي العدد البصري سبع وتسعون آية، وفي العدد المكي والمدني والشامي تسع وتسعون آية.

(٢) يُنظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٢٣٨/٥) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٧٩/٢٧) و«تفسير فتح القدير» (١٤٦/٥) و«زاد المسير» (١٣٠/٨).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، برقم (٣٢٧٩) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي

(٣٤٣/٢) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٦) ورواه الطبراني في «الأوسط» من طريق مسروق عن أبي

بكر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير»

(١٠٠٩١)، وانظر: «العلل» للدارقطني (١٩٣/١) وابن أبي حاتم (١٨٢٦، ١٨٩٤).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي الصلوات كنعو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يُخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر بالواقعة <sup>(١)</sup>.

وورد في سورة الواقعة أحاديث أخرى لم تصح.

قال مسروق: من أراد أن يَعْلَمَ نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة <sup>(٢)</sup>.

### أغراض السورة

موضوع سورة الواقعة: هو اليوم الآخر، وأصناف الناس في الآخرة، وجزاء كل صنف منهم يوم لقاء الله، والحديث عن البعث والحساب والجزاء، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وهذا من خصائص القرآن المكي.

والواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها، فليوم القيامة أسماء شتى، منها: الواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والغاشية، والآزفة.

وتختص الآيات الست الأول بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، فالقيامة تقوم بغتة، فتُخْرِسُ ألسنة المكذبين لها من الكافرين بها، وألسنة الملحدين المعاندين، والماديين والدهريين، وتُبيِّنُ أن القيامة ستخفف رؤوسًا كانت عالية في الدنيا، وترفع رؤوسًا كانت مغمورة.

ومع قيام الساعة تهيج الزلازل التي تهدم كل شيء، وتُحوِّلُ الصخور الصلدة العالية إلى ذرّات دقيقة، كالتي نراها تُسبح في الشعاع، ولسنا ندري كم بقي من عمر الدنيا، وليس هذا هو المهم، إنما المهم أن يُعدَّ المرء للسؤال جوابًا، ويستعدَّ بعمله الصالح للموقف العصيب.

(١) «المستد» (١٠٤/٥) (٢٠٩٩٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه عبد الرزاق (٢٧٢٠) وابن خزيمة

(٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والطبراني في «الكبير» (٤٠٣٦) والحاكم (٢٤٠/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٧٥/١٤).

فقد سأل رجل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة يا رسول الله؟ فأراد النبي ﷺ أن يرشده إلى ما هو أهم من السؤال، فقال له: «وماذا أعددت لها؟» فذكر الرجل أنه يؤدي الفرائض، وليس عنده رصيد كبير من النوافل، قال الرجل: غير أنني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»<sup>(١)</sup>.

### أصناف الناس يوم القيامة:

وبعد هذه المقدمة، فإن السورة تقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وتُفصّل النعيم الذي أعده الله للسابقين وأصحاب الميمنة، ثم تُفصّل العذاب المعد لأصحاب المشأمة، وهذا من الآية السابعة إلى الآية السادسة والخمسين. وفي نهاية السورة تناول أيضاً هؤلاء الثلاثة تحت مسمى: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذابين الضالين، فتبين ما أعد الله لهؤلاء الثلاثة في الآخرة وعند الاحتضار من نعيم وعذاب على وجه الإجمال. وبين التقسيمين الأول والأخير، ذكرت السورة أربعة أدلة متنوعة من آفاق الكون وتجارب الناس، على أن البعث حق، وهي في الوقت نفسه دلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته. وهذه الأدلة الأربعة تتمثل في بديع صنعه تعالى وخلقه للإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله في النار من قوة.

وجاءت هذه الأدلة في الآيات الأربع التالية، وما يتبع كل منها، وهي قوله تعالى:

١- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَسْتَرْتُمْ تَخْفُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) من حديث أنس في «المسند» (١٢٠٧٥، ١٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وعن أبي ذر (٢١٣٧٩، ٢١٤٦٣)، ورواه البخاري عن أنس (٣٤٨٥)، وأخرجه مسلم (٥٥٧)، والترمذي (٣٥٣)، وابن ماجه (٩٣٣)، وابن خزيمة (٩٣٤).

٢- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٥﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٤- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٦٧﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وهذه الأدلة من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين.

ثم نوهت السورة بشأن القرآن العظيم، وذلك من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية

الثانية والثمانين.

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ووصفت جزاء كل

منهم، بما لا يوجد في غيرها.

وزعم بعضهم أن أصناف الناس الثلاثة المذكورون هنا، وهم: السابقون، وأصحاب

اليمين، وأصحاب الشمال، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمَنْهُمْ

مُقْتَصِدٌ وَمَنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وليس الأمر كذلك؛ لأن الثلاثة الذين هم في آية سورة فاطر كلهم من المسلمين

ومن حملة القرآن، بدليل أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

أما الآيات التي في سورة الواقعة فهي تتحدث عن قسمين من المؤمنين، هما:

السابقون بالخيرات، والفائزون بقدر راجح من الحسنات، وما بقي من أصناف الناس،

فهم: الكافرون أصحاب الشمال، الذين هم في سموم وحميم، وظل من يحموم.

نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من النار، والفوز بالجنة.

### تقسيم السورة إلى شطرين:

ومع أن موضوع السورة واحد، هو البعث والحساب والجزاء، وبيان اختلاف أحوال

الناس فيه، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى شطرين:

الشرط الأول: من أولها إلى الآية السادسة والخمسين، فإن السورة في هذا الشرط،

تبدأ بما يقطع الطريق على منكري البعث، القائلين: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض



تبع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتقطع الطريق على من يُقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وعلى القائلين: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] وعلى من قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦، وفصلت: ٥٠].

إنها تخرس السنة هؤلاء وأولئك، فتقطع كل شك في قيامها، وتزيل كل لبس في ذلك، وتسميها بالواقعة، وليس لهذا الوقوع من مكذب!

ثم تصف السورة القيامة بأوصاف تُشعر بالجزم، وتزلزل النفس، وتذكر أصناف الناس يوم الحشر والنشر، وتُفصل مصير كل منهم تفصيلاً دقيقاً وإفياً كأنه معروض للعيان، لاسيما مصير المكذبين أصحاب الشمال، حيث توضح السورة أسباب سوء المصير، بأنهم كانوا في الدنيا من المترفين البطرين، المصرين على الكفر والإشراك بالله تعالى، وكانوا ممن يستبعدون البعث بعد الموت لهم ولآبائهم الأولين.

أما الشطر الآخر من السورة، فهو من الآية السابعة والخمسين إلى الآية السادسة والتسعين في نهاية السورة.

وهذا الشطر يتكلم عن الخلق الأول من منيِّ يُمنى، ويقرر النشأة الأولى للإنسان، ويجعل هذه المقدمة تتصدر خمسة أدلة على البعث والنشور.

فتتناول نشأة الحياة في صور أربع، وكلها صور للنشأة الأولى، وللحياة من العدم.

١ - وهي خلق الإنسان من منيِّ يُمنى، والله تعالى هو الخالق لهذا المنى، وهو الذي يُميئنا بعد حياتنا.

٢ - ومن ذلك حياة الزرع والحرث، من الأرض الميتة.

٣ - وحياة كل كائن حي بالماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، وليس لمخلوق دَخَلَ في ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاباً لا يُنبت نباتاً ولا يُخرج كلاً.

٤ - ومن ذلك النار، وأصلها الذي تنشأ منه، وهي تذكر الناس بنار الآخرة، وكلها صور مألوفة في حياة الناس وواقعهم، ولا سبيل لإنكارها.

وبعد التنويه بشأن القرآن العظيم، تناول السورة مشهد الاحتضار عند الموت، وما ينتظر كل صنف من أصناف الناس من النعيم أو العذاب، في لمسة عميقة الأثر في النفوس حين يقف الطب عاجزاً أمام المحتضر، ويقف الأهل والمال والأحباب مكتوفي الأيدي، لا يملكون أن يزيدوه لحظة من العمر فوق عمره، ولا نفساً فوق أنفاسه.

وقد لخص آخر السورة ما جاء في أولها من المصير الذي أعده الله تعالى للسابقين وأهل اليمين والمكذبين الضالين، وسواء صدق بعض الناس ذلك أو كذّبوه فإن هذا لن يغير من الواقع شيئاً ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿١٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

\* \* \*

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

### قِيَامُ السَّاعَةِ وَأَهْوَالُهَا

١ - ٣ - ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣﴾

بدأت السورة بتقرير الحقيقة التي لا شك فيها، وهي أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجزاء حق، لقد غفل كثير من الخلق عن هذه الحقيقة تحت وطأة الشهوات والشبهات، أو تقليد الآباء والأجداد، أو سكرة الحياة، فقال بعضهم: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦ وفصلت: ٥٠].

وقال آخرون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وقد يؤكدون ذلك، ويقسمون عليه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

(ونحن نرى ميت الغد يشيع ميت اليوم، وهو يحدث صاحبه عن الشهوات والآمال العريضة في الحياة، غير مستفيد من موكب الموت، ومشهد الجنائز بين يديه، وتمضي القرون، وتُدفن جماهير الناس، والمنكرون للبعث موجودون، وصوت الكفر عالٍ في مشارق الأرض ومغاربها<sup>(١)</sup>).

وعندما يأتي أمر الله تعالى تقوم الساعة فجأة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي: إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من أهوالها ما لا يصفه الخيال، ولا يُحيط به الوجدان.

فالواقعة: اسم من أسماء القيامة، وسميت كذلك لتحقيق وقوعها.

والواقعة: هي الحادثة التي وقعت عند النفخ في الصور.

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» (ص ٤٢٥).

وافتحاح السورة بـ ﴿إِذَا﴾ وهي ظرف تتضمن معنى الشرط، استهلال بديع، فيه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.

وعندما تقوم الساعة، تَقَطَّعَ كل شك، وتُلْجِمَ كل لسان، فلا تجد أحدًا يكذِّبُ بها، فيخمد صوت الإلحاد، ويتبدد إلى غير رجعة ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ (٢) أي: لا شك في ذلك، لأن الأدلة السمعية والعقلية قد تظاهرت عليها، ولأن حكمة الله تعالى تقضى ألا يخلق الناس عبثاً دون حساب ولا جزاء، فمع أن الإنسان أكثر شيء جدلاً، ومع أنه عنيد مكابر، ولكن ماذا عساه أن يقول، وهو يرى القيامة بأم عينيه، وينظر إلى الهول وقد وقع، وقد جفت حلوق الأفاكين، وكذَّبَ الواقع لَعُوهم، ويَدُّدُ باطلهم؟

وعندما ترى كل نفس كافرة أهوال الساعة عياناً، فإنها تُسارع إلى الإيمان، ولكن هيهات أن ينفع، فالصَيْفُ ضِيَّعَتِ اللبن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وإذا قامت الساعة فهي كائنة لا محالة، ولا توجد قوة تدفع قيامها أو تمنعه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧) [النساء].

فأقلِّعوا عن اعتقادكم - أيها المكذبون للبعث والنشور - واعلموا أنكم على ضلال وجهل فاضح، وتداركوا ما فاتكم، وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له. وهذا وعيد بتحذير المنكرين لقيام الساعة في وقت المهلة، قبل أن يأتي وقت الحسرة والندامة، والخزي والخيبة في ساحة الحشر والقيامة.

وعندما تقوم الساعة فإنها تخفض أقواماً كانت لهم منزلة رفيعة في الدنيا، يشار إليهم بالبنان، كانوا أعزة، أصحاب مال وجاه، ولكنهم لم يُعِدُّوا العدة لهذا اليوم، غمرتهم الحياة بزخرفها، فنسوا لقاء الله، فيبعثون يوم القيامة سُوقَى وصعاليك، لا يملكون شيئاً من زاد الآخرة، فإن موازين الناس قد اختلفت، وعندما يُساق عزيز الدنيا ذليل الآخرة

إلى النار، يقال له تهكُّمًا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان] أي: إنك كنت كذلك في الدنيا.

وبالمقابل فإن هناك أقوامًا كانوا في الدنيا من غيرة الناس، مغمورين، يعملون للآخرة في خفاء وبعُد عن الرياء، يكونون يوم القيامة قممًا، في أعلى الدرجات ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [فاخذنهم سخرتًا حتى أنسواكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون].

وزُب «كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»، إنه يومٌ تصحَّح فيه الأوضاع، فيظهر الحق، ويختفي الزور، ويستقيم أمرها في ميزان الله.

ذلكم قول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، وهو يومٌ خفضت فيه القيامة صوتها، فأسمعت القريب، ورفعت صوتها فأسمعت البعيد.

قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع الآخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضعاء<sup>(١)</sup>.  
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هذه الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة<sup>(٢)</sup>.

فالآخرة ترفع أهل الصلاح والتقوى، ممن كان أكثر الناس في الدنيا لا يعبأ بهم، وتخفض أقوامًا كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة، وهم من الجبابرة المفسدين.  
ويوم القيامة ترى أماكن من الأرض كانت منخفضة في الدنيا، فإذا هي مرتفعة، وترى أماكن من الأرض كانت في الدنيا مرتفعة، كالجبال والصوامع، فإذا هي منخفضة.  
فالتخفيض والرفع يكون في الناس، ويكون أيضًا في سطح هذه الأرض، كما قال

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٥١٤/٧).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم عن عثمان بن سراقه (٢٨٠/٢٢) و«فتح الباري» (٦٢٦/٨).

تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه] أي: ليس فيها مرتفع ولا منخفض.

كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءِ عَفْرَاءٍ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ» قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»<sup>(١)</sup>. وكلا التفسيرين يكمل أحدهما الآخر، ليس بينهما تدافع.

والمعنى الأول: يرغب الناس في العمل الصالح وهم في الدنيا لترتفع منزلتهم يوم لقاء الله تعالى، ويرهب الفاسقين من سوء المصير حتى يقلعوا عما هم فيه قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

والمعنى الثاني: فيه التهويل من شأن يوم القيامة، حتى يستعد الخلق لاستقباله.

وهنا معنى ثالث: وهو أن القيامة نفسها يكون لها صوت عالٍ، وصوت منخفض،

لتسمع القريب والبعيد. قال تعالى في وصف يوم القيامة:

٤ - ٦ - ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾﴾

وعند قيام الساعة: تُرْزَلُ الْأَرْضُ زَلْزَالًا عَنِيفًا، وتضطرب اضطرابًا شديدًا، فيتهدم كل بناء شامخ، وطوودٍ راسخ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾﴾ أي تحركت واضطربت.

وإلى جوار هذا الزلزال المادي، هناك زلزال اجتماعي، أشارت إليه الآية السابقة

تُهدم فيه مقاييس الدنيا: من الألقاب، والأنساب، والجاه، والسلطان، ليحل محله ميزان

التقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا

أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون].

وبما أن هذه الأرض الثابتة المستقرة - في حِسِّ الناس - تُرْجُّ رَجًّا عند قيام الساعة،

فإن الجبال الصُّلْبَةَ الرَّاسِيَةَ، التي هي أوتاد للأرض، تتحول صخورها إلى ذرات دقيقة،

(١) البخاري برقم (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠).

كالفراش المبوث، والعهن المنفوش، فتنسف نسفاً، وتمر مرّ السحاب، وتستوي مع الوديان والسهول ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ٥ أي: فتنت تفتيتاً دقيقاً.

فتصير الجبال غباراً متطايراً في الجو قد ذره الريح ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ ٦ أي أصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهباء هو الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً<sup>(١)</sup>.

وقال علي بن أبي طالب ؑ: الهباء المنبث: رهج الدواب.

والهباء المنثور: غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قال مجاهد والحسن وغيرهما.

١. قال تعالى في وصف الجبال عند قيام الساعة: ﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ ١٠ [الطور].

٢. وقال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ ١٠ [المرسلات].

٣. وقال سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ٢ [النبأ].

٤. وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرُجُّفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ ١٤ [المزمل].

٥. وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا رجّت الأرض، وبُسّت الجبال قبيل قيام الساعة، وجد كل إنسان أمامه ما عمله في الدنيا من خير أو شر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ٨ [الزلزلة].

## أَصْنَافُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ

٨، ٧ - ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٧ ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾<sup>(٣)</sup> مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

(٢٠١) الطبري (٢٢/٢٨٥).

(٣) ترك الكوفي والحمصي عدّ قوله تعالى ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ آية، وكذا قوله تعالى: ﴿الْمَشْفَعَةُ﴾ وعدهما غيرهما آية.

وقد بيّن سبحانه أن أبناء آدم سيكونون يوم القيامة أصنافاً ثلاثة: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي انقسمتم ثلاث فرق، بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. والأزواج: هي الأصناف التي بعضها من بعض، صنفان في الجنة، وصنف في النار، والزوج يطلق على الصنف وعلى النوع.

ثم فسّرت الآيات: الأزواج الثلاثة، وفصّلت أحوالهم، وهم: أولاً: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أهل الجنة، وهم الذين يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم، يكونون في الجهة اليمنى يوم الحشر، عن يمين العرش، وليس هذا نسبة إلى اليمين والشمال، وقيل: المراد عن يمين آدم وشماله، كما في حديث الإسراء. وهؤلاء هم السعداء الذين يأخذون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم.

وأهل اليمين، هم الذين أطاعوا ربهم، وخالفوا أهواءهم، فكانت عاقبتهم الجنة. وللتعظيم من شأنهم، وبيان علو منزلتهم، وتفخيم لأحوالهم؛ يأتي هذا الاستفهام للتفخيم والتعجب من حالهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هل تدري أي شيء هم؟ وما هو حالهم، وصفتهم؟ وقبل أن يفصل القرآن حالهم ذكر الصنف الثاني المقابل لهم، فقال سبحانه:

٩ - ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ<sup>(١)</sup> مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١﴾﴾

أي: وأصحاب الشمال أهل النار، وهم الذين يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، ويكونون جهة الشمال في يوم الحشر، عن شمال العرش، وهؤلاء هم الأشقياء الذين عصوا ربهم، وأطاعوا أهواءهم وشياطينهم، فكانت النار عاقبتهم.

ولفظ: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ من الشؤم، وهو الضر ضد النفع، فهم قد جلبوا الشؤم على أنفسهم؛ لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا، وكانت العرب تتشاءم من الجهة اليسرى، وتتفاءل بالجهة اليمنى، ويأتي التعجب من شأنهم واحتقارهم وتهويل حالهم في هذا الاستفهام ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هل تدرون من هم؟ وما صفتهم وما حالهم؟ إنهم الذين

(١) ترك الكوفي والحمصي عدّ قوله تعالى: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ آية وعدّها غيرهما آية.



جلبوا الشقاء على أنفسهم بمخالفة الله ورسوله.

وقبل أن يُفَصِّل القرآن حالهم يذكر الفريق الثالث بوصفهم وبيان حالهم، فيقول تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

السابقون إلى الإيمان والطاعات والخيرات في الدنيا هم السابقون إلى دخول الجنات يوم القيامة، وهم الذين سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البر وترك المعاصي، وهم أفضل الأصناف الثلاثة؛ لأنهم سبقوا غيرهم إلى طاعة الله تعالى في كل قول وفعل، وتقربوا إليه بكل عمل صالح، وهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعُرفت منزلتهم، وبلغت من الرفعة مبلغاً لا يرقى إليه أحد، كما قال تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

فهم السابقون إلى الخيرات والحسنات، والسابقون إلى النعيم والجنات.

في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه، وحكموا للناس حكمهم لأنفسهم»<sup>(١)</sup>.

ولما أراد الله تعالى أن يُقَرِّب السابقين أعاد الكلمة ذاتها، كأنه تعالى يقول: إنهم هم هم؛ إذ ليس هناك مِنْ وَصْفٍ آخر يزيدهم شيئاً، فحالهم قد بلغ منتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبراً يخبر به عنهم، أدل على مرتبتهم من اللفظ نفسه، فالسابقون هم السابقون وكفى، وهذا أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من جملة ﴿مَا أَحَبُّبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجملة ﴿مَا أَحَبُّبُ الْمُشْتَمَةِ﴾ فإنها بالنسبة لأصحاب الميمنة للتفخيم

(١) «المسند» (٦٧/٦) برقم (٢٤٣٧٩، ٢٤٣٩٨) وفيه ابن لهيعة قد تفرد به، وهو مما لا يحتمل تفرده وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه البيهقي في الشعب (١١١٣٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١٦/١)، (١٨٦/٢) وابن حجر في «الأمالي المطلقة» ص ١١٣، وقال: هذا حديث غريب، ولم أره إلا من حديث ابن لهيعة، وخالد معروف، يُنظر تحقيق: «المسند» (٤٤٠/٤٠).

والتعظيم، وبالنسبة لأصحاب المشأمة للتفطيع والتحقير، وتعجب السامع من شأن الفريقين، فكانه تعالى قال: فأصحاب الميمنة، ما أحسن حالهم! وأصحاب المشأمة، ما أسوأ حالهم! وفي هذا تشويق للسامع إلى معرفة أحوالهم.

ولمَّا ذكر الله تعالى في أول السورة هول القيامة تخويماً لعباده، وكان من الناس من هو محسن، ومن هو مسيء، قدّم أصحاب اليمين ليزغبوا أكثر فيما عند الله، ثم ذكر ما يقابلهم، وهم أهل الشمال ليزهبوا ويكفوا عن كفرهم وتكذيبهم، ثم أحرّ السابقين وهم الذين لا يحزُّنهم الفرع الأكبر؛ كي يجتهد أصحاب اليمين في القرب منهم، ويتشوق السامعون إلى معرفة أحوالهم، وليبدأ بهم عند تفصيل أحوال الفرق الثلاثة ترغيباً في الاقتداء بهم، وهذا من الأسلوب البلاغي على طريقة اللف والنشر المشوش<sup>(١)</sup>.

ثم أثنى سبحانه وتعالى على السابقين، فقال: ﴿أُولَئِكَ الْمَقْرَبُونَ﴾ من الله تعالى، في جنات النعيم في أعلى عليين، في المنازل العالية التي لا منزلة فوقها، يقربهم سبحانه منه في ظل عرشه ودار كرامته.

والمقربون: هم المحبوبون عند الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عزَّ وجلَّ: من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»<sup>(٢)</sup>.

وإذا أحب الله عبداً أحبه أهل السماء، وأحبه أهل الأرض، ثم يوضع له القبول فيها. وهؤلاء المقربون في جنة الخلد، يخلّدون فيها، وينعمون في النعيم الأكبر والأسنى،

(١) يُنظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٨٧/١٣) و«تفسير الألويسي» (١٣١/٢٧).

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢).

وهو نعيم القرب من ربهم، وكفى بذلك نعمة، وهذا وصف إجمالي للسابقين قبل تفصيل نعيمهم. والسابقون يكونون يوم القيامة:

١٣، ١٤ - ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يُبين سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، أن السابقين المقربين هم جماعة كثيرة من المتقدمين في هذه الأمة، أي: هم عدد كبير من القرون المفضلة، وسلفنا الصالح من صدر هذه الأمة، وهؤلاء السابقون عدد قليل من متأخري هذه الأمة.

وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة، على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، وقد دلت الأحاديث على ذلك. كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»<sup>(١)</sup> وهم الذين نشروا الإسلام في أرجاء المعمورة بعلمهم وعملهم، فهم جماعة كثيرة من الأولين.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وغيره: المراد: السابقون من الأمم، والسابقون من هذه الأمة، وذلك: إما أن يقترن أصحاب الأنبياء بمجموعهم إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فأولئك أكثر لا محالة، وإما أن يقترن أصحاب الأنبياء ومن سبق من أبناء الأمم، إلى السابقين من جميع هذه الأمة، فأولئك أكثر<sup>(٢)</sup>.

والسابقون في الأمم الماضية، كأصحاب موسى الذين رافقوه في التيه، ومثل الحواريين، وكثير من أصحاب أنبياء بني إسرائيل، ومن ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُهَجَّرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والداخلون الجنة من السابقين في هذه الأمة، هم قليل بالنسبة إلى من كان قبلهم،

(١) من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (٣٦٥١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٢٤٠/٥).

فهم كثيرون، لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة مَنْ أجابهم.  
وهذا بخلاف أهل اليمين، فإنهم ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وعليه: فقد يكون من أصحاب اليمين في هذه الأمة مَنْ هو أكثر من أصحاب اليمين من الأمم الأخرى.  
وكان السابقون عددًا قليلًا من الآخرين؛ لأنهم لا يجدون لهم أعوانًا على دينهم، فهم غرباء بين الناس بتقواهم، وسَطَّ قُوَى مناوئة، وخصومات مؤذية.  
والثلثة: هي الجماعة التي لا يُخصر عددها.

وعلى هذا: فالثلثان من الأولين والآخرين هما من أمة محمد ﷺ، ويرشحه أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ لأمة محمد ﷺ وهذا التقسيم خاص بهم:

١. عن أبي بكره ؓ أن النبي ﷺ قال: «جميعها من هذه الأمة»<sup>(١)</sup>.
  ٢. وفي حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.
  ٣. وفي الصحيح: عن أبي سعيد الخدري ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، ثم قال: «نصف أهل الجنة»<sup>(٣)</sup>.
- ويرى بعض المفسرين أن الثلثة من الأولين تعني: الصالحين، وأصحاب الأنبياء الذين سبقوا محمدًا ﷺ برسالاتهم، وأن القلة من الآخرين تعني: المسلمين من هذه الأمة، نظرًا لكثرة من سبق من الأنبياء والأمم، ولعل القول الأول هو الأرجح.  
كلمات فيما أعده الله لأصناف الناس يوم القيامة:

وهذه كلمات فيما أعده الله تعالى لكل من السابقين، وأهل اليمين، وأهل الشمال على ضوء ما جاء في آيات السورة:

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): ورواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، غير علي بن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ، وهو في «مسند الطيالسي» (٩٢٧) قال محققه: إسناده ضعيف.  
(٢) البخاري (٢٣٨، ٨٩٦، ٧٤٩٥) ومسلم (١٩، ٨٥٥) و«المسند» (٧٣١٠) وابن حبان (٢٧٨٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١٦٦٦).

(٣) يُنظَر: حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري بأرقام (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢).

## أولاً: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلسَّابِقِينَ الْمُقْرَبِينَ بِحَسَبِ رَقْمِ الآيَةِ:

معنى الآية: ١٠-١٢ إنهم يتمتعون بمختلف أنواع النعيم في جنة الخلد، لا يحولون عنها ولا يزولون، فهم ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (١٣).

الآيتان: ١٥، ١٦- وهم يستريحون على أسرة منسوجة بالذهب، ومرصعة بالدرّ والياقوت والزبرجد، حال كونهم متكئين عليها في مقابلة بعضهم بعضاً، لإدخال الأناج والسرور عليهم، وحتى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، إنهم: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ (١٥) مُتَّكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ.

والآيات: ١٧-١٩- ولتكريمهم وإعزازهم، فإنه يطوف عليهم -في الجنة- ولدان مخلدون فيها، لا يعترهم ضعف ولا عجز ولا هرم، بل هم دائماً في نضرة الشباب ورقته ونشاطه، يطوفون على أهل الجنة بأكواب من فضة، وأباريق من ذهب، فيها ألوان من الشراب، إلى جوار كؤوس الخمر، من عيونها الجارية التي لا تنقطع، ولا تُخَمَّرُ ولا تُغَصَّرُ، ولا تُسَبَّبُ أَلْمًا ولا ضِدَاعًا، ولا تسبب ضغينة بين الشاربين، ولا تُذهب عقولهم، ولا تُبِيدُ أموالهم، ولا تهدم صحتهم، ولا تحطُّ من كرامتهم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩).

الآيتان: ٢٠، ٢١ - وفي الجنة أنواع الفاكهة من كل ما يشتهي المرء ويتخيّر، وفيها مما لذّ وطاب من أنواع اللحوم، وكل ما يتمنونه ويطلبونه من لحوم الطيور خاصة، وهم يأكلون تشهياً وتلذذاً! إذ إنهم لا يشعرون في الجنة بجوع ولا عطش، ولا تخرج منهم فضلات، ولا يحتاجون إلى علاج أمراض السمنة والتخمة ولا غيرها ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَخْتَبِرُونَ﴾ (٢٠) وَلِحَظِيرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ (٢١).

الآيات: ٢٢-٢٤- وللسابقين في الجنة حور عين، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه، وقد أعدّ الله لهم ذلك لقاء إيمانهم وإخلاص التوحيد لربهم والسبق إلى صالح الأعمال ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤).

الآيتان: ٢٥، ٢٦- وهم يَسْلَمُونَ في الجنة من كل عيب وضُرٍّ وألم، ولا يسمعون فيها لغواً ولا كذباً ولا باطلاً، وكل منهم يَسْلَمُ على الآخر، وتسلّم عليهم الملائكة بما صبروا وآمنوا، وإذا طلبوا شيئاً قالوا: سبحانه اللهم، فالتسبيح يجري فيهم مجرى النفس، وإذا فرغوا مما طلبوا كان آخر دعواهم الحمد لله رب العالمين، إنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ (٢٦).

والسابقون هم الذين قال الله فيهم في نهاية السورة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ يَجْرِي فِيهَا نَعِيمٌ﴾ (٨٩) [الواقعة].

فمتاعهم ليس في جنة النعيم فحسب، بل هم في روح وريحان، وهم في رضوان من الله أكبر، ولذة التمتع إلى وجه الله الكريم.

## ثَانِيًا: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْيَمِينِ

وهذا يشمل عصاة المؤمنين الذين أخذوا جزاءهم على معاصيهم، أو عُفي عنهم قبل دخول الجنة:

الآيات: ٢٨-٣٠- إن كلاً من أصحاب اليمين يُحْصَلُ في الآخرة ما كان يتمناه في دنياه ولم يستطع الحصول عليه، فيحقق الله له في الجنة كل ما يشتهي ويتمنى.

ومن ذلك أن البيئة التي نزل عليها القرآن كان أهلها يحبون أنواعاً من الفاكهة والشجر، وكان شجراً السدر والموز يكثر في بلادهم، فيتمناه بعضهم، وربما تمنى آخرون أن يكون له شجر وافر الظلال يستظل به، والله تعالى يحقق لهم مطلوبهم في الجنة من: السدر، والموز، أو الطلح، والشجر الظليل، وإنه يشبهه في الشكل الذي كان يألفه ويعرفه في الدنيا، ولكن ما في الجنة شيء آخر ﴿وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

قال تعالى عن نعيم أصحاب اليمين ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (٨٨) ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ (٨٩) ﴿وظِلِّ مَمْدُودٍ﴾.

الآية: ٣١- وقد عرف العرب الذين نزل عليهم القرآن، أن الماء يُصَبُّ صبًّا، ويجري

في الأخاديد، وأهل اليمين يكونون في أماكن خصبة، بين الماء المنسكب المتدفق الذي لا ينقطع ولا يتغير، وبين الشجر الكثيف، والظلال الوارفة، والثمار الكثيرة، وهذا معنى ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾.

الآيتان: ٣٢، ٣٣- وفي الجنة فواكه كثيرة متعددة ومتنوعة، لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً ﴿وَفَلَاحَةٌ كَثِيرَةٌ ﴿٣٣﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

الآيات: ٣٤-٤٠ وفي الجنة فرش مرفوعة على الأسرة، وفوق هذه الشُّرُر نساء أهل الجنة، من الحور العين ومن زوجاتهم المحبوبات لهن في الدنيا، لقد خلقهن الله من جديد، فأعادهن إلى سن الشباب، وأبدعهن إبداعاً في أجمل صورة وأحسن هيئة، وجعلهن أباكراً لا ثيبات، وهن متحبيات إلى أزواجهن قد أعدهن الله تعالى لأهل اليمين من جماهير المسلمين، وهم الكثرة الغالبة من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْمُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْيَا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

وهم الذين قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٤٠﴾ فَسَلَّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٤١﴾﴾ [الواقعة].

ويكفي أنه سلم ونجا ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

### ثالثاً: مُجْمَلُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الشُّمَالِ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

الآية: ٤١-٤٢ إنهم يعذبون في ريح حارة تفعل فعل السموم، وتدخل في البدن من مسام الجسم، وهم يُعذَّبون في ماء متناهي الحرارة، فهم: ﴿فِي سُمُورٍ وَجَحِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

الآيات: ٤٣-٥٠ وهم يُعذَّبون في ظل من دخان أسود من نار جهنم، وسماء القرآن ظلًّا من باب التهكم، فهو ظل غير كريم المخبر ولا المنظر ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ١٦]، قال تعالى: ﴿وَيُظَلُّونَ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٤٤﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ والسبب في هذا العذاب:

أ - أنهم كانوا في الدنيا ظالمين لأنفسهم، فكانوا مترفين، يتنعمون بالحرام، ويتكبرون عن الحق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ب - وكانوا يُصِرُّون على فعل الذنب العظيم من الشرك بالله تعالى، ومن كل منكر قبيح ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَعْنَةِ الْعَظِيمِ﴾ (١٦).

ج - وكانوا يُقسِمون بالأيمان المؤكدة أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب.

وكانوا يُنكرون الحساب والجزاء، ويستبعدون إعادة الحياة إليهم وإلى من سبقهم من الأولين، ﴿وَكَاثُرًا يَقُولُونَ أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۗ أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٧) ﴿أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (١٨).

وقد أمر الله رسوله أن يرد على إنكارهم للبعث والنشور، بأن السابقين واللاحقين سيُبعثون من قبورهم في يوم معلوم، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢٠).

وبعد أن بين الله سبحانه السبب في عذاب أهل الشمال استأنف سبحانه ذِكر أولوان من عذابهم، ومن ذلك:

الآيتان: ٥١-٥٣ - إنهم يأكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في قعر جهنم، وقد جعله الله طعامًا للظالمين الضالين عن طريق الحق، إلى جوار الأكل من الضريع وغيره.

والزقوم شجر كرية المنظر والمخبر، مرُّ المذاق، يغض في حُلوقهم، وإنهم ليأكلون منه فيملؤون منه البطون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾.

الآيات: ٥٤-٥٦ - ثم إن أكل الزقوم يلجئهم إلى الشراب الكثير، فيستغيثون طالبين الشراب فيعاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٥] فيشربون ولا يزتؤون كشأن الإبل الهيم التي تشرب حتى تموت أو تسقم، نسأل الله العافية والسلامة قال تعالى في وصف شراب أهل الشمال: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمِيمِ

﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا مِنْ شُرْبِ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَرْجُمُومَ الَّذِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وأصحاب الشمال هم من قال الله فيهم في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَدِّبِينَ

الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾ فَتُرْزَلُ مِنْ حِمِيرٍ ﴿١٣﴾ وَنَصْلِيَّةٍ حَمِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة].



## رَابِعًا: مُوَازَنَةٌ بَيْنَ نَعِيمِ السَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَعَذَابِ أَهْلِ الشَّمَالِ

النَّعِيمِ الْأَوَّلُ لِلْسَّابِقِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ، وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ لِأَهْلِ الشَّمَالِ

قال تعالى في صفة جلوس السابقين في الجنة:

١٥، ١٦ - ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ<sup>(١)</sup> ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي: إنهم جالسين في الجنة على أسرة منسوجة بقضبان الذهب، مصفورة من المعادن النفيسة، مرصعة بالدر واللؤلؤ والياقوت، وهو كرسي متسع يجلس عليه المتكئ والمضطجع، مرتفع عن الأرض.

وملوك الدنيا يتخذونه من ذهب وفضة وعاج وأبنوس، فأهل الجنة أولى بذلك.

والموضونة: هي المصفوفة المسبوك بعضها ببعض، كما تُسبك حلق الدروع، ليكون المفرش وثيرًا مريحًا للمضطجع والمتكئ، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وهكذا فإن السابقين يجلسون على سُرُرٍ وأرائك متكئين عليها في الجنة، يقابل بعضهم بعضًا بوجوههم، وهذا أدخل في السرور، وأكمل في أدب الجلوس، قلوبهم ممتلئة بالنعيم والراحة، ولا يشغل بالهم شاغل من همٍّ ولا كدر، فهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَّقِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصفوات].

وهم ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان].

وهم أيضاً ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْجَنَّةِ دَانَ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن].

ومنهم من يتكئ على رفرف خضر وعبقري حسان، هذه هيئة جلوس السابقين

(١) ترك البصري والشامي عد ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ آية، وعدها الكوفي والحجازي، وقد عد ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ قبلها المدني الأول والمكي والشامي والبصري، وترك عدها المدني الأخير والكوفي.

(٢) حذف أبو جعفر همزة ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ ومثله حمزة عند الوقف، ويزاد له التسهيل بين بين، وقرأ الباقون بهمزة مكسورة، ولورش ثلاثة وجوه المد في البدل هي: القصر والتوسط والإشباع.

المقربين في الجنة.

وإذا كان هذا حال المقربين، فما حال أهل اليمين؟ إنهم:

٢٨ - ٣١ - ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾

ومن نعيم أهل اليمين في الجنة: جلوسهم في ظلال وارفة، وأكلهم من شجر السدر والطلح: فما أعظم مكانة أصحاب اليمين! وما أجزل جزاءهم! وما أحسن حالهم! إنهم يجلسون تحت أشجار النبق الخالي من الشوك، وهذه الجلسة أمنية يتمناها من نزل القرآن بلسانهم، والقرآن يحدث الناس بما يعرفوه حتى لا يكذبوه.

وفي الحديث: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكة، فقال ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ خَضَّدَ اللَّهُ شُوكَهُ، فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شُوكَةٍ ثَمْرَةً، وَإِنَّ الثَّمْرَةَ مِنْ ثَمَرِهِ تَفْتَقُ عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، مَا فِيهَا لَوْنٌ يَشْبَهُ الْآخَرَ ﴾»<sup>(١)</sup>.

أي: إن حدائق الجنة مليئة بشجر النبق منزوع الشوك، ممتلئة بكثرة الثمار والأغصان غير المضرة، وهو شجر مبارك، والمخضود هو الموقر بالثمر الخالي من الشوك. جاء عن عطاء ومجاهد: أن أناساً كان يعجبهم وادي الطائف وما فيه من طلح وسدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فأنزل الله هذه الآية<sup>(٢)</sup>. ولما كان السدر معروفاً عند العرب، وكان محبوباً لديهم، ذكره الله تعالى في الآية، ووعدهم الله به.

(١) من حديث أبي أمامة في «المستدرک» (٤٧٦/٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، ورقمه في ط دار المعرفة (٣٨٣٠) قال محققه: عبدالسلام علوش: سنده جيد، والبيهقي (٣٠٢) في «البعث» وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» برقم (٥٥١١): إسناده حسن، وله شاهد صحيح في «المعجم الكبير» للطبراني (١٣٠/١٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤١٤/١٠): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو بكر بن أبي داود برقم (٦٩).

(٢) يُنظَر: البيهقي (٣٠٣) والطبري (٣١١/٢٢).

والطلح المنضود: هو شجر الموز، المنسَّق المنظم، المتراكم بعضه فوق بعض، فليست له ساق بارزة، وقيل: هو الطلح المعروف، وثمر أشجار الجنة ليست في غلاف كثمر شجر الدنيا، وثمار هذه الأشجار إما مأكولة، وإما مشروبة، وإما مشمومة، وإما منظورًا إليها، والموز من الفواكه المأكولة.

عن عقبه بن عبد الله السلمي قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، تُذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكرًا منها - يعني: الطلح - فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خضية التيس الملبود - كثير اللحم - فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لونا آخر»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَأَتَوْنَا بِهِ مُمْتَنِينَ﴾ [البقرة: ٢٥].

هذا: وظل الجنة ظلٌّ دائم ممتد منبسط، لا تنسخه الشمس كظل الدنيا؛ لأن الجنة لا شمس فيها.

عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وِظِلٌّ مَّدُودٌ﴾<sup>(٢)</sup> والظل الممدود هو الذي لا يتقلص، قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد: ٣٥].

وفي حديث أبي سعيد وسهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام ما يقطعها»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير: هذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة

(١) ابن أبي داود في «البعث» (٦٩) والطبراني في «الكبير» (٣١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٣/٦) قال

الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤١٤/١٠): رجاله رجال الصحيح.

والملبود: هو الذي يكتنز اللحم، ويلزم بعضه بعضًا، فيقال: تلبَّد.

(٢) البخاري برقم (٤٨٨١)، وانظر: (٣٢٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٦) والترمذي (٢٥٢٣) وابن ماجه (٤٣٣٥)

و«المسند» (٧٤٩٨) وغيرهم.

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥٥٣) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٨).

الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيده، وثقة رجاله<sup>(١)</sup>.

وأهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾<sup>(١٧)</sup> ودانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها ندبلاً ﴿[الإنسان: ١٣، ١٤].

أي: وفي الجنة ماء كثير مصبوب يجري على الأرض في جداول، ويأخذون منه ما شاؤوا دون جهد ولا تعب، وهذا الماء يجري دائماً بلا انقطاع، ويسير في غير أهدود.

فالماء المسكوب: هو ما يجري من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة، تحت القصور والأشجار في الجنة، أو ما تدفعه النافورات إلى أعلى.

قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم غزيرة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا في الجنة بأسباب التزهة وهي الأشجار وظلالها، والأنهار وجريانها<sup>(٢)</sup>.

وفي الجنة أيضاً عيون مياه ممزوجة بمشروبات أخرى تفجر لهم يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْأَنْبَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِرْجَاهَا كَأْفُورًا﴾<sup>(٥)</sup> عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴿[الإنسان: ٥، ٦] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ مِرْجَاهَا زَبْجِيلًا﴾<sup>(٧)</sup> عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨]، وجاء في سورة المطففين ﴿وَمِرْجَاهُ مِنْ تَنْبِيمٍ﴾<sup>(٢٧)</sup> عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

وإذا كان هذا حال السابقين وأهل اليمين وهم جلوس في الجنة، يتنعمون بما أعده الله لهم من نعيم، فما حال أهل الشمال في مقابل ذلك، قال تعالى في وصف عذابهم:

٤١ - ٤٤ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ<sup>(٣)</sup> مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَجَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ

وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾

ما أسوأ حال أصحاب الشمال! وما أقطع جزاؤهم! فهم ﴿فِي سُمُومٍ﴾ أي: في ريح

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٢٨/٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠٩/١٧).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ متروك من العدد عند الكوفيين، ومعدود عند غيره.

حارة من حر نار جهنم، تأخذ بأنفاسهم، وتُقلقهم أشد القلق، وتتفد في مسامهم، تهلك الأبدان، وهي ريح شديدة الحرارة، وليس معها بلل، كأنها السم القاتل، وإلى جوار فيح جهنم، فهم في (حميم) وهو الماء الذي بلغ النهاية في درجة الغليان، يُقطع الأمعاء ويشوي الوجوه، إنهم بين الريح التي تُلْفَحُهُم بحرارتها وشدة أذاها، وبين الماء الذي يغلي، كما قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ [الرحمن]. وقال تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٤٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٤٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤٤﴾ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ وهم يغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه.

ولا ظلُّ لأهل النار يقيههم من السموم والحميم إلا ظل دخان أسود كثيف، يخنق الأنفاس، وينفذ في المسام، وهو ظل دخان لهب جهنم، يضر ولا ينفع، تتنفي عنه صفة البرودة، وكرامة الظلال، كما قال تعالى: ﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَلَبِ ﴿٣١﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]. وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: دفع الحرارة وحسن المنظر، مع كون الإنسان مكرماً.

وظل أهل النار ليس كذلك فهو ظل حارّ ضارّ، ينبعث من لهب النار المختلط بالدخان، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦] وهذا العذاب يحيط بهم من كل جانب ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ولأهل الجنة ظل من نوع آخر، كما قال تعالى: ﴿ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧].

وقد صف الله ظل أهل النار بأنه ظل لا بارد المتزل، ولا كريم المنظر، فلا يستروح به الإنسان، ولا يستفيء بظله. وهذا إشارة إلى وجود الهم والحزن والغم والشر الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَذَابِ أَهْلِ الشَّمَالِ:

### السَّبَبُ الْأَوَّلُ: هُوَ التُّرْفُ

٤٥ - ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾

أي: إن أهل النار استحقوا هذا العذاب؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم الإيمان والعمل الصالح، وكانت معيشتهم على ظهر الدنيا تشبعا من اللذائذ المتاحة، أو جريا وراءها، سواء وجدت أم لم توجد، لقد ألتهتهم الدنيا عن العمل بالآخرة، وألهاهم الأمل عن إحسان العمل.

وقد وصف الله معيشة الكافر بقوله: ﴿إِنَّهٗ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهٗ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٣، ١٤] أي: زعم أنه لن يعود إلى ربه. والترف: هو بטר النعمة وعدم شكرها، وشكرها يكون بالاعتراف للخالق سبحانه بالتوحيد، وألا تصددهم النعمة عن ذكر الله تعالى، وألا يستعملوها في المعاصي ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْآلَمَةُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] والترف في العيش ليس ذنبا في حد ذاته، فليس سببا مستقلا للعذاب، إلا إذا انضم إليه التكذيب بخاتم الرسل، أو اليوم الآخر، أو الشرك بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَدَرَبِىْ وَالْمُكذِّبِينَ أُولِى النِّعْمَةِ وَمَهَلَمْزَ قَلِيلاً ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١] أو تعلق به قلب المرء، فاطمأن إليه وأنكر الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٨، ٧].

## السَّبَبُ الثَّانِي هُوَ: الإِصْرَارُ عَلَى كِبَائِرِ الذُّنُوبِ

٤٦ - ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

إن عدم الإيمان باليوم الآخر يجعل الكافر يبنّي حياته على أنه لا بعث ولا حساب! فيوغل في المعاصي، وينكب عليها دون شعور بقبحها، ولا ندم على اقترافها، وهذا هو الحنث العظيم، أي: المعصية الفادحة مع الدوام عليها وسبق الإصرار والترصد لها، وأعظم المعاصي: الكفر والشرك بالله تعالى مع عدم التوبة، وكذا اليمين الغموس، وإنكار البعث والجزاء والجنة والنار.

وكان المكذبون باليوم الآخر يقسمون بالله تعالى أنه لا بعث ولا نشور، ويقسمون بالله أيضا لو جاءتهم آية كما طلبوا ليؤمنن بها، ثم يحثون في أيماهم.

وهكذا: فإن أهل الشمال يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط الله عز وجل، فيقدمون على ربهم بأوزار كثيرة قد ماتوا عليها فيكون هذا جزاؤهم.

### السَّبَبُ الثَّلَاثُ: إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٤٧- ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ <sup>(١)</sup> أَيَّدَا <sup>(٢)</sup> مِتْنَا <sup>(٣)</sup> وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا <sup>(٤)</sup> لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾

إن أهل الشمال كانوا ينكرون البعث ويعتقدون استحالته، ويناظرون في ذلك قائلين: هل سنبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد والتكذيب، وسنبعث نحن ومن سبقنا من الآباء والأجداد.

٤٨-٥٠- ﴿أَوَّءَ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ﴾ <sup>(٥)</sup> ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ <sup>(٦)</sup> ﴿لَمَجْبُوعُونَ﴾ <sup>(٧)</sup>

إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

أي: أُنْبِعث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين صاروا ترابًا قد انثر وتفرق في الأرض؟ وقد لَقَّنَ اللهُ تعالى رسوله الجواب الشافي بأن جميع الأمم التي سبقت، ومنها آباؤكم الأولون، وجميع الأمم اللاحقة، وأنتم من جملتهم ستحشرون في صعيد واحد ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ <sup>(١٣)</sup> وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٤﴾

[هود: ١٠٣، ١٠٤].

(١) عد المكي والحمصي (وكانوا يقولون) آية، وتركه من العدد غيرهما.

(٢-٤) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بهمزيين في (أثدا) على الاستفهام وهمزة واحدة في (إنا) على

الخبر، والباقون بالاستفهام فيهما، وكلٌّ على أصله من حيث التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه. فقالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال، وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وأبو جعفر يسهل الثانية مع الإدخال، وهشام يحقق مع الإدخال، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٥) ترك الحمصي عد قوله تعالى: (أو آباؤنا الأولون) آية، وهو معدود آية عند جمهور أهل العدد.

(٦) ترك الشامي والمدني الأخير عد قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ آية، وهو معدود آية عند غيرهما.

(٧) عد الشامي والمدني الأخير ﴿لَمَجْبُوعُونَ﴾ آية، وهو متروك لغيرهما من أئمة العدد.

إن الخلائق جميعًا - السابق منهم واللاحق - سيُجمعون ويُحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، وليس البعث على أفواج أفواج، أو جماعات جماعات، كموت الناس في الدنيا، بل يبعث الأولون والآخرين في يوم واحد، دفعة واحدة، يجمعهم ربنا فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

## النَّعِيمُ الثَّانِي لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧-١٩ - ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ يَا كُوفٍ وَآبَارِيقٍ ﴿١٨﴾ وَكُلٌّ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٩﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا

وَلَا يُزْفُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ويخدم السابقين المقربين في الجنة، ويقوم على قضاء حوائجهم فتية صغار السن، في غاية الحسن والبهاء، يبقون في سن الشباب أبد الآباد، ونضارة الصبا لا يهزمون، ولا يتغيرون لا تزيد أعمارهم، ولا يملئون من كثرة التردد على خدمتهم، وهم ولدان خلُقوا في الجنة لخدمة أهلها كالحور العين، ولم يولدوا.

وقيل: إنهم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل سن الحُلُم. قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ

مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٩، ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

وخدمة الغلمان من باب تعدد ألوان المتع والنعيم، وإلا فإنهم يجابون إلى مطالبهم

بمجرد توجه رغباتهم إلى الشيء قائلين ﴿سُبْحٰنَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

والولدان المخلدون في الجنة، يطوفون على أهلها بأفداح لا عرى لها ولا خراطيم،

مستديرة الفم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ لها خرطوم وعروة يوضع فيها الخمر، وهي تبرق من صفاء

(١) عد المكي والمدني الأخير (وآباريق) آية، وتركها غيرهما من العدد.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر الزاي من (يُزْفُونَ) مضارع أنزف، بمعنى: ذهب

عقله من الشُّكْرِ، والباقون بضم الياء وفتح الزاي مضارع نزف، بمعنى: سكر وذهب عقله.



لونها، فالأكواب ليست لها آذان، والأباريق لها آذان، قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ فَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُوا نَفِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

﴿وَكَأْسٍ﴾ أي: كوب طويل مملوء بالخمير من عيون جارية في الجنة، يجري فيها الماء والعسل واللبن ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَرِّ لَذَّةِ الشَّرْبِ﴾ [محمد: ١٥] ولا يقال كأس إلا إذا كان فيه خمير. والمعين: هي الخمر الجارية لذيدة المشرب، لا آفة فيها، ولا ضرر منها، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ ﴿١٦﴾﴾ [الصفات: ٤٥، ٤٦] وقال جل شأنه: ﴿وَأَسَادِهَاقًا ﴿٣١﴾﴾ [النبا: ٣٤] أي ممتلئة.

ومع كثرة الشراب في الجنة من لبن وعسل وماء وخمر، فإن الخمر المعتية خمير أباحها الله تعالى، لا تصيب بالصداع ولا الدوار، ولا تنزف العقل فتجعله يهذي، وتختلط عليه الأمور، كما هو معروف لدى السكارى في الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. وقد نزه الله خمر الآخرة عن هذه الخصال الذميمة فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصفات: ٤٧].

فرؤوس أهل الجنة لا تتصدع من شرب الخمر كما هو الحال في الدنيا، ولا تذهب عقولهم، كما يحدث في الدنيا، فخمر الآخرة تأخذ من خمر الدنيا مجرد الاسم، ولها خصائص النعيم في الجنة.

## النَّعِيمُ الثَّابِتُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٠، ٢١ - ﴿وَفَكَهْمٍ مِّمَّا يَتَخَبَّوْنَ ﴿٢٠﴾ وَلِحَرِطِيرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

ويطوف عليهم الولدان بأنواع الفاكهة التي يتخيرونها من الثمار والبقول كاللوز والجوز والفسق، وهي كثيرة متنوعة، لا تنقطع صيفاً ولا شتاءً، وهي تأخذ شكل ثمار الدنيا وفواكهها، كما يألفه الإنسان، ولكن طعمها ألد وأشهى، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا

رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴿البقرة: ٢٥﴾. فاللون واحد والطعم مختلف، والسابقون المقربون لهم في الجنة ما يشتهون وما يتخيرون من أنواع الفواكه المختلفة، دون أن يصابوا بأضرار صحية كالحموضة أو السكري من كثرة أكل التمر مثلاً، فلهم ما يطلبون في الجنة من لذائذ المطعومات والمشروبات من كل تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ومن كل ما يتخيرون ويروق في أعينهم، وهم فيها خالدون مخلدون منعمون مكرمون.

وفي مقابل الفاكهة المختارة، ولحم الطير المشتهى للمقربين؛ الفاكهة الكثيرة التي لا تقطع صيفاً ولا شتاءً لأهل اليمين.

ويطوف الغلمان على أهل الجنة بلحم طير مما ترغب فيه نفوسهم أي: من كل صنف من الطيور يشتهون، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، مشوياً، أو مطبياً أو مطبوخاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخطر على قلبه لحم الطير، فيطير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، وقُدِّمت الفاكهة على اللحم؛ لأن أهل الجنة يأكلون للتفكه والتلذذ وليس عن جوع، فنفوسهم تميل إلى الفاكهة أكثر، وهذا من شأن الشبعان.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن طير الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه الطير ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»<sup>(١)</sup>.

(١) «المسند» (٢٢١/٣) (١٣٣١١) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف سيار بن حاتم، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦١٤) بإسناد حسن، و«الترغيب والترهيب» برقم (٥٥٠٦) قال العراقي في تخريج الإحياء (٢٧٧٠/٦): إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة «مجمع الزوائد» (٤١٤/٤) وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح، يُنظر: «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٧٨، ٢٠٦٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٥١٤).

والبُخت: جمال طوال الأعناق. قال تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٣٢) [الطور: ٢٢].  
وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال  
تعالى في مقابل ما سبق:

٣٢، ٣٣ - ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ (٣٣) ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (٣٣)

ولما كانت الفواكه في الأرض موسمية، تظهر في بعض الشهور، وتختفي بقية العام،  
وُصفت فاكهة الجنة بالكثرة والاستدامة. وما في الآخرة من فواكه وثمار وغيرها يشبه  
شكل ما في الدنيا ويختلف في طعمه. جاء في الحديث عن سدره المنتهى: أن النبي ﷺ  
قال: «فإذا ورقها كأذان الفيلة، ونبقها مثل قلال هجر»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت الجنة  
فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»<sup>(٢)</sup>. ففاكهة الآخرة لا تنقطع  
ولا تقل، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون وهي تشبه فاكهة الدنيا في  
الاسم وتختلف في المذاق والطعم.

أي: إن ثمار الجنة لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وهي ليست بالقليلة  
العزيزة، وليست ممنوعة عن أحد، ولا ممنوعة في وقت من الأوقات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تنقطع إذا جُنِثَتْ، ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها.

وفي الأثر: «ما قُطِعَتْ ثمرة من ثمار الجنة، إلا عاد مكانها أخرى».

فهي فاكهة لا تنفد، ولا تنقطع، ولا يمنع منها مانع. ولا تفسد ولا تدبل، فهي طازجة  
بشكل مستمر، وهي كاملة السُّعرات الحرارية وإن كان البدن لا يحتاج إلى شيء من  
هذه السُّعرات لأن ما يؤكل وما يشرب في الآخرة إنما هو للتذو والتفكه، وليس لحاجة  
الجسم إليها، وهذه الثمار في متناول أيديهم يقطفونها من أصلها كلما أرادوا.

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٠٧) و«صحيح مسلم» (١٦٢) من حديث أنس.

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٥٢) و«صحيح مسلم» (٩٠٧).

## النَّعِيمُ الرَّابِعُ: فِي الْجَنَّةِ لِلْمُقَرَّبِينَ وَأَهْلِ الْيَمِينِ

٢٢ - ٢٤ - ﴿وَحُورٌ عِينٌ<sup>(١)</sup>﴾ ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

أي: ويطوف على أهل الجنة من السابقين المقربين نساء عيونهن شديدة البياض والسواد في سعة وجمال، فإن من العلامات البارزة في الجنة الحور العين، خلقهن الله وأبدعهن في الجنة، فتيات ساحرات العيون، يستمتع بهن أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ﴿الطور: ٢٠﴾ والحوراء هي التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، و(العين) حسان الأعين واسعات في حُسن وبهاء إلى جوار نساء الدنيا بعد صوغهن في قوالب أخرى تجعل العجائز شواب، والدميمة وسيمة.

والحور العين في الصفاء والنقاء، كاللؤلؤ المصون في أصدافه لم تمسه يد، فهو لؤلؤ أبيض رطب صافي، مستور عن الأعين والريح والشمس، لونه من أحسن الألوان، لا عيب فيه بوجه من الوجوه، وكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن كاملات الأوصاف، يجد المؤمن فيهن كل ما يتمناه وما يروق له، وما كان يشتهي في دنياه.

إن أصناف النعيم التي حظي بها السابقون في الجنة، كانت جزاءً لأعمالهم الصالحة التي قدّموها في الدنيا، لقد أحسنوا العمل في الدنيا فأحسن الله ثوبتهم، وكانوا من المقربين؛ لأن الله تعالى قربهم إليه بسبب تقربهم منه بالطاعات، وتزكيتهم المحرمات والشبهات، والإكثار من النوافل والقربات، كما في الحديث: «ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»<sup>(٢)</sup> «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه

(١) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر بخفض الراء والنون من (وحور عِين) عطفاً على (جنات النعيم)، والباقون بالرفع فيهما عطفاً على (ولدان) أو مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: لهم. وقد عدّها آية المدني الأولى والكوفي وتركها غيرهما من العدد.

(٢) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» (٢٦٨٧).

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»<sup>(١)</sup>  
ومنازل الجنة ومراتبها على قدر الأعمال، أما دخول الجنة في حد ذاته فهو محض  
فضل من الله تعالى، فقد صح في الحديث: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا:  
ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان هذا شأن السابقين المقربين، فما شأن أهل اليمين من عامة المؤمنين، قال  
تعالى في مقابل ما سبق:

٣٤- ٤٠ - ﴿وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فِعَلْتَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾  
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: وفي الجنة سرر مفروشة منضدة، قد ارتفعت فوق الأسرة عن الأرض ليتكئ  
عليها أهل الجنة وأزواجهم، وهذه الفرش من نسج خاص بأهل الجنة وليست كفرش  
الدنيا، ويكُنَّى بالفرش عن المرأة، فُتَسَمَّى المرأة فراشًا، وهذا أنسب بالآية بعدها، فيكون  
المعنى أن نساء الجنة رُفِعْنَ بالفضل والجمال عن نساء الدنيا.

وقد جاء وصف هذه الفرش في مثل قوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى رَقَرٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾  
[الرحمن: ٧٦] وهذا بالنسبة لأهل اليمين وقوله: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].  
إنا خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا غير الذي كُنَّ عليه في الدنيا، فهي نشأة كاملة لا  
تقبل الفناء، وهُنَّ في سن الشباب لا يهرمن، كما خُلِقَتْ في الجنة نساء جميلات  
وسيمات أعدهن الله لأهل الجنة مخلوقات فيها.  
وهؤلاء النسوة عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا، وهن في سن  
الشباب دائمًا.

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٥٠٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٧٢٠٣) بنحوه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر: (٧٤٧٩).

(١٠٦١٤) وعن جابر (١٥٢٣٦).

فمن أنس: أن امرأة عجوزًا جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: «لا يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولّت تبكي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾»<sup>(١)</sup>. وهذا يشمل الحور العين ونساء الدنيا، والبركة ملازمة لهن جميعاً في كل الأحوال.

والمرأة العروب هي المتحبة إلى زوجها بحسن لفظها، وحسن هيئتها، ودلالها وجمالها، ومحبتها، فهي إن تكلمت سبت العقول، وودّ السامع أن كلامها لا ينتهي، وإن نظر إليها ملأت قلبه إعجاباً، وكل ذلك بدون تكلف، فهي كثيرة الضحك والمزاح واللهو والخضوع في القول، والتغزل في الزوج، والمؤانسة في المجالسة، والتدلل، والمعاكسة، واللعب، وكل ما فيه جلبُ محبة الزوج واكتساب قلبه، ونساء الجنة في سن الشباب المستوي مع غيرهن لا تفاوت بينهن في السن، ولا في صفات الحُسن، فأعمارهن ثلاثة وثلاثون عاماً لا يزدن عليها، وقد قبضهن الله إليه في الدنيا عجائز شُمطاً رُمضاً عُمشاً، ثم جعلهن في الجنة أتراباً، على سن ميلاد واحدة في الاستواء.

عن معاذ بن جبل ؓ: «يدخل أهل الجنة الجنة جُزداً مُزداً مُكحّلين، أبناء ثلاث وثلاثين»<sup>(٢)</sup>، كما قال تعالى: ﴿وَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ [النبا: ٣٣]. وقد وصف الله نساء الجنة بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] هذا غاية ما يشتهي المرء ويتمنى، نساء راضيات مرضيات، لا تحزن ولا يحزن، ولا نكد ولا كدر، بل فرح وسرور ومحبة وحبور. وكل ما سبق ذكره من ألوان النعيم أعدّه الله لأهل اليمين، وهم جماهير المؤمنين في الجنة، ولأن عمل أهل اليمين أدنى من عمل السابقين لم يقل الله تعالى: ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا

(١) أخرجه عبد بن حميد، والترمذي (٢٣٢) والبيهقي (٣٨٢) وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٧٥).

(٢) «المسند» (٢٢١٠٦) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٢٥٤٥) والبخاري في مسنده (٢٦٤٤)

والطبراني في «الكبير» (١١٨) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٥٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن

الترمذي» (٢٠٦٤).

يَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ إشارة إلى أن الفضل في شأن أهل اليمين أكثر، حيث يدخل بعضهم النار عقابًا على معاصي فعلها في الدنيا ولم يثب منها، ثم يدخلون الجنة <sup>(١)</sup>.  
وأهل اليمين جماعة كثيرة من الأولين في صدر أمة محمد ﷺ.  
وقيل من الأمم الماضية.

وجماعة كثيرة من الآخرين وهم من أهل هذه الأمة.  
أما السابقون: فهم جماعة كثيرة من الأولين من هذه الأمة، أو الأمم السابقة،  
وجماعة قليلة من أمة محمد ﷺ، وقلتها بالنسبة لكثرة الأمم وكثرة الرسل.

### طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَشَرَابُهُمْ

٥١-٥٣- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾

إنكم أيها الضالون عن الهدى، المنصرفون عن الحق، المكذبون بالبعث والحساب  
والجزاء، غير المصدقين بوعد الله ووعيده، تأكلون يوم القيامة من شجر الزقوم،  
وتملؤون بطونكم منها.

والزقوم أقبح الطعام، وأقبح الشجر، وهي شجرة تنبت في قعر جهنم، وثمرها كأنه  
رؤوس الشياطين، وقد أعدّها الله لعذاب الكافرين في جهنم، فهي طعامهم وغداؤهم.

فيأكل أهل النار من شجرة الزقوم حتى تمتلئ منها بطونهم لشدة ما حلّ بهم من  
الجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَعَلَى  
الْحَمِيرِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ  
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾  
[الصافات: ٦٣-٦٦]. والذي أوجب لهم ذلك ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر والتكذيب.

قال تعالى في شراب أهل النار بعد أن ذكر طعامهم:

(١) يُنظَرُ: «تفسير الألوسي» (١٤٣/٢٧).

٥٤ - ٥٦ ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ لَحْمِهِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزُّهُمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

وبعد الأكل من شجرة الزقوم بالنسبة لأهل الشمال، يشربون من ماء قد بلغ منتهى الحرارة، لا يزوي ظمأ، ولكنه يقطع الأمعاء. ويشوي الوجوه فيشربون منه بكثرة، كأنهم مصابون بداء الهيام الذي يصيب الإبل فتشرب ولا تشبع، ولا تزال تشرب حتى تموت، فالهيم هي الإبل العطاش، ثم يقال لهم:

هذا العذاب والطعام والشراب هو المعدُّ لهم زادًا وضيافةً يوم القيامة، فبئس الطعام طعامهم، وبئس الشراب شرابهم، وبئس المصير مصيرهم.

### النَّعِيمُ الْخَامِسُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٢٥، ٢٦ - ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾

وأهل الجنة من السابقين المقربين لا يسمعون في الجنة كلامًا باطلاً، ولا قبيحًا، ولا ما لا فائدة فيه، ولا ما يُكسب صاحبه إثمًا، من قول أو فعل قبيح، ولا فاحش ولا ساقط، فهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [النبا: ٣٥].

وهكذا وصف الله عباد الرحمن، ووصف عباده المؤمنين بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، ووصف الذين أتوا العلم بأنهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وهكذا أهل الجنة لا يسمعون فيها ما هو لغو ولا ما يؤثم قائله.

والسابقون المسارعون إلى الخيرات لا يسمعون في الجنة إلا قولاً طيباً، يسر النفس ليس فيه لغو ولا إثم، فإن دار الطيبين لا يكون فيها إلا كلاماً طيباً سالمًا من الفحش والزور وسائر العيوب، وتسليم بعضهم على بعض، وتحية بعضهم لبعض، ومودة بعضهم لبعض، وسلام الملائكة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ رَحِمْتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس: ١٠].

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٤].

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر بضم الشين من (شرب) مصدر، والباقون بفتحها اسم مصدر.

(٢) ترك المكي والمدني الأول ﴿ وَلَا تَأْتِيًا ﴾ فلم يعدانها آية، وعدّها غيرهما.



﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَبْوًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

### أهل الجنة من أمة محمد ﷺ:

١- في الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، قيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟»، فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يزقون، ولا يسترقون، ولا يتطَيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل آخر، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: «سبقك بها عكاشة»<sup>(١)</sup>.

والمعنى: أنهم (لا يرقون ولا يسترقون) رقية محرمة غير شرعية، كالتعويذ من مرض لم يقع بعد، ومثل التمام والتولة، وفي بعض الروايات عند البخاري (لا يكتون) بدل (لا يتطيرون) والتطير محرّم اعتقاده شرعاً، فالمنفى في الحديث هو الرقية المحرمة وليس الرقية الجائزة، المندوب إليها.

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحوًا من أربعين رجلاً، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» قال: قلنا: نعم، فقال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» قلنا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا

(١) البخاري (٣٤١٠، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠، ٢٢١).

نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»<sup>(١)</sup>.

٣- وعن بريدة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أهل الجنة عشرون ومئة صِف: ثمانون منها من أهل هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»<sup>(٢)</sup>.

### موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين:

هذا: وإن جميع ما ذكر في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب اليمين، ليس مخالفاً لما ذكر بالنسبة للسابقين، كما أن ما أعطي للسابقين، لا يخالف ما أعطي لأهل اليمين:

١- فالظل الممدود. ٢- والماء المسكوب. ٣- وكون أزواجهم ﴿عُرَابًا نَّارًا﴾<sup>(٣٧)</sup>.

هذه الثلاثة ذُكرت لأهل اليمين، ولم تُذكر للسابقين، ولا شك أنهم أعلى منزلة من أصحاب اليمين، فهي ثابتة لهم لا محالة، ويدل على ذلك آيات سورة الرحمن في وصف جنتي من خاف مقام ربه، وما ذكر فيها للسابقين من:

١- طواف الولدان عليهم. ٢- والأكواب والأباريق. ٣- ولحم الطير.

٤- وكون أزواجهم حورًا عِينًا. ٥- وأنهم لا يسمعون في الجنة إلا قِيلاً سلاماً سلاماً.

هذه الخمسة لم يُذكر مثلها لأهل اليمين، مع أن لأهل الجنة على وجه العموم ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون؛ إذ ليس المقصود توزيع النعم أو حضرها وقضرها على كل فريق، وإنما المقصود هو مجرد تعداد بعض النعم، والتشويق إليها.

على أن آيات القرآن الكريم ذُكرت أشياء أخرى لأهل الجنة لم تُذكر هنا بالنسبة للفريقين معاً، وذلك مثل: ﴿دَعْوَنَّهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

ومثل: ﴿عَلَيْهِمْ يَابُّ سُدَيْنٍ حُضْرٌ وَاسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أُسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

(١) البخاري (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) ومسلم (٢٢١) واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد حسن برقم (٢٠٠٦٥) في «صحيح سنن الترمذي»، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٨٩) بتصحيح الألباني فيهما.

ومثل: ﴿يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ومثل: ﴿وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

وهكذا، فإن الغرض من الآيات هو التنويه بشأن السابقين وأصحاب اليمين معاً.

## خَمْسَةٌ مِنْ أدَلَّةِ التَّوْحِيدِ عَلَى البَعْثِ والنُّشُورِ الدَّلِيلُ الأوَّلُ: القَادِرُ عَلَى بَدْءِ الخَلْقِ أَقْدَرُ عَلَى إِعَادَتِهِ

٥٧ - ﴿تَخَنُّنُ خَلْقِنَاكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم إن أهل الشمال الذين أنكروا وحدانية الله تعالى، وأنكروا خاتمة الرسالات، وأنكروا البعث والنشور، إنهم مع هذا مُقرون ومعترفون بأن خالقهم ورازقهم هو الله سبحانه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

ولكن هذا الاعتراف كالعدم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره، يتوجهون إليه بالدعاء والذبح والنذر، ويطلبون منه المدد والعون، والنفع والضر، ويتوسلون به إلى الله تعالى لتكون لهم واسطة تقربهم منه تعالى.

ولما كان هذا ونحوه من خصائص الله تعالى، ولا يقدر عليه إلا الله، كان اعترافهم بوجود الخالق لا وزن له، لأنهم إذا لم يتوجهوا إلى الله وحده بجميع أنواع الطاعات، ولم يُحْكَمُوا كتاب الله سبحانه فيما شجر بينهم، فكأنهم لم يقرؤا بوحدانية الله تعالى ولم يؤمنوا بالبعث! ولذا قال تعالى: ﴿تَخَنُّنُ خَلْقِنَاكُمْ﴾ أيها الناس، فأوجدناكم من العدم ولم تكونوا شيئاً، خلقناكم من غير عجز ولا تعب.

ولعل المقصود بهذه الآية: خلق الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - من تراب؛ لأن الآية التي بعدها تحدثت عن خلق ذريته من المنى.

وليس المقصود إثبات أن الله تعالى هو الذي خلقهم فهم معترفون بذلك، وإنما المقصود إثبات أن القادر على الإيجاد الأول، قادر على إعادته، وأنه على كل شيء قدير، ولكنهم لما توجهوا بالعبادة إلى غير الله تعالى، ولما أنكروا البعث والنشور، أنزلهم الله تعالى منزلة من يشك في أن الله خلقهم، وهذا من باب إلزام الحجة لهم، والتبكيك والتهكم بهم، ولذا وبخهم الله تعالى على عدم التصديق بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه. والقرآن الكريم يلح في طلب النظر واستقصاء الفكر في هذا الوجود لمعرفة البدء والعودة، إننا موجودون يقيناً، فكيف وجدنا؟

والمأمل في النشأة الأولى يرى أن استبعاد النشأة الآخرة قصور في الفكر، وطمس في البصيرة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المنكوت: ١٩-٢١].

لقد لخصت هذه المعاني كلها في آية قصيرة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد أفضت هذه الآيات القصيرة، إلى ذكر أربعة أدلة على إمكانية البعث والنشور، وهذه البراهين الأربعة تتمثل في:

١- خلق الإنسان من نطفة.

٢- وخلق الزرع من البذور.

٣- وإنزال الماء من السحاب.

٤- وخلق النار من الشجر الأخضر.

وكلها حجج موجبة للتصديق بالبعث بعد الموت، وكأن معترضاً من الكفار قال: لم أصدق، فقيل له: أفرايت كذا وكذا؟

## الدليل الثاني: خلق الإنسان من نطفة

٥٨، ٥٩ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ <sup>(١)</sup> مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) سهّل الهمزة الثانية من (أفرايتم) نافع وأبو جعفر، ولورش إبدالها ألفاً مع المد المشبع حالة الوصل، وحذفها الكسائي، وحققها الباقون.

أفأرأيتم ابتداء خلقكم من المنى الذي تمنونه؟ فهل أنتم خالقون هذا المنى وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى هو الذي خلقه، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، كانتا سبباً لهذا التناسل. إن هذا السائل العجيب، والماء المهيّن تحمّل الدفعة الواحدة منه مئتي مليون حيوان منوي، هذا الحيوان - الذي لا يرى لضالته - ويحمّل في كيانه كل خصائص النوع الإنساني المادية والمعنوية.

وهذا أمر معروف من قديم، ففي قصة الملاعنة التي جاءت في سورة النور من الآية السادسة إلى الآية التاسعة، يقول النبي ﷺ عن المرأة الحامل، المتهمة بالزنى: «إن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خذلج الساقين - أي: ممتلئ الساقين - فإنه لشريك بن سحماء»<sup>(١)</sup> الذي رُميت به المرأة. فقد بين النبي ﷺ أن الصفات الجسدية تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الحيوانات المنوية.

كذلك تنتقل الصفات العقلية والخلقية، فهل توجد في الخصيتين مصانع عالمية تديرها غُضبة من العباقر، تصنع ذلك؟ إن هذه الغدد تأخذ مادتها من الدم، والدم يأتي من الغذاء، والغذاء يأتي من الطين! والمشرف على هذه الأطوار أولاً وأخيراً هو الله رب العالمين ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٧-٩].

نحن خلقناكم - أيها الناس - من سلاله من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُّونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٣-١٦].

(١) «فتح الباري» (٣٢٦/٦) وهو في «صحيح البخاري» مختصراً برقم (٤٧٤٧) عن ابن عباس وهذا جزء منه، وهو حديث طويل، وفي «المسند» (٢٣٨/١) برقم (٢١٣١) وهو حديث حسن، وعباد بن منصور متكلم فيه، وأبي داود (٢٢٥٦)، والطيالسي (٢٦٦٧)، وأبي يعلى (٢٧٤٠).

فهلاً تصدقون أن الذي بدأ الخلق أقدر على إعادته، وقد أنكر الله عليهم عدم إقرارهم بالبعث، كما جاء في أسلوب الحث والحض على الإيمان باليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: بالبعث والنشور.

ولماذا تتهمون صاحب الخلق الأول بالعجز عن الخلق الثاني؟ إن المدرس - والله المثل الأعلى - عندما يتعب في إعداد درس تكون إعادته أسهل عليه، وتنزلاً على هذا الفكر، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ وليس عند الله تعالى هين وأهون، وسهل وصعب، ولذلك فإن الله تعالى أتبع هذا بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وكثيراً ما أنكر الكفار البعث والنشور ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقول سبحانه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

وكثيراً ما كذبوا صاحب الرسالة في قوله: إن البعث حق، والجنة حق، والنار حق، وكثيراً ما رموه بالجنون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكَّرُ عَلَىٰ رَجُلٍ بُنِيَٰكُمْ إِذَا مَرَّ قَرْفًا كُلِّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ .

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].  
والمدهش أن الإنسان يُخلق من حيوان منوي واحد فقط، والبقية الأخرى من المئتي مليون، تذهب إلى دورات المياه، كأن الله تعالى يقول للإنسان المتكبر: إن إيجادك وإيجاد مليارات مثلك، لا يكلف الله شيئاً<sup>(١)</sup>.

فَمَنْ صَنَعَ هَذَا الْحَيْوَانَ الْمُنَوِي الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ؟ ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ﴾؟ هذه التُّطَفُ التي تقذفون بها في أرحام نساءكم، هل أنتم الذين خلقتموها

(١) يُنظَرُ: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ محمد الغزالي (ص ٤٢٧).

وَكَوْنَتْموها، وأودعتم فيها خصائص الإنسان المادية والمعنوية؟ وهل أنتم الذين خلقتم منها بشرًا سويًا؟ أم نحن الخالقون لها، والخالقون لكم؟ فإن كنتم مقرون بأننا الخالقون، فلماذا عبدتم غيرنا؟ ولماذا أنكرتم إعادة خلقنا لكم؟ ﴿لَمَّا خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شَتْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ [الإنسان: ٢٨].

إن دور الإنسان في أمر الخلق، لا يزيد على أن يُودعَ الرجل نطفته في رحم المرأة، ثم تتولى القدرة الإلهية أطوار خلقه ونشأته، إن الخليّة الواحدة في تكوين الإنسان تنقسم إلى خلايا شتى ذات خصائص متعددة، منها: خلايا: العظام والعضلات والجلد والأعصاب، ثم خلايا: لعمل العين واللسان والأذن، وخلايا أخرى للغدد، وكلُّ منها يعرف مكانه ولا يُخطئه، فخلايا العين مثلًا لا تخطئ مكانها فتذهب إلى القدم، ولا تخطئ خلايا الأذن فتذهب إلى البطن مثلًا، وكل الخلايا تأخذ مكانها تحت عين الخالق سبحانه.

إن هذه النطفة إفراز من إفرازات الجسد، كالعرق والدمع والمخاط<sup>(١)</sup>.

وهذه الخلايا كامنة في الحيوان المنوي الذي خلق منه الإنسان بعظمه ولحمه وعروقه وشعره وأظافره وسماته وملامحه وطباعه واستعداداته، فمن أودعها هذه الخصائص وهذه الاستعدادات؟ من الذي ألهمها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها لإعادته مرة أخرى؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة لا عمل للإنسان فيها، تلك هي البداية.

أما النهاية فلا تقلُّ إعجازًا ولا غرابةً:

٦٠ - ﴿لَمَّا خَلَقْنَا قَدْرًا<sup>(٢)</sup> يَبْنِيكُمْ أَلْمُوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت، وساويتنا بينكم فيه، وإن أعماركم من طول إلى قصر إلى توسط، وإليه ينتهي كل حي، ولا يفلت منه أحد، ولا يفوته أحد، ومنكم من يموت شيخًا أو شابًا أو طفلًا، وقد ساوى سبحانه في هذا القضاء بين الخلائق جميعًا: أهل الأرض وأهل السماء، الشريف والوضيع، الغني والفقير، الأمير والخفير، الصغير والكبير.

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٦/٦٧٤٤).

(٢) قرأ ابن كثير بتخفيف الدال من (قدرنا)، والباقون بالتشديد، وهما لغتان.

ثم إن الله تعالى لا يعجزه شيء، ومن ذلك استبدال المخلوقات بغيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على تبديلكم إن أردنا، وننشئكم بأوصاف أخرى لا يصل إليها علمكم، ولا يوجد من يسبقنا أو يغلبنا على ذلك، فنحن قادرون على تحديد آجالكم قدرة تامة، فمن حضر أجله لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، ونحن غير عاجزين:

٦١- ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي: نحن قادرون على تبديلهم بخلق أجساد أخرى تُودَع فيها الأرواح. وقادرون على نفخ الروح في الأجساد الميتة: بجمع متفرقة، أو إنشاء أمثالها من ذواتها، أي: من عَجَب الذنَب ونحوه.

وقادرون على أن نبدل خلقهم، بخلق آخر مماثل لهم في الدنيا والآخرة.

وقادرون على أن نستأصل شأفتهم ونعوّضهم بأمة أخرى، قال تعالى:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وقال جل شأنه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ

قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

وهذا معنى ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: نعيد خلقكم من جديد، فلسنا بعاجزين

على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيركم يكونون أطوع منكم، ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة أخرى لا تعلمونها للبعث والحساب، وفي هذا تهديد لهم واحتجاج عليهم بالبعث.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾

فَجَعَلْنَاهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

وقال جلُّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٤﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

[النجم: ٤٥-٤٧]. والخلق الأول دليل الخلق الآخر، قال تعالى:



٦٢- ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢)

لقد علمتم - أيها الناس - النشأة التي خلقتكم منها: من نطفة، فعلقة، فمضغة..، وجعلنا لكم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، وعلمتم نشأة أبيكم آدم من طين، فإنه لا يوجد أحد ينكر أنه من ولد آدم، وأن آدم لم يُخلق من تراب.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هلاً تذكرون قدرة الله تعالى على إعادة خلقكم مرة أخرى؟ وهذا أمر عجيب لمن كذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وأعجب منه مَنْ يصدّق بالنشأة الآخرة، وهو لا يسعى لدار القرار.

إن الله الذي خلق هذا العالم لم يبذل فيه جهده، ولم يستفرغ طاقته، إنه - سبحانه - في كل طرفة عين يتجدد له خلق، وتستقبل فيه الدنيا ذريات جديدة باستمرار.

والكافر الملحد ينكر هذا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

## الدليل الثالث على البعث والنشور: خلق الزرع من البذور

٦٣، ٦٤- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤)

في هذه الآية إشارة إلى ما في الزرع والحصاد من دلائل البعث والنشور، فإحياء الموات وخروج الزرع من الأرض يشبه البعث بعد الموت، وإخراج البشر من الأجداث لا يزيد على إخراج النبات من ظلمات التراب، حاملاً معه صنوف المعادن

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها، من (النشأة) والباقون بإسكان الشين وحذف الألف، وهما لغتان في المصدر.

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي وخلف بتخفيف الذال، من (تذكرون) والباقون بتشديدها.

والمواد المختلفة قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح:] .

وقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبَاتًا ﴿٧﴾ وَنَجَّيْنَا لَكُمْ فِيهَا الْوَسِيلَ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٧، ٨] .

والإنابة هنا تعني يقظة العقل الغافل، الداهل عن آيات الله تعالى في الكون. إن هذه الأرض التي نحيا فوقها، فيها حدائق وبساتين وحقول وغيابات، وأنواع من الزروع والثمار لا تُعدُّ ولا تُحصى، من: حبوب وفواكه وموالح وزيت وأنسجة، وألوان من الأزهار المختلفة الرائحة واللون، فمن منشئ هذا كله؟ إن المزارع يشق الأرض، ويضع البذر، ويتعهده بالماء، ولا يعلم عنه شيئاً بعد ذلك، ثم يشاهد قدرة الله تعالى وهي تُخرج البذر نباتاً وزرعاً قد استوى على سوقه يعجب الزراع، إن في هذا - أي إخراج النبات من الأرض - لدليل على معرفة المنشئ المبدع، فيبحث ذلك على إدراك حقيقة الحياة والموت؟

وبهذا فإن الآيات قد انتقلت من الاستدلال على البعث: بإيجاد الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، ثم خلق نسله من نطفة، ثم إخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، ثم إخراج النار من الشجر الأخضر، ثم انتقلت الآيات إلى الأمر بتسبيح الله تعالى وتعظيمه وتقديسه، فهو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، وذلك لأن هذا أمر جدير بالتأمل للاستدلال به على بعث الناس بعد موتهم، وفيه امتنان من الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم به من الزروع والثمار، كي يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

أخبروني - أيها الناس - عن البذر الذي وضَعْتُمُوهُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ حَرْثِهَا، أَنْتُمْ الَّذِينَ تُنْبِتُونَهُ زَرْعًا بَهِيجًا نَضْرًا؟ أَنْتُمْ الَّذِينَ تُنْشِئُونَهُ وَتَضَعُونَهُ فِي السَّبِيلِ وَالْحَبِّ وَالْفَاكِهِةِ، أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَفْعَلُ ذَلِكَ؟ فَإِذَا أَقْرَرْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ الْحَبَّ وَيَنْبِتُ الزَّرْعَ، فَكَيْفَ تَنْكُرُونَ إِخْرَاجَ الْمَوْتَى مِنَ الْأَرْضِ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن الإنسان يقول: حرثت، ولا يقول: زرعت، فالله تعالى هو الزارع<sup>(١)</sup>.

إن الخروج للقاء الله تعالى ومواجهة الحساب، كهذه الزروع التي خرجت من التربة السبخة وهي تحمل السكريات والدهنات والنشويات، وتحمل جميع الألوان المختلفة، وكل ذلك من أدلة البعث والنشور لتقريب المعاني إلى الخلق.

ثم نبه سبحانه على أن هذا الحرث معرض للأخطار، لولا حفظ الله له، قال تعالى:

٦٥-٦٧ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ<sup>(٢)</sup> تَفَكَّهُونَ<sup>(٣)</sup> إِنَّا لَمَعْرُومُونَ<sup>(٤)</sup> بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ<sup>(٥)</sup>﴾

قد يتصور المزارع أن له عملاً ودوراً في إخراج النبات من الأرض، فيبين سبحانه أنه لو شاء لدمر الزرع والثمر وجعله هساً يابساً ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي لو أراد الله سبحانه لحطم هذا الزرع، وجعله هسيماً تذروه الرياح، بأن يُسَلِّطَ عليه ما يُحِطِّمُه من: بَرَدٍ، أو رِيحٍ، أو حشرات، أو آفة، أو غَرَقٍ، فلا تتفعون به ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: أضبحتم، أو صرتم تتعجبون مما نزل بزرعكم، وأخذتم تتفجعون وتحزنون على ما نزل بكم من غُرمٍ، فتتحسرون على ضياع أموالكم، وتندمون على الجهد الذي بذلتموه من غير فائدة، وتقولون: ﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ بما أصابنا من مصيبة أو جائحة أتت على زرعنا وثمرنا.

لقد ذهب زرعنا بغير عوض، فنحن خاسرون هالكون مُعَدَّبُونَ، بسبب ما أصابنا من الغُرمِ وضياع المال، ثم أضربوا عن قولهم هذا، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

قد حرمنا الله الرزق، فغررنا قيمة البذر والجهد، وحُررنا خروج الثمر والنبات.

(١) وقد ورد في هذا حديث ضعيف عند ابن حبان برقم (١١٣٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٨/٦).

(٢) قرأ البيزي من طريق الداني بتشديد التاء من لفظ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ حال وصلها بما قبلها مع صلة ميم الجمع من ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وإشباع المد، لتشديد التاء وصللاً، وإذا وقف على ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وبدأ بـ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ خفف التاء كغيره من القراء، وهو الوجه الثاني له.

(٣) قرأ شعبة (أثنا) بهمزتين على الاستفهام مع التحقيق وعدم الإدخال، والباقون بهمزة واحدة على الخبر.

فاحمدوا الله تعالى أن أخرج لكم النبات من الأرض، ثم أبقاه ونمّاه لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون خيره ونفعه.

قال القرطبي: والمستحب لكل من يلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَفْرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ثم يقول: بل الله هو الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلّ على محمد، وارزقنا ثمر هذا الزرع، وجنّبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك فيه يا رب العالمين<sup>(١)</sup>.  
إن بعث الأجساد يوم القيامة يشبه خروج النبات من الأرض، وكلاهما عمل تبرّز فيه قدرة فاطر السموات والأرض.

### البعث والجزاء يكونان للجسد والروح معاً:

والنعيم والعذاب يوم القيامة، يشمل الجسم والروح معاً، فالإنسان مكون من جسد وروح.

وقد بيّن الله سبحانه أن بني آدم بعد رحلتهم الطويلة في أرجاء الدنيا، وتوارثهم عُمرانها جيلاً بعد جيل، سوف يعودون إلى الله تعالى مرة أخرى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولا يتحقق البعث يوم القيامة بقيام الناس بين يدي ربهم، صُورًا لا أرواح فيها، ولا بقيامهم بين يدي الله تعالى أرواحًا لا أجساد لها!

فالناس هم الناس، وسوف يخيّون يوم القيامة بجوارحهم ومشاعرهم التي باشروا بها المعاصي أو الطاعات، وعندما يُنكر الإنسان أنه فعل المعصية، تنطق أركانه وجوارحه فتكذّبه وتشهد عليه.

والذين قالوا: إن الأجساد تفتنى ولا تعود، وإن الأرواح وحدها هي التي تُبعث يوم القيامة، وإن الثواب والعقاب يكون للروح دون الجسد.

(١) «تفسير القرطبي» (٢١٨/١٧).

وإن التعذيب والنعيم بهذه الصورة شيء معنوي يشبه تأنيب الضمير أو راحته. كل ذلك كلام باطل لا أساس له، ويبدو أنه انتقل إلى النصرانية من بعض الديانات الأرضية الوثنية، فقوّضت أركانها ومحت معالمها!

١ - يقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْكَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فهل دخول الجنة والزحزة عن النار تكون للروح دون الجسد؟ إن ثواب الآخرة وعقابها يكون مادياً ومعنوياً، دلّت على ذلك حشود من الآيات والأحاديث.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

٢ - وقوله سبحانه: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فهل للروح جلد؟! والله تعالى يبيّن أن العذاب يقع على الجلد؛ لأنه مَرَكَزُ الإحساس في الجسم.

٣ - وقوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

فهل للروح جبهة وجنب وظهر، كما جاء في الآية السابقة؟

٤ - وهل الروح تذوق الثمر: ﴿كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِمَنْشَأِهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

فهل الروح تأكل وتشرب وتتزوج الحور العين؟

وهل الحور العين أعدهن الله للروح دون الجسد؟

إن إنكار الجزاء المادي في الآخرة، والتهوين من شأنه، أو التهكم عليه من قبيل الملحدين والعلمانيين والضالين، جهل فاضح، وتأثر بفلسفات وثنية، مقطوعة المدد عن الاتصال بالوحي الإلهي.

إن الإنسان مادة وروح لا تُصلحه إلا تعاليم تعترف بمادته وروحه معاً، وهي التعاليم التي حمل رايتها الأنبياء والمرسلون، والدين الخاتم أراد الله تعالى له ألا يُنسخ، وألا

يُحَرِّفُ، وَأَلَّا يُغَيِّرُ، وَأَلَّا يُبَدِّلُ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام يقرر أن البعث والحساب والنعيم أو العذاب يكون بالجسم والروح معاً.

### الدليل الرابع: إنزال الماء من السحاب

٦٨، ٦٩ - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾

وبعد ذكر نعمة الطعام، يأتي ذكر نعمة الشراب، فيمتن الله تعالى على عباده بالماء العذب الذي يشربون منه، وأنه سبحانه أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، فكان منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ومنه العيون والغدران المتدفقة، وقد جعل الله هذا الماء عذباً فراتاً سائغاً شرابه، وفي هذا دليل على قدرة الله على البعث والنشور.

وقد رتب الله تعالى هذه الأدلة الخمسة - بما يشمل الدليل الآتي - على وحدانيته تعالى، وقيام الناس له تبارك وتعالى يوم لقائه ترتيباً بديعاً: فقد بدأها بالخلق، ثم بالرزق الذي يحيا به الإنسان، ثم رتب هذا الرزق ترتيباً حسناً، فبدأه بالمأكل من الحب ونحوه؛ لأنه أصل القوت، ثم ثنى بالمشروب؛ لأن به استمرار الحياة، ثم ثلث بما يصلح الحب والماء، وهو النار؛ لأن بها صلاح الأغذية.

وهذا الدليل الذي معنا يتحدث عن الماء، فيقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾

أخبروني - أيها الناس - عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتحيوا به، وتدفعوا عن أنفسكم العطش، وهذا انتقال من الاستدلال بتكوين النبات إلى تكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر والنبات والإنسان والحيوان، فالماء أصل الحياة، وأساس بقائها، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكيف تكوّن هذا الماء؟

هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب على بلادكم وحزبتكم ودوابكم، ثم أسكنتموه قرار الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾؟ لاشك أنكم لا تُنكرون أننا أنزلناه رحمة بكم ونعمة أنعمنا بها عليكم؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، ويوم القيامة ينزل مطر من السماء على

الأجساد البالية فيحييها الله تعالى وتنبت من عَجَب الذَّنْب، كما تنبت الشجرة من أصلها، وهو بمثابة النواة التي يُبعث منها الإنسان، جاء في الشُّنَّة: «إن الله تعالى ينزل مطرًا كأنه الطل، فتنبت به أجساد الناس».

إن الماء يُمثِّل أربعة أخماس الأرض، وتمثل اليابسة التي نعيش عليها خمس الكرة الأرضية، وللماء دورة جديرة بالتأمل العميق، فمثلاً: الريح تسوق السحاب من المحيط الهندي لِتَسْقُطَ على أرضنا ودوائنا، ثم يذهب الماء المستعمل إلى مصارفه ومجاربه، ويأخذ سبلاً لا نذريها ليعود إلى البحار والمحيطات مُنْهِيًا دُورَةَ، ومبتدئاً دورة أخرى، لا تزيد ولا تنقص! والله تعالى قادر على حرماننا منه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال جلُّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]. وهو سبحانه قادر على أن يجعله أجاجاً شديدة الملوحة لا يُتَنَفَعُ به. قال تعالى:

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٠]

إن الله الذي أوجد الماء قادر على الذهاب به ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ أي: لجعلنا هذا الماء شديد الملوحة، مكروهاً للنفوس لا يُتَنَفَعُ به في شرب ولا زرع، إن مشيئة الله وحدها هي التي يُنَاطُ بها وجود الماء والانتفاع به، أو ذهابه وفناؤه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلاً تشكرون الله على إنزال الماء العذب لنفعمكم، وشكر الله تعالى يكون بالقول والفعل ووضع النعمة في موضعها، وإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده.

إن عذوبة الماء تتم في الجوّ بين تفاعلات قُدْرَها رب العالمين، وإنزال الماء من السحاب وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح لا قدرة لأحد عليه سوى الله سبحانه.

وفي الأثر: أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فرائئاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»<sup>(١)</sup>.

(١) حديث مرسل عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في فيض القدير، قال مصنفه: فيه جابر الجعفي، ثم قال: غريب وأخرجه الطبراني في الدعاء.

## الدَّيْلُ الْخَامِسُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: خَلْقُ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

٧١، ٧٢- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أخبروني - أيها الناس - عن النار التي توقدونها وتقدحونها من الشجر الرطب، أنتم الذين خلقتهم هذا الشجر الذي ينقدح منه النار، أم رب العالمين هو الذي خلقه؟ فهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

ونعمة النار من الضرورات التي لا غنى للناس عنها، والله تعالى هو الذي أوجدها في مواد كثيرة، ومن قدرته تعالى أنه أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد، فإذا فرغ العباد من حاجتهم أطفئوها وأحمدوها.

وشجرة النار هي شجرة المَرمِخ وشجرة العَفَار، وهما شجرتان يُقدح عُصْنُ إِحْدَاهُمَا بغصن الأخرى، فتتولد النار منهما بقدره الله تعالى.

أنتم الذين أوجدتم شجرتها التي تنقدح منها النار، أم نحن الموجدون لها؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُتَاب <sup>(٢)</sup>. والشجر الذي ينقدح منه النار هو: شجر الزنَاد، ومنه: المرمخ، والعفار، والعُشْر، والكُلْخ، وفي كل شجر نار.

وقد تنقدح النار من حَجْرَيْنِ، أو من حَجَرٍ وحاديدة.

ومن أمثلة العرب: لكل شجر نار، واستمجد المرمخ والعفار. قال تعالى:

٧٣، ٧٤- ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

نحن جعلنا نار الدنيا تذكيراً بنار الآخرة، إذا رآها الرائي تذكّر بها نار جهنم، فيخشى الله تعالى ويخاف عقابه، فهي نعمة من الله تعالى، تُذكّر العباد بالنار التي أعدها للكافرين والعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى جنات النعيم.

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بحذف همزة (المنشئون) مع ضم الشين وصلًا ووقفًا، ولحمزة ثلاثة

أوجه في الوقف هي التسهيل والحذف والإبدال ياء، والباقون بهمزة محققة مع كسر الشين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (١٦٦/٤).



والناس تتنفع بالنار في حلّهم وارتحالهم، وفيها المنفعة أكثر للمسافرين في البوادي البعيدة، في طهو الطعام، وهداية الطريق للضال، والتدفئة، ولتَهْرَبَ منها السباع الضارية، وغير ذلك من المنافع، وفي هذا وغيره مِنَّةٌ من الله تعالى على خلقه؛ إذ لا غنى عن النار للثري والفقير على حد سواء، فالمراد بالمقوين: المستمتعين بالنار من الناس جميعاً، وهذا أشمل من أن يراد بها: المسافرون، فإن الحاضر والبادي لا يستغني عن النار، ولكن المسافر يكون أحوج إليها، ولذا حُصِّنَ بالذكر، ومن ذلك أن الدنيا كلها دار سفر، والعبد منذ ولادته مسافر إلى ربه، وقد جعل الله هذه النار متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.

وهذا الدليل يكشف عنه العلم الحديث، فنحن عندما نتنفس نأخذ الأوكسجين، ونطرد ثاني أكسيد الكربون، والنبات يفعل عكس ذلك، فهو في تنفسه يأخذ الكربون، ويطرد الأوكسجين، والكربون هو الفحم!

ومن العجيب أن تكون الخضرة مخزناً للوقود! وأن تكون الخضرة سبباً في الاحتراق! إن الشجر في جذوعه وفروعه وأوراقه لا يلبث أن يجف، ويتحول إلى هشيم تتأجج به النار! وهكذا نجد الموت في تضاعيف الحياة.

وعن هذه النار يقول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرهن»<sup>(١)</sup>.

ولما ذكر سبحانه أدلة التوحيد والقدرة والبعث بعد الموت ممثلة في خلق الإنسان والزرع والماء والنار للاستدلال بها على إمكانية البعث والنشور، أمر جلّ شأنه بتسيبحة، وتحميده، فإن هذا مما يوجب الثناء عليه من عباده، وشكره وعبادته، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ فإذا علمتم - أيها الناس - ما أنزلناه من الأدلة، وتذكّرتم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) ومسلم برقم (٢٨٤٣).

ما في ذلك من النعم، فترهوا ربكم عما لا يليق بجلاله، وعظموه بقصارى ما تستطيعون، فهو سبحانه كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمدوه بقلوبكم وألستكم وجوارحكم، لأنه المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصي.

عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «قولوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «قولوها في سجودكم»<sup>(١)</sup>.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ كان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن<sup>(٢)</sup>.

وقد أمرنا سبحانه أن نكثر من ذكره وشكره، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

## التنويه بشأن القرآن الكريم

٧٥، ٧٦- ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ<sup>(٣)</sup> النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أقسم سبحانه وتعالى بمساقط النجوم في مغاربها وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها، وما يحدث في وقت سقوطها من الحوادث الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبعد أن عظم الله هذا القسم ذكر المقسم عليه وهو أن القرآن حق لا ريب فيه هذا.

ولما كانت قضية البعث هي موضوع سورة الواقعة، وكان الماديون الملحدون في كل زمان ومكان قد كذبوا بالبعث، فإن تكذيبهم له تكذيب بالقرآن؛ لأن البعث من أهم ما اشتمل عليه القرآن، ولذلك فقد نوّه الله سبحانه بشأن القرآن، وبين أنه منزّه عن النقائص، وأنه تنزيل من عند الله تعالى، وأن الذي جاء به مُبْلِغٌ عن ربه.

(١) يأتي تخريجه في آخر السورة.

(٢) من حديث عائشة في صحيح البخاري (٤٦٨٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (بموقع) بإسكان الواو وحذف الألف، مصدر بمعنى الجمع، وقرأ الباقر (بمواقع) على الجمع.

وهذه النجوم لها أماكن تسقط فيها عند الغروب، ولها بروج ومنازل تسير فيها، ويوم القيامة تتناثر وتتفرق.

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم تنويهاً بشأنها، على أنها من دلائل قدرة الله تعالى، وأن هذه الكواكب تسير بدقة ونظام بديع لا يختل ولا يضطرب، فكل نجم له مجاله الذي يغيب فيه، وله مكانه الذي يدور فيه دون أن يصطدم بغيره، ومنها ما يُرى بالعين المجردة، ومنها ما لا يُرى إلا بالمجهر والأجهزة. ولنا وقفتان مع هذه الآية:

الأولى: مع (لَا) والثانية: مع (مَوَاقِعِ النُّجُومِ).

أما الوقفة الأولى (لَا) فإنها قد تكون مؤكدة للقسم، وهذا أحد وجهين فيها كما في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَمَعَهُ أَهْلُ الْكُتُبِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلم. والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، ومن أساليب العرب: نفي ما سوى المقسم عليه، فيفيد الكلام التأكيد.

والوجه الثاني: أن (لَا) للنفي.

والمعنى: أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم<sup>(١)</sup> فضلاً عن هذا القسم، وقيل غير ذلك. الوقفة الثانية: أن يراد بمواقع النجوم ما سبق ذكره من أنها نجوم السماء. وقيل: إن المراد بمواقع النجوم: أوقات نزول القرآن نجمًا نجمًا، أي: مُفْرَقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال.

ونجوم القرآن: هي الطائفة من الآيات التي تنزل منه طائفةً طائفةً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل منجمًا<sup>(٢)</sup> مُفْرَقًا، حسب الحوادث والوقائع على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

(١) «تفسير الألوسي» (١٥٢/٢٧).

(٢) يُنظَر: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٦٥)، وفي ط الرسالة (١١٥٠١) بنحوه و(٧٩٣٧)، والطبري

(٣٥٩/٢٢)، والحاكم.

ثم بيّن سبحانه أن القسم بمواقع النجوم قَسَمَ قَدْرُهُ عَظِيمٌ؛ لأن لها مواقع قُدسية في السماء، لا يحلف بها إلا بارٌّ في يمينه، ولو كان عندكم علم نافع لعظمتومه، وآمنتُم بما أقسمنا عليه، وعملتُم بما فيه، وهو قسم عظيم بمنازل النجوم التي في السماء؛ لما فيها من الدلالة على وحدانية الله تعالى، ووظيفتها المنوطة بها في هذا الكون.

والمقسم عليه هو: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾. لا يعتريه شك ولا ريب، فيه آيات وعبر وهدايات لا يمكن حصرها.

### حُكْمُ مَسِّ الْمُصْحَفِ وَحَمَلِهِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ وَلِلْجُنُبِ وَالْحَائِضِ

٧٧-٧٩- ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ذكر سبحانه وتعالى جواب القسم بمواقع النجوم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لقرآن عظيم المنافع، كثير الخير، غزير العلم، وليس بقول ساحر ولا شاعر ولا كاهن، بل هو قرآن كريم نزل من رب العالمين على قلب نبيه محمد ﷺ، وهو معجزة دالة على صدق رسالته إلى يوم الدين، فليس من أساطير الأولين ولا من قول الشياطين: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

والقرآن: هو كتاب الله المنزل على محمد ﷺ لهداية البشر، المتعبد بتلاوته، المتحدّى بأقصر سورة منه، وهو أفضل الكتب الإلهية.

ولما وصف الله تعالى القرآن بأنه قرآن كريم، أي: نفيس رفيع الشأن، وصفه بوصف آخر، فقال: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، أي: إن القرآن الذي بلغهم، وسمعوه من النبي ﷺ موافق لما في علم الله تعالى، وهو كتاب ثابت محقق، لا تصل إليه أيدي البشر.

(١) (تفسير الكشاف) (٥٩/٤).

ولا يراد بالكتاب المكنون: القرآن الكريم؛ لأن سورة الواقعة سورة مكية، نزلت في أوائل البعثة، فقد نزل بمكة ست وثمانون سورة، وكانت سورة الواقعة هي السادسة والأربعون في ترتيب النزول، وجلُّها سور قصيرة، وهذا القدر لا يمثل ثلث القرآن، فلم يكن هناك قرآن كامل ولا شبه كامل وقت نزول هذه الآية.

فالمراد بالكتاب المكنون قطعاً: هو اللوح المحفوظ<sup>(١)</sup> الذي كُتب فيه ما كان وما يكون إلى قيام الساعة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وهو كتاب مستور عن أعين الخلق، مصون ومحفوظ، أن يدنسه أحد، أو تمسه يد غير طاهرة، أي إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته الكرام في الملأ الأعلى.

وهذا الكتاب المكنون الذي هو اللوح المحفوظ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [٧٨] أي: لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب، وطهرهم من الرجس والنجس والشرك والدنس.

فلفظ ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ يراد به: الملائكة، أما بنو آدم، فيقال لهم: متطهرون، كما قال تعالى عن أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ويحتمل أن يكون المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، ينزل منه وحي الله إلى رسوله، وأنه مستور على الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا على الزيادة فيه أو النقص منه.

وعلى كلا المعنيين، فلا يراد بالكتاب المكنون، القرآن الكريم وإنما يراد أن القرآن بيد الملائكة، وأن جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ، فيكون المعنى: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله من الآفات والذنوب، وأن الشياطين لا قدرة لهم

(١) بهذا فسر الربيع بن أنس ومجاهد وابن عباس وأنس وأبو العالية وسعيد بن جبير، انظر: الآثار الواردة في

ذلك في «الدر المثور» (٢٢٠/١٤).

على مسه.

والضمير في ﴿يَمْسُهُ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهو الكتاب المكنون، أي: المستور عن أعين الخلق، وهو اللوح المحفوظ، على القول الأول.

وعلى هذا فيجوز مس المصحف، وقراءة القرآن - حفظاً ونظراً - لغير المتطهر من الحدث الأصغر، أما حديث: «لا يمس القرآن إلا طاهر» لعمر بن حزم، فهو حديث مرسل منقطع السند<sup>(١)</sup>.

أما نهى النبي ﷺ: «أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»<sup>(٢)</sup> فالمقصود منه الخوف على القرآن من أن يمزق أو يهان أو يداس ونحو ذلك، فإذا أمن هذا الجانب فلا بأس من السفر به إلى أرض العدو.

ولفظ: «طاهر» في حديث عمرو بن حزم يُقصد به المؤمن، لقول النبي ﷺ: «إن المؤمن لا ينجس»<sup>(٣)</sup>.

وقال قتادة: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: ذاكم عند رب العالمين، لا يمسه إلا المطهرون، فأما عندكم فيمسه المشرك النجس والمنافق الرجس<sup>(٤)</sup>.

وجاء من عدة طرق عن سلمان الفارسي أنه أحدث، ف قيل له: لو توضأت ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا، فقال: لا يمسه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا<sup>(٥)</sup>.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمس القرآن

(١) عبد الرزاق (١٣٢٨) و«مراسيل أبي داود» برقم (٢٥٧)، و«الموطأ» (١/١٩٩)، وأخرجه ابن حبان، عن ابن

حزم الأنصاري، عن أبيه، عن جده برقم (٣٩٥/١) والحاكم (٦٥٥٩) قال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) من حديث ابن عمر في البخاري برقم (٢٩٩٠) ومسلم برقم (١٨٦٩).

(٣) من حديث أبي هريرة للشيخين برقم (٢١٠) في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان».

(٤) الطبري (٣٦٦/٢٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن علقمة (١٣٢٥) وابن أبي شيبة (١٠٣/١) والحاكم (٤٧٧/٢).

إلا طاهر»<sup>(١)</sup>. والحديث خبر بمعنى النهي.

وكذلك لما دخل عمر بن الخطاب على أخته قبل أن يُسَلِّمَ فوجدها تقرأ القرآن من صحيفة مكتوبة فيها سورة طه، فطلب الصحيفة ليقراها فقالت: ﴿لَا يَسْئُرُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام فاغتسل وقرأ السورة فأسلم.

والمعنى: لا يقرأ القرآن إلا الموحدون، والكافر حين يدخل الإسلام يغتسل من جنابته ويتطهر من شركه.

### حكم الجنب والحائض والنفساء في مس المصحف:

ولا يجوز للجنب مس المصحف ولا قراءة القرآن، لأحاديث وردت في ذلك، منها حديث علي عليه السلام قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ثم قرأ شيئاً من القرآن، وقال: «هكذا لمن ليس بجنب، فأما الجنب فلا، ولا آية»<sup>(٢)</sup>.

وَيُرَخَّصُ للحائض والنفساء في قراءة القرآن من المصحف، أو عن ظهر قلب، ولم يُزَوَّ في هذا حديث صحيح صريح يمنع من ذلك<sup>(٣)</sup>.

والآيات تنفي ما زعمه المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين، وثبت أنه نزل من كتاب مصون مستور عن الأعين، وأن الملائكة وحدهم هم الذين يطلعون على اللوح المحفوظ، ويتنزلون بالقرآن على رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٢١٧) وفي «الصغير» (١٣٩/٢)، قال المناوي: وسنده صحيح، وجعله السيوطي في مرتبة الحسن، وكذلك رواه الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه، برقم (٤٣٧) ومن طرق أخرى برقم (٤٣٥-٤٤١) مقطوعاً وموصولاً، ورواه مالك أيضاً عن شرحبيل بن كلال، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٢).

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٦/١): رجاله موثقون، يُنظر: «المسند» (١١٠/١).

(٣) يُنظر تفصيل هذا والذي قبله مع فتوى ابن تيمية في كتابنا: «فن الترتيل وعلومه» (٣٨٨/١) وما بعدها.

## ٨٠- ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أي: إن هذا القرآن الموصوف بهذه الصفات منزل من رب العالمين، الذي يربي العباد بنعمه الدينية والدنيوية، وقد أنزله مشتملاً على ما فيه سعادة الدارين، فهو الحق الذي لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٥﴾ بِلسان عربي مبين ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر: ١].

وقال أيضاً: ﴿ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [غافر: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وسمي المنزل تنزيلاً؛ لأنه لم ينزل دفعة واحدة على رسول الله ﷺ، بل نزل نجوماً من بين كتب الله تعالى.

**المُعَارِضُونَ يُكذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ، وَمِنْهُ نُزُولُ الْمَطَرِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى**

## ٨١، ٨٢- ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتِحُونَ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثم انتقلت الآيات من التنويه بشأن القرآن وعظيم قدره، إلى مخاطبة المنكرين للقرآن، المكذبين به، ليقول لهم: أفبهذا الكتاب وما يحمله لكم من هدايات وإرشادات وتشريعات أنتم مكذبون لما فيه؟ ولذا: فإنكم تدهنون، أي لا تثقون بما فيه، فتخفونه خوفاً من الناس ولا تضدعون بما فيه، مع أنه الحق الذي لا يغالب ولا يدهن به.

ومن أهم ما تضمنه القرآن: البعث والحساب والجزاء، الذي هو موضوع السورة، حيث قسّمت الناس يوم البعث والحساب والجزاء إلى ثلاثة أقسام:

السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

واستدلّت الآيات التي في السورة على بعث البشر بعد موتهم ب: الخلق الأول، وإنزال

الماء من السحاب، وإخراج الزرع من الأرض، وإخراج النار من الشجر الأخضر.

وعلى هذا فالمراد بالحديث في الآية: كل ما سبق ذكره في السورة، مما يتعلق



بالبعث والنشور ونحوهما، والقرآن نفسه يسمى حديثًا، كما قال تعالى:

﴿ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النجم: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ [القلم: ٤٤] أي القرآن.

فالقرآن حديث متضمن للبعث والنشور، والكفار يكذبون بالقرآن ويكذبون بالبعث.

وعلى هذا فحفظ المشركين من القرآن ونصيبتهم منه أنهم كذبوه.

قال الحسن: خسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التأكيد.

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي: حظكم ونصيبتكم من القرآن

﴿ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ أي: تكذبونه ولا تؤمنون به، وتتكفرون ما فيه، كاليوم الآخر، وما فيه من

حساب وجزاء، فأنتم - أيها المشركون - تكذبون بقدرة الله تعالى على إعادة الحياة

للإنسان، وهو الذي خلقه وخلق قوته، ورزقه من الحَبِّ والماء والنار، ولكنكم عدلتم

عن شكره تعالى بما أنعم به عليكم، فأنكرتم الحياة بعد الموت، ونسبتم الزرع

لأنفسكم، وزعمتم أن المطر النازل من المزن، إنما هو بعوامل طبيعية أو فلكية، ينزل

بتأثير النجوم، فنسبتموه لغير الله تعالى، وجعلتم مقابلة نعمه عليكم بالرزق: التأكيد

والكفر بنعمة الله، فقلتم مُطْرُنَا بنوء كذا، وأضفتُم النعمة لغير مُسديها، فهلاً شكرتم الله

على نعمه عليكم؟

وفي الآية توبيخٌ للقائلين عن المطر الذي أنزله الله تعالى رزقاً لعباده: إنه نزل بتأثير

النجوم، وهي الأنواء الواردة في الحديث.

والنوء: هو سقوط نجم من النازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقبه من المشرق

يقابله من ساعته، في كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً.

وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى النجم الساقط منها:

١- فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح

بالحدبية، في إثر سماء - أي: مطر - كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس

فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»<sup>(١)</sup>.

٢- وعن معاوية الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون الناس مُجَدِّين، فيُنزَل الله عليهم رزقاً من رزقه، فيصبحون مشركين» قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «يقولون: مُطِرنا بنوء كذا وكذا»<sup>(٢)</sup>.

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطِر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْضِعِ النَّجْمِ﴾ حتى بلغ ﴿وَيَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾<sup>(٣)</sup> أي أن التكذيب والكفر سببان لرفع النعم وحلول النقم. والمعنى: أن الناس مُطِرُوا في صدر الإسلام بمكة، فقال المؤمنون قولاً، وقال المشركون قولاً.

وكان المشركون إذا أنزل الله عليهم المطر ينسبون ذلك إلى النجوم، فبيّن سبحانه أن من يعتقد ذلك فقد كذب برزق الله ونعمه، ومنها المطر، وكذب بما جاء في القرآن، ومنه البعث بعد الموت، وقد سلب عنه أصل الإيمان وخرج من الملة. أما من اعتقد أن المطر من عند الله، وأن ظهور النجم وقت له، بمعنى: أنا مُطِرنا بفضل الله وقت طلوع نجم كذا، فليس في هذا شيء.

(١) «الموطأ» (١٩٢/١) والبخاري برقم (٨٤٦، ١٠٣٨) ومسلم برقم (٧١) وأبو داود برقم (٣٩٠٦) والنسائي (١٦٤/٣) (١٥٢٤) وفي «الكبرى» (١٠٧٦٠) وعبد الرزاق (٢١٠٠٣) والبيهقي (٤٥٧).  
 (٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٩٧/٢٤) (١٥٥٣٧) قال محققوه: إسناده حسن، من أجل عمران القطان، وبقية رجاله ثقات، رجال الصحيح، وهو عند الطيالسي (١٢٦٢)، والطبراني في الكبير (١٠٤٣/١٩).  
 (٣) «صحيح مسلم» برقم (٧٣)، وانظر: رواية أبي هريرة برقم (٧١، ٧٢).

ومن ذلك: أن عمر رضي الله عنه استسقى، ثم نادى العباس: كم بقي من نجم الثريا؟ فقال: (إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد وقوعها، فوالله ما مضت تلك السبعة حتى نزل المطر)، فقد أراد عمر بسؤاله: كم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم، أتى الله بالمطر، فهذا جائز لا كفر فيه.

## عَجَزُ الْبَشَرِ عَنِ إِبْقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ أَوْ إِعَادَتِهَا إِلَيْهِ

٨٣-٨٥ ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ

لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿

ومع قيام الأدلة على أن الله تعالى قادر على إعادة الحياة للناس بعد الموت، ووضوح الحجة في ذلك، إلا أن المعاندين مكابرون، ولذلك فقد ختمت السورة باستدلال آخر على أن إثبات البعث ملزم لهم، ولا محيص لهم عن الاعتراف به، وهذا الدليل هو عجز البشر عن إرجاع الروح إلى الجسد بعد مفارقتها له، وعجزهم عن إبقاء الروح في الجسد وعدم انتزاعها منه، فلو لم تكونوا مجزيين على أعمالكم بعد الموت لبقيت الأرواح في أجسادها، فهل تستطيعون إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزاع وهي تعالج سكرات الموت أن تمنعوها من الخروج؟

وأنتم يا أهل الميت حضور عنده، محيطون به، تنظرون إليه وهو يحتضر، وقد أحضرت له الأطباء، ولكنكم لا تملكون دفع الموت عنه، وقد يكون المحتضر أكبر الأطباء في العالم، ولكنه لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه، وقد يكون المحتضر أكبر ملوك الأرض، وعنده أموال قارون، ولكنه لا يستطيع أن يستبقي الروح فيه ساعة واحدة زيادة على أجله.

وقد يكون المحتضر أكبر علماء الأرض، ولكنه لا يستطيع أن يزيد لحظة في عمره.

ونحن أقرب إلى المحتضر بعلمنا وقدرتنا، وأقرب إليه بملائكتنا لقبض روحه،

ولكنكم لا ترون مَنْ حضره من الملائكة لقبض روحه، قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسَ ﴿٨٦﴾

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَاللَّفَتِ الْبَسَاقُ بِاللِّسَانِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].  
وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴿٦٢﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. قال تعالى:

٨٦، ٨٧- ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فهلاً تردون نفس من يعزُّ عليكم فراقه، وتردون رُوحه إلى بدنه إذا أوشك على مفارقة الحياة إن كنتم قادرين على ذلك.

هلاً تستطيعون إن لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء - كما تزعمون - أن تعيدوا الروح إلى الجسد، إن كنتم غير محاسبين وغير مجزيين على أعمالكم - على حدِّ زعمكم - إن أمكنكم ذلك فأعيدوا الروح للجسد، وزدوها إلى الميت بعد أن بلغت الحلقوم، إن كان الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء على الأعمال والأقوال.

فإن لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم، وهو الله تعالى، فآمنوا به، واعلموا أن مفارقة الروح للجسد إنما هي للحساب والجزاء، وأن تُوفَى كل نفس بما كسبت.

### النَّاسُ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَرَاتِبَ

٨٨، ٨٩- ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ ﴿١﴾ وَرِيحَانٌ ﴿٢﴾ وَجَنَّتْ ﴿٣﴾ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

وإذا فمراتب الناس عند النزاع وبعد البعث ثلاثة أصناف، وهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، على ضوء ما سبق تفصيله بالنسبة للسابقين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ففي أول السورة تقسيم لطوائف الناس الثلاث، وفي

(١) قرأ رويس بضم راء (فُرُوح) اسم مصدر بمعنى: الرحمة، وقرأ الباقر بفتح الراء، مصدر بمعنى: الاستراحة.

(٢) عد الشامي وحده (وريحان) آية، وهو متروك من العدد لغيره.

(٣) وقف بالهاء على (وجنت) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف الباقر بالتاء، وأمالها الكسائي

وقفاً، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

آخرها ذكر لأحوالهم عند الاحتضار والموت، فهذا إيجاز ل منازلهم ومراتبهم:

### الْمُرْتَبَةُ الْأُولَى: الْمُقْرَبُونَ

فإن كان صاحب النفس التي تفارق الحياة من المقربين إلينا، السابقين بعمل الخيرات، الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ فله عند موته الراحة والطمأنينة والرحمة الواسعة والفرح والبهجة والسرور، وما تطيب به نفسه من نعيم القلب والروح، وله في الآخرة جنة النعيم، ويحلُّ عليه رضوان الله تعالى.

فالروح: هو الراحة والنعيم والأمان والاطمئنان، والريحان: هو الطيب والرائحة الزكية. والمعنى: أن لصاحب الفضل والسبق في الدين، رائحة طيبة لا تفارقه في دنياه، ورحمة من الله واسعة في أخراه، وله مثل ذلك عند خروج روحه حيث تبشره الملائكة بجنة النعيم فيطير لها فرحاً، وكذا عند نزوله القبر ووقوفه بين يدي الله تعالى للحساب، وله في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

- ١ - في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن ملائكة الرحمة تقول له: «اخرجي أيتها النفس الطيبة، في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» <sup>(١)</sup>.
- ٢ - وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما نسمة المؤمن، طائر يغلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم

(١) يُنظَرُ الحديث بكامله في: «المسند» (٨٧٦٩، ٢٥٠٩٠)، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٦٢) بإسناد صحيح والحاكم (٣٥٣/١) وابن حبان (٣٠١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وأخرجه مسلم بنحوه مختصراً برقم (٢٨٧٢).

يبعثه»<sup>(١)</sup> والنسمة هي الروح.

٣ - وصحَّ عن رسول الله ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ أنه قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»<sup>(٢)</sup>.

٤ - وجاء في الحديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا بُشِّرَ عند الاحتضار بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ فإنه عندئذ يحب لقاء الله، والله عزَّ وجلَّ للقاءه أحب، والمكذب أيضًا إذا بُشِّرَ بذلك عند موته كره لقاء الله، فيكون الله تعالى للقاءه أكره»<sup>(٣)</sup>.

٥ - وعن أبي قتادة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ مرت جنازة، فقال: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» فقلنا: يا رسول الله، ما المستريح، وما المستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»<sup>(٤)</sup>.

٦ - وعن عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالت عائشة: إنا لنكره الموت! فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأحب لقاء الله، وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته،

(١) «المسند» (٤٥٥/٣) ورقمه (١٥٧٧٨)، قال محققوه: إسناده صحيح، وقال ابن كثير: وهذا إسناده عظيم ومتن قوي، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٤٩) والنسائي في «السنن» (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) وفي «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٣/٢).

(٢) من حديث ابن مسعود في البخاري (٢٨٠١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٨٤) و«المسند» (٢٥٩/٤).

(٤) أخرجه مالك (٢٤١/١) وأحمد (٢٢٥٣٦، ٢٢٥٩٢) والبخاري (٦٥١٢، ٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) والنسائي

فليس شيء أكره إليه مما أمامه، وكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»<sup>(١)</sup>.

فهذه بشارات للمؤمن السابق بالخيرات وهو في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: عن أوليائه المتقين: ﴿لَهُمْ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

## المرتبة الثانية: أصحاب اليمين

٩٠، ٩١ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾

أي: وإن كان الميت المفارق للدنيا، ممن يؤخذ بهم ذات اليمين، ويأخذون صحيفة عملهم بيمينهم، إن كان ممن أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل بعض التقصير الذي لا يخل بإيمانهم ولا بتوحيدهم، فقد تجاوز الله عن سيئاتهم وقبل حسناتهم، وقد ثقلت موازينهم، فإنهم ممن نجاهم الله من النار، وفازوا بدخول الجنة؛ ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] لأنهم كانوا من الثابتين على كلمة التوحيد في الدنيا، فثبتهم الله وأمنهم من الخوف والفرع يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إنه في سلام وأمان، حيث تُسَلِّم عليه الملائكة، يوم لقاء الله تعالى وله الأمن والطمأنينة والسلامة في الآخرة من الآفات ومن كل ما يشغل القلب لكونه من أهل اليمين الذين سَلِمُوا من الذنوب والموبقات.

## المرتبة الثالثة: أهل الضلال

٩٢-٩٤ - ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتُرْزَلُ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

أما إذا كان المحتضر من أهل الشمال المكذبين بالبعث والنشور، الضالين عن طريق الهدى وطريق الحق، فضيافته عند الله يوم لقائه: شراب الحميم المغلي المتناهي

(١) «المسند» (٣٧٠/٣٧) (٢٢٦٩٦) والبخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣) والترمذي (١٠٦٦) والنسائي

(١٨٣٥) وفي «الكبرى» (١٩٧٥، ١٩٧٦).

الحرارة، وفي انتظاره نار جهنم يدخلها ويحرق بها، ويقاسي شدائدتها وأهوالها، والعياذ بالله، فهي تحيط به وتصل إلى فؤاده وإذا استغاث من شدة العطش والظما يغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه. قال تعالى:

٩٥، ٩٦ - ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ <sup>(١)</sup> حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة - أيها المخاطب - مما أعده الله لأولياته من النعيم، ولأعدائه من العذاب الأليم، لهو القول الحق الذي لا معدل عنه، إنه الحق الثابت الذي لا يحوم حوله شك ولا ريب، بل لا بد من وقوعه.

تنزه الله تعالى عما يقول الظالمون الجاحدون، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فالأمر بتسبيح الله تعالى معناه: نزهه - أيها المسلم - ذات الله تعالى وأسماءه وصفاته عن كل نقص، وعن الشريك والولد.

١ - عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» <sup>(٢)</sup>.

٢ - وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ <sup>(٣)</sup>.

(١) سَكَّنَ الهاء من (لهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٢) «المسند» (١٥٥/٤) (١٧٤١٤) وقال محققوه: إسناده محتمل للتحسين، وأبو داود برقم (٨٦٩)، وابن ماجه برقم (٨٨٧)، وابن حبان (١٨٩٥)، والحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤٧٧/٢) والبيهقي (٨٦/٢)، والدارمي (٢٩٩/١)، وابن خزيمة (٦٠٠) بإسناد حسن، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (١٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٧٤).



٣ - وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟» فقال: «سبحان الله وبحمده» <sup>(١)</sup>.

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» <sup>(٢)</sup>.  
وهكذا فإن آخر السورة صدق أولها، ولخص مجملها.

تم تفسير (سورة الواقعة) والله الحمد والمنة

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٣١).

(٢) البخاري برقم (٧٥٦٣)، ومسلم برقم (٢٦٩٤)، والترمذي برقم (٣٤٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى»

برقم (١٠٦٦٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٠٦).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ (٥٧)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١. (سورة الحديد) هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، على أساس أنها سورة مدنية، ويكون نزولها في هذه الحالة بعد (سورة الزلزلة) وقبل (سورة محمد)، وعلى القول بأنها سورة مكية، يكون نزولها قبل (سورتي الحجر وطه) وبعد (سورة غافر).

وسورة الحديد من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية.

وذكر ابن عطية عن النقاش إجماع المفسرين على أن سورة الحديد مدنية.

والأظهر: أن الآيات من أول السورة إلى الآية التاسعة مكية، وبقية السورة منها المكي، ومنها المدني، ومن المدني: الآية السادسة عشرة، والآيتين الأخيرتين في السورة، وفيهما دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ الآية: ١٦ إلا أربع سنين<sup>(١)</sup>.

ولما ورد أن عمر رضي الله عنه دخل على أخته قبل أن يُسلم، فإذا صحيفة فيها أول (سورة الحديد)، فقرأها حتى بلغ ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ سَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ الآية: ٧ فأسلم<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجه برقم (٤١٩٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٨٠) بإسناد حسن.

(٢) رواه الطبراني والبخاري في كشف الأستار (٢٤٩٣)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٦٣/٩)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٤١/١)، والبيهقي في الدلائل (٢١٦/٢)، وابن عساکر (٣١/٤٤).

وفي رواية أخرى أن الصحيفة التي قرأها عمر رضي الله عنه كان فيها صدر (سورة طه).

٢. وتسمى سورة الحديد: لورود لفظ (الحديد) فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ

فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية ٢٥.

ولما كانت قصة أهل الكهف أبرز من كلمة الحديد التي وردت في سورة الكهف

فقد سُميت باسم القصة ولم تسم سورة الحديد، مع ورود لفظ الحديد فيها في قوله

تعالى: ﴿إِنِّي زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

٣. وعدد آيات السورة تسع وعشرون آية عند أهل الكوفة والبصرة، وثمان وعشرون

آية عند بقية علماء العدد.

وهي خمس مئة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

٤. ومما ورد في فضلها مع غيرها من السور المفتحة بالتسبيح: ما رواه العرياض بن

سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»<sup>(١)</sup>.

والمسبحات سبع سور، وهي: سور الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن

والإسراء والأعلى.

### أغراض السورة:

١- تبدأ الآيات الست الأول من سورة الحديد، فتذكر بجلال الله تعالى، وصفاته

العظيمة، وسعة علمه وملكوته، وتذكر اثنان وعشرون دليلاً وصفة من أسماء الله

الحسنى بعد الاسم العلم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ للدلالة على وحدانيته سبحانه، ومن هذه الأسماء:

العزیز، الحكيم، المحيي، المميت، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، له مُلك هذا الكون،

وهو العالم بكل شيء.

(١) النسائي في السنن الكبرى (٨٠٢٦)، وأبوداود (٥٠٥٧)، والترمذي برقم (٨٤٠٦)، والمسند (١٢٨/٤) برقم

(١٧١٦٠) باسناد ضعيف لجهالة ابن أبي بلال وقد ضعفه الألباني أيضاً في ضعيف سنن أبي داود (١٠٧٣).

فهو سبحانه خالق السموات والأرض ومالكهما، يعلم ما يدخل فيهما وما يخرج منهما، وما ينزل منهما، وما يصعد إليهما، وتبعاً لذلك فإنه سبحانه يُدخِل الليل في النهار، ويدخِل النهار في الليل، وهو قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو سبحانه خالق كل شيء ومبدعه.

وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بأثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يُعْرِف كُنْه حقيقته أحد، وهو الخالق لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وكل ما في هذا الكون من ملك وإنس وجن وحيوان وشجر ومدر وجماد، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى، فالكل يشهد بوحدانيته تعالى، ويشهد بعظمته.

٢ - ثم تضع السورة عنصران رئيسان للأمة الإسلامية حتى تؤدي رسالتها العالمية، وهما:

الإيمان بالله ورسوله، وهو عبادة قلبية، ويظهر أثره على الجوارح واللسان. والإنفاق من مال الله، وهو عبادة مالية ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧، وهذا الإنفاق للمال، لتحقيق عزة الإسلام ورفع شأنه، ينفق على التصنيع الحربي، وما يسلح الأمة في مواجهة عدوها بما يكافئ ما عنده من سلاح وعتاد، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال واللسان، لينال التمكين والسيادة في الأرض، ومنه النفقة الواجبة والمستحبة، وبذلك ينال العبد السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة، ولذا بينت السورة أن إنفاق المال في أوقات الأزمات والشدائد يفوق كثيراً الإنفاق في أوقات الرخاء والسعة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الآية: ١٠] ولذلك فإن السورة جعلت عطاء المؤمن بمثابة القرض الحسن لله عز وجل.

ولما سمع أبو الدحداح هذه الآية وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، فقال: إني أقرضت ربي حائطي، اخرجني يا أم الدحداح أنت وعيالك، فقد أقرضت ربي حائطي،

فأجابته على الفور: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

والسورة تُعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

٣ - وقد تحدثت آيات السورة عن أهل الإيمان، المنفقين أموالهم في سبيل الله، وبينت أن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

أما أهل النفاق فإنهم يتخبطون في الظلمات على الصراط يوم القيامة، كما كانوا يعيشون في الدنيا في ظلمات الجهل والغي والضلال.

والإيمان المقبول: أساسه معرفة الله تعالى، ونكران الذات، ورحمة الخلق، ورقة القلب. والإسلام يمقت القسوة والجفوة والصلف، وبهذا يعظ القرآن أهله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الآية: ١٦] ولا يتشبهوا بغيرهم ممن طالت حياتهم في الدنيا ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ [الآية: ١٦].

٤ - ثم تتحدث آيات السورة عن الدنيا والآخرة، لتضع كلاً منهما في ميزان الحق، فالدنيا تتمثل في خمسة أهداف: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، فإذا أعطينا لكل من هذه الخمسة، ثمانية أعوام من بداية عمر الإنسان حسب ترتيبها، فسيبلغ إلى نهاية سن الشباب، فالطفل يلعب ثمانية أعوام، ويلهو ثمانية أخرى، ويتزين في سن المراهقة في الثمانية التي تليها، ويتفاخر فيما بين ٢٤-٣٢ من عمره، ويتكاثر في المال والولد من ٣٢-٤٠ سنة، وبذا يكتمل عقله ويستكمل شهواته، ولذا كان سن الأربعين هو سن النبوة، هذه هي رحلة الدنيا، كزرع أخصب، ثم ذبل، ثم صار هشيمًا يابسًا.

أما رحلة الآخرة، فإنها تتطلب المسارعة، والتسابق إلى الجنات، والتنافس في الخيرات: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والآخرة دار الخلود والبقاء، لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

٥ - ثم تبين آيات السورة أن رسالة الله تعالى إلى خلقه واحده جاء بها الرسل

جميعاً، وأيدهم الله بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب، وأنزل مع الكتاب ميزان الأعمال والأقوال في شرع الله، ليقوم الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٥] وإقامة منهج الله في أرضه، لا بد له من القوة الرادعة المهيمنة التي تلزم للمسلمين في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢٥].

ومن الحديد يكون التصنيع الحربي الذي يغنينا عن عدونا، ويحمي دعوتنا وأرضنا، وينصرنا الله بسببه على من اعتدى علينا، وندفع به الصائل، ونحرس به الحدود، وتُصنع الطائرات والدبابات والمدافع والسفن، ونشر كلمة التوحيد والرسالة الأخيرة، ومن الحديد تُبنى الجسور، والأنفاق، وتُشيد المباني والسدود، وتُقام الحضارات، ويكون العمران والبنيان والمواصلات.

إننا نعيش في عصر العلم، عصر غزو الفضاء وشبكة المعلومات، والفضائيات وطائرات التجسس، وأسلحة الدمار الشامل، وإذا لم يأخذ المسلمون بوسائل العلم المعاصر المكافئة لعدوهم، أو الوسائل المتاحة في حدود الإمكان، فلن تقوم لهم قائمة، ولن تتحقق لهم السيادة في دينهم وأرضهم. وديار المسلمين غنية بالمال، وغنية بالعقول العلمية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى التجرد والتوجه الصحيح.

وبهذا يتبين أن الله تعالى قد وضع للبشر القوة المعنوية، وهي تتمثل فيما جاءت به الرسل من المنهج العملي لتحقيق العبودية والخلافة في الأرض.

وَوَضَعَ لَهَا الْقُوَّةَ الْمَادِيَّةَ، الممثلة في الحديد، لحماية الدعوة وإقامة العدل بين الناس. وتُختم السورة بتوصية المسلمين بالعودة إلى الله تعالى، والاقتراء برسوله ﷺ فإذا أعاد المسلمون علاقتهم بربهم، ومَشَوْا وراء نبيهم، فإن الله تعالى ناصرهم على عدوهم بمشيئة الله سبحانه.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول جانب التنزيه لله تعالى ودلائل التوحيد، وذلك في الآيات الست الأولى من السورة، وفيه اثنان وعشرون صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى.

المقطع الثاني: هو موجبات الإيمان والنفاق، ومصير المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، وذلك من الآية السابعة في السورة، إلى الآية التاسعة عشرة فيها.

فالمؤمنون لهم أجر كريم، والمنافقون في العقيدة، مأواهم النار وبئس المصير.

والمقطع الثالث: يتناول رحلة الدنيا والآخرة، فالدنيا لعب ولهو.. والآخرة تنافس وتسابق إلى وسائل النجاة، وهذا من الآية العشرين إلى الآية الرابعة والعشرين.

المقطع الرابع: حديث عن الرسل والرسالات، ووسائل التمكين في الأرض، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم النبيين، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين وهي نهاية السورة، وفي هذا المقطع بيان أن إقامة منهج الله تعالى في أرضه لا بد له من قوة تحميه، فالقوة المعنوية تحتاج إلى قوة مادية تساندها وتحقق لها البقاء في الأرض، والحديد عنوان هذه القوة، وقد جاءت الرسل بما يريد الله من خلقه.

\*\*\*

## تفسير السورة

أحد عشر صفةً لله تعالى، منها: صفتان في هذه الآية

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ابتدأت سورة الحديد بإثبات أن جميع ما في الكون يسبح بحمد الله تعالى، وينزهه عما لا يليق بجلاله، وهو قانت لربه، خاضع ومنقاد لعظمته، وذلك من كل: إنس وملك وجن وحيوان ونبات وبحار وأنهار ودواب وجماد وشجر وحجر ومدر.

الجميع قد مجّد الله تعالى وعظّمه ونزّهه عن السوء، وعن كل ما لا يليق به قولاً وفعلاً واعتقاداً، الكل يسبح الله تعالى بلسان الحال والمقال، وهو سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره بلا منازع ولا ممانع، وجميع الخلق مفتقر إليه، وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته وأفعاله يضع الأمور في نصابها وفق ما تقتضيه مصلحة عباده.

فهاتان صفتان لله تعالى هما العزيز الحكيم، إلى جوار الاسم العَلَم وهو اسم الجلالة ﴿الله﴾.

### التسبيح في فواتح السور:

وقد جاء التسبيح في فواتح السور: تارة بالمضدر، في أول سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

ويأتي الافتتاح بالتسبيح، لما يعقبه من أمرٍ جليل، وآية باهرة كحادثة الإسراء.

وتارة بصيغة الفعل الماضي كما في سور: الحديد والحشر والصف.

وتارة بصيغة الفعل المضارع كما في أول سورتي الجمعة والتغابن.

(١) سكن الهاء قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر من (وهو) حيث وقعت، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.



وتارة بصيغة فعل الأمر كما في أول سورة الأعلى. فهذه سبع سور جاءت مفتحة بالتسبيح.

وفي هذا إشارة إلى أن جميع الكائنات تسبح بحمد الله تعالى دائماً وأبداً في الماضي والحاضر والمستقبل.

وأول ما يقتضيه هذا التسبيح، هو تنزيه الله تعالى بنفي الشريك والولد عنه سبحانه، فإن عدم وحدانية الله تعالى أكبر ضلال ضل فيه المشركون ممن أشركوا مع الله غيره، أو توجهوا بالعبادة لغيره، وكذلك من قال بوجود إلهين: إله للخير وإله للشر، كالمانوية.

وكذا أهل التثليث كالنصارى والبراهمة، والوثنيون كعباد البقر والأصنام، والقائلون بأن عيسى ابن الله، أو هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة.

ولذلك فإن الله تعالى أتبع اسمه العلم في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ باثنتين وعشرين صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى، منها صفتان في هذه الآية، وهي العزة والحكمة إلى جوار لفظ الجلالة قبلهما.

وأربع صفات في الآية بعدها هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة.

وخمس صفات في الآية الثالثة، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن والعلم التام.

وأربع صفات في الآية الرابعة، هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير.

وهذه الآية تشتمل على ثمانية من دلائل التوحيد، وهي: الخلق، والاستواء، وما يدخل

في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد إليها، ومعية العلم الإحاطة، وإطلاع الله تعالى على جميع خلقه.

وفي الآية الخامسة: أنه تعالى له ملك الدنيا والآخرة.

وفي الآية السادسة دليلان على وحدانية الله تعالى هما: إدخال كل من الليل

والنهار في الآخر، والعلم بما في الصدور، وذلك كله في فحوى الآيات ومنطوقها.

والتسبيح يعني التوحيد والتعظيم والتمجيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة.  
 ويعني أن جميع المخلوقات منقادة لله تعالى، ويدخل فيه السجود لله عز وجل:  
 ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]  
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
 وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

### تسبيح الكائنات بلسان الحال والمقال:

وتسبيح الله تعالى من غير العقلاء يكون بكيفية لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ  
 لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ  
 تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والأولى حمل هذا التسبيح على ظاهره، وأنه تسبيح حقيقي، بلغة  
 وكيفية يعلمها رب العالمين، والأدلة متضاربة على ذلك: منها قوله تعالى: ﴿يَسْجُدُ لِلرَّبِّ  
 مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] فالجبال والطيور ترجع التسبيح مع داود عليه السلام.

- ١- وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن»<sup>(١)</sup>.
- ٢- ويقول عليّ رضي الله عنه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله حجر ولا جبل، إلا وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله»<sup>(٢)</sup>.
- ٣- وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب إلى الجذع، فلما صنعوا له المنبر، وخطب إليه، حنّ الجذع حين الناقه، فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم فمسحه فسكن)<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٧).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٢٢٦) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ينظر الحديث في البخاري برقم (٩١٨، ٤٤٩).

## وَأَرْبَعُ صِفَاتٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٢ - ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات لله تعالى هي: الملك والإحياء والإماتة والقدرة، إنه جل شأنه مالك هذا الكون، يتصرف فيه بعلمه وحكمته، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو الخالق الرازق المدبر القادر فلا يعجزه شيء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما وحده، ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، فهو الغني عن جميع خلقه، والكل محتاج إليه ﴿يُحْيِي﴾ الأموات للبعث والحساب والجزاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء في الدنيا، وإن شاء أبقى، وإن شاء أزال، بلا منازع ولا مشارك. ولا يوجد أحد من الخلق يدعي أنه يحيي ويميت، وإن وجد ذلك كالذي قال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فهذا من باب المغالطة والمجادلة بالباطل. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، فإن الإحياء والإماتة من قدرة الله تعالى وحده.

## خَمْسُ صِفَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ

٣ - ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

وهذه الآية فيها خمس صفات لله تعالى لا تحتاج إلى بيان، ومثلك الله تعالى دائم في جميع الأزمنة، وتصرفه تعالى في العالم العلوي والسفلي حاصل في عموم الأحوال؛ وبيان هذه الصفات فيما يأتي:

١ - ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الأزلي، ليس لوجوده بداية، السابق على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجودها ومنشؤها، فقد كان سبحانه ولم يكن قبله شيء، ووضف الله تعالى بالقدم يستلزم وصفه بالغنى المطلق، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى غيره في شيء، فليس الغنى بالمال فقط، بل بالاستغناء عن الآخرين، ولا يوجد أحد من الخلق يستغني عن الناس، فرغيف الخبز مثلا يشترك فيه عدد من الناس حتى يصل إلى الإنسان.

ويستلزم وصف القدم: التفرد بصفة الوجود، لأنه لو كان هناك غير الله موجود، لما اتصف سبحانه بأنه الأول مطلقاً.

ووصف الله تعالى بالأول يستلزم أيضاً اتصافه بالوحدانية وجميع صفات الجلال والكمال.

٢ - ﴿وَالْآخِرُ﴾ فليس بعده شيء، وليس لبقائه نهاية، فالكل يفنى، ويبقى الله سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فهو سبحانه الآخر بعد فناء موجودات السموات والأرض، وهو جل شأنه مستمر في وجوده، لا يتأبه العدم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن ينام، اضطجع على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم رب السموات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر»<sup>(١)</sup>.

وقد نصح النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء حينما جاءته تسأله خادماً<sup>(٢)</sup>.

٣ - ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، والظهور ضد الخفاء، فهو سبحانه ظاهر لجميع خلقه عن طريق النظر والاستدلال والتدبر في آياته الكونية في السموات والأرض، فهو ظاهر بالأدلة الدالة عليه سبحانه وفي الحديث السابق (وأنت الظاهر

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) وابن أبي شيبة (٢٥١/١٠) والمسند (٨٩٦٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي (٥٣)، والترمذي (٣٤٨١)، وأبو داود (٥٠٥١) وابن ماجه (٣٨٧٣)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٩).

(٢) كما في صحيح مسلم في الحديث السابق، وعند ابن أبي شيبة (٢٦٢/١٠) والبيهقي (١٢).

فليس فوقك شيء) أي ليس فوقك شيء في دلالة الأدلة العقلية والنقلية على وجودك واتصافك بصفات الجلال والكمال.

٤ - ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء، يعلم بواطن الأمور، وهو سبحانه لا يحيط به البصر ولا التكيف، والله تعالى ظاهر بوجوده، باطن بكنهه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاطِنَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فلا مطمع لأحد في إدراك ذاته، ولا معرفة تفاصيل تصرفاته، والعقول لا تدرك كنه ذاته سبحانه.

٥ - ﴿وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في العالم العلوي والسفلي، قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والخفايا والسرائر والأمور المتقدمة والمتأخرة. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاِنَّهَا لَۤا اَصْفَرُ مِنْ قَالَ تَعَالٰى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْاَرْضِ وَلَا اَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا اَكْبَرُ﴾ [سبأ: ٣].

### ثَمَانِيَّةٌ اَدْلَةٌ عَلٰى التَّوْحِيْدِ فِي هَذِهِ الْاٰيَةِ

٤ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اَسْتَوٰى عَلٰى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ اَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ﴾

وفي هذه الآية أربع صفات هي: الخالق، الواحد، المدبر، البصير، وهذه الصفات الأربع يدخل تحتها أربعة أخرى من دلائل وحدانيته تعالى في هذه الآية التي اشتملت على ثمانية أدلة على وحدانية الله تعالى:

أولها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة أي إنه تعالى خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين،

ثم خلق أقوات الخلق في يومين، فيكون مجموعها ستة أيام.  
عن الحسن: أنها من أيام الدنيا، ولو أراد الله أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستة أيام أصلاً ليكون عليها المدار<sup>(١)</sup>.

ثانيها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي أنه تعالى استوى على عرشه وفوق جميع خلقه، استواء يليق بجلاله، بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل ولا تجسيم.

قال الشعبي وجماعة: الاستواء من متشابه القرآن، يؤمن به المسلم، ولا يعرض لمعناه. وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألت عنها أهل العراق وأهل الشام، فما وُفق أحدٌ توفيقك<sup>(٢)</sup>.

ثالثها: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من البذور والأمطار والأموات ومن حب وحيوان ومطر وغيرها.

رابعها: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وزرع وثمار وحيوان ومعادن ونفط وأحياء وغيرها.

خامسها: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر وبرد وثلج وصواعق، ومن الأرزاق، والأقدار والملائكة، والرحمة والعذاب وغيرها.

سادسها: ﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ أي من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال الصالحة والسيئة، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وصح في الحديث عن أبي موسى ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع: «إن الله لا

(١) تفسير النسفي للآية.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣٧/٤) تفسير أول سورة طه .

ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، ويرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار<sup>(١)</sup>.

سابعها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بقدرته وعلمه وإحاطته، أينما كنتم في البر أو البحر أو الجو، أو الأرض أو السماء، أو الليل أو النهار، أو البيت، أو الصحراء، في جوف الليل وفي وضح النهار، هو عالم بكم أينما كنتم، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

وقال جل شأنه: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذه المعية، معية العلم والإحاطة والاطلاع، ولهذا توعد الله المجرمين، ووعد المؤمنين بالمجازاة عليها.

ثامنها: وختمت الآية بما يؤكد مضمونها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويسمع أقوالكم ولا يغيب عنه منها شيء، وسوف يحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذه السورة من أدلة التوحيد أن الله تعالى له ملك الدنيا والآخرة، قال تعالى:

٥ - ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

وكما أن الله تعالى مالك هذا الكون في الدنيا، فإن سبحانه يملكه أيضا في الدار

(١) جزء من حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم برقم (١٧٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر بالبناء للمفعول في ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ والباقون بالبناء للفاعل.

الآخرة، وذلك أنه في الآية الثانية من السورة بين سبحانه وتعالى أن ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بأوامره القدرية والشرعية وفق حكمته سبحانه أي أن جميع الموجودات مخلوقة ومملوكة لله تعالى، ومنها الموت والحياة، والتصرف الكلي في العالم العلوي والسفلي.

وأكد سبحانه هنا هذا المعنى نفسه ليبنى عليه ما يتعلق بالدار الآخرة، وليبين أن الحكم والتصرف المطلق والمرجع والمصير إليه سبحانه فقال: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ من الأعمال والعباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣] وقال جل شأنه: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

### فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلَانِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

٦ - ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وفي هذه الآية صفتان لله تعالى هما: مطلق التصرف في ساعات الليل والنهار، وعلمه تعالى بما تكنه الصدور من السرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا. وبما أن الله تعالى متصرف في أحوال الدنيا والآخرة، فإن من جملة ذلك: تصرفه في الليل والنهار بالزيادة والنقص، والحرارة والبرودة، فهو جل شأنه يُدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيزيد الليل في النهار، فيزيد النهار، ويُدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيزيد الليل، ويُدخل كلا منهما في الآخر، ويقبّل الليل والنهار، فيسيران وفق نظام محكم دقيق، يغشي الليل بظلامه فيسكن الناس ويهدؤون، ويأتي النهار فيزول الظلام ويضيء الكون، ويقوم الناس إلى معاشهم ومصالحهم، وهكذا يكوّر الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، ويترتب على ذلك فصول السنة الأربعة، والحرارة والبرودة، وما إلى ذلك.

والله تعالى هو الذي يُفني خلقه، ويتصرف فيهم كيف شاء، وليس الدهر ولا تعاقب



الليل والنهار، كما يزعم المشركون في قولهم: ﴿تَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا اللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٤] قال تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] ﴿وَهُوَ﴾ جل شأنه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم الخفايا والنوايا ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

عن ابن عباس رضي الله عنه أن اسم الله الأعظم في ست آيات من أول سورة الحديد <sup>(١)</sup>.

وقد اشتملت هذه الآيات الست على تسعة عشر دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنی وهي: الله، العزيز، الحكيم، الملك، المحيي، المميت، القدير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، الخالق، الواحد، المدبر، البصير، مالك يوم الدين، مصرف الليل والنهار، عليم بذات الصدور، ونتيجة لهذه الدلائل يجب عليكم - أيها الناس - أن تدخلوا في ساحة الإيمان إن كنتم غير مؤمنين.

## الإِيمَانُ وَإِنْفَاقُ الْمَالِ عُنْصُرَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا لِنَجَاحِ الْأُمَّةِ

٧ - ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

في هذه الآية يأمر الله عباده أن يؤمنوا بالله ورسوله وينفقوا أموالهم في سبيل الله، وبعد أن بين الله سبحانه أنه مطلع على النوايا والخفايا، وأن مصير العباد إلى الله وحده، وسوف يحاسبهم على التقير والقطمير، ذكّرهم بعد ذلك بالإيمان بالله إيماناً لا يشوبه شرك، وذكّرهم بالإيمان برسوله ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صدق ما أخبر به، مما كان محل ارتيابهم وتكذيبهم.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اثبتوا على الإيمان، أو ادخلوا في الإيمان إن كنتم غير مؤمنين بالله ورسوله، وداوموا على الإيمان بالله تعالى ورسوله محمداً ﷺ إيماناً حقاً لا

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٥٨).

تشوبه شائبة.

ومن مقتضيات الإيمان: أن تنفقوا من أموالكم في وجوه الخير، فإن هذه الأموال عارية في أيديكم، رزقكم الله إياها، أو وَرِثْتُمُوهَا عَنْ غَيْرِكُمْ، وغيركم سيرتها عنكم، وهي أمانة لديكم، استخلفكم الله عليها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهَا﴾ فهذه الأموال التي في أيديكم، هي أموال الله، وضعها عندكم للاستمتاع بها في الطرق المشروعة، وجعلكم خلفاء فيها، فأنفقوا منها في حقوق الله، ولا تضيئوا بها، فإن الله تعالى سيرث الأرض ومن عليها:

١ - جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما آخر»<sup>(١)</sup>.

٢ - وعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحِير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ﴿الْهَنَكُمُ الْكَاتِرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»<sup>(٢)</sup>.

٣ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتبع الميت ثلاث، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»<sup>(٣)</sup>.

والآية فيمن جمع بين الإيمان بالله والرسول وبين الإنفاق في سبيل الله، ورببت على ذلك الأجر الكبير والفوز بدار النعيم.

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) المسند (٢٤/٤) برقم (١٦٣٢٧، ١٦٣٠٦، ١٦٣٢٢، ١٦٣٠٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٩٥٨)، وابن حبان (٣٣٢٧)، والطيالسي (١١٤٨) وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٠) وصحيح البخاري (٦٥١٤) ومسند أحمد (١٢٠٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في الملذات والمفاخرة والمقامرة وشرب الخمر، وقد جاء وصفهم بالذم في القرآن العظيم في مواطن عدة، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤] وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ﴿وَأَنفِقُوا﴾ من أموالهم في سبيل الله ﴿هُم أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي ثواب عظيم، فاغتنموا ذلك وتداركوا ما فاتكم واستعدوا للقاء ربكم.

ثم ذكر سبحانه دواعي الإيمان وعدم المانع منه، وهو دعوة الرسول لنا بالإيمان ووجوب المبادرة إلى إجابته.

### مُوجِبَاتُ الْإِيمَانِ الْأَرْبَعَةِ

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وماذا يمنعكم - أيها الكافرون - من الإيمان بالله؟ إنه لا عذر لكم في ذلك، مع قيام الحجج عليكم، ومنها:

أن الرسول ﷺ قد بين لكم من آيات الكون، وآيات القرآن، ما فيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، فإن تقرر ذلك فلا عذر لكم في عدم الإيمان به.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟ وهذا استفهام للتوبيخ والإنكار، وتوطئة لدعوتهم إلى الإيمان، إذ لا عذر لكم في ألا تصدقوا بوحدانية الله تعالى وتعملوا بشرعه.

ثم ذكرت هذه الآية أربعة أدلة، وهي حجج موجبة لوحدانية الله تعالى والإيمان به:

(١) قرأ أبو عمرو بالبناء للمجهول في ﴿أَخَذَ﴾ ورفع ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ نائب فاعل، والباقون بالبناء للفاعل في ﴿لَتَنْذَرُنَّ﴾ ونصب ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ مفعول به.

الحجة الأولى: دعوة الرسول ﷺ لوحداية الله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فيما يتلوه عليكم من آيات ربكم، ومن إقامة الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، فماذا يمنعكم من الإيمان، وقد بين لكم الرسول ﷺ من آيات القرآن ما فيه بلاغ وحجة، على أن الإيمان بالله حق، وأنه لا عذر لكم في عدم الإيمان بالله ورسوله، فتعين أن يكون إصراركم على عدم الإيمان مكابرة وعناد!

والحجة الثانية: أن الله تعالى قد أخذ عليكم العهد والميثاق بتوحيده تعالى حين أخرجكم من ظهور آبائكم، وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله إلا هو، لا رب غيره ولا معبود سواه، وقد أخذ عليكم الميثاق فأقررتم بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والحجة الثالثة: أن الله تعالى جعل لكم عقولاً لتمييزوا بها بين الحق والضلال، والغث والسمين، ومع هذا لم يترككم لعقولكم، بل أرسل لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، لتفرقوا بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر، فتخرجوا من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور.

جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً، قوم يجيئون بعدكم، يجدون ضحفاً يؤمنون بما فيها»<sup>(١)</sup>.

وفي بيعة الرسول ﷺ على الإيمان بالله ورسوله يقول سبحانه: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

(١) ينظر: مسند أبي يعلى (١/١٤٧) والمستدرک (٤/٨٥) والبخاري عن أنس في كشف الأستار (٢٨٤٠) وفي مسنده مقال.

ومقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذر: أنه تعالى قد أودع في فطرة كل إنسان: الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيتها، فهو ناموس فطري أخذه عليهم في الأزل، وكان شرطاً في التكوين، لأنه الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها. فهذه مجموعة من الأدلة توجب الإيمان بالله ورسوله وهي:

- ١- ميثاق التوحيد الأزلي التكويني. ٢- ميثاق الإيمان بالنبى الخاتم.
  - ٣- العقل وهو مناط التكليف. ٤- الرسالة الخاتمة، بما فيها من إنزال القرآن.
- وهي حجج موجبة للإيمان ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط جوابه محذوف، أي إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فآمنوا الآن، فقد توفرت لديكم جميع الأسباب الموجبة للإيمان.

الحجة الرابعة: هي أن الرسول الخاتم نبي مؤيد بالآيات البيّنات:

٩ - ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ<sup>(١)</sup> عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ<sup>(٢)</sup> رَّحِيمٌ﴾

وبما أن السورة قد وضعت عنصران رئيسان كي تنجح الأمة في بلوغ غايتها وهما: الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في وجوه الخير، وعلى رأسها نشر الدعوة العالمية. وقد أمرت بذلك الآية الثامنة وحثت عليه، وبينت الآية العاشرة موجب الإنفاق في وجوه الخير والبر.

أما هذه الآية - التاسعة - فقد أقامت الدليل على موجب الإيمان بالله والرسول، وهو هذا القرآن المنزل من عند الله تعالى لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشرك والضلال، إلى نور الإيمان والتوحيد والهدى ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من ﴿يُنَزِّلُ﴾ مضارع أنزل والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزل.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بحذف الواو التي بعد الهمزة من ﴿رَءُوفٌ﴾ فتكون (رءف) على وزن فغل، والباقون بإثبات الواو على وزن فعمل، وهما لغتان.

يَنْتَبِهُ ﴿ دلائل وحجج مفصلات واضحات، تتمثل في هذا القرآن، فهو أكبرها وأعظمها، ثم ما أيد الله به رسوله ﷺ من المعجزات الأخرى، وما أوحاه إليه في السنة النبوية، وقد أيدته الله بذلك ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أنزل عليكم الكتب، وأرسل إليكم الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما أودعه فيكم من العقل، والفطرة البشرية.

### مُوجِبَاتُ الْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٠ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أَوْلَيْتَكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا<sup>(١)</sup> وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

أي: وما الذي يمنعكم - أيها الناس - من الإنفاق في سبيل الله والحال أن أموالكم ستنتقل منكم إلى غيركم، أو أنكم سترحلون عن الدنيا، ثم يعود الملك لمالكه.

والموجب العقلي لإنفاق المال في سبيل الله: أن الإنسان سيموت ويترك المال، فيرثه غيره، ولا يستفيد منه شيئاً، فلماذا لا يستفيد منه قبل مماته، بالإنفاق منه في سبيل الله، لينفعه ذلك يوم لقاء ربه، فاغتنموا فرصة وجود المال في أيديكم وأنفقوا منه في وجوه الخير، كالصدقة الجارية ونفع المسلمين، ولا تترك لأبنائك الوصية أن يُخرجوا عنك بل أخرج أنت بنفسك قبل أن تموت، فأنت لا تدري ما يحدث من أبنائك بعدك.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي شيء يمنعكم - أيها الناس - من الإنفاق في سبيل الله للجهد في سبيله، والعمل على نشر الدعوة في أرجاء المعمورة، وسد حاجات المعوزين، وإقامة المشاريع الخيرية.. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله تعالى سيرث الأرض ومن عليها، ولا يبقى فيها ملك لأحد، وفي هذا إنكار من الله تعالى على

(١) قرأ ابن عامر (وكل) برفع اللام على أنها مبتدأ، وما بعدها خير، والعائد محذوف، تقديره (وعده) والباقون

﴿وَكَلَّا﴾ بالنصب، مفعولاً أولاً مقدماً على ﴿وَعَدَّ﴾ والمفعول الثاني ﴿الْحَسَنَى﴾.

من لم ينفقوا أموالهم فيما دعاهم الله إليه، وهم سيموتون ويتركونها لغيرهم، ولو أنفقوا بعض أموالهم فيما أمرهم الله به، لنالوا رضاه، وانتفعوا بثواب من سيرته بعدهم، وحققوا التكافل الاجتماعي في المجتمع، فأنفقوا - أيها الناس - ولا تخشوا فقرا ولا إقلاقا، فإن الذي أنفقتم في سبيله، هو مالك السموات والأرض، وييده المقاليد والخزائن، وهو مالك العرش والكرسي، وهو القائل ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] والقائل: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

### الإنفاق في الجهاد:

وعدم إنفاق المال العام والخاص في التصنيع الحربي على وجه الخصوص يؤدي بالأنفس إلى التهلكة، وهو مقدم على إقامة المباني وتشيد العمران: إن الأمة الإسلامية أغنى الشعوب، فأحشاء الدنيا في يدها، وأرضها الخصبة تفيض سمناً وعسلاً، وصحراؤها العفراء مليئة بالكنوز والمعادن، فهلاً سخرت الأمة أموالها في نصرة دينها؟ أم غلبت عليها الشهوات والنزوات وحب الدنيا؟ إن ثروات المسلمين يستفيد منها غيرهم أكثر مما يستفيد المسلمون، والواجب أن يدعم هذا الثراء تسليح الأمة، حتى تتحرر من ذل غيرها، وتستطيع نشر دين ربها، وتحقق خلافتها في الأرض، وتدفع الغوائل عن نفسها.

وحسن التصرف في المال لخدمة الإيمان، شيمة الصادقين من أهل اليقين، أما عبيد الحياة، وأهل النفاق فلهم مسالك أخرى!

### فضل الإنفاق في وقت الأزمات:

ثم إن إنفاق المال في وقت الأزمات والشدائد التي تُحْدَقُ بالأمة الإسلامية، أفضل بكثير من الإنفاق في وقت السعة والرخاء، وعلى هذا فإن من أنفق ماله وجاهد في سبيل الله قبل فتح مكة، أعظم درجة وأكثر ثواباً ممن أنفق بعد الفتح وقاتل ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ﴾.

قال ابن عطية: روي أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة أنفقت نفقات كثيرة، حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً<sup>(١)</sup>.

والمراد بالفتح في الآية: فتح مكة على الأرجح، لأنه الذي أزال الهجرة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»<sup>(٢)</sup>.

ولما قال رجل للنبي ﷺ بعد فتح مكة: أبايعك على الهجرة، فقال ﷺ: «الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإن الهجرة شأنها شديد، ولكن أبايعك على الجهاد».

وحكم الآية باق فيمن أنفق وجاهد وقت الشدة والعدوان على بقعة من بقاع العالم الإسلامي، أو على إنصاف فئة من أبناء المسلمين المستضعفين في دولة غير إسلامية، أو إسلامية، فيكون هذا المنفق أعظم أجراً ممن أنفق وجاهد في غير هذا الوقت.

وقيل: المراد بالفتح، صلح الحديبية، والأول أولى.

ويُراد بالنفقة في سبيل الله: بذل المال للتصنيع الحربي، وأسر الجرحى، والأسرى، والشهداء، وتجهيز المقاتلين بالنفقة والسلاح والعتاد إن كان هناك عجز في موارد الدولة، أو تقاعس عن هذا الباب.

وفي الآية نفي للتسوية في الثواب والفضيلة بين من ينفق في وقت الشدة، ومن ينفق في وقت الرخاء، فإن الأول أكثر ثواباً وأعظم أجراً كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وهكذا فإن من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل في سبيل الله أعظم درجة وأكثر أجراً، ممن لم يُسَلِّم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، وأكثر السابقين الأولين من فضلاء الصحابة

(١) تفسير ابن عطية (٢٥٩/٥).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم (١٣٥٣).



قد أسلم قبل الفتح.

وخشية أن يتوهم متوهم، أن من ينفق ماله في وقت الرخاء لا يكون له أجر، وخشية أن يتوهم متوهم أيضاً أن مَنْ يستطيع الجهاد بنفسه، ولا يستطيع الإنفاق بماله لا يكون له أجر، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَٰى﴾ أي كل من أنفق قبل الفتح أو بعده، وكل من جاهد في سبيل الله بنفسه، أو قلمه وماله، قد وعده الله الحسنى، وهي الجنة والأجر والثوبة، وغفران الذنوب، سواء من أنفق في الأزمات أو بعدها، مع التفاوت في الفضل بينهما، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة، وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فضّلوا فيه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو سبحانه يعلم سبب الإنفاق وأوقاته وأعداره، ويعلم أحوال الجهاد، وثواب المجاهدين، فيعطي كل عامل على نية عمله، ولا يخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة والباطنة، فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لتنالوا أجره وثوابه.

هذا: ومن المسلم به أن ما أنفقه الصحابة في سبيل الله، يفوق في أجره وثوابه أضعاف ما ينفقه المسلمون في القرون المتأخرة، كما قال ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»<sup>(١)</sup>، والحديث يشير إلى أن فضل الصحابة ليس في إنفاق المال فحسب بل يدل على فضلهم عموماً عن سواهم من البشر جميعاً بعد الرسل والأنبياء، وإنفاق المال مثل ضربه النبي ﷺ لهذا الفضل.

وقد كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أعظم أجراً، لأن حاجة الإسلام إليهما وقتها كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح، فكثرت ناصروه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد كان أبو بكر ﷺ أول من أسلم، وأول من أنفق وأعتق في سبيل الله، وأكثر

(١) صحيح البخاري برقم (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١)، وابن أبي شيبة (١٧٤/١٢)، وأبو داود

(٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١).

من ذب عن الإسلام<sup>(١)</sup>.

أخرج الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد، أو مثل الجبال ذهبا، ما بلغت أعمالهم»<sup>(٢)</sup>.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ قال أبو الدحداح: والله لأنفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي، ولا يسبقني بها أحد بعدي، فقال: اللهم: كل شيء يملكه أبو الدحداح، فإن نصفه لله، حتى بلغ فرد نعليه، ثم قال: وهذا<sup>(٣)</sup>.

### الْحَثُّ عَلَى النَّفْقَةِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١١ - ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ<sup>(٤)</sup> لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

ثم حث الآيات على الإنفاق في سبيل الله، وجعلته بمثابة من يقرض الله قرضاً حسناً، والقرض الحسن: هو النفقة الطيبة الخالصة لوجه الله تعالى، طلباً لمرضاته، على أن تكون من مال حلال طيب، طيبةً بها نفسه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ من هو المؤمن القوي الإيمان، الذي ينفق ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفي وجوه

(١) ينظر في ذلك الأثر الوارد في (معالم التنزيل) للبغوي (٣٤/٨) عن الكلبي وفيه العلاء بن عمرو وهو ضعيف.

(٢) المسند (٣١٩/٢١) (١٣٨١٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء في المختارة (٢٠٤٦)، وهو

عند مسلم (٢٥٤١) (٢٢٢)، وعند البزار (٢٥٩٢ - كشف الأستار).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢٦٤/١٤).

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف ﴿يُضْعِفُهُ﴾ بالرفع على الاستئناف، أي فهو يضاعفه. وقرأ

ابن كثير وأبو جعفر (فيضعفه) بالرفع وحذف الألف على الاستئناف أيضاً، وقرأ ابن عامر ويعقوب

(فيضعفه) بالنصب والحذف، وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالنصب وإثبات الألف، على أن الفعل منصوب بأن

مضمرة بعد الفاء في القرائتين، لوقوعها بعد الاستفهام، والتشديد والتخفيف لغتان.

الخير والبر، محتسبا أجره عند الله تعالى من قلبه، غير مُراءٍ ولا مَنانٍ ولا مُتَّبِعِ نفقته أذى. وقد سماه الله قرضاً، والمال ماله والعباد عبادَه، وَوَعَدَ بمضاعفة الأجر عليه في يوم تشدّد حاجة العبد إلى ربه ولو بحسنة واحدة، ﴿فِيضَعْفَهُ لَهُ﴾ أي يعطيه الله أجر نفقته أضعافاً في الأجر والمثوبة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ هو المغفرة والجنة عند ربه، ولا يعلم ما فيها من النعيم إلا هو سبحانه. والآية شَبِهَتْ عطاء المؤمن في الدنيا وهو يرجو به ثواب الله في الآخرة، بالقرض، فالمقرض هو الله سبحانه، والجزاء على ذلك هو الجنة، وهذا كالبيع والشراء. وأصل القرض الحسن: هو السلف، كأن يعطي الإنسان أخاه، قدراً مُعَيَّنًا من المال، على أن يرده له بعد وقت طويل أو قصير، بلا زيادة ولا منفعة، يبتغي بذلك وجه الله. وهذا المعنى غير مراد في الآية، إنما المراد هو نفقة التطوع ابتغاء وجه الله، والله تعالى هو المجازي عليها بمضاعفة الحسنات أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا آلَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُضِدِّقِينَ وَالْمُضِدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَعِفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]. وهذا الأجر الكريم هو ما فسره النبي ﷺ من حديث أبي أمامة ؓ «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»<sup>(١)</sup>. قال بعض العلماء: ولا يكون القرض حسناً - بالنسبة للناس فيما بينها - حتى تجتمع فيه عشرة أوصاف وهي:

- ١- أن يكون المال حلالاً.
- ٢- وأن يكون القرض من أجود المال، إذا كانت الصدقة، بشيء من الطعام أو

(١) الطبراني ٨٠/٤ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٠).

اللباس ونحوهما.

٣- وأن يتصدق به وهو محتاج إليه.

٤- وأن يصرف صدقته إلى من هو أشد حاجة إليها.

٥- وأن يكتم الصدقة ما أمكنه.

٦- وأن لا يتبعها بالمن والأذى.

٧- وأن يقصد بها وجه الله تعالى.

٨- وألا يُرائي بها الناس.

٩- وأن يستصغر صدقته وإن كانت كبيرة.

١٠- وأن تكون من أحب الأموال إليه.

١١- وألا ترى عز نفسك وذل الفقير<sup>(١)</sup>.

وجاء في الآية الأخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ

يَقِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وعن عبد الله بن مسعود وأنس وجابر بن سمرة ؓ لما نزلت هذه الآية، قال

أبوالدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبالدحداح،

قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي، وكان

له بستان فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها.

قال: فجاء أبوالدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، فقال: أخرجي، فقد

أقرضتُ ربي، عز وجل.

وفي رواية: أنها قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلتُ منه متاعها وصبيانها، وأن

رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

(١) تفسير الخازن (٤/٢٢٨).

وفي لفظ: «رب نخلة مُدَلّاة، عروقها دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»<sup>(١)</sup>.

## حَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ

١٢ - ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(١٢)</sup>

ثم بين سبحانه أن اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات، هو اليوم الذي يثاب فيه المؤمنون، ويُحْرَم فيه المنافقون، مع مساواة المرأة للرجل في العبادات، فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حيث تكوّر الشمس، ويخسف القمر، ويكون الناس في ظلمة، فينصب الصراط على متن جهنم، وعندئذ ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تضيء الطريق أمامهم على الصراط من جميع الجهات فيمشون بأيمانهم ونورهم على الصراط في ذلك الموقف العظيم، كل على قدر إيمانه، ويُبشرون بأعظم بشارة، وذلك بعد أن أخذوا صحف أعمالهم الصالحة في ساحة الحشر بأيمانهم، وتبشرهم الملائكة بالجنات والنعيم المقيم.

وهكذا في يوم القيامة، تُبَصِّرُ كل مؤمن ومؤمنة، ولهم نور حقيقي يضيء لهم الطريق على الصراط من جميع الجهات، وقد خُص الأمام واليمين بالذكر، لأنهما الجهة التي يعطى بها العبد كتاب عمله ويحمله بيمينه، والأيدي هي موضع حاجة الإنسان إلى النور، فهما مبعث النور وأصله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾<sup>(٧)</sup> فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا<sup>(٨)</sup> وَنَقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا<sup>(٩)</sup> ﴿[الإنشاق].

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٠٤/٨) عن محرز بن عون عن خلف بن خليفة، وضعفه ابن حجر في المطالب العالية برقم: (٤٠٨٠) قلت: والحديث صحيح من طرق متعددة، ينظر: المسند عن أنس (١٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققه)، وعن جابر بن سمرة (٢٠٨٣٤، ٢٠٨٩٤) وسعيد بن منصور في التفسير (٤١٧) والبيزار (٢٠٣٣) والطبراني في الكبير (٧٦٤) والبيهقي في الشعب (٣٤٥٢) وابن أبي حاتم (٢٤٣٠) والحكيم الترمذي في النوادر (٦١/٢) وغيرها.

ومن الآثار الواردة في ذلك:

١ - ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أن كل مؤمن ومنافق يعطى يوم القيامة، نوراً، فيطفاً نور المنافق، ويبقى نور المؤمن، حتى إن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء<sup>(١)</sup>.

٢ - وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن هذا النور يكون على قدر أعمالهم يَمرون على الصراط: فمنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتقد مرة، ويُطفأ مرة<sup>(٢)</sup>.

وحينما يرى المؤمنون نور المنافقين ينطفئ يقولون ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ كما جاء ذلك في آية سورة التحريم رقم: ٨

٣ - قال أبو أمامة الباهلي: أيها الناس: إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تَقْتَسِمُونَ فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو القبر، بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا من وسع الله له، ثم تنتقلون منه إلى موطن يوم القيامة، فإنكم لفي بعض تلك المواطن، حتى يغشى الناس أمر الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى موضع آخر، فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يُقَسَّمُ النور، فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق، فلا يُعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضرب الله في كتابه ﴿أَوْ كَظُلْمَتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ الآية من سورة النور: ٤٠.

ولا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا - عندما يروهم يمشون بنورهم، وقد طفق عنهم النور ووقفوا حائرين: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ - إن كان ذلك ممكناً - ﴿فَالْتَسِبُوا

(١) تفسير ابن عطية (٢٦١/٥).

(٢) نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم وابن جرير ١٥/٧ وصححه الحاكم في المستدرک ٤٧٨/٢ ووافقه الذهبي، وسنده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩/١٣).

﴿تُورَا﴾ وهي خُدعةُ الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب<sup>(١)</sup>.

٤ - وقال أبو أمامة: تُبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ تُورِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقال أبو الدرداء: أين أنت من يوم جيء بجهم قد سدّت ما بين الخافقين.

٦ - وقيل: لن تدخل الجنة حتى تخوض النار، فإن كان معك نور، استقام بك الصراط، فقد والله نجوت وهديت، وإن لم يكن معك نور تشبّث بك خطاطيف جهنم أو كلاليتها، فقد والله رديت وهويت<sup>(٣)</sup>.

لقد كان الملحدون والمكذبون مع المؤمنين في الدنيا يؤاكلونهم ويعاشرونهم ويصاهرونهم، وماتوا مثل غيرهم، فإذا كان يوم القيامة ميّز الله بين المؤمنين وغيرهم، وحيل بينهم بسور.

٧ - وفي الأثر عن أبي الدرداء وأبي ذر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم

(١) أخرجه ابن المبارك، بدون ما بين الشرطتين في المرتين، زوائد أبي نعيم (٣٦٨)، والحاكم (٤٠٠/٢)، والبيهقي (١٠١٥) قال محقق الأسماء والصفات: موقوف صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤٢/٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٨/١٣).

بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنور يسعى بين أيديهم وبإيمانهم»<sup>(١)</sup>.  
وتقول الملائكة للمؤمنين ﴿بُشِّرِكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أنهم  
يشيرونهم بدخول جنات واسعة، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار المياه  
العذبة الجارية، وهم لا يخرجون منها أبداً فما أجمل هذه البشارة لقلوبهم وما ألدّها  
لنفوسهم حيث فازوا بكل مطلوب ونجوا من كل مرهوب ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي  
لا فوز بعده ولا سعادة بعده.

ولما بين الله تعالى حال المؤمنين أتبعه بذكر حال المنافقين فقال:

١٣ - ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا مَا نَمُنَّوْا أَنْظَرُونَا<sup>(٢)</sup> نَقَلْنَا مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ  
فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لِمَا بَاطَنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرُوهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ<sup>(٣)</sup>﴾

يقول المنافقون ذلك وهم في عرصات القيامة، حيث الأهوال والزلازل، فهو يوم  
شديد، فيه ﴿تَدَاهُلُ كُلُّ مِرْضَكَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ  
سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وفي هذا اليوم العظيم، يأذن الله تعالى للمؤمنين بالسير على الصراط إلى الجنة فوجاً  
فوجاً ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا<sup>(٤)</sup>﴾ [مریم: ٨٥] وأما المنافقون الذين كانوا يعيشون  
بين المؤمنين في الدنيا، فإنهم يسرون وراءهم في الظلمة، كما جاء في حديث الشفاعة  
«وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها»<sup>(٥)</sup> وحين يسرون على الصراط في الظلمة ولا يرون

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٤٧٨/٢) من طریق عبد الله بن صالح، وهو صحيح لغيره كما في صحيح  
الترغيب (١٨٠)، وهو في المسند (٢١٧٣٧) بنحوه، قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه البزار (٣٤٥٧) -  
كشف الأستار، والطبراني في الأوسط (٣٢٥٨).

(٢) قرأ حمزة بهمة قطع مفتوحة في ﴿انظُرُونَا﴾ وصلاً ووقفاً مع كسر الظاء من الإنظار بمعنى الإمهال، والباقون  
بهمة وصل ساقطة في الوصل مضمومة في البدء مع ضم الظاء، من نظر بمعنى انتظر أو بمعنى أبصر.

(٣) قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ معدود آية عند الكوفي وحده، ومترك من العدد عند غيره.

(٤) من حديث أبي هريرة بتصحيح الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٠٣٣).



شيئا، يقولون للمؤمنين: تريثوا، انتظروا قليلا وتمهلوا في سيركم، حتى نلحق بكم ونستضيء بنوركم<sup>(١)</sup>.

وهكذا: تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة، فيعطي الله المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضا نورا، خديعة لهم - لأنهم كانوا يخادعون الله ورسوله في الدنيا - فبينما هم يمشون على الصراط إذ بعث الله ريحا وظلمة، فانطفأت نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ [التحریم: ٨] يقولون ذلك مخافة أن يسلب نورهم كما سلب من المنافقين<sup>(٢)</sup>.

وحين لا يبصر المنافقون مواضع أقدامهم ويقولون للمؤمنين: انتظرونا نستضيء بنوركم، تزد عليهم الملائكة تهكما وسخرية ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي ارجعوا إلى الدنيا إن كان ذلك ممكناً فالتمسوا فيها نورا بتصحيح الإيمان والترود بالعمل الصالح، أو ارجعوا إلى الموقف الذي كنتم فيه حيث قسمت الأنوار، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا.

وهذا الاستهزاء مقابل استهزاء المنافقين بالمؤمنين في الدنيا، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المطففين] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة].

وحينئذ يضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور كبير - يوجد الله تعالى في هذا الوقت، قطعاً لأطماعهم في الجنة - ويتركهم في ظلمات لا يبصرون، فيكون وضعهم في هذه الحال، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٣٨٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٢٢٩) وينظر: تفسير ابن كثير (٧/١٦).

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ [البقرة: ١٧].

وهذا الحائط الذي يحجز بين أهل الجنة وأهل النار: باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة والجنة، وظاهره من جهة المنافقين فيه العذاب والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

وكان هذا السور يمثل أعمال العباد في الدنيا، بأن منها ما يُفْضِي بصاحبه إلى النعيم، ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب، وجعل هذا الباب في حائط واحد، كي يزداد المنافقون المحبوسون وراء السور حسرة وندامة كلما رأوا المؤمنين يجتازونه إلى النعيم في باطن السور.

والظاهر أن هذا السور ليس هو الحجاب أو الأعراف الذي بين الجنة والنار المذكور في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ [آية: ٤٦].

### أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ بَاعَدَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٤ - ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾<sup>(١)</sup>

حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَكَمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾

أي أنه إذا تكامل دخول المؤمنين في باطن السور، أغلق الباب، وبقي المنافقون وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب، وحينئذ ينادي المنافقون على المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم في الدنيا ننطق بالشهادتين ونصلي ونصوم، ونؤدي الشعائر مثلكم ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نشارككم في أعمال الإسلام، فقد زعموا أن الآخرة مثل الدنيا يجري فيها التعامل على الصورة الظاهرة، وغاب عنهم أن الإخلاص يكمن في تجرد الإيمان لله تعالى، وهو أساس القبول، وحينئذ يرد المؤمنون على المنافقين ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد كنتم معنا في الدنيا تتظاهرون بالإسلام، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين بغير إيمان

(١) قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء سطنة من ﴿الْأَمَانِيُّ﴾ وقرأ الباقون بتشديدها مضمومة.

صحيح ولا نية صادقة.

ثم بينوا لهم أن هناك أربعة أسباب هي التي باعدت بين المؤمنين والمنافقين، وهي: الفتنة، والتربص، والارتياب، والاعتذار، وهذه هي أصول النفاق.

السبب الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّكُمْ فِتْنَةٌ أَنْفُسُكُمْ﴾ أهلكتموها بالنفاق والمعاصي، فكنتم على ضلال، حينما تظاهرتن بالإسلام وأبطنتن الكفر، وكنتم في حيرة وتردد وشك وارتياب، ولم يستقر الإيمان في قلوبكم، فكانت خواطر الكفر والبغضاء، تنقض خواطر الإيمان ومحبة المؤمنين، مما ينشأ عنه: الكذب، والخداع، والاستهزاء، والطعن في المسلمين، ومحبة غيرهم، والتحاكم لغير شرع الله تعالى، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] والمنافقون يرفضون التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويريدون التحاكم إلى غير المسلمين من القوانين الوضعية، والرضى بهذا، أو اعتقاد أنه الأفضل والأنسب للعضر، من علامات الكفر، وإن تظاهروا بالإسلام.

السبب الثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّصُّمُ﴾ أي ترقبتم أن تدور الدائرة على الإسلام وأهله، فالمنافقون في كل زمان ومكان، يترقبون للمؤمنين نزول الأضرار بهم، كالهزائم، والفقر وأنواع الأذى ويودون انقسام المؤمنين وتفرقهم، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨].

السبب الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْبَبْتُمْ﴾ أي شككتن في خبر الله تعالى الذي لا يقبل شكاً، وشككتن في الدين، وشككتن في البعث بعد الموت، وشككتن في الاعتماد على المسلمين في ساحات القتال، وثبطنتم الناس عن الجهاد في سبيل الله، وقلتم ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] وقلتم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] وهذا الارتياب في الإسلام وأهله وعدم محبتهم هو النفاق بعينه.

السبب الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَرَّضْكُمْ لِلْأَمَانِ﴾ أي خدعتكم أمانكم الباطلة، فزعمتم أنكم على حق، وأنكم مصلحون، وأن الدائرة ستدور على المسلمين، وأن

العاقبة ستكون لكم، وتمنيتهم أن تناولوا مثل المؤمنين ولستم منهم.  
وهذه الخصال الأربعة تتولد من النفاق، أي وبقيتهم - أيها المنافقون - على الفتنة والارتباب، والتربص، والاعتزاز بالباطل، طيلة أعماركم، على تعاقب السنين، ولم تتدبروا العواقب ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، وأنتم على هذه الحالة السيئة، ولم تفلحوا عنها، لأن الشيطان قد خدعكم وضلللكم حين مناكم بالمغفرة، وأن الله لا يعذبكم على ما أنتم عليه ﴿وَعَزَّكُم بِاللَّهِ الْعَزُّورُ﴾ فهو الذي زين لكم الكفر والشك، فوثقتم به وصدقتم خيره، واطمأنتم إليه، والغرور بفتح الغين هو الشيطان، وبضم الغين هو الخداع والتمويه، والتغريب هو إظهار الضار في صورة النافع، قال تعالى:

١٥- ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ<sup>(١)</sup> مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ<sup>(١٥)</sup>﴾

أي: ويوم القيامة يرى المنافقون سوء عاقبتهم ونتيجة إصرارهم، حيث لا يقبل منهم عوض، يفتدون أنفسهم به ليخلصوها من عذاب الله ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ مالية تدفعونها لتفدوا أنفسكم من العذاب، ولو كانت ملء الأرض ذهباً ومثله معه، لا يقبل ذلك منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله، ومصيركم المحتوم الذي ترجعون إليه في الآخرة هو النار، ويس المصير مصيركم، ويس المستقر مستقركم ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل، ولن ينصركم منها ناصر، ولن يمنعكم منها مانع ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ الذي صرتم إليه، وهو نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ<sup>(٨)</sup> فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ<sup>(٩)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ<sup>(١٠)</sup> نَارِ حَامِيَّةٍ<sup>(١١)</sup>﴾ [القارة: ٨ - ١١].

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ<sup>(١٢)</sup> وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(١٣)</sup> يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بناء التانيث في (تؤخذ) والباقون بياء التذكير وجاز التذكير والتانيث لأن

الفاعل مؤنث مجازي، وأبدل الهمزة واوا أبو عمر ويخلف عنه وورش وحمزة وقفاً.

وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿٣٧﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٤٧] وهكذا.

ويوم القيامة يقرر الله الكافر يوم القيامة فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا، أكنت تفتدي نفسك بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم، يارب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أيسر من هذا وأنت في صلب أبيك آدم، أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك»<sup>(١)</sup>.

### التَّحذِيرُ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ

١٦ - ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ (٢) مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا (٣)

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ (٤) عَلَيْهِمْ (٥) الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾

ولما ذكر الله تعالى أحوال الكافرين والمنافقين يوم القيامة، نبه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، ولا مثل أهل الكتاب، فيغترروا بالحياة الدنيا وينسوا لقاء الله، وحذّره أن يكونوا كاليهود والنصارى حيث قست قلوبهم لَمَّا طال عليهم الزمان، وعاتبهم الله تعالى على عدم الانقياد الكامل لِمَا أنزل الله على رسوله.

(١) ينظر حديث أنس في البخاري (٦٥٣٨) وصحيح مسلم (٢٨٠٥) والمسند (١٢٧/٣) برقم (١٢٢٨٩) وهو صحيح على شرط الشيخين، وغيرهم مع تقارب في الألفاظ.

(٢) قرأ نافع وحفص ورويس بخلف عنه بتخفيف الزاي من ﴿نَزَلَ﴾ والباقون بتشديدها وهو الوجه الثاني لرويس.

(٣) قرأ رويس بقاء الخطاب في (ولا تكونوا) والباقون بياء الغيب.

(٤) قرأ الأزرق بتغليظ اللام وترقيقها من ﴿فَطَالَ﴾ والباقون بترقيقها.

(٥) كسر الميم والهاء وصلًا من ﴿عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أبو عمرو، وضمهما حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والباقون

بكسر الهاء وضم الميم، وكلهم يكسرون الهاء من (عليهم) وقفا عدا حمزة ويعقوب فبالضم.

## في أسباب النزول:

- ١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين) <sup>(١)</sup>.
- ٢- وقال ابن مسعود أيضاً: لما نزلت هذه الآية جعل بعضنا ينظر إلى بعض ويقول: ما أخذتُنا؟ أي شيء صنعنا <sup>(٢)</sup>؟
- ٣- وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين بعد سنة من الهجرة، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم: حدثنا عن التوراة فإن فيها من العجائب، فنزل ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره، فكفُّوا عن سؤال سلمان ما شاء الله.
- ثم عادوا فسألوه مثل ذلك، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: ٢٣] فكفُّوا عن سؤاله ما شاء الله، ثم عادوا فسألوه، فنزلت هذه الآية <sup>(٣)</sup>.
- ٤- وقيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أنهم لما قدموا المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا في ذلك <sup>(٤)</sup>.
- ٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى استبطناً قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن <sup>(٥)</sup>.
- ٦- وفي رواية أنس: استبطناً الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن <sup>(٦)</sup>.

(١) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجه عن عامر بن عبد الله بن

الزبير بنحوه برقم (٤١٩٢)، والبخاري برقم (١٤٤٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (٤٠٨/٢).

(٢) أبو يعلى (٥٢٥٦).

(٣) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٠٣)، وذكره البغوي والخازن وابن الجوزي في تفاسيرهم للآية.

(٤) ابن المبارك (٢٦٤) وعبد الرزاق (٢٧٦/٢).

(٥) الطبراني في الكبير (٩٧٧٣) والحاكم (٤٧٩/٢).

(٦) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنور (٢٧٦/١٤).

٧- وقال أيضاً: إن بعضاً من شبان المسلمين أكثروا من الضحك والمزاح في بعض الأحيان فنزلت الآية<sup>(١)</sup>.

فهذه سبعة أسباب لنزول الآية، منها ما يشير إلى أن الآية مكية، وهو الأصح، كما جاء في صحيح مسلم، ومنها ما يشير إلى أن الآية مدنية، وأن طائفة من المؤمنين بالمدينة، أصابهم بعض الفتور والكسل عن الاجتهاد في الطاعة، بعد أن فتح الله عليهم البلاد ورزقهم الكثير من خيرات الدنيا ولين العيش، فعاتبهم الله في ذلك من باب التعريض. وفي الآية حث للمؤمنين أينما كانوا على الاستمرار في الطاعة والحذر من التقصير، وفيها تلميح في عرض الإيمان، كما تقول: أما أن لك أن تتوب إلى الله؟ ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ؓ قبل إسلامه: «أما أن لك يا ابن الخطاب أن تسلم».

والمعنى: ألم يحزن الوقت للذين صدقوا الله ورسوله واتبعوا هديه، أن تلين قلوبهم وتخضع عند ذكر الله وسماع القرآن، فترق وتخضع، وتقشعر له جلودهم خوفاً من الله تعالى، فتكثر من ذكره وتسارع في طاعته وتبتعد عن معاصيه وتنقاد لأوامره وزواجره، وللحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ولا تقسوا قلوبهم بالانغماس في الشهوات والملذات والبعد عن الطاعات، كحال الذين أوتوا الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد للحق، ثم لم يثبتوا عليه من اليهود والنصارى، الذين طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، فنسوا ما أوصاهم به أنبيأؤهم، فبدلوا كلام الله، وخالفوا شرائعه، ولم يخافوا عقابه ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال يقينهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تتأثر بالترغيب والترهيب، ولم تفرق بين الحلال والحرام، وتمكّن الجفاء من قلوبهم، فانغمست في الضلال،

(١) جاء هذا عن عائشة وغيرها، انظر ابن أبي شيبة (٦٠/١٤) في المصنف، وانظر: الدر المنثور (٢٧٦/١٤)

ورفضت الحق والهدى، والقلوب بحاجة مستمرة إلى تجديد الذكرى حتى لا تكون الغفلة والقسوة.

ثم إن كثيراً منهم تجاوز الحد من قسوة القلب، فبذ دينه، وبدل كتاب الله وحرّفه، فأفسد عقيدته وبلغ حد الكفر ﴿وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ خارجون عن طاعة الله مفرطون في دينه. وفي الآية حث للمؤمنين ألا يتشبهوا بغيرهم في قسوة القلب والخروج عن طاعة الله تعالى، وفيها حث على أن تخشع قلوبهم عند سماع القرآن، وأن يسارعوا إلى امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه، كما وصفهم ربهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفيها تحذير للمؤمنين من نبذ كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وعدم اتباع أوامر السلطان في تطويع معانيه للأهواء، ولا يكونوا كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وقد ذم الله قساة القلوب في كثير من آياته:

كقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضُوا صَبَاتَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَعَجَّلْنَا قُلُوبَهُمْ فَنَسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٣].

آثار في معنى الآية:

١- أخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه بعث إلى قراء البصرة، فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقرآؤهم، فالتوا القرآن، ولا يطولنّ عليكم الأمد، ففتسوا قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب <sup>(١)</sup>.

٢- وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية، وكان الفضل يحاول ارتكاب معصية، فكانت الآية سبباً في توبته <sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير الخازن ٢٣٠/٤ وابن أبي شيبة (٣٨٧/١٣).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٦٤/٥).



٣- وأراد ابن المبارك وهو صغير السن، أن يضرب الثعلبي، فحرك العصا ليضربه، فإذا به يقرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ فتوقف عن ضربه، وكسر العود، وجاءه التوفيق، فتاب إلى الله تعالى<sup>(١)</sup>.

٤ - وذهب بعض السابقين ليلاً لارتكاب معصية، فسمع قارئاً يقرأ هذه الآية فارتجف، وعاد أدراجه، وهو يقول: بلى والله، قد آن أوان الخشوع لذكر الله، اللهم إني تبت إليك، وجعلت تويتي إليك جوار بيتك الحرام<sup>(٢)</sup>.

**إِحْيَاءُ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ**

١٧- ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم بين سبحانه أنه يحيي القلوب القاسية بذكر الله تعالى وأهمها تلاوة القرآن، كما يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فذكر الله تعالى يؤثر في القلوب القاسية فيحييها، كما يؤثر الغيث في الأرض فتعود مُخصبة بعد أن كانت مُجدبة، وكذلك القلوب النافرة حين تُقبل على الله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فيا معشر المؤمنين: اعلموا أن الله تعالى يحيي الأرض الهامدة بالمطر، فيخرج منها النبات بعد يُيسه، وهذا أمر معلوم، لا يحتاج إلى تصدير الآية بلفظ ﴿أَعْلَمُوا﴾ وإنما جيء بهذا التصدير، لبيان أن ما سئلت في هذه الآية، جدير بالاهتمام وتوجه الذهن إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وكما في قول النبي ﷺ لأبي مسعود البدري ؓ بعد أن رآه قد لطم وجهه عبده له «اعلم

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٤/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢٥١/١٧).

أبامسعود، اعلم أبامسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا»<sup>(١)</sup>.

وافتح الآية بهذا، إشارة إلى احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله تعالى، كاحتياج الأرض إلى الماء، ولذا قال تعالى بعدها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ووحدانيتنا، لعلكم تتعظون وتعتبرون، فإن الذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على إحياء القلوب الميتة بما أنزله الله على رسوله من الحق، وفي ختام الآية دليل على أن من لم يهتد بآيات الله ويُنفذ شرائعه لا عقل له ولا خير فيه.

والمقصود من الآية، تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على الله تعالى، بين الحين والآخر وتدبر كتابه، واللجوء إليه سبحانه، وإلى سنة رسوله ﷺ ففيهما النجاة، وإليهما يفزع المؤمن، كي يعصمه الله من الزلل، كما قال ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وستي».

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب، وكانت منها أجادب أمسكت، فنفع الله بها الماء، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»<sup>(٢)</sup>.

والله تعالى يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ نَظْمِينَ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) من حديث أبي مسعود الأنصاري في مسند الإمام أحمد برقم (١٧٠٨٧، ٢٢٣٥٤) عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري، وسنده صحيح على شرط الشيخين، وهو عند عبد الرزاق في المصنف (١٧٩٥٩)، وفي مسلم (١٦٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٧٩) وصحيح مسلم (٢٢٨٢).

١٨ - ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ<sup>(١)</sup> وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُفُ لَهُمْ<sup>(٢)</sup> وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾  
 وتواضلاً مع الآية السابقة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يبين سبحانه وتعالى أن من يتصدق كثيراً بماله من الرجال والنساء، وينفق ماله في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعانة الفقراء والمحتاجين، والمساهمة في وجوه الخير والبر، عن طيب نفس، يتغني بذلك وجه الله، فإن الله تعالى يضاعف له الأجر والثوبة، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين المكثرين من الصدقة بفضول أموالهم في وجوه الخير والبر بشرط الإيمان ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالنفقة والصدقة وأعمال البر وكل ما يدخروه عند ربهم ﴿يَضَعُفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة ورضوان الله تعالى.

وعلى قراءة تخفيف الصاد يكون المعنى: إن الذين صدقوا رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن الله تعالى وآمنوا به، والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق في وجوه الخير والبر، يضاعف الله لهم ثواب صدقاتهم، ولهم عند الله تعالى أجر عظيم وثواب جليل.

### ثَوَابُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَعِقَابُ أَهْلِ الْكُفْرِ

١٩ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ<sup>(١)</sup>﴾  
 اشتملت هذه الآية على ثلاثة أصناف من البشر، هم:

١ - الصديقون، المؤمنون بالله ورسوله. ٢ - والشهداء. ٣ - والكافرون الجاحدون.  
 وقد بينت الآية السابقة فضل المؤمنين المتصدقين بأموالهم في سبيل الله، ولكن بعض المؤمنين قد لا يجد ما يتصدق به، فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذين

(١) قرأ ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد من ﴿الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ من التصديق والباقون بالتحديد فيهما من تصدق، والأصل المتصدقين فأدغمت التاء في الصاد.

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يضعف) بتشديد العين وحذف الألف، مضارع ضعف والباقون (يضاعف) بتخفيف العين وإثبات الألف.

صَدَقُوا بِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَمَّنُوا بِرَسُولِهِ ﷺ إِيْمَانًا رَاسِخًا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عَالِيَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَكُونُ فَقِيرًا، لَا يَمْلِكُ مَالًا، وَلَا يَجِدُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَالًا لَتَصَدَّقَ بِهِ، وَهُوَ صَادِقٌ فِي إِيْمَانِهِ، فَهُوَ كَامِلُ الْإِيْمَانِ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ، مِنَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ مِنْ فَضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَدْ فَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابًا كَثِيرَةً لِلصَّدَقَاتِ وَالْحَسَنَاتِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ قَالَ: تَعْدَلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»<sup>(١)</sup>.

جاء في بعض الروايات: «ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». ولما اشتكى فقراء الصحابة إلى النبي ﷺ أن الأغنياء قد ذهبوا بالأجر؛ لأنهم يتصدقون وهم لا يجدون ما يتصدقون به، نصحهم النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد والتكبير دُبُر كل صلاة.

فقد ذهب فقراء المهاجرين إلى النبي ﷺ يقولون: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أعلمكم شيئاً تُدركون به مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيْعِكُمْ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: تَسْبِحُونَ وَتُكْبِرُونَ وَتُحْمَدُونَ دَبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، قَالَ: فَارْجِعُوا فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ مَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ ﷺ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح مسلم ١٠٠٩ وصحيح البخاري (٢٧٠٧، ٢٨٩١، ٢٩٨٩).

(٢) البخاري برقم (٨٤٣) ومسلم برقم (٥٩٥) وهذا لفظه.

وبمثل هذا نصح النبي ﷺ فاطمة وعلي رضي الله عنهما لَمَّا طلبا منه خادماً، بعد أن أفاء الله عليه من الفتوحات والغزوات، فأبى ﷺ أن يعطيها ويترك أهل الصُّفَّة، ونصحهما أن يستعينا على ما يُجهدهما مِنْ حَمْلِ الحُبُوبِ وطَخْنِهَا ونحو ذلك، بالتسييح والتحميد والتكبير عَشْرًا عند النوم، فإن في هذا راحة للنفوس، وعلاجاً للأبدان.

وهذا الفضل للمؤمنين بكل الرسل، ولم يؤمن بجميع الرسل إلا أمة محمد ﷺ بخلاف الذين قالوا: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكَرْتُ بَعْضٌ﴾ [النساء: ١٥٠].

والمراد من الإيمان بالرسل في الآية: الإيمان بمحمد ﷺ لأن من يؤمن بمحمد ﷺ يؤمن بجميع الرسل.

واليهود آمنوا بالله وأشرك بعضهم فقال: عزيز ابن الله، وآمنوا بموسى عليه السلام، ولكنهم كفروا بعيسى وبمحمد عليهما السلام.

والنصارى أشركوا بالله، وقالوا: عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله، وكفروا بمحمد ﷺ.

والمؤمنون حقاً هم الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً لا شريك له، وآمنوا برسول الله جميعاً، وأن كل رسول منهم أدى مهمته في وقته، فسلم كل منهم راية الدعوة من السابق للأحق، حيث نسخت رسالة عيسى رسالة موسى عليهما السلام، ونسخت رسالة محمد رسالة عيسى عليهما السلام.

ومن يؤمن برسالة غير رسالة محمد ﷺ في كافة أرجاء العالم من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فلن يقبل منه هذا الإيمان، وهو من الكافرين، لأن من لم يؤمن بالرسول الخاتم فهو كافر، قد خسر دنياه وأخراه.

ولذا: فقد وُصف المؤمنون بالله ورسوله بالصدق فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ لأنهم لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم بل صدقوهم تصديقاً كاملاً، وآمنوا بكل رسول جاء في زمانه ومكانه، وآمنوا بخاتم المرسلين والنبیین، والإيمان الذي دل عليه

الكتاب والسنة، هو: قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، فهو إيمان يجمع بين عمل القلب واللسان والجوارح، ويشمل شرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، والذين جمعوا بين هذه الأمور مجتمعة، هم الصديقون، ومرتبهم فوق مرتبة المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

وهؤلاء المؤمنون لهم ثواب جزيل، ولهم نور يسعى بين أيديهم وأيمانهم يوم لقاء رب العالمين، وفي مقدمة المؤمنين من سبقوا غيرهم إلى الدخول في الإسلام أول ظهوره وهم: أبوبكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وعمر رضي الله عنهم أجمعين، والآية عامة في كل مؤمن بالله ورسوله.

والصنف الثاني من المؤمنين في الآية هم الشهداء، قال تعالى مستأنفاً:

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾

١- قد يراد بالشهداء في الآية: الشهداء على الأمم يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

[البقرة: ١٤٣] وقال سبحانه: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]

ومؤمنوا هذه الأمة، شهداء على الأمم السابقة.

٢- وقد يراد بالشهداء في الآية: شهداء المعركة الذين قتلوا في سبيل الله، ولا

يتعارض هذا مع ذلك، فالمؤمن يكون صديقاً وشهيداً في سبيل الله، ويكون شاهداً يوم القيامة على الناس.

ومرتبة الصديق أعلى من مرتبة الشهيد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري

أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون

الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا

رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال

آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»<sup>(١)</sup>.

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٥٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

وجاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى» <sup>(١)</sup>.

والشهداء على درجات، وأعلامهم مقاماً، من قُتل وهو يجاهد العدو بنية خالصة لإعلاء كلمة الله ردّاً لعدوان، أو إزالةً للعوائق أمام نشر الدعوة، أو نُصرةً للضعفاء من المسلمين، وكل من الصديقين والشهداء لهم الأجر والنور التام يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه «إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله» <sup>(٢)</sup>.

وهذا يقتضي علو منزلتهم ورفعة شأنهم، وقربهم من الله تعالى.

وعن عمرو بن مَرّة الجُهني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فَمَنْ أنا؟ فقال: «من الصديقين الشهداء» <sup>(٣)</sup>.

ثم ختم الله الآية بالصنف الثالث فيها، المقابل للمؤمنين الصادقين المتصدقين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا وحادانية الله تعالى، وجحدوا رسالة خاتم الرسل ﴿وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم والمؤيدة لصدق رسالته ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ

(١) صحيح مسلم (١٨٨٧) عن ابن مسعود.

(٢) ابن حبان (٤٦١١، ٧٣٩٠)، وأخرجه أحمد في المسند بأطول من هذا، ورقمه (٨٤١٩، ٨٤٧٤)، قال محققوه: حديث صحيح.

(٣) صحيح ابن حبان (٣٤٣٨) ورواه البزار وابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦١)، والبيهقي في موارد الزمآن برقم (١٩) (٣٦/١).

الجحيم ﴿ في نار جهنم على تفاوت دركاتهم فيها.

وهكذا: جمعت هذه الآية والتي قبلها أصناف الخلق:

١ - المتصدقين، الذين أحسنوا إلى خلق الله.

٢ - والصدّيقين، الذين تميّزوا بالإيمان والعلم النافع، والعمل الصالح، واليقين الصادق.

٣ - والشهداء، وهم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله بأنفسهم وأموالهم.

٤ - والكفار، أصحاب الجحيم، الذين كذبوا بآيات الله ورسله.

٥ - وفي سورة فاطر: المقتصدون، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرّمات

وحصل منهم بعض التقصير.

## شَهَوَاتُ الدُّنْيَا الثَّمَانِيَةُ وَمَثَلُهَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا

٢٠- ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَترتهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ<sup>(١)</sup> وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿١٠﴾

وبعد أن حثت الآيات السابقة على الصدقة والإنفاق في سبيل الله، بينت في هذه

الآية أن سبب الشح والحرص على المال، هو استبقاؤه لإنفاقه في اللذائذ والشهوات،

أو الخوف من الفقر، ولذا فإن الله تعالى حصر شهوات الدنيا ومتاعها في خمس نقاط

في هذه الآية، ثم ضرب لها مثلاً لسرعة زوالها، وبيان أن ما عند الله خير وأبقى.

وهذه الأمور الخمسة هي: اللعب في مرحلة الطفولة، واللهو في مرحلة الصبا،

والزينة في مرحلة الفتوة، والتفاخر في مرحلة الشباب، والتكاثر في مرحلة الكهولة،

وكل مرحلة من هذه المراحل، تستغرق ثماني سنوات من عمر الإنسان، وبتمامها يصل

الإنسان إلى سن الأربعين، وهو تمام العقل والرشد واستيفاء الشهوات، ولذا، فإن هذا

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رضوان) والباقون بكسرهما، وهما لغتان.



السن، كان بداية نزول الوحي على أكثر الأنبياء.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية غالب ما يشغل الناس من شؤون الحياة، ولا يخلو منها إلا مَنْ عصمه الله، فكانت أعماله كلها تقوى وإحسان ومنافع وفصائل، ومن الناس من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقد يمارس الإنسان في كل طور من أطوار حياته ما ذكر في الآية، في حدود المباح والمشروع، فلا يتخلل حياته آثام ولا خطايا.

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها الناس ﴿أَنَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ تقتصر على الآتي:

أولاً: إنها ﴿لَعِبٌ﴾ واللعب هو: كل قول أو فعل من شأنه المزح والهزل وقضاء الوقت فيما لا فائدة فيه، للترويح عن النفس، وجلب الفرح والمسرّة لها، ومنه المداعبة، وإزالة الوحشة عن النفس.

واللعب هو الغالب على أعمال الأطفال في الطور الأول من أطوار حياتهم، وهو يتفاوت بينهم بحسب رجاحة العقل وضعفه، وقد يكون اللعب بالبدن والأعضاء.

وقد يكون معنى اللعب في الآية: أن يُتعب الإنسان نفسه في الدنيا، كما يُتعب الأطفال أنفسهم باللعب، فإنه لا فائدة فيها غير تحصيل الزاد ليوم المعاد.

ثانياً: ﴿وَقَوٌّ﴾ اللهو هو: كل قول أو فعل يُقصد به التلذذ، وصرف الألم والحزن أو التعب والنصب عن الإنسان، فيتشغل به لإلهاء النفس عن الهموم والكآبة.

ويراد باللهو أيضاً ما يشغل الإنسان عن طاعة الله تعالى أو عن تحصيل قوته وقوت من يعول أو يُشغله عن العمل للدار الآخرة.

ثالثاً: ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: اسم لما يتزين به الإنسان في ذاته أو في ملبسه أو مركبه أو مسكنه ونحو ذلك، لتحسين نفسه في أعين الناس، والنساء تهتم بهذا الجانب أكثر من الرجال، ويكثر التزيّن في طُورٍ ما قبل الزواج، فيحاول كل من الرجل والمرأة تجميل وتحسين ذاته حسياً ومعنوياً، فيتعلم أسلوب الكلام لجذب الآخرين ونحو ذلك.

رابعاً: ﴿وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ﴾ يكون التفاخر بالأموال والعقار والمناصب والأعمال والأحساب والأنساب، فيتحدث المرء عن محامده، ويبالغ في ذلك، ويحب من الناس أن يذكره بالصفات الحميدة.

وقد يتفاخر الأحمق بما هو باطل، مما هو مذموم أو محرم شرعاً، وأفحش شيء في ذلك، من يجاهر بالمعصية مفتخراً ومتباهياً بارتكابها.

وقد يفخر الإنسان غيره بأن يكون هو الغالب في مختلف جوانب الحياة. خامساً: ﴿وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك في طُور الكهولة حيث يحاول الإنسان أن يجمع الأموال، ويبنى العقارات، ويكثر من الذرية، ويكثر غيره في المال والولد فهي مرحلة تكوين الثروة وتربية الأولاد وتأمين المستقبل كما يقال، ولا يزال يتفانى في ذلك حتى يأتيه الموت ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۗ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۗ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقد حصر سبحانه جُلّ متاع الدنيا في هذه الآية: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤].

فاعلموا - أيها الناس - أن غاية ما في الدنيا من متاع، إنما هو لعب بالأبدان ولهو بالقلوب، وغفلة عن ذكر الله وعن الوعد والوعيد، والغافلون عن ذكر الله هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، أما أهل الذكر واليقظة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله تعالى وبمعرفة ومحبة قد شغلوا أنفسهم بما يقربهم من الله ويسعدهم في دنياهم وأخراهم.

### مثل الدنيا في سرعة زوالها:

ثم زجر الله سبحانه الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركوناً ينسون معه فرائض الله تعالى، وينسون ما أمرهم به من طاعات أو نهاهم عنه من معاصي، فشبّه سبحانه الدنيا في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وقلة فائدتها، بحال نبات خرج من الأرض، بعد أن هطلت عليه الأمطار، واستمر في نموه وبهجته ونضرتة حتى أتى ثماره وأعجب أهله،

ثم اصفرَ هذا النبات واضمحلَّ حتى صار حُطاماً هشيماً تذروه الرياح، وهذا معنى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي مطر غزير أصاب أرضاً، فأنبتت وأينعت وآتت أكلها وأعجب بها أهلها، وهذا معنى ﴿أَعَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الكفار: الزُّراع: جمع كافر، وهو الزارع، وسُمُّوا كذلك لأنهم يُكفِّرون الأرض، أي يخفرونها ويضعون البذر فيها، ثم يسترونه بالتراب، والكفر هو الستر والتغطية، وسمي الكافر بالله كافراً؛ لأنه يستر ويغطي الإيمان الموجود بداخله بمقتضى الميثاق المأخوذ على بني آدم بتوحيد الله تعالى، وهم في أصلاب آبائهم.

وفي تسمية الزراع بالكفار؛ تورية بالكفار بالله تعالى، لأنهم أشد إعجاباً بمتاع الدنيا من المؤمنين إذ لا مطمع لهم في الدار الآخرة ﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ﴾ هذا النبات، فيغلظ ويشتد ويقارب اليبس، ثم يذبل ﴿فَتَرَهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرة ونضرة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي يصير النبات يابساً متفتتاً، يتحطم ويتكسر، ويصبح هشيماً تذروه الرياح، قد جاءها من أمر الله ما جاءها، فعادت إلى حالها الأول، كأنه لم ينبت فيها شيء، ولا زويت بماء، وهكذا الدنيا تزهو وتحلو في أعين أحبابها، ثم لا تلبث أن تنتهي.

وهكذا الإنسان يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضباً طرياً، ثم يتحول إلى الكهولة، ومنها إلى الشيخوخة، فتراجع قواه، وتقل حركته، وتضعف ذاكرته، ويعجز عما كان يقدر عليه قبل ذلك، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

ثم يرحل الإنسان من الدنيا، صفر اليدين، لم يتزوّد منها سوى بالكفن، وما خرج به من عمل يلقى به ربه، فتباً لمن كانت الدنيا غايته، فعمل لها وسعى.

أما العمل للآخرة، فهو الذي ينفع العبد ويصحبه في قبره وفي آخرته.

وبعد أن هوّن سبحانه من شأن الدنيا، فبيّن أنها سريعة الزوال، وأن متاعها قليل، حذر

من عذاب الآخرة، لمن اغترّ بالدنيا وانغمس فيها فشغلته عن طاعة الله تعالى وذكره.

وفي الآية ترغيب لمن أطاع الله واتبع رضاه بالجنة والرضوان، فليس في الآخرة إلا أحد أمرين، إما عذاب شديد، وأغلال وسعير، لمن كانت الدنيا غايته، فكذب بآيات وكفر بأنعمه وإما مغفرة من الله ورضوان لمن عرف حقيقة الدنيا وسعى للآخرة سعيها، قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كفر بالله ففسق عن أمره ولم يؤمن بالنبى الخاتم ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي لمن آمن بالله واليوم الآخر وآمن بخاتم النبیین وعمل صالحاً واتبع ولم يتدع.

وفي هذا تعبير عن النعيم الأخروي بقسميه: المادي والمعنوي، فالمغفرة والرضوان أصل النعيم الروحاني كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وهما يقتضيان النعيم الجسماني.

وفي نهاية الآية، وَصَفَ اللهُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِ مَتَاعِهَا، وَبَيَّنَّ أَنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، الَّذِي يَنْخَدِعُ بِهِ الْغَافِلُ وَيَغْتَرُّ بِهِ الْجَاهِلُ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لا يغتر بها ويطمئن إليها إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور، وهو الشيطان. قال سعيد بن جبیر: الدنيا متاع الغرور، إن ألهتكَ عن طلب الآخرة، فأما إذا دعوتك إلى طلب رضوان الله، وطلب الآخرة، فنعمة المتاع ونعم الوسيلة<sup>(١)</sup>. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها»<sup>(٢)</sup>. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لِلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكٍ نَعَلَهُ، وَالنَّارِ مِثْلُ ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) التفسير الكبير (٢٣٤/٢٩).

(٢) من حديث سهل بن بن سعد في البخاري برقم (٦٤٨٨، ٣٢٥٠)، والمسند (١٥٥٦٤) وغيره بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير (٥٩١٧)، وأبو يعلى (٧٥١٤).

(٣) البخاري برقم (٦٤١٥، ٦٤٨٨) والمسند (٣٨٧/١) برقم (٤٢١٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو يعلى (٥٢١١)، وابن حبان (٦٦١).

## وَجُوبُ الْمُسَارَعَةِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى

٢١- ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

ولما هوّن الله تعالى من شأن الدنيا، وعظّم أمر الآخرة، حث على المسارعة إلى نيل مرضاة الله سبحانه، والمسابقة إلى مغفرة الله ووجنته ورضوانه، لأنها سبب السعادة الأبدية في دار الخلود، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سابقوا - أيها الناس - في السعي إلى أسباب المغفرة: من التوبة النصوح، والابتعاد عن المعاصي، وأداء الفرائض، والإكثار من النوافل، والأعمال الصالحة، ولا تكونوا من المغترين بالدنيا، اللاهثين وراءها، غير القائمين بما كلفهم الله به من أعمال أو ندبهم إليها.

ومن المسارعة إلى الخيرات: أداء الصلوات في أول وقتها، وإدراك الصف الأول في الصلاة، والتواجد في الروضة التي خلف الإمام، وتكبيرة الإحرام مع الإمام، وأن يكون المرء أول داخل إلى المسجد وآخر خارج منه، وأن يكون في الصف الأول في جهاد العدو، وأول المتصدقين، وأول الساعين إلى الخير والصلح بين الناس، وأول المحافظين على وقت العمل، واجتناب المال الحرام وما إلى ذلك.

قال ابن عطية: وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات <sup>(١)</sup>.

فتنافسوا في أسباب المغفرة - أيها المسلمون - وسارعوا إلى رضوان الله تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا مبالغة في وصف سعة الجنة، فهي واسعة فسيحة، وقد نص القرآن على عرض الجنة، تنبيهاً على أن الطول أضعاف ذلك، والمراد بالعرض سعة الجنة، والتشبيه بأقصى ما يتصوره الإنسان من الاتساع.

قال الفخر الرازي: المراد، لو جعلت السموات والأرضون طبقاً طبقاً، لكان ذلك

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٧/١٥).

مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله <sup>(١)</sup>.

وروى الإمام أحمد أن هرقل - ملك الروم - كتب إلى النبي ﷺ فقال: (إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟) فقال ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار» <sup>(٢)</sup>.

قال مجاهد والسدي (إن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وإن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة) <sup>(٣)</sup>.

وهذه الجنة مُعدة للذين وحدوا الله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ وأقاموا أصول الدين وفروعه، فقد ﴿أَعَدَّتْ﴾ هذه الجنة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ودخول الجنة محض فضل من الله تعالى يعطيه من يشاء، فلن يدخل الجنة أحد بعمله، وإنما يدخلها بفضل الله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيّناه لكم من الطرق الموصلة إلى جنة الله، المبعدة عن ناره ﴿فَضَّلُ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وفضل الله تعالى بالثواب الجزيل والأجر العظيم، من أكبر ما يمتن الله تعالى به على عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].  
وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحد منكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته» <sup>(٤)</sup>.

(١) التفسير الكبير (٤/٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن التنوخي برقم (١٥٦٥٥) في حديث طويل بإسناد ضعيف، وهو في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٤)، وقال: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك.

(٣) ينظر تفسير سعيد بن منصور (٤٢٥)، وأبو الشيخ (٢٥٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٣)، والطبري (٤/ ٥٣٨)، وابن أبي حاتم (٢٦٠٣).

(٤) البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

## كُلُّ مَا يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى

٢٢، ٢٣ - ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا <sup>(١)</sup> عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ <sup>(٢)</sup> وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

ولما قال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ كان في هذا إشارة إلى أن كل ما يحدث في الدنيا من استشهاد في سبيل الله، وابتلاء في الأنفس والأموال والثمرات، وقتل وأسر، ومرضٍ وجائحة وهزيمة، وكل ما يصيب الإنسان من مصيبة صغيرة أو كبيرة في دينه أو دنياه، فهو بقوة قاهرة خارجة عن نطاق قدرة الإنسان وكسبه، ولكن هذا الكون يسير وفق نظامٍ محكم دقيق، ترتبط فيه الأسباب بالمسببات.

﴿مَا أَصَابَ﴾ أي ما أصابكم أيها الناس ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كالحط والهزيمة والزلازل والبراكين وتلف الأموال والأنعام والثمار ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مما يتعلق بذات الإنسان كالجوع والمرض والأسر، والأسقام وضيق العيش، وقطع الأعضاء، والموت، والفقر، وذهاب الأولاد، وغير ذلك ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي إلا وهو في قضاء الله وقدره مكتوب في اللوح المحفوظ، معلوم عند الله تعالى من قبل أن تُخلق الأنفس، فكل الأمور مقدره في الأزل، وهي مدونة في أم الكتاب من قبل أن تكون، وهذا شامل لعموم ما يصيب الخلق من خير أو شر، صغيرة أو كبيرة، ولا سبيل لدفعها أو منعها، بل لا بد من نفوذها ووقوعها.

وعلى هذا فلا يجوز التطير أو التشاؤم، ونسبة ما ينزل بالإنسان من محن وبلايا إلى غير الله تعالى، كمن يتشاءم من المسكن الجديد، أو من المرأة، أو من السيارة، أو من

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة ﴿تَأْسَوْا﴾ ألفاً وصلًا ووقفًا وحمزة ووقفًا، وحققتها باقي القراء.

(٢) قرأ أبو عمرو بقصر همزة ﴿آتَاكُمْ﴾ من الإتيان أي بما جاءكم، وقرأ الباقون بالمد من الإتياء أي بما أعطاكم.

الوظيفة، أو من فلان أو فلانة ونحو ذلك، فكل شيء يحدث بإذن الله تعالى.  
 كما جاء في الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»<sup>(١)</sup>.  
 وروى الطبري بسنده، أن الحسن رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: (سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النّسمة)<sup>(٢)</sup>.  
 وقال قتادة: بلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجة عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه الله أكثر<sup>(٣)</sup>.

وعلم ما كان وما يكون أمر سهل على الله تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد، وقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وعلمه لا يغيب عنه شيء.  
 وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٥١)</sup> [التوبة].

ويقول جل شأنه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].  
 ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة في أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو بقضاء الله وقدره، وذلك حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدنيا، ولا تجزعوا لما أصابكم من محن وابتلاءات، فيوطن الإنسان نفسه على ذلك، ويعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

(١) من حديث عمرو بن العاص وأبي هاني في مسلم برقم: ٢٦٥٣ والمسند ١٦٩/٢ والترمذي برقم: ٢١٥٦

وقال: حسن صحيح.

(٢) تفسير الطبري (١٣٥/٢٧) والبيهقي (٩٧٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٥٨/١٧).



وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك حتى لا نفرح فرح بطر وأشر عندما تقبل علينا الدنيا، فإن ما فيها من حظوظ سيزول عن قريب، وكل شيء يزول لا يستحق الفرح ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مما طمحت له أنفسكم وتشوقتم إليه من زخرف الدنيا ومتاعها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فرح أشر واطر، والأسى أو الحزن العادي هو من من طبيعة الإنسان، يعتريه عندما تحلّ به نكبة، أو يفوته شيء من نعيم الدنيا، وليس هذا هو الحزن المقصود في الآية، إنما المراد: الحزن الشديد الذي يصيب صاحبه باليأس والقنوط، إلا المؤمن صادق الإيمان، فإنه يرضى ويسلم، ولا يجزع ولا يهلع، كما ورد في الحديث: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»<sup>(١)</sup>.

كما أن السرور الذي يعتري الإنسان عندما تحلّ به نعمة، أو تُرفع عنه نقمة، هو من طبيعة الإنسان، وليس فيه إثم، وإنما الفرح المذموم هو الذي يحمل صاحبه على الطغيان والتكبر وعدم شكر النعمة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، فلا تحزنوا حزناً يهلككم، ولا تفرحوا فرحاً يطغىكم. قال بعض العارفين: من عرف سرّ الله في القدر هانت عليه المصائب.

وقال عمر رضي الله عنه: ما أصابني من مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم:

الأولى: أنها لم تكن في ديني.

الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم، والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وما يصيب المؤمن من نصب

(١) من حديث أنس بن مالك في البخاري (١٢٤١).

ولا وصب ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»<sup>(١)</sup>.

وإذا علم الإنسان أن ما هو فيه من منصب أو جاه أو مال، هو أمر زائل لا محالة، وصائر إلى غيره، قل جزعه عند فقده، ومن علم أنه لن يفوته شيء من رزقه وأجله بحال من الأحوال، قل فرحه ولم يتعال على الناس.

وفي الحديث عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»<sup>(٢)</sup>.

وما في قضاء الله تعالى وقدره هو من باب الغيب قبل أن يحدث، فهو مجهول للإنسان، وبالتالي وجب عليه أن يطرق الأسباب ويأخذ بها، فلا ينتظر رزقاً بدون سعي، ولا ينتظر نجاحاً بدون مذاكرة، ولا ينتظر نصراً على العدو بدون إعداد العدة، وهكذا، فقد ربط الله الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وكله مقدر، وكله معلوم عند رب العالمين، فهو خالق السبب والمسبب، وهو الأمر يبذل السبب للحصول على نتيجته، وكلّ ميسر لما خلق له، وقد كتب الله الأمور كلها في الأزل، ولا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد، وكل شيء بحول الله وقوته.

ثم ذم الله تعالى كل طاغية متكبر فظ غليظ، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبر في الدنيا بما أوتي، ينسب الفضل إلى نفسه، معجب بما أعطاه الله، فخور به على الناس، مختال في نفسه، وكل من فرح بحظوظ الدنيا وعظمت في نفسه، فقد اختال وافتخر بها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا

(١) ينظر: البخاري (٥٦٤١) ومسلم (٢٥٧٣) والترمذي (٩٦٦) والمسند (١١٠٠٧، ١١٣٣٦) بلفظ مقارب،

قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وجاء أيضاً عن عائشة

(٢٤١١٤) وأخرجه ابن حبان (٢٩٠٦) وسنن النسائي الكبرى (٧٤٤٣-٧٤٤٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

أَوْتَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [الزمر: ٤٩].

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن قزعة، قال: رأيتُ عليَّ ابن عمر، ثياباً خشنة، فقلت يا أبا عبد الرحمن: إني قد أتيتك بثوب لين مما يُصنع بخراسان، وتقَرَّ عيني أن أراه عليك، فإن عليك ثياباً خشنة، قال: إني أخاف أن ألبس فأكون مختللاً فخوراً، والله لا يحب كل مختللاً فخوراً.<sup>(١)</sup>

## وَصَفُ الْمُخْتَلِّ الْفَخُورِ

٢٤- ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ<sup>(٢)</sup> وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٤١﴾﴾  
وصف الله سبحانه أهل الفخر والخيلاء، فبين أنهم إذا رزقوا مالاً أو جاهاً، ضنوا به على الناس، فلا ينفقون منه شيئاً في سبيل الله، ولا في وجوه الخير والبر، وهذا من علامات النفاق، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، بل إنهم يحرضون الناس على البخل، فجمعوا بين أمرين ذميين وهما: منع الحقوق الواجبة، وأمر الناس بذلك، فلم يكتفوا ببخلهم بل حثوا الآخرين بقولهم وفعلهم على البخل، فهم ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله تعالى، ويُعرض عن الإنفاق في سبيل الله، فإنه لن يضر الله شيئاً، ولن يضر إلا نفسه، لأنه سبحانه الغني عن خلقه، المستحق للحمد على نعمه والآله، وهو جل شأنه الموصوف بكل وصف حسن وفعل جميل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي الغني عن العبد وعن إنفاقه للمال والمتاع، وهو سبحانه المحمود في ذاته وصفاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وهو الذي أغنى

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ١٩٢).

(٢) قرأ حمزة وخلف بفتح الباء من (البخل) والباقون بضم الباء وإسكان الخاء وهما لغتان.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف (هو)، وخبر (إن) الغنى، وقرأ الباقر بإثبات (هو) على أنه ضمير الفصل بين الاسم والخبر، وكلاً من القراءتين موافقة لرسم المصحف، فقد حُذِفَ لفظ (هو) من المصحف المدني والشامي وثبت في غيرهما.

عباده، وهو المستحق للحمد دون سواه.

وقد زادت آية سورة النساء وصفاً ثالثاً يتعلق باليهود وهو أنهم كما قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من أوصاف النبي ﷺ في التوراة، فهم ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُحْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧] قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

## تَقْوُمُ الدُّعْوَةُ: عَلَى التَّعَالِيمِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي تَدْعُمُهَا مَادِيًا وَمَعْنَوِيًا

٢٥- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا <sup>(١)</sup> بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا عذر للذين تولوا وأعرضوا عن طاعة الله سبحانه، فقد أرسل إليهم الرسل في كل زمان ومكان، وأنزل معهم الكتب ليبينوا للناس مافيه سعادتهم ومافيه شقاؤهم.

وما جاء به محمد ﷺ هو الذي جاءت به الرسل جميعاً ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج الواضحات الدالة على صدق ما جاؤوا به، وعلى أنهم يبلغون للناس رسالات الله، ومن البراهين الساطعة التي أيدهم الله بها: المعجزات الدالة على صدقهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

ثم بين سبحانه أنه أقام الإسلام على أمرين هما: القوة المعنوية، والقوة المادية، وتمثل القوة المعنوية في التشريع الإلهي القائم على الحق والعدل المعبر عنه بالميزان، وتمثل القوة المادية في السلاح الرادع لمن يقف في وجه الدعوة:

الأمر الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي أنزلنا جنس

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من ﴿رُسُلَنَا﴾ والباقون بضمها.

الكتب السماوية بالتوحيد والأحكام والشرائع التي فيها سعادة البشر وهدايتهم، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وأنزلنا مع الرسل: الميزان، أي الحكم بالعدل بين الخلائق، والعدل في الأقوال والأفعال، ليتعامل به الناس فيما شجر بينهم بالعدل، وهذا معنى ﴿لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل في معاملاتهم.

وقد عبر القرآن عن العدل، والقوانين الإلهية التي يُحكم بها بين الناس بالميزان، لأن الميزان شعار الحق والعدل، والدين كله عدل في أوامره ونواهيه، ومعاملاته وحدوده وتعزيراته وجنایاته.

فقد أخرج الطبري عن قتادة بسند حسن أن المراد بالميزان: العدل، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] أي وضع للناس الحق والعدل الذي جاء به الرسل وشهدت به الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وهذا يدل على أن الرسل متفقون في القواعد الكلية، ومنها القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال.

وإذا فُسر الميزان بالآلة المعروفة، أي ميزان حقيقي، فإن المعنى يرجع أيضا إلى تحقيق العدل المادي والمعنوي بين الناس، حتى لا يظلم بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

فإنزال الكتاب لتبليغ مراد الله تعالى إلى خلقه بواسطة الرسل.

وإنزال الميزان لتبليغ الأمر بالعدل وتحقيقه بين الناس.

وبالعدل تنتظم أمور البشر وتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم، وهذا الميزان أو هذا العدل، تُبَيِّنُهُ كتب الله المنزلة على رسله، ليحكموا به بين الناس.

والقسط أعم من العدل، لأن العدل يكون بين متنازعين أو متخاصمين، أما القسط

فهو العدل العام في جميع الأمور، وإجراء أمور الناس جميعاً على ما يقتضيه الحق.

الأمر الثاني: الذي قام عليه الإسلام هو استعمال القوة لردع الباطل، وهي المشار إليها في الآية بإنزال الحديد وما فيه من بأس شديد، وهذا يكون بعد إخفاق نجاح الدعوة بالحجة والبيان، وهو ردع المعارضين عن طريق قتالهم، لإزالة العقبات من وجه الدعوة، بعد أن أصر الناس على الكفر وتكذيب الرسل، مع وجود الكتب الإلهية، وفيها الحُكم بين الناس بما في هذه الكتب من العدل والقسط.

في الحديد منفعتان: البأس الشديد ومنافع للناس:

ومن هنا كان خلق الحديد وإيجاده وتهيئته للناس، لاستخدامه في السلم والحرب معاً، والانتفاع به في النشاط المدني والعسكري، وسيلة للردع عن طريق صنع السلاح من المدافع والدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل وما إلى ذلك، بالإضافة إلى المنافع الكثيرة للحديد في حياة الناس، لإقامة معاشهم في المباني والمصانع وآلات الزراعة والأواني والتجارة والمعادن ونحوها، هذا معنى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه وذلكنا لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعتدين، وينتفعوا به في حياتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميعة<sup>(١)</sup> أي المطرقة.

وقال ابن عطية: قال حذاق المفسرين: أراد بالحديد السلاح، أي أن الله تعالى أنزل كُتُباً وعدلاً مشروعاً، وسلاحاً يحارب به من لم يهتد بهدى الله تعالى.

وهذا الإنزال كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ مَنِينَةً أَرْوِجَ﴾ [الزمر: ٦] أي خلقها

الله تعالى لنا وأوجدها، وكذلك الحديد خلقه الله لنا لنتفع به في السلم والحرب.

ولما كانت الأحكام تُتَلَقَّى من السماء وكان الخلق والإيجاد يأتي أيضاً من قبل

السماء، سُمِّي هذا ونحوه نزولاً.

وهذا الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فيه قوة البطش، وإيقاع الضرر بمن حادَّ الله

(١) تفسير ابن عطية (٢٦٩/٥) ونسبه ابن كثير إلى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس (٦٨/٨).

ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال سبحانه: ﴿فَتَلُوهُمُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال جل شأنه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وإلى جوار البأس الشديد فإن فيه ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ في معاشهم، كالقدوم والفأس والمشار ونحو ذلك، وفي صناعة المعادن يقول تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي ذكر البأس والمنافع، إشارة إلى أن استخدام الحديد في البأس لا يكون إلا في موضعه، حيث لا يوجد حلّ سواه، واستخدامه في المنافع يكون حيث تكون الحاجة، ولا يُساء استخدامه في غير موضعه، فلا يُستخدم ظُلماً، ولا لترويع الآمنين، ولا لقطع الطريق، ولا للثورة على أهل العدل، وإنما يُستخدم لتجهيز الجيوش، وحماية الأوطان من أهل العدوان، وتأديب من يصدون الناس عن دين الله.

فمعنى الآية: أن الله تعالى أرسل الرسل، وزوّدهم بالكتب، وأيدهم بالمعجزات، ووضع لهم الأحكام العادلة، كي يهتدي بها الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وإلى جوار ذلك فقد زوّدهم بالقوة المادية الرادعة، لحماية الحق الذي جاؤوا به، ولرد كيد المعتدين، وتخويف من يريد الاعتداء عليه، وفسح الطريق أمام نشر الدعوة في العالم. وقد أقام النبي ﷺ ثلاثة عشر سنة بمكة، يدعو الناس إلى التوحيد بالبيان والحجة، ولمّا لم تُفد الدعوة بمكة، شرع الله له الهجرة، وأذن له في قتال المشركين ردّاً للعدوان. وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»<sup>(١)</sup>.

(١) المسند (٥٠/٢) برقم (٥٦٦٧، ٥١١٥)، بإسناد ضعيف (محققه)، وسنن أبي داود برقم (٤٠٣١)، والبيهقي

في الشعب (١١٩٩)، وابن أبي شيبة (٣١٣/٥).

فهل وعى المسلمون هذا الدرس، فأعدوا أنفسهم للقاء عدوهم؟ إن المسلمين لا ينقصهم شيئاً حتى يكونوا أقوى قوة في العالم، فالمال فيهم موجود، ولكنه يساء استخدامه، ويوجه في غير وجهته الصحيحة، والعلم فيهم موجود، ولكنه مهاجر إلى الغرب، والعقل المسلم موجود ولكن الآخر هو الذي ينتفع به! ولا يمكن لنا النصر على عدونا إلا إذا صنَّعنا الطائرة والصاروخ والدبابة وسائر الآلات الحربية بأنفسنا، وطالما نحن عالة على غيرنا في آلة الحرب، فكيف نتصر عليهم، وهم الذين باعوا لنا الأسلحة وعرفوا مداها، ومقدار صلاحيتها، وكيفية استعمالها، وما هو السلاح الأقوى منها!!

إن اليهود في العالم عددهم أقل من عدد سوريا، وهم مع ذلك يريدون الاستيلاء على مقدرات العالم الإسلامي، الذي يبلغ نحو ربع سكان العالم! وأتباع الملل الأخرى من كتابيين ووثنيين يجتاحوننا في مواطن كثيرة، فهل الذين نزلت عليهم سورة الحديد يشعرون بما تقول؟

وبعد أن ذكر الله سبحانه أنه قد خلق الحديد لمنفعتين هما: البأس الشديد، ومنافع للناس، وضح في نهاية الآية، الغرض الأهم من خلق الحديد، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ﴾ والواو حرف عطف على محذوف مقدر، أي وأنزلنا الحديد ليقا تل به المؤمنون أعداء الإسلام، ويجاهدوا لأجل إعلاء كلمة الله، ليعلم الله من ينصر دينه ورسله، وهو يؤمن بالغي ب، فهم ينصرون ربهم مع أنهم لا يبصرونه، إيماناً منهم بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وفي وجود الحديد بين يدي الناس، امتحان لهم بما أنزله الله من الكتاب والحديد، ليتبين من ينصر الله تعالى وينصر رسله حال الغيب دون الشهادة.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر على الانتقام من أعدائه دون حرب ولا قتال، ومن قوته أنه قادر على الانتصار من أعدائه ولكنه يتلى أولياءه بأعدائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُقهر ولا يُغلب، فهو غني بقوته وعزته عن كل مخلوق، وهو قادر على إهلاك من يريد إهلاكه ولا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد ليتنفعوا به ويثابوا عليه، وقد قرن الله بين الكتاب



والحديد، لأن بهما ينصر الله دينه ويُعلَى كلمته، ففي الكتاب الحجة والبرهان، وفي الحديد السيف الناصر بإذن الله، والعدل والقسط في كليهما.

## شَيْخُ الرُّسُلِ وَأَبُوهُمْ

٢٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ<sup>(١)</sup> وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ<sup>(٢)</sup> وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦﴾

ولما تحدثت الآية السابقة عن رسل الله جميعاً، خصت من بينهم في هذه الآية، أول رسل الله، وشيخ الأنبياء، نوحاً عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فبين سبحانه أنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قومهما كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال سبحانه عن نوح وإبراهيم معاً عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾ كهود وصالح وإسماعيل وشعيب ويعقوب عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي وأنزلنا عليهم كتباً، كصحف إبراهيم وموسى، ووصايا إسماعيل وإسحاق، والتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزيور الذي نزل على داود، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكما جعل الله في ذريتهما النبوة والكتاب، جعل من ذريتهما من اهتدى إلى الحق، فامثل أمر الله تعالى واجتنب نهيه، وكثير من ذريتهما خارج عن الهداية، منغمس في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ومن ذرية نوح: عاد وثمود وقوم لوط وأهل اليمن، والأوس والخزرج، ومن ذرية إبراهيم: مدين والحجاز وتهامة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام) بالألف والباقون ﴿وإبراهيم﴾ بالياء وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٢) قرأ نافع بالهمز بعد الواو في ﴿النُّبُوَّةَ﴾ والباقون بواو مشددة.

## رِسَالَةُ عِيسَى وَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارَى

٢٧- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ<sup>(١)</sup> وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً<sup>(٢)</sup> وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آتِعَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا حَقًّا رِعَايَتِهَا فَتَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

أي وبعد نوح وإبراهيم، أتبعناهما برسول كثيرين، أرسلناهم بالهدى ودين الحق، وأيدناهم بالدلائل الواضحة والحجج البينة، ومن هؤلاء الرسل، صلوات الله عليهم: موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وأيوب، واليسع، ويونس، وكانت رسالة يونس في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ أي أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر، حتى انتهينا إلى آخر رسول من بني إسرائيل قبل الرسالة الخاتمة، وهو عيسى عليه السلام، وكان بينه وبين يونس بن متى وهو آخر رسول قبل عيسى، ثمانية قرون، ولذلك فإن عيسى لم يدخل في جملة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ التي تدل على قرب الوقت بين الرسولين، ولذا أفرّد بالذكر لبعده الوقت بينه وبين آخر نبي قبله ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ أي أوحينا إلى عيسى بالإنجيل ليكون هداية لقومه، وهو مشتمل على البشارة ببعثة محمد ﷺ.

والإنجيل هو الوحي الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام، وكتبه الحواريون في أثناء ذكر سيرته، كتبه أناجيل متعددة، ثم دخل عليها التحريف في وقت لاحق ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا أتباع تعاليم الإنجيل يتخلقون

(١) عد البصري وحده ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ آية، وتركه من العدد الجمهور.

(٢) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بفتح همزة ﴿رَأْفَةً﴾ والباقون بإسكانها ومعهم البزي في الوجه الثاني، وهما لغتان في المصدر، وأبدل همزتها ألفاً الأصهباني وأبوجعفر وأبو عمرو بخلف عنه وصلاً ووقفاً، ومثلهم حمزة وقفاً.

بالرأفة، وهي اللين وخفض الجناح، والرحمة، وهي العطف والشفقة، بمعنى محبة بعضهم لبعض وتوادهم فيما بينهم، كما وصف الله أمة محمد ﷺ بأنهم ﴿رَحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].  
الرهبنة:

ثم قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ خُصَّت الرهبانية بالابتداع، لأن الرأفة والرحمة من أعمال القلوب، أما الرهبانية فهي من أفعال البدن، مع شيء من أعمال القلب.

والرهبانية هي: المبالغة في العبادة، وقد ذم الله هذه المبالغة لأنهم ابتدعوها من عند أنفسهم، وألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم به الله، يقصدون بذلك رضى الله، ولكنهم لم يقوموا بما ألزموا به أنفسهم، فذمهم الله لأمرين هما: ابتداعهم في الدين، وعدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم، وهذا معنى ﴿فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

وقد وصف الله أتباع عيسى عليه السلام بالرأفة والرحمة، فهم ألين من اليهود ومن الوثنيين، وشريعة عيسى أقرب الشرائع إلى الإسلام من الناحية الزمنية، لولا كفرهم بمحمد ﷺ، وقولهم: عيسى ابن الله، أو هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، واليهود أشد وأقسى.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾.

قال قتادة: هاتان (الرحمة والرأفة) من الله، والرهبانية ابتدعها قوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم، ولكن ابتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها<sup>(١)</sup>.

والراهب هو: العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وسُمي راهباً: لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى وشديد الخوف من مخالفة دين النصارى.

### من مظاهر الرهبانية:

١ - وقد أرادوا بالرهبة: التشبه بعيسى عليه السلام في ترك الزواج والزهد في الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها وليست من شريعة عيسى، أما عدم زواج عيسى

(١) أخرجه الطبري بإسناد حسن.

عليه السلام فهو لحكمة أخرى أرادها الله تعالى، وعدم الزواج ليس من شأن الأنبياء.

٢ - ومن لوازم الرهبانية: العزلة عن الناس، حتى لا يُشغَل عن العبادة، وذلك بسكنى الصوامع والأديرة.

٣ - ومن لوازم الرهبانية: ترك الزواج حتى لا تشغله زوجته عن عبادته.

٤ - ومن ذلك الامتناع عن مخالطة الأصحاب خشية اللهو عن العبادة.

٥ - ومن الرهبنة ترك لذائد المآكل والملابس خشية اكتساب المال الحرام.

٦ - ومنها الاعتزال في الجبال والكهوف والغيران والأديرة خوفاً من الفتنة.

وهذه الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، ولكنهم هم الذين أحدثوها بعد رسولهم، فقد

أحدثها القُسس والرهبان، فألزموا بها أنفسهم، وابتغوا بها وجه الله تعالى.

ولما لم يحافظوا على ما ألزموا به أنفسهم، وصارت الديانة عندهم طقوساً خالية من

العبادة الحقة، ذمهم الله تعالى، لأنهم بدّلوا وغيّروا ولم يراعوا العبادة حق رعايتها.

والمعنى: أنهم ابتدعوا رهبانية بالغلو في العبادة، ما فرضناها عليهم، بل هم الذين

اختاروها والتزموا بها من تلقاء أنفسهم، وقصدوا بذلك رضا الله تعالى عنهم.

فالله تعالى لم يكتبها عليهم ابتداءً، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم

صاروا مرتبطين أمام الله تعالى، بأن يُراعوا حقوقها ويحافظوا على مقتضياتها، وهذا شأن

النذر، فمن ألزم نفسه بشيء نذره لزمه أن يفي به كما نذر.

دخل سهل بن أمامة هو وأبوه على أنس بن مالك في المدينة، زمان عمر بن عبد

العزیز، وهو أمير المدينة، فإذا هو يصلي صلاة خفيفة، دقيقة، كأنها صلاة مسافر، أو

قريباً منها، فلما سلّم، قال أبي: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أو شيء

تفعلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنما لصلاة رسول الله، ما أخطأت، إلا شيئاً سهوت عنه،

فقال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشدّوا على أنفسكم فيشدّ عليكم، فإنّ قوما

شَدُّوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتَلَّكَ بِقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالْدِيَارِ<sup>(١)</sup>.  
 وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، بمعنى: ما فرضناها عليهم  
 رأساً، ولكنهم ألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله.  
 ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بمعنى: ما فرضناها عليهم لشيء من الأشياء إلا  
 ليبتغوا بها رضوان الله تعالى، ويثابوا عليها.

والفرق بين الوجهين: أن الأول يقتضي أنهم لم يؤمروا بها أصلاً.  
 والثاني: يقتضي أنهم أمروا بها ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها<sup>(٢)</sup>.  
 وقال ابن عطية: ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات، لأن ابتغاء رضوان الله  
 تعالى بالقرَّب والنوافل، مكتوب على كل أمة، والاستثناء على هذا متصل<sup>(٣)</sup>.  
 وعلى كل حال، فإن النصرى بمرور الأيام، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه  
 الرهبانية من زهد وطهر وثقَّى وعفاف، بل صارت الديانة عندهم طقوساً خالية من  
 العبادة الصحيحة، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم، وهذا معنى: ﴿فَمَارَعَوْهَا  
 حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل قصرُوا فيما ألزموا أنفسهم به، ثم بدلوا وغيروا دين الله، فلم يحفظوا  
 حق الرهبانية حفظاً كاملاً، بل ضيعوها وضموا إليها التثليث، والاتحاد والحلول،  
 وكفروا بالتوحيد الذي جاء به عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم، وأقام أناس منهم على  
 دين عيسى عليه السلام، ومنهم من أدرك محمداً ﷺ فآمن به.

قال ابن كثير: وهذا ذم لهم من وجهين:  
 أحدهما: الابتداع في دين الله تعالى ما لم يأمر به.

(١) أبوداود برقم (٤٩٠٤)، والضياء المقدس في المختارة برقم (٢١٧٨) عن عبد الله بن وهب، قال محققه:  
 وإسناده حسن، وهو في مسند أبي يعلى (٣٦٥/٦) برقم (٣٦٩٤)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي  
 داود (١٠٤٩)، والسلسلة الضعيفة (٣٤٦٨).

(٢) تفسير الألويسي (١٩١/٢٧) بتصرف.

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٠/٥).

وثانيهما: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة تقربهم إلى الله تعالى<sup>(١)</sup>. وكان أتباع عيسى فريقين: فريق استمر على الإيمان الصحيح، فلم يبدل ولم يغير وهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وهم الذين ثبتوا على التوحيد الذي جاء به عيسى، وماتوا عليه قبل رسالة محمد ﷺ أو أنهم أدركوا محمداً ﷺ فأمنوا به أيضاً.

أما الفريق الآخر فقد قال الله فيه: ﴿وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ وهم الذين غيروا وبدلوا فأشركوا بالله سبحانه، ولم يراعوا الرهبانية كما ينبغي، بل خرجوا عن الدين الحق، الذي جاءهم به عيسى عليه السلام.

عن أبي سعيد الخدري ؓ أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، قال: سألتُ عما سألتُ عنه رسول الله ﷺ من قبلك فقال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكر لك في الأرض»<sup>(٢)</sup>.

## أَجْرُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

٢٨- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَةً مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المؤمنون في هذه الآية، إما أن يراد بهم: مؤمنوا هذه الأمة، أو المؤمنين بعيسى وموسى عليهما السلام، وذلك لأن لفظ ﴿ءَامِنُوا﴾ له معنى خاص، وهو أن يكون المراد به: المؤمنون بمحمد ﷺ، وله معنى لغوي عام، يطلق على كل من آمن برسول من رسل الله تعالى زمن سألته.

(١) تفسير ابن كثير (٢٩/٨).

(٢) المسند (٨٢/٣) برقم (١١٧٧) بإسناد ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٥/٤) رجاله أحمد ثقات، ورواه ابن حبان عن أبي ذر (٣٦١).

ولما وقعت هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ والمراد بهم في آية الرهينة: الذين آمنوا ببعيسى عليه السلام، كان المراد بالذين آمنوا في هذه الآية التي بعدها: هم أهل الكتاب عموماً. فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا ببعيسى وموسى وعملوا بشريعته: اتقوا الله واخشوا عقابه، وآمنوا بمحمد ﷺ ویرشح هذا المعنى قوله ﷺ فيما يرويه أبو موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبیه وآمن بي، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق موالیه، فله أجران، ورجل أذب أُمَّتَهُ فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»<sup>(١)</sup>.

والمعنى الثاني: أن المراد بالذين آمنوا: مؤمني هذه الأمة؛ أي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله رباً وإلهاً ومعبوداً واحداً وآمنوا برسوله محمد ﷺ نبياً رسولاً ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ﴾ أي اثبتوا وداوموا على الإيمان بالرسول الخاتم ﴿يُؤْتِكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي يمنحك ضعفين ونصيبين من رحمة الله بكم، وهو ثواب الجنة ونعيمها. وهذا النصيب المضاعف بالنسبة لأهل الكتاب على المعنى الأول: لأنهم آمنوا ببعيسى ومحمد عليهما السلام، ثم أدركتهم رسالة محمد ﷺ فآمنوا بها، فهم يُعْطَوْنَ أجرين، لأنهم آمنوا برسولين.

أما بالنسبة لأمة محمد ﷺ فإنهم يعطون أجرهم ضعف أجر الأمم قبلهم.

ویرشح المعنى الثاني:

١ - ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل حبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضُفِّتْ لکم حسنة؟ قال: ثلاث مئة وخمسون حسنة، قال عمر: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبع مئة<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: البخاري برقم (٩٧، ٢٥٤٤، ٢٥٥١، ٣٠١١، ٣٤٤٦، ٣٥٨٣) ومسلم (١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١٤١/٢٧) وتفسير ابن عطية (٢٧١/٥) وابن كثير (٣٢/٧).

٢ - وفي حديث أبي موسى وابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، واعتذروا عن العمل معه، فاستأجر غيرهم، فعملوا حتى العصر، واعتذروا عن تكملة اليوم، ثم استأجر قوماً يعملون بقية النهار، فعملوا حتى غربت الشمس، فأخذوا أجر الفريقين معاً»<sup>(١)</sup>.

٣ - وفي رواية الإمام أحمد أن اليهود عملوا إلى نصف النهار، والنصارى عملوا إلى العصر، على أن يُعطي كلاهما قيراطاً من الأجر، وأن المسلمين عملوا من العصر إلى غروب الشمس، وأعطاهم قيراطان من الأجر، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، فقال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: إنما هو فضلي أوتيته من أشياء<sup>(٢)</sup>.

٤ - وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ضعفين من الأجر، وزادهم: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ على الصراط، كما قال تعالى عن المؤمنين ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢ والتحريم: ٨] ﴿وَيَعْفِرْ لَكُمْ﴾ ما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وعلى أن الخطاب في الآية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فإن الله يأمرهم أن

(١) ينظر نص الحديث في البخاري برقم (٥٥٨، ٢٢٦٨، ٢٢٧١، ٣٤٥٩، ٥٠٢١) وغيرها من طرق عدة.

(٢) ينظر نص الحديث في المسند (٦/٢، ١١١/٢) عن ابن عمر عن نافع برقم (٤٥٠٨) وانظر (٥٩٠٢)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبدالرزاق (٢٠٥٦٥)، وهو عند البخاري (٢٢٦٨)، والطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري في شرح السنة (٤٠١٧) وغيرهم وألفاظه متقاربة.



يعملوا بمقتضى إيمانهم بموسى وعيسى، فیتقوا الله تعالى ويتركوا معاصيه، ويؤمنوا بأصول الدين وفروعه وأوامره ونواهيه، ويؤمنوا بمحمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله نصيبين من الأجر، نصيب على إيمانهم بنبيهم ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ ولعل هذا المعنى هو المراد في الآية، وذلك لأن الآية تقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي برسولهم وكتابهم، ثم تقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي اتقوا الله كما أمركم بذلك و آمنوا برسوله أي بمحمد ﷺ إذ أن كتابكم يأمركم بالإيمان به، فاتقوا الله ولا تخالفوه، فإن لكم أجرين على ذلك.

### لَا حَرَجَ عَلَىٰ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ

٢٩- ﴿ثَلَاثًا﴾ <sup>(١)</sup> يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ولما نزل هذا الوعد لمن آمن بكتابه ثم آمن بمحمد ﷺ، بأن الله تعالى يضاعف لهم الأجر مرتين، وكانت اليهود تعظم دينها وتعظم أنفسها، ويزعمون أنهم أحباء الله وأهل رضوانه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، أنزل الله تعالى هذه الآية، أي أن الله تعالى فعل ذلك، فضاعف الأجر للمؤمنين وأعطاهم نوراً يمشون به على الصراط، وأعلمهم أنهم يؤتون أجرهم ضعفين، ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون؛ فلا تكثرثوا بجهل أهل الكتاب، واستمرارهم على الاغترار بأن لهم منزلة عند الله، فإن الله تعالى عالم بذلك، وهو خالقهم، ويعلم أنهم لن يقلعوا عما هم فيه.

وقال الجمل: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب، قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين، لإيمانه بكتابتنا وكتابكم، ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم، فبأي شيء فضلتهم

(١) قرأ الأزرق بإبدال الهمزة من ﴿ثَلَاثًا﴾ ياء مفتوحة وصلماً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف بخلف عنه.

علينا؟ فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>.

وكان أهل الكتاب يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة، من بين جميع العالمين، فرد الله عليهم بهذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مؤكّد ومقرّر لما قبله، ممن اقتضت حكمته أن يؤتیه من فضله، أي ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشيء من فضل الله، وأهمّه النبوة والهداية، إلا إذا آمنوا بالله ورسوله، وليعلموا أيضاً أن العطاء بيد الله يمنحه من يشاء، ويختار له من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو واسع العطاء والإحسان إلى خلقه.

ومن فضله تعالى أنه جعل الأجرین لمن آمن بمحمد ﷺ بعد إيمانه برسوله، ليعلم من لم يؤمن بمحمد ﷺ، أنه لا أجر له ولا نصيب له في فضل الله، فقد خص الله به من آمن بالله وحده لا شريك له، وآمن بالنبي محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وأن من آمن برسوله وكتابه، ولم يؤمن بمحمد لا حظ له في الأجر، بل هو كافر لا يقبل منه عمل صالح.

والعرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحود غير مصرح به كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿وَحَكَرْمٌ عَلَى قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرْكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

والمعنى: ليعلم، أو كي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله الذي أتاكم وخصكم به وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا أو يمنعوا ما تفضل الله به على أمة محمد ﷺ.

تم تفسير (سورة الحديد) والله الحمد والمنة

(١) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف (٤/٢٩٨).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ (٥٨)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المجادلة) هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المنافقون)، وقبل (سورة التحريم والحجرات)، ويبدو أن (سورة المجادلة) قد نزلت قبل (سورة الأحزاب)، لأن قول الله تعالى فيها ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] يقتضي أن تكون هذه الآية قد نزلت بعد إبطال حكم الظهار.

وتسمى (سورة المجادلة) بكسر الدال، إشارة إلى المرأة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في شأن زوجها وهو الأولى، لأن فيه إضافة الجدل إلى صاحبة الجدل، أما على فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل ﴿تَجَدَّلَكَ﴾ المعبر عنه بالمحاورة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.

ويقال لها: سورة (قد سمع) وسميت في مصحف أبي بن كعب (سورة الظهار)<sup>(١)</sup>.

فهذه ثلاثة أسماء لها: المجادلة، وقد سمع، والظهار.

وهي سورة مدنية، قال ابن عباس: نزلت سورة المجادلة بالمدينة<sup>(٢)</sup>.

وكذا جميع سور الجزء الثامن والعشرين، كلها مدنية.

وعدد آياتها اثنان وعشرون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، وإحدى وعشرون آية في العدد المدني والمكي.

وعدد كلماتها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وعدد حروفها ألف وسبع مئة واثنان

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥/١٣).

(٢) البيهقي في الدلائل ١٤٣/٧ وغيره.

وتسعون حرفاً.

وشأن السور المدنية، أن تُعنى بأحكام التشريع وشؤون المجتمع المسلم. وقد اشتملت هذه السورة على أحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله تعالى، كما تحدثت عن المنافقين واليهود، وعن الذين يحادون الله ورسوله.

وكل آية في هذه السورة، فيها اسم الجلالة مرة أو أكثر.

وقد كان المجتمع المدني مشتملاً على أصناف من الناس:

١- منهم المؤمنون الذين يُرييهم الوحي، ليخملوا دعوة الله تعالى إلى كافة الناس، في المشارق والمغارب.

٢- ومنهم الوثنيون الذين يقلدون من سبقهم دون إعمال فكر ولا نظر، ويتعلقون بذيل الليل المدبر.

٣- ومنهم اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه! ويريدون فرض أهوائهم على العالم، والسيطرة على مقدراته.

٤- ومنهم المنافقون الذي يجزؤون وراء مصالحهم، ويظهرون في ألف لؤن.

موضوعات السورة: على النحو التالي:

أ- وفي الآيات الست الأولى تحدثت السورة عن الظهار وحكمه وكفارته.

ب- وفي الآية السابعة والثامنة تحدثت عن صورة من صور مكر اليهود، حتى في إلقاء التحية على المسلمين، والتناجي فيما بينهم وهم في مجالس المسلمين.

ج- وفي أعقاب ذلك تُوجّه السورة، ثلاث نداءات إلى المؤمنين، تنهاهم في أول نداء عن التشبه باليهود في التناجي بالإثم والعدوان.

وتأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس الخاصة والعامة.

وفي النداء الثالث تأمرهم بتقديم صدقة، عند مناجاة الرسول ﷺ بعد أن تكاثر عليه

الناس متوافدين إلى مجلسه، وذلك حتى الآية الثالثة عشرة.

د- ومن الآية الرابعة عشرة حتى الآية الحادية والعشرون، تحدثت السورة عن المنافقين الذين يوالون اليهود، ويتحالفون معهم ضد المسلمين، وينقلون إليهم أسرارهم، فتفضحهم وتكشف زيفهم.

هـ- وتُختم السورة ببيان حقيقة الحب في الله والبغض فيه، وتبين أن صلة الإيمان أقرب من صلة الدم، وأن المتحايين في الله هم حزب الله تعالى.

وهكذا: فقد بينت السورة حكم الظهار، فأبطلت ما كان شائعاً في الجاهلية من جعل المظاهر منها في حكم الأم، وشرعت له الكفارة، وبينت سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله، وهم جماعة يعيشون في كبت وقهر في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم التي نسوها، وبينت أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الله تعالى يشهد كل نجوة في خلوة وجلوة.

وحذرت آيات السورة من عاقبة التعاون على الإثم والعدوان، وما يكون من التناجي في هذا المقام، ورغبت في التعاون على البر والتقوى.

وساقت آيات السورة ألواناً من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها، ويشترتهم برضى الله تعالى متى أخلصوا له الطاعة والعبادة.

ومن ذلك أدب السماحة والتوسع في المجالس، لاسيما مجالس العلم والذكر، وأدب السؤال والحديث.

وبقية السورة تتحدث عن المنافقين الذين يتولوا اليهود، ويتآمرون معهم على المسلمين، ويؤادون تأمرهم بالحلف الكاذب، وهؤلاء يواجهون عذاب الله تعالى وغضبه، مع الذين يحادون الله ورسوله.

وقد كتب الله سبحانه أنه ورسله هم الغالبون، وأنه لا بد أن يتميز الصف المسلم من غيره، تحت راية الله تعالى والاعتزاز بدينه، وهذه هي الصورة الوضيئة لحزب الله تعالى،

في مقابلة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

وقد وردت روايات في أسباب نزول آيات الظهار، منها ما جاء:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرث سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم: إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>.

٢- وفي رواية الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: والله فيّ، وفي أوس بن صامت، أنزل الله سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه وضجر، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ فذكرت له ما لقيتُ منه، فجعلت أشكوا إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحتُ حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرّي عنه، فقال لي: يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٢/١) برقم (١٥٥) ورقم: (١٦٧٨)، وأخرجه البخاري معلقاً برقم (٧٣٨٥)، ووصله ابن حجر بسنده وصححه، تغليق التعليق (٣٣٨/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي من طريق الأعمش، المستدرک (٤٨١/٢)، والسنن الكبرى للنسائي برقم (١١٥٧٠)، وتفسير الطبري (٦٠٥/٢٨)، والبيهقي في سننه (٣٨٢/٧)، والواحدي في أسباب النزول (٣٠٤) قال ابن حجر في الفتح (٣٧٤/١٣): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها.

إلى ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فقال لي: مُرِّيه فليعتق رقبة، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين، فقلت: والله يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام. قال: فليطعم ستين مسكينا وسقياً من تمر، قالت: قلت: والله يا رسول الله، ماذا عنده. قالت: فقال رسول الله: فإننا سنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قال: قد أصببت وأحسنت، فأذهبي فتصديقي عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً، قالت: ففعلت»<sup>(١)</sup>.

والعَرَقُ: ستون صاعاً، وخويلة هي خولة بالتصغير، ويقال لها: بنت الصامت وبنت ثعلبة وهي امرأة أوس بن الصامت.

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت علي كظهر أمي، حُزِمَتْ عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقني إلى رسول الله ﷺ فسليه، فأنته، فنزلت هذه الآيات<sup>(٢)</sup>.

٤- وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان الظهار في الجاهلية يُحَرِّمُ المرأةَ على الرجل تحريماً مؤبداً، فجاءت خولة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حُزِمَتْ عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فقال: ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر

(١) المسند (٤١٠/٦) (٢٧٣١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يرو عنه سوى محمد بن إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات، ورواه أبو داود مختصراً من طريق محمد بن إسحاق برقم (٢٢١٤)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي (٣٩١/٧)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٤)، قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة قلت: وفي الباب عن عائشة وابن عباس بإسناد صحيح وهو يؤيد ما قاله ابن كثير وتحسين الألباني له.

(٢) رواه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١٧٩/٦) لابن مردويه والنحاس عن عكرمة، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حُرِّمْتُ عليه، فقالت: أشكوا إلى الله فاقتي وُوْجُدي، وكلما قال رسول الله: حُرِّمْتُ عليه، هتفتُ وشكْتُ إلى الله، فأنزل الله الآيات<sup>(١)</sup>.

وجميع الروايات التي استقصاها الطبري كلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي: خولة، أو بالتصغير خويلة، أو جميلة، وزوجها: هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وجاء عن عمر بن الخطاب أنها خولة بنت حكيم، وقال أبو العالية والمهدوي: هي خولة بنت ذُلَيْج، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقيل خولة بنت خويلد<sup>(٢)</sup>.

والمشهور قول قتادة أنها خولة بنت ثعلبة<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عدداً من الروايات في هذا المعنى.

٥- وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ورد أنه مرَّ في خلافته على امرأة، وكان ركباً على حمار، والناس معه، فاستوقفته تلك المرأة طويلاً، ووعظته، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغير، تدعى عُمَيْراً، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وعُمر واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال: والله لو حبسْتني من أول النهار إلى آخره، لا زِلْتُ، إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر<sup>(٤)</sup>!

(١) رواه أبو داود في كتاب الظهار بسند صحيح (٢٢١٥)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٥).

(٢) ينظر: الإصابة (٦١٨/٧) وفتح الباري (٣٧٤/١٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٧٢/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٧) ورواه الدارمي من طريق أبي يزيد عن عمر، وفيه انقطاع في السند، لأن أبا يزيد لم يدرك عمر، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٨٦) وابن أبي حاتم.



٦- وحدثت واقعة مماثلة لقصة خولة، حيث كان السائل فيها رجلاً، هو سلمة بن صخر الأنصاري، وكان قد جامع امرأته بعد أن ظاهر منها، وليس فيها أنها كانت سبباً للنزول، قال سلمة: إنه كان رجلاً قوي الشهوة، لا يصبر على ترك الجماع، فلما دخل شهر رمضان ظاهر من امرأته حتى ينتهي الشهر، وبينما كانت امرأته تخدمه في ليلة تكشف له منها شيء فجامعها، فلما أصبح ذهب للنبي ﷺ فأمره أن يعتق رقبة، قال: فضربتُ صفحة رقبتي بيدي، وقلت: والذي نفسي بيده ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: فتصدق، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بثنا ليلتنا هذه وحشاً - أي بدون طعام - ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك وسقا من تمر، ستين مسكينا، ثم استعن بسائرهما عليك وعلى عيالك، قال: فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ، فدفعوها إليه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) ينظر: نص الحديث في المسند (٣٧/٤) (١٦٤٢١) قال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبي داود برقم (٢٢١٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وابن ماجه برقم (٢٠٦٢)، والترمذي برقم (٣٢٩٩) وحسنه، والطبراني (٦٣٣٣)، والبيهقي (٣٩٠/٧)، وجمع الفوائد (٦٢٠/١)، والحاكم (٣٠٢/٢)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١١٥٢٨) بنحوه، قال الترمذي: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم في كفارة الظهار.

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

### الْمَرَأَةُ الْمُجَادِلَةُ

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ ﴿١﴾

نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار، اشتكته زوجته إلى النبي ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد العشرة الطويلة ووجود الأولاد بينهما، وكان رجلاً كبيراً فشكت حاله وحالها إلى النبي ﷺ وكررت الشكوى كثيراً<sup>(١)</sup>.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾ خولة أو خويلة، أو جميلة بنت مالك بن ثعلبة، من بني عوف بن مالك بن الخزرج ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت الخزرجي، أخي عبادة بن الصامت، فتحاورك وتراجعك بخصوص ما حصل منه من الظهار الذي كان يُحرّم المرأة على زوجها في الجاهلية تحريماً أبدياً.

وقيل: تبقى المرأة المظاهر منها معلقة فلا تعود إليه ولا تتزوج غيره، فهو أشد من الطلاق.

ولم يكن للظهار كفارة، قبل نزول آيات الظهار.

ومعنى (أنت عليّ كظهر أمي) أو (أنت عليّ حرام) أي علّوي عليك حرام كعلوي على أمي، وكما يحرم على الرجل حرمة أبدية أن يعلّوا ظهر أمه، فإن امرأته تحزّم عليه مثل ذلك، ومثل الأم، لو قال: الأخت، أو غيرها من المحارم، ومثل الظهر لو قال: البطن، أو الفخذ وغيرهما.

ولو ظاهر الرجل عدة مرات في وقت واحد، فهو كواحدة.

والظهار تشبيه للزوجة بالأم، في تحريم الجماع، وهو من أيمان الجاهلية، ولذلك

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

فقد أخذت المرأة تتضرع إلى الله تعالى أن يفرج كربتها ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي يسمع ما تم بين المرأة ورسول الله ﷺ من تخاطب ومراجعة، فأجاب الله دعاءها وحلّ شكاوها، وجعل لها فرجاً ومخرجاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل قول، ولكل مناجاة، ولكل تضرع ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو يُبصر ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى سيزيل شكاوها ويرفع بلواها.

﴿قَدْ﴾ حين تدخل على الفعل الماضي تفيد التحقيق ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ فهو سماع محقق. قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية من البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله الآية <sup>(١)</sup>.

## ذَمُّ الظَّهَارِ

٢- ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي <sup>(٣)</sup> وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾

ثم ذم الله تعالى الظهار، وبين أن الزوجة لا تكون أمّاً لمن ظاهر منها بحال، وأن الظهار يبغضه الله تعالى، فهو كلام منكر، وقول باطل، وزور، إذ يتكلمون بكلام لا حقيقة

(١) صحيح سنن ابن ماجه (١٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٧٠)، وعبد بن حميد (١٥١٢) منتخب، والبيهقي (٣٨٢/٧) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَظَاهِرُونَ) وقرأ عاصم ﴿يُظَاهِرُونَ﴾ وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (يَظَاهِرُونَ) ومثلها التي في الآية التالية.

(٣) قرأ البزي وأبو عمرو (اللأء) ولهما في الهمز وصل: إيدالها ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما أيضا التسهيل مع المد والقصر حالة الوقف. وقرأ ورش وأبو جعفر مثلهما ولكن حالة الوصل، ولهما وقفا: إبدال الهمزة ياء ساكنة مع إشباع المد، ولهما التسهيل بالروم مع المد والقصر، وقرأ قالون وقنبل ويعقوب بحذف الياء أيضا ولكن مع تخفيف الهمزة وصلًا ووقفًا، وقرأ ابن عامر والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وصلًا ووقفًا، وكل منهم على أصله في مقدار المد المتصل، ولحمزة وقفا تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن سَائِهِمْ﴾ فيقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أو أنت عليّ حرام في حرمة النكاح، هذا القول لا يجعلها أمًّا. واختاروا لفظ (الظهر) مبالغة في التحريم، لأنه كان من عادة اليهود: إتيان المرأة في قُبَلها من جهة ظهرها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وكان العرب يخالطون اليهود، ويأخذون بعض العادات منهم، ومنها هذا النوع من الجماع، وهو إتيان المرأة في قُبَلها من جهة ظهرها. وقد جمعوا في صيغة (أنت عليّ كظهر أمي) بين تحريم الأم وركوب الظهر، أي الإتيان من الخلف، فجاءت الصيغة فظيعة شنيعة.

ثم بيّن سبحانه أن الزوجة ليست أمًّا فقال: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ بل هن زوجاتهم، وهذا القول مجرد كلام باللسان، لا يجعل الزوجة أمًّا بحال من الأحوال ﴿إِن أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فالأم الحقيقية هي التي ولدتك من بطنها، أما هذا الظهار فهو كلام منكر، وكذب وزور، لا يصح، ولا يستقيم شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، وهذا معنى ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مَنَّكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فجعل الزوجة كالأم، كلام باطل غير صحيح. ثم إن الله تعالى عفا عما حدث، وغفر لفاعليه فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ لمن صدر منه بعض هذه المخالفات، وتداركها بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

قال في التسهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تُعرف له حقيقة. والزور هو الكذب، وإنما جعله كذباً لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه. والظهار محرم شرعاً، ويدل على تحريمه أربعة أشياء:

الأول: ما هن أمهاتهم، فإن ذلك تكذيب للمظاهر. والثاني: أنه سماه منكراً.

والثالث: أنه سماه زوراً، والرابع قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب، والذنب مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة<sup>(١)</sup>.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٢٠١).

## كَفَّارَةُ الظَّهَارِ

٣، ٤ - ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

ثم بين سبحانه كفارة الظهار، ولم يكن له قبل نزول هذه الآية كفارة ولا حلاً، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ أي يحرمون زوجاتهم على أنفسهم بتشبيههن بالأمهات ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي يرجعون عن قولهم، ويندمون على فعلهم، ويعزمون على العودة إلى أزواجهم بالمعايشة والمعاشرة الزوجية، فعليهم أن يكفروا عن أيمانهم، حيث يحزم إتيان الزوجة قبل أن يُخرج المظاهر كفارة الظهار، وإخراج الكفارة يكون قبل الجماع ومقدماته، وهو شرط قبل مساس المرأة بجماع أو تقبيل أو ضم ونحو ذلك، وهذا أحد قولين في معنى ﴿ يَعُودُونَ ﴾ أي يعزمون على جماع المظاهر منها، والقول الآخر هو حقيقة الوطء، ففي المعنى الأول مجرد العزم دون فعل، وفي المعنى الآخر هو وقوع الوطء فعلاً، ولعل المعنى الأول هو المراد، وهذه الكفارة واحد من ثلاثة أمور على الترتيب الآتي:

أولاً: عتق الرقبة: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة كما قيدت بذلك في كفارة القتل الخطأ - عبد أو أمة - قبل أن يطأ الرجل زوجته التي ظاهر منها، على الأرجح، وعليه فإن وطئها قبل أن يكفر، فإنه يكون آثماً عاصياً، يلزمه التوبة من هذا الذنب، ولا تسقط عنه الكفارة.

والتماس: هو الجماع ودواعيه كالتقبيل والمباشرة.

وقد جاءت الرقبة هنا مُطلقة، وجاءت في كفارة القتل مقيدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢] وحمل أكثر العلماء المطلق على المقيد، عدا الحنفية، فيصح عندهم عتق الرقبة وإن لم تكن مؤمنة، وهذا الحكم شرعه الله لكم

- أيها المؤمنون - لتعتبروا وتتعضوا وتنزجروا عن مثل هذا القول المنكر، وتحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم الله تعالى.

﴿ذَلِكَ﴾ أي هذه هي الكفارة التي حَكَمَ الله بها على مَنْ ظاهر من زوجته ﴿تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾ أي لتعضوا به - أيها المؤمنون - مع الترهيب المقرون به، حتى تتركوا الظهار وقول الزور، وتكفروا عنه إن وقعتم فيه، ولا تعودوا إليه، فحافظوا على حدود الله وعلى أوامره ونواهيه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، يعلم ظواهر أموركم وبواطنها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها فاحفظوا حدود الله، واعملوا بشرعه.

ثانيا: صيام شهرين متتابعين: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقة يُعتقها، أو لم يجد المال الذي يشتري به الرقة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ فإن أفطر يوما انقطع التتابع، ووجب عليه أن يبدأ من جديد، فتتابع الصيام شرط في الكفارة، ولا يمَسُّ امرأته قبل تمام الشهرين المتتابعين، فإن مسها ليلاً أو نهاراً في أثناء الشهرين وجب عليه أن يعيد الصيام من جديد مع الإثم، لأنه خالف أمر الله تعالى، وإن حدث شيء خارج عن إرادة الصائم كالحيض أو الصيد، فإنه لا يفسد التتابع، ويعتبر الشهر بالهلال، فإن لم يعرف الهلال صام ستين يوماً.

ثالثا: إطعام ستين مسكيناً: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي مَنْ عجز عن الصوم لمرض لا يُزْجَى برؤه، أو كِبَرِ سن، كالشيخ الكبير ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ يطعمهم بما يشبعهم، وجبة واحدة، من أوسط ما يأكل، ولا يجزىء عند أكثر العلماء أن يطعم أقل من ستين مسكيناً، وأجاز الحنفية أن يطعم مسكيناً واحداً لمدة ستين يوماً، ويجوز أن يعطي كل مسكين نحو كيلو ونصف من الأرز، أو من غالب قوت البلد كالبر ونحوه، وهو ما يعادل مد بُر أو نصف صاع من غيره مع شيء من الإدام، أو نصف دجاجة لكل مسكين مع الأرز ونحوه، لأن الإنسان لا يأكل الحبوب وحدها.

ولابد أن يتم إطعام المساكين الستين قبل أن يطفأ المظاهر زوجته على القول الراجح.

وجمهور الفقهاء على أن الذي يحرم على المظاهر قبل القيام بالكفارة، هو الجماع فقط، وأضافت الأحناف إلى ذلك كل مقدمات ودواعي الجماع كالقبلة والمباشرة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي شرعه الله لكم من أحكام الظهار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ليكتمل إيمانكم بالله ورسوله، ولا تشوبه شائبة، ولتركوا ما كنتم عليه قبل هذا التشريع فإن التزام أحكام الله والعمل بها هو مقصود الإيمان الكامل ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا تتجاوزوها ولا تعتدوها، فالزموها وقفوا عندها، فهي كأحكام الميراث والطلاق والعدة التي لا يجوز مخالفتها، وكل من جحد هذه الأحكام ونبذها وراء ظهره، فإن أمامه عذاب مؤلم ينتظره ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أطلق الله تعالى الكفر على من تعدى حدوده زجراً وتغليظاً، حتى لا يتجاوزها العبد ولا ينتقص منها.

ولا يجوز الانتقال من الصيام إلى الإطعام، إلا بالعجز التام عن الصيام، فالشاب القادر على الصيام، لا يتعلل بأنه يعمل بالنهار مثلاً، ومن شأن صاحب الشهوة التي تهيج في أثناء الصيام، أن يكون شخصاً قوياً قادراً على الصيام، فليس له أن يطعم إلا في حالة العجز التام.

ويمكن لأحد الأثرياء أن يطعم ألف مسكين، ولكنه لا يصوم يوماً واحداً، ومن هنا وجب الترتيب في الكفارة، وفق ما جاء في الآيات والأحاديث السابقة في أسباب النزول، فإن لم يجد المظاهر: رقبة، ولم يستطع الصيام ولا الإطعام، فلا تسقط عنه الكفارة، ويصح أن يتصدق عنه بها.

في مصنف عبد الرزاق أن سلمة بن صخر الأنصاري جعل امرأته عليه كظهر أمه حتى يمضي رمضان، فسمنت وتربعت - أي أكلت كيف شاءت وشربت - فوقع عليها في النصف من رمضان، فأتى النبي ﷺ كأنه يعظم ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أتستطيع أن تعتق رقبة؟» فقال: لا، قال: «أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا، قال: «أتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟» قال: لا، فقال النبي ﷺ: «يا فزوة بن عمرو، أعطيه

ذلك العرق - وهو مكتل يأخذ خمسة عشر أو ستة عشر صاعاً - فليطعمه ستين مسكيناً» فقال: أَعلى أفقر مني؟ فوالذي بعثك بالحق، ما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه مني، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «أذهب به إلى أهلك»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بكفارة (سلمة بن صخر) من أموال بيت المال، فإن على ولاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفارة ظهارة.

والظاهر أن الكفارة تسقط عنه إن كان مُعدماً، وتعدّر إخراجها من بيت المال، أو لم يجد من يتصدق بها عليه، وتبقى ديناً في ذمته كسائر الديون والحقوق التي لا تسقط عن المسلم حتى يتمكن من أدائها، وتُخرَجُ من ميراثه قبل تقسيم التركة حال موته، فإن لم يترك شيئاً، فهو إلى عفو الله الواسع.

ويستفاد من الآيات السابقة:

- ١ - رحمة الله بعباده في إيجاد حل للمرأة المظاهر منها.
- ٢ - وأن الظهار مختص بالزوجة دون الأمة.
- ٣ - وأن الظهار لا يصح قبل الزواج، وأنه مما حرم الله.
- ٤ - وأن الكفارة بالصيام والعتق تكون قبل المسيس، بخلاف كفارة الإطعام فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.
- ٥ - والحكمة في وجوب الكفارة قبل الجماع هو المبادرة والإسراع في إخراجها، ولا يجوز إعطاء طعام ستين مسكيناً لمسكين واحد<sup>(٢)</sup>.

## سوء عاقبة الخارجين عن الصف الإسلامي

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾

(١) مصنف عبد الرزاق برقم (١١٥٢٨) وانظر تخريجه في آخر مقدمة السورة.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآيات.



ولما كانت الأرض لا تخلو من العلمانيين والملحدين والمنافقين، ممن يضادون الله تعالى في حكمه، ولا يتفدون شرعه، فقد بين سبحانه أن من يخالف أمر الله ورسوله ويتعد حدوده، فإن الله تعالى يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ يشاقون ويعادون ﴿اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ ويخالفون أمر الله ورسوله، فيعصونه ويضادون أمره ونهيه. وسمي ذلك محادة، لأن كلاً من المتخالفين يكون في حدٍ وجهة، غير الحد الآخر والجهة الأخرى.

هؤلاء المخالفون ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾ أي خُذِلُوا وَأَذَلُّوا وأهينوا كما حدث لمن سبقهم من الأفراد والجماعات والأمم الذين حادوا الله ورسوله في كل زمان ومكان جزاءً وفاقاً ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الحجج والدلالة، تدل على أن شرع الله تعالى وحُدوده حق، فيها الحلال والحرام، والأحكام والفرائض، وقد قامت حجة الله البالغة بإرسال رسله وإنزال كتبه، وليس لهم حجة على الله بعد ذلك ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولمن جحد هذه الآيات ولم يؤمن بها ويعمل بمقتضاها عذاب مؤلم يوم لقاء الله ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي ولجاحدي تلك الآيات عذاب في جهنم، يُذَلِّمُهُمْ وَيُخْزِيهِمْ، وَيَذْهَبُ بِعِزِّهِمْ، وَيُفْرَقُ مِنْ جَمْعِهِمْ، كما تكبروا على آيات الله، قال تعالى:

٦- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

وهذا العذاب المهين يكون يوم البعث والحشر والنشر ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يوم يحيي الله الموتى، ويجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، حيث يُسَاقُ المجرمون إلى جهنم ورذا في يوم عظيم الأهوال ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من خير أو شر، وهذه الأعمال قد ضبطها الله سبحانه وحفظها وأحصاها عنده في اللوح المحفوظ، كما أن الملائكة دوَّنوها عليهم في صحف أعمالهم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ فقد سجله الله عليهم، وهم قد نسوه لثناونهم به عند

ارتكابه، ولطول الوقت والعهد به، أو لأنهم لا يعتقدون أن في الآخرة حساباً ولا جزاء، فإذا أخبروا به يوم القيامة تعجبوا، كما قال تعالى: ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] .

والله تعالى رقيب ومطلع على كل شيء، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يطلع على الأمور المشاهدة وغير المشاهدة ويراهما ويحاسب عليها.

### عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا خَفِيَ

٧- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ <sup>(١)</sup> مِنْ تَجْوَى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَآبِعُهُمْ وَلَا حَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ <sup>(٢)</sup> إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

وتمضي الآيات في تربية النفس البشرية فتبين سعة علم الله تعالى وإحاطته بجميع الأمور، فهو تعالى يرى الخلق، ويسمع كلامهم، ويرى مكانهم، حيث كانوا وأينما حلُّوا ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم أيها العاقل ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعلم كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سر ولا علانية. ومن ذلك أن المنافقين في المدينة على عهد النبي ﷺ كان بعضهم يتحدث إلى بعض اليهود سرّاً على مرآى من المسلمين، ليظهروا لهم مودة بعضهم لبعض، ومحبة بعضهم بعضاً، ويظهروا أنهم طائفة واحدة، وكلمة واحدة، ليخيبوا آمال المسلمين حتى يتقوا بأسهم، فلا يقدمون على أذاهم أو التعرض لهم.

قال ابن عطية: هذه الآيات نزلت في قوم من المنافقين وقوم من اليهود، كانوا في

(١) قرأ أبو جعفر بناء التانيث في ﴿ مَا يَكْتُوْنَ ﴾ والباقون بياء التذكير.

(٢) قرأ يعقوب بالرفع في ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ معطوف على محل ﴿ تَجْوَى ﴾ لأنه خبر يكون، ومن زائدة والباقون بالفتح عطفاً على لفظ ﴿ تَجْوَى ﴾ وهو مجرور بالفتحة، لأنه ممنوع من الصرف، للوصفية ووزن الفعل.

المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم<sup>(١)</sup>.

وقال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب، حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ، والمقصود بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيذّلون ويُخزّون، ويفرّق جمعهم، فلا تخشوا بأسهم<sup>(٢)</sup>.

وقد أنزل الله هذه الآية، ليبين أنه سبحانه يعلم الخبايا ودخائل النفوس، وما يكون بينهم من أسرار وتناجٍ، ويعلم كل ما يُبصر وما يُسمع ﴿مَا يَكْثُوثُ مِنْ تَجَوَّى تَلَائِي إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ أي ما يتناجى اثنان من خلقه بحديث سرّ، إلا والله تعالى رابعهم، بعلمه وإحاطته ومشاهدته لهم فهو حاضر معهم، كما يعلمه ويشاهده شخص رابع لو كان حاضرا معهم - والله المثل الأعلى - ﴿وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا تقع مناجاة، ولا حديث بالسر بين خمسة من الخلق إلا والله تعالى سادسهم يسمعهم ويراهم، ويكون معهم بعلمه وإحاطته ﴿وَلَا أَدَقَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علم وإحاطة، لا يعزب عنه شيء من حركاتهم ولا سكناتهم ﴿أَتَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وحيثما حلوا، فعلمه تعالى شامل لجميع الأحداث، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

وهذا العدد ليس مقصودا في حد ذاته، لأن الله تعالى يعلم ما يكون بين كل عدد من خلقه قلّ أو كثر، فاكتفى القرآن ببعض العدد دون بعض.

وفي يوم القيامة يظهر ما كان مستترا ﴿ثُمَّ يَبْتِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يخبرهم بكل ما عملوه من خير أو شر، ويجازيهم عليه بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

وقد ابتدأ الله سبحانه هذه الآية بالعلم واختتمها بالعلم، لينبه سبحانه على إحاطة علمه بالكليات والجزئيات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات، فقال سبحانه:

(١) تفسير ابن عطية (٢٧٥/٥).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (١٨١/٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وإن نَجَّهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في ربيعة، وحبیب بنی عمرو بن عمير، من ثقیف، وصفوان بن أمية السلمي، حليف بني أسد، كانوا يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله<sup>(١)</sup>.

## آيَاتُ التَّنَاجِي

٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ<sup>(٢)</sup> بِالْأَيْمَنِ وَالْعُدُوِّنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حِيَّوْكَ بِمَا لَوْ يَجْحَدُ بِهِنَّ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٣)</sup>

النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير أو الشر، وقد أمر الله المؤمنين أن يتناجوا في الخير ولا يتناجوا في الشر، وقد نزلت هذه الآية في قوم من اليهود، أو من المنافقين واليهود معا، نهاهم النبي ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم يتتهوا؛ ومما ورد في أسباب النزول:

١- أنه كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودعة، وكانوا إذا مرّ بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بشيء يكرهه، فإذا رأى المؤمن ذلك ترك طريقه خوفاً منهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم يتتهوا، وعادوا

(١) من تفسير الكشاف للآية.

(٢) قرأ حمزة ورويس (ويَتَنَجُّونَ) على وزن يتهون مشتق من النجوى، وأصله يتنجون نقلت ضمة الياء إلى

الجيم وحذفت وقرأ الباقون ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ﴾ مشتق من التناجي وهما بمعنى واحد هو السر.

إلى النجوى، فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن الصحابة كانوا يتناوبون المبيت عند النبي ﷺ لحراسته وقضاء حاجته، فكثرت المتناوبون ذات ليلة، فخرج عليهم النبي ﷺ فوجدهم يتناجون سراً، فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم تُنهَوْا عن النجوى؟» قالوا: تُبْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنا كنا نذكر المسيح - الدجال - خوفاً منه قال: أفلا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟ قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي: أن يقوم الرجل بعمل لمكان رجل»<sup>(٢)</sup>.  
أي لأن رجلاً آخر ينظر إليه، فهو يرآني بعمله.

وهذا الشرك أخفى من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء.

٣- وقال ابن عباس ومجاهد: نزلت الآية في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين، وينظرون إليهم، ويتغامزون بأعينهم عليهم، يؤهْمُونَهُمْ عند أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلما كثر ذلك منهم، شكوا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم عن التناجى دون المؤمنين فعادوا لمثل فعلهم<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت الآية السابقة قد نهت المنافقين عن التناجى في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية، وأنهم قد عادوا إلى النجوى ولم ينتهوا عنها، أنزل الله تعالى في هذه الآية ما يفيد التعجب من حالهم وحال أمثالهم إلى يوم القيامة، فإن شئت

(١) عن مجاهد ومقاتل كما في زاد المسير (١٨٨/٨) وابن كثير (٤٢/٨) والدر المنثور (٣١٨/١٤).

(٢) ينظر النص في المسند (٣٠/٣) برقم (١١٢٥٢) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف كثير بن زيد، وأخرجه ابن ماجه برقم (٤٢٠٤) من طريق كثير بن زيد، قال البوصيري في الزوائد (٢٩٦/٣) هذا إسناده حسن، وكثير وربيع بن عبد الرحمن، مختلف فيهما، ورواه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٣٢١/١٤ مختصراً، وأخرجه البزار مختصراً (٢٤٤٧) زوائد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢/٩)، رواه أحمد ورجاله موثقون، ورواه البزار ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف، قلت: ونظراً لهذا الخلاف فإن الحديث ينزل من مرتبة الصحيح إلى مرتبة الحسن، فلعله أولى كما قال البوصيري.

(٣) تفسير الألوسي (٢٥/٢٨) والحاخاين (٢٣٨/٤) وأسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦) عن ابن عباس ومجاهد بدون سند وتفسير القرطبي (٢٩١/١٧) وزاد المسير (١٨٨/٨) وتفسير ابن كثير (٤٢/٨).

أن تعجب - أيها الرسول - فاعجب من حال اليهود والمنافقين الذين نهيتهم عن التناجي فيما بينهم بما يقلق المؤمنين ويغيظهم، فلم يستجيبوا لُصْحِكِ واستمروا على تناجيهم بما فيه إثم وعدوان ومعصية لك، وفي هذه الآية قضيتان:

القضية الأولى: النهي عن التناجي بالشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجْوِيِّ﴾ ألم تعلم - أيها الرسول - حال اليهود والمنافقين، الذين نُهوا عن الحديث سراً، بما يثير الشك في نفوس المؤمنين ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى التناجي الذي نُهوا عنه، ويتحدثون سراً بثلاثة أشياء: الإثم، والعدوان، ومخالفة الرسول ﷺ؛ وهذه الثلاثة هي:

الأول: ﴿وَيَسْتَجِيبُونَ بِالْإِثْمِ﴾ أي بكل ما فيه معصية وذنوب، بما يشمل التناجي بالكفر ودم المسلمين وغيرهما، والإثم: اسم جامع لكل ما يجب تركه من المحرمات والمكروهات.

الثاني: ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ وهو كل ما فيه ظلم للآخرين واعتداء عليهم، ومن ذلك ما يدبره أعداء الإسلام من الكيد للمسلمين.

الثالث: ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي كل ما فيه مخالفته ﷺ فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه، ومنه النهي عن النجوى السيئة.

قال أبوحيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، لما فيه من ظلم العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول ﷺ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك<sup>(١)</sup>.

هذا: وقد نهى النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون الثالث، فإن كانوا أكثر من ثلاثة، فلا مانع. قالوا: وكان النهي عن هذا النوع من التناجي، حتى لا يستاء الثالث.

وكان التناجي الذي يغيظ المؤمنين منهياً عنه في بدء الإسلام، فلما انتشر الإسلام، وآمن الناس، زال هذا الحكم لزوال السبب.

وقد ذم الإسلام التناجي بالحديث، عدا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقة، والإصلاح بين الناس كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

(١) تفسير البحر المحيط (٢٣٦/٨) بتصرف.

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِكَ وَالنَّاسِ ﴿ [النساء: ١١٤].

ولابد للمسلم أن يستوي ظاهره وباطنه، وأن تكون نصيحته لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

### القضية الثانية: تحية اليهود للنبي ﷺ:

وبعد أن تحدثت الآية عن أحوال اليهود والمنافقين فيما بينهم من تناجي آثم، تحدثت بعد ذلك عن نياتهم الخبيثة عند دخولهم على النبي ﷺ وقت التنزيل، أو حضورهم مجلسه، فكانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يخفضون أصواتهم بلفظ (السلام) لأنه شعار الإسلام، ولما فيه من معنى السلامة، ويغذلون عنه إلى قولهم (أنعم صباحاً) وهي تحية العرب في الجاهلية، وهم لا يحبون أن يتركوا عاداتهم، وكانوا يحذفون اللام من لفظ (السلام) في تحية النبي ﷺ فيقولون (السام عليكم) وهو دعاء عليه بالموت، فكشف الله خُبث طويتهم:

### أحاديث في المعنى:

- ١- عن عائشة رضي الله عنها أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فَلَعَنَهُمْ، فقال ﷺ: (ما لك؟) قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: (فلم تسمعي ما قلت؟ وعليكم) <sup>(١)</sup>.
- ٢- وعن أنس بن مالك ؓ أن يهودياً أتى على النبي ﷺ وأصحابه، فقال: السام عليكم، فردّ عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرّون ما قال هذا؟» قالوا: الله ورسول أعلم، سلّم يا نبي الله، قال: «لا، ولكن قال: كذا وكذا، رُدُّوه عليّ» فردّوه، قال: (قلت: السام عليكم؟) قال: نعم، قال نبي الله عند ذلك: «إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك» قال: عليك ما قلت، قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ خَيْبُكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ﴾ <sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري برقم (٢٩٣٥، ٢٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٢٥٦) وغيرها.

(٢) ينظر: المسند (١٢٤٢٧، ١٢٤٢٧) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٦٩٢٦)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٠١) واللفظ له، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وتفسير الطبري (١١/٢٧)، ورواه ابن ماجه (٣٦٩٧)، والبزار (٢٠١٠)، وأبو يعلى (٢٩١٦).

٣- وقالت عائشة رضي الله عنها: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش، ولا التفحش» فقلت: يا رسول الله، ترى ما يقولون؟ قال: «ألست ترى ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» قالت: فنزلت هذه الآية<sup>(١)</sup>.

٤- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يَعِدُّبْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية<sup>(٢)</sup>.

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: عليكم واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت عليكم»<sup>(٣)</sup>.

٦- وفي رواية عنها رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، فقال ﷺ: «مهلا يا عائشة عليك بالرفق، وإياك بالعرف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في»<sup>(٤)</sup>.

وإذاً فإن أهل الكتاب إذا قالوا لنا (السام عليكم) نقول لهم (عليكم) بغير واو كما قال سفيان بن عيينة، فيكون قولهم مردود عليهم، أما إثبات الواو فإنه يقتضي

(١) عبد الرزاق (٢٧٩/٢) ومسلم (٢١٦٥) والبخاري (٦٠٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٩٩، ٩٠٩٨) ورواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة.

(٢) المسند برقم (٦٥٨٩) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد حسن، لأن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل الاختلاط وبعده، وقال في مجمع الزوائد (١٢١/٧) رواه أحمد والبخاري (٢٢٧١)، والطبراني، وإسناده جيد، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة، وقال ابن كثير: إسناده حسن، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩١٠٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٠٢٤).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٦٠٣٠) وهذا لفظه وانظر (٢٩٣٥) وفي مسلم (٢١٦٥).



الجمع والاشتراك<sup>(١)</sup>.

وإذا تحقق المسلم من وجود اللام عند قولهم (السلام عليكم) فإنه يردّ عليهم السلام لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحْوِهِ فَبِأَخْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] ولكن لا نبدؤهم بالسلام، فإنه شعار الإسلام وتحيته، ويمكن إلقاء التحية عليهم بما يناسب الصباح أو المساء، وإذا هنؤونا بأعيادنا الدينية أو أهدؤا إلينا فيهما، فلا نفعل مثل ذلك في أعيادهم الدينية، لأن في هذا إقرار واعتراف بها، بخلاف المجاملات الاجتماعية فلا بأس بها.

ونعود إلى الآية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ في هذا تقرير لإساءة اليهود في تحية النبي ﷺ أي إذا دخل عليك اليهود - أيها الرسول - لأمر من الأمور، حيّوك بغير التحية التي شرعها الله لك، وجعلها تحية لأمتك، فقالوا (السلام عليك) أي الموت لك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلاً يعاقبنا الله بما نقول لمحمد، إن كان رسولاً حقاً؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام، ومعناه: أنهم يستدلون على جواز ما يقولونه في تحيتهم للنبي ﷺ بعدم تعجيل العذاب لهم في الدنيا. قال تعالى مبيناً أنه سبحانه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا﴾ تكفيهم جهنم يدخلونها ويقاسون حرها وسعيرها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بثست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم، وقد أمهلهم الله في الدنيا كرامة للنبي ﷺ لكونه بُعث رحمة للعالمين.

والله تعالى حلیم لا يعاجل بعقوبة من سبّه أو سبّ نبيه ﷺ كما جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما أحد أصبر على أذى سمعه، من الله تعالى، يدعون له الولد وهو يعافيه ويرزقهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر تفسير الخازن (٤/٢٤٠٠).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) وهذا لفظه، وصحيح مسلم (٢٨٠٤).

وهؤلاء اليهود كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به، فكشف الله سرائرهم، وفضح بواطنهم، فلا تحزن - يا رسولنا -، لما يقوله ويفعله اليهود والمنافقون ومن لَفَّ ليفهمهم، وهم المعنيون بالآية.

## التَّاجِي الْمَحْمُودُ وَالتَّاجِي الْمَذْمُومُ

٩- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا<sup>(١)</sup> بِالْإِنِّيرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ<sup>(٢)</sup> الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

لما ذم الله اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان، حذر المؤمنين أن يكونوا مثلهم، فنهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان، وأمرهم أن يتناجوا بالبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمتم بالله حق الإيمان ﴿إِذَا تَنَجَّيْتُمْ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرا ﴿فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِنِّيرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي لا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان وظلم لغيركم، أو بما فيه مخالفة لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي وليكن التناجي فيما بينكم - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبرّ وطاعة وإحسان، والبر: اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق العباد. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا الله تعالى وراقبوه في سرهم وجهرهم، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه، فالتقوى: اسم جامع لترك جميع المحرمات والمكروهات.

وإلى الله سبحانه تُجمعون يوم القيامة، فهو ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإليه وحده مرجعكم، بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجازيكم بها. وقيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألستهم، لا

(١) قرأ رويس (فلا تتنجوا) على وزن تتهوا وقرأ الباقون ﴿تَنَجَّوْا﴾.

(٢) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على ﴿وَمَعْصِيَتِ﴾ بالهاء والباقون بالياء وأمالها الكسائي وقفاً، ووقف الباقون بالتاء وفقاً للرسم، ومثلها في الآية التالية.

تتلاعبوا بالألفاظ ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، وقد تعلم المنافقون من اليهود بعض الأمور ومارسوها، كقولهم للنبي ﷺ (راعنا) فقد تعلموها من اليهود وطبقوها، كما تعلموا منهم التناجي بالإثم والعدوان، ونحو ذلك، وقد خاطبهم الله بوصف الإيمان الذي أظهره كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]. قال تعالى:

١٠ - ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ <sup>(١)</sup> الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

ثم أسندت الآية التناجي بالإثم والعدوان إلى الشيطان، لأنه الذي يوسوس للإنسان ويزين له القول السيء، وهدف الشيطان من ذلك هو التأثير على نفوس المسلمين ليدخل الحزن على قلوبهم، ولكن هؤلاء المتناجين لن يضربوا المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي إنما التحدث سراً فيما بين أعداء المؤمنين بالمكر والخديعة بالمؤمنين، لا يكون إلا من الشيطان، فهو الذي يُحَسِّنُه وَيُزَيِّنُه، ومكره ضعيف غير مفيد، والحامل للشيطان على ذلك هو إغابة المؤمنين والإساءة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وهذا معنى: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ليدخل الحزن على قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أن هذا التناجي بالإثم والعدوان لن يؤدي المؤمنين في شيء إلا بمشيئة الله سبحانه.

فلا تحزنوا - أيها المؤمنون - واعلموا أن كيد الشيطان وكيد المنافقين لن يؤذيكم في شيء إلا بإذن الله، ومهما تناجوا ومكروا، فإن مكرهم عائد عليهم، ولن يضرروا المؤمنين في شيء إلا ما قضاه الله وقدره، ومادام الأمر كذلك فاعتمدوا على الله وحده - أيها المؤمنون - ولا تخافوا غير الله سبحانه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فثقوا بالله، ولا تبالوا بنجوى المنافقين، فإن الله يعصمكم من كيدهم وشرهم، ومن التناجي المؤذي أن

(١) قرأ نافع (وليحزن) بضم الياء وكسر الزاي، مضارع أحزن والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

يتكلم اثنان بلغة لا يفهمها الثالث، إذا كانوا يتكلمون عادة بلغة ثالثهم، فإن ذلك يُحزنه.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي لأن في ذلك أذى للآخرين:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يُحزنه»<sup>(١)</sup>.

فإن استأذن المتناجيان من الثالث جاز ذلك، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد»<sup>(٢)</sup>.

قال قتادة: كان المنافقون يتناجون بينهم، فكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾<sup>(٣)</sup>.

ومنطوق الآيات: أن النجوى المنهي عنها هي التي يكون فيها إثم وعدوان، أما التناجي بالبر والتقوى، والصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، فإن ذلك من أعمال الخير والبر المستحبة، وخير النجوى ما يكون بين العبد وربه يوم لقاء رب العالمين.

كما جاء عن صفوان بن مُحَرِّز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كَفَنه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورآى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الكاذبين»<sup>(٤)</sup>.

(١) المسند (٤٣١/١) برقم (٤٠٣٩، ٤٤٠٧، ٤٤٢٤) ومسلم برقم (٢١٨٤) واللفظ له والبخاري (٦٢٩٠).

(٢) مسلم برقم (٢١٨٣) والبخاري (٦٢٨٨) والمسند (٥٢٥٨).

(٣) تفسير ابن جرير (٤٧٤/٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٤/٢) برقم (٥٤٣٦) والبخاري (٤٦٨٥، ٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

## التَّفْسُحُ فِي الْمَجَالِسِ

١١- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾<sup>(٢)</sup> فَاسْحُوا يَسْخِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا<sup>(٣)</sup> فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يؤدب الله عباده المؤمنين، فيعلمهم أنهم إذا اجتمعوا في مجلس فيه ضيق، فليفسح بعضهم لبعض، فإن هذا يفيد القادم على المجلس، ولا يضر الفاسح في شيء، وإذا طُلب من الجالسين أن ينصرفوا عن المجلس لحاجة عرضت لأهل البيت ونحوهم، فليبادروا بالقيام، فإن من يفعل ذلك يكون من أهل العلم والإيمان، الذين يحتفظون بالحقوق لأهلها، ولا يحدث في نفوسهم شيء من أمثال هذه التصرفات، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات على قدر ما يتأدبون بأداب الإسلام، وتثمر أحكامه في نفوسهم.

وبهذه الآية يكون قد تم أربع آيات من آيات أحكام النجوى: فالآية السابعة من السورة تحدثت عن إحاطة علم الله تعالى بكل كلام خفي يكون بين اثنين فأكثر. والآية الثامنة تحدثت عن نجوى المنافقين واليهود وأمثالهم، وخذاعهم في تحية نبي الإسلام ﷺ.

والآية التاسعة حذرت المؤمنين أن يكونوا مثل اليهود والمنافقين في التناجي بالإثم والعدوان.

وبيئت الآية العاشرة أن مصدر النجوى السيئة هو الشيطان، وأن الضر والنفع بيد الله وحده.

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف للضم وإشمام الياء بعدها للواو في (قيل)، والباقون بالياء الخالصة.

(٢) قرأ عاصم ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ بالجمع والباقون (في المجلس) بالإفراد.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر وشعبة بخلف عنه بضم الشين في ﴿أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ والباقون بكسرها فيها ومعهم شعبة في الوجه الثاني وهما لغتان، ومن ضم الشين ضم الهمزة ابتداءً ومن كسرها كسر الهمزة ابتداءً.

والحديث موصول في موضوع النجوى، فتتناول الآيات الثلاث التالية، بدءاً من هذه الآية: التأدب مع النبي ﷺ عند التناجي معه، وعند الجلوس في مجلسه ﷺ وهو حي، وعند قبره بعد موته:

والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون على خير، سواء في مجلس يوم الجمعة، أو في مجلس ذكر، أو في مجالس القرآن والعلم، أو في بيوت الله ومقاعد الجهاد، أو في الولائم، وجميع المجالس العامة والخاصة. حيث أمرتهم الآية أن يتوسعوا في المجالس، ليتسع المسجد أو المجلس، للجميع، ولتقديم أهل الفضل والصلاح.

وقد وردت روايات في أسباب نزول هذه الآية، منها:

١- أنها نزلت في يوم الجمعة، وكان النبي ﷺ يومئذ في الصُففة، والمكان ضيقاً، وقد سبق عامة الناس إلى المجلس، فجاء أهل بدر، وكان لهم منزلة خاصة، وكان النبي ﷺ يكرمهم، سواء المهاجرون منهم أو الأنصار، فلما جاؤوا لم يجدوا مكاناً، ووقفوا حيال رسول الله ﷺ وقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد عليهم السلام، ثم سلموا على القوم، فردوا عليهم، وظلوا واقفين على أرجلهم، وشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله ممن ليسوا من أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين، فعز ذلك على من أقيموا من مجالسهم، وعرف النبي ﷺ في وجوههم الكراهية، وهنا انتهز المنافقون الفرصة، فقالوا: أستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل بين هؤلاء، فإن قوما أحبوا القُرب من نبيهم، فأقامهم، وأجلس مكانهم من تأخر عنه، وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً فسح لأخيه» فأخذوا يقومون سراعاً، وتفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة<sup>(١)</sup>.

(١) هذا المعنى رواه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان كما في القرطبي (٢٩٧/١٧) والألوسي (٢٨/٢٨)، وابن الجوزي (١٩١/٨) والرازي (١٦٤/٨)، وابن كثير (٤٥/٨)، والدر المنثور (٣٢٢/١٤).

وتقديم النبي ﷺ للبدرين، ليعلم أمته أن يتصدّر المجلس أفاضل القوم، أخذاً من حديث النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وإياكم وهيئات الأسواق»<sup>(١)</sup>.

والآية تُطَيّب خاطر الذين أقيموا من مجالسهم، وفيها تعليم للأمة بوجوب رعاية أهل الفضل وإنزال الناس منازلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾ [الحديد: ١٠].

٢- وقيل: إن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وقد تقدمت قصته في سورة الحجرات.

٣- وكان الصحابة يتنافسون في مجلس النبي ﷺ محبة في القرب منه، فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

٤- وقال سعيد بن جبير: كان الناس يتناجون في المجلس عند النبي ﷺ فنزلت الآية<sup>(٢)</sup>.

٥- وقال زيد بن أسلم وقتادة: نزلت هذه الآية بسبب تضايق الناس في مسجد النبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه ﷺ لسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق، والسنن، والقِدَم في الإسلام، فلا يجد مكاناً، فنزلت بسبب ذلك<sup>(٣)</sup>.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله واهتديتم بهديه ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي إذا طلب منكم أن يوسع بعضكم لبعض في المساجد والمجالس بصفة عامة ﴿فَافْسَحُوا﴾ توسعوا وانضموا لبعضكم ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة، ويشملكم برحمته ويدخلكم جنته.

(١) صحيح مسلم برقم (٤٣٢).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المشور (٣٢١/١٤).

(٣) تفسير ابن عطية (٢٧٨/٥)، وعبد الرزاق (٢٧٩/٢).

وكل من وَسَّع على عباد الله أبواب الخير والعلم والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا، كسعة الرزق، والمسكن، وراحة الصُّدْر، ووسَّع عليه خيرات الآخرة، فيوسَّع عليه قبره ويرفع درجاته في الجنة.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»<sup>(١)</sup>.

والجزاء يكون من جنس العمل، فمن يوسع على غيره يوسع الله عليه، ومن يستر مسلماً يستره الله في الدنيا والآخرة، ومن ييسر على معسر ييسر الله عليه.

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال:

١- فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم»<sup>(٣)</sup>.

٢- ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يُمَثَّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(٤)</sup>.

٣- ومنهم من فضّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلّ عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لمّا استعمله النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، ورآه مقبلاً قال للمسلمين: (قوموا إلى سيدكم) ليكون هذا أنفذ لحكمه، والله أعلم.

(١) جزء من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري برقم (٦٢٧٠، ٦٢٦٩، ٩١١) ومسلم برقم (٢١٧٧) واللفظ له والترمذي (٢٧٥٠، ٢٧٤٩).

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري برقم (٦٢٦٢، ٤١٢١، ٣٨٠٤، ٣٠٤٣) ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٤) من حديث معاوية عند أبي داود برقم (٥٢٢٩) والترمذي برقم (٢٧٥٥) وقال: إسناده حسن، وأخرجه

أحمد في المسند (١٦٨٣٠) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وأخرجه البخاري في

الأدب المفرد (٩٧٧)، والبعوي في شرح السنة (٣٣٣٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٨٦)، وعبد بن حميد في

المتنخب (٤١٣).



فأما اتخاذه ديناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك<sup>(١)</sup>.

### إنزال الناس منازلهم:

ومما يدل على أنه ينبغي إنزال أهل الفضل منازلهم ما رواه ابن العربي بسنده عن أنس ﷺ أنه قال: بينا رسول الله في المسجد، وقد طاف به أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالب، فوقف وسلّم، ثم نظر مجلساً يشبهه، فنظر رسول الله ﷺ في وجوه أصحابه أيهم يوسع له، وكان أبوبكر جالساً عن يمين النبي ﷺ فترحزح له عن محله، وقال: ها هنا يا أبا الحسن! فجلس بين النبي ﷺ وبين أبي بكر فقال: «يا أبابكر، إنما يعرف الفضل، لأهل الفضل، ذوو الفضل»<sup>(٢)</sup>.

وكان عمر ﷺ يقدم ابن عباس وهو صغير السن عن غيره، فكلمه الصحابة في ذلك، فدعاه ودعاهم، ثم سألهم عن معنى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله، أعلمه إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، ثم قال: بهذا قدّمْتُ الفتى).

ولا يجوز لقادم أن يفرق بين اثنين لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»<sup>(٣)</sup>.

وفي الأثر (ثلاث يصفين لك وُدّ أخيك: أن تبدأه بالسلام، وأن توسع له بالمجلس، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه).

وفي حلق القرآن والعلم، ينبغي أن تتزاحم الركب، وتُسدّ الفرج، فقد صح في الحديث عن أبي واقد الليثي قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد، فأقبل ثلاثة

(١) ينظر: حديث أنس في الترمذي برقم (٢٧٥٤).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي جزء ٤ والقرطبي (٣٠١/١٧).

(٣) المسند (٢٣١/٢) برقم (٦٩٩٩) بإسناد حسن (محققه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٤٢)،

وأبوداود برقم (٤٨٤٥)، والترمذي برقم (٢٧٥٢) وقال: هذا حديث حسن.

نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فأما أحدهما فرآى فرجة في الحلقة فجلس، وأما الآخر، فجلس خلفهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة، أما أحدهم، فأوى إلى الله، فأواه الله، وأما الآخر: فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض، فأعرض الله عنه»<sup>(١)</sup>.

ومن قام من مجلسه لسبب ثم عاد إليه فهو أحق به، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»<sup>(٢)</sup>.

### الارتفاع عن المجلس لحاجة:

وكما أمر الإسلام بالتوسع في المجالس، أمرنا أنه إذا طُلب منا القيام من المجلس لسبب من الأسباب، كالنهوض للصلاة، أو للجهاد، أو لقادم، أو نحو ذلك فليستجيبوا، وهذا معنى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا.

فإذا طُلب منكم - أيها المؤمنون - أن تقوموا من مجالسكم، لأمر من الأمور التي يكون فيها خيرا، فقوموا، فإن دعيتم إلى الجهاد فأجيبوا، وإن دعيتم إلى الأمر بالمعروف فأجيبوا، وإن دعيتم إلى أداء حق فأجيبوا، وإذا دعيتم إلى التوسع لغيركم في المجلس فأجيبوا، وهكذا.

فالنشوز هو النهوض والارتفاع، والقيام من المكان الذي يجلس فيه المرء. ولما كان النشوز ارتفاعاً عن المكان الذي يكون فيه الإنسان، فإن جزء من يفعل ذلك يكون من جنس عمله، حيث يرفع الله درجات الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي يرفع مكانة المؤمنين المخلصين المستجيبين لله والرسول، وهذه الاستجابة دليل العلم بالأحكام الشرعية، ولذا: عطف عليهم أهل العلم، ببيان رفع درجاتهم عند الله تعالى، فقال:

(١) البخاري (٤٧٤،٦٦) وهذا لفظه ومسلم (٢١٧٦).

(٢) مسلم (٢١٧٩).

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ﴾ أي يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم منهم درجات .<sup>(١)</sup>

فأهل العلم على درجات كثيرة من الثواب ومراتب الرضوان.  
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها.

### في فضل العلم والعلماء:

وفي الآية تنويه بفضل العلم والعلماء ورفع درجاتهم عند الله تعالى، وفيها بيان أن المؤمن العالم فوق المؤمن غير العالم، ورفع الشأن عند الله تعالى يكون بالإيمان والعلم. وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم...»<sup>(٢)</sup>

وجاء في الأثر (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء). وعن قيس بن كثير أن رجلاً من المدينة قدم على أبي الدرداء في دمشق، فسأله عن سبب قدومه، قال: حديث بلغني أنك تُحدّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أما جئت لتجارة ولا لشيء غيره؟ قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقاً يتبغي فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»<sup>(٣)</sup>.

(١) هذا تفسير ابن عباس كما في المستدرک (٤٨١/٢) والبيهقي في المدخل (٣٤١).

(٢) سنن الترمذي ٢٩٨٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢١٦١) وهو في السلسلة الصحيحة (٧٨)، وفي المشكاة (٢١٩) التحقيق الثاني.

(٣) ينظر بعضه في: كتاب العلم باب (١٠) في صحيح البخاري قبل الحديث رقم (٦٨) وهو في المسند برقم (٢١٧١٥) حسن لغيره، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبوداود وابن ماجه (٢٣٩)، والحديث بعضه في المسند أيضاً عن أبي هريرة برقم (٨٣١٦) بإسناد صحيح على شرط البخاري وهذا إسناد حسن.

وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلسين في مسجده، أحدهما المجلسين يدعون إلى الله تعالى ويَزْعَبُونَ إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال: «كِلَا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل، وإنما بعثت معلماً» وجلس معهم.

وأخرج مسلم بسنده أن نافعاً بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل البوادي؟ فقال: ابن أُنزَي، قال: ومن ابن أُنزَي؟ قال: مولى من مواليها، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين»<sup>(٢)</sup>.

## تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ عِنْدَ مُنَاجَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ الرُّخْصَةِ وَالْعَزِيمَةِ

١٢، ١٣ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبُونَكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴿١٣﴾ أَن تَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبُونَكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؕ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

(١) مسلم برقم (٨١٧).

(٢) البخاري (٣١١٦، ٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ وقرأ الأصبهاني وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وللأزرق تسهيل الثانية مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد مشبع لالتقاء الساكنين، ولهشام ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيقها مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

في حياتنا العامة توجد مراسم لمقابلة كبار الشخصيات كمقابلة مدير المكتب، وتفتيش الداخل وكتابة معروض يلخص فيه القادم حاجته، تخفيفاً للزحام، ورداً لمن ليس حاجة، وعدم إشغال المسؤول أكثر من اللازم، ولما ازدحم الناس على رسول الله ﷺ شرع الإسلام لمن يريد مقابلة النبي ﷺ والتحدث معه أن يقدم صدقة ليست لمصلحة النبي ﷺ وإنما هي لنفع الفقراء والمحتاجين، إن كان قادراً، فمن لم يجد فلا حرج عليه، فإذا شق تقديم هذه الصدقة على بعض الناس، فعليهم أن يكثروا من الأعمال الصالحة، ويقوموا بما أوجبه الله عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول، فإن في هذا عوضاً عن الصدقة، وقد جاء هذا العوض بعد عشرة أيام فحسب من مشروعية الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ.

هذا: ولاستيفاء أنواع النجوى؛ المحمود منها والمذموم، تتحدث هذه الآية عن تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ فأمر الله عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاة النبي ﷺ لأمر من الأمور أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة:

- ١- تعظيماً لشأن الرسول ﷺ.
- ٢- وتخفيفاً للزحام عليه.
- ٣- ونفعاً يومياً للفقراء، وكانوا كثرة، من أهل الضفة ومعظم المهاجرين.
- ٤- وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ.
- ٥- وعدم الإشغال للنبي ﷺ بما لا يكون من أمور الرسالة.
- ٦- وتمييزاً بين محب الدنيا ومحب الآخرة، فإن ذلك أذكى للنفوس وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله تعالى.
- ٧- فإن لم يتيسر للمؤمن الصدقة، فلا بأس عليه ولا حرج من أسباب النزول:

١- ورد عن ابن عباس وقتادة: أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير

- (١) حاجة، إلا لتظهر منزلتهم، وكان ﷺ سمحاً لا يردّ أحداً، فنزلت الآية مشددة أمر المناجاة .
- ٢- وعن مقاتل أن الأغنياء كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فنزلت الآية (٢) .
- ٣- وورد أن علياً عليه السلام قال: إن في كتاب الله لآية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار، فاشتريته به عشرة دراهم، فكلما ناجيت الرسول ﷺ قدّمت بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ (٣) لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأمر إبراهيم بذبح ولده.
- ٤- قال مجاهد: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يقدموا صدقة، فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب، فإنه قدّم ديناراً فتصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم نزلت الرخصة (٤) .
- ٥- وصح عن علي عليه السلام أنه قال: ما عمل بها أحد غيري، وأنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك أني أردت مناجاة النبي ﷺ في أمر ضروري، فصرفته ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عشر مرات، أفدّم في كل مرة درهماً، قال علي: ثم أدراك رسول الله ﷺ أن هذه العبادة قد شقت على الناس، فقال لي: يا علي، كم ترى أن يكون حدّ هذه الصدقة؟ أتراه ديناراً؟ قلت: لا، قال: نصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكم؟ قلت: حبة من شعير، قال: إنك لزهيد، فأنزل الله الرخصة، قال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أيام. وقال قتادة: بقي ساعة من نهار (٥) .

(١) البحر المحيط (٢٣٧/٨) والألوسي (٣٠/٢٨) والقرطبي (٣٠١/١٧) وتفسير ابن عطية (٢٧٩/٥).

(٢) الألوسي (٣٠/٢٨)، وزاد المسير (١٩٥/٨)، والخازن (٢٤٢/٤)، وابن عطية (٢٧٩/٥)، والدر المنثور (٣٢٦/١٤).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٤٢٨/٣)، والألوسي (٣١/٢٨)، والقرطبي (٣٠٢/٧)، وابن كثير (٥٠/٧)، وابن أبي شيبة (٨١/١٢)، والحاكم (٤٨١/٢).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣٢٥/١٤).

(٥) تفسير ابن عطية (٢٨٠/٥).

٦- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآء بسبب أن المسلمين كانوا يُكثِرُونَ المسائل على رسول الله حتى شقوا عليه، فأراد الله تعالى أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآء، كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآء التي بعدها<sup>(١)</sup>.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ أي إذا أردتم أن تكلموه سراً بينكم وبينه ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بِحَبْلِ جَدِيدٍ﴾ تقدموا قبل المناجاة بصدقة مطلقه، قليلة أو كثيرة، إلى الفقراء وأصحاب الحاجات ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ أي فيه ثواب لكم، وفيه منفعة للفقراء، وفيه تعظيم لمقام النبي ﷺ وفيه تطهير لقلوبكم من المآثم ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به فلا حرج عليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قال أهل العلم: إن هذه الآء منسوخة بالآء التي بعدها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن صدقة المناجاة شُرعت قبل مشروعية الزكاة، ونُسخت بوجوبها، أي أنها نُسخت اكتفاءً بالزكاة، وأبطل فرض الزكاة كُلَّ حَقِّ كان واجباً في المال.

قلت: والأولى حمل هذه الآء على الرخصة، والآء التي بعدها على العزيمة، كما قال أبو مسلم الأصفهاني، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هذه الصدقة فرضها الله تعالى على من يجد ما يتصدق به، وأسقطها عن من لا يجد، فهي تجب على القادر وتسقط عن غيره، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ووقتها هو وقت التوجه إلى مناجاة النبي ﷺ أي قبله بقليل.

وقد شق على بعض المسلمين القادرين تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فأسقط الله وجوبها، وأنزل بعد عشرة أيام من نزول الآء السابقة قوله تعالى:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ بِحَبْلِ جَدِيدٍ ءَصَدَقْتُمْ﴾

أي: أخشيتم - أيها المؤمنون - من الفقر، إذا قدمتم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله

(١) تفسير القرطبي (١٧/٣٠١).

﴿فَإِذَا لَرَفَعْلُوا﴾ ما أمرتم به من الصدقة وشق عليكم ذلك ولم يهن عليكم تقديم الصدقة، فأكثروا من الفرائض والنوافل بدلاً منها، وقد قيدت الآية عدم تقديم الصدقة بالتوبة فقال تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي رخص لكم في ألا تفعلوا، وعفا عنكم، فأكثروا من الصلاة والزكاة عوضاً عنها، واثبتوا، وداوموا عليها، وهذا معنى: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، وهاتان العبادتان أما العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما فقد قام بحقوق الله وحقوق العباد، وبعد تخصيص هاتين العبادتين عمم سبحانه جميع الأوامر فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما أمرتم به، وكل ما نهيتم عنه، وفي جميع أحوالكم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيط بأعمالكم ونياتكم وسيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

### حزبُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ

١٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَآهُمْ مِنْكُمْ وَلَا مَنَّهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق، الذين اتخذوا اليهود وغيرهم حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فيبين سبحانه أنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، لأن باطنهم مع الكفار وظاهرهم مع المؤمنين، فكان جزاؤهم أن أعد الله لهم عذاباً شديداً لا يعلم وصفه ولا يقادر قدره وهذا تعجب من حالهم.

قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم.

والذين غضب الله عليهم هم اليهود، والذين تولوهم، هم المنافقون، وأمثالهم كثير في العالم الإسلامي، ممن يتظاهرون بالإسلام ويحلفون كذباً أنهم مؤمنين، ويحبون غير المسلمين ويتعاونون معهم ضد المسلمين.

والمعنى: ألم تر - أيها المخاطب - إلى المنافقين الذين اتخذوا غير المسلمين حلفاء وأصدقاء لهم ضد المسلمين وآلؤهم؟ ألا تعجب من حال هؤلاء الذين يزعمون



الإيمان، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، وهؤلاء اليهود هم الذين قال الله فيهم ﴿مَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

والمنافقون ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود، لا هم من المسلمين، ولا من اليهود، فليسوا بمسلمين خلص، ولا بكافرين خلص ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وهؤلاء المنافقون يحلفون كذبا أنهم مسلمون، وأنت رسول الله، والحلف على ما يُعلم أنه كذب، في غاية القبح، والله تعالى يُنكر في هذه الآية على المنافقين موالاتهم لغير المسلمين في الباطن، وهم في الواقع مخادعون لهم، يظهرون ما لا يبتنون.

### سبب النزول:

قال السدي: كان (عبد الله بن نبتل) المنافق، يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق العينين، فقال له النبي ﷺ: «علام تشمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: «بل فعلت» فانطلق، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سئوه، فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

وقد جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ كان جالسا في ظل حُجرة من حُجَرِه، وعنده نفر من المسلمين فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: «علام تشمني أنت وأصحابك...»<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: الفخر الرازي (٢٨/٢٨) والقرطبي (٢٩٧/٧) والخازن (٢٤٢/٤) وابن كثير (٥٢/٧).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (١٢٣٠٧)، وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرک (٤٨٢/٢) وأقره الذهبي، ورواه أحمد بإسناد جيد (٢٤٠/١) برقم (٣٢٧٧، ٢١٤٧)، والبيزار (٢٢٧٠ كشف)، قال محققو المسند: إسناده حسن برقم (٣٢٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٧): رجاله رجال الصحيح، وهو عند البيزار (٢٢٧٠ كشف).

فكان هذا اليهودي يجالس النبي ﷺ وينقل أخباره إلى اليهود، ويسبه، فإذا بلغ النبي ﷺ خبره، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقسم أنه ما فعل.

ثم بين سبحانه ما أعد لهؤلاء المنافقين من عذاب في الآخرة فقال:

١٥ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي هيا الله لهم - بسبب نفاقهم - عذابا بالغ الشدة والألم، فهم في الدرك الأسفل من النار ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من النفاق والكذب والحلف عليه، فبئس ما فعلوا، وبئس ما صنعوا، فقد عملوا ما يسخط الله، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، وهذا تعليل لنزول شدة العذاب بهم. قال تعالى:

١٦ - ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

ولما كان المسلمون في كل زمان ومكان في حالة جهاد مستمر مع اليهود والنصارى والمشركين، وقد أمر المسلمون شرعاً أن يقاتلوا الكفار حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن من شأن المنافقين أن يتظاهروا بالإسلام، ويوهموا المسلمين أنهم مسلمين حتى لا يقاتلوهم، وحتى يحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم بهذا النفاق، وبهذه الأيمان الكاذبة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة ترساً ووقاية لهم من القتل، ومن لوم المؤمنين لهم لو أنهم أظهروا كفرهم، فكانوا بذلك سبباً لمنع الناس من الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، وبالخداع والمكر بالمسلمين ﴿فَصَدُّوا﴾ غيرهم وصدوا أنفسهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو الطريق الموصل إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس أمامه إلا الصراط الموصل إلى نار الجحيم، وبسبب ذلك فإن للمنافقين عذاباً مذللاً ومخزياً في نار جهنم، لنفاقهم وعدم إيمانهم بالله ورسوله واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، ولصددهم الناس عن دين الله. قال تعالى:

١٧ - ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

لقد كان المنافقون وهم في الدنيا أكثر أولاداً وأكثر أموالاً من المسلمين، ويزعمون

أنهم بسبب ذلك لن يعذبوا في الآخرة - إن كان ثمة قيامة، على حد قولهم - فنفى سبحانه في هذه الآية، هذه المزاعم، لأن يوم القيامة، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أي أن هذه الأموال وهذه الأولاد، وهذا الجاه والسلطان، لن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، ولن يحصل لهم قسط من الثواب.

ومن المعروف أن عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المنافقين - كان من أغنياء المدينة، وكان يوطن نفسه أن يكون ملكاً عليها، وكانوا يُعِدُّون له تاج الملك، قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وهو القائل ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وكان المنافقون على وجه العموم من أهل الثراء في المدينة، وكان ثراؤهم سبب إعراضهم عن الإسلام، فكانوا أهل سيادة وجاه، يخافون على ضياع منزلتهم بين الناس، وكانوا يفتخرون على المسلمين بوفرة أموالهم وكثرة عشائهم، فإذا لم تُغن عنهم هذه الأموال والأولاد في الدنيا فهي أجدر ألا تنفعهم في الآخرة ﴿أَوْلَيْتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الملازمون لها] ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً، ولا يموتون فيها، وهذا الجزاء يعم كل من صد الناس عن دين الله بقوله أو فعله في كل زمان ومكان ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] إنه خلود أبدي ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتَوْا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] و﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. قال تعالى:

١٨ - ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَحَسْبُونَ<sup>(١)</sup> أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

تقرر هذه الآية أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، ويوم القيامة سوف يكون حال المنافقين كما كان في الدنيا، فيحلفون لله تعالى في الآخرة بأنهم مسلمون، كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا بأنهم مسلمون، وهم يتوهمون

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من ﴿وَحَسْبُونَ﴾ والباقون بكسرها.

أن أيمانهم هذه ستفعلهم في تخفيف شيء من العذاب عنهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - يوم القيامة حين يبعث الله المنافقين جميعاً، ويحشرهم للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا - أيها المؤمنون - أنهم مؤمنون ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم في الدنيا عند المسلمين، ويزعمون بحلفهم هذا أنهم على شيء يعتدُّ به، ويُعلّق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، فإن عقائدهم الباطلة لم تزل راسخة في أذهانهم حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء.

وهذا شأن المشركين بالله أيضاً في الآخرة، فإنهم يحلفون لله كذباً أنهم لم يكونوا مشركين، وهذا ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنعام].

فالكفر والنفاق باق فيهم بعد موتهم وبعثهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومعلوم أن الأيمان الكاذبة لا تروج على عالم الغيب والشهادة. إن النفاق متوغل فيهم، فقد مرّدوا عليه، وقد خرجت نفوسهم وهم في الدنيا مع بقائه في أرواحهم.

كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»<sup>(١)</sup>.

ثم إن الكذب على الله تعالى ليس كالكذب على الناس، ولذا فإن الله تعالى وصف المنافقين بأنهم الكاذبون حقاً، البالغون في الكذب حدّاً لم يبلغه غيرهم ﴿إِلَّا إِنَّمَا هُمْ أَلْكَذِبُونَ﴾ لقد تجاسروا فكذبوا على علام الغيوب وتصوروا أن كفرهم يخفى على رب العالمين، وهذا أمر عجيب، وجرأة بالغة!!

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٨).

## سَبَبُ انْغِمَاسِ الْمُنَافِقِينَ فِي النُّفَاقِ وَعُقُوبَتِهِمْ

١٩ - ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ<sup>(١)</sup> الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ

الْمُتَشَبِهُونَ ﴿١٩﴾

ثم بين سبحانه الأسباب التي جعلت المنافقين ينغمسون في نفاقهم، فالشيطان قد استولى على قلوبهم، وتملك نفوسهم، فاستحوذ عليهم وزين لهم أعمالهم حتى أنساهم ذكر ربهم، وصاروا تابعين لوساوسه وتزينه ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ لقد تغلب الشيطان على المنافقين، وتملك قلوبهم من كل جهة، حتى تركوا أوامر الله تعالى والعمل بطاعته، فصاروا طوع أمره ورهن إشارته، والشيطان هو العدو الممين لا يريد بهم إلا الشر ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والموصوفون بهذه الصفات: هم أنصار الشيطان وأعدائه وجنوده، الذين فوّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا والآخرة ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ الذين استجابوا له ولّبوا نداءه بسبب ضعف إيمانهم ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُتَشَبِهُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. ومن سبل استحواذ الشيطان على الإنسان ترك صلاة الجماعة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»<sup>(٢)</sup>.

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف والباقون

بكسر الهاء وضم الميم، وضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلأ ووقفأ حمزة ويعقوب.

(٢) سنن أبي داود برقم (٥٤٧) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٤٢٥) وفي صحيح سنن أبي داود

(٥١١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرک (٤٨٢/٢)، والنسائي (١٠٦/٢) (٨٤٦)، وابن حبان

في صحيحه برقم (٢٠٩٨)، وقال النووي: إسناده صحيح، نصب الرأية (٢٤/٢)، والمسند (٢٧٥١٤)،

(٢١٧١٠)، قال محققوه: إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

## الذِّلَّةُ وَالْهَوَانُ لِحِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَالنَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ لِحِزْبِ الرَّحْمَنِ

٢٠، ٢١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكَ أَنَا وَرُسُلِي<sup>٤</sup> ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

ذكر صدر هذه الجملة، في الآية الخامسة من السورة، صفة لغير المسلمين المعلنين مضادتهم لله والرسول، وذكرت هنا مرة أخرى في شأن المنافقين المسيرين مضادتهم لله والرسول، وفيها بيان للخسران الدنيوي والأخروي، الذي يلحق بحزب الشيطان، والمذلة والهزيمة أشد أنواع الخسران في الدنيا.

وفي هذه الآية وعيد شديد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي وبيان أنه مخذول مهان، لا عاقبة له محمودة، ولا راية له منصوره.

والذين يحادون الله ورسوله، هم المخالفون لأمر الله ورسوله، المشاقون لما أنزل الله على رسوله بمخالفة الأوامر والنواهي ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ المغلوبين المهانين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٣﴾ [الأنفال: ١٣].

وبعد هذا الوعيد يأتي وعد من الله تعالى لمن آمن بالله ورسوله، واتبع ما جاء به رسل الله، فصار من حزب الله، وقد وعدهم الله بالفتح والعزة في الدنيا والآخرة، والله تعالى لا يُخلف وعده.

وقد كتب الله وقدر أن تكون الغلبة والنصر لرسول الله، على أعدائهم، لاسيما خاتمهم محمد ﷺ المعني بهذه الآيات، وهذا من آثار قدرة الله تعالى التي لا يغلبها شيء ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قدر الله وحكم ودون في اللوح المحفوظ وفق سابق علمه تعالى، بأن النصر له سبحانه ولكتابه، ورسوله، وعباده المؤمنين، كما قال تعالى:

(١) ترك عد ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ المكي والمدني الأخير وعدها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿وَرُسُلِي﴾ والباقون بإسكانها.

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [٥١] . [ غافر: ٥١ ] .

وقال سبحانه: ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ ﴾ [٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا جُنَدْنَا لَهُمْ

الْمَغْلِبُونَ ﴿٧٣﴾ [ الصافات: ١٧١-١٧٣ ] .

والله تعالى لا يعجزه شيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ قوي على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه، لا يُقهر ولا يُغلب، ولا يعجزه شيء يريد.

قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخير للمؤمنين قالوا: نرجو الله أن يظهرنا على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أتظنون أن الروم وفارس، كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عددا، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ <sup>(١)</sup> .

## الإيمان ومحبة أعداء الله لا يجتمعان

٢٢- ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٢٢] ﴿

تشير الآية إلى أن من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر، محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم، ولا يكون العبد مؤمناً إلا إذا كان عاملاً بمقتضى الإيمان، والحب في الله والبغض في الله من ثمرات الإيمان ولوازمه.

ولما كان لأكثر المنافقين قرابة بأصحاب النبي ﷺ وكان نفاقهم لا يخفى، فقد حذر الله تعالى المؤمنين الخالص من مودة ومحبة من يُعادي الله ورسوله، لأن الإيمان ومحبة أعداء الله لا يجتمعان في قلب واحد، فإذا حصل في القلب محبة أعداء الله، فقد انتفى عنه الإيمان الكامل، فحُبُّ الله وحُبُّ أعدائه لا يجتمعان، كما لا تجتمع الظلمة والنور.

(١) البحر المحيط (٢٣٨/٨) والتفسير الكبير (٢٧٦/٢٩) والألوسي (٣٤/٢٨).

وقد جاء النهي عن محبة أعداء الله تعالى بطريقة الخبر، مبالغة في النهي، والآية عامة في الولاء والبراء، سواء أكانت قد نزلت في أشخاص بأعينهم أم لا، فلا يلزم أن يكون لها سبب نزول، وقد ذكر القرطبي ثمانية أقوال في سبب نزولها وذكر المفسرون بعض ذلك، ومما ورد في أسباب النزول أنها نزلت في:

١- أبي عبيدة عامر بن الجراح، فقد قتل أباه يوم بدر، بعد أن تصدّى له والده، فأخذ أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله <sup>(١)</sup>.

٢- ونزلت في أبي بكر رضي الله عنه، دعا ابنه - قبل إسلامه - إلى المبارزة يوم بدر، وطلب من النبي ﷺ أن يجعله في المقدمة، فقال ﷺ: «متغنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»؟

٣- ونزلت في مصعب بن عمير، فقد قتل أخاه: عبيد بن حمئة، يوم أحد.

٤- ونزلت في عمرو بن العاص قتل أخاه العاص بن هشام يوم بدر.

٥- ونزلت في علي وحمزة، فقد قتلَا عتبة وشيبة ابنا ربيعة يوم بدر <sup>(٢)</sup>.

٦- وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق، فقد لطم أباه حين سب النبي ﷺ ولما بلغ

ذلك النبي ﷺ قال له: «لا تعدّ» فقال أبو بكر: لو كان السيف قريباً مني لقتلته <sup>(٣)</sup>.

٧- وقيل: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبي، كان جالساً إلى جنب النبي ﷺ

فشرب الرسول ماءً، فقال عبد الله: يا رسول الله، ابق فضلة من شرابك، قال: «وما تصنع

بها؟» قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يطهر قلبه، ففعل، فأتى بها أباه، فقال: ما هذا؟

قال: فضلة من شراب، من رسول الله ﷺ جئتُك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك، فقال:

(١) الطبراني في الكبير ٣٦٠ والحاكم ٣/٢٦٤ وابن عساكر ٢٥/٤٤٦ والبيهقي في السنن (٩/٢٧).

(٢) أسباب النزول للواحد ص ٣٠١ بغير سند، والمستدرک ٣/٢٦٥ والطبراني بسند جيد كما في الإصابة ٢/٢٤٤ والسيوطي (٢٨٨).

(٣) أسباب النزول للواحد ص ٣١٠، وقال الحافظ في تخريج الكشاف (١٦٦) نقله الثعلبي عن ابن جريج.



هَلَّا جِئْتَنِي بِبُولِ أُمَّكَ! فرجع إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في قتل أبي، قال: فقال رسول الله: «ارفق به، وأحسن إليه» فنزلت الآية، قاله السدي.

٨- وقيل: إنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى أهل مكة، يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد عزم على قتلهم، قاله مقاتل، واختاره الفراء والزجاج.

٩- ومن ذلك أنه حين استشار النبي ﷺ أصحابه في أسارى بدر، فأشار أبو بكر أن يؤسروهم وتؤخذ منهم الفدية، فهُم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وأشار عمر بأن يمكن كل قريب من قريبه فيقتله.

وأياً ما كان الأمر، فقد بينت الآية أن مودة الكفار تقدر في صحة الإيمان، وأن المؤمن لا يوالي الكافر، ولو كان أباً، أو ابناً، أو أخاً، أو زوجاً، أو أحداً من عشيرته:

﴿لَا يَحِدُّ﴾ أيها الرسول ﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حق الإيمان، ويعملون بما شرعه الله لهم، ويصدقون بيوم القيامة وما فيه من بعث وحساب وجزاء، لا تجدهم ﴿يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا يحبون ويؤالون من عادى الله ورسوله، وخالف أمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ [آل عمران: ٢٨].

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأن من يجاهر بمخالفة ما شرع الله، أو يجاهر بسوء معاملة المسلمين من أجل إسلامهم، وليس لعداوة دنيوية، فعلى المسلمين أن يظهر عداوتهم لهم، إلا إذا كانوا أولي بأس شديد، فإنه يرخص له في اتقاء شرهم، وهذا معنى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ وهذه التقية لا تكون مع المسلمين، إنما تكون من ذوي البطش والنفوذ من غير المسلمين.

وقد ذكرت الآية أربعة أصناف من المحادين لله ورسوله لا تجوز موالاتهم:

أولاً: الأصول ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ أي أنه لا يجوز للأبناء المسلمين أن يؤالوا ويؤادوا آباءهم غير المسلمين وهم الذين أتوا بأبنائهم إلى الحياة وكانوا السبب المباشر

في ذلك، فإن رابطة الدين أقوى من رابطة الدم، فقد قتل أبو عبيدة أباه الكافر، واستأذن عبد الله بن عبد الله، النبي ﷺ في قتل أبيه المنافق، فنهاه النبي ﷺ، وضرب أبوبكر أباه لما سب النبي ﷺ وهذا لا ينفى حُسْنُ صُحْبَتِهِمْ في الدنيا معروفاً.

ثانياً: الفروع ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين هم قطعة منهم، وفلذات أكبادهم، لا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، كما ورد أن أبابكر طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن، يوم بدر، وكان ذلك قبل إسلامه، فقد أسلم أيام الهدنة.

ثالثاً: الحواشي ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ وهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم، فلا تجوز مودتهم لعدم إسلامهم، كما ورد أن مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير، وقيل: إنه مَرَّ بأخيه يأسره رجل من المسلمين، فقال له: شُدُّوا وثاقه.

رابعاً: العائلة ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وهم الذين ينتسبون إليهم، وتربطهم بهم رابطة الدم، ومع ذلك فلا تجوز موالاتهم إذا كانوا غير مسلمين، فإن حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة، يوم بدر.

وقدم الله سبحانه الآباء في الآية: لأنهم أول من تجب طاعتهم، وثنى بالأبناء: لأنهم ألصق الناس بهم، وثلث بالإخوان: لأنهم الناصرون المؤازرون لهم، وختم بالعشيرة: لأن الانتماء يكون إليهم، والاعتزاز يكون بهم.

ثم أثنى سبحانه على الذين يوالون في الله ويعادون في الله فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، هم المؤمنون حقاً، المستحقون لجنة الله ورضوانه، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم ذكر الله تعالى لهؤلاء المخلصين في إيمانهم خمس مزايا:

أولاً: أن الله تعالى ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: رَسَمَهُ وَثَبَتَهُ وَغَرَسَهُ وَقَوَّاهُ، فهو

إيمان لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك فاختلط الإيمان بهم، وأصبحت قلوبهم تحب من أحبه الله، وتبغض من أبغضه الله، فالإيمان ثابت في قلوبهم متمكن منها.

ثانياً: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي قواهم بوحيه ومعونته ومدده الإلهي، وأمدهم بنصر من عنده، وأيدهم على عدوهم في الدنيا، ويسمى النصر على العدو رُوحاً، لأن الأمة تحيا به، فهو بمعنى عناية الله ولطفه، والله تعالى ثبتهم وقواهم بنورٍ من عنده، فصاروا أشداء على الكفار رحماء بينهم.

ثالثاً: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي إنهم يهنئون بالحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم يهنئون فيها بحدائق وبيساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿الَّتِي هُنَّ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلوداً أبدياً، ماكثين فيها زمناً ممتداً لا ينقطع، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس من كل ما لذ وطاب، وفوق ذلك فإنهم ينعمون برضوان الله تعالى فلا يسخط عليهم أبداً.

رابعاً: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي أحل الله عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، لأنه سبحانه قبل أعمالهم وأثابهم عليها.

خامساً: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي أنهم رضوا بما أعطاهم الله من أجر ومثوبة وكرامة، ورفع درجات.

وذكر سبحانه رضوان الله عليهم بعد دخولهم الجنة، لأن رضوان الله تعالى أكبر النعم. قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثم أشار سبحانه إلى الذين أعطاهم الله هذا النعيم المقيم، والفوز العظيم، فقال: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ الذين يشرف المرء بالانتساب إليهم، فهم أولياء الله ومُحِبُّوهُ، وهم جماعة الله وخاصته. وحزب المرء: أنصاره وجنده ومن يواليه ﴿أَلَا﴾ فانتبهوا يا قوم ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، وشتان ما بين حزب الله وحزب الشيطان! فالأول له الفلاح والنجاح، والآخر له الخسران والوبال.

جاء في الحديث «إن الله يحب الأخفياء - أي الخامل ذكرهم - الأتقياء، الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يُدعوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة» فهؤلاء أولياء الله، الذين قال فيهم ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وجاء في الأثر (اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة)<sup>(٢)</sup>.  
وذلك لأن الإحسان يستعبد القلب، ويكسر العين، وربما يؤدي العطاء والإحسان إلى موالة غير المسلمين.

ومن يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو محب لأعداء الله يواليهم ويترك المسلمين، فإن إيمانه مزعوم لا حقيقة له، لأن لكل أمر برهان يصدقه ومجرد الدعوى لا تكفي، محبة المؤمنين وبغض غيرهم من ثمرات الإيمان الخالص، ومن علامات الفلاح في الدنيا والآخرة.

### تم تفسير (سورة المجادلة) والله الحمد والمنة

(١) الحاكم (٣٢٨/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسنن ابن ماجه ٣٩٨٩ من طريق ابن لهيعة، وقد توبع، وانظر حديث سعد بن أبي وقاص في مسند أحمد (١٥٢٩)، وفيه: «إن الله يحب الغنى الخفي النقي».

(٢) أخرجه ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل، كما في تخريج أحاديث الكشاف (٤٣٢/٣) وبنحوه أخرجه الديلمي (٢٠١١) من طريق الحسن عن معاذ عن النبي ﷺ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ (٥٩)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحشر)، هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، والثامنة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النصر، في السنة الرابعة من الهجرة، وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من القرية التي كانوا يسكنون فيها، واسمها (الزَّهْرَةَ) في ضواحي المدينة، وكان اليهود قد ذهبوا إلى المدينة، قرب هجرة النبي ﷺ إليها، انتظارا لقدمه، كما كانوا يقرؤون في التوراة، فلما جاءهم محمد ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وتسمى (سورة الحشر)، لوقوع لفظ الحشر في أولها، ويسمى ابن عباس: سورة بني النضير، لأن قصتهم ذُكرت فيها.

فعن سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: (سورة الحشر، قال: قل: بني النضير) <sup>(١)</sup>.

وفي البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير) <sup>(٢)</sup>. وقد أراد ابن عباس أن يكون للسورة اسمين.

وسماها النبي ﷺ سورة الحشر كما في حديث معقل بن يسار ﷺ عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٢٩، ٤٨٨٣).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٣٠٣١).

الشیطان الرجیم، وقرأ ثلاث آیات من آخر سورة الحشر وكُلَّ اللهُ به سبعین ألف ملك یصلُّون علیه حین یمسی، وإن مات فی ذلك الیوم مات شهیداً، ومن قالها حین یمسی كان بتلك المنزلة»<sup>(١)</sup>.

وهی سورة مدنیة باتفاق، وعدد آیاتها أربع وعشرون آیه باتفاق علماء عدَّ الآی. وعدد كلماتها: أربع مئة وخمس وأربعون كلمة، وهی ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

### أغراض السورة:

بدأت السورة بتمجید الله تعالی وتنزیهه، فالكون كله یشهد بوحدانية الله تعالی وعظیم قدرته، والمحور الرئیس الذي تدور علیه السورة: هو قصة یهود بنی النضیر، الذین أجلاهم النبی ﷺ عن المدینة، فأخرجهم من حصونهم وقلاعهم المنیعة، بعد أن نقضوا عهد النبی ﷺ وكانوا یرون أنه لا تُردُّ له رایة، فلما كانت محنة یوم أحد ارتابوا فی شأنه، وتحالفوا مع قریش وغَدروا، فلما رجع النبی ﷺ من غزوة أُحد تبین له معتقد بنی النضیر وغَدَرهم وموالاتهم للكفار، فحاصرهم وعاهدهم علی أن یُجلبهم عن أرضهم فارتحلوا إلى خیبر والشام وغیرهما.

وتَبَّع ذلك موضوع الفیء والغنیمة وما یتعلق بهما من شروط وأحكام، ومن ذلك أن الفیء - وهو الذي حصل للمؤمنین بدون حرب ولا قتال - یختص بالفقراء دون غیرهم. وفی أعقاب ذلك نوهت السورة بفضل المهاجرین والأنصار والذین اتبعوهم بإحسان. وفی مقابل ذلك تحدثت السورة عن المنافقین الذین تحالفوا مع الیهود ضد الإسلام، فبینت جُنن الیهود، وضربت للمنافقین أسوأ الأمثال، حیث مثلتهم بالشیطان الذي یُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم یتبرأ منه.

ووجهت السورة نداء إلى المؤمنین تأمرهم فیہ بتقوی الله تعالی، وترهبهم من الیوم

(١) المسند (٢٦/٥) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعیف؛ لضعف خالد بن طهمان، ضعفه ابن معین، وانظر آخر السورة وأخرجه الترمذی برقم (٢٩٢٢) قال أبو عیسی: هذا حدیث حسن غریب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا مال ولا بنون، وتبين أن مصير السعداء والأشقياء لا يستويان، وأن الفارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار، وتنهاهم عن التشبه بالفاسقين الذين خرجوا عن طاعة ربهم فكان عاقبة أمرهم خُسرًا.

وختمت السورة بذكر نحو عشرين اسماً من أسماء الله الحسنی، وصفاته العليا، وفيها تنزيه الله تعالى عن كل نقص، حتى يتناسق بدء السورة مع ختامها.

هذا: وقد تحدثت الآيات الخمس الأولى من السورة عن قصة إجلاء بني النضير.

وتحدثت الآية السادسة والسابعة عن حكم الفيء وكيفية توزيعه.

وتحدثت الآية الثامنة عن المهاجرين، والآية التي بعدها تحدثت عن الأنصار، أما

الآية العاشرة فتحدثت عن التابعين ومن بعدهم من أهل الإيمان.

والسبع آيات التي تتوسط السورة من الآية ١١-١٧ تناولت الحديث عن المنافقين

الذين لا يرؤن حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود، ويقاسموهم حياة خسنة أو ناعمة ويُطَبِّعون علاقاتهم بهم.

وُثِرَ السورة، طبيعة اليهود التي لا تختلف في الحاضر والمستقبل عن الماضي،

فهم ناقضون للعهد دائماً ﴿أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠] يُعَرِّزُونَ بمن تحالف معهم ويَحْدُلُونَهُ، وشأنهم شأن غيرهم من الكفار، والنار عاقبة كل منهم.

ويأتي التعقيب في آخر السورة على أحداث اليهود ومن سار في ركابهم، بتوجيه

الخطاب للمؤمنين أن يتقوا الله تعالى ويعملوا ليوم الحساب والجزاء، ولا يكونوا كغيرهم ممن نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، لأن أهل النار وأهل الجنة لا يستويان.

وتشير الآية الحادية والعشرون إلى أن لهذا القرآن أثر كبير في النفوس، فهو يهزُّ

القلب هزاً، ويحرك الضمير والوجدان، ولو نزل على الصخرة الجامدة لتأثرت به وخشعت له.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة عود على ما بدأت به السورة من تسييح الله تعالى في

ظلال نخبة من أسماء الله الحسنی وصفاته العليا.

## قصة بني النضير:

بنو النضير: هم جماعة من اليهود، من ذرية الكاهن بن هارون، هم وبنو قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان<sup>(١)</sup>.

والكاهن هو الذي يحفظ الديانة بيده ويد ذريته، وكان هارون عليه السلام يحفظ الملة الإسرائيلية، وكان هؤلاء اليهود قد نزلوا المدينة على إثر فتن في بني إسرائيل، انتظاراً منهم لمقدم محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>.

## سبب تواجد اليهود في المدينة:

وذلك أن موسى عليه السلام كان قد أرسل طائفة من بني إسرائيل لقتال العماليق فتقاعسوا، فلما مات موسى عليه السلام رجعوا إلى أريحا وما حولها، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، ولما كانوا يعلمون بظهور نبي جديد كما في كتبهم، خرجوا إلى موطن هجرته ﷺ ليقيموا فيها حتى يظهر النبي الخاتم، فيكونوا أول من يؤمن به، فلما ظهر النبي ﷺ كانوا أول من كفر به، فلعنة الله على الكافرين، وكانوا قد نزلوا في قرية يقال لها: الزهرة، قرب المدينة في شمال قباء، وصار لهم فيها نخل وأموال كثيرة، وكان لهم فيها ستة حصون.

ولما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي بن سلول وغيره يهددونهم بسبب إيوائهم للنبي ﷺ وأصحابه، ويتوعدونهم بالحرب، هم والمسلمون معهم، فنصحهم النبي ﷺ بأن قريشا تريد أن تجعل بأسهم بينهم، فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون، قال بنو النضير: إنه النبي الأمي الذي نجد نعتة في التوراة، وكان النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، كتب بينه وبينهم صلحا على أن يكونوا محايدين، ليسوا معه ولا عليه.

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) تفسير فتح القدير (١٩٢/٥).



## جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف:

فلما وقعت غزوة أُحُد، ارتاب اليهود في شأن النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وأظهروا العداوة للنبي ﷺ فخرج كعب بن الأشرف، ومعه أربعون رجلاً إلى مكة، وحالفوا قريشاً عند الكعبة، ورجع كعب إلى المدينة، ونزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة غيلة في حصنه، وكان أخاً له من الرضاع.

## تأمر اليهود على قتل النبي ﷺ:

وكان النبي ﷺ قد اطلع على خيانة منهم حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري بعد انصرافه من غزوة بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة، ونجا عمرو من القتل، وأسرهُ المشركون، فأطلقه عامر بن الطفيل، ولمَّا كان في طريقه إلى المدينة، قتل عمرو رجلاً من بني عامر، يظن أنه يثار بهما، وكان لبني عامر عقد أمان، مع النبي ﷺ فلما قدم عمرو، وأخبر النبي ﷺ بذلك، قال له: لقد قتلت قتيلين، وسوف أدفع ديتهما، فخرج إلى بني النضير يطلب منهما المشاركة في دفع دية الرجلين بمقتضى ما بينهما من اتفاق، فتأمروا على الغدر بالنبي ﷺ وهو عندهم.

١ - وقال: عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت الذي يجلس تحته، فأطرح عليه صخرة، فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ بما أراد القوم، فنهض من مجلسه متوجهاً إلى المدينة، وكان سلام بن مشكم قد قال لهم: لا تفعلوا فوالله ليُخبرنَّ بما همتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

٢ - ومرة أخرى بيثوا نية الغدر بالنبي ﷺ حيث طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ثم رأوا أن هذا العدد كثير، فطلبوا تعديله إلى ثلاث، قالوا: ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، ففعل، واشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، يطلب منهم الخروج، وأمهلهم عشرًا.

## حصار بني النضير وخروجهم من المدينة:

وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون معه، وأمرهم أن يخرجوا من قريتهم، ولا يساكنوه فيها، وقال لهم: قد أمهلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه، وأخذوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي يقول لهم لا تخرجوا وسوف أمدكم بألفين، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصرمك قريظة وحلفاءكم من غطفان، فاشتد ساعدكم، وقال رئيسهم حُيي بن أخطب: إنا لن نخرج، واصنع ما بدا لك، فحاصرهم النبي ﷺ يحمل اللواء علي بن أبي طالب، ولم ينصرهم أحد ممن وعدوهم أن يكونوا معهم، فلما رأوا ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح، فأبى إلا الجلاء عن ديارهم، فأخذوا يُخربون بيوتهم بأيديهم، ويحملوا معهم ما ينتفعون به من الأبواب والأخشاب، فحمل كل ثلاثة آليات، حمل بعير، وخرجوا، فمنهم من لحق بخيبر، ومنهم من لحق بأريحا وأذرعات، وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

ولم ينسلم من بني النضير إلا أهل بيتين هما: آل أبي الحقيق، وآل حُيي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

وأسلم من بني النضير رجلان هما: يامن بن عُمير، وأبوسعد بن وهب، وترك بنوا النضير خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفاً، وقد قسمها النبي ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، لأنهم هم الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وأصبحوا بحاجة إلى المعونة، ولم يعط من الأنصار إلا ثلاثة أظهروا حاجتهم وهم: سهل بن حنيف، وأبو دجانة، والحارث بن الصمة، أما النخيل فقد خص الله به رسوله <sup>(١)</sup>.

(١) ينظر في هذا: أبو داود برقم (٣٠٠٤)، وفتح الباري (٢٥٥/٧) عن ابن مردويه بإسناد صحيح عن الزهري، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني (٩٥/٢)، وطبقات ابن سعد (٥٧/٢)، وابن هشام (١٩٠/٢)، وتفسير الطبري (٢١/٢٨)، والبداية لابن كثير (٧٥/٤).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: كانت بني النضير بعد بدر بستة أشهر<sup>(١)</sup>. هذا: ولم يُحمَس النبي ﷺ أموال بني النضير، بل جعلها خالصة له يُنفقها في مصالح المسلمين، لأن الله تعالى قد أفاء عليه بها، ولم يوجف المسلمون عليها من خيل ولا ركاب، وكان النبي ﷺ قد استولى على أرضهم وديارهم، وأخرجهم من حصونهم صاغرين مُهانين. وهكذا كان اليهود أذلاءً في مقابلة المسلمين لا شوكة لهم ولا قوة، ولا عزة لهم ولا منعة، فما بالهم اليوم يشمخون بأنوفهم ويشترطون على المسلمين أصحاب الأرض في فلسطين ما يشاؤون، ولا يريدون أن تقوم لهم قائمة، ولا أن يعود اللاجؤون إلى ديارهم، ولا يكون لهم كيان ولا قوة، إنه لمن عجائب الزمن أن يُصبح العدو المحتل هو سيد الموقف الذي يُملئ شروطه. وأن يكون صاحب الأرض تحت رحمة المغتصب<sup>(٢)</sup>!!

\* \* \*

(١) البخاري مع الفتح (٣٢٩/٧).

(٢) في ٢١ / ٦ / ١٤٣٠ هـ أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وأنه لا عودة لللاجئين الفلسطينيين، وأن على أهل فلسطين أن يعترفوا بالدولة اليهودية العبرية، وأنه يوافق على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح على ساحة الأرض التي يريدونها بعد الاعتراف بهم! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وغيّر ما بنا، وهيء لنا أسباب النصر.

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

### التَّمْهِيدُ لِإِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

بدأت سورة الحشر بالإخبار عن تسبيح هذا الكون شكرا لله تعالى على ما أفاء به من فتح بلاد بني النضير، لأن خُلِّقَ الأرض من الطغاة وتطهيرها منهم، نعمة جليلة، جدية بحمد الله تعالى وتمجيده.

وحرية الإنسان في أرضه، واستمتاعه بحقوقه خير عظيم، يستحق الثناء على الله تعالى، فما أجمل أن يُصبح المرء آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، لا يتسلط عليه ظالم، ولا يسلب أرضه محتل.

إن تسبيح الله تعالى هنا قبل حكاية طرد اليهود من ديارهم، يشبه تحميده سبحانه في سورة الأنعام بعد استئصال الظلمة وقطع دابرهم ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وتسبيح العالم العلوي والعالم السفلي، جاء كله في القرآن الكريم بلفظ (ما) دون (من) إلا في موضعين هما قوله تعالى: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وفي سورة النور: ٤١ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبُحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدَمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبُحُهُ﴾ وهو يدل على أن هذا التسبيح يشمل العقلاء وغير العقلاء، فقد أثبتت الآية تسبيح السموات والأرض بذاتهما، وهن من غير العقلاء، وهذا يشمل: الأفلاك والكواكب، والبروج، والجبال والوديان، والوهاد، والبحار، والفجاج.

ثم عطف - سبحانه - على غير العقلاء بلفظ ﴿مِنْ﴾ ليشمل جميع العقلاء، فضلا عن أن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ تشمل جميع الكائنات، فلا تبقى ذرة في فلاة إلا شملتها.

وبهذا فإن التسييح يشمل كل من في الكون، عاقل وغير عاقل، فيشمل الملائكة، والإنس، والجن، والطير، والحيوان، والنبات، والشجر، والحجر، والمدر، وكل مخلوق لله تعالى.

قال ابن عاشور: في عدم ذكر لفظ (ما) في أول سورة الحديد بالنسبة لتسييح أهل الأرض ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنها تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراذه بخلق السموات والأرض، فكان دليل ذلك مجموع ما احتوت عليه السموات والأرض من أصناف الموجودات.

وأما أول سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية هي خذلان بني النضير، فناسب ذلك تخصيص أهل الأرض بزيادة (ما) <sup>(١)</sup>.

### جميع الكائنات تسبح بحمد الله:

١- وقد جاء تسييح الله تعالى نفسه - ليعلمنا كيف نسبحه -:

فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُنسِئُكَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم].

وأمرنا بتسييحه فقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [٤٨] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ [الطور].

٢- والملائكة تسبح بحمد الله تعالى:

قال جل شأنه: ﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال سبحانه على لسان الملائكة: ﴿وَمَنْ يُسَبِّحْ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ﴾

[فصلت: ٣٨]، وقال أيضاً: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٣- والرعد يسبح بحمد الله ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

(١) تفسير التحرير والتنوير (٦٥/٢٧).

- ٤- والجبال تسبح بحمد الله ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ ص: ١٨ ] .
- ٥- والطيور تسبح بحمد الله ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ [ الأنبياء: ٧٩ ] .
- ٦- والإنسان يسبح بحمد الله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [ الحجر ] .
- ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ ٣٩ ] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿ ٤٠ ﴾ [ ق ] .
- ٧- والسموات والأرض ومن فيهما يسبحن بحمد الله ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [ الإسراء: ٤٤ ] .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدْعِلْمٍ صَلَاتَهُ، وَسَبِّحُهُ ﴾ [ النور: ٤١ ] .
- والكون كله يسجد لله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
- وهذا للعقلاء: الملائكة، والإنس، والجن.
- ثم ذكر غير العقلاء بأسمائها فقال: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُّ ﴾ .
- ولأن من الناس مؤمن وكافر، قال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [ الحج: ١٨ ] .

### للجمادات والحيوانات نُطق وفهْم وإدراك:

- والتسبيح والسجود محمولان على الحقيقة، فقد أخبر تعالى أن لجميع الكائنات إدراك كإدراك الإنسان:
- ١ - وذلك حين تخلت السموات والأرض والجبال عن حمل الأمانة، وحملها الإنسان.
- ٢ - وحين قال تعالى للسموات والأرض ﴿ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [ فصلت: ١١ ] .
- ٣ - وأثبت سبحانه أن الجبال تتصدع من خشية الله، ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [ الحشر: ٢١ ] .
- وأن الحجارة تهبط من خشية الله ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَنْ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [ البقرة: ٧٤ ] .
- وفي الحديث أن الحجر ينطق ويتكلم وكذا الشجر: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ

اليهودي من وراء الحجر والشجرة، فيقول الحجر أو الشجرة: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»<sup>(١)</sup>.

٤ - وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقد ارتجف جبل أحد لصعود النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان عليه، فقال صلى الله عليه وسلم من حديث أنس رضي الله عنه: «أثبت أحد وإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»<sup>(٣)</sup>.

والإخبار باستشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.

٦ - وقد صح في الحديث أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، فاهتزاز العرش على عظمته دليل فهم وإدراك.

٧ - وقال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطُّ بِمَا لَمْ مُحِطْ بِهِ، وَحِثَّتْكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي يَاقِينَ﴾ [النمل: ٢٢].

٨ - وقالت النملة: ﴿يَأْتِيهَا التَّمَلُّ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهَرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

٩ - وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: «بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضر بها فقالت: إنا لم نُخلق لهذا، وإنما خُلِقْنَا للحرث» فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر، وما هما ثمَّ»<sup>(٤)</sup> أي أن أبابكر وعمر لم يكونا في القوم وقتئذ.

١٠ - ولما أخذ الذئب شاة من غنم الراعي واستنقذها - أي أن الراعي استخلص

(١) المسند بإسناد صحيح (٩٣٩٨)، وانظر: (٧٣٠٥ و ١٠٥٨٦).

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨).

(٣) من حديث أنس في البخاري برقم (٣٦٧٥، ٣٦٨٦، ٣٦٩٧).

(٤) ينظر الحديث في البخاري عن أبي هريرة (٢٣٢٤) بنحوه و(٣٤٧١) وهذا لفظه (٣٦٦٣)، ومسلم

(٢٣٨٨)، والترمذي (٣٦٧٧، ٣٦٩٥)، والمسند (٧٣٥١)، وابن حبان (٦٤٨٥)، والنسائي في الكبرى

(٨٠٥٧-٨٠٦٠).

الشاة من الذئب واستردّها منه - قال له الذئب، فَمَنْ لها، يومَ السَّبْعِ يوم لا راعي لها غيري، فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ فقال ﷺ: «إني أؤمن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثم»<sup>(١)</sup>.

واشتكى جمل إلى النبي ﷺ أن صاحبه يؤذيه ويضربه.

وعلى كل فالآية تذكير للمسلمين أن يشكروا نعمة الله تعالى عليهم، ويشكروه على نصرهم على عدوهم، وفيها تمهيد لموضوع السورة، وهو إخراج بني النضير وقسمة أموالهم. والله تعالى هو العزيز الذي قهر كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، وهو الحكيم في خلقه وأمره، فلا يَخْلُقُ شيئاً عبثاً، ولا يشرع إلا ما فيه مصلحة لعباده، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك إخراج بني النضير إلى خير وغيرها.

## إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَسَبَبُهُ

٢- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ<sup>(٣)</sup> بُيُوتَهُمْ<sup>(٤)</sup> بِأَيْدِيهِمْ<sup>(٥)</sup> وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾

لإخراج يهود بني النضير من ضواحي المدينة المنورة قصة:

(١) ونص الحديث في البخاري تنمة الحديث السابق برقم (٣٤٧١، ٣٦٦٣، ٣٦٩٠)، ومسلم (٢٣٨٨)،

وحديث البقرة والذئب حديث واحد في الصحيحين.

(٢) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم العين من ﴿الرَّعْبَ﴾ والباقون بإسكانها، وكسر الهاء والميم وصلا من ﴿قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾ أبو عمرو ويعقوب، وضم الهاء والميم حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقيون.

(٣) قرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء من ﴿يُخْرِبُونَ﴾ مضارع خَرَبَ، والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء مضارع أخرب.

(٤) كسر الباء من ﴿بُيُوتَهُمْ﴾ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وضمها الباقيون.

(٥) ضم الهاء من ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعقوب وكسرها غيره.



وذلك أن كفار قريش في مكة أرسلوا إلى اليهود في المدينة بعد غزوة بدر، يحرضونهم على قتال النبي ﷺ فعزمت بنو النضير على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه يقولون: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج معنا ثلاثون خبيراً، حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك، ليسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، صدقناك وآمنا بك، فلما خرج إليهم قالوا فيما بينهم: كيف تصلون إليه ومعه ثلاثين رجلاً، ثم قالوا: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، فخرج إليه ثلاثة من اليهود مشتملين على الخناجر يريدون الفتك برسول الله ﷺ وكان لامرأة منهم أخ مسلم، فأخبرته بما عزم عليه بنو النضير، فأقبل مسرعاً على رسول الله ﷺ وأخبره، فخرج إليهم النبي ﷺ وحاصره حتى صالحوه على الجلاء، وحمل ما أقلت الإبل إلا السلاح وأنزل الله الآيات<sup>(١)</sup>.

ومن جهة أخرى فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة صالح اليهود على أن لا يكونوا معه ولا عليه، فلما انتصر يوم بدر، قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة، فلما هُزم يوم أحد شكوا في نبوته، فنكثوا عهدهم، فخرج كعب بن الأشرف إلى أهل مكة في أربعين راكبا، وحالفوا أبا سفيان فأمر النبي ﷺ (محمد بن مسلمة) أبا كعب بن الأشرف من الرضاعة، فقتله غيلة، ثم صبّحهم بالكتائب وحاصره، حتى صالحوه على الجلاء، فجلّى أكثرهم إلى أرض الشام، وطائفة منهم إلى خيبر<sup>(٢)</sup>.

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصره رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل، من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله أول سورة الحشر، فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبّط لم يُصنّبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا

(١) انظر هذا المعنى في سنن أبي داود (٣٠٠٤)، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٤٣)، والسيوطي (٢٩٠)، وعبد الرزاق وغيرهم.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي (٤٦٩/٣).

ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي.

وأما قوله: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حشرٍ في الدنيا إلى الشام<sup>(١)</sup>.  
ونمضي مع الآيات: وذلك أن الله سبحانه هو الذي طهر المدينة من يهود بني النضير، الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يؤمنوا به، وقد سماهم القرآن كفارا، لأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وقد أسند الله تعالى إخراج اليهود إلى نفسه، مع أن المسلمين محاصرين لهم، لأن إخراجهم كان بوعد سابق من الله تعالى، وكفى الله ورسوله مؤونة القتال، فقد فاجأهم بأس الله وعذابه، من حيث لم يكن في حسابهم ولم يخطر لهم على بال، وكان هذا أمر مقدر عند الله تعالى.

قال تعالى في الوعد السابق: ﴿فَإِن آءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا آءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

### معنى لأول الحشر:

لقد أخرجهم الله ﷻ من ديارهم ﷻ أي من مساكنهم التي جاوروا فيها المسلمين حول المدينة، حيث قدموا إليها ينتظرون ما بَشَّرَتْ به توراتهم، من ظهور النبي الخاتم في المدينة، وكان هذا الإخراج ﷻ ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ أي إلى أول الأرض التي حُشِرُوا إليها بالشام، وخيبر، وأذرعات، وأريحا، وكان هذا أول إخراج لليهود من جزيرة العرب.  
وقد تعاقب حشرهم بعد هذا، حتى اكتمل إخراج جميع اليهود من الجزيرة في خلافة عمر ﷻ تنفيذاً لوصية النبي ﷺ «لا يبقى دينان في جزيرة العرب» كما في صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷻ قال: أخبرني عمر بن الخطاب ﷻ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»<sup>(٢)</sup>.

(١) صححه الحاكم في المستدرک (٤٨٣/٢) ووافقه الذهبي، وهو على شرط الشيخين والبيهقي (١٧٨/٣).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦٧)، وأبوداود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٦)، والمسند (٢٠١) قال محققوه:

إسناده صحيح على شرط مسلم، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٥٦)، والنسائي في الكبرى

(٨٦٣٣)، ومصنف عبدالرزاق (٩٩٨٥)، والبغوي (٢٧٥٦)، والبخاري (٢٣٠).

قال مُرَّة الهمداني: كان أول الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب، إلى أذرعات وأريحاء من الشام في أيام عمر.

وقال الكلبي: إنما قال: لأول الحشر، لأنهم كانوا أول من أُجلى من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أُجلى آخرهم عمر بن الخطاب (١).

وقيل: إن أول الحشر: إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر: إخراجهم من خيبر إلى الشام، أو أن آخر الحشر هو حشر الناس جميعاً إلى أرض المحشر. وقد تم جلاء اليهود من فلسطين بعد ذلك مرتين: مرة في زمن (بختنصر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم.

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ص) قال لبني النضير: «اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر» (٢).

وقد كانوا أهل حصون ومنعة ونخيل وأموال وعقار وعز، فكان إخراجهم من حصونهم أمر بعيد المنال، ولذا قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ﴾ (٣) «أَنْ يُخْرَجُوا» أي من ديارهم وأموالهم بهذا الذل والهوان، لشدة بأسهم وقوة منعتهم، وحصانة ديارهم، مع أنهم أهل عدد وعتاد، ولهم حلفاء من المنافقين الذين قالوا لهم سرّاً ﴿لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ﴾ وحلفاء من غطفان، ومن بني عمومتهم، وهم بنو قريظة. هذا من جانبكم أيها المسلمون.

أما من جانب اليهود فقد قال تعالى عنهم ﴿وَوَدَّوْا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾. لقد ظن اليهود أن حصونهم المنيعة تدفع عنهم بأس الله تعالى، ولا يقدر عليهم أحد، فأعجبوا بها، وغرّتهم، وحسبوا أنه لا يقدر عليهم أحد، ولا ينال منهم شيء. وكان اليهود يتخذون حصوناً يأوون إليها عندما يغزوهم العدو، وكان لبني النضير

(١) من تفسير البغوي والشوكاني وغيرهما للآية.

(٢) حديث مرسل عن الحسن عن ابن عباس في تفسير الطبري (٢٠/٢٨). وطبقات ابن سعد (٤٢/٢).

سته حصون هي: الكتيبة، والوطيح، والشلايم، والنطأة، والوخذة، وشق<sup>(١)</sup>.

وكانوا يظنون أن الأمر لن يصل إلى إجلائهم، لأنهم كانوا في أنفسهم أعز وأقوى. فكانت النتيجة أن الله تعالى خذل بني النضير من حيث لم يخطر لهم على بال، وجاءهم عذاب الله وعقابه من حيث لم يتوقعوا، وأوقع الله في قلوبهم القتل والتشريد، وملأها بالجزع والفرع، فاستسلموا لحكم الرسول فيهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو شدة الخوف والفرع، فلم تغن عنهم حصونهم ولا قلاعهم، ولم ينفعهم قوة ولا دفاع. والرعب سلاح من أسلحة نضر النبي ﷺ على العدو كما في قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»<sup>(٢)</sup> وذلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه.

وكان الرعب من أسلحة النصر في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والرعب جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة ولا شدة. وقد ألقى الله الرعب في قلوب اليهود فأصابهم الخور والضعف، وأزال قوتهم وشدتهم، ونصر المسلمين عليهم، وبمفهوم المخالفة فإن الله تعالى يلقي بالطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين كما قال تعالى: ﴿فَتَيَسَّرَ لِقَائِهِمْ أَمْسُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. ثم وصف الله حال بني النضير عند الجلاء فقال ﴿يُخْرِجُونَ يَدِيَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا قد صالحوا النبي على أن لهم ما حملت الإبل، أي أنه لما أيقن اليهود بالجلاء، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فأخذوا يهدمون بيوتهم من الداخل بأيديهم، ومن الخارج بأيدي المؤمنين.

قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما حملت الإبل، فكانوا ينظرون إلى أحسن الخشب فينزعونه ويأخذوه، ويخرب المؤمنون البقية، وكانوا يقلعون

(١) التحرير والتنوير (٦٩/١٣)، وقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس كما في الدر (٣٥٦/١٤).

(٢) من حديث ابن عباس في المسند (٢٧٤٢)، والطبراني (١١٠٤٧) بإسناد حسن وعن جابر في المسند (١٤٢٦٤)، وأبي ذر (٢١٤٣٥، ٢٢٥٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٠٢/٢)،

وله شاهد في البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

العُمد، وينقُضون السُّقُف، وينقبون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون<sup>(١)</sup>.  
قلت: وهكذا فعل اليهود عندما خرجوا من سيناء بعد حرب العاشر من رمضان، فأزالوا منها معالم الحياة، من ماء وكهرباء وأشجار وبناء ومرافق عامة، وتركوها صحراء قاحلة، ويا ليت المستردين لها قد عمروها وخضروا أرضها، كما فعل عدوهم بها من قبل!! فتأملوا - أيها المؤمنون - ما نزل ببني النضير، وانظروا أسباب ما حل بهم حتى تنتفعوا من التاريخ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ اتعظوا يا أصحاب البصائر السليمة، والعقول الراجحة، بما جرى لهم، حيث دبر الله أمر إخراجهم من ديارهم تدبيراً حكيماً، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر الطرق، وجعل ديارهم من بعدهم عبرة وعظة.  
لقد كان من الممكن أن يبقى بنو النضير في مساكنهم لو لم يتآمروا مرتين على اغتيال النبي ﷺ وهو بينهم آمن مسترسل، فكان من نتائج ذلك أن أُخرجوا في أول حشرٍ لهم.

### الكيان الصهيوني:

إن اليهود - في غفلة من المسلمين - أقاموا لأنفسهم دولة مدججة بالسلاح والعتاد، ونحن نتنظر حشراً آخر في الغد القريب يأتي عليهم إن شاء الله تعالى، ولكي يتحقق ذلك لابد للمسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية، وفي مقدمة ذلك أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ويصطلحوا مع ربهم، وعندئذ يورثهم الله ديار بني إسرائيل، ويرجع اليهود شتاتاً في العالم كالبدو الرحل، بلا وطن ولا مأوى، كما هو مكتوب عليهم في التوراة والقرآن، عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

(١) تفسير الخازن (٤/٤٤٥) وينحوه قال ابن زيد في تفسير البغوي للآية.

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مِنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقد أرخ يوسف عليه السلام لإخوته وبين أنهم قوم رُحِّل كالبدو، حين قال كما حكاه عنه رب العالمين ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ فِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣- ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ<sup>(١)</sup> الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾

أي: ولولا أن الله تعالى قضى وقدر على بني النضير الخروج من ديارهم عقاباً لهم على كفرهم وتكذيبهم بالنبي ﷺ، ولولا أن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب حتى استسلموا، لعاقبهم الله في الدنيا بالجوع والعطش وهم في الحصار، وفتحت ديارهم غنوة، فعذبوا بالقتل والأسر والجرح والإهانة، كما فعل ببني عموماتهم.

فلولا أن الله كتب على يهود بني النضير الجلاء الذي قضاه وقدره عليهم، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم إن فاتهم العذاب الدنيوي فإن لهم في الآخرة عذاب لا يعلم شدته إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ من ديارهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ ولكن الله قدر لهم الجلاء دون التعذيب والقتل، لمصلحة اقتضتها حكمته تعالى، ولعل منها أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم، دون إزهاق للأرواح، استبقاء لقوة المسلمين لما ينتظرهم من فتوح أكبر.

ثم إن ما أصابهم في الدنيا لن يعفيهم من عذاب الآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ فلا يخطر ببالهم أن عقابهم قد انتهى، فما أعدده الله لهم في الآخرة أشد وأعظم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة، ومنَّ عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني

(١) ضم الهاء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلأ ووقفاً حمزة ويعقوب وكسرها باقي القراء.

قينقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة<sup>(١)</sup>.  
قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل منهم بعيرا وسقاء<sup>(٢)</sup>.

والجلاء: مفارقة الوطن، ويأتي الجلاء والإخراج بمعنى الإبعاد من وجهين:

الأول: أن الجلاء يكون مع الأهل والولد، والإخراج يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة<sup>(٣)</sup>. قال تعالى:

٤ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

أي: والسبب فيما حدث لبني النضير أنهم خالفوا الله وعصوا أمره، وكذبوا رسوله وخانوه ونقضوا عهده ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أن ما أصاب اليهود في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة، قد حدث لهم لأنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله أشد المخالفة، وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما، ومن يخالف أمر الله ونهيه، فإن عقاب الله شديد لمن أعرض عن طاعته وذكره ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمشاقة هي المعارضة والمعاندة.

## إِنجَاءُ الْعُدُوِّ إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ حَقْنَا لِلدِّمَاءِ

٥ - ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير، شرع بعض الصحابة في قطع وحرق بعض نخيلهم، إرهاباً لقلوبهم وإهانة لهم، وحملاً لهم على الاستسلام، فقالوا: يا محمد إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله الآية<sup>(٤)</sup>.

(١) هذا المعنى في مسلم برقم (١٧٦٦)، والمسند (٧/٢)، والبخاري (٤٠٢٨).

(٢) الطبري (٥٠٥/٢٣)، والبيهقي (٣٥٩/٣)، وابن عساکر (١٧٩/١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٦/١٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٢٤٤/٨)، وابن كثير (٦٢/٨) وغيرهما.

هذا: وقد شرع - سبحانه - في بيان ما حدث في حصار بني النضير حين استسلموا وتحصنوا بحصونهم، حيث حاصرهم المسلمون، وعمد بعضهم إلى بعض نخيلهم فقطعها، قيل: نخلتان، وقيل: ستة، لتخويف بني النضير، وليوسّعوا مكاناً لمعسكرهم، وليكون فيه إذلال وخزي لهم في الدنيا، وعلامة على عجزهم التام عن إنقاذ نخلهم، وهو مادة قوتهم، فقالت اليهود: يا محمد، ألسنت تزعم أنك نبي تريد الصلاح؟ أفمن الصلاح قطع النخل، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ﴾ أي نخلة، فاللينة، اسم يشمل سائر النخيل ﴿أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا﴾ أي على ساقها من غير أن تتعرضوا لها ﴿فِي إِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أن الحرق أو القطع أو الترك بأمر الله وإرادته، وليذلل ويهين أهل الفسق والضلال، وهذا معنى: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي يذل الخارجين عن طاعة الله، وأمره ونهيه من اليهود وغيرهم، حيث سلط الله المسلمين على قطع نخيل بني النضير، وكان لهم بستان معروف يسمى (البؤيرة).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية إلى ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ يستنزّلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، فأنزل الله الآية<sup>(٢)</sup>.

والذي تم في ذلك هو قطع نخلتين اثنتين، وقيل ستة، فلا تختلفوا - أيها المؤمنون - في شأن ما قطعتموه من نخيل بني النضير، فإن من قطع شيئاً منه فلا إثم عليه، ومن لم يقطع فلا إثم عليه، فالكل بإذن الله، وفي كليهما مصلحة، لأن من فعل، فليحمل العدو

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٤).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٤)، ومسلم برقم (١٧١٦).



على الاستسلام بفعل ما يغيظه ويذله، ومن ترك فقد فعل ما يعود بالخير عليكم، لأن النخلة الباقية سيعود نفعها عليكم.

وقطع النخيل أريد به إلقاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلبه، وما بقي منه فهو آيل للمسلمين، وكان المسلمون قد اختلفوا بين القطع والترك فتساءل بعضهم: هل علينا من إثم فيما قطعنا؟ أو علينا وزر فيما تركنا؟ فنزلت الآية تُصدّق مَنْ نَهَى عن القطع، وتُحلّل من قطعهُ من الإثم.

وقد أخذ الفقهاء من ذلك جواز تحريق دار العدو وتخريبها وقطع ثمارها، وجواز هدم حصون العدو ومعسكراته وأسلحته للقضاء على قوته، لأن إتلاف بعض المال لإبقاء بعضه، مصلحة.

واللينة هي النخلة الكريمة ذات الثمر الطيب، وقيل النخلة القصيرة، أو التي لها ثمر خاص يقال له: اللون شديد الصفرة، لا تخرج منه العجوة، ولم يرد في القرآن أن المسلمين أحرقوا شجراً أو نخلاً، ولم يحدث هذا لغير بني النضير، وكانت بساتينهم بعيدة عن بيوتهم، وكانت لهم حصون، فاعتصموا فيها قبل أن يستسلموا، فحاصرهم المسلمون فيها.

والمقصود بالآية: إدخال المسرة والبهجة في قلوب المؤمنين، حتى لا يحزنوا ولا يتأثروا بما حدث بالنسبة لنخيل بني النضير، وحتى يتركوا الخلاف في هذه المسألة بعد صدور حكم الله فيها، وهو أن القطع والترك بإذن الله، ولأن كلا الأمرين يغرس الحسرة في قلوب الأعداء، وفيه عزة للمؤمنين وخزي للكافرين.

قيل: إن ما قطع من نخيل كان بأمر من النبي ﷺ وقيل: بدون أمره، ولكنه لم ينكر عليهم، ثم أمرهم بالكف عنه.

### أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ خَاصَّةٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ تَنْفَقُ بَعْدَهُ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ

٦ - ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

ولما خرج بنو النضير، طلب المسلمون من النبي ﷺ تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر، على ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] فنزل تشريع الله تعالى فيمن يستحق هذه الأموال، فجعلها خالصة لرسول الله ﷺ في حياته، وتنفق على مصالح المسلمين بعده، وذلك نظراً لأنها حصلت لرسول الله ﷺ بدون قتال ﴿وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي واعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله تعالى لرسوله ﷺ من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً، وإنما آل لكم بدون قتال ولا جهد ولا مشقة.

والفيء في اصطلاح الفقهاء، هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كأموال بني النضير الذين فرّوا من ديارهم وتركوها خوفاً من المسلمين. وسوّي فيئاً؛ لأنه رجع من الكفار إلى المسلمين، والمسلمون هم أصحاب الحق فيه، والكفار غير مستحقين له، فهو: من فاء، أي رجع. وإيجاف الخيل: هو سيرها وركضها السريع، مع الإيقاع الذي يكون منها حين تغيّر على العدو.

والركاب هي الإبل التي تُركب، فأنتم لم تلقوا حرباً ولا مشقة، وإنما فتحها الله صلحاً، وأجلاهم عنها.

ومن سنة الله تعالى أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائهم حتى لا يقاسوا شدايد الحرب وويلاته، قال تعالى: ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أن الله تعالى لم يسلطكم على أموال بني النضير، وإنما سلط عليه رسوله، فقد حصلت لكم هذه الأموال بتسليط الله رسوله ﷺ عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا حق لكم فيها، إنما هي من مال الله تعالى، يتصرف فيه رسول الله ﷺ كما أمره الله تعالى، وكذا ولاة الأمر بعده.

## تقسيم أموال بني النضير وأدلتته:

ورسول الله ﷺ لم يقسم أموال بني النضير على جميع الجيش، وإنما خص بها المهاجرين، سواء من خرج منهم لبني النضير، ومن لم يخرج، وذلك حتى يعيد التوازن في المجتمع الإسلامي بالمدينة، فإن المهاجرين هم الذين صودرت أموالهم وبيوتهم في مكة، وتحملوا هذه المحنة في ذات الله تعالى، فكان الحل الأمثل توريث المهاجرين ما ترك اليهود.

ولم يعط النبي ﷺ من الأنصار إلا ثلاثة، لشدة حاجتهم وهم: أبو دجاجة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الضمة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق<sup>(١)</sup>.

١ - قال صهيب بن سنان ؓ: لما فتح رسول الله بني النضير، أنزل الله هذه الآية، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فقسمها للمهاجرين، وأعطى رجلين من الأنصار، هما: سهل بن حنيف، وأبا لبابة بن عبد المنذر<sup>(٢)</sup>.

٢ - وقال الزهري: صالح النبي ﷺ أهل فدك - وهي بلدة في شمال المدينة - وبلاداً أخرى سماها، وهو محاصر قوماً آخرين، فأرسلوا بالصلح، فأفاءها الله عليهم من غير قتال، لم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً ... وقال: كانت أموال بني النضير للنبي ﷺ خاصة، لم يفتحوها عنوة، وإنما افتتحوها عن صلح، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة؛ أبو دجاجة، وسهل بن حنيف<sup>(٣)</sup>.

٣ - وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: كان لرسول الله ﷺ صفايا بني النضير وخبير وفدك، فأما بنوا النضير فكانت حُبساً لنوائبه، وأما فدك فكانت لابن السبيل، وأما خبير فجزأها ثلاثة أجزاء، فقسم منها جزئين بين المسلمين، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله،

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٨٠).

(٢) تاريخ البخاري (٤/٣١٥)، وسنن البيهقي (٦/٢٩٧).

(٣) هذا المعنى عند عبد الرزاق (٢/٢٨٣)، والبيهقي (٦/٢٩٦).

فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين<sup>(١)</sup>.

والصفايا: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة.

فهذه الآية خاصة بأموال بني النضير، يضعها حيث يشاء، وبهذا قال أبو بكر في

خلافته، وقال عمر في خلافته.

٤ - كما جاء في حديث مالك بن أوس المتفق على صحته من حديث الزهري،

حين جاء علي والعباس رضي الله عنهما يطلبان من عمر بن الخطاب ميراثهما من

رسول الله ﷺ فأشهدهما وأشهد جمعاً من الصحابة على أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر

الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» قالوا: نعم، ثم قال: إن الله خص رسوله ﷺ بخاصة

لم يخص أحداً من الناس، وقرأ الآية، فوالله ما أحرزها دونكم، ولا استأثر بها عليكم،

لقد أعطاكموها وبثها فيكم، حتى بقي منها هذا المال.

وكان النبي ﷺ قد قسم أموال بني النضير المنقولة على المهاجرين، وأبقى الثابت

منها كالدور والنخل والشجر لنفسه، وفق تشريع الله تعالى له في الآية التالية ﴿مَا آفَاءَ

اللَّهِ﴾ بدون واو، فكان النبي ﷺ ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته، ثم يأخذ ما

بقي، فيجعله في مال الله، ثم قال لهما عمر: فإن شئتما أعطيتكما على أن تفعلوا به ما

كان رسول الله يفعل، وإلا زدوه علي<sup>(٢)</sup>.

فكان مال بنو النضير، مال الله تعالى، وضعة في يد رسوله ﷺ ليضرفه على مستحقيه

من غير الجيش، وهذا حكم خاص به ﷺ.

٥ - وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كانت أموال بني النضير مما آفأ الله تعالى على

رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٥٧١) بإسناد حسن وفي السنن (٢٩٦٧).

(٢) ينظر الحديث في البخاري برقم (٤٨٨٥، ٣٠٩٤)، ومسلم برقم (١٧٥٧)، وأبوداود برقم (٢٩٦٣)،

والنسائي في الصغرى (٤١٤٥)، والترمذي (١٦١٠).

خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فليس لكم الحق - أيها المؤمنون - في أموال بني النضير، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق القتال، فلا تُخَمَّس كأموال الغنائم ومَصْرَفِ الْفِيءِ بعد رسول الله ﷺ، وقد قال قوم: هو للأئمة بعده، وقيل: ينفق في مصالح المسلمين، الأهم فالأهم، وأولها المقاتلون.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، ولا يغالب ولا يُمانع.

### مَصَارِفُ الْفِيءِ الْعَامِّ وَالْغَنَائِمِ

٧- ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

المراد بالفيء في هذه الآية ما غنمه المسلمون عموماً من أعدائهم بدون حرب ولا قتال في غير بني النضير، ويدخل في ذلك ما كان في وقت الرسول ﷺ، أو بعده لمن يتولى شؤون الأمة.

وذلك أنه لما كانت الآية السابقة خاصة بأموال بني النضير، ذكر سبحانه في هذه الآية، حكم الفيء في سائر القرى التي فتحت بعد بني النضير وهي: قريظة، وفدك، وقُرى: عُرَيْنَةَ، وَيُبْنَع، ووادي القرى، وخيبر، والصفراء، وغيرها، وكلها فتحت في عهد

(١) ينظر الحديث بطوله في البخاري (٤٨٨٥، ٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٥)، والترمذي (١٧١٩)، والمسند (٣٣٧، ١٧١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في الكبرى (٦٣١٠).  
(٢) قرأ أبو جعفر بالتاء في ﴿يَكُونُ﴾ ورفع ﴿دُولَةً﴾ على أن كان تامة ودولة فاعل، ولهشام ثلاثة أوجه: الأول مثل قراءة أبي جعفر، والثاني والثالث بتذكير (يكون) وعليه الرفع والنصب في (دولة)، والباقون بياء التذكير في (يكون) ونصب (دولة)، على أن كان ناقصة، واسمها ضمير الفيء، و(دولة) خبرها.

النبي ﷺ ومنها ما فُتح عنوة، ومنها ما فُتح صلحاً.

وأكثر أهل العلم على أن أموال (فدك) خاصة، حكمها حكم بني النضير، خاصة برسول الله ﷺ أما بالنسبة لسائر القرى فقد جاء حكمها في هذه الآية: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي من أموال مشركي أهل القرى، من غير ركوب خيل، ولا إبل، ولا استخدام أسلحة في قتل العدو، فإنه يقسم إلى خمسة أقسام؛ كما هو الشأن في آية سورة [الأنفال ٤١] ﴿ وَأَعْلَمُوا ﴾.

الأول: سهم الله تعالى، وسهم رسوله ﷺ في حياته، حيث كان يُنفقُ منه على نفسه وأهله، وما بقي منه ينفق في مصالح المسلمين، وبعد موت النبي ﷺ يصرف في المصالح العامة للمسلمين، فيكون حكمه حكم سهم الله تعالى، فهما سهم واحد، جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي أن هذا السهم، وهو سهم الله ورسوله، يُنفق في مصالح المسلمين العامة.

الثاني: سهم أقارب النبي ﷺ ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ من بني هاشم وبني المطلب حيث كانوا، وكل من بقي من نسلهم إلى يوم القيامة، يُسوي فيهِ بين الذكور والإناث، وإنما دخل بنو المطلب في خُمس الخُمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف في القرابة، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشَّعب، حين اتفقت قريش على حصار المسلمين، وعلى هجرتهم وعداوتهم، فنصر بنو المطلب رسول الله ﷺ مع بني هاشم، دون بني عبد مناف، ولهذا قال ﷺ في بني المطلب «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»<sup>(١)</sup>. ولأن بنو هاشم وبنو المطلب مُنعوا الصدقة، فجعل لهم حقا في الفيء.

الثالث: سهم لليتامى الفقراء، ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ وهم أطفال المسلمين الذين مات أبائهم وهم دون سن الحلم، وقد يكون اليتيم غنياً إذا كان وارثاً لأموال أبيه، فلا يكون من الفقراء فاليتيم في حد ذاته ليس مقصوداً وإنما يضم إليه الحاجة، فإن كان محتاجاً وإلا فلا.

(١) ينظر بتصرف: تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٢/٣٣٨).

الرابع: سهم للمساكين، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضرورات الحياة.

الخامس: سهم لأبناء السبيل، ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهم المسافرون الغرباء ممن نفذت أموالهم أو فقدت، وليس لهم وسيلة توصلهم إلى ديارهم ولو كانوا أغنياء في بلادهم. ويرى بعض العلماء أن هذه الآية موضحة ومفسرة للآية السابقة، ففيها تفصيل لما أجمل فيها، ولعل الرأي الأول هو الأصوب، لأنه ثبت في صحيح السنة أن النبي ﷺ لم يخمس أموال بني النضير، وأنها كانت له خاصة يوزعها كما يشاء، وقد أثر بها المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا ثلاثة، وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحُقَيْق، وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول ﷺ لأن الله تعالى جعل تلك الأموال له يتصرف فيها كما يشاء، ولم يكن بين ديار بني النضير وبين المدينة سوى ميلين في ذلك الوقت، ولم يركب إليها سوى رسول الله ﷺ فقد كان راكباً على جمل، ولم يكن للمسلمين فيها خيل ولا ركاب.

#### آيات الفيء والغنائم:

ومعلوم أن الفيء: هو ما حصل عليه المسلمون بدون حرب ولا قتال.

وأن الغنائم ما غنمه المسلمون من العدو بسبب القتال.

هذا: وفي القرآن ثلاث آيات تتعلق بتقسيم الفيء والغنائم.

وهذه الآيات الثلاث هي: آية الأنفال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آية: ٤١].

وآيتا سورة الحشر: ٧، ٦.

وقد نصت آية سورة الأنفال على أن الغنيمة ما كانت بقتال، وذكر فيها لفظ الخمس.

وأما آية الحشر الأولى فهي خاصة بأموال بني النضير وفدك، وقد نُصَّ فيها على أن

أموالهم حصلت بدون قتال.

أما الآية الثالثة وهي ما نحن بصدددها، فلم يُذكر فيها أن ما أفاء الله به على رسوله،

هل هو بقتال أم بغير قتال؟ ولم يُذكر فيها لفظ الخمس كآية سورة الأنفال، ولذلك فإن من العلماء من ألحقها بآية سورة الأنفال، ومنهم من ألحقها بالآية التي قبلها.

قلت: إن الآية الأولى في سورة الحشر، نزلت في فَيءٍ خاص برسول الله ﷺ هو فَيءُ بني النضير، لأن ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا آفَأَهُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ يعود على بني النضير فحسب، وللحِثِّيَّاتِ السابق ذكرها.

أما الآية الثانية في سورة الحشر أيضاً فهي في الفَيءِ العام، لبقية البلاد التي فُتحت في الماضي وتُفتح في المستقبل من غير قتال. وآية الأنفال تخص غنائم الحرب.

فالغنيمة ما أخذت بالقتال، والفَيء ما أخذ صلحاً، وكل منهما يقسم خمسة أخماس. ومصرف آية بني النضير خاص برسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته يُصرف في مصالح المسلمين.

ومصرف الغنائم والفَيء العام واحد، يقسم أخماساً كما سبق. علماً بأن سورة الأنفال، نزلت قبل سورة الحشر، حيث نزلت سورة الأنفال عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، أما سورة الحشر فقد نزلت في أوائل السنة الرابعة للهجرة، حيث كانت غزوة بني النضير بعد غزوة بدر بستة أشهر.

هذا: وقد كان تقسيم الفَيء العام على هذا النحو، ليشمل مختلف طبقات المجتمع، حتى لا يستأثر به الأغنياء دون الفقراء، وهذا معنى ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي حتى لا يكون المال مُلكاً متداولاً بين الأغنياء وحدهم، ويُحرم منه الفقراء والمساكين.

قال القرطبي: فعلنا ذلك كي لا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا، أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو ما يسمى - المربع - ثم يضطفي القائد منها أيضاً ما يشاء <sup>(١)</sup>.

(١) تفسير القرطبي (١٨/١٦).



والمرباع هو ربع الغنائم يعطى لقائد الجيش، وقد أبطله الإسلام. وأبطل أيضاً: الصفايا، وهو أخذ القائد أو من يراه، النفيس من الغنائم. كما أبطل النشيطة، وهي ما يصيبه الجيش من العدو، وهو في طريقه إلى أرض المعركة. وأبطل الفضول، وهو ما يبقى بعد القسمة لا يُقسم ولا يُجزأ<sup>(١)</sup>. فهذه أربع حالات أبطلها الإسلام، وهي المرباع والصفايا والنشيطة والفضول. وهكذا أبطل الإسلام ما كان شائعاً في الجاهلية من استئثار قواد الجيش، ورؤساء القبائل، بالكثير من الغنائم، دون غيرهم ممن اشترك معهم في الحرب. وأموال الفياء أو الغنيمة أموال عامة، فتُصرف لعموم المسلمين.

### ليس في الآية دليل على الاشتراكية البائدة:

أما أموال الناس الخاصة، فليس للإسلام فيها سوى الزكاة، ولا يجوز استيلاء الدولة عليها، وتوزيعها على الفقراء، وهو ما عرف في العهد البائد بالاشتراكية الشيوعية. ومما استدل به بعضهم على الاشتراكية قوله تعالى: ﴿فَمَا آتَيْنَا بِآدَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١] وهو استدلال خاطئ فيه تطويع وتوظيف للنصوص في غير وجهها لموافقة الهوى والحكم.

وقد أُلّف كتب في ذلك وقتها، منها ما زعموه (اشتراكية الإسلام) وجعلوا عمر رضي الله عنه أبو الاشتراكيين، ومن ردّ على هذه المزاعم فألّف تحت عنوان (لا اشتراكية في الإسلام) كان نصيبه الشهادة في سبيل الله، وقد ذهبت الاشتراكية إلى غير رجعة، وقُضي عليها في مهدها، ولكن أذنانها المتفتحين بمبادئها الفاسدة قد أعلنوا تمسكهم بها!! فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

ولا ينافي هذا ما جاء في الأثر «الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ» فإن هذه الثلاث إذا كانت في مورد عام، فالناس شركاء فيها، أما إذا كان فرع أو جزء منها

(١) التحرير والتنوير (١٨/٨٥).

في حيازة شخص معين، فهي ملك خاص به.  
والإسلام يحترم الملكية الفردية ويصونها، ولا يجوز تأميمها بحال.

### القاعدة الكلية والأصل العام في اتباع الرسول ﷺ:

ثم أمر القرآن بامثال أمر الرسول ﷺ واجتناب نهيه في كل ما أمر به ونهى عنه، ومن ذلك مصارف الفيء قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ أي ما أعطاه لكم الرسول من مال، وما شرعه لكم من شرع، فخذوه بقوة واعملوا به ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ والرسول ﷺ يأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، وهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه وأن ما جاء به النبي ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا تجوز مخالفته.

والآية عامة في كل أمر: واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو نهى محرم أو مكروه، ويدخل في ذلك التشريع والأحكام والسنن والآداب والأخلاق في كل قول أو فعل.  
ونظرا لأن المال صنو النفس، وهو موطن الشح والحرص، والنفوس تتطلع إليه، وتبذل المهج للوصول إليه، ومن ذلك أموال بني النضير، فقد توقع الصحابة قسمة بينهم، وإذ به يُمنع عنهم، ويحال بينهم وبينه، ويقسم المنقول منه على المهاجرين، ولا يقسم العقار الثابت، ويقال لهم: حدث هذا ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ المال ﴿ دُولَةً ﴾ أي متداولاً ﴿ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ويستوي في ذلك الأغنياء بأبدانهم أو بأموالهم.

ولذا: كان لا بد للنفوس أن تتحرك نحو هذا المال، وفعلاً ناقشوا عمر ﷺ فيه، ولكن سوط الطاعة، وأمر التشريع الملجم جاء ليقول: إن هذا الحكم صادر عن الله تعالى، جاء به رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وشأن المؤمنين الاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

## هذه جملة من الأحاديث في وجوب الاتباع:

١ - عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى، شيء وجدته في كتاب الله، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت الذي تقول! قال: فما وجدت فيه ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن الواصلة والواشمة، والنامصة، قالت، فلعله في بعض أهلك؟ قال: فادخلي فانظري، فدخلت، فنظرت ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ ﴾ <sup>(١)</sup> [هود: ٨٨].

٢ - وفي لفظ آخر عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنه قال: لعن الله الواشحات والمستوشحات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأنته، فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك تقول كذا وكذا، وذكرته، فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت لَوْحِي المصحف فما وجدته، فقال: إن كنت قرأته لقد وجدته، قال الله عز وجل ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ <sup>(٢)</sup>.

والوشم هو: غرز الإبرة في عضو من الجسم، ثم يُحشى بالكحل.  
والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك.  
والنامصة هي التي تنتف شعر الحاجبين.

(١) مسند أحمد (٣٩٤٥) بإسناد قوي، والطبراني في الكبير (٩٤٦٨، ٩٤٧٠)، والنسائي في المجتبى (١٤٦/٨).

(٢) البخاري (٥٩٤٨، ٤٨٨٦، ٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥)، وأحمد (٤١٢٩) إسناده صحيح على شرط الشيخين،

والترمذي (٢٧٨٢)، والنسائي (١٤٦/٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٨٩).

والمتفلجة هي التي تُوسّع ما بين الثنايا طلباً للحسن.

٣ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»<sup>(١)</sup>.

٤ - وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، أنهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الدُّبَاء، والحثم، والنَّقِير، والمزقت، ثم تلا ﴿وَمَاءَ أُنثُكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>(٢)</sup>.  
والدُّبَاء هو القرع، كانوا يصنعون منه نبيذاً.

والحثم جرار من خدّف مدهونة باللون الأخضر، يُحمل فيها الخمر.

والنَّقِير أصل النخلة، ينقر وسطه ويوضع فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذاً.

والمزقت: إناء يطلى بالزفت وهو نوع من القار ثم يوضع فيه النبيذ.

٥ - وعن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ألفين أحداً متكئاً على أريكته، يأتيه أمر مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبغناه»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فقد وقع هذا من بعض الجاهلين.

والآية دليل على وجوب الأخذ بصحيح السنة في كل الأمور.

٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً، فترخص به، فبلغ

ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال:

«ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكروهوا وتنزهوا عنه، فوالله، لأنا أعلمهم

(١) البخاري برقم (٧٢٨٨)، وهذا لفظه، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) الحديث بدون الآية في صحيح مسلم برقم (١٩٩٧)، والنسائي (٥٩٥٩)، ومع الآية عند ابن أبي شيبة (٤٧٧/٧)، والنسائي (٥٦٦٠).

(٣) أبوداود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه (١٣) والمسند (٢٣٨٦١) بنحوه، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن، وابن حبان (١٣)، والحاكم (١٠٨/١)، وصحيح سنن أبي داود (٣٨٤٩)، والطبراني (٩٣٦، ٩٧٥).

بِاللَّهِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً»<sup>(١)</sup>.

٧ - ورأى ابن مسعود ﷺ رجلاً مُخْرِمًا فِي ثِيَابِهِ الْمَخِيطَةَ، فَقَالَ لَهُ: اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَتَقْرَأُ عَلَيَّ بِذَلِكَ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: نَعَمْ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وكل ما أتى به الرسول ﷺ فهو من عند الله تعالى، وهو بمنزلة القرآن في التشريع. والسنة تستقل بالتشريع، كما جاءت بتحريم لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي مخلب من الطير، وناب من السباع، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ومع ابنة أخيها، أو ابنة أختها.

والآية عامة في الأخذ بكل ما أمرنا به الرسول ﷺ وترك ما نهانا عنه. وفرق الحديث بين عموم الأمر وعموم النهي، فالنهي يُجْتَنَبُ كَلِّهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَالْأَمْرُ يُؤْتَى مِنْهُ بِالْمُسْتَطَاعِ (إِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَانْتَهُوا) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وخالف أمره ونهيه.

## فِي فَضْلِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوْصَافِهِمْ

٨ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾<sup>(٣)</sup> وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

هذه الآية متعلقة بما سبق من حكم الفيء، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الثلاث على: المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبين سبحانه في هذه الآية أن فقراء المهاجرين هم أولى الناس بالأخذ من المال الذي أفاءه الله على

(١) مسلم برقم (٢٣٥٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٨٦/٥).

(٣) قرأ شعبة بضم الراء في ﴿وَرِضْوَانًا﴾ والباقون بالكسر.

رسوله ﷺ من بني النضير ونحوها فهم الذين اضطروهم كفار مكة للخروج من ديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ أي ما أفاء الله على رسوله من فيء أهل القرى المفتوحة صلحاً فهو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، من فقراء المهاجرين، لأنهم تركوا الديار والأموال، والأحباب والخلان وألجأهم الكفار إلى ترك الأهل والوطن، فهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ لأنهم آمنوا بالله والرسول. ثم بين سبحانه دوافع هجرتهم فذكر لها سبب وغاية، أما السبب فلأنهم ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي لأنهم يطلبون من الله تعالى أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا، والرضوان في الآخرة، أما غايتهم من هذه الهجرة، فهي نصرة دين الله تعالى، ونصرة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بالجهاد في سبيل الله لإقامة دولة الإسلام وإعلاء كلمة الله، هذا هو قصدهم من الهجرة، وقد وصف الله المهاجرين في هذه الآية بستة أوصاف، فهم:

١- فقراء. ٢- مهاجرون. ٣- أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

٤- يتبعون فضلاً من الله ورضواناً. ٥- وينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم.

٦- وهم الصادقون مع الله تعالى في دينهم.

ولذا: فإن الله تعالى حكم في نهاية الآية بأنهم صادقون مع الله تعالى في هجرتهم، فقد خرجوا حُباً في الله ورسوله، مؤثرين ذلك على ملذات الدنيا وشهواتها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم، فقد صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ومنها الهجرة والجهاد. قال قتادة في وصفهم: هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر، خرجوا حباً لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يَعْضِبُ الحجر على بطنه، ليقيم به ضلُبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحصيرة في الشتاء، ما له دينار غيرها<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير الخازن (٢٤٨/٤)، والقرطبي (٢٠/١٨)، وقد أخرجه عبد بن حميد وبن المنذر كما في الدر المنثور (٣٦٦/١٤).

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»<sup>(١)</sup>.  
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمس مئة سنة»<sup>(٢)</sup>.

### فِي فَضْلِ الْأَنْصَارِ وَأَوْصَافِهِمُ الْأَرْبَعَةَ

٩- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ<sup>(٣)</sup> وَلَا يَحِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

أما الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين، من الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ ومنعوه من أهل الكفر والطغيان، فقد أخلصوا دينهم وعبادتهم لله، ومن صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديداً، وهكذا فقد مدح الله سبحانه الأنصار، وبين فضلهم وشرفهم، ووصفهم بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: أن الإيمان قد تمكن من قلوبهم فحلّ فيها واتخذها مسكناً له: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم الأنصار الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين واتخذوها داراً لهم، كما أنهم اتخذوا الإيمان ديناً لهم في بيعة العقبة الأولى والآخرة، واستوطنوا المدينة، وآمنوا بالله ورسوله قبل هجرة المهاجرين إليها، وتمكن الإيمان من قلوبهم، وأخلصوا دينهم لله، حتى صارت المدينة دار الهجرة والإيمان، يأوى إليها

(١) مسلم برقم (٢٩٧٩).

(٢) ينظر: المسند (١١٦٠٤)، وهو حديث حسن، وأبوداود مطولاً (٣١٦٦)، والبعث في شرح السنة (٣٩٩٢)، والطبراني في الأوسط (٨٤)، وأبو يعلى (١١٥١)، والترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣).

(٣) ضم حمزة ويعقوب الهاء من ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وكسرها الباقون.

المؤمنون، ويلجأ إليها المهاجرون تحت حماية الأنصار لهم، إذ كانت البلاد كلها بلاد حرب وشرك وشر، ولم يزل أهل الإيمان يفدون على الأنصار حتى انتشر الإسلام وعمّ، وقويت شوكته، وقامت دولته، وفتح أهلها البلاد بالعلم والإيمان، والسيف والسنان.

وهذه الآية يصح أن تكون عطفاً على ما قبلها، فيكون للأنصار حق في الفياء كالمهاجرين، ويصح أن تكون استثناءً للثناء على الأنصار.

الوصف الثاني: أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حباً شديداً، فقد ربط الإيمان بين قلوبهم برباط الأخوة والمحبة والمودة، فأنزلوهم منازلهم، وشاركوهم أموالهم، ومن كان له امرأتان عرض على أخيه إحداهما، لقد أحبوا الله ورسوله، وأحبوا أحبابهما، وأحبوا من نصر دينهما.

الوصف الثالث: ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار في نفوسهم حزازة ولا غيظاً ولا حسداً، مما أخذه المهاجرون من مال الفياء أو الغنيمة أو غيرهما، بل طابت أنفسهم بذلك، فكان المهاجرون في دور الأنصار، دون حقد ولا حسد ولا ضغينة.

هذا: ولما غنم النبي ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين، من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم لهم في أموالهم، ثم قال: «إن أحببتهم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير، بينكم وبين المهاجرين، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم» فرضوا بقسمتها على المهاجرين وطابت أنفسهم بذلك، وبقاء الأنصار في دورهم والترحيب بهم، فمع أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين دون الأنصار، فقد طابت نفوس الأنصار بهذه القسمة، ولم تتشوف نفوسهم أو تتطلع لشيء منها.

وسلامة الصدر من الضغائن، أقرب طريق يوصل إلى الجنة مع الإيمان، كما في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ ثلاث مرات أنه من أهل الجنة، لأنه لا يبيت وفي



قلبه ضغينة لأحد<sup>(١)</sup>.

الوصف الرابع: ﴿يُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي أن من صفات الأنصار: أنهم يقدمون المهاجرين وذوي الحاجات على أنفسهم، ولو كان بهم فقر وحاجة. وإيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم، ليس عن غنى وعدم حاجة، بل هو عن حاجة ماسة، وفقر واضح، وذلك لأن محبتهم لله ورسوله وقُدِّمَتْ على محبة شهوات النفس وملذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بما عنده من طعام وبات هو وأهله وأطفاله جوعاً<sup>(٢)</sup>.

وقد وصف الله قوماً بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْدٍ مَّسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وفي الأثر (أفضل الصدقة جهد المقل).

وأفضل الصدقة (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى). والإيثار عكس الأثرة في المعنى، فالأول وصف للكريم والآخر وصف للبخيل.

وهذه جملة من الأحاديث والآثار في فضل الأنصار

١ - قال أنس رضي الله عنه: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنة، حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا، ما دَعَوْتُمْ الله لهم، وأنثيتم عليهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر الأثر عن أنس عند الحكيم الترمذي (١٦٧/٢)، والنسائي (١٠٦٩٩)، وضعيف الترغيب (١٧٢٨).

(٢) سيأتي ذكره قبل نهاية الآية تحت عنوان: أمثلة من إيثار الأنصار.

(٣) سنن الترمذي (٦٥٣/٤) في كتاب صفة القيامة باب ٤٤ قال الترمذي: حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه وصحح إسناده محقق المختارة للضياء المقدسي برقم (١٩٣٠-١٩٣٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣٦/٢)، وصحح إسناده الألباني في المشكاة (١١٩/٢)، وانظر: مسند أحمد (١٣٠٧٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو داود (٤٨١٢)، وأبو يعلى (٣٧٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٨١).

٢ - وعن يزيد بن الأصم: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، قال: (لا)، ولكنهم يكفونكم المؤونة، وتُقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم) قالوا: رضينا، فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

٣ - وقال قتادة في الآية: هم هذا الحي من الأنصار، أسلموا في ديارهم، فابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين، وأحسن الله الثناء عليهم في ذلك، وهاتان الطائفتان الأولتان من هذه الأمة، أثبت الله حظهما في الفيء، ثم ذكر الطائفة الثالثة، وأمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ ولم يؤمروا بسبهم.

٤ - وقال عمر رضي الله عنه: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيراً، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويعفوا عن مسيئهم<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن المهاجرين: هذه منزلة قد مضت، وقال عن الأنصار: وهذه منزلة قد مضت، ثم قال عن التابعين ومن يأتي بعدهم: وبقيت هذه المنزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة<sup>(٣)</sup>.

### الوقاية من الشح سبب للفلاح:

ومن سلّم من البخل، ومنع الفضل من المال، ووقاه الله شر الحرص والشح، فقد أفلح ونجا ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أي الذي يوقه الله تعالى ويقيه شح نفسه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين فازوا بمطلوبهم وانتصروا على أنفسهم، والشح هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة سيئة في النفس، تحتاج إلى قمع وترويض على البذل والعطاء، والوقاية من شح النفس يشمل وقايتها من الشح في جميع ما أمرت به،

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٨)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤/٣٦٨).

(٢) ابن أبي شيبة (٤/٥٧٤)، والبخاري (١٣٩٢، ٤٨٨٨)، واللفظ من الأخير.

(٣) ينظر: الأثر في المستدرک (٢/٤٨٤) بتصحيح الحاكم له.

فإذا وُقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأداء أوامر الله عز وجل طواعيه وانقياداً، وترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوباً للنفس، وسمحت نفسه بإخراج الزكاة وبذل الصدقات وإنفاق المال ابتغاء وجه الله، وبذلك يحصل الفلاح للعبد في دنياه وأخراه، ومن لم يوق شح نفسه كان شحيح النفس بكل أنواع الخير، وبالتالي فهو ليس من المفلحين الفائزين.

أحاديث في الوقاية من الشح:

١ - جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»<sup>(١)</sup>.

٢ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: (ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له)<sup>(٢)</sup>.

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت! قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿وَمَنْ يُوَقَّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج مني شيء، فقال له ابن مسعود: ليس ذلك بالشح، ولكنه البخل، ولا خير في البخل، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً<sup>(٣)</sup>.

٤ - ونقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الشحيح يشح بما في يده، ويحرص على

(١) مسلم برقم (٢٥٧٨)، والمسند (٣٣٣/٣) من حديث جابر بن عبد الله ورقمه في المسند (١٤٤٦١) بإسناد صحيح، وهو في البخاري برقم (٤٨٨، ١٨٣)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣٢)، وعبد بن حميد (١١٤٣)، والبعوي (٤١٦١).

(٢) حاشية الصاوي (١٩٠/٤)، وقد أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر كما في الدر (٣٧١/١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٩٨/٩)، والطبري (٥٢٩/٢٢)، والطبراني (٩٠٦٠)، والحاكم (٤٩٠/٢)، والبيهقي (١٠٨٤١) وغيرهم.

أخذ ما في أيدي الناس، أما البخيل، فإنه ييخل بما في يده فحسب<sup>(١)</sup>.

٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع»<sup>(٢)</sup>.

والهالع هو المحزن، والخالع هو الجبن المخيف الذي يخلع القلب من شدته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقٌ هَلُوعًا﴾ ثم فسر سبحانه هذا الهلع فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٣٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣١﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

واستثنى من ذلك أهل الإيمان ممن يحافظون على الصلاة وغيرها من شرائع الإسلام.

٦ - وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»<sup>(٣)</sup>.

٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»<sup>(٤)</sup>.  
ومن اخرج زكاة ماله، وأكرم ضيفه، وواسى أهل المصائب فليس شحيحاً.  
وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف بالكعبة ويقول: اللهم قني شح نفسي، ولا يزيد علي ذلك.

(١) أخرجه الخرائطي في مساويء الأخلاق (٣٥٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢١٩٢)، وابن أبي شيبة (٩٨/٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨/٦)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٣١).

(٣) ينظر: المسند (١٥٩/٢) برقم (٦٨٣٧، ٦٤٨٧) بإسناد صحيح، من حديث طويل، وابن حبان (٥١٧٦)، والطيالسي (٢٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥٨)، والسنن (١/ ٢٤٣)، وأبوداود برقم (١٦٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٣).

(٤) رواه النسائي (١٣/٦) برقم (٣١١٥، ٣١١٠) وهو في صحيح سنن النسائي (٢٩١٣)، وابن أبي شيبة (٣٣٤/٥)، والحاكم (٧٢/٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٢٨، ٤٢٥٧) والمسند (٨٥١٢) حديث صحيح بطرقه وشواهد، فيه القعقاع بن اللجلاج وباقي رجال الإسناد ثقات من رجال الصحيح.

٩ - وجاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائة»<sup>(١)</sup>.

ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم أروع الأمثال وأسمائها، في هذا المضمار، من ذلك:

١- أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو ثابت بن قيس، وكنيته أبو طلحة، أوهم هو وزوجه الضيف أنهما يأكلان، ونوما الصبيان وأطفأ السراج حتى أكل. فقد روى أبوهريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئاً، فقال صلى الله عليه وسلم: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، ضيف رسول الله، رحمه الله» فقام رجل من الأنصار - وفي رواية أنه أبوطلحة - فقال: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبية العشاء، فتؤميهن، وتعالني، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت، ثم غدا الضيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: لقد عجب الله - أو ضحك - من فلان وفلانة، وأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢- ومن ذلك ما عرضه سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله، وأن يتنازل له عن إحدى زوجتيه، وبمقدار ما يعجب المرء من كرم سعد، بمقدار ما يعجب من ثبل عبد الرحمن، وهو يقول لسعد: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين السوق!؟

٣- ولما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار، لتقطع لهم قطائع بنخل البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها؟

(١) تفسير الطبري (٢٨/٢٩)، وأبو يعلى كما في الإصابة (٢/٢٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢)، والطبراني في الكبير (٤/١٨٨، ٤٠٩٦، ٤٠٩٧) وهو حديث مرسل.

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٩، ٣٧٩٨)، ومسلم برقم (١٧٣، ٢٠٥٤)، والترمذي برقم (٣٣٠٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٢)، وابن أبي شيبة (١٣/٣٥٠)، والحاكم (٤/١٣٠)، والبيهقي (٩٧٩)، والطبري (٢٢/٥٢٨).

٤- ومن صور الإيثار: أن حذيفة العدوي أخذ يبحث يوم اليرموك، عن ابن عم له بين الجرحى، ومعه شيء من ماء، ولما وجدته، عرض عليه الماء، فوجده في حاجة شديدة إليه، ولكنه سمع رجلاً آخر يصيح، يطلب الماء فأثره على نفسه، قال حذيفة: فوجدته هشام بن العاص، فقلت له: اشرب، فإذا آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد فاضت روحه، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم، رحمهم الله <sup>(١)</sup>.

٥ - قال ابن عمر رضي الله عنهما: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ <sup>(٢)</sup>.

٦- وقال أبو يزيد البسطامي: قدم علينا شاب من بلخ حاجاً، فقال: ما حدُّ الزهد عنكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، قال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: فما هو عندكم؟ فقال: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا <sup>(٣)</sup>.

### التَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ

١٠- ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ <sup>(١)</sup>

في الآيتين السابقتين وهذه الآية، رتب الله سبحانه وتعالى المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين، ثم الأنصار، ثم التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى قيام الساعة، فإن من شأن من جاء بعد المهاجرين والأنصار أن يذكروا السابقين عليهم بالرحمة والدعاء، وأن من

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٧/٥).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه (٤٨٢/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٢٨٧/٥).

ذَكَرَهُمْ بِسُوءِ فَهوَ خَارِجٌ عَنْ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَارِدَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْفُرُقَ الثَّلَاثَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أَي فِي سَائِرِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَهُ ﷺ وَلَا يَخْتَصُّ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَوْجَدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَدَ الدَّهْرِ، وَبِهَذَا فَهَمُ عَمْرٌ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ.

وَحَسْبُهُمْ مِنَ الْفَضْلِ أَنْ يَسِيرُوا خَلْفَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْ يَقْتَنُوا أَثَرَهُمْ وَيَهْتَدُوا بِهَدْيِهِمْ.

ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ، وَلَمَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ فِي الدِّينِ، وَيُكْتَبُونَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمُ الْمَحَبَّةَ وَالْمُودَةَ، فَهَمُ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ إِنَّهُمْ يَدْعُونَ لَهُمْ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ السَّبْقِ فِي الْإِيمَانِ، وَأَهْلُ الْفَضْلِ، وَأَنْ أُخُوَّتَهُمْ أَعَزُّ وَأَشْرَفُ مِنْ أُخُوَّةِ النَّسَبِ.

وَهَذَا الدَّعَاءُ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، السَّابِقِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَاللَّاحِقِينَ مِمَّنْ جَاءُوا بَعْدَهُمْ، بِسَبَبِ الْمَشَارَكَةِ فِي الْإِيمَانِ الْمَقْتَضَى لِعَقْدِ الْأُخُوَّةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَلَّا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا وَلَا حَقْدًا وَلَا حَسَدًا لِإِخْوَانِهِمْ فِي الْعَقِيدَةِ فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَاتِلِينَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أَي غِشًّا وَبَغْضًا وَحَسَدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّحَابَةُ دُخُولًا أَوْلِيًّا، فَمَنْ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ غِلًّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَقَدْ أَصَابَهُ نَزْغٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَذَا مِنْ سِبْهِمْ أَوْ أَذَاهُمْ أَوْ انْتِقَاصٍ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَإِذَا انْتَفَى الْغِلُّ عَنِ الْقَلْبِ ثَبَتَ ضِدُّهُ وَهُوَ الْمَحَبَّةُ وَالْإِيمَانُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ بِعِبَادِكَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ، وَمِنْ كَمَالِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ تَوْفِيقُهُمْ لِلْقِيَامِ بِحَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ الْعِبَادِ.

ومعنى الآيات: وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى التي فتحت ضلحاً فلله وللرسول، ولهؤلاء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ.

من سب الصحابة أو أساء إليهم ليس له حق في الضيء ولا في الخمس: فمن ترضى على أصحاب رسول الله ﷺ وترحم على من بعدهم، ولم يكن في قلبه غل لهم، فله حظ من فيء المسلمين، ومن سبهم، أو سب بعضهم، ولم يترحم عليهم، وكان في قلبه غل لهم، أو لبعضهم فليس له حق في شيء من فيء المسلمين بنص الكتاب.

#### وهذه جملة من الأحاديث والآثار في المعنى:

١- قال مالك بن أنس رضي الله عنه: من تنقص أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه غل عليهم، فليس له حق في فيء المسلمين <sup>(١)</sup>.  
ومن لم يستغفر للصحابة عموماً، ولم يطلب رضوان الله تعالى لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية.

٢- وقال ابن عطية: جاء عراقيون على علي بن الحسين، فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمن ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ قالوا: لا، قال: فقد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، قوموا، فعل الله بكم وفعل <sup>(٢)</sup>.

٣- وقال الحسن: أدركت ثلاث مئة من الصحابة، منهم سبعون بذريراً، كلهم يحدثني أن النبي ﷺ قال: «من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربة الإسلام من عنقه» <sup>(٣)</sup>.

(١) زاد المسير (٢١٦/٨)، وتفسير الخازن (٢٥٠/٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٨٨/٥)، وانظر الدر المنثور (٣٨٤/١٤) كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر.

(٣) والحديث في المسند عن أبي ذر برقم (٢١٥٦١)، قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن وهبان، وأخرجه ابن أبي عاصم (١٠٥٤).



وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»<sup>(١)</sup>.

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه»<sup>(٢)</sup>.

٥- وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: قالت عائشة رضي الله عنها:

(يا ابن أختي، أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّوهم)<sup>(٣)</sup>.

٦- وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الله الله في أصحابي

لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»<sup>(٤)</sup>.

وما وقع من بعض الصحابة من مخالفات، وما حدث بين بعضهم من نزاع، وما

جرى بين عائشة وعلي، وبين علي ومعاوية، كان انتصاراً للحق في نظر كل منهما.

فيجب علينا أن نمسك عن ذلك ولا نخوض فيه، فلن يترتب عليه شيء في حياتنا،

وغير الأنبياء من البشر يقع منهم الصواب والخطأ.

٧ - ذكر القرطبي أن عمر رضي الله عنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله

عليه من البلاد، ثم قال لهم: لقد مررت بآيات سورة الحشر الثلاث فما بقي أحد من

أهل الإسلام إلا وقد دخل فيها.

**التَّحَالُفُ الْكَاذِبُ بَيْنَ الْمُتَافِقِينَ وَالْيَهُودِ عَلَى النَّيْلِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ**

١١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

(١) الحديث أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس، وهو عن عمر في المسند (٦١٦٦)،

وعن عامر بن ربيعة (١٥٦٨١، ١٥٦٩٣).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٣) مسلم (٣٠٢٢).

(٤) الترمذي برقم (٣٨٦٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾

هذه الآية وما بعدها، حكاية لما جرى ويجري بين أهل الكفر وأهل النفاق، في كل زمان ومكان، من تحالف وتعاون على المكر بالمسلمين وتدمير المكاييد للإسلام وأهله، وتعجبٍ من أحوالهم وسلوكهم.

ولما ذكر سبحانه أوصاف المؤمنين الصادقين، أتبع ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخادعين الذين صادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، وكان المنافقون قد أرسلوا إلى بني النضير سرّاً يقولون لهم: لا تخرجوا من حصونكم، فنحن معكم، ومصيرنا مصيركم:

ومعنى الآية: ألم يصل إلى علمك - أيها الرسول - حال أهل النفاق، الذين يقولون لإخوانهم في الكفر من أهل الكتاب، أثناء محاصرتهم في حصون بني النضير، كي تقوى نفوسهم على مواجهة محمد ﷺ وقتاله وهم كاذبون فيما قالوه، وهذا أمر يدعو إلى العجب، فقد طمعوإخوانهم في نصرتهم، ثم خذلوهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ هؤلاء المنافقون هم فريق من بني عوف، من الخزرج، منهم: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نبتل، ورافعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيطي، ووديعة، وسويد، وداعس. هؤلاء المنافقون ومن معهم، أرسلوا إلى بني النضير حين حاصرهم المسلمون في حصونهم، يقولون لهم: اثبتوا في معاقلكم وحصونكم، فنحن معكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم.

فانتظروا نصرهم لهم كما وعدوهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي ﷺ أن يُجْلِبَهُمْ وَيَكْفَ عَنْ دَهَائِهِمْ، ففعل، وهذا معنى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو النضير، إخوان المنافقين في الكفر، وهذه الأخوة ليست أخوة في النسب، وإنما هي أخوة في الدين، فهم متحدين معهم في الكفر بمحمد ﷺ يقولون لهم ﴿لَئِن أُخْرِجْتُمْ﴾ أي من ضواحي المدينة ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ﴾ ونصاحبكم

في الخروج منها ﴿وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لا نطيع أحداً في عدم نصرتكم، أو يسألنا أن نخذلكم، ولا نخرج مع أحد يقاتلكم، أو يمنعنا من نصرتكم، أو يخوفنا ويعد لنا عنكم، ولن نسمع لمحمد ﷺ أن يأمرنا بخذلانكم، ولن نطيعه في قتالكم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي وإن قاتلكم المسلمون فسوف نعاونكم عليهم، ونقاتلهم معكم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا به يهود بني النضير، وغرورهم به، فإن الكذب والغرور والخداع وصفهم والنفاق والجبن مصاحباً لهم.

وفي مثل هذه الموالاتة يقول سبحانه ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْكَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَالَاةِ يَقُولُ سُبْحَانَهُ﴾ [المائدة: ٥٢] قال تعالى مكذبا لهم:

١٢- ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا

يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾

لقد كذب الله المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم لهم في قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أخرج المؤمنون اليهود من مساكنهم بالمدينة - على سبيل الفرض - فلن يخرج معهم المنافقون لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المؤمنون اليهود، فإن المنافقين لا ينصرونهم، بل يستولى عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، وهم أحوج ما يكون إليهم.

﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ﴾ أي: ولئن قاتل المنافقون مع اليهود لينصروهم ويدفعوا عنهم على سبيل الفرض والتقدير، ليولن الأذبار فراراً منهزمين من المسلمين.

﴿ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾ أي: لن تنفعهم نصرة المنافقين لهم، ولن ينصروهم الله، بل يخذلهم ويذلهم، ولن ينفعهم نفاقهم.

والذي أخبر به القرآن من الأمور الغيبية التي تحققت، فإن بني النضير حين أخرجوا من حصونهم، لم يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بذلك، ولم يقاتلوا معهم، ولم

ينصروهم، وكذلك الشأن بالنسبة ليهود بني قريظة وخير في المستقبل، فإن المنافقين لن يفعلوا لهم شيئاً بل يضروهم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لِحَالِكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وهذا النفاق الذي نزلت بسببه الآيات، لا يقتصر على العصر النبوي فحسب، فهو موجود وحاصل في كل زمان ومكان.

وأكثر ما تُمنى به البلاد من تدهور أمني وسياسي وعسكري واقتصادي هو بسبب هؤلاء المنافقين.

ونحن نعيش عصر الانتفاضة الفلسطينية - وقت كتابة هذه السطور - ونرى كيف يستعين اليهود بغيرهم للتعرف على أماكن تواجد من يريدون قتلهم من المسلمين، وبعض المنافقين لا يرون حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود ويقاسمونهم حياة خشنة أو ناعمة، وكلاهما قد أَلِفَ الآخر، لأن الفريقين لا دين لهم.

### مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُرُوبِ

١٣ - ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

ثم كشف الله سبحانه عن طبيعة المنافقين وبين السبب الموجب لعدم نُصرة المنافقين لليهود، وذلك بأنهم في خوفهم من المؤمنين، أشد من خوفهم من الله تعالى ﴿لَأَنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي خوفاً وخشية ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي في صدور المنافقين ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لخوف المنافقين واليهود منكم، فإن خَشِيْتَهُمْ إِيَّاكُمْ فِي السر - أيها المؤمنون - أعظم وأشد في صدورهم، من خوفهم وخشيتهم من الله تعالى، فهم يرهبونكم ويخافون منكم سراً أشد من رهبتهم من الله تعالى، وذلك لعدم وجود الإيمان في قلوبهم، ولأنهم لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يدركون عواقبها.

وإذا علم المسلمون أن عدوهم يزهبهم، قويث نفوسهم، وأقدموا على لقاءه.

وهذه بشرى من الله تعالى للمؤمن بأنه أوقع الرعب منهم في قلوب عدوهم،

ويبين سبحانه أنها رهبة خفية داخل صدورهم، مع أنهم يتظاهرون بالشجاعة والاستعداد للمواجهة.

وقد أطلع الله رسوله على دخائلهم، ثم ذمهم سبحانه، مبيناً أن خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله تعالى بسبب قلة فقههم، ولو أنهم كانت لهم عقول تُحسِن الإدراك، لكان خوفهم من الله تعالى أشد وأعظم، وهذا معنى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعقلون عظمة الله تعالى ويدركون حقيقة الإيمان به، ولا يرهبون عقابه، ولا يرجون ثوابه.

والفقه: فهم المعاني الخفية، كما قال تعالى: ﴿فَالْهُوَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وهذه الرهبة التي في نفوسهم علامة النفاق، لأنهم يُظهرون خوفهم من الله تعالى، ويُبطنون خوفهم من المؤمنين، ورهبتهم السرية أشد من رهبتهم العلنية. وقد وصف الله تعالى قوماً بقوله: ﴿إِذَا فُرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

١٤ - ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ<sup>(١)</sup> بِأَسْهُمٍ<sup>(٢)</sup> يَنْتَهُمُ شَدِيدًا

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

وصف الله اليهود في هذه الآية بوصفين:

الوصف الأول: أنهم جنباء: لا يقدرّون على قتال المسلمين إلا وهم متحصنين في قلاعهم وحصونهم، من وراء الحيطان والأسوار، ولا يقاتلونكم مجتمعين من موطن واحد، بل يتحصنون بالخنادق والأنفاق، لأنهم يَعْجِزُونَ عن مبارزتكُم ومواجهتكم وجهاً لوجه.

ولقد رأينا هذا بأعيننا، رأينا الجندي الإسرائيلي وهو يختبئ وراء باب سيارته أو

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الجيم وفتح الدال بعدها على الأفراد (جدار) والباقون بالجمع ﴿جُدُرٍ﴾ بضم الجيم والدال وحذف الألف.

(٢) أبدل الهمزة من ﴿بِأَسْهُمٍ﴾ ألفاً أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

مدرّعته، حاملاً مدفعه في مواجهة طفل الحجارة، وهو يُصوّب رصاصته من خلف الباب! ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لا يواجهكم اليهود في ساحة القتال وهم مجتمعين أو منفردين وجهاً لوجه ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحْصَنَةٍ﴾ بالأسوار والبيوت والخنادق والحواجز ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من خلف الحيطان والأبواب، وهذا قتال من لا يقيمون في قراهم، فيقاتلونكم متفرقين، كل فريق في قريته، خائف مترس، وقد وصفهم القرآن بهذا لأنهم شعب بلا وطن، فهم قوم رحل أهل بداوة، كما أرخ لهم أخوهم يوسف عليه السلام في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فقوله: ﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾ تشير إلى أنهم متقلون لا وطن لهم.

وهم لا يبدؤونكم بهجوم بريّ فيه مواجهة، وإن هاجمتموهم لا يبرزون لقتالكم. وفي هذا دليل على أن مصيرهم في النهاية هو الهزيمة، كما قال عليّ ؑ: ما حُورب قوم في عُقر دارهم إلا ذلّوا.

الوصف الثاني: ﴿بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي أن عداوتهم فيما بينهم، عداوة شديدة، فهم لا يتفقون على رأي، ولا يجتمعون على كلمة، وهم مختلفون فيما بينهم، متخاصمون أشد الخصام، ومع هذا فهم متفقون على عداوة المسلمين. قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق<sup>(١)</sup>.

ولقد رأينا اختلافهم فيما بينهم، عندما هاجر يهود الفلاشا من السودان إلى الأرض المحتلة، حيث وجدوا أنفسهم منبوذين مضطهدين، مواطنين من الدرجة الثالثة، مما جعلهم يرتكبون بعض الجرائم، ويعودون من حيث أتوا.

وقد يراهم الرائي في ظاهر حالهم متفقين، ولذلك فإن الله تعالى قد نفى ذلك عنهم في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ تظن أنهم طائفة واحدة، وهم شيع وأحزاب، لا

(١) تفسير القرطبي (٣٥/١٨)، والخازن (٢٥٠/٤).

يجتمعون على كلمة واحدة، وقلوبهم متفرقة متخاصمة متنازعة.

وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - بل أعلظوا عليهم وجاهدوهم بكل شدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّجِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩].  
وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَلِيلًا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

والسبب في أن بأس اليهود بينهم شديد، وأن قلوبهم شتى: أنهم انساقوا وراء الأحقاد والتشقي، وأهملوا النظر في عواقب الأمور، وما تقتضيه المصلحة، فصارت عقولهم كأنها معدومة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله ومراده، ولا يتدبرون آياته، ولو كانت عقولهم تدرك الحقائق لكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، ولما آثروا المفضول على الفاضل، ولأمنوا بخاتم النبيين.

وختمت هذه الآية بـ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل هو أداة النظر في عواقب الأمور.  
أما ﴿لَا يَفْقَهُوهُ﴾ الذي ختمت به الآية السابقة، فلأن الفقه هو فهم المعاني الخفية بالنظر الثاقب، فكان هذا الختام مناسباً للآية قبلها.

## لِلْمُنَافِقِينَ مَعَ بَنِي قَيْنِقَاعٍ وَعَدُوِّ كَاذِبٍ أَيْضًا

١٥ - ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَأَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه هذه الآية، أي مثل يهود بني النضير الذين حلّ بهم عقوبة الله، كمثل يهود بني قينقاع الذين سبقوهم، وكان خروجهم من المدينة قبل خروج بني النضير بزمن ليس بطويل، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وأمان كذلك، فلما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر، حقدوا على المسلمين، وخافوا أن يضعف مركزهم أمام المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به، وما يخفون من الشر، فذكّرهم النبي ﷺ بالعهد الذي بينه وبينهم، وحذّرهم من مغبة نقضه، فردّوا عليه ردّاً شديداً، حيث قالوا:

يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أننا نحن الناس.

وأخذوا يتحرشون بالمسلمين، ومن ذلك أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي في سوق بني قينقاع، فأخذ اليهودي يطلب منها كشف وجهها فأبت، فعقد الصائغ طرف ثوبها الفضفاض في أعلى ظهرها وهي لا تشعر، فلما قامت تكشفت وضحك الناس، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وقتل اليهودي المسلم، واستنجد كل فريق بذويه، وحدث بينهم قتال، فحاصرهم الرسول ﷺ حتى نزلوا على حكمه.

وقبل النبي ﷺ أن يجلبوا عن المدينة، وأن يأخذوا مالهم ومتاعهم إلا السلاح، ورحلوا إلى الشام.

وكما حلَّ بيني قينقاع من الخزي والنكال، فتركوا منازلهم ورحلوا، حلَّ أيضاً بالمشركين يوم بدر من القتل والأسر، فقد زين الشيطان لكفار قريش سوء أعمالهم وقال لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فقد حدث من كفار قريش مع النبي ﷺ كما حدث من بني قينقاع.

والقرآن الكريم يضرب المثل لبني النضير بمن أخرجوا من ديارهم قبلهم بسبب غدرهم، وبمن حلَّت بهم الهزيمة المنكرة بسبب كفرهم، فذاق كل منهما عاقبة أمره ذلاًّ وعذاباً في الدنيا، ويضرب المثل أيضاً بما حدث من كفار قريش يوم غزوة بدر، حين اغتروا بأنفسهم واغتروا بمن وعدوهم المساعدة والمؤازرة، وبما غرهم به الشيطان، فلم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم شيئاً من العذاب، وأذاقهم الله عاقبة كفرهم وشركهم، وهذا معنى: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا، ولم يُغن عنهم هذا من عذاب الآخرة، فأمامهم عذاب مؤلم ينتظرهم يوم لقاء الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا



كان للمنافقين مع بني قينقاع دور، كما حدث بينهم وبين بني النضير، وكما حدث بين المسلمين وكفار قريش، وكما يحدث بين المسلمين وغيرهم في كل زمان ومكان.

## إِغْرَاءُ الْمُنَافِقِينَ لِلْيَهُودِ كِإِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ وَالتَّخْلِي عَنْهُ

١٦ - ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

لقد أغرى المنافقون اليهود، فخدعوهم وأهموهم بأنهم سيقفون معهم، فزعموا أنهم إن أخرجهم المؤمنون من ديارهم خرجوا معهم، وإن قاتلوهم، قاتلوا معهم، وكان هذا مجرد خداع وتضليل، فلم يخرجوا معهم، ولم يدافعوا عنهم، وانتهى بهم الأمر إلى هذه الحال البائسة.

وهذا الإغراء يشبه إغراء الشيطان للإنسان حتى يقع في المعصية، ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ أي ومثل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود على القتال، ووعدهم لهم بالنصر على رسول الله ﷺ، مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم كمثل الشيطان حين يُزين للإنسان الكفر، ويدعوه إليه في الدنيا ثم يتبرأ منه يوم القيامة ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ الإنسان ومات على كفره، وبعث يوم القيامة ليواجه مصيره السيء، ندم وتحسر، وألقى بالتبعية على الشيطان، بعد أن اغتر به وكفر، وكان من أهل الشقاء، ولم ينفعه الشيطان الذي تولاه واتبع إشارته، فما كان من الشيطان إلا أن تبرأ من الإنسان الذي أغراه وأغواه، فأظهر خوفه من ربه، و﴿ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وليس المراد بالإنسان في الآية شخص معين، كما جاء في بعض التفاسير من قصص غير صحيحة فيها وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا فارتكب بعض المعاصي.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من {إني أخاف} والباقون بإسكانها

سُطِنَ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَا تُلْمُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال في التسهيل: هذا مثل، مثل الله به للمنافقين الذين أغووا يهود بني النضير، ثم خذلوهم بعد ذلك، بالشیطان الذي يُغوي ابن آدم، ثم يتبرأ منه والمراد: جنس الإنسان وجنس الشيطان<sup>(١)</sup>.

وتبرء الشيطان من الإنسان لا يكون في الدنيا لأنه لا يحدث بينهما فيها كلام. فيكون المراد: أن الشيطان أغرى الإنسان بالكفر، فلما كفر وهو في الدنيا، ثم لقي الله يوم القيامة بكفره، قال كل شيطان لقرينه من الإنس: إني بريء منك، وهو يطمع أن ينجو بهذا من العذاب.

والمعنى: فلما كفر، واستمر على كفره، حتى فارق الدنيا وجاء يوم الحشر، اعتذر بأن الشيطان قد أضله، وقال الشيطان: إني بريء منك، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ قَبِلْتُمْ رَبَّنَا مَا آطَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ٢٧].

وهذه المحااجة، لا تكون إلا في يوم الجزاء بعد موت الكافر على الكفر دون أن يسلم. قال تعالى مبيناً مصير الفريقين:

١٧ - ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

أي ثم تكون النتيجة يوم القيامة أن يدخل الكافر والشيطان النار، وبئست العاقبة عاقبتهما ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي عاقبة الشيطان الذي دعا إلى الضلال، والإنسان الذي أطاعه فكفر ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي مصير كل معتدٍ ظالم متجاوز لحدود الله.

والمعنى: فكان عاقبة الشيطان وعاقبة الإنسان أنهما في نار جهنم خالدين فيها، وذلك جزاء من ظلم نفسه بالشرك والكفر، فضل وأضل.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١١٠).

## تَحْصِيلُ الزَّادِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ

١٨ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

أمر الله عباده بمقتضى إيمانهم أن يلزموا تقواه في جميع أحوالهم، في سرهم وعلانيتهم، وأن يمثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، ويلزموا حدوده وشرائعه، وينظروا ما لهم وما عليهم، وما ينفعهم وما يضرهم، وأن يجعلوا الآخرة نصب أعينهم في كل صغيرة وكبيرة، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إلى جنة الله ورضوانه، ويجتهدوا في صرف العوائق والشهوات والشبهات التي تحول بينهم وبين الأعمال الصالحة، وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، والله تعالى لا تخفى عليه أعمال العباد، وهو رقيب ومطلع عليهم في جميع أحوالهم، وسوف يحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات اليهود والمنافقين، وضرب لهم الأمثال، توجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى المؤمنين، تعظهم وتذكّرهم قُرب قيام الساعة، وتُحذّرهم ممن لا تخفى عليه خافية، كي يُعدّوا العدة لليوم الآخر، بعد أن امتن الله عليهم بما أفاء وأفاض به عليهم من منافع دنيوية فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي يا من صدقتم بالله رباً واحداً، وصدّقتم بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ختم الله به النبوات، ويا من عملتم بهدي الله ورسوله: صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله تعالى، وراقبوه في السر والعلن، وقفوا عند حدوده، ولا تتجاوزوا أمره ونهيه، واحذروا عقاب الله، وخافوا يوم لقائه، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بامثال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي وعلى كل نفس مؤمنة أن تتدبر وتتفحص الأعمال التي قدمتها ليوم القيامة، والتي ستلقى بها ربها لتحاسِبَ عليها، فتتأمل في الأعمال التي عملتها لآخرتها؟ هل هي موافقة لهدي الله تعالى وهدي رسوله ﷺ أم فيها مخالفة

وعصيان؟ فإن كانت خيراً تزوّدت منه، وإن كانت شراً أقلعت عنه، وهذه محاسبة للنفس في الدنيا قبل الحساب الآخروي، لتدارك جوانب النقص والتقصير، ومراجعة ما اذخره العبد ليوم المعاد.

قال قتادة: قرّب الله القيامة حتى جعلها غداً، وذلك أنها آتية لا محالة، وكل آت قريب، وعلى المرء أن ينظر ما قدم لنفسه من أعمال، فإذا نظرها تزود بالعمل الصالح وكف عن السيئات، واذخر لنفسه من صالح عمله ليوم عزّضه على ربه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعِلُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال جل شأنه: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار].

وقال سبحانه: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اثبتوا وداوموا على تقواه، فإنها وصية الله للأولين والآخرين كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكررت التقوى لتأكيد الاستمرار والمداومة عليها، كما قال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والتقوى: جماع كل خير، وملاك كل بر، وبها وصى كل رسول أمته قائلاً:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء].

وبتقوى الله تعالى يسعد العبد في دنياه وأخراه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الأعراف: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [٢] ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣٠٢].

وأصدقاء الدنيا يكونون أعداء يوم القيامة، إلا من كان تقياً:

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف].

والمنزلة العالية في الدار الباقية، لمن اتقى وبر:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر].

والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وسيجازيكم عليها، ومن ذلك اجتهادكم في التقوى.

وفي حديث المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم حفاة عراة، متقلدي السيوف، وهم من مُضَرَ، فتغير وجه النبي ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فدخل ثم خرج، ثم أمر بلالاً، فأذن وأقام الصلاة، فصلّى وخطب، ثم قرأ أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ ودعا الناس إلى الصدقة وقال: «تصدقوا قبل أن يُحال بينكم وبين الصدقة» فكان منهم من تصدق بديناره، بدرهمه، بثوبه، بصاع بُره، حتى قال: ولو بشق تمره، فجاء رجل من الأنصار، بِضِرَّةٍ كادت كَفَّهُ تَعَجُّزَ عَنْهَا، ثم تتابع الناس حتى جاؤوا بِكَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حتى تهلل وجه النبي ﷺ كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»<sup>(١)</sup> ثم قسم بينهم ما جمع من هذه الصدقات، وهذا الحديث يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

## التَّحذِيرُ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى

١٩ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

وبعد أن أمر الله المؤمنين بتقواه والتزود للآخرة، حذرهم من الإعراض عن دين الله، والتغافل عن التقوى، لأن ذلك يؤدي إلى الفسوق والخسران، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ فتركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فكان

(١) ينظر الحديث في المسند (٣٥٨/٤) برقم (١٩١٥٦، ١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في

صحيح مسلم برقم (١٠١٧)، وابن أبي شيبة (١٠٩/٣)، والنسائي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (٢٠٣).



جنات النعيم، وكان ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن حقوق الله وحقوق عباده، فشقى في دنياه، واستحق العذاب في آخره، فالبون شاسع بين العاقبة التي ينتهي إليها كل فريق.

وفي هذا تنبيه للناس، وإيقاظهم من غفلتهم لترك الشهوات، وإيثار الآجلة على العاجلة، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى:

١- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨].

٢- وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفَجَّارِ ﴿٢٨﴾ [ص].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿أَفَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴿٣٥﴾ مَا لِكُرْبِكَ تَخْمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

٤- وقوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا

النُّورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر].

٦- وقوله أيضاً: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة].

ثم قرر سبحانه أن أهل الجنة هم أهل الفوز والفلاح فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي أنهم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، ونفي الاستواء بين الفريقين كناية عن البون الشاسع بين أهل السعادة الأبدية والشقاء الأبدية.

## تَأْيِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى الشُّمِّ الرَّأْسِيَّاتِ، فَمَا بَالُ الْإِنْسَانِ؟

٢١- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

وبعد هذا الكلام، على فتح قرى اليهود، وما ينال المنافقين من خسران في الدنيا

(١) نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من ﴿الْقُرْآنَ﴾ ابن كثير وحزمة عند الوقف وحققها غيرها.

(٢) أخفى النون عند الخاء في ﴿مِّنْ خَشْيَةِ﴾ أبو جعفر والباقون بالإظهار.

والآخرة، وبعد تحذير المسلمين من الوقوع في الغفلة ونسيان الله تعالى، كما حدث للفاسقين، وبعد بيان أن الشيطان هو الذي سول لهم الكفر، وأنهم أطاعوه واتبعوا وسوسته، بعد ذلك أرشد الله سبحانه إلى أن طريق النجاة من المهالك ومسالك الشر، هو هذا القرآن، فعلى العباد أن يبادروا إلى تدبره والعمل به، فإن قلوبهم لو كانت في غاية الصلابة والقسوة لتأثرت بمواعظ القرآن وأوامره ونواهيه ليسرها وسهولتها، وخلوها من التناقض والاختلاف، وإصلاحها لكل زمان ومكان، ولو أنزل الله هذا القرآن على جبل لخشع وتصدع من خشية الله، فما بالكم بالإنسان؟

والمعنى: لو أن الناس تدبروا القرآن وتأملوه، وعملوا بما فيه، فإن من روعة هذا القرآن، أنه يؤثّر على الضم الراسيات من الجبال، فلو كان المخاطب بهذا القرآن جبلاً، وكان لهذا الجبل عقلاً وتميزاً يفهم الخطاب، لتأثر الجبل بخطاب القرآن، تأثراً ناشئاً من خشية الله تعالى بسبب تأثره بمعاني القرآن.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال، وفهم مافيه من الوعد والوعيد، والهدايات والمواعظ، والأحكام والآداب ﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ مع كونه في غاية الصلابة والقسوة والقوة ﴿خَشِيعًا مُتَّصِدًا﴾ متشققاً ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي لأبصرت الجبل على قوته وشدته وصلابته وضخامته، خاضعاً متطامناً ذليلاً مشققاً من خشية الله تعالى، حذراً من عقابه وخوفاً من عذابه.

ولو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله، وأعرضوا عن فهم القرآن، ولم يتعظوا بمواعظه، لاتعظ الجبل، وتصدع صخره وتربته، لشدّة تأثره بكلام الله تعالى. وتصدّع الجبل يُضرب مثلاً لشدّة الانفعال وقوة التأثير، لأن الأجسام الصلبة إذا تأثرت، تشققت وتصدّعت، ولا يحصل هذا بسهولة.

وهذا توبيخ للإنسان على قسوة قلبه، وقلة خشوعه، وعدم تدبره لما في القرآن، وترك العمل بما فيه.



وفيه تصوير لعظمة القرآن، وقوة تأثيره، ونفاذه في القلوب.

ثم بين سبحانه أن هذا من باب ضرب المثل للناس لتقريب المعاني، وتوضيح الحلال والحرام، ومعرفة الخير والشر، ومحاسن الأخلاق ومساوئها، فقال ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حَتَّىٰ تَسْمَعُوا كَلِمَ اللَّهِ تَجِدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ إِكْرَامًا يُضَلِّلُ نَافِعًا لِّمَن يَشَاءُ ۚ لِيُذْهِبَ اللَّهُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ وَلِيُذْهِبَ اللَّهُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ وَلِيُذْهِبَ اللَّهُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ وَلِيُذْهِبَ اللَّهُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ﴾ في قدرة الله وعظمته، ويتأملوا آثار قدرته الله تعالى فيؤمنوا به ويوحده، فإن التفكير في آيات الله يفتح للعبد خزائن العلم ونور الحكمة. فالغرض من هذا التمثيل: التنبيه على فساد قلوب الكفار وقساوتها، وغلظ طباعهم، وعدم التأثر بالقرآن.

وثبت أن النبي ﷺ كان يقف يوم الجمعة إلى جانب جذع من جذوع النخل، فلما وُضع له المنبر، وجاء ليخطب عليه، ترك الجذع مكانه وتوجه نحو المنبر، وأخذ يحنُّ ويئنُّ، كما يئنُّ الصبي، لما كان يسمعه من الذكر والوحي عنده.

وكان الحسن البصري إذا حدّث بهذا الحديث بكى، ثم قال: يا عبد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله شوقاً إليه، لمكانه من الله تعالى، فأنتم أحق أن تشاققوا إلى لقاءه.

فإذا كانت الجبال الصم، والجمادات، تخشع من خشية الله تعالى، فكيف بالإنسان؟ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] أي لكان هذا القرآن قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

إن القلوب المؤمنة وحدها هي التي تخشع لذكر الله تعالى، قال جل شأنه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

أخرج ابن المنذر عن الضحاك في معنى الآية: لو أنزلت هذا القرآن على جبل،

فأمرته بالذي أمرتكم به، وخوفتكم بالذي خوفتكم به، إذا لخشع وتصدع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشعوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله<sup>(١)</sup>.

### الاستشفاء بهذه الآية:

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف - وهو القاريء العاشر، من أئمة القراءات العشر، وشيخه حمزة - فلما بلغت هذه الآية ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش.

فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على يحيى بن وثاب.  
فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة والأسود.  
فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنا قرأنا على عبد الله بن مسعود.  
فلما بلغنا هذه الآية قال: ضعاً أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأت على النبي ﷺ  
فلما بلغت هذه الآية قال: «ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء، إلا السام»<sup>(٢)</sup>.  
والسام الموت.

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ إلى آخر السورة، هي رقية الصداع.

## عِلْمُ الْغَيْبِ، وَالرَّحْمَةُ الْمُطْلَقَةُ، مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِ الْحَقِّ

٢٢- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢)

بدأت سورة الحشر بتسبيح العوالم كلها لله تعالى، على أعظم حدثٍ شهدته المدينة

(١) ينظر: الدر المنثور (٣٩٧/١٤) وما بعدها.

(٢) قال الطاهر بن عاشور في تفسيره (١٢٨/١٣)، هذا حديث أغر مسلسل إلى جبريل عليه السلام، وهو في تاريخ الخطيب (٣٧٧/١)، وقد نقله الشوكاني في فتح القدير (٢٠٥/٥) بسياق آخر، ونقل عن الذهبي قوله: باطل، قلت: ربما يقصد اللفظ الذي أورده الشوكاني.

النبوية بعد الهجرة، وهو خروج اليهود منها، ولم يكن هذا مضموناً. وبعد ذُكر المؤمنين والمنافقين واليهود، ذكرت السورة أخطر حدث في حياة كل أمة، وهو تقرير مصيرها، فينت أنه لا يستوي أهل النعيم وأهل الجحيم، وأن في اتباع هذا القرآن، النجاة من الهلاك.

وقد اشتملت السورة على ذكر اسم الله تعالى صريحا، أربعا وعشرين مرة.

وذكرته تعالى بالصفات والضمائر الظاهرة ست عشرة مرة:

وآخر آية قبل الآيات الثلاث الأخيرة في السورة، ذُكر فيها اسم الجلالة ثلاث مرات

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم جاء ضمير الغيبة في أول الآيات الثلاث الأخيرة من السورة، عوداً على ألفاظ الجلالة في هذه الآية التي نحن بصددتها، إشارة إلى أن ما جاء في السورة، أخبر به عالم الغيب والشهادة، الموصوف بصفات الجلال والكمال.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث، على كلمة التوحيد مرتين، وعلى تسييح الله تعالى

مرتين، وعلى أربعة عشر اسما من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو الله سبحانه وتعالى المعبود بحق، لا

رب غيره، ولا معبود سواه، فلا تنبغي العبادة والإلهية إلا له سبحانه.

والتوحيد هو الأصل، ولذا بدأ الله تعالى به بعد اسم الجلالة، الذي هو عَلَّمَ على

الذات الإلهية، إذ هو سبحانه الموجود أزلاً وأبداً، الإله المعبود، الذي لا إله غيره ولا

رب سواه، ثم ذكر جل شأنه اثنتين من خصائص الإله الحق:

الخاصية الأولى: أنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم السر والعلن، ويعلم ما

غاب وما ظهر.

والمراد بالغيب: ما غاب عن إحساس الناس ومداركهم.

والمراد بالشهادة: ما يشاهدونه بعيونهم، ويدركونه بعقولهم.

فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في هذا الكون، يستوي في علمه تعالى: ما ظهر وما بطن، وما هو موجود، وما هو معدوم. ويستوي عنده سبحانه علم الدنيا والآخرة. وعلم الغيب والشهادة دليل إفراد الله تعالى بالألوهية، لا يشاركه في ذلك أحد، لأنه من خصائص الإلهية.

والخاصية الثانية: من خصائص الإله الحق، أنه سبحانه: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فهذا دليل على وحدانية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ ﴿وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] ورحمته تعالى وسعت كل شيء، وقد ألزم الله نفسه بها فضلاً منه وكرماً، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رُبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وبهذا وصفته ملائكة الرحمن فقالت كما حكى الله عنها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

والرحمن أكثر مبالغة من الرحيم، فهو سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وسعت رحمته في الدنيا: الكافر والمؤمن، وهو رحيم في الآخرة رحمة خاصة بالمؤمنين. ومعنى الرحمة: إسباغ الخير والنعمة والإحسان على خلقه، وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم في الدنيا.

وفي الحديث: أن الله تعالى جعل الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، ومن ذلك الجزء، يتراحم الخلق كلهم، حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

## أَحَدَ عَشَرَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فِي خَتَامِ السُّورَةِ

٢٣- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ

الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٣]

في هذه الآية جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى، يسبقها لفظ الجلالة، وعود الضمير في لفظ ﴿هُوَ﴾ على ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وقد أعقب ذلك عدداً من الصفات الجامعة، وكُرِّرَ هذا، اهتماماً بالتوحيد، وزيادة في التعظيم، فهو الله سبحانه المتفرد

بالوحدانية، المعبود بحق دون سواه.

وقد جاء في هذه الآية ثمانية من أسمائه الحسنی وصفاته العليا، وجاءت ثلاثة أخرى في الآية التالية، وبيانها فيما يأتي:

الأول: ﴿أَلَمَلِكُ﴾ أي الملك لجميع المخلوقات، في العالمين العلوي والسفلي، بلا منازع ولا مشارك، الحاكم فيهم، المتصرف في جميع شؤونهم بلا ممانعة ولا مدافعة، فالكون كله تحت قهره ومملكه وتدييره وإرادته، بيده الأمر والنهي، والموت والحياة.

الثاني: ﴿أَلْقُدُّوسُ﴾ أي المتزه عن كل نقص، المبرأ من كل عيب، الذي تُقدَّسه الملائكة الكرام، وتقول في تسييحها (سبح قدوس رب الملائكة والروح).

ومعنى القدوس: بالغ الغاية في الطهارة، المعظم الممجّد.

الثالث: ﴿أَلَسَلَّمُ﴾ أي الذي سلّم من كل عيب وآفة في الماضي والحاضر والمستقبل، فلا يطرأ عليه سبحانه تغيير، وصفة القدوس تدلّ على أنه تعالى منزّه في ذاته عن النقائص، وصفة السلام تدلّ على أنه سبحانه منزّه في معاملة خلقه عن الجور والحيث والظلم، وفي الحديث (إن الله هو السلام).

الرابع: ﴿أَلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدق رسله وأنبياؤه بما أرسلهم به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، والمصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، وما أوعده الكافر به من العذاب، والمؤمن هو واهب الطمأنينة والأمن لخلقته، الذي آمن الخلق من ظلمه، وآمن المؤمن من عذابه.

الخامس: ﴿أَلْمُهَيَّبُ﴾ أي الرقيب على خلقه في أعمالهم، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الشهيد على عباده بأعمالهم، الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] فهو القائم بأرزاق العباد وآجالهم وأحوالهم.

السادس: ﴿أَلْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يُغالب ولا يُقهر، ولا يتناول على مقامه أحد، بل إنه قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، وعنت الوجوه لعظمته.

السابع: ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، فهو الذي يَجْبُرُ خلقه على ما يريد من غير أن يستطيع مخلوق أن يتجاوز ما حدده الله له، فالإنسان مثلاً لا يستطيع الطيران، والحيوان من ذوات الأربع لا يمشي على رجلين، وهكذا. والجبار صفة ذم بالنسبة للإنسان، لأنها صفة خاصة بالله تعالى، وهي صفة مدح بالنسبة لله تعالى، ومن معانيها أنه سبحانه يجبر الكسير من خلقه ونحو ذلك. وهو جل شأنه لا يسأل عما يفعل.

الثامن: ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء والعظمة والجلال، والكبرياء صفة من صفات الله تعالى لا يشاركه فيها أحد، كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل في علاه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»<sup>(١)</sup> والكبرياء صفة ذم في حق الناس، والله تعالى له جميع أنواع العلو والكبرياء.

وبعد هذه الصفات الثمانية، نزه نفسه سبحانه عن الشركاء له في عبادته، وعلمنا كيف نُسِّبَحه فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه سبحانه عما يصفه به المشركون مما لا يليق بجلاله، وتعالى جل شأنه عما يشركونه معه في العبادة، وتنزه سبحانه عن مشابهته في أسمائه وصفاته وأفعاله.

وفي بقية الأسماء والصفات التي في آخر هذه السورة قال تعالى:

٢٤ - ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

وصف الله تعالى نفسه في الآية الأخيرة من السورة بثلاثة أوصاف تضاف إلى الصفات الثمانية التي ذكرت في الآية السابقة، مع إعادة الضمير، وإعادة اسم الجلالة

(١) المسند (٩٥٠٨، ٧٣٨٢)، حديث صحيح، وأخرجه من طرق أخرى الحميدي (١١٤٩)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، والبغوي (٣٥٩٢)، ومسلم (٢٦٢٠).

﴿ هُوَ اللَّهُ ﴾ أي الواحد الأحد، وهذه الصفات هي:

التاسع: ﴿ أَلْخَلِيقُ ﴾ أي الموجد لجميع المخلوقات والمنشئ لها من العدم على مقتضى حكمته تعالى وإرادته، وفي هذا إبطال لإلهية من لا يخلق؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] وقال جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

العاشر: ﴿ الْبَارِئُ ﴾ أي المنشئ المبدع لما يخلقه، كما في الحديث «من شر ما خلق وذراً ويراً».

ومن كلام علي عليه السلام (والذي فلق الحبة، وبرأ التسمية).

قال ابن العربي: البارئ: خالق الناس من البرى، وهو التراب، فيكون هذا المعنى خاصاً بخلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ سُرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ وقال: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي الخليفة.

الحادي عشر: ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي يصور خلقه كيف يشاء، على هيئات وأشكال مختلفة، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٦]. وقال جل شأنه: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ ﴾ [التغابن: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [٧] في أي صورته ما شاء ركبك ﴿ [الانفطار: ٨، ٧]. وهو سبحانه: ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ والصفات العلى، والحسنى بمعنى الأحسن، أي له أحسن الأسماء الدالة على أفضل المعاني، وله الأسماء الحسنى الكثيرة التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو، وعلينا أن نؤمن وندعو بما جاء منها في كتاب الله، وما علمنا إياه رسول الله، مما صح وثبت عنه ﷺ.

وكما بدأت السورة بتسبيح الله تعالى، ختمت كذلك بالتسبيح ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الكون كله يلهجُ بالثناء على الله تعالى، وينزهه عن كل ما لا يليق بجلاله من صفات العجز والنقص بلسان الحال والمقال.

وقد خُتِمَت الآية الأخيرة بما خُتِمَت به الآية الأولى من السورة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو شديد الانتقام من أعدائه، كما حدث لبني النضير، وهو سبحانه حكيم في تدبير شؤون خلقه، يضع الأمور في نصابها.

والعبد يسأل ربه بأسمائه الحسنى، فيكون هذا الدعاء مظنة الإجابة، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذا: وأسماء الله تعالى وصفاته لا حصر لها في كتاب ولا سنة، فمنها ما استأثر الله به ولم يطلعنا عليه.

كما جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أصاب أحدا قط، هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه» الحديث<sup>(١)</sup>.

وهكذا: فقد خص الله سبحانه بعض خلقه بمعرفة بعض أسمائه، كما أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب.

وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»<sup>(٢)</sup>.

وقد حاول بعض أهل العلم استخراج هذا العدد من القرآن فزادوا ونقصوا، ومنهم

(١) المسند (٣٩٢/١) برقم (٣٧١٢)، قال محققوه: إسناده ضعيف كما قال الدارقطني في العلل (٥/ ٢٠١)، وهو في صحيح ابن حبان (٢٣٧٢ موارد)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٩٨)، وأخرجه ابن أبي شيبه (١٠/ ٢٥٣)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والبيزار (٣١٢٢ موارد).

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) والمسند (١٠٥٣٢، ٧٥٠٢) حديث صحيح، وأخرجه البخاري (٦٤١٠)، والترمذي (٣٥٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٦٥٩) وغيرهم.



من أفردھا بالتألیف. ومن هذه الأسماء والصفات:

- ١- صفات الأخلاق: كالحلم، والعفو، والرأفة، والرحمة، والكرم ... الخ.
- ٢- وصفات القوة مثل: الجبار، القهار، العزيز، المذل، المتكبر.
- ٣- وصفات المراقبة لخلقہ، مثل: الرقيب، الحسيب، الخبير.
- ٤- وصفات الرحمة والعطاء مثل: التواب، الغفار، الرزاق، الفتاح، الباسط، الهادي، الرافع، المعز، اللطيف \* وهكذا بقية الأسماء والصفات.

حديث سرد أسماء الله التسعة والتسعين ضعيف:

وأسماء الله الحسنی كما في حديث الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه هي:

(هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرفع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور) <sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه كان في موضع يجف فيه التمر،

(١) وفي سنن ابن ماجة (٣٨٦١) زيادة ونقص وتقديم وتأخير، وانظر تخريجه في الآية (١٨٠) الأعراف، وهو حديث ضعيف بسرد هذه الأسماء.

فلما كان الليل شعر بوجود رجل، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من الجن، أردنا زاداً من هذا البيت فنفذ زاده، فأصبنا من تمركم، فقال له أبو أيوب: إن كنت صادقاً فناولني يدك، فإذا بشعر كذراع الكلب، فقال له أبو أيوب: ما أصبت من تمرنا فأنت في حل، أفلا تخبرني بأفضل ما تتعوذ به الإنس من الجن؟ قال: هذه الآية آخر سورة الحشر<sup>(١)</sup>.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ﴾ إلى آخر السورة، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يُمسي، وإن مات ذلك اليوم، مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»<sup>(٢)</sup>.

### تم تفسير (سورة الحشر) والله الحمد والمنة

(١) كما في الدر المنثور (٣٩٨/١٤).

(٢) المسند (٢٦/٥) برقم (٢٠٣٠٦). بإسناد ضعيف لضعف خالد بن طهمان، والترمذي برقم (٢٩٢٢)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والدارمي (٤٥٨/٢) (٣٤٢٥)، والطبراني (٢٢٩/٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢٧٧٢)، وقد حسن إسناده بعضهم وضعفه بعضهم، وممن وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٥٦٠)، وهو في الترمذي (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير (٥٣٧).

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُتَحِنَةِ (٦٠)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الممتحنة) هي السورة الستون في ترتيب المصحف، والثانية والتسعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت سنة ست من الهجرة، بعد (سورة العقود) وقبل (سورة النساء).

وهي سورة مدنية خالصة، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية باتفاق، وهي ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمسة مئة وعشرة أحرف.

وتُسمَّى سورة الممتحنة، بفتح الحاء، أي سورة المرأة التي امتحنت في إيمانها، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ويشير إلى هذا أول آية في السورة. ويقال: سورة الممتحنة، بكسر الحاء، أي السورة التي امتحنت المهاجرات في إيمانهن، فأُسند الامتحان إلى السورة، كما سُويت سورة براءة، الفاضحة، أي التي فضحت المنافقين، وينظر في هذا المعنى إلى الآية العاشرة من السورة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

وقال السخاوي في كتابه جمال القراءة: وتسمى سورة الامتحان، وسورة المودة. فهذه أربعة أسماس.

### موضوع السورة:

إن الوفاء للعقائد والمبادئ، يفرض الولاء لمن يواليها، والبراء ممن يعاديتها، واعتراض من يعترضها، وهكذا فعل أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر. ومن الناس من يرفض الاستسلام، ويصبر ويصابر حتى يتحقق له النصر، ومنهم من يستبعد طريق الكفاح، فيقبل الواقع المر، ويسقط أمام عدوه، ويمدُّ إليه يده حرصاً على

سلامته وسلامة أهله.

وموضوع هذه السورة هو الولاء والبراء، فهي تنهى عن موالة غير المسلمين، واتخاذهم أصدقاء وأحباباً وأمناء من دون المؤمنين، وتبين أن غير المسلم لا يصفوا للمسلم أبداً، وأنه إن ظفر به ظهرت له عداوته.

والسورة تدعو إلى التآسي بإبراهيم عليه السلام في وجوب الولاء والمحبة بين من جمعتهم كلمة التوحيد.

وتدعو إلى عدم موالة غير المسلمين في شيء، أما حُسن معاملة غير المحاربين منهم، فهو شيء آخر يأمر به الإسلام، والولاء غير حُسن المعاملة.

وينسحب هذا الحب في الله والبغض في الله، على كل قريب وبعيد في النسب والصلة. وبينت السورة أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح، وأن أقاربه وأصهاره لن تغني عنه من الله شيئاً.

كما ذكرت السورة مبايعة النبي ﷺ للنساء، وشروط هذه البيعة.

وفي السورة ثلاث نداءات للمؤمنين:

النداء الأول: ينهى عن موالة غير المسلمين الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

والنداء الثاني: يبين حكم النساء المؤمنات اللاتي يتركن أزواجهن من غير المسلمين،

وما يتعلق بذلك من وجوب الفراق بينهما، وتحريم الزواج من المشركات الوثنيات

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

والنداء الثالث للمؤمنين: ينهى عن موالة أعداء الله وأعداء المؤمنين مرة أخرى في

ختام السورة كما في بدايتها ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

وفيها نداء خاص للنبي ﷺ وهو يبايع النساء كما يبايع الرجال ويأخذ عليهن العهود

على طاعة الله تعالى والبعد عن محارمه ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ

بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفَنَّ وَلَا يُزِنَنَّ ﴿١﴾ الآية.

وللربط بين أول السورة وآخرها، فقد خُتمت السورة بما بدأت به عن الولاء والبراء، ليتناسب الكلام في البدء والختام.

### قصة حاطب بن أبي بلتعة:

جاء في هذه القصة روايات كثيرة في كتب الحديث والتفسير والسِّير والتاريخ وأسباب النزول ونحوها، وسوف أقصر في قصة حاطب بن أبي بلتعة على بعض روايات القصة، وبعض روايات سبب النزول:

أولاً: مما جاء في قصة حاطب:

١ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ ؑ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَد، والزيير بن العوام، وكلنا فارس، وقال: «انطلقوا حتى أتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخناها، فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لتُخرِجَنَّ الكتاب أو لتُجرِدَنَّك، فلما رأت الجِدَّ أهوت إلى حُجْزتها، وهي مختجزة بكساء فأخرجته، فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني لأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ لحاطب: «وما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردتُ أن تكون لي عند القوم يد، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه، فقال «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة، أو: قد غفرت لكم،

فَدَمَعْتُ عَيْنَا عَمْرٍ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»<sup>(١)</sup>.

٢ - وفي رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب، فجيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا حاطب، ما دعاك إلى ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، كان أهلي فيهم، فخشيت أن يضرؤوا عليهم، فقلت: أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله، فقال عمر: أضرب عنقه يا رسول الله فقد كفر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك يا ابن الخطاب أن الله اطلع على أهل هذه العصابة من أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»<sup>(٢)</sup>.

٣ - وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم آمن الناس يوم فتح مكة إلا أربعة: عبد العزرى بن خطل، ومقيس بن صبابه، وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وأم سارة وهي المرأة التي حملت كتاب حاطب إلى قريش، ولما أدركها رسولا النبي صلى الله عليه وسلم أنكرت وفتشها ولم يجدا شيئاً، ولما هدداها بالسيف أخرجت الكتاب من قرون شعرها فدفعته إليهما<sup>(٣)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر: قلت: قد ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أهدر دمها ثم أمنها يوم الفتح. قال ابن حجر: وهي أم سارة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى قريش فنزلت فيه ﴿لَا تَنْخِذُوا عِدْوِي وَعَدُوَّكُمْ أُولِيَاءَ﴾ ﴿سَمَّاها قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ فِي حَدِيثٍ مُخْتَصِرٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَنْدَةَ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ سَارَةَ أُمَّةٌ لِقُرَيْشٍ، أَتَتْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَشَكَتَ إِلَيْهِ الْحَاجَةَ، ثُمَّ إِنْ رَجُلًا بَعَثَ مَعَهَا كِتَابًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَحْفَظُوا عِيَالَهُ، فَنَزَلَتْ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٩، ٣٩٨٣، ٣٠٠٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤)، وينظر: المسند (٧٩/١) (٨٢٧، ٦٠٠) (٤٨٩، ٣٠٠٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود برقم (٢٦٥١)، والترمذي برقم (٣٣٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٥)، والطبري (٣٨/٢٣)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٥٢/٣)، وعبد بن حميد (٨٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى كما في المطالب العالية (٤١٥٢)، والحاكم (٧٧/٤)، والضياء المقدسي (١٧٥-١٧٧)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تمام الحديث عند ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف للزليعي (٤٥١/٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال أبو نعيم: ذكرها في الصحابة ونسبها إلى الإسلام<sup>(١)</sup>. وقوله (أمة لقريش) أي لعمر بن هاشم بن المطلب.

ثانيا: جاء في أسباب النزول: أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجت حاجة شديدة، فجئت إليكم لتعطوني، قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية، فقالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطها عشرة دنانير، على أن تُوصِل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذرکم، فخرجت به سارة، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا، حتى تأتوا روضة خاخ - وهي مكان قريب من المدينة - فإن فيها ظعينة - أي امرأة مسافرة - معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، واخلوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها»، فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهثموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا، ولا كذب رسول الله ﷺ، وسل سيفه، وقال: أخرجي الكتاب، وإلا ضربت عنقك، فلما رأت الجذ أخرجته من ذؤابتها - أي من ضفيرة شعرها - فخلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأتاها، فقال له: (هل تعرف الكتاب؟) قال: نعم، قال: «فما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٤ / ٣٧٤) رقم (١٢١٧٨).

غَشَّشْتُكَ مِنْذُ نَصَحْتُكَ - أي منذ أخلصت لله - ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن، لم يكن أحد من المهاجرين إلا وَلَهُ بِمَكَّةَ مِنْ يَمْنَعِ عَشِيرَتَهُ، وَكُنْتُ غَرِيباً فِيهِمْ، وَكَانَ أَهْلِي بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ بِهِمْ بِأَسَمِهِ، وَكِتَابِي لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَدَّرَهُ.

ونزلت هذه السورة تنهي حاطباً عما فعل، وتنهاي المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»<sup>(١)</sup>.

ورد أن حاطباً كتب إلى قريش يقول لهم: إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والليل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لُنْصِرَ عليكم، فكيف وهو في جمع كثير<sup>(٢)</sup>. ولنا مع قصة حاطب أربع وقفات:

الأولى: أن أول سورة الممتحنة نزلت أولاً في شأن حاطب، حليف بني أسد بن عبد العزى، وكان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان مُلْصَقاً بقريش، ولم يكن منهم، ولكن الحكم عام في كل من يُوالي أعداء الله تعالى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أن المرأة التي حملت الكتاب، جاء في بعض الروايات أنها أم سارة كَنُود، أمة

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٣١٥) ولم ينسبه لأحد، وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣١/٨)، وهو في تفسير الخازن (٢٥٥/٤)، والألوسي (٦٥/٢٨)، وغيرهم، والقصة عند السيوطي في الدر المنثور ٢٠٢/٦ وممن نسبها إليهم: الحميدي، وعبد بن حميد، وأبي عوانة، وابن حبان (٤٧٩٧)، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل، وهذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الحاشية السابقة، وانظر: رواية جابر بن عبد الله في المسند برقم (١٤٧٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبي يعلى (٢٢٦٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٩٣/٥).



لقريش، وفي بعض الروايات أنها سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب التي كان معها كتاب حاطب، أمنها النبي ﷺ يوم الفتح<sup>(١)</sup>، وهكذا فقد اختلف في اسمها وكنيتها، وكانت امرأة مُشركة مُغنية في مكة، وأن هذه المرأة جاءت مُتجسدة.

الثالثة: أما الوقت الذي حدث فيه هذه القصة، فقيل: إنه كان قبل فتح مكة، وقيل إنه كان قبل صلح الحديبية، وهو الأرجح، لِمَا في رواية الحارث عن عليّ عند الطبري: أن النبي ﷺ لَمَّا أراد أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر، وأَسْرَ إلى ناس من أصحابه، منهم حاطب، أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة، وكَوَّنَه ﷺ أفشى في الناس أنه يريد خيبر، يدل على أن ذلك كان قبل عمرة الحديبية، لا قبل فتح مكة، لأن خيبر فُتحت سنة سبع، أي قبل فتح مكة، ويؤيده أن هذه المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه، قَدِمَتْ إلى المدينة بعد غزوة بدر بستين، كما رواه الطبري<sup>(٢)</sup>.

الرابعة: إن سعة صدر النبي ﷺ جعلته لم يتعجل في عقاب حاطب، وإنما سأله وعذَّره على لحظة ضعفه الطارئة فقال له: (ما حملك على ما صنعت؟) وأقال عثرته، والتمس له العذر، ليعينه ويجعله ينهض من عثرته...

جاء عن الحسن أن حاطباً قال: أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، وما كفرت منذ أسلمت، ولا شككت منذ استيقنت، ولكني كنت امرأة لا نسب لي في القوم، فكتبْتُ إليهم أذراً عن أهلي ومالي، وقد علمتُ أن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئاً<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

(١) كذا قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٣/٤٥٥) برقم (١١٤٠٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣/١٣٠)، وتفسير الطبري (٢٣/٣٨)، وابن كثير (٨/٨٤).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن كما في الدر المنثور (١٤/٤٠٧).

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

### النُّهْيُ عَنِ مَوَالَاةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ

١ - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتِ الْإِيْمَانَ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيْنَعَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

بدأت سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن اتخاذ غير المسلمين أصدقاء وأولياء وأحباء، فإن من علامة الإيمان: حب المؤمنين وبغض الكافرين، ومودة الكافرين ومحبتهم منافٍ للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من المخالف في الدين، لأنه لا يألو جهداً في إيصال الضرر إلى من خالفه في العقيدة، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمنتُم بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وعملتُم بشرع الله، واهتديتُم بهذي رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين، والمراد بالعداوة: عداوة الدين، والمؤمنون لم يبدؤوا بعداوة غير المسلمين، وإنما هم الذين بدؤوا بالعداوة، انتصاراً لكفرهم وشركهم.

والمشركون السابقون متفاوتون في عداوتهم للمسلمين، فخزاعة مثلاً كانوا مشركين، وكانوا موالين للنبي ﷺ، والكفار أعداء الله وأعداء للمؤمنين، ولذا قال تعالى ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾. وقد قدّم الله سبحانه عداوته للمشركين على عداوة المؤمنين لهم، لأن عداوة المشركين لله تعالى أشدّ وأقبح، فهم قد عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم.

جاء في الحديث القدسي (إني والجن والإنس في نبي عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيرني إلى العباد نازل، وشركهم إليّ صاعد، أتحب إليهم بنعمي

وأنا الغني عنهم، ويتبعضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكون إليّ<sup>(١)</sup>.  
ولو أن الكفار آمنوا بالله تعالى، وانتفت عداوتهم له، لأصبحوا إخوانا للمؤمنين،  
وانتفت العداوة بينهم.

وقد جاء النهي عن محبة غير المسلمين في آيات كثيرة منها قوله تعالى:  
﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ اِلَّا اَنْ  
تَكْتَفُوْا مِنْهُمْ تَكْفُؤًا ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨] بأن تكون لهم صؤلة وجؤلة، وسلطان وهيمنة، فليس  
من الحكمة نطح الصخر، ولكن ينبغي تجنبه والوقاية منه، وفيما عدا ذلك فإن من  
يواليهم على حساب عقيدته يكون منهم: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الْيٰهُوْدَ وَالنَّصٰرَىْ اَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ  
اَوْلِيَآءُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاِنَّهُمْ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد وصف الله تعالى من يسارعون في مودتهم ومحبتهم، تحسباً لنواب الدهر،  
للاختماء بهم، بأن هذا مرض ونفاق، ودلالة على عدم صحة الإيمان ﴿فَتَرَى الَّذِيْنَ فِي  
قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُوْنَ فِيْهِمْ يَقُوْلُوْنَ نَخْشَى اَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۗ﴾ [المائدة: ٥٢].

أي ترى أهل النفاق يسارعون في مودتهم والقرب منهم، وربما يكون هذا الولاء  
لغير المسلمين خوفاً من إخوة لهم في العقيدة!! فيكون في هذا حجة ودليلاً على عدم  
صحة إيمانكم: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيْنَ اَتُرِيْدُوْنَ اَنْ يَجْعَلُوْا  
لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ۗ﴾ [النساء: ١٤٤].

فالمحبة القلبية الخالصة لا ينبغي أن تتعدى المسلمين إلى غيرهم.  
واتخاذ المستشارين والمؤتمنين على أسرار البلاد والعباد، والمطلعين على الخطط  
الأمنية للبلاد، لا يصح أن تتجاوز المسلمين إلى غيرهم، فقد توعد الله تعالى بالعقاب  
من يفعل ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تُتْرَكُوْا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ  
وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلَا رَسُوْلٍ ۗ وَلَا الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً ۗ﴾ [التوبة: ١٦].

(١) رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، وابن عساكر عن أبي الدرداء.

ومعنى وليجة: موضع سر وبطانة، وسكرتازية.

والعداوة الظاهرة تكون مع المحاربين لنا، والمُعينين على حُزبنا، أما غير المسلمين في بلاد الإسلام، وهم في الأصل من أهل هذه البلاد، أو من المقيمين فيها بمقتضى عقد وأمان، فإنهم يعاملون معاملة حسنة، من البر والصلة والعدل، لا سيما الأرحام والأقارب والجيران، أما من أخرجونا من ديارنا، واغتصبوا أرضنا، هم ومن عاونهم على ذلك، فكيف نتخذهم أولياء؟ وكيف نطبع معهم العلاقات؟ ونحن لا نأمن شرهم وفسادهم وإهلاكهم للحرث والنسل؟ وكيف نتقرب إليهم بالمودة والمحبة؟ وكيف ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ وتسارعون في مودتهم، والحال أنهم كافرون بدينكم، وبما أنزل على نبيكم من الحق الواضح، والمودة إذا حصلت تبعثها الثُصرة والموالة، فخرج العبد من الإيمان وانفصل عنه وصار من جملة الكافرين.

ومما يدعو المؤمن إلى عداوة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء به المؤمن من الحق، وهذا أعظم مشاقة ومخالفة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم وزعموا أنكم على ضلال، ومن رد الحق فليس له دليل على صحة قوله وهذا معنى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويخرجونكم أيضاً من دياركم ظلماً وعدواناً، أو لا ذنب لكم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم، وهذا أمر يجب على الخلق جميعاً أن يؤمنوا به.

فسبب النهي عن موالة الأعداء كما جاء في الآية أمران:

الأول: هو الكفر، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، ويدخل في هذا ملل ونحل كثيرة، من الشيعيين، والملحددين، والعلمانيين، والهندوك، والبوذيين، واليهود والنصارى وغيرهم، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.

والسبب الآخر: هو إخراج الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، موطنهم ومسقط رؤوسهم. وهذا السبب مطرد في كل زمان ومكان بالنسبة لكل من أخرج من بلده، وأول ما ينطبق هذا على اليهود، فقد أخرجوا أهل فلسطين من ديارهم، واحتلوا ودنسوا

مقدسات المسلمين فيها، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

### هل لليهود حق في فلسطين؟

ولو أن كل أمة تمسكت بسكنتي آبائها حِقْبَةً من الزمن في مكان من العالم، لحدّث تسلسل وخلل، واضطراب لا نهاية له.

والمقياس الحق في هذا: هو أن الحكم في كل زمان ومكان من العالم، يكون لآخر الشرائع السماوية، والإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، وبيت المقدس قد فُتِحَتْ فتحاً إسلامياً كغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، ومحمد ﷺ هو الذي صلّى إماماً بالأنبياء والمرسلين جميعاً في المسجد الأقصى، ومنهم موسى وعيسى عليهما السلام، وقد نسخ الإسلام كل شريعة سماوية قبله، فأورشليم، والقدس الشرقية والغربية، أو الجديدة والقديمة، وفلسطين كلها، دولة إسلامية، منذ أن فتحها عمر رضي الله عنه، وهي دولة عربية على مدى التاريخ قبل ذلك بألاف السنين، واغتصاب اليهود لها فترة من الزمن لا يعطيهم حق التملك فيها، واليهود شعب بلا وطن، كتب الله عليهم ذلك عقوبة لهم على امتناعهم من دخول الأرض المقدسة حين طلب ذلك منهم نبيهم موسى عليه السلام، وهذا هو ما تقرره التوراة، ويؤمن به اليهود غير الصهاينة<sup>(١)</sup>.

وعداوة اليهود للإسلام وأهله أشد من غيرها، لأنهم كفروا برسولين هما (عيسى ومحمد) عليهما السلام، وكفروا بكتابين هما (الإنجيل والقرآن) أما النصارى فقد كفروا برسول واحد وكتاب واحد، ولذلك كانوا أقرب إلى المسلمين من اليهود، وسبب هذه العداوة كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَّصُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وهذا معنى ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل إيمانكم بالله ورسوله. فإن كانت هجرتكم وجهادكم أيها المسلمون في سبيل الله، وطلباً لمرضاة الله، فلا تُؤَلُّوا أعداء الله وأعداءكم، وهذا معنى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

(١) راجع تفسير آيات سورة المائدة (٢٠ - ٢٦).

أي إن كان مقصود خروجكم هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاته، فوالأولاء أولياء الله وعادوا أعداءه، فإن هذا من الجهاد في سبيل الله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم، فجواب الشرط وهو ﴿إِنْ﴾ محذوف، دل عليه ما قبله، أي إن كان إيمانكم خالصاً صادقاً لله تعالى، فاتركوا مودتهم وصدقاتهم، ولا تُفَضُّوا إليهم بالمودة سرّاً، فتظهرون للناس أنه لا علاقة بينكم وبينهم، مع أنكم تُخْفُونَ مودتهم وتُفَضُّون إليهم بأسرار المسلمين، فأنتم ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ و﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ وفي هاتين الجملتين تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التي نهوا عنها.

والقاء المودة: إيصالها والإفضاء بها في السر أو العلن. فالجملة الأولى أعم من الثانية. قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ فاخذروا أن تُظهِروا القطيعة لهم، وتُبْطِنُوا العلاقة معهم، فإن علام الغيوب سبحانه، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وسيحاسبكم عليه ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ فيوالي أعداء الله، ويُلقِي إليهم بالمودة، ويتعامل معهم سرّاً فيخفي مودتهم ويفشي أسرار المسلمين إليهم ويُبْطِن ما لا يُظْهِر في هذا المضمار وغيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الحق والصواب، وضل عن قصد السبيل، والله تعالى سيحاسبه ويجازيه.

## الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ

٢- ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنَنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢﴾  
ثم كشف الله سبحانه عن حقيقة الأعداء، وبين أنهم عندما يتمكنون من المؤمنين، تظهر العداوة الكامنة في نفوسهم، المستحكمة في قلوبهم، فهم ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ أي إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسرون إليهم بالمودة ويتمكنون منكم، ويحكمون قبضتهم عليكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي يكونون حرباً عليكم، ويظهر لكم منهم ما انطوت عليه نفوسهم من بُغْضٍ لكم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنَنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي يمدّون إليكم أيديهم بالقتل والسبي، ويمدّون ألسنتهم بالسب والشتم، وهذا من باب

التهييج وشدة التحذير، فقد يظن ظان أن موالاته غير المسلمين من باب الدهاء والحزم، رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة.

وقد بين سبحانه في هذه الآية، وفي آية سورة المائدة: ٤٦ خطأ هذا الزعم، وبين أن العدو يستفيد من هذه المودة: الاطلاع على قوة المسلمين، ومعرفة أسرارهم الحربية، حتى يتأهبوا لهم ليظفروا بهم ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وهؤلاء الأعداء في نهاية الأمر يتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم وهذا غاية ما يريدون منكم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنوا لو تكفرون كما كفروا، لتكونوا مثلهم، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] أي متساوين معهم في الكفر. وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَنَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وفي ذلك بيان لعداوتهم وتمنيهم لهم الارتداد من الإيمان إلى الكفر.

## الْمُخَالِفُونَ فِي الدِّينِ لَا تَجُوزُ مَوَالَاتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ

٣- ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ<sup>(١)</sup> بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وبعد أن بين سبحانه سوء عاقبة موالاته أعداء الدين في الحياة الدنيا، وبين أن موالاتهم تؤدي إلى إذلال المسلمين وذهاب قوتهم، وتؤثر على عقيدتهم، بين سبحانه بعد ذلك سوء عاقبة موالاتهم في الآخرة، وأنها لا تنفع ولا تفيد عند الله تعالى في

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر (يُفْصَلُ) بالبناء للمجهول ونائب الفاعل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وقرأ ابن ذكوان (يُفْصَلُ) بفتح الصاد المشددة، وقرأ عاصم ويعقوب ﴿يَفْصَلُ﴾ بكسر الصاد المخففة، مبنياً للمعلوم والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (يُفْصَلُ) بكسر الصاد المشددة مبنياً للمجهول، ولهشام قراءتان: الأولى كابن ذكوان، والأخرى كنافع ومن معه، فهذه أربع قراءات.

شيء، فمداراة الكفار غير نافعة في الدنيا وهي ضارة في الآخرة، ولو كان هؤلاء المخالفين في الدين أقرب الناس إلى الإنسان، فإن احتججتهم وقتلتهم: نوالي غير المسلمين لأجل القرابة أو السياسة والاقتصاد، فلن يغني عنكم ذلك من الله شيئاً، ولن يقدّموا مصلحتكم على مصلحتهم، وقد حذركم الله من موالاتهم، وهذا لا يمنع جواز التعامل السياسي وتبادل المنافع بين جميع الدول، من غير محبة قلبية.

وفي هذا تعريض بحاطب بن أبي بلتعة حين اعتذر للنبي ﷺ بأنه أراد أن يتخذ له عند المشركين يداً يحمي بها أمه وإخوانه الذين كانوا في مكة.

والحكم عام في كل من أفشى أسرار المسلمين للكفار خوفاً على نفسه وأهله، وأن ذلك لا يجوز، كما لا تجوز محبتهم ولا التقرب منهم، وعفو النبي ﷺ عن حاطب، حالة خاصة به، لكونه من أهل بدر، ولأن النبي ﷺ صدّقه فيما قال، وأخذ بظاهر حاله، وحسابه على الله.

قال تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ وأقاربكم ﴿وَلَا أَوْلَادَكُمْ﴾ من غير المسلمين الذين رغبتهم في وذلهم، ولن يدفعوا عنكم شيئاً من عذاب الله، فلا تُفشوا أسراركم للكفار لأي سبب من الأسباب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في يوم الحساب والجزاء يفرق الله بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، فلا تُغضبوا الله تعالى بسبب أولادكم وأرحامكم، فإنهم سيفرّون منكم، يوم يشتد الهول ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿وَصَحْبِهِ وَنَبِيهِ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿[عبس: ٣٤-٣٧].

وعلى هذا المعنى، فيوم القيامة متعلق بما بعده، أي أن الفصل بينهم موعده يوم القيامة. ويصح أن يكون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بما قبله، فيصح الوقف عليه، أي أن الأموال والأولاد لا تنفعهم يوم القيامة، ولعل المعنى الأول أرجح.

ثم بين سبحانه أنه لا يخفى عليه شيء، وأنه مطلع على جميع الأمور، وسيجازي عباده على ما عملوا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحب في الله وأبغض في الله، ووعد لمن خالف ذلك، وفيه بيان للآثار السيئة التي تترتب على من ضل سواء السبيل.



والآية صريحة في أن صلة الدين والعقيدة يجب أن تُقدّم على صلة الأرحام والأولاد، لأن الاستجابة لله والرسول، هي التي تنفع يوم القيامة، وليس الأهل والعشيرة. عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قُيِّ دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»<sup>(١)</sup>.

وفي لفظ آخر: «إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار»<sup>(٢)</sup>.

وعن سعد بن أبي وقاص وابن عمر رضي الله عنهما أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» قال فأين أبوك؟ قال: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار»<sup>(٣)</sup>. وفي هذه الآيات الثلاث التي سبقت: النهي عن موالاته الأعداء، والنهي عن إفشاء أسرار المؤمنين إليهم، مع بيان السبب في ذلك وهو كفرهم بنبي الإسلام، ومحاربة المسلمين، وإخراجهم من ديارهم والتعدي على أموالهم.

## الْوَلَاءُ وَالْبِرَاءُ فِي الدِّينِ سُنَّةُ أَنْبَاءِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَصْرٍ

٤ - ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ<sup>(٤)</sup> حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ<sup>(٥)</sup> وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا

(١) المسند (٢٦٨/٣) برقم (١٣٨٣٤، ١٢١٩٢) قال محققوه: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير حماد - ابن سلمة - فمن رجال مسلم، وقد تفرد أحمد بهذا اللفظ، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٠٣)، وسنن أبي داود برقم (٤٧١٨).

(٢) (مسالك الحنفاء في والدي المصطفى) للسيوطي عن معمر عن ثابت، قال السيوطي: واللفظ الذي في رواية حماد - أي الحديث السابق - من تصرف الراوي، رواه بالمعنى على حسب فهمه، ينظر: تحقيق المسند (٢٢٩ / ١٩).

(٣) قال محققو المسند: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وأعلّه بعضهم بالإرسال، كما في العلل لابن أبي حاتم (٢ / ٢٥٦)، والدارقطني (٤ / ٣٣٤)، وقد أخرج حديث سعد، البزار (١٠٨٩)، والطبراني (٣٢٦)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٥)، والبيهقي في الدلائل (١ / ١٩١)، وجاء مثل هذا عن ابن عمر في ابن ماجه (١٥٧٣)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٠١)، هذا إسناد صحيح.

(٤) قرأ عاصم بضم الهمزة من ﴿أُسْوَةٌ﴾ والباقون بكسرها والضم لغة قيس وتميم، والكسر لغة أهل الحجاز.

(٥) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهيم) والباقون ومعهم ابن ذكوان في الوجه الثاني ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ<sup>(١)</sup> أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٢)</sup> لِأَيِّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

ولما حذر سبحانه من مضار موالات أعداء الله في الدنيا والآخرة، ضرب مثلاً بقصة إبراهيم عليه السلام للاقتداء به في براءته من كل صلة تربطه بغيره، سوى صلة الإيمان والإخلاص لله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ﴾ أي قدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة، وخصلة حميدة للتبرؤ من الكفر ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من أنبياء الله ورسله وكل من آمن به، فكلهم أمروا باتباع ملة إبراهيم في وجوب الحب في الله والبغض في الله، وعدم موالات الكفار، فإن ذلك من أوثق عرى الإسلام، ومن خالف ذلك فقد عرّض نفسه لذل الدنيا وخزي الآخرة.

وقد اقتدى الناس بخليل الرحمن، أبي الأنبياء، الذي سمانا المسلمين، فكونوا مثلهم - أيها المسلمون - في التأسي برسولكم، فإنه يحب أحباب الله، ويبغض أعداءه.

ثم بين سبحانه أن التأسي بإبراهيم عليه السلام في الولاء والبراء يكون في ثلاثة أمور: أولها: وجوب التبرؤ من غير المسلمين، ومما يعبدونه من دون الله، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ أي قد كانت لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة في إبراهيم، وفي الذين آمنوا معه وقت أن قالوا لقومهم الكفار بكل شجاعة وقوة ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي إنا بريئون منكم ومن كل ما تعبدونه غير الله تعالى، فلا أنتم منا ولا نحن منكم.

وثانيها: إنكار المؤمنين لما عليه الكافرون من عبادة غير الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبآلهتكم التي تعبدونها، وهذا تصريح بعداوة الكافرين غاية التصريح،

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوا من ﴿وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ وتسهيلها بين بين والباقون بالتحقيق.

(٢) اتفق القراء على قراءتها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.

والكفر بالقوم، غير الكفر بما يعبده القوم، والمؤمنون يكفرون بمن يعبد غير الله، ومن يُعبد من دون الله.

وثالثها: إظهار المؤمنين لعداوة الكافرين وبُغضهم، وإعلان ذلك بلا مواربة ولا مدهانة، ولا تورية، فهي عداوة بالقلب، وعداوة بالقول، وعداوة بالفعل، بشكل واضح، ويتجلى ذلك في سوء معاملة العدو لنا والاعتداء علينا، وهذا معنى ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان علناً وواضحاً ﴿يَبِينَا وَيَبِينَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ وهي النفور منكم وكراهيتكم، أي فنحن نسيء معاملتكم، ونضمر لكم الكراهة في نفوسنا، وهذه العداوة مستمرة وقائمة مادمتم على الكفر دائماً و﴿أَبَدًا﴾ أي: أن هذه البغضاء ليس لها وقت محدد، بل ما دمتم مستمرين على كفركم.

ولن تزول هذه القطيعة بيننا وبينكم ﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ فالإيمان بوحداية الله تعالى هو الغاية، وهو الحاجز بيننا وبينكم، فإن آمتم بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة ومحبة وولاية ونصرة.

وهذه الأمور الثلاثة من قول إبراهيم وأبنائه وإخوانه المؤمنين، إلى الكفار من قومه، وقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى بها.

قال الطبري وغيره: إن المراد بالذين آمنوا مع إبراهيم: هم الأنبياء الذين كانوا في عصره، والذين كانوا قريبا من عصره.

وقال ابن عطية: وهذا القول أرجح، لأنه لم يُزَوَّ أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحته للنمرود<sup>(١)</sup>.

وفي البخاري: أن إبراهيم عليه السلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجرا من بلد النمرود: (ما على الأرض من يُعبد الله غيري وغيرك).

(١) تفسير ابن عطية (٥/٢٩٥).

قلت: وممن آمن بإبراهيم: ابن أخيه لوط عليه السلام، لقوله تعالى ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهذه الأسوة مقيدة بالتبريء من الشرك، وهو مطرد في كل ملة، وفي نبينا عليه السلام أسوة حسنة على الإطلاق، في العقائد وفي أحكام الشرع كلها. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»<sup>(١)</sup>. والمراد بالناس في الحديث: خصوص الكفار، ولعل ذلك كان قبل أن يفرض الحج، ولذا: لم يأت ذكره في الحديث.

### منع الاستغفار لغير المسلمين:

هذا: وقد كان من عادة الناس قبل رسالة إبراهيم ﷺ، أن يستغفروا لأبائهم الذين ماتوا، ولذا، فإن إبراهيم عليه السلام وعد أباه بالاستغفار له، بعد أن أعرض عن دعوة التوحيد، فلما نهاه الله عن الاستغفار لأبيه تبرأ منه، وبهذا جاء الاستثناء في هذه الآية، وهو استثناء منقطع على الأرجح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي لا يدخل في هذا الاقتداء، استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك إنما كان قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلکم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالتوحيد ولوازم الإيمان ومقتضياته، إلا في خصلة واحدة هي الاستغفار للكافر ولو كان أقرب الناس إليك.

ومعنى الجملة: اقتدوا بإبراهيم في كل أحواله، إلا في قوله لأبيه المشرك: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإن استغفاره له كان بسبب وعد سابق وعده إياه قال تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

(١) البخاري برقم (٢٥)، ومسلم برقم (٢٢).

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا متبعون لإبراهيم في ذلك، فإن الله تعالى قد ذكر عُذْر إبراهيم في ذلك، وبيّن أن دعاءه له كان بسبب وعده له بالدعاء، ولما نهاه ربه عن ذلك تبرأ منه.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وهذه قضية عامة بالنسبة للخلق جميعاً ألا يستغفر المؤمنون للمشركين ولو كانوا أقرب الناس إليهم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

ثم ذكر سبحانه بقية كلام إبراهيم لأبيه في قوله ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لكنني أدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شيئاً، أي ليس في قدرتي وطاقتي إلا الاستغفار لك، ولا أستطيع أن أغني عنك أو أدفع عنك شيئاً من عذاب الله إن أشركت به وعصيته، فالأمر كله لله، إن شاء عذبتك وإن شاء عفا عنك، والذي يملك ذلك هو الله وحده: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ثم ذكر سبحانه جانباً من تضرع إبراهيم إلى خالقه سبحانه حين دعا ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ﴿وإِلَيْكَ أَنبَأْنَا﴾ أي رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ﴿وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ عليك وحدك يا ربنا اعتمدنا وفوضنا أمورنا، وإليك وحدك رجعنا بالتوبة، وأنت الذي تقبل توبتنا، وإليك لا إلى غيرك المرجع والمصير يوم القيامة، فعليكم أن تتأسوا بإبراهيم ومن معه في مثل هذا الدعاء أيضاً، فإن فيه توكل على الله، وإنابة إليه، واعتراف بالعجز والتقصير.

وفي هذا تعليم للمؤمنين أن يضرّفوا توجّههم إلى الله تعالى بإرضائه، ولا يلتفتوا إلى ما لا يرضيه سبحانه، فإن رضى الله تعالى مقدم على كل شيء، والمسلم يسأل ربه النجاح في جميع أحواله، وأعظم النجاح هو العمل لمصير ما بعد البعث في الحياة الأبدية.

ويُكْمَلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَاءَهُ لِرَبِّهِ فَيَقُولُ:

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أي ربنا لا تُظهر الكفار وتسلطهم علينا بذنوبنا ومعاصينا فتنضرمهم وتُخذلنا فيظنوا أنهم على حق، ويقولون عنا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا العذاب بأيدينا، فيكون هذا سبباً في زيادة كفرهم وإصرارهم عليه، وسبباً في تحوّل غيرهم إلى الكفر، ويظنون أننا على الباطل، فيزدادوا كفراً وطغياناً ويفتنوننا في ديننا، ويمنعوننا مما يقدرنا عليه من أمور الدين.

وقال قتادة: ربنا لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، أي لا تجعلنا مفتونين بهم.<sup>(١)</sup>

﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أي استر علينا ذنوبنا بعفوك عنها يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الغالب الذي لا يُذَلُّ من التجأ إليه، وأنت (الْحَكِيمُ) الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، ويضع الأمور في نصابها، فبعزتك وحكمتك انصرتنا على أعدائنا واغفر لنا ذنوبنا.

فهذه خمس دعوات من إبراهيم عليه السلام، اثنتين في هذه الآية، وثلاثة في الآية التي قبلها.

## تَأْسِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ فِي الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ وَعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ

٦- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ<sup>(٢)</sup> أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

حث سبحانه وتعالى على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام مرة أخرى، ليبين في هذه المرة أن هذا التأسي يسهل على كل من يطلب الأجر والمثوبة من الله تبارك وتعالى،

(١) قال ابن عطية: وهذا أرجح الأقوال (٢٩٦/٥)، وانظر تفسير الطبري (٥٦٩/٢٢) وغيره.

(٢) ضم الهاء من ﴿فيهم﴾ يعقوب وكسرها غيره.

فإن من يرجو لقاء الله يسهل عليه كل عسير، ويرى نفسه مفتقراً إلى الاقتداء بأنبياء الله ورسله، وعباده الصالحين.

وبعد الفراغ من وصايا إبراهيم ومن معه فيما يتعلق بالولاء والبراء، توجه سبحانه وتعالى بالخطاب إلى أمة محمد ﷺ لتأكيد التآسي بخليل الرحمن، مع تقرير أنه لا ينتفع بهذي القرآن إلا المؤمن بالله واليوم الآخر ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم والذين معه ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة، وسيرة حميدة، في التبرؤ من الكفر وأهله ﴿لَئِن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي أن هذا التآسي إنما ينتفع به من يطمع في الخير وجزيل الثواب من الله تعالى، فإن في هذا دلالة على صدق الإيمان ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عما ندبه الله إليه من التآسي بأنبيائه ويوالي أعداء الله فلن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده غنى مطلقاً، والكل مفتقر إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله، والذي يُحمد: يُمثل أمره ويُجنب نهيه، وهذا تحذير عام لمن عاد إلى ما نهى عنه كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال جل شاناه: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ [إبراهيم: ٧].

## وَعَدُ الْمُؤْمِنِينَ بِانْقِلَابِ عداوةِ أَقْرِبَائِهِمْ إِلَىٰ مَحَبَّةِ

٧- ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

أخبر سبحانه أن عداوة المؤمنين لغيرهم قائمة ما داموا على الكفر والشرك، فإذا انتقلوا إلى الإيمان تحولت العداوة إلى محبة، ولما أمر الله المؤمنين بعبادة الكافرين في الآيات السابقة، عادى المؤمنون أقرباءهم من المشركين، وأظهروا لهم البراءة والبغضاء، وقد علم الله سبحانه شدة ذلك على المسلمين، فوعدهم بأن هذه القطيعة ستؤول إلى مودة، بحيث يُسلم أقرباؤهم، ويوالونهم في الله، فقال تعالى ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ

يَجْعَلُ يَنْتَكِرُ ﴿٥٣﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ أَقْرَابِكُمُ الْمُشْرِكِينَ ﴿مَوَدَّةً﴾ أَيُّ  
 محبة بعد البغضاء، وألفة بعد الشحنة، بانسراح صدورهم للإسلام، وتحولهم إلى الإيمان  
 فتتحول عداوتكم لهم إلى صلة ومحبة وأخوة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ بليغ القدرة على تغيير  
 القلوب، قادر على أن يُقْبِلَ بقلوب المعاندين عليه ليدخلهم في مغفرته ورحمته، فالقلوب  
 بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ، ومن قدرته تعالى أن يتحول الكافر إلى  
 مؤمن، والعدو إلى صديق ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن امثل أمره، فأقلع عن الكفر وتحول إلى  
 الإيمان، وهو سبحانه لا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره ﴿قُلْ  
 يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ولفظ ﴿عَسَىٰ﴾ في جانب الله تعالى، لتتحقق الوقوع، فهي وعد وعَدَّ اللهُ به المؤمنين،  
 وقد أنجز الله وعده، فهدى كثيراً من الكفار إلى الإيمان في يوم فتح مكة، منهم:  
 أبوسفیان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام.

ففي الآية بشرى للمسلمين وإشارة إلى دخول غير المسلمين في الإسلام.  
 ومن أمثلة حصول المودة مع غير المسلمين أن النبي ﷺ كان قد تزوج أم حبيبة بنت  
 أبي سفيان بعد وفاة زوجها عبد الله بن جحش في أرض الحبشة، فلما تزوجها النبي ﷺ  
 لانت عريكة أبي سفيان، فصرح بفضل النبي ﷺ حين قال: ذلك الفحل لا يُفدحُ أنفه،  
 أي لا يُضرب أنفه بالرمح.

ولما أسلم أبوسفیان، وقُبض رسول الله ﷺ كان أبوسفیان أول من قاتل في حروب  
 الردة، وجاهد عن الدين <sup>(١)</sup>.

والأمثلة المعاصرة على هذا كثيرة، من ذلك أن مَنْ يدخل في الإسلام حديثاً يعاديه  
 أهله، وقد يستمر هذا لبعض الوقت، ثم يُسلمون غالباً، وهناك الآباء الصالحون أو  
 الطالحون، ولهم أبناء على عكس ذلك، فتحدث بينهم القطيعة، ثم تتحول إلى مودة.

(١) ينظر: الدر المنثور (٤١٠/١٤) عن ابن شهاب عند ابن أبي حاتم بسند مرسل وعن أبي هريرة عند ابن مردويه.



وهكذا: فالآية بشرى عامة للمؤمنين، ووعد لهم بانقلاب العداوة إلى محبة.

## حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُسَالِمِينَ

٨ - ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

رخص الله سبحانه وتعالى في صلة الذين لم يحاربوا المسلمين، ولم يخرجوهم من ديارهم، أو يغتصبوا أرضهم، أو يقفوا في وجه دعوتهم، فأجاز برّهم، وحسن معاملتهم، والصدقة على فقيرهم دون أن يؤدي ذلك إلى موالاته ومحبة قلبية.

والمعنى: أن الله تعالى لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل والقسط ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي من أجل دينكم، وهم الكفار ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فيطردوكم منها ويحتلوا أرضكم، لا ينهاكم الله عن فعل ما هو من البر، كصلة الرحم، ونفع الجار، والتعامل بالحسنى معهم، والضيافة، وحسن الخلق ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا فيما بينكم وبينهم بأداء ما لهم من الحق كالوفاء بالوعد معهم، وأداء الأمانة لهم، وحسن التعامل في البيع والشراء، والبر والإحسان إليهم، فتكرمهم وتتصدقوا على المحتاج منهم، وتعدلوا في برّكم بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم، وبين أهلهم، ومن ولاهم الله عليهم.

وهذه الآية استثناء ممن ذكرتهم السورة في أولها، فهم ليسوا من الأعداء المحاربين لنا، ولم يتسلطوا علينا ويخرجونا من ديارنا.

وقد دخل في هذه الآية في عصر التنزيل حلفاء للنبي ﷺ ممن يخالفونه في العقيدة، وكانوا يحبون نُصرتهم على قريش مثل: خزاعة، وبنو الحارث بن كعب بن مناة بن كنانة، ومزينة، وغيرهم، ومما ورد في أسباب نزول هذه الآية:

١- ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبة، أَفَأَصْلُهَا؟ قال: «نعم، صلي أمك»<sup>(١)</sup>.

وأما هي: (فَتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ الْقُرَشِيَّةِ الْعَامِرِيَّةِ) ويقال (قَتْلَةُ) والدة أسماء بنت أبي بكر من بني عامر بن لؤي، من قريش، وكانت مشركة، فقَدِمَتْ المدينة من مكة، في مدة الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين كفار قريش، بعد صلح الحديبية، لزيارة ابنتها، ومعها هدايا، فلم تُدْخِلْهَا أَصْمَاءَ بَيْتِهَا، ولم تقبل هداياها، فسَأَلَتْ عَائِشَةَ النَّبِيَّ ﷺ فنزلت هذه الآية، فأمرها رسول الله ﷺ أَنْ تُدْخِلَهَا مَنْزِلَهَا، وتَقْبِلْ هَدِيَّتَهَا، وتُكْرِمَهَا، وتحسن إليها<sup>(٢)</sup> وهذه المرأة كانت خالة لأسماء فسمَّتها أُمًّا<sup>(٣)</sup>.

قال أبو موسى: ولو كانت مسلمة لما احتاجت أسماء أن تستأذن في صلتها إلا أن تكون أسلمت بعد ذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت<sup>(٤)</sup>.

أما أم عائشة رضي الله عنها فهي (أم رومان) وكانت مسلمة مهاجرة، وكانت عائشة من أم، وأسماء من أم أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

(١) المسند (٦/٣٤٤-٣٤٧) ورقمه (٢٦٩١٥، ٢٦٩١٣) حديث صحيح، والبخاري برقم (٢٦٢٠، ٣١٨٣،

٥٩٧٨)، ومسلم برقم (١٠٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٣١) وغيرهم

(٢) أسباب النزول للواحدي عن عبد الله بن الزبير (ص ٣١٧) وهو في المسند (٤/٤) (١٦١١١)، والطيالسي

(١٧٤٤)، والمستدرک (٢/٤٨٥)، ومجمع الزوائد (٧/١٢٣)، والدر المنثور (١٤/٤١٢)، والطبري

(٢٨/٤٣)، والبخاري في كشف الأستار برقم (١٨٧٣) وضعفه محققوا المسند لضعف مصعب بن ثابت،

وهو ابن عبد الله بن الزبير، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٢٩٧).

(٤) الإصابة (١٤/١٣٠).

٢- وقيل: إن هذه الآية نزلت في خزاعة وبني مدلج، وكانوا قد صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً<sup>(١)</sup>.

وبهذا يتبين أن الإسلام دين محبة وسلام، يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يجمع الناس تحت لوائه، ويقم فيهم منهجه، ويعيشوا إخوة متحابين متعارفين متعاونين. والإسلام لا يجبر الناس على اعتناق الإسلام، ولم يتخذهم أعداء، ماداموا لم يقفوا حَجْرَ عثرة في وجه الدعوة، ولم يعتدوا علينا، وهو يفرق في التعامل بين الكافر المسالم والكافر المحارب.

## الْعُدُوْ غَيْرُ الْمُسَالِمِ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ يُعَامَلُ بِالنَّمْلِ

٩- ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ<sup>(٢)</sup> وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ ﴾

وبعد الحديث عن القسم الأول، وهو عدو مسالم، لم يقاتل المسلمين، ولم يخرجهم من ديارهم، وبالتالي لم ينه الإسلام عن برّهم والإسقاط إليهم. بعد ذلك يأتي القسم الآخر، وهو عدو غير مسالم، يقاتل المسلمين، ويخرجهم من ديارهم، ويظاهر على إخراجهم، وهؤلاء نهى الله تعالى عن موالاتهم ومودتهم، مع ملاحظة الفرق بين البر والقسط، وبين الموالاتة والمودة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ إِكْرَامِ وَصَلَةِ وِزْرٍ مِّن قَاتِلِكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجِكُمْ مِّن الْأَوْطَانِ، وَعَاوَنَ عَلَيْكُمْ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ، فَلَا تَصَالِحُوهُمْ وَلَا تَلِيْنُوا لَهُمْ، فَإِنِ الْإِسْلَامُ يَنْهَاكُمْ عَنِ مَوَدَّةِ الْكَافِرِينَ ﴾ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴿ فَنَاصِبُوكُمُ الْعَدَاءِ، وَقَاتَلُوكُم مِّنْ أَجْلِ

(١) ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس كما في زاد المسير (٢٣٦/٨).

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ والباقون بتخفيفها، واتفق القراء على تخفيف التاء عند الابتداء بها.

أنهم على غير دينكم، ووقفوا في وجه انتشار الدعوة ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّن دِينِكُمْ﴾ التي تسكنوها ﴿وَوَظَّهُرُوا﴾ أي عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ من دياركم، فعداوتهم لكم عداوة لدين الله ولمن قام به.

وقد كان أهل مكة فريقان: منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون البقاء معها بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويُعْزِي عليه، والله تعالى ينهاكم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالنصرة والمودة، فلا توالوا من قاتلوكم لأجل دينكم، ولا من اغتصبوا أرضكم، أو استولوا على أموالكم، أو مقدساتكم.

ثم توعد الله سبحانه من يتخذهم أنصارا وأحبابا ويفضلهم على المؤمنين فقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، الخارجون عن حدود الله، المعادون لله والرسول، المعرّضون أنفسهم لعذاب الله، فإن من أحبهم وتولاهم فهو ظالم، لأنه جعل الأمر في غير موضعه، وتعدى الحدود في العهود والمواثيق كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

وهكذا رسمت الآيات المنهج الذي يتعامل به المسلمون مع غيرهم، فقد رخصت الآية الأولى في حُسن التعامل مع غير المسلمين المسالمين.

ونَهت الآية الثانية عن ذلك بالنسبة للمحاربين المعتدين.

وسورة التوبة تقرر ما في الآية الثانية فتأمر بقتال المعتدين المقاتلين ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وهي ناطقة بقتال من قاتل.

## الإِسْلَامُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُسْلِمَةِ وَزَوْجِهَا غَيْرِ الْمُسْلِمِ

١٠ - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ<sup>(١)</sup> اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ جُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا<sup>(٢)</sup> بِعِصْمِ الْكُوفَرِ وَسَأَلُوا<sup>(٣)</sup> مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهَا فَتًى أَنفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكِمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

في هذه الآية حُكْمَان، الحكم الأول: هو التفرقة بين المسلم وزوجته الوثنية. والحكم الثاني: ردّ المهر لمن فارق زوجته الوثنية أو لمن فارقت زوجها الكافر. والحكم الثاني منسوخ، لأنه شرع لحالة خاصة في وقت خاص. أما الحكم الأول فالعمل به قائم إلى يوم القيامة، ولا خلاف في أن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية.

هذا: ولما نهى الله تعالى عن موالاته غير المسلمين، وكان هذا يشمل المصاهرة، وعقود النكاح التي بين المسلمين وغيرهم، وقد يكون المسلم مُتَزَوِّجاً من مشركة، وقد تكون المسلمة متزوجة من مشرك، وقد تختلف الدارين بين الزوجين، بأن يكون كلا منهما في بلد، وقد حدثت حالات في العصر النبوي من هذا القبيل، فكان بعض الأزواج في المدينة من المسلمين المهاجرين، وزوجاتهم المشركات في مكة. وكان من شروط صلح الحديبية، أن مَنْ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مُسْلِماً، رَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، سواء أكان رجلاً أو امرأة، فأراد الله سبحانه أن يُخْرِجَ النِّسَاءَ مِنْ هَذَا

(١) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه في {فامتحنوهن، علمتموهن، ترجعوهن، تنكحوهن، آتيتموهن، أجورهن} والباقون بدونها ومعهم يعقوب في الوجه الثاني.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الميم وتشديد السين من ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ مضارع مسك، والباقون بإسكان الميم وتخفيف السين مضارع أمسك.

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة همزة ﴿وَسَأَلُوا﴾ إلى السين قبلها وحذف الهمزة وصللاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

الشرط بهذه الآية، لما في ردهنّ إلى غير المسلمين من مفسد كثيرة، وشرع الإسلام امتحان هؤلاء النسوة في إيمانهن، ليبين للناس صدق إيمانهن من عدمه، فإن كنّ غير صادقات في إيمانهن تعيّن ردهنّ إلى الكفار وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، وإن كنّ صادقات في إيمانهن فلا يرجعوهن إلى الكفار، وليعطوهم ما دفعوه من مهر لهنّ.

فحكّم الله سبحانه في هذه الآية أن المرأة المسلمة المهاجرة لا تُردّ إلى الكفار في مكة، بل تبقى في المدينة، تقضي عدتها، لأن الإسلام قد فزق بينها وبين زوجها الكافر، ثم تتزوج، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي كان قد دفعه إليها.

كما أن من فرّت زوجته المشركة من المؤمنين إلى الكفار، فله أن يطلب الصداق الذي دفعه لها، وكان صلح الحديبية سنة ست من الهجرة.

أخرج ابن إسحاق، وابن سعد، وابن المنذر، عن عروة بن الزبير، أنه سُئل عن هذه الآية، فكتب أن رسول الله ﷺ كان قد صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يردّ من قريش مَنْ جاء، فلما هاجر النساء، أبى الله أن يُردّذن إلى المشركين، إذا هُنّ امْتَحَنَ بمحنة الإسلام، فَعُرِفُوا أَنهِنَّ إِنَّمَا جئن رغبة فيه، وأمر برد صدقاتهنّ إليهم إذا حُسِنَ عنهم، وأنهم يردّوا على المسلمين صداق من حَبَسُوا عنهم من نسائهم، ثم قال ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ فأمسك رسول الله ﷺ النساء وردّ الرجال، ولولا أن هذا حُكْمُ اللَّهِ لردّ النساء كما ردّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد، لأمسك النساء ولم يرد لهنّ صداقاً<sup>(١)</sup>.

#### حالات ممن تنطبق عليهن الآية:

١- وحدث عقب توقيع شروط الصلح، والنبى ﷺ لم يزل في الحديبية أن جاء (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو، الذي تولّى كتابة الشروط نيابة عن المشركين، جاء مسلماً يزسّف في الحديد، وكان مقيداً فيها عند أبيه بمكة، فانفلت من قيده، وجاء إلى النبى ﷺ فرده النبى ﷺ إليهم، بموجب الشرط الذي بينه وبينهم<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (٣٢٦/٢)، وابن سعد (١٢/٨).

(٢) القصة في البخاري (٤١٨٢، ٢٧١١)، والبيهقي في السنن (١٧١/٧).

٢- كما جاءت أيضا (سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ) للنبي ﷺ وهو لم يزل في الحديبية، فجاء زوجها يطلب ردها، وقال للنبي ﷺ: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجف بعد، فنزلت هذه الآية، فأبى النبي ﷺ أن يردها عليه.

٣- ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاءته أم كلثوم بنت عقبة، وأميمة بنت بشر، هاربتان من زوجهما، وكان زوج الأولى: عمرو بن العاص، وزوج الآخر: ثابت بن الشمراخ، أو حسان بن الدحداح، ولحق بالأولى أخوها: عمارة والوليد، فرد النبي ﷺ أخويها، وأبقاها في المدينة، فقالوا للنبي ﷺ: زدّها علينا بالشرط، فقال: كان الشرط في الرجال لا في النساء، وبقيتا عند النبي ﷺ فتزوج زيد بن حارثة: أم كلثوم بنت عقبة، وتزوج سهل بن حنيف: سبيعة وأميمة<sup>(١)</sup>.

٤- وحدث أيضا أن زينب بنت النبي ﷺ وهي مسلمة بطبيعة الحال، وكان زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد الغزّي مشركاً، فلحق بها زوجها بعد مدة، ثم أسلم وهو في المدينة، فردها إليه النبي ﷺ وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنوات.

وكان أبو العاص قد تزوج زينب وهي مسلمة، ولما وقع أبو العاص ضمن الأسرى المشركين يوم بدر، أرسلت زينب بقلادة لها لتفدي زوجها من الأسر، فلما رأى النبي ﷺ القلادة رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، فأطلقه النبي ﷺ على أن يبعث له بابنته، فوفى بذلك وأرسلها إليه مع زيد بن حارثة ؓ، فبقيت في المدينة من سنة اثنين للهجرة، إلى أن أسلم زوجها سنة ثمان، فردّها عليه بالعقد الأول، ولم يحدث لها صداقاً<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات بمقتضى شروط

(١) ينظر: ابن سعد (٢٣١/٨) عن ابن شهاب وابن دُرَيْد في أماليه عن الواقدي.

(٢) ينظر: المسند (٢٦١/١)، وصحيح سنن أبي داود برقم (١٩٥٧)، والترمذي برقم (١١٤٣)، وابن ماجه برقم (٢٠٠٩) مختصراً.

الصلح (إنما الشرط في الرجال لا في النساء) فكانت هذه الآية تشريعا للمسلمين، وبياناً للحكم في هذه الحالة.

### امتحان المهاجرات المؤمنات:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمتم بالله تعالى حق الإيمان ﴿إِذَا جَاءَكُمْ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ممن شهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، جنن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهن راغبات في فراق أزواجهن والبقاء معكم ﴿فَأَتَمَّجُوهُنَّ﴾ أي اختبروهن، لتعلموا صدق إيمانهن، ومدى رغبتهن في الإسلام، حتى يغلب على ظنكم أنهن صادقات في إيمانهن وهجرتهن، وأن الأقوال موافقة للأفعال، وأنهن لم يهاجزن رغبة في زواج أو نحوه.

قال ابن عباس وغيره: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بُغضاً لزوجها ولا هرباً بذنوب، ولا طمعاً في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حُباً لله والرسول، ورغبة في دين الإسلام، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردّها<sup>(١)</sup>.

فكان هذا الامتحان لتحري سبب الهجرة، بحيث لا تكون الهجرة تخلُّصاً من زوج مكروه، ولا جرياً وراء حب آخر، ولا طلباً لمنفعة دنيوية، وكانت المرأة إذا غضبت من زوجها بمكة قالت: لألحقن بمحمد ﷺ.

وكان النبي ﷺ يأمر عمر بن الخطاب ﷺ أن يتولى تحليفهن، فإذا تبين صحة إيمان المرأة لم يردّها النبي ﷺ إلى دار الكفر.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأمر من هاجر من المؤمنات بأية بيعة النساء ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾.

(١) تفسير البحر المحيط (٢٥٦/٨)، والخازن (٢٥٨/٤)، والتحرير والتنوير (١٥٦/٢٨)، وابن عطية (٢٩٧/٥)، وغيرهم كثير.



أما الرجال فإنهم لا يُمتحنون في إيمانهم، والهجرة وحدها كافية في الحكم على صدق إيمانهم، لأن هجرة الرجل تستلزم تحمُّل تبعه الهجرة، والتضحية بترك الديار والأوطان والأموال والأهل والعشيرة، وعليه مناصرة الدعوة والمشاركة في الجهاد. وهجرة المرأة يترتب عليها ضياع حق مع طرف آخر، هو الزوج، وإسقاط حقه في النكاح، وإيجاب حقه في العوض، والمرأة هي التي يُخشى عليها من الفتنة، ولذا قال تعالى ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي يعلم حقيقة حالهنّ، فخفايا القلوب مردّها إلى علام الغيوب، وهو الذي سيحاسب ويجازي عباده.

وبعد اجتياز هذا الامتحان الخاص بالنساء المهاجرات من مكة إلى المدينة، كان النبي ﷺ يُمسك من جاءه من النساء، ويعطي أزواجهن مهورهن، ويردّ من جاء من الرجال، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ بحسب ما ظهر لكم من العلامات والدلائل، وغلب على ظنكم أنهن صادقات فأبقوهن عندكم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى﴾ أزواجهن ﴿الْكَافِرِ﴾ وذلك لأن المؤمنة لا تحل للمشرك.

ولا يحلّ للمؤمن نكاح المشركة الوثنية، ولا يصح الارتباط بينهما في هاتين الحالتين، وفي هذا تحريم لزواج المؤمنين من الوثنيات، وكان ذلك جائزاً قبل الإسلام. التفرقة بين المؤمنة وزوجها الكافر ورد المهر له:

والآية توجب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر، والذي يقوم بتنفيذ هذه التفرقة هو القاضي أو وليّ الأمر، والآية تقرر عدم رجوع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في حالتين:

إحدهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر في بلاد الكفر، ولا تعود إلى ذمته، لما في هذا من مفسدة كبيرة، وهذا معنى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

وثانيهما: أن لا ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها الكافر، فيقيم معها في دار الإسلام، وهو باق على كفره، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

وكلا الصورتين لا تجوز، لأن اختلاف الدين فرق بينهما.  
والزوج الكافر إذا أسلمت زوجته يُردّ إليه ما أنفقهُ عليها من مهر وخلافه، حتى لا يُجمع عليه خسران الزوجة والمال، كما أن الفرقة بين الزوجين إذا كانت بسبب الزوجة، فإنها تُردّ ما أنفقهُ عليها الزوج من مهر وخلافه، وهذا معنى ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾ أي وأعطوا أزواج اللاتي أسلمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور.

### للمسلمة حق المهر إذا تزوجت بآخر:

وقد يظن ظان أن ما دفعه الرجل من مهر للمرأة التي أسلمت وبقي زوجها على كفره وتم التفريق بينهما: أن ذلك يُسقط حقها في المهر، إذا أرادت أن تتزوج بزواج آخر مسلم، بعد براءة رحمها، فدفع الله هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - أن تتزوجوهن إذا دفعتم لهن مهورهن بعد انقضاء عدة المرأة من زوجها الكافر، بعد أن فرق الإسلام بينهما.  
وقد سُمي المهر نفقة، وسُمي أجراً، لأنه مقابل الاستمتاع بالبضع.

### قطع العلاقة بين الزوج المسلم وزوجته الوثنية:

ثم قطع الإسلام العلاقة بين الزوج المسلم، والزوجة المشركة الوثنية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُوفِرِ﴾ أي ولا تُبقوا على زوجاتكم الكافرات في عصمتكم، فمن كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.  
عن يزيد بن الأحنس أنه لما أسلم، أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة، أبت أن تُسلم، فأنزل الله ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُوفِرِ﴾ فقيل له: قد أنزل الله آية، فرق بها بينها وبين زوجها، إلا أن تُسلم، فضرب لها أجل سنة، فلما مضت السنة، إلا يوم، جلست تنظر الشمس حتى إذا دنت للغروب أسلمت<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٣٣)، وابن عساكر (٩٣/٦٥).

وقد كان الزواج من الكافرات جائزاً قبل ذلك، ثم نسخ بهذه الآية. وكانت المرأة بالخيار، إن شاءت فسخت الزواج من زوجها الكافر وذهبت لتتزوج بآخر، وإن شاءت بقيت على ذمة زوجها<sup>(١)</sup>.

ولما نزلت هذه الآية طلق المسلمون مَنْ كان في ذمتهم من زوجات، فطلق عمر امرأتين مشركتين كانتا له بمكة، وهما: قُرْبَةُ بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، وقد تزوج الأولى معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى: صفوان بن أمية، وهما على شركهما.

وطلق طلحة بن عبيد الله، أزوى بنت الحارث بن ربيعة بن عبد المطلب، وتزوجها خالد بن سعيد بن العاص<sup>(٢)</sup>.

ومن أحكام الآية أن كل مسلم كانت له امرأة كافرة لم تهاجر معه فإنه لا يُعتدّ بها كزوجة، لأن العصمة بينهما قد زالت بسبب الكفر، وانتهى عقد النكاح، لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة.

ولما كانت هذه الآية تخص الزوجات المشركات دون الأزواج، فإن آية البقرة: ٢٢١ قد عمّت الرجال والنساء معا فقالت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾. وقالت: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾.

### زواج الكتابية وزواج الكتابي:

وخرج من هذا العموم الكتابية من اليهود والنصارى، فإنه يصح الزواج منها لقوله تعالى ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]. وجاز ذلك بالنظر إلى أصل الديانة وهو التوحيد.

(١) تفسير ابن كثير (٩٤/٨)، وهو ما حُمل عليه حديث ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري (٤٧/٢٨).

ولم يَجْزُ العكس، وهو زواج المسلمة بالكتابي، لأن المسلم يعترف بالديانات السابقة، وأهل هذه الديانات لا يعترفون بالإسلام، فالرجل المسلم يكون مأموناً على ديانة زوجته الكتابية، أما المرأة المسلمة فإنها لا تأمن على دينها مع غير المسلم، وهذا إلى جوار أن أبناء الكتابية يكونون مسلمين لأبيهم، والإسلام يطمع في إسلام أمهم، وكثيرا ما يحدث هذا.

### رد المهر إلى الزوج مسلماً كان أو كافراً:

ومن عدالة الإسلام أنه سوى في الحقوق والواجبات الزوجية بين المسلم والمشركة فلو أن المسلم ارتدَّت زوجته، ولحقَّت بقومها المشركين، فإن لزوجها المسلم أن يطلب مهره الذي دفعه إليها، وهذا معنى ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ فالمراد بالنفقة في الآية، هو المهر المدفوع للزوجة التي ارتدَّت عن الإسلام، أي اطلبوا أيها المؤمنون ما دفعتموه من مهر نسائكم اللاتي انفصلتم عنهن بسبب كفرهن.

وكذلك الحكم بالنسبة للمشرك الذي أسلمت زوجته، ولحقَّت بالمسلمين، فانفصلت عن زوجها بهذا السبب، فإن لزوجها المشرك أن يطلب المهر الذي كان قد دفعه إليها وهذا معنى: ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي وليطلب المشركون مهر نسائهم اللاتي أسلمن، ففرق الإسلام بين الزوجين.

قال ابن العربي: كان مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ مُرْتَدَّاتٍ إِلَى الْكُفَّارِ، يُقَالُ لَهُمْ: هَاتُوا مَهْرَهَا، وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا جَاءَتْ إِحْدَى الْكَافِرَاتِ مُسْلِمَةً، مَهَاجِرَةً، رُدُّوا إِلَى الْكُفَّارِ مَهْرَهَا، وَكَانَ ذَلِكَ نَصْفًا وَعَدْلًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ<sup>(١)</sup>.

وهذا الحكم العدل بين الفريقين، هو بمقتضى علم الله تعالى بحاجات العباد، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من إعطاء كل ذي حق حقه، إلى جوار ما في الآية من أحكام وتشريعات أخرى ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ المذكور في الآية، هو ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ العادل ﴿يَحْكُمُ﴾ به

(١) نقلاً عن القرطبي (٦٨/١٨).

﴿يَتَنَكَّمُ﴾ فلا تخالفوه واعمَلوا بما فيه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، لا يخفى عليه شيء منها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته وأقواله وأفعاله.

ولما نزلت هذه الآية، وفيها تقرير الحكم على الكفار والمسلمين معاً، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين في مكة يخبرونهم بذلك، فقالت قريش: لا نرضى بهذا الحكم، ولا نلتزم به، ولا ندفع لأحد من المسلمين صداقاً. قال تعالى:

١١ - ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ

الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

أنزل الله تعالى يأمر المؤمنين أن يدفعوا إلى من ارتدت زوجته من المسلمين وفرت إلى الكفار: صداقه الذي أعطاه لها <sup>(١)</sup>.

وقيل: يؤخذ هذا المهر من الغنائم التي يغنمها المسلمون من المشركين في الغزوات. ذلكم قول الله تعالى ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ ﴿فَاتَكُمْ﴾ بمعنى: إن فارقكم، ولم يسلّموا لكم مهورهن، فخذوه من غنائم المشركين، والمراد بالكفار الذين ليس لهم عهد ولا ذمة و﴿شَيْءٌ﴾ بمعنى: بعض أزواجكم، أي: وإن فارقكم - أيها المؤمنون - بعض أزواجكم الكافرات أو فارقكم بعض مهوركهم. ومعنى ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أحد أمرين:

١ - أي إن حصل التعاقب بينكم وبين الكفار، وأراد كل فريق أن يتزوج من الآخر، فلا تدفعوا - أيها المؤمنون - شيئاً لزوج من قَدِمْتُ من المشركين حتى يدفعوا هم لزوج من فرت من المسلمين مهره الذي دفعه فيها.

٢ - أو أن معنى ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أي إن كانت لكم العقبى، فغزوتهم الكفار وانتصرتهم عليهم، وأصبتم منهم غنيمة، فخذوا من الغنائم بقدر ذلك المهر. سورة الممتحنة: ١١ ومعنى الآية على القول الثاني: وإن أنفقت منكم - أيها المؤمنون - بعض أزواجكم

(١) بهذا قال محمد بن شهاب الزهري، قال ابن عطية (٢٩٨/٥): وهو قول صحيح.

وَهَزَبْنِ مِنْكُمْ مُزْتَدَاتٍ وَلِحَقْنَ بِالْكَفَارِ، وَلَمْ يَدْفَعْ لَكُمْ الْمَشْرُوكُونَ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ مَهْرَيْنِ، ثُمَّ ظَفَرْتُمْ بِهِؤَلَاءِ الْكَفَارِ، فَانْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَغَنِمْتُمْ مِنْهُمْ ﴿فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزُوقُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ أَي فَاَعْطُوا الْأَزْوَاجَ مِنْ رَأْسِ الْغَنِيمَةِ، مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْمَهْرِ، بِمَقْدَارٍ مُسَاوٍ لِمَا أَعْطَاهُ الزَّوْجُ لَزَوْجِهِ مِنْ قَبْلِ، دُونَ نَقْصٍ فِيهِ.

ثُمَّ حَرَّضَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَلَّا يَمْنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ جُورَ الْمُشْرِكِينَ، فَالْإِيمَانُ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى التَّقْوَى، أَمَا الْمَشْرِكُ فَلَيْسَ لَدَيْهِ وَازِعٌ يَحْمِلُهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْعَدْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا لِلَّهِ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ خَافُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكُمْ، وَنَقَدُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْ نُهِيْتُمْ عَنْهُ.

#### عدد من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين تسع:

هذا: وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ممن لم يُسلمن تسع:

- ١- أم الحكم بنت أبي سفيان، كان زوجها عياض بن شداد الفهري.
- ٢- فاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة، ويقال لها (قُرْبِيَّة) أخت أم سلمة، كان زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما أراد الهجرة، أبت، وارتدت.
- ٣- أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية (أم عبيد الله) كانت زوجة لعمر بن الخطاب أيضاً.

٤- بَرَوَع بنت عقبة، كان زوجها شماس بن عثمان.

٥- شَهْبَةَ بنت غيلان، لم أعرف اسم زوجها.

٦- عَبْدَةُ بنت عبد العزى، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل.

وقيل: تحت عمرو ابن عبد.

٧- هِنْد بنت أبي جهل، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل أيضاً.

٨- أَرْوَى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كانت تحت طلحة بن عبيد الله،

وكان قد هاجر، وبقيت زوجته مشركة بمكة، فلما نزلت الآية طلقها.

٩- عزة بنت عبد العزيز بن نقيلة، كانت تحت عمرو بن عبد ود.

وقد أعطى النبي ﷺ من الغنائم والأخماس: عمر، وعياض، وشماس، وهشام، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين<sup>(١)</sup>.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُسَيِّئُوا بِعَصِمِ الْكُوفِرِ﴾ طلق كل من المسلمين زوجته، وهي بمكة، فلحقت بالمشركين، وبعد نزول هذه الآية ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ ردّ المؤمنون إلى كل امرأة ذهبت من أزواج المؤمنين إلى المشركين النفقة التي أنفقت عليها من العقب، أي من المال الذي بأيديهم، مما أمروا أن يردوه على المشركين، وإن بقي شيء من هذا العقب ردّوه عليهن أيضاً.

قال الطبري: والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمننّ وهاجن<sup>(٢)</sup>.

### حكم الآية باق :

ومن المعلوم أن العمل بهذا الحكم كان في الفترة من صلح الحديبية إلى فتح مكة، وبعد فتحها لم يعد هناك بالنسبة لمكة والمدينة بلد كفر وبلد إسلام. وأصبحت كلها دار إسلام، والمعتبر في هذا ليس اختلاف الدارين، وإنما هو اختلاف الديانة، وهذا يسري إلى أن تقوم الساعة على كل امرأة ارتدت عن الإسلام، وعلى كل رجل أسلم وله زوجة وثنية.

## بَيْعَةُ النِّسَاءِ وَشُرُوطُهَا السُّتَّةُ

١٢ - ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ<sup>(٣)</sup> إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٣)، وتفسير الخازن (٢٥٩/٤)، وتفسير ابن عطية (٢٩٨/٥).

(٢) تفسير الطبري (٤٨/٢٨).

(٣) قرأ نافع بالهمز في ﴿النَّبِيُّ﴾ وفي حالة الوصل يحقق الهمزة الأولى ويسهل الثانية بين بين، ويبدلها واواً خالصة، وكل من قالون وورش على حسب مذهبه في المد، وقرأ الباقون بياء مشددة.

وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

في هذه الآية شروط مشتركة بين الرجال والنساء معاً كما ثبت في حديث عبادة ابن الصامت في البخاري (٤٨٩٤) وفيه بيعة الرجال قبل بيعة النساء في نفس اليوم بحيث يلتزم بها المسلم في جميع الأوقات، وتسمى بيعة النساء، لأنها نزلت في مبايعتهن، فإذا التزمت المرأة بهذه الشروط بايعهن النبي ﷺ واستغفر لهن الله بالنسبة لما يحدث منهن من تقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين، وكان هذا في بدء الإسلام، والعمل بهذه الشروط قائم إلى قيام الساعة، تلتزم به كل مؤمنة وكل مؤمن، فهو من أحكام الإسلام العامة التي لا تفارق المسلم والمسلمة في كل زمان ومكان.

هذا: وبعد أن فرغ سبحانه وتعالى من ذكر ما يتعلق بامتحان النساء المهاجرات، شرع جل شأنه يفصل بيعة النساء ويبيّن بنودها وآثارها، فقد صح أن عائشة رضي الله عنها أخبرت عروة ؓ أن النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها ﷺ:

قد بايعتُك، كلاماً، ولا والله ما مسّت يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يُبايعهن إلا بقوله «قد بايعتُك على ذلك»<sup>(١)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر: قوله: (قد بايعتُك كلاماً) أي يقول ذلك كلاماً فقط، لا مصافحة باليد، كما جرت به العادة من مصافحة الرجال عند البيعة<sup>(٢)</sup>.

أخرج الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار، فشرط علينا: (أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا، ولا

(١) هذا لفظ البخاري برقم (٧٢١٤، ٥٢٨٨، ٤٨٩١، ٢٧١٣)، وفي مسلم برقم (١٨٦٦)، والترمذي (٣٣٠٦)، وابن ماجه (٢٨٧٥).

(٢) فتح الباري (٤٨٨/٨)، وهو في البخاري (٤١٨٢، ٤٨٩١)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٤٨)، ومسلم (١٨٦٦)، والحديث في مسند أحمد (٢٦٣٢٦) وهو حديث صحيح.



نعصيه في معروف) ثم قال ﷺ: «ولا تغشُشُن أزواجكن» قالت: فبايعناه ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي إلى رسول الله ﷺ فسله ما غش أزواجنا؟ فسأته فقال: «تأخذ ماله فتحابي غيره»<sup>(١)</sup>.

وكانت هذه البيعة بعد أن دخل الناس في الإسلام، واستقرت أحكام الدين وشرائعه، خلال سنوات لم تشهد فيها النساء - سيما اللاتي في مكة - ما شهده الرجال من اتساع التشريع شيئاً فشيئاً.

وقد بايع النبي ﷺ بهذه الآية: النساء المهاجرات اللاتي قَدِمْنَ عليه من مكة، وأجرى هذه البيعة أيضاً على نساء الأنصار، كما قالت أم عطية رضي الله عنها: بايَعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: (أسعدتني فلانة - يعني بالنياحة - أريد أن أجزيها، فما قال لها النبي شيئاً، فانطلقت ورجعت، فبايعها)<sup>(٢)</sup> ومعنى أسعدتني في المناحة أي أن المرأة تقوم معها امرأة أخرى من جاراتها أو قريباتها فتساعدنها على النياحة، وهي مجاملة عندهن ينبغي ردها في زعمهن. وكانت هذه المبايعة قد أُجريت على الرجال قبل النساء، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا، وقرأ آية النساء، فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»<sup>(٣)</sup>.

(١) المسند (٣٧٩/٦) برقم (٢٧١٣٣) قال محققوه: إسناده ضعيف وهو أيضاً برقم (٢٧٣٧٥) مختصراً، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ (٧٥١ و٢٧٥٢) من طريق آخر.

(٢) هذا لفظ البيهقي في السنن (٤/ ٦٢)، وقد أخرجه البخاري برقم (٤٨٩٢)، ومسلم برقم (٩٣٦)، وانظر: مسند أحمد (٢٠٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (١١٥٨٧)، وابن حبان (٣١٤٥)، وأبو داود (٣١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٣٣/٢٥).

(٣) البخاري برقم (٤٨٩٤).

وقوله: وآية النساء، أي الآية النازلة في بيعة النساء.

وقد استمر العمل بهذه المبايعة إلى يوم فتح مكة حيث أسلم أهلها: رجالاً ونساءً، فجلس النبي ﷺ ثاني يوم فتح مكة على جبل الصفا يأخذ البيعة من الرجال على ما في هذه الآية.

ولما فرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا، أثنه النساء وجلس عمر بن الخطاب ؓ في أسفل الجبل يأخذ البيعة من النساء على ذلك ويُبلِّغُهُنَّ عنه ﷺ وكان عدد النسوة اللاتي أُخِذَتْ عليهن البيعة: أربع مئة وسبع وخمسون امرأة<sup>(١)</sup>.

وكان منهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وكبشة بنت رافع.

وهذه البيعة اشتملت على ستة أمور، كانت متفشية في الجاهلية، وكانت هند زوج أبي سفيان متنكرة مع النساء، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فيقتص منها، على شقها بطن حمزة ؓ وإخراجها كبده يوم أحد.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ بالله ورسوله ﴿يَبَايَعَنَّكَ﴾ على ما شرعه الإسلام من أحكام وآداب، ويلتزمُن بأمر الله ونهيه، والمبايعة في الأصل هي المعاوضة.

ومعناها في الآية: أن الناس قد التزموا شرع الله، وقاموا بما كلّفهم به، طمعاً في ثواب الله وخوفاً من عقابه، وقد ضمن لهم الإسلام الجنة، مقابل وفائهم بالعهد، والتزامهم بما في البيعة من شروط وأحكام، فإذا جاءك النساء المؤمنات - أيها الرسول - للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة وهي:

أولاً: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن يُفردن الله بالعبادة، فالشرك أعظم الذنوب، ولا يقبل الله معه عملاً، ولا يُغفر للعبد إذا لقي الله به دون توبة، وكان النبي ﷺ قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد والسمع والطاعة.

(١) زاد المسير (٢٤٦/٨).

وعند ذكر هذا الشرط رفعت (هند) رأسها، وقالت للنبي ﷺ والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وكيف نطمع أن يقبل الله منا شيئاً لم يقبله من الرجال؟ ومن المعلوم أن عدم الشرك بالله تعالى هو البند الأول في الإسلام، وهو أول شرط يؤخذ على الناس قاطبة، الرجال والنساء معاً.

وكون النبي ﷺ قد بايع الرجال على الإسلام والجهاد والسمع والطاعة، فإن الإسلام لا يكون إسلاماً إلا بالتوحيد وعدم الشرك بالله تعالى، والجهاد يناط بالرجال قبل النساء. ولما بايع النبي ﷺ على عدم الشرك بالله تعالى، وضعت فاطمة بنت عتبة يدها على رأسها حياءً، فأعجب النبي ﷺ بما رأى فيها، فقالت عائشة: أقبري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها النبي ﷺ بالآية<sup>(١)</sup>.

ثانياً: ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ أي ويباعنك على عدم ارتكاب فاحشة السرقة، وكانت السرقة في النساء قديماً، أكثر منها في الرجال، وهي كذلك في بعض المجتمعات المعاصرة، ولا يلزم أن تكون السرقة عن طريق السطو المسلح ونحوه، بل للنساء طرق أخرى للسرقة عن طريق الإغراء والإغواء والخداع ونحو ذلك.

ولما قال النبي ﷺ ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ قالت هند: إن أباسفيان، رجل شحيح، وإني أصبث من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ وفي رواية قالت: وهو لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك»<sup>(٢)</sup>.

ولما قالت هند ذلك عرفها النبي ﷺ فضحك، وقال: قد عرفتك، وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعف يا رسول الله عما سلف، عفا الله عنك، فدعاها النبي ﷺ لِمَا

(١) ينظر: المسند (١٥١٥/٦) عن عائشة رضي الله عنها برقم (٢٥١٧٥، ٢٤٨٢٩)، قال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وهو في مصنف عبد الرزاق (٩٨٢٧)، وابن حبان (٤٥٥٤)، وزوائد البزار (٧٠).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (٧١٨٠، ٢٢١١)، وصحيح مسلم برقم (١٧١٤).

عرفها، فأتته واستعادت به أن يمسخها بسوء، فأعازها النبي ﷺ وقبل أوبتها.

ومعنى هذا أن الرجل إذا كان لا ينفق على أهله وولده في الضروات، بحيث لا يكفيهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والتعليم والرعاية الطبية بالمعروف، إن كان يقصر في شيء من هذا، فيجوز أن تأخذ الزوجة بما يكفيها وأولادها فيما ذكرنا، فإن أخذت للتوسع والتبذير أو لتعطي أهلها، أو لتصدق دون علمه، فإنه لا يجوز، فإن فعلت ذلك أثمت وله الأجر.

ثالثاً: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ أي ولا يرتكبن فاحشة الزنى، ولما قال النبي ﷺ ذلك، استنكرت هند من المرأة الحرة المحصنة أن تزني، فقالت: أو تزني الحرة؟ أي إن هذا أمر مستبعد!! قلت: رضي الله عنك يا هند، أو ما علمت أن الزنى سيكون خرية شخصية، تنص عليه موثيق حقوق الإنسان والمؤتمرات الدولية؟

أوما علمت أن الزنى برضا الطرفين لا تُعاقب عليه نُظُم البشر! أوما علمت أن الزنى إذا وقع في الطريق العام، فإن الفاعل يدفع نحو ربع دينار، لا لأنه زنى، ولكن لأنه خدش الحياء العام!

أوما علمت أن بعض الدول الإسلامية تبيح الزنى وتستحلّه، وتمنع تعدد الزوجات.

وبعض الحكام كان يقول: إنه أب لكل طفل وُلد من سفاح!

(أو تزني الحرة)؟ يا لها من كلمة تخرج من فم امرأة أسلمت بالأمس، ولاكت قبل ذلك كبد حمزة - عم رسول الله ﷺ - في فمها، إنها امرأة كانت كافرة أول أمس، ونشأت في بيئة جاهلية، ومع ذلك فهي تستبعد وقوع الزنى من المرأة الحرة!

رابعاً: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وقتل الأولاد، إما أن يكون بالوَأد، الذي كان يفعله أهل الجاهلية بأولادهم خوف الفقر، وبيناتهم خوف العار، وكان بعض الرجال يفعلون ذلك، كما كانت بعض النسوة تضع مولودها إلى جوار حُفرة، فإن كان ولداً أخذته، وإن كانت بنتاً أسقطتها في الحفرة ووارتها التراب! يا سبحان الله!! ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ

قُتِلَتْ ﴿١﴾ [التكوير: ٨، ٩] وقد يكون القتل بالإجهاض، وإسقاط الأجنة، لسبب من الأسباب. وكان (حنظلة بن أبي سفيان) قد قُتِلَ يوم بدر، ومن أجل ذلك فإن أمه هند استأجرت (وحشياً) وكان يجيد الرمي، استأجرت له ليقتل حمزة ؑ يوم أحد، فلما قال النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت هند: ربناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم. وفي رواية أنها قالت: قتلت الآباء وتوطينا بالأبناء؟ وحينئذ ضحك عمر ؓ حتى استلقى، وتبسم النبي ﷺ وقال: «لقد عرفتك، وإنك لهند بنت عتبة».

قال الأعرابي لَمَّا وُلِدَتْ زَوْجَتُهُ بِنْتًا: وَاللَّهِ، مَا هِيَ بِنِعْمِ الْوَلَدِ، بَرُّهَا بِكَاءٍ، وَنَصَرَهَا سَرَقَةً<sup>(١)</sup>.  
خامساً: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ أي ولا تُلْحِقِ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا وَلِدًا ليس منه، والمراد بذلك: الولد اللقيط، وكانت المرأة العقيم، إذا خافت أن يفارقها زوجها لعدم الإنجاب، نفخت بطنها، ثم التقطت مولوداً، وقالت لزوجها: هذا ولدي منك، وشأن الأم إذا وضعت المولود أن يسقط بين يديها ورجليها، والبهتان هو الافتراء على الآخر، أي لا يفترين على غيرهن سواء مع الأزواج أو مع غيرهم، وقد ينفي الرجل عن نفسه ابنه من صلبه، فيكون داخلاً في معنى الآية، على أن ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ ليس شرطاً في البهتان، وإنما هو لبيان واقع المرأة في هذه الحالة، والافتراء هو الكذب الشنيع، ومنه هذه الحالة، ولمَّا سمعت هند ذلك قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

عن أبي هريرة ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحدته ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٦٧/١٣).

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٢٦٣)، وابن ماجه (٢٧٤٣)، والنسائي (٦/١٧٩)، وفي الكبرى (٥٦٧٥)، وفي التحفة (١٢٩٧٢)، وابن حبان (٤١٠٨).

سادساً: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص، وهو قول جامع يشمل كل ما يأمر به الإسلام، أو ينهى عنه وعن الاقتراب منه. ولما سمعتُ هند ذلك قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة.

وكان النبي ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة في العيد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدتُ الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، فكلهم كان يصلوها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأنني أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال: «أنتنَّ على ذلك؟» وقالت امرأة واحدة لم يُجبهه غيرها، نعم يا رسول الله ... قال: «فتصدقن» وبسط بلال ثوبه، فجعلن يُلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال<sup>(١)</sup>.

#### أحاديث في تحريم النياحة:

النياحة: ومما يشمله هذا الحكم: النياحة، ودعوى الجاهلية، وشق الجيوب، ولطم الخدود، فإنها معاصي تختصُّ بها المرأة غالباً:

- ١ - ولذلك فإن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة، ألا ننوح، فما وقت منا امرأة، غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - وقالت أم عطية أيضاً: كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا: ألا ننوح، فقالت امرأة: إن بني فلان أشعدوني، فلا، حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت

(١) البخاري برقم (٤٨٩٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري برقم (٧٢١٥، ١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦).

فبايعت، قالت: فما وقي منهن غيرها وغير أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك<sup>(١)</sup>.  
 قال ابن عاشور: وهذه رخصة خاصة بأم عطية، وبمن سمّتهم، وفي يوم معين<sup>(٢)</sup>.  
 ٣ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول  
 الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقني، ولا  
 تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفتريه بين يديك ورجليك، ولا تتوحي، ولا  
 تبرّجي تبرّج الجاهلية الأولى<sup>(٣)</sup>.

٤ - وفي الحديث عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من ضرب  
 الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»<sup>(٤)</sup>.

٥ - وفي حديث أبي موسى ؓ أن النبي ﷺ بريء من (الصالقة، والحالقة، والشاقة)<sup>(٥)</sup>.

٦ - وعن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ أخذ على النساء حين بايعهن ألا ينخن، فقلن:  
 يا رسول الله، نساء أسعدتنا في الجاهلية، فنسعدهن، فقال رسول الله ﷺ:  
 «لا إسعاد في الإسلام»<sup>(٦)</sup> وهذا الحديث يخص حديث أم عطية السابق.

٧ - وعن مالك الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمي من أمر الجاهلية

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٨٩٢)، وتفسير الطبري (٥٢/٢٨)، والحديث في المسند برقم (٢٠٧٩٦)،

(٢) ٢٧٢٩٨، ٢٧٣٠٧، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد سبق تخريجه بأكثر من هذا في حديثها السابق.

(٣) التحرير والتنوير (١٣/١٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٤٣٧/١١) (٦٨٥٠). قال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وله شاهد من

أميمة بنت رقيقة عن ابن حبان (٤٥٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في مجمع

الزوائد (٦/٣٧)، رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) البخاري برقم (١٢٩٤، ١٢٩٧، ١٢٩٨)، ومسلم برقم (١٠٣).

(٦) البخاري برقم (١٢٩٦)، ومسلم برقم (١٠٤).

(٧) أخرجه النسائي وعبد الرزاق (٦٦٩٠)، وأحمد (١٣٠٣٢) بأطول منه، قال محققو المسند: إسناده صحيح

على شرط الشيخين، ومصنف عبد الرزاق (٦٦٩٠)، وأبو داود (٣٢٢٢)، والترمذي (١٦٠١)، وابن حبان

(٣١٤٦)، وعبد بن حميد (١٢٥٣).

لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة، وعليها سربال من قَطْران، ودرع من جَزَب»<sup>(١)</sup>.

### حكم مصافحة النساء الأجنبات:

١ - عن أميمة بنت رُقَيْقَة، أخت خديجة رضي الله عنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يبأيغنه على الإسلام، فقلن: يا رسول الله، نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ» قالت: فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله، فقال ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولني لمئة امرأة، كقولني لامرأة واحدة»<sup>(٢)</sup>.

لم يوافق النبي ﷺ في البيعة ولا في غيرها امرأة أجنبية، وإنما بايعهن كلاماً، ومن ذلك قوله ﷺ في الحديث السابق «إني لا أصافح النساء».

٢ - وقول عائشة رضي الله عنها (والله ما مسّت يده يد امرأة قط في المبايعة، وما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتكم على ذلك)<sup>(٣)</sup>.

٣ - وقالت أسماء بنت يزيد: كنت في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك نبايعك، فقال عليه السلام: «إني لا أصافح النساء، لكن آخذ عليهن ما آخذ الله عليهن»<sup>(٤)</sup>.

(١) مسند أبي يعلى (١٤٨/٣)، وصحيح مسلم برقم (٩٣٤)، ومسند أحمد (٢٢٩١٢)، وهو حديث صحيح، وابن أبي شيبة (٣/٣٩٠)، والبيهقي في السنن (٤/٦٣)، وانظر في المسند (٢٢٩٠٣) وما بعده.

(٢) الموطأ برقم (٢)، والترمذي برقم (١٥٩٧)، وسنن النسائي (٧/١٤٩) (٤١٩٢)، وابن ماجه برقم (٢٨٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/١٤٥)، وهو في السنن برقم (٢٨٧٤)، وصحيح سنن الترمذي (١٣٠٠)، والمسند (٢٧٠٠٦-٢٧٠١٠)، قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، وابن سعد (٥/٨).

(٣) البخاري برقم (٤٨٩١، ٢٧١٣)، ومسلم (١٨٦٦).

(٤) المحرر الوجيز (٥/٣٠٠).



## شبهات مردودة، وآثار ضعيفة:

- وأما ما ورد من أحاديث تفيد أن المبايعة كانت مصافحة باليد، ومنها:
- ١- حديث أم عطية في قصة المبايعة قالت: فمد عمر يده من خارج البيت، ومددنا أيديهن من داخل، ثم قال « اللهم اشهد»<sup>(١)</sup> فهو حديث ضعيف بقصة عمر.
- ٢- ومن ذلك حديث أم عطية في البخاري وغيره، وفيه: (فقبضت منا امرأة يدها) حين نهاهن عن النياحة، والمراد بقبض اليد: الامتناع عن البيعة بسبب نهى النبي ﷺ عن النياحة، كما هو في الحديث، وليس المراد أنها قبضت يدها من مصافحة النبي ﷺ لها، فليس المراد بسط اليد، والتي قبضت يدها هي أم عطية، أبهمت نفسها أولاً، وتأخرت عن البيعة، ثم جاءت فبايعت<sup>(٢)</sup>.
- ٣- وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عامر هو الشعبي قال: بايع رسول الله ﷺ النساء، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن» فقالت امرأة: تقتلن آباءهم، وتوصينا بأولادهم؟ قال: وكان بعد ذلك إذا جاء النساء يُبايعنه، جمعهنّ فعرض عليهن، فإذا أقرزن رجغن<sup>(٣)</sup> وهذا أثر مرسل، والمرسل ضعيف.
- قال ابن عطية: ورؤي عن الشعبي أيضاً أن النبي ﷺ لَفَّ ثوباً كثيفاً قَطْرِيّاً على يده، وجاء نسوة فلمسن يده كذلك<sup>(٤)</sup>.
- ٤- ورؤي عن الكلبي: أن عمر بن الخطاب ﷺ قدّم يده فلمس نساءً يده، وهو خارج

(١) ينظر الحديث كاملاً في شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (٢/٩٢٨)، وفي المسند (٢٧٣٠٩، ٢٠٧٩٧) قال محققوه: حديث صحيح دون ذكر قصة عمر فيه، وهذا إسناد ضعيف، وتفسير الطبري (٢٨/٥٣)، ومثله عند ابن خزيمة (١٧٢٢)، وابن حبان (٣٠٤١)، والبيهقي في الكبير (١٣٦)، والأوسط (١٥٠٦)، والبيهقي في الشعب (٩٣١٧) وهو حديث ضعيف كما في ضعيف سنن أبي داود (٢٤٥).

(٢) البخاري برقم (٤٨٩٢، ١٣٠٦)، ومسلم في الغنائم (٩٣٦)، والترمذي برقم (٣٣٠٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠٠/٨)، وقد أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد بنحوه (٩٢٥/٨)، وهو أثر مرسل.

(٤) تفسير ابن عطية (٣٠٠/٥).

من بيت، وهُنَّ فيه، بحيث لا يراهن<sup>(١)</sup> وما يروى عن الكلبي غير صحيح.

٥- وذكر النقاش وغيره أن النبي ﷺ بايع النساء على الصفا بمكة، وعمر بن الخطاب يصفحهن وذكر في بيعة نساء الأنصار، أن النبي ﷺ مَدَّ يده من خارج بيت ومدَّ نساء من الأنصار أيديهن من داخله فبايعهن<sup>(٢)</sup>.

٦- وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ورفع النقاش عن ابن عباس، وعن عروة بن مسعود الثقفي: أنه ﷺ غمس يده في إناء فيه ماء، ثم دفعه إلى النساء، فغمسن أيديهن فيه<sup>(٣)</sup>، ولا يصح من هذه الروايات شيء تقوم به حجة.

ومن مجموع هذه الروايات يتبين الآتي:

أولاً: أن النبي ﷺ لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، وهذا الذي تشهد له الأدلة الصحيحة. ثانياً: يُردُّ على أن المبايعة كانت مصافحة باليد من داخل البيت وخارجه، بأنه مروى عن الكلبي، ومعلوم أن ما يروى عنه لا يصح.

وحدث قبض اليد، معناه: الامتناع من البيعة في هذا الوقت، وكان ذلك بسبب رغبة أم عطية في رد الجميل للنائحات بدليل أنها قد جاءت وبايعت بعد ذلك.

ثالثاً: وفي رواية الشعبي أن المبايعة كانت بالمصافحة مع وجود حائل، وهي غير صحيحة لانقطاع السند فيها بين الشعبي وبين النبي ﷺ.

رابعاً: والقول بأن المبايعة كانت بغمس اليد في ماء غمس فيه النبي ﷺ يده، فإن هذه روايات لم تثبت، قال عنها ابن عطية: والذي قدمته - أي من عدم مصافحة النبي ﷺ للنساء الأجنبية مطلقاً - أثبت، بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط<sup>(٤)</sup>.

وفي نهاية آية البيعة يوجه الله تعالى رسوله أن يطلب للمبايعات المغفرة من الله تعالى فيقول: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ عن تقصير صدر منهن وتطيباً لخواطرهن والله تعالى

(١- ٤) تفسير ابن عطية (٢٢٩/٥) بتصرف.

يغفر ذنوب عباده التائبين ويرحمهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة للعاصين، وكثير الإحسان للمذنبين، وقد وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه جميع خلقه.

## عَوْدُ عَلَى بَدْءٍ فِي النَّهْيِ عَنِ مُوَالَاةِ الْأَعْدَاءِ

١٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ

مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

وتختتم السورة بما بدأت به من النهي عن موالاة أعداء الله، ويدخل فيهم دخولاً أولاً: اليهود، فهم كثيراً ما يوصفون بالمغضوب عليهم، وكان من فقراء المسلمين من يوالي اليهود، ويعطونهم أسرار المسلمين، ويتنفعون منهم ببعض الثمار، فنهى الله تعالى عن موالاتهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم الله ورسوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتخذوا من غضب الله عليهم أصدقاء وأحباباً توالونهم من دون المؤمنين، قال الحسن البصري: هم اليهود.

وجاء في أسباب النزول: أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم، وربما أخبروهم عن شيء من أخبار المسلمين، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك<sup>(١)</sup>. والآية عامة بالنسبة لغير المسلمين، ممن عرفوا أن محمداً رسول الله ﷺ فكذبوه ولم يؤمنوا به، ولا يرجون ثواباً في الآخرة، وحالهم كحال الكفار الذين ماتوا على الكفر، فلا مطمع لهم في ثواب الآخرة، لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ﴾ ثواب الله في ﴿الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ وهم المقبورون من الكفار، إذ لا أمل لهم في رحمة الله تعالى يوم لقاءه، عندما يروا حقيقة الأمر، ويعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم في الجنة. والكافر إذا دخل القبر، أيس من رحمة الله، وأيس من العودة إلى الدنيا مرة أخرى، وتبين له فُجْحُ حاله وسوء منقلبه حين يرى مقعده من النار الذي سيصير إليه، ومقعده من

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٠)، والسيوطي (٢٩٦)، وزاد المسير (٢٤٧/٨).

الجنة لو كان مؤمناً، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنَ الرَّحِمِيِّ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: قد يؤسوا من الآخرة، أي: أنهم أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب منهم الإقدام على ما يوجب سخط الله تعالى وعظيم عذابه، كما يؤس منكرو البعث من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى يوم لقائه.

وهذه الآية مؤكدة للآية الأولى في السورة، فإن أعداء الله تعالى مغضوب عليهم، ويأس الكفار الأحياء من رحمة الله، كيأس الكفار الأموات من قيام الساعة، لأنهم لا يؤمنون بها، وينكرون عودتهم إلى الحياة مرة أخرى، ولا يعتقدون ببعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

والكافر إذا مات له قريب أو صديق يقول: هذا آخر العهد به، أي فلا بعث بعد ذلك ولا حياة.

وهذه الآية تجمع أغراض السورة وتوجُّهاتها، ولا يدخل فيها قوله تعالى ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَدَلًا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ فهي ممن استثنى الله سبحانه بالنسبة لمن يدخل من الكفار في الإسلام.

وعليه: فلا يطمع المؤمنون في موالة اليهود والمنافقون، لأنهم لا تربطهم بهم رابطة الإيمان، ولا يدخلون في الرجاء المشار إليه بـ ﴿ عَسَى ﴾ فيأس المؤمنين من إيمان اليهود والمنافقين، كيأس اليهود والمنافقين من قيام الساعة، فلا يطمعوا في الانتفاع منهم بشيء، ولا في معرفة أخبارهم وأسرارهم، ولن تعود موالة المؤمنين لهم إلا بالضرر على المؤمنين في الدنيا والآخرة، والمخبر بذلك هو علام الغيوب.

تم تفسير (سورة الممتحنة) والله الحمد والمنة

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ (٦١)

### مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الصف) هي السورة الحادية والستون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التغابن) وقبل (سورة الفتح). وهي سورة مدنية عند الجمهور، كان نزولها بعد وقعة أحد. وعدد آياتها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد. وهي مئتان وإحدى وعشرون كلمة، وتسع مئة حرف. وتسمى سورة الصف، لوقوع لفظ ﴿صَفًّا﴾ فيها، وهي التسمية المشتهرة من عهد النبوة، وذكر السيوطي والألوسي أنها تسمى أيضاً (سورة الحواريين)، لذكر لفظ الحواريين فيها. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحواريين بالمدينة.

ومما ورد في سبب النزول أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سورة الصف، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>. ومن ذلك ما جاء عن مقاتل: أن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٠٩)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦)، وبنحوه في المسند (٤٥٢/٥) برقم (٢٣٧٨٩، ٢٣٧٨٨) وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والحاكم في المستدرک (٤٨٦/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والدارمي في سننه (٢٠٠/٢) برقم (٢٣٩٠)، قال ابن حجر في الفتح (٤١٩/٨): وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان برقم (١٥٨٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٣٩٠٧)، والسنن (١٥٩/٩).

سَبِيلِهِ صَفًا ﴿٤﴾ الآية: ٤ وأنزل ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَمٍ تُنَجِّكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ الآية: ١٠.

ولما ابتلاهم الله بيوم أخذ ولّوا مدبرين، وكرهوا الموت، وأحبوا الحياة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾<sup>(١)</sup> الآيتان: ٢، ٣.

وقد نزل الأمر بالجهاد في سور أخرى قبل نزوله في هذه السورة.

ويكاد يكون موضوع السورة، هو الجهاد في سبيل الله، فهو الذي تدور حوله أسباب النزول. وقد بدأت السورة بتزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم حذرت المؤمنين من خُلف الوعد، وعدم مطابقة الأقوال للأفعال.

وبعد أن ذكرت السورة جانباً مما قاله موسى ﷺ لقومه، وما قاله عيسى ﷺ لقومه، أتبعث ذلك ببيان ما جُبل عليه الكافرون من تكذيب للحق، ومن كراهية لظهور نور الإيمان. وقد استهدفت السورة أمرين هامين:

الأمر الأول: من أول السورة إلى الآية التاسعة، وفي هذا المقطع إشارة إلى المنهج الإلهي للبشر الذي جاءت به الرسالات الثلاث الرئيسة: اليهودية والنصرانية والإسلام. أما اليهود فقد آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مقاتلة عدوّه، وضيعوا كتاب الله تعالى الذي نزل عليهم..

أما عيسى عليه السلام فهو صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، وقد أرسله الله تعالى ليمهد للرسالة العامة التي تهدي البشر كلهم إلى توحيد الله تعالى، وكان لولادة عيسى عليه السلام على نحو فريد من نوعه، سبب في انتشار رسالته في طول الأرض وعرضها.

وقد انتهت هذه الخطوات إلى استقرار دين الله تعالى في أرضه على يد رسوله الأخير ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْمَقْتَلِ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ الآية: ٩.

أما الأمر الآخر، فهو من الآية العاشرة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتكلم عن القوة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٤٥/١٤).

التي لا بد منها لمساندة الحق ودعمه، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. وقد حفلت السورة بآيات الجهاد في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعَدَّتْ ذلك بعد الإيمان بالله ورسوله، هو التجارة الرباحة التي يتحقق بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وعلى المجاهدين في سبيل الله أن يكونوا يداً واحدة، وصفاً واحداً، ضد عدو الله وعدوهم، وأن يقتدوا في بذل النفس والنفس، لِنُصْرَةِ دين الله تعالى، بالحواريين في نُصْرَتِهِمْ لِنَبِيِّ الله عيسى عليه السلام.

وقد شرع الإسلام الجهاد لتأمين نشر الدعوة، وللمنع الحيلولة بين الناس وبين ظهور دين الإسلام على الديانات التي سبقته ومهدت له في أطوارٍ من تاريخ البشرية، وإقامة منهج الله تعالى في أرضه إلى قيام الساعة، بعد أن انحرف أتباع الرسالات السابقة عن توحيد الله تعالى وزاغت قلوبهم عن الحق..

ولذا: فقد ذكرت السورة مثليين على ذلك هما رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، وكانت رسالة عيسى، امتداداً لرسالة موسى عليهما السلام، وقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، لَمَّا زاغوا وانحرفوا وضلُّوا عن سبيله، ولم يعودوا أمناء على شرع الله تعالى.

وقد جاء عيسى عليه السلام ليصل بين الدين الكتابي الأول، والدين الكتابي الأخير، فيمهد للرسالة الأخيرة ويبشر بها، ويُسَلِّمُ أمانة الوحي الإلهي التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الرسول الذي بشر به، وهو محمد ﷺ.

وقد خُتِمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام حين دعاهم إلى نصرة دين الله، فاستجابوا له ونصروا دينه..

## تَفْسِيرُ السُّورَةِ

### التَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَمْرِهِ بِجِهَادِ الْعَدُوِّ

١- ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

افتتحت سورة الصف بما افتتحت به سورتا الحديد والحشر ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ أي نزه الله تعالى ومجده وقدسه عن كل ما لا يليق بجلاله، كل ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ملك وإنسان ونبات وجماد، فجميع المخلوقات شهدت له بالوحدانية والربوبية، وبأنه صاحب العزة والحكمة، متصف بكل صفات الجلال والكمال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ولا يقهره قاهر، وجميع ما في الكون خاضع لعزته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

وهذا بيان لعظمته تعالى، وأن جميع ما في الكون ومن في الكون يسبح بحمد الله تعالى ويعبده ويسأله حوائجه.

ومن حكمته تعالى أن الكافرين يستحقون القتال، لأنهم شذوا عن مخلوقات الله تعالى، فلم يسبحوا بحمده، ولم يصفوه بصفات الكمال، وإنما جعلوا له شركاء في وحدانيته. فكان هذا مناسبة افتتاح السورة بهذه الآية، لبيان أن الله تعالى لم يأمر بجهاد العدو عبثاً، وأنه تعالى هو الغالب لعدوه، فلا تزهبوا - أيها المسلمون - أعداء الله، ولا تفرّوا منهم عند اللقاء.

وفي الآية تعريض بأن الذين أخلفوا الله ما وعدوه، لم يؤدّوا حق تسبيح الله عليهم، لأنه سبحانه هو المستحق أن يؤقى بعهده، وفيها إرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل وقت.

### دَمٌ مُخَالَفَةَ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ

٢، ٣- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا

(١) وقف البيزي ويعقوب على ﴿لِمَ﴾ بهاء السكت بخلف عنهما، والباقون بدونها، ومعهم البيزي ويعقوب في الوجه الآخر.



## مَا لَا تَقُولُونَ ﴿٣﴾

ثم أنكروا سبحانه وتعالى على من يقول قولاً، أو يعدُّ وعداً ثم لا يفي به، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من آمنتم بالله والرسول حق الإيمان، ناداهم سبحانه بوصف الإيمان، لأن من شأن الإيمان أن يكون وازعاً للعبد من مخالفة القول للعمل، والمنافقون عكس ذلك، فإما من صدقتم بالله، واتبعتم هذي رسوله ﷺ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لِمَ تَعْدُونَ وعداً، أو تقولون قولاً، ولا توفون به؟ لِمَ تقولون الخير وتحثون غيركم عليه ولا تفعلونه؟ لم تنهون غيركم عن الشر وأنتم ملوثون به؟ فهل يليق بالمؤمنين أن يكونوا بهذه الحالة الذميمة؟ إن هذا من أكبر المقت عند الله.

وفي هذا تعريض بالمنافقين الذين يُظهرون الإيمان بأقوالهم، ولا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجوارح.

قال ابن زيد: نزلت في المنافقين، لأن جملةً منهم، كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهروا من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم، وحكمها عام في كل زمان ومكان.

وفي حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث الآخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها...» وذكر منها «إخلاف الوعد»<sup>(٢)</sup>.

وخلف الوعد لا يجوز حتى مع الصبيان ولا مع الدواب:

ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ؓ قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا،

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣)، وصحيح مسلم برقم (٥٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٥٨).

وأنا صبي، قال: فذهبتُ لأخرج لألعب، فقالت أُمِّي: يا عبد الله: تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: تمرًا، فقال: «أما إنك لو لم تفعلني، كُتبتُ عليك كذبة»<sup>(١)</sup>.

ولهذا فإن أحد رجال الحديث امتنع عن أخذ الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثاً، يُعضدُّ بها الروايات الأخرى للحديث، فلما وجد الرجل يَضُمُّ حِجْرَهُ، يُوهَمُ بغلته أن به طعاماً لها، وهو فارغ، فدَلَّسَ عليها حتى أمسكها، فلما رأى ذلك، رجع من حيث أتى، دون أن يسأله في شيء، مادام قد كذب على بغلته! والذي عليه جمهور أهل العلم أنه يجب الوفاء بالوعد سواء ترتب عليه، غُرم للموعد أم لا<sup>(٢)</sup>.

### في سبب النزول:

وهذه الآية كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ؓ: أن ناساً من المؤمنين سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ليعملوا به، فلما نزل الجهاد كرهوه وشق عليهم<sup>(٣)</sup>. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في نفر من الأنصار، منهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس لهم: لو نعلم أي عمل أحب إلى الله تعالى لعملناه حتى نموت، فأنزل الله هذا فيهم، فقال ابن رواحة: لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيداً<sup>(٤)</sup>. ثم صرح سبحانه بالمعنى المراد، وشدد النكير على من يخالف قوله فعله فقال:

(١) المسند (٤٤٧/٣) برقم (١٥٧٠٢)، قال محققوه: حسن لغیره، وهذا إسناد ضعيف لإبهام مولی عبد الله بن عامر، وبقية رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عجلان، فقد أخرج له مسلم متابعه، وهو في سنن أبي داود برقم (٤٩٩١)، والبيهقي في السنن (١٠ / ١٩٨)، وفي الشعب (٤٨٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠٥/٨).

(٣) تفسير الطبري (٥٦/٢٨).

(٤) ابن عساکر (٩٠/٢٨).

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أي عظم بغضاً وإثماً ﴿ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ﴾ بألسنتكم ﴿ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ بأعمالكم.

والمقت: أشد الغضب، ومنه نكاح المقت، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢].

قيل لبعض السلف: حدّثنا، فقال: أتأمروني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله <sup>(١)</sup>.

وقد ذم الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون هنا، وفي قوله تعالى عن بني إسرائيل

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي قول شعيب عليه السلام إلى قومه: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ ﴾

[هود: ٨٨].

## الثبات في مواجهة العدو

٤ - ﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُيُوتًا مَرْمُوضًا ﴾ [٤]

بين جل شأنه في هذه الآية الوعد، الذي أخلفه من سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، وذلك أنهم لما ذكروا أن الجهاد يشق عليهم، أنكر الله عليهم ذلك، وأثنى على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتون في مواجهة عدوهم ثباتاً لا يضطرب ولا يتزلزل، وأكد سبحانه محبته للمقاتلين في سبيله، ومحبة الله تعالى تظهر على عباده في نصره لهم وكرامته إياهم.

والجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو أعلى ما يحبه الله تعالى من عباده، قال تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا ﴾ أي أن الله تعالى يحب المجاهدين الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفاً واحداً، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو، فيكون

(١) من تفسير النسفي للآية.

أمرهم واحداً، وكلمتهم واحدة، يوالي بعضهم بعضاً ﴿كَأَنَّهُمْ بَتِينٌ مَّرْصُوسٌ﴾ قد رُصَّ بعضه ببعض، وأُلصق بعضه ببعض، حتى صار شيئاً واحداً، فثبتت كل منهم في جهاده، ويلزم مكانه وموقعه الذي تتطلبه ظروف المعركة، كثبوت البناء ولزومه.

وفي هذه الآية حث من الله تعالى لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يثبتون ويصفون في مواجهة العدو حتى يحصل لهم المراد، فيفوزوا بنصر الله عز وجل، وقد نزلت هذه الآية جواباً لمن سألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فكان الجواب هو الجهاد في سبيله.

### كلمات في الجهاد:

وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين، كيف يكونون عند قتال عدوهم قوة واحدة، وكلمة واحدة، وقد كان النبي ﷺ يحدّد مواقع الجيش وتقسيماته، من اليمين والميسرة والأجنحة، والألوية، كما وضع الرماة في غزوة أحد لحماية ظهر الجيش، حتى لا يلتف العدو به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وفي غزوة بدر أخذ ﷺ يرُصّ الصفوف ويسويها بقضيب في يده، وقد غير موقع الجيش من مكان إلى مكان نزولاً على رأي أحد أفراد الجيش (الحباب بن المنذر) لأنه الأصلح، وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»<sup>(١)</sup>.

وفي سورة الأنفال يتن سبحانه أن من أهم عوامل النصر على العدو ستة أمور هي: الثبات عند اللقاء، وذكر الله تعالى، والطاعة، والامثال، وعدم التنازع وعدم الاختلاف، والصبر والمجالدة، وعدم الإعجاب بالنفس، فالمجاهدون يحملون على العدو حملة

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٥)، وابن أبي شيبة (٢١ / ١١)، وأحمد في المسند (١٩٢٤) بإسناد صحيح، وانظر: البخاري (٤٨١)، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦، والطبراني في معارج الأخلاق (٨٩).

رجل واحد، وفي هذا يقول تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعِزَّةٌ فَاتَّبُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧].

ويقول سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الَأَذْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وقد ذم الله تعالى من يتمنى الجهاد، فإذا دُعي إليه تكاسل وتخاذل، وذلك في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا نُزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشِيَةِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد: ٢٠].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

ولقد ذم الله تعالى الذين يُعطون العهود على الثبات وعدم الفرار أمام العدو، فإذا حدث القتال لم يوفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الَأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥].

وفي مقابل ذلك فإن الله تعالى امتدح المؤمنين الصادقين في إيمانهم والوفاء بعهودهم فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة يحبهم الله تعالى: وذكر منهم رجلاً غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً، فلقى العدو فقتل»، قال صلى الله عليه وسلم: «وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ مُتْرَضِينَ مَرَضُوصٌ﴾﴾ الحديث <sup>(١)</sup>.

(١) في سنن الترمذي برقم (٢٥٦٨) وقال: هذا حديث صحيح، وفي سنن النسائي الكبرى (١٣١٦)، وانظر: المسند (٢١٣٥٥)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي (٢٥٦٨) وصححه، وابن خزيمة (٢٤٥٦)، والحاكم (٤١٦/١)، وابن حبان (٣٣٤٩) بالفاظ متقاربة.

قال قتادة في معنى الآية: ألم تروا إلى صاحب البناء، كيف لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المسلمين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به<sup>(١)</sup>.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وضدورنا ويقول: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول، وصلوا المناكب بالمناكب، والأقدام بالأقدام، إن الله يحب في الصلاة ما يحب في القتال ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَّرْصُومٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الآيات الثلاث: نرى - أولاً - أن السورة تحدثت في أولها عن لحظات الضعف البشري الطارئ على نفس المؤمن، ليغلم أنه لا بد له من تعاهد النفس بتقوى الله تعالى، لتقوى على مواجهة الصعاب.

ونرى - ثانياً - إغراء الله تعالى لعبده المقاتل في سبيله، بأنه فاز بحب الله تعالى له، وهو غاية ما يتمنى المؤمن.

ونرى - ثالثاً - أن الله تعالى يأمر الفرد في صورة جماعة أن يقاتلوا في سبيله صفا واحدا كالبنيان المرصوص.

وبين سبحانه جزاء من وفى بعهده الذي قطعه على نفسه في شأن الجهاد وغيره، فاستوجب الثناء من الله تعالى والأجر الجزيل، كما بين جزاء من لم يف بعهده ووعدته. فقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وكما مدح الله المؤمنين في قتالهم للعدو، وشبهم في وحدتهم وقوتهم بالبنيان المرصوص، فقد ذم اليهود على عدم ثبات قلوبهم وتفرقها عند القتال فقال تعالى:

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤٤٦/١٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦١٨)، وانظر سنن ابن ماجه (٩٩٧) والنسائي في الكبرى (٨٨٧)، وانظر المسند (١٨٥١٦) وهو حديث صحيح (محققه)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦١١)، وابن حبان (٢١٥٧).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

هذه هي القاعدة العامة بالنسبة للمسلمين في قتالهم اليهود، فإن حدث خلاف ذلك في بعض فترات التاريخ، فهو عرض سيزول، لأنه مخالف للقاعدة. وحماية الحق، ونصرة الدين، يتطلبان الصدق والجد، ولا يصلح لهذا، من كان حريصاً على الحياة، غارقاً في النزوات والشهوات، جباناً، متخاذلاً، إذا دنت ساعة الجهاد وحمي الوطيس، دارت عينه، ولقت رأسه، كالذي يخاف الموت. فأصحاب الأهواء، والمبادئ الهدامة، لا يقهرهم إلا المؤمنون، الذين يستميتون في نصرة الحق، ويبدلون في سبيله النفس والمال، ويتراضون في مواجهة العدو، كلما استشهد بطل حل مكانه بطل آخر.

وفي الآية بيان فضل الجهاد والمجاهدين، وتقرير محبة الله تعالى لعباده المؤمنين إذا كانوا قوة واحدة، ويدا واحدة في مواجهة أعداء الله تعالى، يقاتلونهم في سبيله، فإما النصر وإما الشهادة ﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أي يستشهد أو يتصر، ولا ثالث لهما ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

## تَوْبِيخُ الْيَهُودِ عَلَى إِيْدَائِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ وَخُدْلَانِهِمْ لَهُ

٥- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ آيَاتِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

ويخ الله تعالى في هذه الآية، اليهود الذين آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مواجهة العدو، وأصابهم الجزع والخور، فخذلوا نبيهم، وخرجوا عن تعاليم كتابه، ولم يُطيعوا رسولهم فيما ندبهم إليه من دخول الأرض المقدسة لقتال العماليق، فاستخفوا به وقالوا له ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فحذر الله أمة محمد ﷺ أن يخذلوا نبيهم مثلهم، ولا يطيعوه كما فعل اليهود

مع نبيهم موسى عليه السلام، ومن حق الرسول أن يطاع، ويمثل أمره، ويعظم شأنه. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكر - أيها الرسول - لقومك قصة عبده وكليمه (موسى بن عمران) سليل خليل الرحمن: إبراهيم عليه السلام، من أولي العزم من الرسل، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وقومه، اذكر حين قال لهم ﴿يَقَوْمِ لِمَ تُوذُّونَنِي﴾ والإيذاء المناسب لسياق الآيات: هو أخذ لانهم لنبيهم عن الخروج معه لقتال عدوهم، واستخفافهم به، لَمَّا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن هنا جالسون ننتظر النتيجة! كما جاء ذلك مفصلاً في سورة المائدة.

صور أخرى من إيذاء قوم موسى له:

وهناك ألوان أخرى كثيرة من إيذائهم له:

منها: أنهم وصفوه بأنه ساحر، وأنه مهين ولا يكاد يبين.

ومنها: أنه لما دعاهم إلى طاعته والاستجابة لدعوته قالوا له ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

ومنها: أنهم قالوا عنه: إنه مصاب بمرض في جسده، إما بأفة، أو برص، أو تضخم في الخصية، وهذا اللون من الإيذاء، هو الذي قال الله تعالى عنه في سورة الأحزاب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿٦١﴾.

وكانت هذه التبرئة كما جاء في صحيح البخاري وغيره: أن موسى عليه السلام قد خلع ثيابه يوماً ولم يكن حوله أحد، فوضع ثيابه على حجر واغتسل، فلما فرغ من غسله، وجد أن الحجر قد أخذ ثيابه وذهب بعيداً عنه، فأخذ يبحث عنه، حتى وجدته في مكان، رآه فيه ملاً من بني إسرائيل عُرياناً، أحسن ما خلق الله عز وجل، فبرّاه الله من هذا قولهم، وفي هذا وغيره يقول النبي ﷺ: «رحمة الله على موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»<sup>(١)</sup>. أي أن موسى عليه السلام قد أودى أكثر من إيذاء المشركين للنبي ﷺ فصبر.

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٣٤٠٥)، ومسلم برقم (١٠٦٢).



قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب].

فلعنة الله وغضبه على كل من يسخر أو يستهزئ بالنبي ﷺ في صورة من الصور، سواء في الأفلام كما فعل اليهود، أو بالرسومات الساخرة كما فعل أهل الدنمارك وغيرهم، أو بالهمز واللمز بالنسبة لزوجات النبي ﷺ فضلاً عن سب بعضهن أو اتهامهن بما لا يليق برعاع البشر، بله أهل بيت النبوة!!

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنَّ ﴿التوبة: ٦١﴾﴾ أي يسمع لكل شيء.

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿التوبة: ٦١﴾﴾.

وقد حدث للنبي ﷺ من الإيذاء المذكور في الآية كما حدث لموسى ﷺ وأكثر منه. ومن ذلك أنه ﷺ لما رجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش يوم أحد، وخالف الرماة أمر نبيهم، ففارقوا موقعهم طلباً للغنيمة، فكان الدرس القاسي، وكسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الكريم في هذه الغزوة.

وقد جمع الله تعالى إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ وإيذاء قوم موسى ﷺ له في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴿النساء: ١٥٣﴾﴾.

فكفار قريش طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم آية، وقوم موسى ﷺ طلبوا منه أن يريهم الله جهرة.

### إيذاء قوم موسى له في رسالته:

وأكثر ما يدل عليه أذى قوم موسى له في هذه السورة، يتعلق بخصوص الرسالة، فهو ليس أذى في شخصه، وكان موسى ﷺ يقول لقومه: يا قوم لم تفعلون ما يؤذيني، وأنتم تعلمون قطعاً من المعجزات الباهرات، أني رسول الله إليكم، وأنني صادق تمام الصدق فيما أخبرتكم به من عند الله سبحانه.

ذلكم قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ومع هذا العلم اليقيني بصدق رسالتي إليكم، فقد خالفتم ما جئتكم به، ومثلتم عن طريق الحق، فتمكّن الزيف من قلوبكم ولم تنفكوا عن الضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: عدلوا عن الحق مع علمهم به، وانحرفوا عن طريق الهدى وأصروا على ذلك ﴿أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن قبول الهداية، فأصبحت المواعظ لا تؤثر فيها، عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم، حين آثروا الباطل على الحق، والضلالة عن الهدى ﴿سُوا اللَّهُ فَأَسَنَّهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهكذا فإن الكفر والتكذيب شؤم وهلاك يؤدي إلى شقاء صاحبه:

١ - كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿فَمَا كَانُوا لِلْيَوْمِئَاذِ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

٤ - وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْدَارَهُمْ وَابْصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ أَوْلَٰىٰ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٥ - وقال أيضاً: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

والعكس صحيح، فإن الإيمان يزيد القلب إيماناً وهدى قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ

يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَوَسَّعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ولذلك فإن المؤمن يحرص على هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ

رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

والله تعالى لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته.  
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهم الذين اختاروا طريق الشقاء، وخرجوا عن طاعة الله  
والرسول، وخرجوا عن منهاج الحق والنور.  
قال الفخر الرازي: وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر  
وزيغ القلوب عن الهدى<sup>(١)</sup>.

وهذه الآية تفيد أن إضلال الله للعباد، سببه أنهم أغلقوا على أنفسهم طريق الهداية  
بعد أن عرفوه، فهم الذين اختاروا الزيغ، فلما زاغوا بأنفسهم أزاع الله قلوبهم، فختم  
عليها بعدم قبول الهدى، عقوبة لهم وعدلاً منه بهم، لقد ملؤوا قلوبهم بالفسق، فطبع الله  
على هذه القلوب، فهم الذين ضلوا أنفسهم وظلموها. وكان ذلك مطابقاً لعلم الله عنهم  
قبل وجودهم في هذه الحياة.

## رِسَالَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرْبِطُ مَا بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ  
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي <sup>(٢)</sup> أَسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ <sup>(٣)</sup> مُبِينٌ ﴿٦﴾

ثم تمم الله تعالى مثل موسى مع قومه، بمثل آخر لقوم منهم، خرجوا عن طاعة  
رسولهم، وهم قوم عيسى عليه السلام، فبيّنت الآية أن عيسى ﷺ صاحب رسالة  
محدودة الزمان والمكان، فهو مبعوث إلى خِراف بني إسرائيل الضالة، وهو يربط  
رسالته بالتوراة التي تمردوا عليها، ويعالج أمراضهم النفسية والاجتماعية، ويُمهد لنبوة  
عامة تُهدي البشر كلهم إلى وحدانية الله تعالى.

وبنو إسرائيل، كان يُطلق عليهم في عهد موسى ﷺ أنهم (قوم موسى) وقد اشتهروا

(١) التفسير الكبير (٣١٣/٢٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بفتح ياء الإضافة من ﴿بَعْدِي أَسْمُهُ﴾ والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (ساحر) اسم فاعل والباقون ﴿سِحْرٌ﴾ مصدر.

بعد موسى ببني إسرائيل، ولذلك فإن موسى ﷺ في الآية السابقة خاطب أمته بقوله ﴿يَقُولُوا﴾ وعيسى خاطبهم في هذه الآية بقوله ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقد أرسل عيسى عليه السلام لتأييد شريعة موسى عليه السلام، وتغيير بعض أحكام التوراة تخفيفاً عن بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لست إلهاً، ولا ابناً للإله، ولا أقنوماً من أقانيم الإله، وإنما أنا عبد الله ورسوله، وقد بشرت بي التوراة، فأنا مصدق لما أخبرت به، وفي الوقت نفسه، فأنا مبشر بالرسول النبي الأمي العربي المكي، الذي يأتي من بعدي.

### تصديق عيسى لرسالة موسى عليهما السلام:

فاذكر يا رسولنا لقومك وقت أن قال عيسى ابن مريم لسلالة أبناء يعقوب عليه السلام: إني عبد الله ورسوله إليكم لأُخْرِجْكُمْ من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان، وأنا حلقة اتصال بين صاحب الشريعة السابقة، فأصدقها وأعمل بما فيها، وبين صاحب الرسالة الخاتمة، فأبشِّرْ بها بوضفي آخر رسول قبله، فأنا رسول الله إليكم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي جئتُ بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية مُقَرَّراً ومعترفاً بأحكام التوراة، وبكتب الله جميعاً التي نزلت على رسل الله قبلي، وأنا لن آتيكم بشيء يخالف ما فيها حتى تنفروا عني، ولو كنت مدعياً النبوة لَجِئْتُ بغير ما جاءت به الأنبياء.

وكان قوم موسى يعتقدون أن أحكام التوراة لا تُنسخ، فهم متمسكون بها، ولذا: فقد ابتدأ عيسى دعوته إليهم باستمالتهم لتقريب إجابتهم.

ولم تزد دعوة عيسى عن دعوة سلفه موسى عليهما السلام إلا بما قاله لهم ﴿وَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَعْزِرَاتٍ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولم يأمر الله عيسى في أول الدعوة بنسخ بعض أحكام التوراة.

وهكذا شأن التشريع في الأمم، كما في حديث عائشة رضي الله عنها في البخاري

إنها قالت: (إنما أنزل أول ما أنزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده) <sup>(١)</sup>.

فتصديق ما جاء به موسى عليه السلام هو المهمة الأولى من رسالة عيسى عليه السلام.

### الإعلام المبكر بالرسالة الأخيرة:

أما المهمة الأخرى لرسالة عيسى عليه السلام، فقد جاءت في قوله تعالى على لسانه عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أُمَّهُ أَحْمَدٌ﴾ أي فأنا شاهد بصدق رسول يأتي من بعدي هو محمد ﷺ فقد جئت لأبشر العالم بمقدمه، وأدعو الناس إلى التصديق به، وكل نبي قد بشر قومه بالرسول الخاتم، فعيسى عليه السلام كسائر الأنبياء، أرسله الله ليصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق.

وإنما أفرد عيسى عليه السلام بالبشارة في هذا الموضع، لأنه آخر نبي قبل محمد ﷺ وليبين أن البشارة عمت جميع الأنبياء واحداً واحداً، حتى انتهت إلى عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل.

ومن جهة أخرى فإن بني إسرائيل كانوا يترقبون دائماً من يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، وقد وعدهم أنبياء الله بعد موسى عليه السلام بهذا المخلص، فجاء عيسى عليه السلام ليفاتحهم في أول دعوته بأن من أول اهتماماته: الاعتناء بوصية موسى والأنبياء بعده، فنتبهم على أنه ليس هو المخلص الموعود به، وإنما الذي يخلصهم من تسلط الجبارين عليهم هو الرسول الخاتم الذي يأتي بعده، ويحكم بشرع الله فيهم الذي جاء به محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وهذا لمن آمن به واتبعه.

(١) يُنظر: صحيح البخاري (٤٩٩٣، ٤٨٧٦).

وقد صرح القرآن الكريم بالتعريف بمحمد ﷺ وأصحابه، وذكر أوصافهم في التوراة والإنجيل معاً في آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فوصفهم في التوراة: بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم، وكثرة الركوع والسجود، وتحريهم فضل الله تعالى ورضوانه، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورَةِ﴾.

ثم وصفهم في الإنجيل بزرع ﴿أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].  
فهذا إثبات لرسالة محمد ﷺ في الكتابين معاً.

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، بالإيمان بصاحب الرسالة الأخيرة، والإقرار بذلك، وإبلاغه إلى أممهم، فشهدوا بذلك، وشهد الله تعالى على شهادتهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وفي هذه الآية التي نحن بصددتها: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ﴾ إعداد مبكر للبشر، بقبول هذه الرسالة الأخيرة، الموعود بها على لسان كل رسول، وقد جاءت أوصاف محمد ﷺ وعلاماته في كتبهم، وبهذا كانت دعوة خليل الرحمن ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

عن العرابض بن سارية ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ»<sup>(١)</sup>.

(١) المسند (١٢٧/٤) وفيه سعيد بن سويد، لم يوثقه غير ابن حبان، وقد ورد هذا الحديث من طرق أخرى، منها أيضاً: المسند (١٧١٥١)، ومن طريق خالد بن معدان، وهو من خيار التابعين عند الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وقال محققو المسند (١٧١٥٠، ١٧١٦٣): صحيح لغيره، وأخرجه الطبري في التفسير (٢٠٧١)، والبيهقي في الدلائل (٨٣/١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد، لئن بعثه وهو حيّ ليتبعته، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء، ليتبعته وينصرنه <sup>(١)</sup>.  
وقد وصف الله تعالى بعض صفات محمد ﷺ لنبية موسى عليه السلام في ثنايا إجابة دعائه: حيث قال تعالى ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ولم تزل جميع الأنبياء تنعته ﷺ وتذكره لأممها، وتأمرهم باتباعه ونصره، ومؤازرته عندما يُبعث.

وقد اشتهر ذلك واستفاض على السنة رسل الله جميعاً:

١ - وجاء مصداق ذلك في قصة النجاشي حين هاجر إلى أرضه نحو ثمانين رجلاً من الصحابة، فأرسلت قريش على أثرهم وفداً ليأتي بهم، ووقف الطرفان أمام النجاشي، فسجد له وفد قريش، ولم يسجد وفد النبي ﷺ ولما سُئلوا عن ذلك، قال جعفر بن أبي طالب متحدثاً عن الوفد: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال النجاشي: وما ذاك؟ قال جعفر: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة..

ثم قال عمرو بن العاص ﷺ للنجاشي متحدثاً عن وفد قريش: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم.

قال النجاشي: فما تقولون فيه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، فرفع النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقيسيين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجده في

(١) تفسير ابن كثير (١١٠/٨).

الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيتُه حتى أكون أنا، أحمِل نعليه وأوضئه، وأمر بهدايا وفد قريش فزدت إليهم<sup>(١)</sup>.

٢ - ولما أرسل النبي ﷺ كتابه إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري، يدعوهُ إلى الإسلام، ردّ قائلاً: (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصداقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين)<sup>(٢)</sup>.

٣ - أما المقوقس عظيم مصر، فإنه كان نصرانياً أيضاً، ولم يُسلم، ولكنه أقر في ردّه على النبي ﷺ أنه يعلم أن نبياً قد بقى، وأرسل له جاريتين: مارية، وسيرين، وبغلة، وكسوة، وقد اتخذ النبي ﷺ مارية فولدت له إبراهيم، وأعطى حسان بن ثابت سيرين<sup>(٣)</sup>.

٤ - وكان الجارود ابن العلاء، سيد عبد القيس، نصرانياً، فقدم على النبي ﷺ في عام الوفود مسلماً، وكان مما قال للنبي ﷺ: والله لقد جئت بالحق، ونطقت بالصدق، والذي بعثك بالحق نبياً، لقد وجدتُ وضمفك في الإنجيل، وبشّر بك ابن البتول<sup>(٤)</sup>.

### بشرى الأناجيل برسالة محمد ﷺ:

وعن كعب الأحبار: أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ: يا روح الله، هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبراراً أنقياء، كأنهم في الفقه أنبياء، يرضون من

(١) ينظر: المسند (٤٦١/١) برقم (٤٤٠٠) عن ابن مسعود، وقد ضعّف إسناده محققوه، وحسنه الحافظ في الفتح (٨٩ / ٧) وجوّده ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ٦٩)، وتضعيفه لأن فيه خديج بن معاوية متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٣٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٢ / ٢٩٨)، وهو خبر مستفيض مشتهر.

(٢) فتح الباري (١١٦/٣)، في الأحاديث (٣٨٧٧-٣٨٨١)، وصحيح مسلم في كتاب الجنائز (٢١/٧)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣٣٣/١)، وفي الرحيق المختوم (ص ٣٥٢).

(٣) الإصابة (٢١٦/١)، والاستيعاب (٢٤٧/١)، وينظر: الرحيق المختوم (ص ٣٥٤).

(٤) فتح الباري (١٢٩/١) حديث ٥٣، وصحيح مسلم (١٧٩/١)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٧٥/٢)، وانظر: تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٢٤٣).



الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل<sup>(١)</sup>.

فبشارة عيسى بمحمد عليهما السلام ثابتة ثبوتاً قطعياً، وعندما ننظر في الكتب التي ألفها تلاميذ عيسى من بعده والتي سميت بالإنجيل، نجد أن بعض هذه الإنجيل قد خلّت من هذه البشارة، بسبب ما اعترأها من تحريف وتبديل، على أيدي علماء أهل الكتاب، وبعضها الآخر قد تضمن ذلك تصريحاً أو تلميحاً:

١- ففي إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين يقول عيسى عليه السلام: ولكن الذي يصير إلى المنتهى، فهذا يخلص ويكرز - أي يدعو - ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يكون المنتهى.

والذي يدعو الملكوت - أي العالم كله - في أرجاء المسكونة - أي المعمورة - فيعرض دعوته على العالم أجمع، وتبقى رسالته حتى ينتهي العالم، هو محمد ﷺ.

٢- وجاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب «الله» فيعطيكم فازقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد).  
والفارقليط: كلمة رومية، تعني النبي المبشّر به، رسول الرحمة والحق الذي يدفع الأحران ويخلص من المصائب.

ثم قال: (وأما الفارقليط الروح القدس، الذي سيرسله الأب «الله» باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم).

٣- وفيه أيضاً: (والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل الذي أرسلني، وبهذا كلمتكم، وأنا عندكم).

أي أن هذه المعلومات هي من عند الله تعالى، وليست من عندي، وقد كلم عيسى الناس بهذا وهو في الدنيا.

(١) تفسير الخازن (٤/٢٦٢).

٤- وفي الإصحاح الخامس عشر في إنجيل يوحنا: (ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب «الله» روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي).  
٥- وفي سفر التثنية في الباب الثالث والثلاثين: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستغلن من جبل فاران).

ومجيء الرب من سيناء، يعني إعطائه موسى التوراة، وإشراقه من ساعير يعني إعطاء عيسى الإنجيل، وساعير: اسم لجبال فلسطين، واسم لقرية من قرى الناصرة بين طبرية وعكا، وفاران اسم لجبال مكة، واستعلاؤه منها يعني نزوله القرآن على محمد ﷺ.

٦- وفي إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس عشر: ... لكن أقول لكم الحق، إنه لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم.  
ولفظ (المعزى) معناه: خاتم الأنبياء.

### فريّة صلب عيسى عليه السلام (من إنجيل برنابا):

٧- ومن أعظم البشارات التي فيها التصريح باسم النبي محمد ﷺ ما جاء في إنجيل برنابا، وكانت هذه البشارة في حوار دار بين عيسى عليه السلام، وبين تلميذه برنابا، ومما جاء فيه: (لكنّ بعض الناس لما قالوا في حقي: إنه الله، وابن الله، كره الله هذا القول، واقتضت مشيئته ألا تضحك الشياطين يوم القيامة عليّ، ولا يستهزؤون بي، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا، ويظن كل شخص أنني صُلبت، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله، فإذا جاء في الدنيا يتبه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس).

وكما يتضح من النص، فإن عيسى ينطق بوحدانية الله تعالى، ويبطل قول من قال: إن عيسى هو الله، أو ابن الله، وينطق إنجيل برنابا ببطلان قصة الصلب، ويثبت أن الذي صُلب هو يهوذا الذي دلّ اليهود على مكان عيسى عليه السلام، ويُصرح أخيراً بمجيء

محمد ﷺ بعده نبيا ورسولا<sup>(١)</sup>.

وفيما يزيد من توضيح مسألة الصلب أن عيسى عليه السلام قال: (فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ، وسيبغني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وعليه فإني على يقين، من أن مَنْ يَبِغني يُقتل باسمي، لأن الله سيُصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لمّا يموت شرّ ميتة، أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة<sup>(٢)</sup> وهذا الذي جاء في إنجيل برنابا هو ما قاله القرآن الكريم ﴿وَمَا فَتَلَوْهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَبَّهَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

### بشرى التوراة برسالة محمد ﷺ:

وكما بشر الإنجيل ببعثة النبي ﷺ فإن التوراة بشرت بها قبل ذلك:

١- جاء في حديث مُخَيَّرِيق النَّصْرِي الإسرائيلي، وكان من كبار علماء اليهود: ولمّا كان يوم غزوة أُحُد، وهو يوافق يوم السبت قال: (يا معشر اليهود، والله إنكم لتُعلمون أن نضر محمد عليكم لحق، قالوا: فإن اليوم يوم السبت، قال: (لا سبت) ثم أخذ سلاحه في يوم السبت، وخرج حتى أتى النبي ﷺ في جبل أُحُد، وكان قد أوصى قومه إن قُتل في هذا اليوم، فمأله لمحمد ﷺ يصنع فيه ما أراه الله، وكان لمُخَيَّرِيق حدائق سبع، ونخل كثير ... فقاتل حتى قُتل، فكان ﷺ يقول: مُخَيَّرِيق خير يهود).

وقبض رسول الله أمواله وعقاراته، وكان معظم صدقاته في المدينة منها<sup>(٣)</sup>.

(١) نقله من إنجيل برنابا القس سيل في مقدمة ترجمته للقرآن، ومثله ترجمة الدكتور خليل سعادة، نشر: محمد رشيد رضا، وانظر ثماني عشر بشارة عن كتب البروستانت في كتاب إظهار الحق للعلامة رحمت الله الهندي (١١١٥/٤-١٢١٣).

(٢) من الفصل (١١٢) من ترجمة الدكتور خليل سعادة.

(٣) ينظر: الوفا بأحوال المصطفى (١/١٠٣)، والشفاء للقاضي عياض (١/٣٦٣)، وسيرة ابن هشام (١/٥١٨).

٢- وكان لليهود بيت يتعلمون فيه، يقال له: بيت المدارس، فأتاه النبي ﷺ وقال: (اخرجوا إليّ أعلمكم) فخرج إليه (عبد الله بن سوريا) وهو عالم من أحبارهم، وهو الذي أقرّ بوجود حكم الرجم للزاني المخصن في التوراة، سأله النبي ﷺ بمن أطعمهم المن والسلوى، وظللهم الغمام (أتعلم أنني رسول الله)؟ فقال: اللهم نعم، وإن القوم يعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبتين في التوراة، ولكنهم حسدوك، قال: (فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك، ويُسلموا فأسلم)<sup>(١)</sup>.  
وقد أسلم ابن سوريا بعد ذلك وشهد نبوة محمد ﷺ.

٣- قالت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها - وكان هذا قبل أن تُسلم، ويتزوجها النبي ﷺ وهي بنت حُيَيِّ بن أخطب، زعيم يهود بني النضير - (لما قدم النبي ﷺ المدينة ونزل قباء، ذهب إليه أبي وعمي في وقت الغلس - أول النهار - فلم يزوجا إلا عند غروب الشمس، وأتيا مُتعبين يمشيان الهوينا، فهششتُ لهما، فلم يلتفت إليّ أحد منهما مع ما بهما من الهَمِّ، فسمعتُ عمي يقول لأبي: أهو، هو - أي أهو محمد المبشّر به في التوراة؟- قال: نعم والله، قال: أتثبتّه وتعرفه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته - والله- ما بقيت أبداً)<sup>(٢)</sup>.

ويكفي ما ينطق به القرآن الكريم ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولما سئل عبد الله بن سلام عن هذه الآية قال: إني لأعرف أن محمداً رسول الله، عن طريق الوحي الإلهي القطعي، وهذا أشد من معرفتي لابني، فأنا لا أدري ماذا تفعل النساء؟

(١) الوفا (٩٢/١)، وابن هشام (٥٦٤/١).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٥١٨/١، ٣٣٦/٢)، والوفا (١٠٢/١)، والبداية والنهاية (٣٣٠/٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥٣٣/٢)، وللأصبهاني (٨٩/١) برقم (٣٧).

## من أسماء النبي ﷺ:

أما كون النبي ﷺ اسمه (أحمد) فهذا أحد أسمائه ﷺ بمعنى أنه المحمود كثيرا، والذي يحمده الناس كلهم، فهو ذو ذِكرٍ محمود، وسُنة محمودة، ويعتبه الله يوم القيامة مقاما محمودا، وفي الحديث «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.  
وقد ذُكر النبي ﷺ هنا باسمه (أحمد) وذكر باسمه (محمد) في سور: محمد والفتح والأحزاب.

وذكر رب العالمين عدداً من صفات النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].  
وفي حديث جُبَيْر بن مُطْعِم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»<sup>(٢)</sup>.  
وعن أبي موسى ﷺ قال: سَمَى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفِي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، والملحمة»<sup>(٣)</sup>.  
موقف بني إسرائيل من دعوة محمد ﷺ:

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقاً ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وبما أن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو في الآية (أحمد) ﷺ فيكون المعنى: فلما جاءهم محمد ﷺ بالآيات الواضحات الدالة على صدق دعواه،

(١) المصادر السابقة.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦، ٣٥٣٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤)، والدارمي (٣١٧/٢)، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٩٠)، ومالك مراسلاً (١٠٠٤/٢).

(٣) مسند الطيالسي عن جبير بن مطعم بنحوه برقم: ٤٩٢ قال محققه: حديث صحيح، وهو في صحيح مسلم برقم (٢٣٥٥)، ومسند أحمد (١٩٥٢٥) بإسناد صحيح، وابن أبي شيبة (١١/٤٥٧).

اتهموه بالسحر البين، ولما جاء محمد ﷺ إلى أهل الكتاب، بأوصافه التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ومن العجب أن يقال عن الرسول الذي بشرت به كتبهم وعلم صدقه يقيناً أنه ساحر!! ويصح أن يعود الضمير على عيسى عليه السلام لأنه المتحدّث عنه في الآية، وقد جاء عيسى قومه بالمعجزات الظاهرات على يديه: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، ومع ذلك فقد قالوا عن هذه المعجزات إنها سحر ولم يصدقوه. ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد دعوة محمد ﷺ وقفة العداة والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء، ولم تضع الحرب أوزارها حتى اليوم، فقد قالوا عن الإسلام: إنه سحر مبین، وحاربوه بالدس والوقیعة، بین طوائف المسلمين لتفتيت وحدتهم، وتمزيق صفهم، وحاربوه بالتآمر مع غيرهم، لضرب الإسلام في مقتل، حاربوه بترویح الإشاعات الباطلة على الإسلام للنيل منه، وهي حرب مستمرة.

وهكذا، دأبت الصهيونية العالمية، والصليبية الماكرة على الكيد للإسلام وأهله، في كل جيل من الأجيال: في الحروب الصليبية في المشرق، وفي الأندلس بالمغرب، وقوضوا الخلافة العثمانية في الوسط. وها نحن نعيش عصر الانتفاضة في القدس لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي الذي مضى عليه ستون عاماً.

ونعيش عصر التسلط على حريات الشعوب في منع امتلاكهم قوى حربية ونووية، يدافعون بها عن أنفسهم، فهي تجوز لإسرائيل ولا تجوز لغيرهم. ونعيش عصر استجواب العلماء والحكام في امتلاك ذلك وتصنيعه. ونعيش عصراً يسمى فيه الدفاع عن النفس والدين والوطن، إرهاباً! يا له من عصر انفرد فيه قوم عاد بالقوة المادية والعسكرية. وأن من لم يكن معهم فهو ضدهم،، وسنوا قانوناً للعقوبات لمن يعادون السامية.

أما من يسخرون من سيد الأنبياء والمرسلين فإن هذا من باب حرية الرأي والصحافة يجب حمايتهم والتعطف معهم؟! وفضلاً عن ذلك فقد تجسسوا على أموال الشعوب وحررياتهم، وتدخلوا في شؤونهم الداخلية، وأحلوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم!!

## أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ كَذَّبَ رَسُولَ مُحَمَّدٍ ﷺ

٧- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧)

ولما كانت دعوة عيسى ومحمد، دعوة واحدة، وكان جواب القوم عليهما واحداً، أفرد الله تعالى رسالة محمد ﷺ بالذكر، فشتع جل شأنه على من كذب برسالة محمد ﷺ وبين أنهم أظلم الناس، ولا يوجد من هو أظلم منهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ﴾ أي لا أحد أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وجعل له شركاء في عبادته، ولا أحد أقبح ظلماً ممن يدعو ربه إلى الإسلام، على لسان نبيه ﷺ فيجعل مكان إجابته للدعوة، افتراء الكذب على الله، فيسمى نبيه ساحراً، ويسمى كتابه سحراً. فالمراد بالتكذيب في الآية هو تكذيب دعوة النبي ﷺ وتكذيب رسول الله ﷺ تكذيب لله عز وجل ﷻ:

١ - وهؤلاء قد ظلموا الرسول بقولهم: هو ساحر أو كاهن أو شاعر.

٢ - وظلموا أنفسهم، حيث لم يسلكوا طريق النجاة، وأعرضوا عن النظر الصحيح في صدق نبوة محمد ﷺ.

٣ - وظلموا ربهم حين سمّوا هدى الله وآياته سحراً أو شعراً أو كهانة.

٤ - وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وإخفاء ما جاءت به التوراة والإنجيل من صدق النبي ﷺ.

ولا يزال هؤلاء على ظلمهم مستقيمين عليه، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزرهم عنه برهان، فهم يردون الحق وينصرون الباطل.

فافتراؤهم الكذب على الله تعالى، لأنهم كذبوا رسوله ﷺ وهو يقول لهم: إنه مرسل

من عند الله، وهم يعلمون صدقه كما في كتبهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فقد علم من افتري على الله الكذب، أن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق من عند الله، فكذبه وأعرض عنه.

فلا أحد أعظم ظلماً ممن يكذب محمداً ﷺ ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى﴾ الدخول في ﴿الْإِسْلَامِ﴾ وإخلاص العبادة لله وحده.

لقد عرف المسلم ربه بعقله بعد النظر في الأنفس والآفاق، فإذا كان كتاب محمد ﷺ لا يصلح دليلاً على رسالته، فلن يصح في الأذهان شيء، ولن تصدق رسالة بشر. على أن العقل لا يقبل أن يزعم شخص أنه نبي يدعو الناس إلى الدخول في الإسلام وهو يفترى الكذب على ربه، فما أقبح قولهم!

والله تعالى لا يوفق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والتكذيب إلى ما فيه فلاحهم وسعادتهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهؤلاء الذين كذبوا محمداً ﷺ من جملتهم. وفي الآية بيان أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وأن العقاب قد حل بمن خالفهما، لتحذر أمة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم كما فعل قوم موسى وعيسى مع نبيهما.

## الْمُسْتَقْبَلُ لِلْإِسْلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

٨ - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا<sup>(١)</sup> نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ<sup>(٢)</sup> نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨)

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الفاء من (ليطفئوا) ومثله حمزة عند الوقف، مع جواز إبدال الهمزة ياء وتسهيلها بين بين.

(٢) قرأ ابن كثير وحفص وحمزة والكسائي وخلف بعدم التنوين في ﴿تُمِّمُ﴾ وخفض ﴿نُورِهِ﴾ على الإضافة، والباقون بتنوين ﴿تُمِّمُ﴾ ونصب ﴿نُورِهِ﴾ على أنه مفعول ﴿تُمِّمُ﴾.



وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، يريدون أن يُطلوا الحق بأقوالهم الكاذبة، وهو القرآن الذي بُعث به محمد ﷺ فهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء الكافرون المشركون أن يَقْضُوا على دين الإسلام، وَيَطْمِسُوا شرعه وتعاليمه التي جاء بها هذا القرآن عن طريق أقاويلهم الباطلة الخارجة من أفواههم، وهي أقوال فاسدة يردون بها الحق، دون أن يكون لها مصداق من الوقائع.

وقد شَبَّه حالهم بحال من يَنْفُخ في نور الشمس بفيه ليُطْفِئَهُ. <sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي والله تعالى مظهر دين الإسلام بآتمامه وانتشاره في الآفاق، ولو كره ذلك الجاحدون والمبطلون، أي أن دين الإسلام سوف ينتشر في المشارق والمغارب، وسوف يُعزِّز الله هذا الدين رغم أنف الكافرين، وسوف يذلهم بإظهار ما يكرهون من الحق، وكراهيتهم لا أثر لها.

وإنَّ شيئاً تولى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله، فلا يزال هذا الدين في ازدياد مستمر، حتى يتم المراد بمشيئة الله تعالى.

وهذا بخلاف دين عيسى عليه السلام فقد ناله من القمع والخفت في أول أمره ما ناله، واستمرَّ زماناً طويلاً حتى تنصَّر قُسطنطين سلطان الروم، فانتشرت النصرانية على يديه، بعدما ناله من التحريف والتغيير ما ناله.

وقد أنجز الله وعده، وظهر هذا الدين في العالمين، وإن عرضت له عوارض من آثار تفريط بعض المسلمين في إقامة الدين، وعدم الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية على الوجه المطلوب، فغلبت عليهم أمم، والعاقبة أولاً وآخرًا للإسلام وأهله بمشيئة الله تعالى، جاء في الحديث عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها» <sup>(٢)</sup>. قال تعالى:

(١) التفسير الكبير (٢٩/٣١٤).

(٢) جزء من حديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩).

٩- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم إن محمداً ﷺ لم يأت للناس يدعوهم إلى الله سبحانه من قبيل نفسه، بل إن الله تعالى هو الذي أرسله وحدد له المنهج ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ وهو القرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم يهدي إلى جنة الله ورضوانه ودين الحق الذي يتعبد به العباد لربهم، وهو دين لا نقص فيه ولا خلل ﴿لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي لِيُعْلِي هذا الدين على كل الأديان المخالفة له بالحجة والبرهان والسيف والسنان، ولا بد للقائمين بهذا الدين أن يهتدوا بهديه، ويستنبطوا بنوره، في جميع شؤونهم الدنيوية والدنيوية، وإلا فإن مجرد الانتساب إلى هذا الدين مع التقصير والإهمال لا يفيد شيئاً، وإظهار هذا الدين مع القيام به يكون بإذن الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك.

وفي هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزرها، فمن يقدر على معارضته فليعارض!!

### التَّجَارَةُ الرَّابِحَةُ فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ

١٠- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَحَرُّقِ نَجِيحِكُمْ<sup>(١)</sup> مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

وكما ابتدأت السورة بالحديث عن الجهاد، فقد ختمت بالحديث عن الجهاد أيضاً، بعد أن ضربت له الأمثال، وعتقت من يكذب دين الله، وبينت أنه سبحانه مُعْلِي دينه ومظهره على سائر الأديان، بحيث لا يبقى موضع في الأرض فيه دين غير الإسلام، وهذا يتم عند نزول عيسى عليه السلام كما قال أبوهريرة ومجاهد<sup>(٢)</sup>.

ثم أجاب الله تعالى في هذه الآية، الذين سألوا - في أول السورة - عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فبين جل شأنه أن الحياة الرابحة إيمان وجهاد، وأن شأن المؤمن أن يكون مستعداً في كل وقت وفي كل موطن، لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته، إنه يعيش

(١) قرأ ابن عامر ﴿نَجِيحِكُمْ﴾ بفتح النون وتشديد الجيم، والباقون بإسكان النون وتخفيف الجيم.

(٢) تفسير ابن عطية (٣٠٤/٥).

في الحياة مُضغِي السَّمْع، فإذا بلغته صَيْحَة تدعو إلى الله تعالى هرع إليها، ولَبِي: حي على الجهاد، فيرجع صده، كما يجيب صوت المؤذن، وهو يشق الأجواء داعياً إلى الصلاة والفلاح.

وقد سمى الله تعالى هذا العمل تجارة مع الله سبحانه، لأن المؤمن بالله، المجاهد في سبيل الله، قد ربح رضوان الله تعالى وجنته، وفاز بالنجاة من النار، فإذا كان المشركون والكافرون يريدون أن يطفئوا نور الله، فإن المؤمنين يجاهدون أعداء الله بالنفس والمال. قال عثمان بن مظعون: وددت يا نبي الله أن أعلم، أي التجارات أحب إلى الله تعالى، فأتجر فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يا من صدقوا الله وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا رسوله وعملوا بهديه، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَعْرَفٍ﴾ هل أرشدكم إلى تجارة رابحة جليلة الشأن، وهذه التجارة ﴿تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي إنكم إن زاولتم هذه التجارة وباشرتموها فإنها تنجيكم من عذاب شديد الألم. وفي هذه الآية وصية من الله تعالى لعباده أن يقوموا بأعظم تجارة معه سبحانه عن طريق الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، فإن في هذا، النجاة من النار والفوز بالنعيم المقيم.

وقد فسر سبحانه هذه التجارة ووضحها، فذكر أنها تجمع بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله ببذل النفس والمال. فقال تعالى:

١١ - ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي تداومون مداومة كاملة على الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا نفاق والإيمان التام هو التصديق القلبي الجازم بما أمر الله به، وظهور ذلك على اللسان وسائر الجوارح ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعداء الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لقمع أعداء الله ونصر دينه ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وقدم الجهاد بالمال هنا على الجهاد بالنفس، لأن المقام مقام مربحة ومعاوضة، وبالأموال تُشترى الأسلحة

والمعدات، ويجهّز الجيش.

وقد كان المجاهد قديماً يجهز نفسه بالسلاح والعدة والعتاد واللباس والطعام والشراب. وأصبحت الدولة في الوقت الحاضر هي التي تُعدّ الجندي وتجهزه للقتال، ولكن قد تُعجز الدولة عن هذا لفقرها، وقوّة عدوّها، وحينئذ فلا غنى عن الجهاد بالمال لدعم الأفراد والجماعات المسلمة، ولذا: جاء في الحديث عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»<sup>(١)</sup>.

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألستكم»<sup>(٢)</sup>. وقد يجاهد بالمال من لا يستطيع الجهاد بالنفس.

وحقيقة الجهاد: بذل الجهد والطاقة، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»<sup>(٣)</sup>.

أما المعاوضة في هذه التجارة، فالثمن هو الجنة، وإذا كانت النفس أعزّ ما يملكه الإنسان، فإن الجنة هي أعز ما يهبه الله للإنسان، وأسمى ما تتطلع إليه النفوس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَقْتُلُوهُمْ وَيُقَنِّلُونَهُ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الفخر الرازي: والجهاد ثلاثة أنواع:

١- جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات.

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٩٥)، وصحيح البخاري (٢٨٤٣).

(٢) أبوداود (٢٥٠٤)، والمسند (١٣٦٣٨، ١٢٢٤٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٧٠٨)

وسنن النسائي الكبرى (٤٢٨٩)، وصحيح سنن أبي داود (٢١٨٦)، والحاكم (٨١/٢)، والنسائي (٣٠٩٦)،

(٣١٩٢)، والدارمي (٢٤٣١)، والضياء في المختارة (١٩٠٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٩١٠).

- ٢- وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم.  
 ٣- وجهاد أعداء الله بالنفس والمال نصره لدين الله <sup>(١)</sup>.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي هذا الذي أرشدناكم إليه من التجارة الرباحة خير لكم من مختلف التجارات في الدنيا، وخير من الدنيا وما فيها، فإن في الجهاد النصر على العدو، ودفع الذل عن النفس، وفيه الفوز بالأجر العظيم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الضار من النافع، والخير من الشر، فامتثلوا ذلك، ومن يخالف أمر الله تعالى فليس من أهل الإدراك في شيء، ومن فاتته هذه الصفقة الرباحة، فهو خاسر لا محالة، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ بِمَحْدَرِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وفي الحديث عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في نهاية حديث الطهور شرط الإيمان: «كل الناس يغدوا فباع نفسه فمعتقها أو موبقها» <sup>(٢)</sup>.

فهي تجارة مع الله، إيماناً بالله ورسوله، وجهاداً بالمال والنفس والعمل الصالح، ومن ذا الذي لا يشاق إلى هذه التجارة، وهي أربح تجارة في الدنيا والآخرة.

لقد تمت هذه البيعة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عبد الله بن رواحة، حين قال ابن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال صلى الله عليه وسلم: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قال: فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نقيلاً ولا نستقيلاً <sup>(٣)</sup>.

## جَزَاءُ التَّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، سِتَّةُ أُمُورٍ

١٣، ١٢ - ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ

(١) التفسير الكبير (٣١٦/٢٩).

(٢) حديث صحيح، رجاله ثقات في المسند (٢٢٩٠٢)، وابن أبي شيبة (٦/١)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي

(٣٥١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٨)، وابن ماجه (٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٤)،

والبيهقي في السنن (٤٢/١).

(٣) عبد الرزاق (٢٩٠/٢).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

بين سبحانه وتعالى أن ثمن هذه المبايعة مع الله تعالى للنفس والمال، ستة أمور هي: غفران الذنوب، ودخول الجنات، والقصور العالية فيها، والنصر على العدو، والفتح العاجل، ويشري المؤمنين.

أولاً: قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمركم الله به - أيها المؤمنون - من الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله بالنفس والمال، فإنه يستر عليكم عيوبكم، ويتجاوز عن سيئاتكم، فيزيل ذنوبكم ويبدلها حسنات، وهذه المغفرة تشمل صغائر الذنوب وكبائرها، فإن الجهاد في سبيل الله مكفر لجميع الذنوب إلا حقوق العباد، فقد استثنى النبي ﷺ ذلك حين قال «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين هكذا قال لي جبريل آنفاً».

ثانياً: ﴿وَيَدْخُلُونَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري هذه الأنهار من تحت قصور الجنات وأشجارها في الحدائق والبساتين، والغرف، وهي أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

ثالثاً: ﴿وَسَكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في مساكن عالية، وقصور فخمة، مشتملة على كل ما هو طيب ونافع، فهي مساكن طاهرة زكية في دار إقامة دائمة، لا تحول ولا تزول، وقد جمعت هذه الجنات كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، بعضها من ذهب وبعضها من فضة، وخیامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض منازلها من الزمرد والجواهر، ومن صفاء بناء الجنة أنه يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها ما لا يخطر على قلب أحد من العالمين. وسميت جنة عدن: لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولاً.

وأهل الجنة يتراءون فيها كما يتراءى الكوكب الدرّي في الأفق.

وحُصِّتْ المساكن بالذكر من بين نعيم الجنة: لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم عندما خرجوا للجهاد، ومنهم من استشهد بعيداً عن وطنه وفيها أهله وماله، فوعدهم الله

تعالى في الآخرة بما هو خير منها ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم بين سبحانه أن ما وعد الله به المؤمنين المجاهدين في سبيله من مغفرة الذنوب، ودخول الجنات، وسكنى القصور العالية، هو الفوز الذي ما بعده فوز، فقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إنه السعادة الدائمة التي لا تدانيها سعادة، هذا هو الثواب الأخروي، فماذا عن الثواب الدنيوي لهذه التجارة.

رابعاً: ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ ونعمة أخرى عاجلة في الدنيا سوى ما تقدم، يعطيكم الله إياها، ونفوسكم تتطلع إليها وهي ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ يأتيكم في الدنيا يحصل به العز والفرح إذا قاتلتم في سبيله ونصرتُم دينه، فإن الله تعالى يتكفل بنصركم، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامُكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].  
خامساً: ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ وبالإضافة إلى هذا النصر الموعود به على مدى التاريخ، فقد وعد الله المؤمنين فتحاً قريباً عاجلاً في الدنيا قبل نعيم الآخرة، تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع.

والنصر المذكور في هذه الآية أعده الله للمجاهدين في سبيله، فقد تقدم التحريض عليه في آية الإيمان والجهاد، وهو أيضاً نصر دين الله بالثبات عليه وانتشاره في الآفاق. وهو يشبه نصر الحواريين لدين الله تعالى.

سادساً: ﴿ وَيَسِّرَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم أمر الله رسوله أن يبشر المؤمنين بصفة عامة بالنصر القريب والفتح المبين في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وهذه بشرى عامة لسائر المؤمنين غير المجاهدين في سبيل الله، فقد وعدهم الله بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن لم يبلغوا مبلغ المجاهدين في سبيل الله. ففي الحديث «من رضي بالله رباً

وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»<sup>(١)</sup>.

## حَتُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِدِينِ اللَّهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ

١٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّنَ مَنْ أَنْصَارِي<sup>(٣)</sup> إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بنصر دينه عن طريق الجهاد في سبيله، ووعدهم النصر على عدوهم، أمرهم ثانياً أن ينصروا دين الله تعالى بالثبات عليه، وعدم الاكتراث بما يصيئهم من أذى في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وهذا هو وجه الشبه بنصر الحواريين لدين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإن الحواريين نصرُوا دعوة عيسى عليه السلام بالصبر والمصابرة والثبات، ولم يجاهدوا عدوياً لهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا من صدقتم بالله رباً، وإلهاً معبوداً واحداً، واتبعتم رسول الله ﷺ ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي كونوا أنصاراً لدين الله بإعلاء كلمته ونشر دعوته وبثها في الآفاق بالأقوال والأفعال، وجهاد من حارب الدعوة، ومن نصر الباطل.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّنَ﴾ عندما رأى اليهود يرتابون في دعوته وينصرفون عنه،

(١) رواه مسلم برقم (١٨٨٤، ١١٦)، وسعيد بن منصور (٢٣٠١)، والبيهقي (٢٦١١)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بتنوين (أنصاراً) و (الله) بلام الجر، والباقون بعدم تنوين ﴿أَنْصَارَ﴾ وإضافتها إلى اسم الجلالة (الله) بدون لام الجر.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ والباقون بإسكانها.



فصاح قائلاً لتلاميذه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من يتولى منكم نصري وإعانتني فيما يُقَرَّب إلى الله تعالى؟

وهذا ينطبق على كل مسلم ينصر الحق، ويؤنس وحشته، ويرفع رأيته من أهل الرسالة، ويساهم في قيامها ونشرها وبقائها، ويقوم بواجبه تجاه نصر دين الله تعالى. والمعنى: انصروا دين الله - أيها المسلمون - كما نصر الحواريون دين الله تعالى حين قال لهم عيسى: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ فكونوا كذلك عندما يدعوكم الإسلام إلى نشره في الآفاق، وتحمل الأذى في سبيله، كما فعل الحواريون مع عيسى ﷺ فاستجابوا له وتحملوا الابتلاء في النفس والمال، كما قال تعالى: ﴿لَتَجَلِبُوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وهكذا فقد استجاب الحواريون لدعوة نبيهم عيسى ﷺ ﴿قَالَ الْخَوَارِئُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن على استعداد لبذل أنفسنا وأموالنا في سبيل تبليغ الدعوة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد مضى عيسى عليه السلام، ينفذ أوامر الله تعالى وينصر دينه هو ومن معه من الحواريين.

وحواريُّوا عيسى كأصحاب محمد، والحواري: هو الصاحب الصفي والخَلّ الوفي، وهي كلمة حبشية معرّبة، وقد أُطلق هذا اللفظ على أصحاب عيسى الاثني عشر، وهم أول من آمن به.

وقد سَمَّى النبي ﷺ الزبير بن العوام: حواريُّه، فقال: «لكل نبي حواريُّ والزُّبير حَوَارِيٌّ وابن عمّتي»<sup>(١)</sup> وعمته صفية بنت عبدالمطلب.

(١) من حديث عبدالله بن الزبير في المسند (١٦١١٣) قال محققوه: حديث صحيح، ورواه البزار (٢٥٩٨) زوائد، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٩٢)، وجاء عن علي بإسناد حسن في المسند أيضاً (٦٨٠، ٦٨١) لأن فيه عاصم بن أبي النجود، وأخرجه الترمذي (٣٧٤٤)، وابن أبي شيبة (٩٣ / ١٢)، وابن أبي عاصم (١٣٨٩).

وهذا على التشبيه بحواري عيسى عليه السلام، وكان عيسى ﷺ يرسل هؤلاء الحواريين دعاة إلى الناس في بلاد الشام.

وهكذا كان النبي ﷺ يتلمس في موسم الحج من يبلغ الناس رسالة ربه، فيقول: «من رَجُلٌ يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» فقيض الله له الأوس والخزرج من المدينة فبايعوه وآزروه، واشتروا على أنفسهم أن يمنعوه من الأسود والأحمر، إن هو هاجر إليهم، فوقوا بعهدهم معه، وسماهم الله أنصاراً. عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إلي اثني عشر منكم، يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم»<sup>(١)</sup>.

وعن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم»<sup>(٢)</sup>. قال قتادة: والحواريون - يعني في هذه الأمة - كلهم من قريش: أبوبكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام<sup>(٣)</sup>. ثم إن بني إسرائيل بالنسبة لدعوة عيسى عليه السلام افرقوا على طائفتين: طائفة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند ربه، وطائفة كفرت به وبرسالته.

والطائفة التي آمنت هي التي نصرته دعوته وصبرته وصابرت عليها، والذين استجابوا

(١) سيرة ابن هشام (٩٢/٢)، وطبقات ابن سعد (٢٢٢/١)، وابن إسحاق (٤٤٦/١)، وانظر حديث كعب بن مالك في المسند برقم (١٥٧٩٨) بنحوه في آخره من حديث قوى، إسناده حسن، لأن فيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وهو حديث طويل جداً، أخرجه ابن حبان (٧٠١١)، والطبراني في الكبير (١٧٥/١٩)، والحاكم (٤٤١/٣) مختصراً وغيرهم.

(٢) طبقات ابن سعد (٢٢٢/١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٩٠/٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما قال السيوطي في الدر (٤٥٠/١٤).

لعيسى عليه السلام عدد قليل.

جاء في إنجيل لوقا: أن أتباع عيسى ﷺ كانوا أكثر من سبعين.

ذلكم قوله تعالى ﴿فَأَمَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أن جماعة منهم صدقت بدعوته

واهتدت بهديه.

### طوائف النصارى:

﴿وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ﴾ قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية، وهم الذين قالوا:

عيسى هو الله، والإسرائيلية - الملكانية - وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله، والنسطورية، وهم الذين قالوا بأن عيسى إله، وأمه إله، والله ثالثهما<sup>(١)</sup>. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذلك أنه لما رُفِعَ عيسى عليه السلام تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا: كان الله

فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله، فرفعه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس<sup>(٢)</sup> ...

وجاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى لما أراد أن يرفع عيسى إلى السماء بعد أن تأمر اليهود على قتله وصلبه خرج إلى أصحابه الاثني عشر، وقال لهم: أيكم يُلقَى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم كرر ذلك ثلاث مرات، والشاب يقول: أنا، فقال عيسى: نعم، أنت ذاك، قال: فألقى عليه شبه عيسى، ورفِعَ عيسى من روضة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبهه فقتلوه، وصلبوه، وكفر بعيسى بعضهم بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه، وهم النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، ما شاء الله، ثم

(١) تفسير ابن عطية بتصرف (٣٠٥/٥).

(٢) تفسير الخازن (٢٦٤/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

رفعه إليه، وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ<sup>(١)</sup>.

وكان اليهود قد قتلوا من أتباع عيسى خلق كثير ومثلوا بهم، وألقوهم إلى السباع تفترسهم، وكان ممن قُتل: الحواربي الأكبر، الذي سماه عيسى: بَطْرَس، أي الصخرة في ثباته في الله<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي نصرنا وقويتنا المؤمنين على مَنْ عداهم من فرق النصارى، فأظهرهم الله عليهم ببعثة محمد ﷺ حيث ظهرت كلمة التوحيد، وبطل القول بألوهية عيسى ﷺ وبنوته، وأنه ثالث ثلاثة.

وأظهر الله أيضاً صِدْقَ حُجَّةٍ من آمن بعيسى عليه السلام، فآمن به واهتدى بهديه، وظهر بطلان الفرق الكافرة، وبعد فترة من زَفْعِ عيسى عليه السلام، ارتفع شأن من آمن به، فغلبوا الكافرين من اليهود الذين قتلوا صاحبه حين ألقى عليه الشبه.

وعلى هذا: فإن ظهور من آمن بعيسى، ولم يُدْخَل في دينه انحرافات في العقيدة، على من كفر به من اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً، وعلى من انحرف عن التوحيد إلى القول بالتثليث أو البنوة، يُحتمل أن هذا الظهور كان قبل بعثة محمد ﷺ ويحتمل أنه كان بعد بعثته ﷺ.

والمقصود من ذلك: حض المؤمنين في كل زمان ومكان من أمة محمد ﷺ على التمسك بدينها ونصرتها، وأن يكونوا أنصاراً لله، دعاة لدينه، ينصرهم الله كما نصر مَنْ قبلهم، ويظهرهم على عدوهم، والعاقبة في النهاية للمتقين.

قال إبراهيم النخعي في ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي أصبحت حجة من آمن بعيسى، ظاهرةً بتصديق محمدٍ أن عيسى كلمة الله وروحه<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر هذا المعنى في سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩١)، وتفسير الطبري (٦٠/٢٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٠٣/١٣).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤٥٢/١٤).

وقال ابن كثير: لما بلغ عيسى ابن مريم رسالة ربه: اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة، فجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومنهم من قال: إنه الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى<sup>(١)</sup>.

تم تفسير (سورة الحديد) والله الحمد والمنة

(١) تفسير ابن كثير بتصرف (١١٣/٨).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تفسير سورة الذاريات - مقدمة السورة وأغراضها ومقاطعها الثلاثة	٥
٤-١	خمسة أنواع من القسم على أن القيامة حق، وأن الرسول حق، حديث ابن الكوّاء، اختصاصات القسم في أوائل السور	٨
٩-٥	جواب القسم - القسم على تناقض المكذبين بالوحي والبعث	١٠
١٤-١٠	عقوبة المكذبين بالبعث وبخاتم المرسلين	١٢
١٩-١٥	نعيم المتقين وصفاتهم الخمس: الإحسان، قيام الليل، الاستغفار، بذل المال	١٤
٢١، ٢٠	ثلاثة من براهين التوحيد: الأرض والنفس والسماء	١٥
٢٣، ٢٢	لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها	٢٢
٣٧-٢٤	قصة ضيف إبراهيم والاعتبار بما حدث لقوم لوط	٢٣
٤٠-٣٨	الاعتبار بما حدث لفرعون وجنوده	٢٤
٤٢، ٤١	الاعتبار بما حدث لقوم عاد	٢٢
٤٥-٤٣	الاعتبار بما حدث لقوم ثمود	٢٣
٤٦	الاعتبار بما حدث لقوم نوح	٢٤
٤٧	ثلاثة براهين أخرى على البعث والتوحيد: البرهان الأول: خلق السماء واتساعها	٢٢
٤٨	البرهان الثاني: صلاحية الأرض لمنافع الناس	٢٣
٤٩	البرهان الثالث: خلق نوعين متقابلين من جميع أجناس المخلوقات	٢٤
٥٠	وجوب الفرار من المعصية إلى الطاعة	٢٢
٥١	وجوب الفرار من الشرك إلى التوحيد	٢٣
٥٣، ٥٢	موقف الأقوام من الرسل	٢٤
٥٥، ٥٤	الدعوة إلى الله تعالى لا يعوقها عائق	٢٣
٥٦	العبادة هي الغرض من خلق الجن والإنس	٢٤
٥٧	ثمرة العبادة تعود على الخلق، لا على الخالق	٢٤
٥٨	ثلاثة أوصاف لله رب العالمين	٢٤
٦٠، ٥٩	العبرة المستفادة من هلاك الظالمين	٢٤
	تفسير سورة الطور - مقدمة السورة، أحاديث فيها، ومحاورها - الاستسهامات الخمسة عشر	٥١
٨-١	خمسة أنواع من القسم على أن عذاب الله واقع لا محالة، أحاديث في البيت المعمور	٥٥
١٢-٩	الفناء المؤذن بقيام الساعة	٦٠
١٦-١٣	مشهد عذاب المكذبين وهم يساقون إلى نار جهنم	٦١
١٧	عشرة ألوان من نعيم أهل الجنة	٦٣
١٨	أولاً: إنهم في فرح وسرور بما أعطاهم الله من النعيم - ثانياً: فوزهم بالنجاة من النار	٦٣
١٩	ثالثاً: تهتة أهل الجنة بطعامهم وشرابهم	٦٤
٢٠	رابعاً: هيئة أهل الجنة حال اتكائهم على السرر - خامساً: الحور العين	٦٤

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٢١	سادساً: إلحاق الأدنى درجة في الجنة بالأعلى من الأصول والفروع، أحاديث في معنى الآية	٦٦
٢٢	سابعاً: أهل الجنة يتزودون من اللحوم والفاكهة ما يشتهون	٦٨
٢٣	ثامناً: خمر الآخرة لا تؤثر على العقل ولا على اللسان	٦٩
٢٤	تاسعاً: خدم أهل الجنة غلمان كاللؤلؤ المصون في أصدافه	٧٠
٢٨ - ٢٥	عاشراً: أهل الجنة يتجاوزون أطراف الحديث عما كان في الدنيا	٧٠
٢٩	وجوب المثابرة على الدعوة إلى الله تعالى وإن أُوذي الداعي	٧٢
٣١، ٣٠	فذاائف الحق تدمغ الباطل في استهفامات خمسة عشر: الأول عن ترقب نزول الموت بالداعية	٧٤
٣٢	الثاني عن تسفيه الداعية وإلصاق التهم به - الثالث الطغیان هو الباعث على تكذيب الدعاة	٧٥
٣٤، ٣٣	الاستهفام الرابع: لو كان القرآن كلام بشر، فماذا يمنح البشر من الإتيان بمثله؟	٧٦
٣٥	الاستهفام الخامس: هل خلقت الناس من غير خالق؟ السادس: هل خلق الإنسان نفسه؟	٧٨
٣٦	الاستهفام السابع: هل خلق أحد العالم العلوي أو السفلي؟	٧٩
٣٧	الاستهفام الثامن: هل يملك أحد خزائن الله؟ التاسع: هل يملك أحد قهر الخلق جميعاً؟	٨٠
٣٨	الاستهفام العاشر: هل اطلع أحد على ما قسمه الله لعباده في الملاء الأعلى؟	٨١
٣٩	الاستهفام الحادي عشر: هل اختص الله بالبنات - على حد زعمهم -	٨٢
٤٠	الاستهفام الثاني عشر: هل يطلب الداعية أجراً على تبليغ الدعوة؟	٨٢
٤١	الاستهفام الثالث عشر: هل عند الكفار اطلاع على ما عند الله يخالف دعوة الإسلام؟	٨٣
٤٢	الاستهفام الرابع عشر: هل يريدون المكر بالإسلام؟ فالعاقبة للأصلح	٨٤
٤٣	الاستهفام الخامس عشر: أَلَهُمْ معبود يستحق العبادة غير الله؟	٨٤
٤٤	الكافر لن يؤمن ولو كان الهلاك فوق رأسه والسيف على عنقه	٨٥
٤٦، ٤٥	عليك البلاغ وعلينا الحساب والعقاب	٨٦
٤٧	عذاب الظالمين في الدنيا قبل الآخرة	٨٧
٤٩، ٤٨	التسلح بالصبر والصلاة والتسييح على مشاق تبليغ الدعوة	٨٧
٩٠	تفسير سورة النجم - مقدمة السورة - وأحاديث في سجدة سورة النجم، موضوعات السورة	٩٠
٩٣	قسم الله سبحانه على صدق ما يصدر عن النبي ﷺ من قرآن وسنة	٩٣
٩٧	من صفات جبريل وهو ينزل بالوحي - رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين	٩٧
١٠٣ - ١٦	الرؤية الثانية	١٠٣
١٠٥	ثبات بصر النبي ﷺ عند رؤية الآيات الكبرى	١٠٥
١٠٧ - ٢٢	أشهر أصنام أهل الجاهلية ثمانية	١٠٧
٢٣	عبادة الأصنام في العالم أوهام	١١٢
٢٥، ٢٤	خمس شهادات للمشركين في عبادتهم غير الله تعالى	١١٤
٢٦	للشفاعة عند الله تعالى شرطان	١١٥
٢٨، ٢٧	فرية القول بأنوثة الملائكة	١١٦

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٣٠، ٢٩	وعيد الكفار ووعد المؤمنين	١١٧
٣١	عدالة الجزاء الأخروي	١١٨
٣٢	الكبائر والقواحش والصغائر واللمم، أحاديث وآثار في المعنى، النهى عن تزكية النفس، النهى عن مدح الآخرين تملُّقاً	١١٩ ١٢٤
٣٣ - ٣٥	لا يؤاخذ أحد بذنب غيره	١٢٦
٣٦، ٣٧	الكفر بمحمد ﷺ كفر بجميع الأنبياء	١٢٨
٣٨ - ٤١	عشرة أحكام مما في صحف إبراهيم وموسى ما يتفجع به الميت من عمل غيره وما لا يتفجع به، عشرون دليلاً لابن تيمية، أحاديث في المعنى	١٣٠ ١٣٣
٤٢ - ٤٨	النهى عن التكفير في ذات الله تعالى، بقية ما في صحف إبراهيم وموسى	١٣٨
٤٩	كوكب الشعري	١٤١
٥٥ - ٥٥	الاعتبار بمصارع أربعة من الغابرين وهم أقوام: عاد وثمود ونوح ولوط	١٤٣
٥٦ - ٥٨	إنذار وتخويف قبل قيام الساعة	١٤٥
٥٩ - ٦١	ذم من لم يخشم قلبه بالقرآن في إنكارات أربعة	١٤٧
٦٢	سجود التلاوة في المفصل	١٤٨
١٤٩	تفسير سورة القمر - مقدمة السورة - والأحاديث الواردة في انشقاق القمر، مقاطع السورة الأربع معجزة انشقاق القمر بمنى ليلة أربع عشرة من ذي الحجة سنة خمس قبل الهجرة، الشق الأول من الآية (اقتراب الساعة) الشق الثاني (انشقاق القمر)، هل انشقاق القمر ظاهرة فلكية؟	١٥٣
٢، ٣	موقف المعارضين للدعوة من معجزة انشقاق القمر	١٥٨
٤، ٥	قلوب الجاحدين لا تتأثر بالزواجر والمواعظ	١٥٩
٦ - ٨	سبعة من أهوال يوم القيامة	١٦٠
٩ - ١٧	الاعتبار بما نزل بخمسة أقوام من العذاب أولاً: قصة عذاب قوم نوح، دعوة الرسل إلى أقوامهم	١٦٣
١٨ - ٢٢	ثانياً: قصة عذاب عاد قوم هود	١٧٠
٢٣ - ٢٦	ثالثاً: قصة قوم ثمود مع نبهم صالح عليه السلام	١٧٢
٢٧ - ٣٢	معجزة صالح عليه السلام	١٧٤
٣٣ - ٤٠	رابعاً: قصة عذاب قوم لوط عليه السلام	١٧٧
٤١، ٤٢	خامساً: قصة عذاب فرعون وملته	١٨١
٤٣، ٤٤	كفار اليوم لن يسلموا من مصير كفار الأمم	١٨٢
٤٥، ٤٦	من دلائل النبوة	١٨٣
٤٧، ٤٨	عذاب المجرمين في الدنيا والآخرة	١٨٤
٤٩، ٥٠	كل شيء يحدث في الكون بقُدرة الله، أحاديث في القدر، معاني القدر، نفاذ قدرة الله في خلقه	١٨٥
٥١ - ٥٣	هلاك الأمم سبق به علم الله تعالى	١٩٠
٥٤، ٥٥	مصير المتقين في جنات النعيم	١٩٢



الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٣ - ١	تفسير سورة الرحمن - مقدمة السورة وما ورد فيها من أحاديث، تقسيم السورة إلى أربعة فصول المجموعة الأولى: عشر من منن الله تعالى على خلقه هي (تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان، ورفع السماء، ووضع الميزان، ووضع الأرض للخلق، وما فيها من حب وفاكهة ونخل ورومان) آية الفصل بين كل نعمتين	١٩٤
٢٥ - ١٤	المجموعة الثانية: خمسة أخرى من نعم الله تعالى على خلقه وهي (خلق الإنس والجن والمشرق والمغرب، والماء العذب والملح، واللؤلؤ والمرجان، وجري السفن في البحار)	٢١٤
٢٨ - ٢٦	الله تعالى هو المتفرد بالبقاء بعد فناء العالم	٢٢١
٣٠، ٢٩	افتقار الخلق جميعاً إلى الله وحده	٢٢٣
٣٢، ٣١	لا مقرّ من الحساب والجزاء	٢٢٦
٣٤، ٣٣	لا يمكن لمخلوق أن يخرج من ملك الله تعالى	٢٢٧
٣٦، ٣٥	استحالة الخروج من أي مقفد في الكون	٢٣١
٣٨، ٣٧	انشقاق السماء عند قيام الساعة	٢٣٢
٤٠، ٣٩	يوم الحشر فيه مواقف متعددة، فمن الناس من يسأل ومنهم من لا يسأل	٢٣٣
٤٥ - ٤١	مشهد المجرمين حين يُقذف بهم في النار	٢٣٥
٤٩ - ٤٦	وصف جنتي السابقين وجنتي أهل اليمين بخمسة أوصاف - خمسة أوصاف لجنتي السابقين	٢٣٧
٦٥ - ٦٢ و	خمسة أوصاف لجنتي أهل اليمين، خمسة فوارق بين الجنات الأربع	٢٤٠
٥١، ٥٠	الوصف الأول لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤١
٦٧، ٦٦ و	الوصف الثاني لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٢
٥٣، ٥٢	الوصف الثالث لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٣
٦٩، ٦٨ و	الوصف الرابع لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٤
٥٥، ٥٤	الوصف الخامس لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٤
٦١ - ٥٦	الوصف الخامس لجنتي السابقين وأهل اليمين	٢٤٥
٧٥ - ٧٠ و	ختام نعيم الآخرة بما ختم به نعيم الدنيا - بعض ما ورد في الجنة والحدود العينية من أحاديث	٢٤٩
٧٨	تفسير سورة الواقعة - مقدمة السورة وأغراضها، أصناف الناس يوم القيامة، وتقسيم موضوعاتها	٢٥٣
٦٠ - ١	قيام الساعة وأحوالها	٢٥٩
١٤ - ٧	أصناف الناس يوم القيامة ثلاثة - كلمات فيما أعده الله لأصناف الناس يوم القيامة أولاً: مجمل ما أعده الله للسابقين المقربين بحسب رقم الآية	٢٦٣
	ثانياً: مجمل ما أعده الله لأهل اليمين	٢٦٩
	ثالثاً: مجمل ما أعده الله لأهل الشمال	
	رابعاً: موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين وعذاب أهل الشمال	

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٥ - ٥٦	التعيم الأول وأهل اليمين وما يقابله من عذاب لأهل الشمال	٢٧٣
٤٥ - ٤٧	ثلاثة أسباب لعذاب أهل الشمال هي: الترف، والإصرار على الكبر، وإنكار البعث والحساب	٢٧٧
١٧ - ١٩	التعيم الثاني لأهل الجنة	٢٨٠
٢٠، ٢١	التعيم الثالث لأهل الجنة	٢٨١
٢٢ - ٢٤	التعيم الرابع للمقربين وأهل اليمين	٢٨٤
٥١ - ٥٣	طعام أهل النار وشرابهم	٢٨٧
٢٥، ٢٦	التعيم الخامس لأهل الجنة - أهل الجنة من أمة محمد	٢٨٨
	موازنة بين نعيم السابقين وأهل اليمين	٢٨٩
٥٧	خمسة من دلائل التوحيد على البعث والنشور: الأول: القادر على بدء الخلق أقدر على إعادته	٢٩١
٥٨ - ٦٢	الدليل الثاني: خلق الإنسان من نطفة	٢٩٢
٦٣ - ٦٧	الدليل الثالث: خلق الزرع من البذور - البعث والجزاء يكون للجسد والروح	٢٩٧
٦٨ - ٧٠	الدليل الرابع: إنزال الماء من السحاب	٣٠٢
٧١ - ٧٤	الدليل الخامس: خلق النار من الشجر الأخضر	٣٠٤
٧٥، ٧٦	التنويه بشأن القرآن الكريم	٣٠٦
٧٧ - ٨٠	حكم مسّ المصحف وحمله لغير المتوضيء وللجنب والحائض والنفساء	٣٠٨
٨١، ٨٢	المعارضون يكذبون بالقرآن وما فيه، ومن ذلك نزول المطر بفضل الله تعالى	٣١٢
٨٣ - ٨٧	عجز البشر عن إبقاء الروح في الجسد أو إعادتها إليه	٣١٥
٨٨ - ٩١	الناس بعد البعث على ثلاث مراتب: المقربون وأهل اليمين وأهل الضلال	٣١٦
٩٢ - ٩٦	مصير أهل الضلال	٣١٩
	تفسير سورة الحديد - مقدمة السورة وأغراضها	٣٢٢
١ - ٣	أحد عشرة صفة من صفات الله تعالى في آيات ثلاث: صفتان في الآية الأولى، وأربع في الثانية، وخمس في الثالثة	٣٢٨
	التسييح في فواتح السور - تسييح الكائنات بلسان الحال والمقال	
٤، ٥	ثمانية أدلة على التوحيد في هذه الآية	٣٣٣
٦	وفي هذه الآية دليلان من دلائل التوحيد	٣٣٦
٧	الإيمان وإنفاق المال عنصران لا بد منهما لتجاح الأمة	٣٣٧
٨، ٩	موجبات الإيمان الأربعة	٣٣٩
١٠	موجبات الإنفاق في وجوه الخير، فضل الإنفاق في الجهاد وفي وقت الأزمات	٣٤٢
١١	الحث على النفقة في وجوه الخير	٣٤٦
١٢، ١٣	حال المؤمنين والمنافقين وهم على الصراط، آثار في ذلك	٣٤٩
١٤، ١٥	أربعة أسباب باعدت بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة	٣٥٤
١٦	التحذير من قسوة القلوب، أسباب النزول، آثار في معنى الآية	٣٥٧

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١٨،١٧	إحياء القلوب القاسية بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والإنفاق في وجوه الخير	٣٦١
١٩	ثواب أهل الإيمان وعقاب أهل الكفر - أصناف الخلق	٣٦٣
٢٠	شهوات الدنيا الثمانية ومثلها في سرعة زوالها	٣٦٨
٢١	وجوب المسارعة إلى رضوان الله تعالى	٣٧٣
٢٣، ٢٢	كل ما يحدث في العالم سبق به علم الله تعالى	٣٧٥
٢٤	وصف المختال الفخور	٣٧٩
٢٥	تقوم الدعوة على التعاليم الإلهية والقوة التي تدعمها مادياً ومعنوياً، في الحديد منفتان: البأس الشديد ومنافع للناس	٣٨٠
٢٦	شيخ الرسل وأبوهم	٣٨٥
٢٧	رسالة عيسى ورهبانية النصارى - من مظاهر الرهبانية	٣٨٦
٢٨	أجر من أسلم من أهل الكتاب	٣٩٠
٢٩	لا حرج على فضل الله	٣٩٣
	تفسير سورة المجادلة - مقدمة السورة - موضوعاتها - أسباب النزول	٣٩٥
١	المرأة المجادلة	٤٠٢
٢	ذم الظهار	٤٠٣
٤، ٣	كفارة الظهار	٤٠٥
٦، ٥	سوء عاقبة الخارجين عن الصف الإسلامي	٤٠٨
٧	علم الله تعالى محيط بكل ما في الكون، ما ظهر منه وما خفى	٤١٠
٨	آيات التناجى، أسباب النزول، النهى عن التناجى بالشر، تحية اليهود للنبي ﷺ، أحاديث في المعنى	٤١٢
١٠، ٩	التناجى المحمود والتناجى المذموم	٤١٨
١١	التفسخ في المجالس، أسباب النزول، إنزال الناس منازلهم، الارتفاع عن المجلس لحاجة، فضل العلم والعلماء	٤٢١
١٣، ١٢	تقديم الصدقة عند مناجاة النبي ﷺ بين الرخصة والعزيمة - أسباب النزول	٤٢٨
١٨-١٤	حزب الشيطان من المنافقين واليهود، سبب النزول	٤٣٢
١٩	سبب انغماس المنافقين في النفاق وعقوبتهم	٤٣٧
٢١ - ٢٠	الذلة والهوان لحزب الشيطان والنصر والغلبة لحزب الرحمن	٤٣٨
٢٢	الإيمان ومحبة الله تعالى لا يجتمعان - أسباب النزول	٤٣٩
٤٤١	أربعة أصناف من المحاربين لله ورسوله لا تجوز موالاتهم - خمس مزايا لحزب الرحمن	٤٤١
٤٤٥	تفسير سورة الحشر - مقدمة السورة وأغراضها. قصة بني النضير، سبب تواجد اليهود في المدينة - جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف، تأمر اليهود على قتل النبي ﷺ	٤٤٥
١	التمهيد لإخراج اليهود من المدينة بشكر الله تعالى - جميع الكائنات تسبح بحمد الله للجمادات والحيوانات فهم وإدراك	٤٥٢
٤-٢	إجلاء بني النضير من ضواحي المدينة وسببه - الكيان الصهيوني - الحشر الأول	٤٥٦
٥	إلجاء العدو إلى الاستسلام حقناً للدماء	٤٦٣

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٦	أموال بني النضير خاصة بالنبي ﷺ تنفق بعده في المصالح العامة - تقسيم أموال بني النضير وأدلته	٤٦٥ ٤٦٧
٧	مصارف الفيء العام والغنائم، آيات الفيء والغنائم ليس في الآية دليل على الاشتراكية البائدة، القاعدة الكلية والأصل العام في اتباع الرسول ﷺ، جملة من الأحاديث في وجوب الاتباع	٤٦٩ ٤٧٤
٨	في فضل المهاجرين وأوصافهم الستة	٤٧٧
٩	في فضل الأنصار وأوصافهم الأربعة - أحاديث في فضل الأنصار	٤٧٩
١٠	أمثلة فريدة من إشارات الأنصار - الوقاية من الشح سبب الفلاح التابعون ومن بعدهم	٤٨٥ ٤٨٦
١٢، ١١	من سب الصحابة ليس له حق في الفيء ولا في الخمس - أحاديث وآثار في ذلك	٤٨٨
١٤، ١٣	التحالف الكاذب بين المنافقين واليهود على النيل من الإسلام وأهله	٤٨٩
١٥	من أوصاف المنافقين واليهود في الحروب	٤٩٢
١٧، ١٦	للمنافقين مع بني قينقاع وعد كاذب أيضا	٤٩٥
١٨	إغراء المنافقين لليهود كإغراء للشيطان للإنسان والتخلي عنه	٤٩٧
١٩	تحصيل الزاد ليوم المعاد	٤٩٩
٢٠	التحذير من الإعراض عن دين الله تعالى	٥٠١
٢١	البؤن شاسع بين السعداء والأشقياء	٥٠٢
٢٢	تأثير القرآن على الصم الراسيات، فما بال الإنسان؟ الاستشفاء بهذه الآية -	٥٠٣
٢٤، ٢٣	علم الغيب، والرحمة المطلقة، من خصائص الإله الحق	٥٠٦
	أحد عشر اسماً من أسماء الله تعالى وصفاته في ختام السورة	٥٠٨
	حديث سرد أسماء الله التسع والتسعين ضعيف	٥١٣
	تفسير سورة الممتحنة - مقدمة السورة . موضوعها ونداءاتها . قصة حاطب بن أبي بلتعة	٥١٥
	أسباب النزول، وقفات مع قصة حاطب	
١	النهى عن موالاتة غير المسلمين المحاربين وسببه، هل لليهود حق في فلسطين	٥٢٢
٢	الكشف عن نوايا أعداء الإسلام	٥٢٦
٣	المخالفون في الدين لا تجوز موالاتهم ولو كانوا أقرب الناس	٥٢٧
٥، ٤	الولاء والبراء في الدين سنة أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر	٥٢٩
٦	منع الاستغفار لغير المسلمين، خمس دعوات لإبراهيم ﷺ	٥٣٢
٧	تأسي هذه الأمة بخليل الرحمن في الولاء والبراء وعقيدة التوحيد	٥٣٤
٨	وعد المؤمنين بانقلاب عداوة أقربائهم إلى محبة	٥٣٥
٩	حُسن التعامل مع غير المسلمين المسالمين، سبب النزول	٥٣٧
	العدو غير المسالم من أعداء الدين يعامل بالمثل	٥٣٩